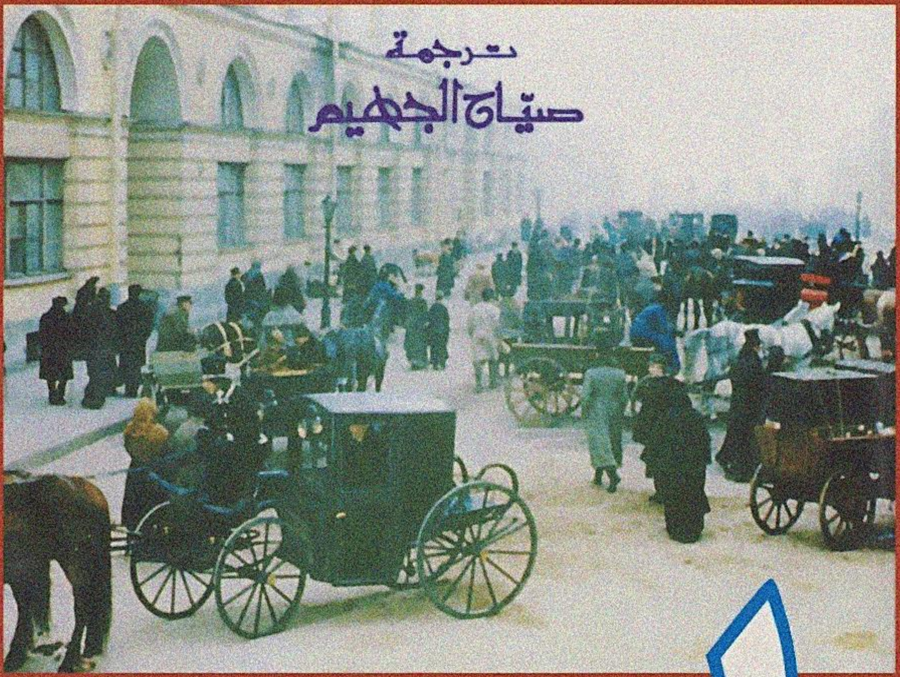
ليون تولستوي

الأعمال الأدبية الكاملة

آنّا كارينين



ترجمة

صياح الجهيم

المجلد الأول

1



آنّا كارينين

دار الفكر اللبناني
للطباعة والنشر والتوزيع
كورنيش بشارة الخوري - بناية تمارا
ص. ب : ٤٦٩٩ أو ١٤/٥٤٩٠
تلفون : ٦٤٤٤١٦ - ٦٣١٠٠٢ - ٦٣١٧٦٠
فاكس : ٦٣٠٧٥٧ - بيروت ، لبنان

الطبعة الأولى ١٩٩٨

مطابع يوسف بيضون
بيروت - هاتف : ٨٣٧٦٦٧ - ٨٣٧٤٤٩ - ٤٦٠٧٤٣

ليون تولستوي

الأعمال الادبية الكاملة

آنّا كارينين

المجلد الأول

ترجمة

صيّاح الجهيم

دارُ الفِكْر اللبْناني
بيروت

مقـدمـة

[١]

طَرأ شيءٌ من التوقف على أعمال تولستوي الأدبية المُبدعة، بعد «الحرب والسلم». وذلك لا يَعْني أن الكاتب يَظلُّ خالياً من العمل؛ على العكس: إنه يقرأُ بكَثْرةٍ، ويَعمل على تأليف «كتب القراءة الأربعة» التي يَعُدّها أعظم الأعمال الأدبية شأناً في حياته. وتتفتقُ في ذهنه مشروعاتُ روايات جديدةٍ. لكنّ صوفيا تولستوي تُدوِّن في ٢٤ شباط ١٨٧٠ ما يلي: «قال لي البارحة مساءً أنْ قد ظَهَر له نموذجُ امرأةٍ متزوجة، من الطبقة الأرستقراطية، ضلّتْ سبيلَها. وقال لي: إن مهمته تنحصر في عَرْض هذه المرأة على أنها جديرةٌ بالعطف وليستْ مذنبةً، وما إن مَثُلَ هذا النموذجُ بين يديه حتى وجَدتْ جميعُ الشخصيات والطباع المذكّرةُ التي ظهرتْ له من قبلُ مكانَها وانتظمتْ من حول هذه المرأة». لكن ذلك لم يكن سوى فكرةٍ عارضة؛ وبدا المشروعُ كأنه لا مُسْتقبل له. وبالفعل، فإن تولستوي، في السنوات الثلاث التي تَلَتْ، يُنجز كتب القراءة الأربعة، ويدفعها إلى الطباعة في ١٨٧٢، وتَشْغل بَاله، قبل كل شيء، فكرةُ كتابة روايةٍ تجري في عهد بطرس الأكبر، رواية يُحرّك فيها جدَّه بطرس تولستوي، تلك الشخصية الملتبسة التي تنتهي حياتها نهايةً جدّ مثيرة. وهو يُحيط نفسه بمجموعة من الوثائق ويقرأ كتبَ التاريخ، ويُعيد كتابةَ البداية نحو عشر مرات، ثم يَعْجز، في نهاية الأمر، عن الانتقال بالخيال إلى عصر العاهل العظيم، السحيق البعد، فيَهْجرُ مشروعَه ليعود إلى المخلوقات التي تُحيط

به، إلى الوسط الاجتماعي الذي يعرفُه حقَّ المعرفة والذي يستطيع أن يَصفَه بوضوحٍ أعظم.

وإذا بحادث فاجع يقع عند جيرانه في الريف، فيردّه إلى المرأة الارستقراطية التي ضلّتْ سبيلها، في نظر المجتمع، من جرّاء الحب. ففي شهر كانون الثاني **١٨٧٢** عمدتْ عشيقةُ ملاّكٍ مجاورٍ لإياسنايا بوليانا، هي آنا بيروغوف، خيَّب الحبُّ آمالها، إلى إلقاء نفسها تحت عجلات قطارٍ لنقل البضاعة. ولا يلبثُ تولستوي الذي أُنذِر بالأمر أن يصلَ إلى المحطة الصغيرة، وهي أقرب محطة نُقلت إليها هذه المسكينةُ، ويتأمل الجثمان طويلاً. وتُدوِّن صوفيا تولستوي: «رآها ليون نيكولايفتش (في مبنى المحطة) عارية الجمجمة، منزوعة الملابس، مقطّعة الأوصال. كان الأثرُ مروّعاً وقد انطبع فيه بعمق».

لكن يجب أن ننتظر سنةً بعذ ذلك لنقرأ بتاريخ **٢٠** آذار **١٨٧٣** هذه الأسطر: «بدأ ليون فجأةً أمسِ روايةً عن الحياة المعاصرة. وموضُوعها خيانةُ امرأةٍ، والفاجعةُ التي جَرَّتها تلك الخيانة». ومنذ هذا اليوم، يدفنُ تولستوي الروايةَ التاريخية ويستغرق في العمل الجديد الذي سيتجاوز كثيراً، كما سنرى، الموضوع الأولي، والذي سيغتني بأغراضٍ جديدة أثناء الخلق.

كان التصميمُ الأولي محدوداً: كان موضوعه يروي قصة امرأة ارستقراطية متزوجة من موظف كبير، عشقت ضابطاً شاباً مَهيبَ الطلعة، وكان هذا العاشق مشؤوماً؛ ذلك أن آنا تترك زوجها، ويحتقرها المجتمع، وتحصل أو لا تحصل على الطلاق (لم يستقر الرأيُ على هذه النقطة). هذا الموضوع الأولي يشهد بالتأثير الكبير «لبوشكين الإلـهي» في تولستوي الذي كان يقرؤه بإعجاب، ولا سيّما من أجل الإيجاز في أسلوبه. فبعد أن أعاد تولستوي قراءَة مقطعٍ للشاعر يبدأ بهذه الكلمات «كان المدّعوون يجتمعون في الدارة»، هَتَف تولستوي: «هكذا ينبغي أن تكون البداية، يجب أن نلجَ الموضوع رأساً». وليُسمَحْ لي بهذه المناسبة أن أصحّح

خطأ ارتكبه «سير جهينكو» كاتبُ سيرة تولستوي الذي روى هذه الواقعة في ١٨٩٨، وأعلن أن مؤلف «آنا كارينين» بدأ كتابه بالجملة الشهيرة: «كان كل شيء مقلوباً رأساً على عقب في منزل آل أوبلونسكي. فقد أشار الأستاذُ «غودزي» في ١٩٣٥، على أثر العمل الذي قام به حول مختلف مخطوطات تولستوي، إلى وجود مشروع أوّل للكتاب يبدأ، في الحقيقة، بالجملة التالية: «كان المدعوّون يجتمعون في منزل الأميرة». وتظهرُ فيه، بالفعل، امرأةٌ من علية القوم واسمُها كارينين تتعرف، رأساً، إلى ضابط شاب اسمه غاغين، (الذي سيُدعى، بعد ذلك بقليل، بالأشوف). العقدة هنا بسيطةٌ جداً، والرواية لا تحيد عن الخطة التقليدية للروائيين للفرنسيين حول الثالوث: الزوج الزوجة والعاشق. وكان مقرَراً ألاَّ تتضمن هذه الروايةُ سوى اثني عشر فصلا ورَدَ منها فصلُ السباقِ، ووضع آنا، وزيادة زوجها، وورد أيضاً في إحدى النسخ فصلُ الطلاق الذي سيُتيح للبطلة أن تتزوج عشيقها، ومن هنا العنوانُ ــ العابرُ ــ الذي حرص عليه تولستوي آنذاك وهو: «زواجان». كانت الرواية إذن نوعاً من الرواية العائلية ذات المرمى البسيكولوجي والقصد الأخلاقي المُثقِّف: لقد أراد المؤلف أن يظهر قوةَ العشق المدمّرة عندما يَدْخل في نزاع مع قانون الزواج المقدس، والواجبات تجاه الزوج والأولاد.

وعندما انتهت المسوّدة. كتب تولستوي إلى صديقه ستراكوف في ٣٠ آذار ١٨٧٣: «إنها رواية حيّةٌ، مثيرةٌ، تامة؛ أنا راضٍ عنها، وستكون جاهزةً في مدى خمسة عشر يوماً، إنْ شاء الله». وطلب إلى ستراكوف أن يتولى تصحيح التجارب المطبعية! وكما نعلم، فلم يَكْفِ تولستوي خمسة عشر يوماً بل كان لا بد له من سنة كاملة لإنجاز القسم الأول وحده الذي طرأتْ عليه تعديلاتٌ هامة، أثناء كتابته. فقد اتّسعَ الإطارُ، وظهرت شخصيّاتٌ جديدة، وفصولٌ جديدة أيضاً. وأُخِّرتْ بدايةُ النص القديم إلى الفصل السادس من القسم الثاني، إلخ. وظهر

الكتاب، آخر الأمر، في نحو ألف صفحة. ونحن نشهد فيه، كما هي الحال في «الحرب والسلم»، نمواً متوازياً لمصير ثلاثة أزواج تجمعها بعض روابط القرابة وهي: آنا كارينين وفرونسكي، في بطرسبرج؛ والزوجان أوبلونسكي، في موسكو؛ وأخيراً كيتي تشرباتزكي وليفين، في موسكو تارة، وفي الريف تارة أخرى.

لقد أُجريتْ كثيرٌ من الأبحاث لاكتشاف الشخصيات الحقيقية التي قد تكون ألهمْتْ تولستوي، ولا سيما في وسطه العائلي. فليس من شك أن ليفين هو مرآةٌ لشخصية المؤلف، أو على الأصح، هو أحد اتجاهات شخصيته، إلى الحد الذي قال فيه أحدُ النقّاد: «إننا لنتساءَل أحياناً أين تنتهي الرواية وأين تبدأ مذكّراتُ تولستوي الحميمة». ومن الواضح أو وَصْفَ نهاية نيقولا المحزنة الذي مات بالسلّ، يُذكِّر بموت أخي الكاتب الذي تُوفِّي في «هيير»، في فرنسا سنة ١٨٦٠. ونحن نعلم، من جهة أخرى، أن نائب حاكم موسكو «بير فيلييف» قد تعرّف نفسه من خلال ملامح الطيّب القلب «ستيڤا أوبلونسكي».

وقد رأينا أيّ نموذج استلهمه المؤلف لرسم صورة آنا كارينين نفسها. لكنّ لعبَة الأحاجي تنتهي هاهنا. فالشخصيّات الأخرى مكوّنةٌ من قسمات استقاها تولستوي من كائنات شتّى وألَّف بينها بفنّه، وعلى طريقته الخاصة: ذلك أن الجوهريّ عنده هو أن يعطي صورة حيّة وأمينةً للمجتمع الذي يتحرك فيه. والواقع أن تولستوي لم يُجِدْ التعبيرَ قط إلاَّ عمّا أحسّ به هو نفسه أو عما عاشه الآخرون تحت بصره.

إن «آنا كارينين» تبدأ إذن، في نصّها النهائي، بمأساة أسرة أوبلونسكي، وهي نظيرُ مأساة آنا: لكن خطيئة ستيڤا، أخي البطلة، تظل خافية على «الناس» ولا تنجم عنها أية فاجعة. ولقد ظهرتْ آنا، ذلك الكائن الذي يفيض سحراً ورشاقةً، أوّلَ ما ظهرت في غمرة النكبة العائلية، وكأنها رسولُ العناية الإلـٰهية الذي جاء من بطرسبرج إلى موسكو ليُوحي بالمغفرة وليُحقّق السلام بين الزوج المتقلب والزوجة؛

المخدوعة في الأغلب. وما أن نُحِّيت هذه المأساة، حتى برزتْ مأساةٌ أخرى أشد خطراً بعواقبها: فعند وصول القطار إلى موسكو لقيتْ آنا «هذا الفتى الطيّب والفاتن» فرونسكي؛ وهو لقاء سيكون شؤماً عليها. فبعد أن أصحلت آنا بين الزوجين «أوبلونسكي»، قصدت إلى الحفلة الراقصة حيث «ستسحر» فرونسكي «بإغرائها الغريب» وستَفْجعُ كيتي التي كانت على وشك الزواج بالفارس الجميل. وعند عودتها بالقطار إلى بطرسبرج ــ القطار الذي دهس رجلاً، وذاك نذير شؤم ــ تبعها فرونسكي الذي يريد أن «يكون حيثما تكنْ»، لأن الهوى قد فَتَنَه كما فتن آنا نفسها، وهو لا يستطيع أن يفعل غير ذلك. إن معنى «الحتمية» البارز أشدّ بروز في «الحرب والسلم» يعود إلى الظهور هنا بلجاجةٍ لا تقلّ عما في الحرب والسلم.

ولا يفوتُنا أن نشير، في طريقنا، أن آنا كارينين، في مشروع الرواية الأول، لا تتألّقُ لا بجمالها ولا بخُلقها، في حين يبدو زوجُها شخصاً قريباً من النفس. لكن وجهيْ الزوجين سيتغيران شيئاً فشيئاً، مع تغيّرات رواية النص نفسه: ستغدو آنا شيئاً فشيئاً أكثر إغراءً وجاذبيةً في حين أن زوجها ينتهي باتخاذه مظهراً منفّراً (أذناه!) وسوف يُصوَّر باعتباره نموذج الموظّف الديواني الجاف، «وهو آلة، وليس إنساناً» كما ستعرّفه آنا نفسَها.

ولم تصمّم آنا على هجر زوجها وابنها لتقيم مع عشيقها إلاَّ بعد صراع نفسي طويل. إنها أعظم صدقاً واستقامة من أن تقبل بوضعها الملتبس، وأعظم حساسية من أن تكبت شعورها الفاجع بدورها كامرأةٍ ينبذُها المجتمع لأنها تصرّفت بصراحة، هذا المجتمع الراقي الذي تنتمي إليه والذي يَغْتفر أشد المواقف زيفاً (أوبلونسكي، بيتسي، العجائب السبع) إذا ظلّت مخبّأةً، وإذا راعتْ القاعدةَ الاجتماعية. إن آنا التي لا تطيق الرياءَ، تكره الكذبَ وتتحدّى المجتمع. بيد أن المجتمع لا يَغْفر لها، ففي المساء الذي قصدتْ فيه المسرح، أشْعرها معارفُها بذلك على نحوٍ قاسٍ. وهكذا فإنها ترى نفسها مَدينةً، دَانها عالمٌ ليس أهلاً

«للحكم عليها». العدلُ الإلـٰهي وحده، يستطيع في عرف تولستوي، أن يُنزل بها عقابه لأنها هجرتْ زوجَها وابنها. وبهذا المعنى ينبغي أن نفهم تلك العبارة المعمّاة التي صدَّر بها روايته. ولقد قرأها تولستوي في نص لشوبنهاور بالألمانية. لكن ينبغي ألا نعطي تلك الجملة المعنى الذي يمكن أن يكون لها في سفر التثنية حيث يتحدّث يهوه عن استئصال جميع أعداء الشعب المختار. بل يجب أن نضعها في منظور بولس الرسول (الرسالة إلى أهل رومية ــ ١٢) حيث قيل: إنه ينبغي ألا نردّ على الشر بالشر، بل أن نعيش بسلام مع الجميع، وأن نحب أعداءَنا وأن نقابل الشرَّ بالخير «لا تنتقموا لأنفسكم، أيها الأحباء، بل أعطوا مكاناً للغضب» لأنه هو الذي يجازي، في الحقيقة. و نحن نجد هنا بذرة تبشير تولستوي المقبل. بحيث أنه ليس لأحد، في المجتمع الفاسد الذي يَسْتحضره تولستوي، حق اتهام آنا أو قبول تحدّيها الذي تلقيه في وجه المجتمع بصدق هواها وتماسك منطقها. فالنزاع العائلي، وهو موضوع الرواية في بداياتها، يتحوّل، كما نرى إلى نزاع بين الفرد والمجتمع.

[٢]

ليس للمجتمع الحق في إتهام آنا: لكن للكاتب، بالمقابل، الحقَّ في إتهام المجتمع. نحن في عصرٍ، في روسيا، يسعى فيه الأدب جهده للكشف عن عيوب النظام الاجتماعي ومفاسده. ويكفي أن نفكّر في «شياطين» دستويفكي وفي كل أعمال سالتيكوف ــ شتيدرين، وسيتحول تولستوي بدوره إلى مُتّهِم للمجتمع المعاصر، لكن بعبارات أكثر اعتدالاً بكثيرٍ من عبارات هذين الكاتبين. والواقع أن المجتمع الروسي الذي يهاجمه هو مجتمع في أوج مرحلة الانتقال والتفكك، مرحلة «انقطعت فيها ــ كما قال بحقِ الشاعرُ نيكراسوف ــ السلسلةُ الكبرى فضربتْ بأحد طرفيها الإقطاعي وبالآخر الفلاح»، فالإقطاعيون يصعبُ عليهم أن

يتكيّفوا مع الشروط الجديدة للعمل الحر، والفلاحون لا يحصلون إلاَّ على القليل من الأرض[(١)] ولا يستطيعون أن يخرجوا من فقرهم. ويجري البحثُ عن طرقٍ جديدة، وصيغٍ جديدة. لكن عادات النظام المحافظ تشتد وطأتُها على الحياة الاجتماعية وتضع العراقيلَ في كل مكان.

حين وسَّع تولستوي إطار روايته مازجاً بها تصوير المجتمع في زمنه وخالقاً لذلك طائفةً من الشخصيات، فقد تصدى لمشكلاتٍ في غاية الخطورة: وقبل كل شيء مشكلة الطلاق الذي يصعب التوفيق بينه وبين مفهوم الزواج الديني الخالص، وهو مفهومٌ يناقض، في الغالب، مقتضيات الحب الحقيقي والحرية الفردية، ثم هناك الإدارةُ العليا التي تتصدَّى لمسائل خطيرة من مثل ري الأقاليم وتوطين السكان المتنقلين، إلخ؛ لكن هذه «الديوانيّة» بعيدةٌ أشد البعد عن الحياة الواقعية حتى إن أفضل المشاريع تغدو، في النهاية، ذريعةً للتنافس الشخصي وللمكائد. كارينين، زوج آنا، مثلاً أليس ديوانياً مندفعاً، دقيقاً، شريفاً؟ لكنّ خصاله هذه تَبْلى مع الزمن في جو «الورقيّات» وتحاسد المكاتب. ستيڤا أوبلونسكي هو أيضاً، من جهته، موظفٌ ممتاز، لكنه متقلّب الطبع، محبّ للمرح، يُثقل نفسه بالدينْ ويْضطر إلى التماس عمل في «لجنة الوكالات المتحدة» وهي في أيدي الرأسماليين الذين لا يتحرّجون من شيء. أما المجتمع الارستقراطي في بطرسبرج فتمثّله الكونتيسة

(١) لا يحصلون إلاَّ على القليل من الأرض: كان في روسيا الأوروبية، بحسب إحصاء ١٨٨٧، ٢٢ مليوناً من الأسر الفلاحية تملك ١٣٨ مليون هكتار، منها ١٥ مليون هكتار ملكية فردية، والباقي منظم في الوحدات الريفية. ويبقى ٦٥ مليون هكتار لـ ١٢٠٠٠٠ أسرة نبيلة، بينما انتقل ٣١ مليون إلى أيدي البرجوازية. أما أراضي الدولة فكانت ١٤٤ مليون هكتار مكوّنة في معظمها من الغابات في منطقة الشمال، ولم يكن في سيبيريا ملكية للنبلاء بل للفلاحين وللدولة فقط. لنشِر أنه في إنكلترا، وفي الفترة نفسها، كان عشرة الآف شخص يملكون ٦٦ ٪ من مجموع الأراضي، أي أكثر من ٥٠٠ أكر لكل شخص.

ليديا، على وجه الخصوص، وهي مسيحيّة كاذبةٌ، تقويّةٌ، مؤمنةٌ إيماناً بليداً باستحضار الأرواح الذي كان شديد الشيوع آنذاك. وهي عديمةُ الإحساس إلى الحدّ الذي منعت فيه كارينين من مطاوعة مشاعره الكريمة: أي مَنح آنا الطلاقَ. وقد نجحت في إقناعه بالإنسياق لِعرافةِ عرّافٍ، مشعوذ فرنسي، وحولها تدورُ طائفةٌ من النساء الارستقراطيات، العاطلات عن العمل، المتعاليات، والثرثارات والخاليات تماماً من الأخلاق، في معظم الأحيان. أما الرجال، الضباطُ فهم، في معظمهم فتيان، طيّبون، يحاولون أن يكونوا لطفاء وشرفاء لكن قانون الشرف عندهم الذي حدّده فرونسكي يُدهشنا مع ذلك: مثلاً، يجب أن يدفع المرءُ ديونَ القمار ولو لغشّاش، لكن ليس مهماً أن يدفع دينَ المتعهد أو الخياط، لا يجوز أن يخدع المرءُ زميلَه، أما الزوج فيجوز أن يخدعه... إلخ... وفرونسكي يخضع لقانون الأخلاق الملتبس هذا، بالرغم من حُسن نيّته. فهو يبني في الريف مستشفى فخماً كلّفه مائة ألف روبل، لكنه يرفض خَفْضَ أجرة المزارعة للفلاحين الفقراء.

أما الطبقةُ النبيلة في المقاطعة فتتألف، في جزء منها، من الرجعيين الذين يأسفون على زمن القنانة، بينما يبدو للكاتب أن الجيلَ الجديد، جيلَ المتحررين، لا يَفْهم حاجات الشعب الحقيقة، ويضيع في المناورات الانتخابية. وأعظم ممثّل لهذه النزعة التحررية هو الإستاذ كوزيتشيف. فهو بالرغم من ذكائه، وفكره وسعة معرفته، يعيشُ بعيداً عن الحياة الواقعية، ويجهل كل شيء عن حياة المقاطعة وحياة الفلاحين. والمؤلَّف الضخم الذي كرّس له ست سنوات من حياته والذي عنوانه «بحث في المبادىء والأشكال الحكومية، في أوروبا وروسيا» والذي يمدح فيه محاسن النظام الدستوري، قد استقبله الناسُ بلا مبالاة. فجُرح المؤلفُ بسبب ذلك، وأحسّ أنه هو نفسه عديمُ الفائدة.

ولقد وصف تولستوي، بضربٍ من السخرية اللاذعة، ومن خلال الكثير من التفاصيل، مجلساً انتخابياً للنبلاء في المقاطعة، «هذه المؤسسة التي انقضى عهدها

والتي لا تعيشُ إلاَّ بقوة التقاليد»، وبالمقابل فلن يتحدث تولستوي عن المجالس المحلية، هذه المؤسّسة الجديدة التي كانت اختصاصاتها موقتة وأهدافها مباشرة أكثر من تلك. ولعل سبب ذلك لأنه عانى بعض الخيبة بهذا الصدد[١]، أو لأنه أخذ يُظهر ميلَه لإدانة جميع وظائف الدولة والإدارة والعدل، ولا سيّما الحرب، تمهيداً لفوضويته الدينية في السياسة. وفضلاً عن ذلك، فهو لا يتعاطف مع السلافيين الجنوبيين في ١٨٧٦. وهو يصوّر سفر المتطوعين الروس إلى بلاد الصرب باعتبارها مغامرةً يقوم بها أفراد فاشلون، لا عمل لهم وهو لا يستطيع أن يوافق على فكرة الحرب العادلة، بعكس دوستويفسكي الذي دافع عنها في السنة نفسها في «يوميات كاتب»[٢].

[٣]

إن هذا النقد لمجتمعٍ يَخْلقُ فيه المالُ هوةً بين الطبقات كان، كما نعلم، سمةً مميّزةً للأدب الأوروبـي في القرن التاسع عشر. ونحن نجد هذا النقد أشدّ قوةً لدى فلوبير، وبلزاك، وزولا بطبيعة الحال، على سبيل المثال. لكننا نستطيعُ القول: إن تولستوي يختلف عن هؤلاء الواصفين الموضوعيين «للملهاة البشرية» بالعنصر الذاتي الذي يُدخله في روايته بل ويمنحه مكاناً عريضاً، وهو ما يجعل الرواية أَحْفلَ بالتأثير وبالحياة. فبواسطة شخصية ليفين يُطلعنا على ردود أفعاله الخاصة أمام مأساة عصره الاجتماعية، ويُشارك في النقد الجاري؛ إنه هو نفسه

(١) في ١٨٦٩ اقترح على المجلس المحلي في منطقته تخصيص ٣٠٠٠٠ روبل للمدارس التي أنشأها هو نفسه؛ لكن هذا المبلغ الجاهز خصص، بناء على اقتراح نائب محافظ، لبناء نصب لكاترين الثانية.

(٢) وهذا هو السببَ الذي من أجله رفض محرر «الرسول الروسي»، «نصير السلافية ميشيل كاتوف الذي مول بسخاء رواية آنا كارينين، أن يطبع في مجلته القسم الأخير من هذه الرواية، حتى إن تولستوي اضطر أن يطبعه على حدة في ١٨٧٧.

مُقْحَمٌ في النزاع والواقع أننا، مع ليفين، بإزاء محاولة للبطل الإيجابـي: الرجل الفاضل، العنيف، الشريف، العاقل، المثقّف، المشغوف بقضايا الحياة الريفيّة، المشمئز من المجتمع الأرستقراطي، وإن لم يقاطعْه. وهو يتمنّى، مثل آنا، أن يحيا باعتباره كائناً حراً، بعيداً عن المواضعات الاجتماعية، وهو أيضاً منجرفٌ وراء حبٍ ملتهب. لكن، هذا الحب نقيٌّ، يفضي إلى زواج سعيد على عكس عشق آنا، الفاجع الذي يفضي إلى الموت تحت وطأة الخيبة. لقد أُشير غيرَ مرةٍ إلى التشابه بين حياة ليفين والحياة التي عاشها تولستوي في «إياسنايا بوليانا»، بدءاً من مشاهد التزلج والصيد والعمل بالمنجل، إلخ. . . إلى حركات نفس هذا الشاب الريفي النبيل التي تُماثل حركات نفس تولستوي. إن ليفين يحسّ، مثل تولستوي، أنه طاعنٌ في السن، وأنه غير جدير بخطيبته المعهودة، ونحن نعلم أن المكاشفة الغرامية الصامتة، التي استَخْدمتْ الحوّارَ لكتابة الأحرف الأولى التي تبدأ بها الكلمات، مأخوذةٌ، من سيرة تولستوي الذاتية، مثلها مثل فصول الاعتراف والزواج الرسمي. والحياة العائلية الجديدة، وولادة الطفل الأول الذي انتظره الزوج طويلاً، ومجيء هذا الطفل وردود أفعال الأب عند مرآه، كل ذلك قد عاشه الكاتبُ نفسه. ومن هنا كثافة هذه الصفحات الفذّة، النابضة بالحياة. وليفين، مثل تولستوي، يستشفّ، وهو يشهد موتَ أخيه، وراءَ هذا السر «ثغرةً في الحياة العادية تكشفُ عن شيء أعلى». وسيعمد الأبُ الشاب بدوره إلى البحث عن تلك الحقيقة العليا، إنه يبحث عن المعنى النهائي، للحياة والموت مثلما يبحث في الوقت نفسه عن اكتمال وجوده، عن حياة سليمة وأخلاقيّة. إنه يبحثُ عن ذلك كله، لكن ليس من السهل عليه أن يعثر عليه. فلن تحمل إليه متعُ اللهو التافهة في المجتمع الراقي ما يبحث عنه؛ ولا ذلك النشاط الإداري الذي اندفع فيه زمناً ثم استقال منه مؤكداً أن «الحكم الذاتي وعدالة السلام غير مجديْين». وفي مجلس النبلاء يبدو كالغريب ولا يفهم شيئاً من المناورات السياسية البارعة التي يباشرها أصدقاؤه. وبالمقابل، فهو يحسُّ أنه أقربَ كثيراً إلى الفلاحين، إلى آغات

ميخايلوفنا، إلى الحاصدين، إلى مرّ بـي النحل، بيد أنه يلاحظ أن هناك حاجزاً يقوم بينه وبين عالم الفلاحين. لا، ليس من السهل عليه أن يجدَ خطاً للسلوك صحيحاً وفعّالاً. إنه يشعر من جانبه، بالظلم الذي ترزح تحته الحياة الاجتماعية من جراء الملكية الكبيرة والتوزيع المتفاوت للخيرات، لكنه لا يحاربه إلاَّ بوسائل غير ناجعة. وهكذا يقترح على الفلاحين أن يتنازل عن نصف دخله ليثير اهتمامهم بإدارة أملاكه التي لا يريد أبداً أن يتخلّى عنها، لأنه يحسُّ أن تعلّقه بها أخذ يزداد منذ أن أسّس أسرةً... يقول تولستوي وهو يتحدّث عن بطله: «عندما كان يحاول قديماً أن يعمل بحيث يُحسنُ إلى الناس جميعاً، إلى الإنسانية، إلى روسيا، إلى قريته، لاحظ أن هذا النوع من الأفكار مُفرح للقلب، لكن النشاط الذي ينجم عنه يظل غير مرضٍ: كان ينقصه اليقين من أنه يصنع عملاً ضرورياً، وكان نشاطه الـذي يبدو، فـي مطلع الأمر، على درجة كبيرة من الإتساع يضيق شيئاً فشيئاً ويتحوّل إلى لا شيء. أما منذ زواجه فقد اكتفى بأن يعيش لنفسه؛ ومع أنه لم يكن يشعر بأي حبور إزاء نشاطه، فقد كان على يقين من أنه يقوم بعمل ضروري يُعطي نتائجَ مرضية أكثر فأكثر. لقد غدا الآن يغوصُ في أعماق الأرض، ضد إرادته إن صح القولُ، كمـا يغوص المحراث فيها، ثم لا يستطيع أن ينتزع نفسه منها إلاَّ بعد أن يُنهي ثلمه». أراد ليفين أن يعيش كما عاش أهلهُ وأجدادهُ، ويحافظ على أرض السلف ليورَثها خلَفه. لكنْ، لم يتسنَّ له، في غمرة مشاغله، أن يتساءَل إن كان «يفعل خيراً أم شراً»، كان يعيش وهو يجهل ما هيّته وعلة وجوده على هذه الأرض. ومع الزمن، عذّبه هذا الجهل حتى إنه كان يفكّر في الانتحار، وهو الزوج المغبوط والملاّك السعيد. وبعد خمس سنوات استطاع مؤلفُ آنا كارينين أن يكتب في اعترافاته: «منذ خمس سنوات، بدأتُ أشعر بأعراض غريبة. كانت تُصيبني لحظاتٌ من الحيرة، من توقّف الحياة، فلا أدري ما أنا فاعلٌ ولا لمَ أنا موجودٌ.

وكان توقف الحياة ذاك يتجسّد في سؤالين: لماذا؟ وماذا بعد ذلك؟ وكأنني قد عشتُ زمناً طويلاً مكتفياً بالحاضر، غير متطلّع إلى المستقبل، وسرتُ إلى الأمام حتى وصلتُ أخيراً إلى شفا هوّة ليس لي بعدها من أمل سوى العدم والهلاك الأبدي. كنتُ أسعى بكل قواي إلى الابتعاد عن الحياة. أنا الذي كان يُعَدُّ أحدَ سعداء هذا العالم، فاجأتُ نفسي وأنا أُبعد عن نظري حبلاً كان يمكن أن أشنقَ نفسي به لو علّقتُه بالجسر الذي يفصل بين خزانتيْ غرفتَي. وكففتُ عن الذهاب إلى الصيد، لأن بندقيتي تيسّر لي سبيل الخلاص من الحياة».

هذه التجربة، عاناها في الوقت الذي كان يكتب فيه آنا كارينين. وما سيُنقذُه من الانتحار هو الإحتكاك بالنفوس البسيطة، بأبناء الشعب الشغيّلة، الاتقياء. كتب حوالي سنة ١٨٧٦: «بعد سنتين من هذه الحياة مع الشعب، حَدثَ فيَّ تحولٌ. إن حياةَ أمثالي من الأغنياء والمتعلمين لم تَبْعثْ فيَّ سوى الاشمئزاز؛ وبدتْ لي أيضاً فارغةً من المعنى. وظهرتْ لي جميعُ أفعالنا، ومشاغلنا الفكرية، وفنوننا، وعلومنا، بمظهر جديد وأدركتُ أنني هنا بإزاء ألعاب المترفين التي لا، يُجدي البحثُ عن أي معنى لها. فأخذتُ أستفظعُ نفسي وأقفُ على الحقيقة. «حينذاك استطعت أن أرى الأشياء جميعاً بوضوح».

[٤]

هذه الحقيقة التي بحث عنها الكاتب بعناد، قد وجدها ليفين بدوره في كلمات الفلاح البسيط: «يجب أن يعيش الإنسان لروحه بحسب الحقيقة وبحسب قانون الرب»، كما وجدها بطرس بيزوخوف في «الحرب والسلم» لدى احتكاكه بأفلاطون كاراتايف. هذا القانون قد احتوى عليه الإنجيل، وليفين الذي أضلّتْهُ طقوس الدين وعَماياته يصل إلى الافتناع بأنه ليس هناك عقيدة من عقائد الكنيسة يمكن أن تَنالَ ممّا هو جوهري: الإيمان بالله، في الخير، باعتباره الغاية الوحيدة

للإنسان. وهكذا يعثر على الإيمان ــ وموهبة الصلاة أثناء العاصفة حيث كادت الصاعقة تضرب زوجته وابنه.

إن هذا الريفي، النبيل، الشاب لهو سعيد، كما يظهر في الخاتمة؛ وهو أخيراً على طريق ما كان يبحث عنه وقد اتسع تفكيره: «إذا كان الدليل الأساسي على وجود الله هو إعلانُ الخير فلماذا ينحصر هذا الإعلان في الكنيسة المسيحية؟» إن جميع المؤمنين في جميع الديانات يمكن أن يجدوا هذا الإعلان، وبالتالي فإن جميع الناس ينبغي أن يكونوا أخوةً. وهناك سمةٌ يمكن أن نشير إليها عرضاً وهي أن ليفين لا يَنْقل شيئاً من أمر هذا الاكتشاف إلى زوجته، إنه يُخفي عنها الشعورَ الجديد الذي وُلدَ فيه. فهو يستمر، في الظاهر، على الحياة التي كان يحياها من قبل، لكنّ كلَّ لحظة من لحظات حياته سيكون لها، منذ الآن، معنى أكيد: هو «معنى الخير». وهاتان الكلمتان هما اللتان تنتهي بهما الرواية العظيمة التي مثلّتْ الصراع بين الخير والشر؛وقد قُدِّر للخير أن ينتصر في نفس ليفين وفيما حوله، على الأقل، كما لاحظ «دي فوغي»: «وذلك هو حل تلك المأساة العقلية الطويلة في إشراقة السعادة الصوفية، هو نشيد الحبور الذي تُعلن فيه العقلانيةُ إفلاسَ العقل». إن حماسة الإيمان تتغلّبُ، عند ليفين، على نقد العقل الخالص؛ وشكوكه تتبدّد لدى احتكاكه بإيمان الشعب.

لكنْ كان من المتوقع أن هذه الحالة الممتازة لن تدوم. فبعد سنتين أو ثلاث من نشر «آنا كارينين»، نجد أن تولستوي ــ ليفين، الذي ظلّ في بحث مستمر عن المعنى العميق للمصير الفردي والاجتماعي، يَعْدِلُ عن المسيحية الرسمية، والفن، والمعرفة، ويكفر بالدولة، ويكشف عن وجهه الفوضوي، ويغدو رسولاً لدينٍ جديد، باسمه يستنكر رواياته، وباسمه يزعم أنه لن يكتب سوى مؤلفات أخلاقية وقصص مُثقِّفة للشعب.

يبدو أن آنا كارينين تظل إحدى الروائع التي يقرؤها العالم بأسره ويُعجب

بها. وبالرغم من تعدّد المشاهد والشخصيات، والاستطرادات من كل نوع وفي مختلف المسائل، فإن نفحةً إنسانية لا مثيل لها تبثّ الحياة فيها. وهي في مجموعها وفي تفاصيلها مدهشةٌ في صنعها، كاملةٌ في تماسكها الداخلي حتى إن تولستوي نفسه استطاع أن يقول رداً على نقد راتشنسكي الذي لامه على تخلخل البناء باعتباره العيب الأساسي في الرواية: «إن عقودَ القبّة متضامّة بحيث أننا لا نستطيع أن نجد الحجر الأساسي للعقد. وروابط البناء ليست في الموضوع أو في العلاقات بين الأشخاص، بل إنها في الترابط الداخلي». فإلى جانب الحرب والسلم، تتجلّى آنا كارينين على أنها روايةٌ بسيكولوجية عظيمة الأعماق، وعلى أنها لوحةٌ هائلة للمجتمع الروسي في مرحلة حرجةٍ من تاريخه، وتتجلّى، عبرَ ذلك كله، على أنها جهادُ نفسٍ في بحثها عن حقيقة الحياة.

ألكسندر سولوفييف

الجزء الأول

«لي النَّقْمة أنا أجازي»، يقول الرب(١)

[١]

جميعُ الأسر السعيدة تتشابه، لكن كل أسرة تَعسة فهي تعسةٌ على طريقتها.

كان كلُ شيء مقلوباً رأساً على عقب في منزل آل أوبلونسكي. فقد اكتشفت الزوجةُ أنه كان لزوجها علاقةٌ بمربية أولادهما الفرنسية، وأعلنت له أنها لن تستطيع بعد الآن أن تعيش وإياه تحت سقف واحد. بدأ هذا الوضعُ منذ يومين وأخذ يمتدّ، فاشتدّتْ وطأتُه على الزوجين، وعلى جميع أفراد العائلة، وعلى الخدم. كان الجميع يُحسّون أنه لم يبقَ لهم مسوِّغٌ ليسكنوا معاً، وأن بين الأشخاص الذين جمعتْهم المصادفةُ في أي نزل، من الروابط أكثر ممّا بينهم هم أنفسهم. لقد لزمتْ الزوجةُ شقتها فلم تغادرها؛ وغاب الرجلُ منذ يومين؛ وهام الأولاد على وجوههم في المنزل كالمُهملين؛ وتخاصمتْ الممرضةُ الإنكليزية والخادمة، وكتبتْ إلى صديقةٍ لها لتبحث لها عن مكان آخر؛ وغادر الطاهي المنزل ليلة البارحة، ساعة العشاء؛ وطلب الحوذي والطاهيةُ حسابيهما.

في اليوم الثالث للخصام، استيقظ الأمير ستيفان أركاديفتش ــ أو . .

(١) هذا التصدير الذي يلخص فكرة الكتاب مأخوذ من رسالة القديس بولس إلى أهل رومية ١٢ ــ ١٩، وهو يكرر، في سياق مختلف تماماً، جملة من سفر التثنية ٣٢ ــ ٣٤؛ ونحن نجده أيضاً في رسالة القديس بولس إلى العبرانيين ١٠ ــ ٣٠.

«ستيڤا»[1]، كما كان يسمّيه الناس ــ في الساعة المعتادة، أي في الثامنة صباحاً، لا في غرفة زوجته، ولكنْ على الأريكة الجلدية في مكتبه. فقلّب جسده الثقيل والمرفّه على نوابض الأريكة، وكأنه ينوي أن يعود إلى النوم، وأحاط الوسادة بذراعيه، وأسند إليها خدّه؛ لكنه ما لبث أن نهضَ فجأة، وجلس وفتح عينيه.

فكّر في نفسه، وهو يحاول أن يتذكّر حلمه

«نعم... نعم... كيف كان؟ كيف كان؟ آه! كان «آلابين» يقيم مأدبة عشاء لدارمستاد؛ لا لم يكن دارمستاد، وإنما كان شيئاً امريكياً. صحيح، فدارمستاد في أمريكا. كان آلابين يقيم مأدبة عشاء على موائد زجاجية... وكانت الموائد تغني أغنية «يا كنزي»، وأغنيةً أخرى أجمل، وكان هناك أباريق صغيرة، وكانت الأباريق نساءً.

أخذت عينا ستيڤان آركادييڤتش تلتمعان بفرح واستغرق في أحلام يقظته، والابتسامةُ على شفتيه. «نعم، كان ذلك جميلاً، جميلاً جداً. وكان هناك أيضاً كثير من الأشياء اللطيفة، الممتعة، لكن ذلك لا يمكن أن يُعبَّر عنه باللفظ أو بالفكر، بل إن ذلك لا يمكن تحديدُه إذا ما استيقظنا».

وإذْ لمح شعاعاً من الضوء ينفذ من خلف إحدى الستائر، وضع قدميه بعجلة على الأرض وبحث عن خفيه الجلديين المطرزين بالذهب اللذين أهدتهما له زوجته في العام الفائت، في عيد ميلاده؛ ثم مدّ ذراعه دون أن ينهض نحو الموضع الذي تدلّى منه مبذلُه، وتلك عادة التزمها منذ التاسعة؛ عند ذاك تذكّر فجأة لمَ وكيف لم يكنْ في غرفة زوجته؛ فطارتْ الابتسامةُ من شفتيه وقطّب حاجبيه.

---

(١) في منتصف القرن التاسع عشر، ظهر شيء من التأثير الإنكليزي في المجتمع الروسي الراقي، دون أن يلغي التأثير الفرنسي؛ لقد بدأ الناس في هذا المجتمع يعلِّمون أولادهم الإنكليزية، ويسمّونهم أسماء إنكليزية، مثل «ستيفا»، و «رولي» بدلاً من داريا، وكيتي (كاترين)، و «بيتسي (اليصابات)... إلخ.

همهم وهو يتذكّر كل ما جرى له: «آه! آه! آه!...».

ووافاه خيالُه من جديد بكل تفاصيل خصامه مع زوجته، وبوضعه الذي لا مخرج منه، وبغلطته التي كانت تعذّبه أكثر من أي شيء آخر.

وفكّر في نفسه: «لا! لن تغفر لي، لا يمكنها أن تغفر لي. وأفظعُ ما في الأمر أنني سبب كل شيء؛ كلُ شيء من غلطتي، ومع ذلك فأنا لستُ مذنباً. ها هنا المأساةُ كلها.

وتأوه، وقد بلغ به الأسى غايته، حين أخذ يستعيد في ذاكرته أشد تفاصيل هذا الخصام إيلاماً: «آه! آه! آه!».

كانت الدقيقة الأولى أسوأ اللحظات: لقد عاد من المسرح مبتهجاً، مسروراً، وبيده إجاصة كبيرة لزوجته، فلم يجدها في قاعة الاستقبال؛ وكانت دهشتُه عظيمةً، عندما لم يجدها في مكتبه أيضاً؛ وأخيراً، عثر عليها في مخدعها، ممسكه بيدها البطاقة المشؤومة التي كشفتْ لها النقاب عن كل شيء.

كانت «دولي» هذه، المنهمكةُ، المشغولة دائماً، والتي كان يراها قليلة الفطنة، جالسةً بغير حراك، وبين أصابعها البطاقةُ وهي تطالعها، وعلى وجهها أماراتُ الهلع واليأس والغضب.

سألته وهي تُريه البطاقة:

ــ ما هذا؟ ما هذا؟

إن ما كان يؤلم ستيڤان أركادييڤتش، من هذه الذكرى، ــ والأمر كذلك في معظم الأحيان ــ ليست الحادثة ذاتها، بقدر ما كانت الطريقة التي أجاب بها زوجتَه. لقد أصابه في هذه اللحظة ما يصيب الناس الذين يجدون أنفسهم مُقْحمين، على حين غرة، في قضية حقيرة. ولم يستطع أن يَصْطنَع لوجهه مظهراً ملائماً لوضعه، بعد انكشاف غلطته. فبدلاً من أن يغتاظ، ويُنكر. ويُبرّىء نفسه، ويطلب المغفرة، أو يظل غيرَ مبالٍ (كل ذلك كان سيكون أفضل)، اصطبغ وجهه

عن غير عمدٍ البتة (وفكّر ستيڤان أركادييڤتش في نفسه، وكان يحب الفيزيولوجيا: إنه «مُنعكس دماغي»)، بابتسامته العادية، الساذجة، والبلهاء في مثل حالته تلك.

لم يكن بوسعه أن يغفر لنفسه هذه الابتسامة البلهاء. لقد ارتعشت «دولي» وهي تلمحها، وكأنها ترتعش من جرّاء ألم جسدي؛ واستسلمت لفَوْرة غضبها، فصبّت عليه سيلاً من الألفاظ المنكرة، وتركتْ الغرفَة وهي تركض. ومنذ ذلك الحين، أبت أن ترى زوجها.

وفكر ستيڤان أركادييڤتش في نفسه: «هذه الابتسامة البلهاء إنما هي سببُ كل شيء». وكرّر بيأس: «لكن ما العمل؟ ما العمل؟» ولم يجد لذلك جواباً.

[٢]

كان ستيڤان أركادييڤتش صادقاً مع نفسه. فلم يكن بوسعه أن يخدع نفسه بحيث يقنعها أنه نادمٌ على فعلته. إن رجلاً مثله، بهيّ الطلعة، ابن أربعة وثلاثين عاماً، شهوانياً، ما كان يمكنه أن يندم لأنه لم يكن مغرماً بزوجته وهي أم لسبعة أولاد، خمسة منهم أحياء، وأصغر منه بسنة واحدة فقط. كان يأسف فقط لأنه لم يحسن إخفاءَ حقيقته عنها. وكان يحسّ بخطورة الموقف، وتأخذه الشفقة على «دولي»، وعلى أولاده، وعلى نفسه كان يستطيع أن يتستّر على خياناته تستراً أفضل لو تنبّأ بالأثر الذي سيتركه هذا النبأ فيها. لم يفكّر قط في هذا الأمر بدقة ووضوح، لكنه كان يتصور تصوراً مبهماً أن زوجته قد شعرت بخيانته منذ زمن طويل وأنها تغمض عينيها عنه. بل لقد كان يرى أن هذه المرأة المتعبة، المكتهلة، الفاقدة لجمالها، التي لا تملك أية صفة مميّزة، والتي لم تكن سوى أم ممتازة، إنما تتغاضى عنه، شعوراً منها بحقه، لكن الأمر كان غير ذلك.

ردّد ستيڤان أركادييڤتش على نفسه، دون أن يتمكن من العثور على حلّ: «آه! هذا رهيب! هذا رهيب! كان كلُ شيء يسير سيراً حسناً، وكنا نعيش عيشة

رغيدة! كانت راضية، سعيدة مع الأولاد، وما كنتُ أضايقها في شيء، وكنت أدعُها تفعل ما تشاء في المنزل. الحق أنه لمن المؤسف أن تكون تلك «المرأة» مربيةً لأولادنا. إن ذلك لمؤسفٌ جداً. وإنه لشيء مبتذلٌ، سوقي، أن يغازل الرجل مربية أولاده. لكن أية مربية هي! (وتذكّر بوضوح عيني الآنسة «رولان» السوداوين، الماكرتين، وابتسامتها). على أنني لم أسمح لنفسي بشيء طوال سكناها معنا. أسوأُ ما في الأمر أنها... وكأنه عملٌ مقصود! يا للأسف! لكن، ما العمل؟ ما العمل؟».

ولم يجد جواباً سوى هذا الجواب العام الذي تقدّمه الحياةُ لأكثر المشكلات تعقيداً واستعصاءً على الحل: وهو أنه لا بد من العيش يوماً فيوماً دون التطلّعِ إلى المستقبل، لا بد من النسيان. لكنه ما كان يستطيع أن يجد النسيان في النوم، حتى الليل على الأقل؛ ما كان يمكنه العودة إلى هذه الموسيقا التي تعزفها النساءُ ــ الأباريق؛ ينبغي إذن أن يتشاغل عن ذلك بحلم الحياة.

قال ستيڤان أركادييڤتش لنفسه «سنرى». ثم نهض وارتدى مبذله الرمادي المبطّن بحرير، أزرق، باهت، وربط الزنار، وتنشق الهواء بملء رئتيه في صدره العريض ودنا من النافذة بخطوته الرشيقة والخفيفة بالنظر إلى بدانته، وأزاح الستارة ودق الجرس عالياً. وما لبث أن دخل، على الفور، خادمهُ «ماتفي»، وهو صديقه القديم، حاملاً ثياب سيده وحذاءه، وبرقية له.

وفي أثره، جاء الحلاق ومعه عدته. سأل ستيڤان أركادييڤتش وهو يتناول البرقية ويجلس أمام المرآة:

ــ هل هناك أوراقٌ من المكتب؟

أجاب ماتفي وهو يلقي على سيده نظرة مستفهمة مفعمة بالمودة:

ــ الأوراق على الطاولة.

وانتظر لحظة وأضاف بابتسامة ماكرة:

ـ جاءَ مَنْ يسأل عنك من عند مؤجر العربات.

لم يجب ستيڤان أركادييڤتش، واكتفى بأن نظر إلى «ماتفي» في المرآة، وكانت النظرة؛ التي تبادلاها تدل على مدى تفاهمهما. وكأن ستيڤان أركادييڤتش كان يسأل: «لمَ تقول لي هذا؟ وأنت مطلّع على الأمر».

وضع «ماتفي» يديه في جيبي سترته، وباعد بين قدميه، وألقى على سيده نظرة وديّة، دون أن ينبس بكلمة، وعلى وجهه ابتسامةٌ خفيّة. ثم قال:

ـ قلتُ لهم: ألا يأتوا قبل الأحد، وألاَّ يزعجوك، من غير طائل، حتى ذلك اليوم.

كان واضحاً أن الجملة مهيّأةٌ من قبل.

فهم ستيڤان أركادييڤتش أن «ماتفي» يريد أن يمزح وأن يَسْتلفت النظر إليه. وفضّ البرقية وطالعها مصححاً، بشكل تلقائي، كتابتها المشوهة كما هي الحال دائماً، فاستضاء وجهُه.

قال، وهو يوقف للحظةٍ يدَ الحلاق الناعمة، الربلة، التي كانت ترسم مفرقاً وردياً بين عارضيه الجعدين، الطويلين:

ـ «ماتفي»، ستصل غداً أختي آنا أركادييفنا.

قال «ماتفي»:

ـ الحمدُ لله.

مظهراً بهذا الجواب أنه فهم كسيده أهمية هذا الحدث: إن آنا أركادييفنا، أخت ستيڤان أركاديڤتش الحبيبة، يمكنها أن تُسهم في مصالحة الزوجين.

سأله ماتفي:

ـ وحدها أو مع زوجها؟

لم يستطعْ ستيڤان أركاديڤتش أن يجيب، لأن الحلاق كان يمرّر الموسى على شفته العليا، لكنه رفع إصبعاً.

أومأ ماتفي برأسه في المرآة:

ـ وحدها. وهل ينبغي أن أجهز لها غرفتها فوق؟

ـ أخبْر داريا الكسندروفنا بنبأ قدومها، وافعلْ ما تأمرك به.

فردد «ماتفي» متشككاً:

ـ داريا الكسندروفنا؟

ـ نعم. خذْ، احملْ إليها البرقية؟ وانقلْ إليّ ما سوف تقوله لك. أراد «ماتفي» أن يقول: «تريد أن تحاول»، لكنه لم يقل إلاَّ:

ـ طيّب، يا سيدي.

كان ستيڤان أركادييڤتش قد اغتسل ومشط شعره وتهيّأ لارتداء ملابسه، عندما دخل عليه «ماتفي» بخطا بطيئة، محدثاً بجزمته طقطقة خفيفة، وبيده البرقية. وكان الحلاق منصرفاً.

ـ رجتْني داريا الكسندروفنا أن أقول لك: إنها راحة، «وأن يفعل (أي أن تفعل) ما يحلو له».

شخَصَ «ماتفي» بنظره إلى سيده، ويداه في جيبيه، ورأسه مائل؛ وكانت عيناه وحدهما تبتسمان.

أخذ ستيڤان أركادييڤتش إلى الصمت. ثم بدت على وجهه الوسيم ابتسامةٌ وادعةٌ تكاد تدعو إلى الرثاء. وسأل وهو يهز رأسه:

ـ ما رأيك، يا «ماتفي»؟

قال ماتفي:

ـ ليس هذا بشيء، وسوف يُسوّى الأمر.

ـ أتعتقد ذلك؟

ـ من غير شك، يا معلم.

ـ أتعتقد؟

وسأل ستيڤان أركادييڤتش وهو يسمع خلف الباب حفيف ثوب امرأة:

ــ مَنْ هذا؟

قال صوتُ امرأة حازمٌ وعذب:

ــ هذا أنا، يا سيدي.

وظهر عند الباب وجهُ مربية الأولاد ماترينا فيليمونوفنا، المجدور والقاسي:

سألها ستيڤان أركادييڤتش وهو يتّجه إليها:

ــ ما الأمر يا ماترينا؟

مع أن ستيڤان أركادييڤتش كان مذنباً كل الذنب تجاه امرأته، ومع أنه كان يشعر بذلك، إلاَّ أن كل مَنْ في البيت تقريباً، بما في ذلك المربية، وهي أحسن صديقات داريا الكسندروفنا، كانوا بجانبه.

سألها بلهجة أسيْانةٍ:

ــ ما الأمر؟

ــ اذهبْ واعتذرْ إليها مرةً أخرى، يا سيدي. اللَّهُ يحفظك. إنها تتعذب، ومنظرها يدعو إلى الرثاء، وكل ما في البيت غارق في الفوضى. يجب أن تشفق على الأولاد. اذهبْ واطلبْ صفحها. لا حيلة لنا بذلك! من كسر الأقداح فهو. . .

ــ لكنها تأبى أن تقابلني. . .

ــ سوف تفعل، على الأقل، ما تستطيع فعله. إن الله رحيم. صلِّ، يا معلم، صلِّ!

قال ستيڤان أركادييڤتش وقد تضرّح وجهُه فجأةً:

ــ حسناً، انصرفي.

وقال وهو يلتفت إلى ماتفي:

ــ ساعدْني على ارتداء ملابسي.

وخلعَ مبذلَه بحركة قوية.

قدم ماتفي لمعلمه قميصاً منشّىً، وهو ينفخ على ذرات غير مرئية من الغبار؛ وطرحه على جسده الناعم بسرور ظاهر.

[٣]

بعد أن ارتدى ستيڤان أركادييڤتش ملابسه، نضح نفسه بالطيب، وسوّى ردنيه، ودسّ في جيوبه، بحركة آلية، سيجاراته ومحفظته وعلبة الكبريت وساعته ذات السلسلة المزدوجة المزينة بالحلى، ونفض منديله، وإذا أحسّ أنه نظيف، معطّر، معافى، سعيدٌ جسدياً، بالرغم من مصيبته، دلف بخطا تكاد ترتجف، إلى قاعة الطعام حيث كانت تنتظره قهوتُه وبريده وأوراق عمله.

استعرض الرسائل. وكانت إحداها مزعجةً جداً: كانت رسالةً من تاجر يتقدّم إلى شراء غابةٍ في ملك زوجته. وكان لا بد من بيع هذه الغابة. لكن الأمر ما كان يمكن أن يتمّ قبل المصالحة. أكرهُ ما في الأمر أن يرى قضيةً مالية تختلط بقصة المصالحة. وتأذّى من تلك الفكرة وهي أنه يمكن أن يتأثر بهذا الظرف: أي أن يسعى إلى مصالحة زوجته من أجل بيع الغابة:

بعد أن قرأ ستيڤان أركادييڤتش بريدَه، جذب إليه أوراق مكتبه، وتصفّح بسرعة إضبارتين، وسجل بعض الملاحظات بقلمه العريض، ثم أبعد رزمة الأوراق عنه وصبّ لنفسه قهوته؛ وفتح جريدة الصباح وهو يتناول فطوره، وكانت ما تزال رطبة، وأخذ يقرؤها.

كان ستيڤان أركادييڤتش يقرأ جريدةً متحرّرةً، غير مغالية في اتجاهها التقدمي، وإنما هي في الاتجاه الذي تسير عليه الأغلبيةُ. ومع أنه لم يكن كلفاً بالعلم أو بالفن أو بالسياسة، فإنه كان شديد التمسك بآراء الأكثرية وآراء صحيفته حول هذه الموضوعات جميعاً، ولم يكن يبدّل من هذه الآراء إلّا إذا بدّلت الأغلبيةُ منها، أو على الأصح، إنه لم يكن يبدّل من آرائه؛ وإنما كانت هي التي تتبدل على نحو غير ملحوظ.

لم يكن ستيڤان أركادييڤتش يختار اتجاهاته وآراءه؛ بل إنها كانت تأتْيه من ذاتها؛ لم يكن يختارها كما لم يكن يختار أشكال قبعاته وستره: كان يختار ما يلبسه الناس. ولكن الحرص على أن تكون له آراؤه، في مجتمع تغدو فيه الفعاليةُ الفكرية ضروريةً مع التقدم في السن، كان أمراً لا بدَّ منه، شأنُه شأن القبعات التي يلبسها. وإذا كان يفضّل الاتجاه التحرّري على الاتجاه المحافظ الذي كان يسير فيه عددٌ كبير من الناس في عالمه، فليس ذلك لأنه كان يرى الاتجاه التحرري أقرب إلى العقل والصواب، بل لأنه أكثر تطابقاً مع نمط حياته. كان الحزب التحرري يقول: إن كل شيء في روسيا يسير سيراً سيئاً: وفي الواقع أن ستيڤان أركادييڤتش كان مرهقاً بالديون ولم يكن يملك إلاَّ القليل من المال وكان الحزب التحرّري يقول: إن الزواج مؤسسة عفا عليها الزمن ولا بدّ من إصلاحها: وفي الواقع، لم تكن الحياة الزوجية تحمل إلى ستيڤان أركادييڤتش إلاَّ القليل من المباهج، وكانت تدفعه إلى الكذب والنفاق، وهو شيء تأباه طبيعته. وكان الحزب التحرري يقول، أو على الأصح يوحي بأن الدين ما هو إلاَّ عائق في وجه الشطر الأمي من السكان: ولم يكن ستيڤان أركادييڤتش يستطيع أن يتحمل، دون وخزٍ في ساقيه، أقصَر صلاة، وأن يفهم من هذه المواعظ المرعبة، الفخمة عن العالم الآخر، في حين يمكننا أن نلهو ما وسعنا اللهوُ في هذا العالم. وفضلاً عن ذلك، فقد كان ستيڤان أركادييڤتش الذي يحب النكتة اللطيفة، يستسيغ، عند الحاجة، أن يثير حفيظة الناس الوادعين إذ يقول لهم: إذا كنا نفخر بأصلنا فليس من الملائم أن نقف عند «روريك»[1]، وأن ننكر جدّنا الأول. . . القرد. وهكذا، غدا الاتجاهُ التحرري عادة لدى ستيڤان أركادييڤتش، وكان يحب صحيفته، كما يحب السيجار بعد العشاء طلباً لذلك الضباب الخفيف الذي يحدثه في دماغه. .

(١) روريك: أول أمير روسي (٨٦٠ ــ ٨٧٩) انحدرت منه حوالي أربعين عائلة كانت تفخر بسبها العريق.

قرأ المقالة الافتتاحية التي كانت تبيّن أنه لا جدوى في عصرنا من إطلاق الصيحات بحجة أن الراديكالية تُنذر بابتلاع جميع العناصر المحافظة والزعم بأن الحكومة ستُضطر إلى اتخاذ تدابير لخنق التنّين الثوري؛ الأمر على العكس، «ففي رأينا أن الخطر لا يأتي من التنين الثوري المزعوم، بل من عناد العنصر التقليدي الذي يُعيق التقدّم»، إلخ. . . وطالعَ أيضاً المقالة الثانية التي كانت تعالج المسألة المالية، والتي استشهد صاحبها فيها ببنتام وميل[1]، والتي غمز فيها من الوزارة بضع غمزات. ففهمَ بما أوتي من حدة الذهن معنى كل من التلميحات: من أين تنطلق، وإلى من تتوجه، وفي أية مناسبة أُطلقت، فأحدث له ذلك شيئاً من السرور، كما يقع له دائماً. لكن سروره اليوم قد تكدّر بذكرى نصائح ماترينا فيليمونوفنا، والفوضى التي تسود منزله؛ وعلم أيضاً أن الكونت «دي بوست»[2] سافر إلى ويسبادن، وأن هناك عربة خفيفة للبيع، وأن هناك شاباً يعرض خدماته؛ لكن هذه الأخبار لم توفّرْ له البهجة الوادعة، الساخرة التي كان يجدها من قبل.

وبعد أن انتهى من الصحيفة، وشرب فنجاناً آخر من القهوة مع قطعة من الخبز الأبيض الممزوج بالزبدة، نهض، ونفض فتات الخبز المتساقط على صدرته، وابتسم من فرط السعادة، وهو ينفخ صدره؛ لا لأنه أحس بنفسه جَذلى على نحو خاص. . . بل هذه الابتسامة قد أثارها الهضمُ الممتاز.

هذه الابتسامة المشرقة أعادت، في الحال، كل شيء إلى ذاكرته، فأخلد إلى التفكير.

---

(١) بنتام وميل: فيلسوفان انكليزيان، بنتام (١٧٤٨ ــ ١٨٣٢) مؤسس مذهب النفعية، وخليفته جيمس ميل (١٧٧٣ ــ ١٨٣٦) الذي طبق على العلوم الأخلاقية المنهج الوضعي، أو لعله ابنه جون ستيورات ميل (١٨٠٦ ــ ١٨٧٣) الذي كان كتابه «المنطق الاستنتاجي والاستقرائي» من الكتب التي أقبل عليها القراء في روسيا.

(٢) «دي بوست»: (١٨١٣ ــ ١٨٨٦) رئيس وزراء الساكس، من ١٨٦٦ إلى ١٨٧١، ورئيس وزراء النمسا ــ هنغاريا، عدو بسمارك.

وتناهى إليه من خلف الباب صوتا ولدين (عرف ستيڤان أركادييڤتش فيهما صوتيْ «غريشا» ابنه الأصغر، وتانيا ابنته البكر). لقد تركا شيئاً يسقط.

صرخت الطفلة بالإنكليزية:

ــ لقد نهيتك عن وضع المسافرين على سطح العربة. لَملمْ الآن ما سقطَ

فكر ستيڤان أركادييڤتش في نفسه: «كل شيء يجري بالمقلوب، والأولاد تُركوا على هواهم».

وعندما اقترب من الباب، ناداهما. فتركا العلبة التي كانت تمثل عربة القطار وجاءا إلى أبيهما.

دخلت الطفلةُ، أثيرةُ ستيڤان أركادييڤتش، بجرأة، وطوقت أباها بذراعيها، وتعلّقتْ بعنقه، وهي تضحك، كما كانت تفعل دائماً، ملتذةً بتنفس العطر المعهود، المنبعث من عارضيه. وبعد أن قبلت وجه أبيها، المحتقن بسبب انحناءته، والمشرق بالحنان، أرْختْ ذراعيها، وأرادت أن تهرب، لكن أباها أمسك بها.

سألها وهو يداعب عنقها اللطيف.

ــ ماذا تفعل «الماما»؟

وقال للصبـي، وهو يبتسم:

ــ صباح الخير.

كان يحسّ أنه يحب الصبـيَّ أقل مما يحب ابنته، وكان يسعى دائماً ألاَّ يدع شيئاً من ذلك يظهر عليه؛ لكن الصبـي كان يشعر بذلك، فلم يرد على ابتسامة والده المغتصبَة.

قالت الطفلة:

ــ ماما؟ لقد نهضتْ.

تنهد ستيڤان أركادييڤتش وفكّر في نفسه: «وإذن فهي لم تنمْ طوالَ الليل».

ـ وهل كانت مبسوطةً؟

كانت الطفلةُ تعلم أن أبويها تخاصما، وأن أمها لا يمكن أن تكون مبسوطة، وأن أباها يعلم ذلك، وأنه يتصنع الجهلَ حين يطرح عليها سؤاله بهذه اللهجة المستخفة. فاحمرت خجلاً عن أبيها. وأدرك هو ذلك على الفور فاحمر بدوره.

قالت:

ـ لا أدري. قالت لنا ألاَّ نعمل، وأن نذهب مع الآنسة هيل إلى بيت جدتنا.

ـ حسناً! اذهبي إلى هناك. آه! انتظري.

قال ذلك ليستبقيها مدةً أطول، وليداعب يدها الصغيرة، الناعمة.

تناول عن المدفأة علبةً من السكاكر وضعها عليها البارحة وأعطاها منها اثنتين بعد أن اختارهما ممّا تحبّه: أحداهما بالشوكولا والأخرى بمعجون الثمر.

قالت الصغيرة وهي تشير إلى السكّرة التي بالشوكولا:

ـ هذه لغريشا؟

ـ نعم، نعم.

وبعد أن داعب كتفها الدقيقة، للمرة الأخيرة، قَبّلها في عنقها، وفي شعرها، وصَرفَها.

أعلن ماتفي:

ـ العربةُ جاهزةٌ.

وأضاف:

ـ وهناك مراجِعةٌ.

سأله ستيڤان أركادييڤتش:

ـ أهي هنا منذ زمن طويل؟

ـ منذ نحو من نصف ساعة.

ـ كم مرةٍ أمرتُك أن تخبرني رأساً!

قال ماتفي بلهجةٍ جافية ووِدّية جديرة بأن تَقْمع سَوْرة الغضب:

ـ كان لا بد من أن أدع لك شيئاً من الوقت لتناول قهوتك.

قال أوبلونسكي وهو يقطّب بين حاجبيه:

ـ هيا، أدْخلها بسرعة.

تقدّمت المراجعة، وهي زوجة النقيب كالينين، بطلب غير ممكن وغير معقول. لكن ستيڤان أركادييڤتش أجلسها، على عادته، واستمع إليها بانتباه، حتى النهاية، دون أن يقاطعها، ودلها بالتفصيل على الطريق الذي يجب أن تسلكه، وعلى الشخص الذي يجب أن تراجعه، وكتب لها بخطه الجميل، الدقيق، الواضح، بطاقة إلى الشخص الذي يمكن أن يساعدها. وبعد أن صرفها تناول قبعته وتوقّف متسائلاً إن كان قد نسي شيئاً. لم ينس إلاَّ ما كان يتمنّى أن ينساه... زوجته.

أطرق رأْسَه، وعلتْ وجهه أماراتُ الحزن، وقال لنفسه:

ـ آه نعم! أأذهب إليها أم لا أذهب؟

هتف به صوتٌ داخلي أنْ لا جدوى من الذهاب، وأنه لا يمكن أن ينتج عن ذلك سوى الزيف، وأن من المتعذر عليه استئناف علاقاته القديمة بزوجته، لأن زوجته لا تستطيع أن تسترد فتنتها القديمة ولا أن تجعله شيخاً عاجزاً. لن ينتج عن ذهابه سوى الزيف والكذب: والزيفُ والكذب تأباهما طبيعته.

قال لنفسه وهو يجهد في أن يحملها على الإقدام: «ومع ذلك، لا بدّ من فعل ذلك في يوم من الأيام؛ فالأمور لا يمكن أن تبقى على هذه الحال!».

انتصب واقفاً، وتناول سيجارة، وأشعلها، وسحب منها سحبتين، ورماها في صدفة تقوم مقام المنفضة، واجتاز القاعة المظلمةَ بخطواتٍ سريعة، وفتح باب غرفة زوجته.

كانت داريا الكسندروفنا واقفة أمام صوان مفتوح ترتّبُ وتفرزُ بعض ما فيه، وهي في مئزرها، وقد ردّت على قذالها شعرها المجدول الذي كان جميلاً وكثيفاً من قبل والذي غدا قليلاً ومتفرقاً. كانت الأشياءُ متناثرة حولها. وكان خداها غائرين. وأبرزَ نحولُ وجهها عينيها الكبيرتين المروّعتين على نحو أشد. وعندما سمعتْ زوجَها توقّفتْ ونظرت إلى الباب، محاولةً أن تُسبغ على وجهها تعبيراً من القسوة والإزدراء. كانت تحس أنها ترهبه وأنها تخاف من هذه المقابلة. كانت تجرّب ما قد، جرّبته مرات في هذه الأيام الثلاثة: وهو أن تجمع متاعَ الأولاد ومتاعها لترسله إلى بيت أمها. فلم تستطع أن تحزَم أَمْرَها هذه المرة أيضاً؛ لكنها كانت تقول لنفسها الآن، كما كانت تقول من قبل، إن الأمور لا يمكن أن تظل هكذا، ولا بد من القيام بشيء ما: لا بدّ من عقابه، من إذلاله، من الانتقام منه، ولو قليلاً، للعذاب الذي سببه لها. وكانت تردّد أمام نفسها أنها ستتركه، لكنها كانت تشعر أن ذلك مستحيل؛ مستحيل لأنها لا تستطيع أن تتخلى عن عادتها في اعتباره زوجاً لها وفي حبها له. وفضلاً عن ذلك، فقد كانت تدرك أنها إذا كانت تجد مشقة هنا، في بيتها، في تربية أولادها الخمسة، فسوف تكون المشقة أكبر في البيت الذي تنوي أن تذهب إليه معهم. وأثناء هذه الأيام الثلاثة، مرض ولدُها الأصغر لأنه أُطعم مرقاً محمّضاً، وأعرض الثلاثة الآخرون عن العشاء، ليلة البارحة. وكانت تحسُّ أن من المستحيل عليها أن ترتحل؛ لكنها كانت تخدع نفسها وتصرّ على ترتيب متاعها والتظاهر بأنها سترتحل.

عندما رأتْ زوجَها، أدخلتْ يدها في أحد أدراج الصوان، كأنها تبحث فيه عن شيء، ولم تلتفتْ إليه وتمنحه نظرتها إلاَّ عندما صار على مقربة منها. لكن وجهها الذي أرادت له أن يعبر عن القسوة والعزم، لم يكن يعبّر إلاَّ عن الهلع والألم.

قال بصوت وادع، وجل:

ــ «دولي»!

كان يُدخل رأسه في كتفيه ويحاول أن يطالعها بوجه متذلل، مسكين، لكنه كان يتألّقُ نضارةً وصحة. سبرتْ هذا الرجل الذي يشعّ نضارة وصحة، بنظرة قصيرة، وفكرتْ في نفسها: «نعم، إنه سعيد ومسرور أما أنا! . . . حتى هذه الطيبة التي يحبها الناس ويمدحونها فيه، تبدو لي بغيضة: إنني أكره طيبته!» وتقبّضتْ شفتاها وتشنج وجهها الشاحب العصبي.

سألته بسرعة، وبصوت أبح لم يكد يعهده لها:

ــ ما الذي ترغب فيه؟

فكرّر وفي صوته ارتجاف:

ــ دولي! ستصل آنا اليوم.

صرختْ:

ــ ومالي ولها؟ لا أستطيعُ استقبالَها!

ــ لا بد من استقبالها، مع ذلك، يا دولي. . .

فصاحت دون أن تنظر إليه، وكأن صيحتها إنما أثارها ألمٌ جسدي:

ــ أخرجْ، أخرجْ، أخرجْ!

كان بوسع ستيڤان أركادييڤتش أن يظل هادئاً وهو يفكر في أمرأته، كان بوسعه أن يأمل أن «تُسوّى الأمور»، على حد تعبير «ماتفي»، وأن يقرأ صحيفته ويشرب قهوته بهدوء؛ لكنه عندما رأى هذا الوجه الذي فتك به العذاب والألم، وعندما سمع هذا الصوتَ المُدعنَ، اليائس، ضاق صدرُه وانقبضتْ حنجرُته، وبرقت الدموعُ في عينيه:

ــ يا إلـٰهي، ماذا فعلتُ! دولي! بحق السماء! . . .

ولم يستطعْ متابعةَ كلامه؛ إذ خنقته العبراتُ: أغلقت الصوانَ بعنف ونظرت إليه.

ـ دولي، ماذا بوسعي أن أقول؟ . . . لا أقول إلاّ شيئاً واحداً: اغفر لي . . . تذكّري، تسع سنوات من حياتي لا تستطيع أن تكفّر عن دقيقة، دقيقة . . .

خفضت عينيها وانتظرت ما سيقوله؛ وكأنما كانت تتوسّل إليه أن يردّها عن ضلالها على نحو من الأنحاء.

وأنهى كلامه قائلاً:

ـ دقيقة من الغواية . . .

وأراد أن يستمر في كلامه، لكن شفتي دولي انقبضتا، عند سماع هذه الكلمة، وكأنهما انقبضتا بتأثير ألم جسدي، وتشنجت عضلاتُ خدها الأيمن من جديد.

صرخت بصوب ثاقب:

ـ أخرجْ، أخرجْ من هنا! ولا تحدّثني عن غواياتك وخزيك! أرادت أن تغادر الغرفة، لكنها ترّنحتْ وتمسكت بظهر الكرسي. احتقنَ وجهُ أوبلونسكي، وانتفحت شفتاه، وامتلأت عيناه بالدموع.

قال وهو ينتخب، هذه المرأة:

ـ دولي! بالله عليك، فكّري في الأولاد، إنهم أبرياء! أنا المذنبُ، عاقبيني، قولي لي كيف أستطيع أن أكفرّ عن ذنبي. أنا مستعدّ لأن أفعل كل ما في مقدوري أن أفعله. أنا مذنبٌ، ولست أجد الكلمات لأقول لك كم أنا مذنب! فاغفري لي، يا دولي. !

وجلستْ. كان يصغي إلى تنفسها الثقيل، الصاخب، فبعث في نفسه شعوراً من الشفقة يعجز عنه الوصفُ. وأرادت أن تتكلم عدة مرات، فلم تُفْلح. كان ينتظر.

قالت:

ـ إنك تتذكر الأولاد لتلعب معهم، أما أنا فإني قلقة عليهم، وأنا أعلم أنهم قد ضاعوا الآن.

وكان واضحاً أن هذه الجملة من الجمل التي رددتها على نفسها كثيراً في هذه الأيام الثلاثة.

خاطبته بضمير المفرد. فألقى عليها نظرةَ امتنان، وتحرَّكَ ليتناول يدها، لكنها أَعرضتْ عنه باشمئزاز.

ـ إني أفكر في أولادي وسأفعل كل شيء لإتفاذهم؛ لكنني لا أدري أيّ الأمرين أفضلُ: أبعادهم عن أبيهم أم البقاء مع فاسق... نعم، فاسق... قلْ لي، أنستطيع، بعدما جرى، أن نعيش معاً؟ أممكنٌ هذا؟ ورددت وهي ترفع صوتها:

ـ قلْ لي، أممكن هذا؟ عندما يُقيم زوجي، أبو أولادي علاقةً مع مربية الأولاد...

فقال بصوت محزون دون أن يدري هو نفسه ما كان يقول، مطرقاً رأسَه أكثر فأكثر:

ـ لكن ما العمل؟ ما العمل؟

فصرخت به محتدّةً:

ـ أنت عندي غرضٌ للكره والاشمئزاز. دموعُك إنما هي ماء! وأنت لم تحبّني قط؛ ليس لك قلب، وليس فيك نبل! إني لآنفُ منك، ولستَ، بالنسبة إليَّ، سوى غريب، نعم، غريب!

وقد لفظتْ كلمةَ «غريب»، هذه الكلمة الرهيبة، عليها، بألم شديد المرارة.

نظر إليها فأرعبه وأدهشه ما رآه على وجهها من حقد. ولم يكن يدرك أن الشفقة التي أبداها لها كانت تثير حنقها. كانت ترى أنه يضمر لها العطفَ لا الحب. وفكَر في نفسه: «نعم، إنها تكرهني. ولن تغفر لي».

قال:

ـ هذا رهيب، رهيب!

في هذه اللحظة، بكى طفلٌ، لعله قد سقط، في الغرفة المجاورة. فأصاخت داريا الكسندروفنا إليه، ورقّتْ أساريرُ وجهها فجأة.

ثابتْ إلى نفسها لحظة، وبدت كأنها تتردد وتتساءل أين كانت، ثم نهضت بعجلةٍ واتجهت إلى الباب.

قال لنفسه وهو يلحظ تبدّلَ وجهها عند سماعها صراخ الصغير: «ومع ذلك، فهي تحب ابني، ابني؛ فكيف يمكن لها أن تكرهني؟».

قال وهو يتبعها:

ــ دولي، لي كلمة واحدة أيضاً.

ــ إن تبعتني ناديتُ الخدم والأولاد! ليعلموا جميعاً أنك نذل! سأذهب الآن لتبقى أنت وعشيقتك هنا.

وخرجت وهي تصفقُ البابَ.

تنهّد ستيڤان أركادييڤتش، وجفّف وجهه، ومضى إلى الباب دون ضوضاء.

قال في نفسه وهو يتذكر زعيقها وكلمتي «نذل». و «عشيقة»: «يقول «ماتفي» إن الأمور ستُسوّى، ولكن كيف؟ لستُ أرى إمكان ذلك. آه! آه! يا للمصيبة! لكم كان تعبيرها سوقياً. كان يمكن للخادمات أن يَسْمعننا! إن ذلك لشديد السوقيّة.

ظل ستيڤان أركادييڤتش، بضع لحظات، وحده، وجفف عينيه، وتنهّد، ثم انتصب واقفاً وخرج من الغرفة.

كان اليوم يوم الجمعة؛ وفي غرفة الطعام، كان الساعاتي الألماني يدوّر رقاص الساعة. تذكّر ستيڤان أركادييڤتش النكتة التي ألقاها عن هذا الرجل الشديد التدقيق حين قال: إن الألماني قد دُوِّر مدى الحياة ليدور الساعات، وتبسّم. كان ستيڤان أركادييڤتش يحب النكتة اللطيفة. ربما سوّيت الأمور بالفعل؛ التعبير لطيف، وسوف أوظّفه.

نادى:

ــ ماتفي!

وقال له حين ظهر:

ــ جهَزْ كل شيء مع ماريا في القاعة الصغرى من أجل آنا كادييفنا.

ــ حسناً، يا سيدي.

ارتدى ستيڤان أركادييڤتش معطفه، وخرج إلى درج المدخل.

سأله «ماتفي» وهو يسير معه:

ــ ألن تتعشى في البيت؟

ــ هذا رهنٌ بالظروف. هاك، خذْ هذا للنفقات. أهذا كاف؟ قال ذلك وأخرج من محفظته عشرة روبلات.

قال ماتفي وهو يُغلق باب العربة ويصعد درج المدخل:

ــ كاف أو غير كاف، لا بدّ من الاكتفاء بها.

في هذه الأثناء، أدركت داريا الكسندروفنا من صوت العربة أن زوجها قد غادر المنزل، وكانت قد هدّأت الطفل، فعادت إلى غرفتها، وكانت ملجأها الوحيد: فإذا ما خرجتْ منها انهالتْ عليها الهمومُ المنزلية. وحتى في هذه اللحظة القصيرة التي قضتها في غرفة الأولاد، طرحت عليها الإنكليزية وماترينا فيليمونوفنا عدة أسئلة لا تحتمل التأجيل، وهي وحدها القادرة على الردّ عليها: ما الذي نحضّره للأولاد من أجل نزهتهم؟ أيمكن أن نسقيهم الحليب؟ هل نبحث عن طاه آخر؟

قالت لهما:

ــ آه! اتركاني، اتركاني!

وحين عادت إلى غرفتها جلستْ في الموضع الذي تجلس فيه أثناء حديثها مع زوجها؛ واستعادت في ذاكرتها كل الحديث الذي جرى بينهما، وهي تشدّ بإحدى يديها على الأخرى، اللتين نحلت أصابعهما فقلقتْ خواتمها.

فكّرت في نفسها: «لقد ذهب! لكن كيف قطع علاقته «بها»! أمن الممكن أنه ما يزال يراها؟ لمَ لم أسألْه؟ لا، لا، لا يمكننا أن نستأنف حياتنا المشتركة. وحتى لو بقينا تحت سقف واحد فسوف نكون غريبين أحدنا عن الآخر، غريبين». وكرّرتْ بلجاجةٍ خاصة هذه الكلمة الشديدة القسوة. ومع ذلك، فكم كنتُ أحبه، يا إلـٰهي، كم كنتُ أحبه!... كم كنت أحبه! والآن، هل كففتُ عن حبه؟ ألستُ أحبه أكثر من ذي قبل؟ أفظع ما في الأمر أن...

لكنها لم تتم هذه الفكرة التي بدأتها لأن ماترينا فيليمونوفنا أطلّت برأسها من الباب وقالت:

ـ أرسلي في طلب أخي؛ فسوف يُعدّ العشاء على الأقل؛ وإلاَّ لأصابنا اليوم ما أصابنا أمس، ولظل الأولاد بدون طعام حتى السادسة.

ـ حسناً؛ هأنذا آتيةٌ لإصدار أوامري. هل ذَهَبَ مَنْ يأتي بالحليب الطازج؟

وانغمستْ داريا الكسندروفنا في مشاغل النهار، وأغْرقت حزنها للحظةٍ من الزمان.

[٥]

كان ستيڤان أركادييڤتش متفوقاً في دراسته لأنه كان موهوباً؛ لكن كسله وخفته جعلاه بين أواخر المتخرجين من المدرسة. على أنه، بالرغم من حياته المنحلة، وبالرغم من درجته المتواضعة ومن شبابه، فقد كان يشغل منصباً مرموقاً وحسن الأجر. كان رئيساً لأحد مجالس[١] موسكو. وقد حصل على هذا المركز

(١) يستخدم تولستوي هنا كلمة مبهمة تعني: جلسة، مجلس. ولكن بما أننا نعلم أن نائب حاكم موسكو بيرفيلييف قد تعرف على شخصه في شخصية أوبلونسكي فيمكننا أن نخمن أن المقصود هو مجلس حكومة مقاطعة موسكو، وكان نائب الحاكم رئيساً لهذا المجلس بحكم منصبه.

بفضل زوج أخته آنا، الكسي الكسندروفتش كارينين، وهو أحد كبار موظفي الوزارة التي ترتبط بها المحكمة. لكن، لو لم يوجد كارينين لأمكن لمئات الأشخاص من أبناء العم أو بنات العم أو الأهل أو الأعمام أن يحصلوا له على هذا المنصب أو أي منصب آخر شبيه به، بمرتب قدره ستة آلاف روبل، وهو المبلغ الضروري لمعيشته، لأن أموره المالية كانت سيئة بالرغم من ثروة امرأته.

كان نصف أهالي موسكو وبطرسبرج من أقرباء ستيڤان أركادييڤتش وأصدقائه. فقد ولد في وسط أقوياء هذا العالم. كان ثلث رجال الدولة من الجيل السابق أصدقاء والده وقد عرفوه وهو في المهد؛ وكان الثلث الثاني يعامله برفع الكلفة؛ أما الثلث الثالث فكان على صلة حسنة به؛ وكان موزّعو الخيرات الأرضية من وظائف ومزارع وامتيازات... إلخ، من أصدقائه، ولم يكن بوسعهم التخلّي عن واحد منهم. لم يجد أوبلونسكي إذن مشقة عظيمة في الحصول على وظيفةٍ مُربحة؛ وكان يكفيه ألاّ يرفض شيئاً، ألا يحسد أو يخاصم أحداً، ألاّ يبدو نزقاً؛ وهو في ذلك كله يجري مع طيبته الطبيعية. وكان سيجد من المضحك أن يُحرم من المنصب والمرتّب اللذين هو بحاجة إليهما، ولا سيّما أنه لم يكن يطلب شيئاً خارقاً للعادة، وإنما كان يطلب فقط ما ينالُه لداته، وكان قادراً كأي منهم أن يملأ وظيفة من هذا النوع.

جميع الذين عرفوا ستيڤان أركادييڤتش لم يحبوه فقط من أجل طبعه السمح، ومرحه، ونزاهته التي لا مراءَ فيها. بل إن مظهره المُعجب، وعينيه الملتمعتين، وسواد حاجبيه وشعره، ونضارة لونه، كل ذلك كان يشدّ جميع الذين يلتقونه شداً جسدياً ويبعث فيهم شيئاً من الرضا والسرور. كان الناسُ يقولون دائماً بابتسامة مشرقة عندما يلمحونه: «آه! ستيڤا! أوبلونسكي! هاهوذا! وحتى حين لم يكن ينتج عن هذا الحديث ما يدعو إلى الفرح العظيم، فإن الناس كانوا يبتهجون عندما يلتقونه في اليوم الثاني وفي اليوم الثالث.

بعد أن شغل ستيڤان أركادييڤتش مركز رئيس أحد مجالس موسكو مدة سنتين، حاز محبةَ زملائه ومرؤوسيه ورؤسائه وجميع الذين لهم علاقة به، كما حاز تقديرهم. أما الصفات التي عادت عليه بهذا التقدير العام فكانت: أولاً تسامح إلى أقصى الحدود تجاه الناس، وهو تسامحٌ مبنيّ على الشعور بعيوبه الخاصة؛ ثانياً نزعة تحرّرية مطلقة، لا النزعة التي كانت تُمدح في الجرائد، وإنما تلك التي هي في دمه، والتي بفضلها كان يُعامل أمثاله معاملةً واحدة، مهما تكنْ مراتبهم وشروط حياتهم؛ ثالثاً، وهذا هو الأهم؛ لا مبالاة تامة بمهنته، لا مبالاة حمتْه من الانحراف وراء العواطف ومن ركوب الخرق والخطأ.

عندما وصل ستيڤان أركادييڤتش إلى المجلس ومعه حاجب مفرط في التزلّف يحمل له حقيبته، قصد إلى مكتبه وارتدى بزته ودخل إلى قاعة الجلسات. فوقف المساعدون والكتاب، وحيّوه بفرح واحترام. ومضى إلى مكانه بخطوات سريعة، على عادته دائماً، وصافح أعضاءَ المجلس، ومازحهم وحدثهم ضمن حدود اللياقة، ثم افتتح الجلسة. لم يكن هناك من هو أدق منه في الجمع المعتدل بين الحرية والبساطة وبين اللهجة الرسمية التي كان من الضروري الاحتفاظ بها ليمارس مهنته بسرور. قدّم إليه أمينُ السر أوراقاً وهو طلق المحيا، بادي الاحترام، شأنه شأن جميع الذين يعملون بامرة ستيڤان أركادييڤتش، وقال بلهجة متبسّطة ومتحرّرة، وهي لهجة أدخلها أوبلونسكي:

ــ أرسلَ إلينا مجلس مقاطعة «بنزا» المعلومات أخيراً. وهي هنا، إذا سمحتَ...

قال ستيڤان أركادييڤتش وهو يدسُّ اصبعه بين الأوراق:

ــ آه! لقد حصلتَ عليها أخيراً! حسناً! أيها السادة...

وبدأت الجلسة.

وفكّر في نفسه، وهو يَحْني رأسه، وقد بدا عليه مظهرُ الرصانة أثناء قراءة

التقرير: «لو رأوا سحنة هذا السوقيّ، المذنب، سحنة رئيسهم قبل نصف ساعة» وضحكتْ عيناه. وكان مقرراً أن تستمر الجلسة بدون انقطاع حتى الساعة الثانية؛ وفي الساعة الثانية تُعلّق الأعمال لتناول الغداء.

قبل أن تبلغ الساعةُ الثانيةَ انفتحتْ فجأةً أبوابُ القاعة العاليةُ، الزجاجية، ودخل شخص. فالتفت نحو المدخل جميعُ أعضاء المجلس الجالسين تحت صورة الأمبراطور، خلف مرآة العدل[1]، وقد لذلّهم أن ينصرفوا عن عملهم؛ لكن الحاجب طرد هذا الواغلَ وأغلق الباب خلفه.

عندما انتهت قراءةُ التقرير، نهض ستيڤان أركادييڤتش وتمطّى، وسار على تحررية العصر، فتناول سيجارةً في قاعة الجلسات، قبل أن ينتقل إلى مكتبه. وخرج معه اثنان من زملائه هما الخبير نيكيتين والنبيل غرينيفتش.

قال ستيڤان أركادييڤتش:

ــ لدينا متسعٌ من الوقت بعد الغداء، للانتهاء من العمل.

قال نيكيتين:

ــ بدون شك.

قال غرينيفتش وهو يتحدث عن أحد الأشخاص المتهمين في القضية التي كانوا يدرسونها:

ــ لا بد أن يكون «فومين» هذا نذلاً ذائع الشهرة.

قطّب ستيڤان أركادييڤتش بين حاجبيه موحياً بذلك إلى أنه من غير اللائق إصدار أحكام مبتسرة. ولم يجب.

وسأل الحاجبَ:

---

(١) مرآة العدل: موشور مثلثي يعلوه نسر ذهبي ذو رأسين، وعلى جدران الموشور ثبتت تحت الزجاج ثلاث قرارات من بطرس الأكبر حول حقوق المواطنين. وكانت هذه المرآة التي توضع على الطاولة في كل محكمة أو مجلس دولة، ترمز إلى وجود القيصر.

ـ مَنْ الذي دخل قبل قليل؟

ـ رجلٌ انسلَّ من غير إذنْ، عندما أدرتُ ظهري، يا صاحب السيادة. كان يسألُ عنك. فقلت له أن ينتظر ريثما ترفع المحكمةُ جلستها.

ـ وأين هو؟

ـ أظن أنه ذهب إلى البهو، وكان يتمشّى هنا.

ثم قال الحاجب وهو يشير إلى رجل قوي البنية، عريض المنكبين، أجعد اللحية، يصعد الدرجات الحجرية المتداعية أربعاً فأربعاً، دون أن يرفع قبعته المصنوعة من جلد الخروف.

ـ ها هو ذا.

نظر أحد الموظفين، وهو شخص مراوغ كان ينزل الدرج، ومحفظته تحت ذراعه، نظرة مستنكرة إلى رجلي الشاب، واستفهم أوبلونسكي بنظرة أخرى.

توقّف ستيڤان أركادييڤتش على أول درجة. وإذا بوجهه المتفتح الأسارير فوق قبّة بزّته المطرزة، يُشرق عندما عرفَ القادم.

قال وهو يبتسم ابتسامةً ودّية، ساخرة، وينظر إلى «ليفين» الذي أخذ يدنو منه:

ـ إنه هو بعينه! ليفين، أخيراً!

لم يكتف ستيڤان أركادييڤتش بأن شدّ على يد صديقه بل إنه عانقه قائلاً:

ـ ألم تخشَ من البحث عني في هذا «العرين». أأنت هنا منذ زمن طويل؟

أجاب ليفين وهو ينظر حوله نظرات وجلة، غاضبة، قلقة:

ـ وصلتُ قبل لحظة، وأنا في أشد الشوق إلى رؤيتك.

قال ستيڤان أركادييڤتش الذي كان يعرف ما في وجَلَ صديقه من إباء ونفور، وهو يمسك بذراعه ويسوقه وكأنه يقوده في وسط المخاطر:

ـ هيّا إلى مكتبـي.

كان ستيڤان أركاديڤتش يخاطب بضمير المفرد جميع الذين يعرفهم تقريباً: الشيوخ أبناء الستين، الفتيان أبناء العشرين، والممثلين والوزراء والجنرالات. . . حتى إن عدداً كبيراً ممن يخاطبهم بضمير المفرد ويزيل الكلفة بينه وبينهم، هم في طرفي السلم الاجتماعي، وكانوا سيدهشون لو علموا أن هناك، بفضل أوبلونسكي، شيئاً مشتركاً بينهم. كان يخاطب بضمير المفرد جميع الذين يعبّ معهم الشمبانيا، وكان يعبّ الشمبانيا مع جميع الناس، ولذلك فعندما كان يَلْقى، بحضور مرؤوسيه، أحدَ الذين يخاطبهم بضمير المفرد «خَجِلاً»، وهي كلمة كان يطلقها على عدد كبير من أصدقائه، على سبيل المزاح، فقد كان يُحسنُ، بلباقته النظرية، أن يجنّب مرؤوسيه كل شعور بالهوان. ولم يكن «ليفين» «خَجِلاً»، لكن أوبلونسكي أحسّ بغريزته. أن ليفين يعتقد أنه يستطيع أمام مرؤوسيه، الاستغناء عن عرض العلاقة الحميمة بينهما على الناس، ولذلك اقتاده إلى مكتبه.

كان ليفين من لِدات أوبلونسكي تقريباً، وإذا كان يخاطبه بضمير المفرد فليس مرد ذلك فقط لأنهما شربا الشمبانيا معاً. بل إنهما كانا صديقي الطفولة. وقد تحابّا بالرغم من اختلاف طبعيهما وذوقيهما، كما يتحاب الصديقان اللذان ارتبط أحدهما بالآخر منذ مَطْلع الصبا. لكن كلاً منهما كان يحتقر الآخر في أعماق قلبه، وإن وافقه بالمحاكمة على نشاطه، وذلك كما يقع، في الغالب، بين الذين اختاروا مجالات مختلفة لنشاطهم. كان كلّ واحد منهما يرى أن الحياة التي يحياها هي الحياة الحقيقية الوحيدة، وأن حياة الآخر. . . سرابٌ ولم يكن أوبلونسكي يستطيع أن يقمع ابتسامةً خفيفة عندما يلمح ليفين. وكم من مرة رآه قادماً من الريف حيث كان يفعل «شيئاً ما» (ما لم يكن ستيڤان أركاديڤتش يعلم بالضبط ماذا كان يفعل، ولم يكن يهتم بذلك إطلاقاً). وكان ليفين يصل إلى موسكو دائماً وهو مضطرب، مستعجل، متخوّف قليلاً، وحانقٌ على هذا التخوف، حاملٌ، في معظم الأحيان، وجهات نظر في الأشياء جديدة كل الجدة وغير متوقعة. وكان ستيڤان أركاديڤتش

يضحك منها ويلهو بها. وكان ليفين بدوره يحتقر حياة المدينة التي يحياها صديقه، ويحتقر مهنته التي كان يعتبرها مزحةً ويهزأ بها. والفرق الوحيد بينهما هو أن أوبلونسكي كان يفعل ما يفعله الناس جميعاً فيضحك بثقة وطيبة، على حين أن ليفين كان يشك بذاته، ويضحك في بعض الأحيان ضحكة صفراء.

قال ستيڤان أركادييڤتش عندما ولج مكتبه وأرخى يد صديقه، كأنه يريد أن يدلل على زوال الخطر:

ــ كنا ننتظرك منذ زمن طويل.

وتابع قائلاً:

ــ يسعدني أن أراك. كيف حالك؟ ماذا تفعل؟ ومتى وصلتَ؟

ظل ليفين صامتاً ينظر إلى وجهي زميلي أوبلونسكي اللذين لم يرهما من قبل، وإلى يديْ غرينفتش الأنيقتين بأصابعهما البيضاء المرهفة، وأظافرهما الطويلة، الصفراء، والمحدّبة الأطراف، وإلى زرّي كميه الضخمين، اللامعين؛ وكأن هاتين اليدين هما اللتان تستغرقان انتباهه، وتحرمانه حريةَ التفكير. لاحظ أوبلونسكي ذلك على الفور وابتسم قائلاً:

ــ آه! نعم، اسمحوا لي أن أقوم بالتعارف بينكم: زميلاي فيليب أيفانوفتش نيكيتين، ميشيل ستاينسلافتش غرينفتش، ثم التفت إلى ليفين: إداريّ في الأقاليم، رجل المجالس المحلية[1] الجديد، مصارع يحمل بيد واحدة مائة وخمسين ليبرة، مربٍّ للحيوانات وصياد، صديقي قسطنطين دميتريفتش ليفين، أخو سيرج

---

(١) المجالس المحلية: هي الـ «زيمستفو»: أي الحوكمة الذاتية المحلية التي أدخلهما إصلاح ١٩ شباط ١٨٦٤. ففي كل مقاطعة كان الأشراف والأغنياء والفلاحون ينتجون مجلس المقاطعة. كما مجلساً للحكومة كان ينتخب أيضاً لإدارة أعمال الإقليم. وكانت له ميزانيته وكان يهتم، على الخصوص، بالمساعدة الطبية وبالمستشفيات والمدارس والزراعة والإحصاء.

أيفانوفتش كوزينتشيف[1].

قال الشيخ القصير:

ــ أنا سعيد بمعرفتك.

وقال غرينفتش وهو يمدُّ يده الدقيقة بأظافرها الطويلة:

ــ كان لي الشرفُ بمعرفة أخيك سيرج إيفانوفتش.

تجهّم ليفين وصافحه ببرودة. والتفت، من فوره، نحو أوبلونسكي. فمع أنه كان يكنّ كثيراً من التقدير لأخيه، الكاتب الشهير في روسيا كلها، إلاَّ أنه لم يكن يطيق أن يخاطبه الناس على أنه أخو كوزيتشيف الذائع الصيت، لا على أنه قسطنطين ليفين. وقال وهو يتطلع إلى أوبلونسكي:

ــ لا، لم أعدْ عضواً في المجالس المحلية. لقد اختلفت مع الجميع، وانقطعت عن الاجتماعات.

قال أوبلونسكي وعلى وجهه ابتسامة:

ــ إن ذلك لم يدم طويلاً! فلماذا؟ وكيف؟

قال ليفين:

ــ إنها قصة طويلة. وسأروي لك ذلك فيما بعد.

لكنه ما لبث أن بدأ قائلاً بلهجةٍ كلهجة من لحقت به إهانة:

ــ سألخص لك ذلك بكلمتين، لقد توصلتُ إلى القناعة بأن العمل في المجالس المحلية غير ممكن. إنها لعبة، من جهة أولى: والناس يلهون في البرلمان؛ ولست شاباً فتياً ولا شيخاً طاعناً في السن حتى أتلهّى باللعب. ومن جهة أخرى، (وهنا تردّد) إنها وسيلة لطغمة الأقاليم كي يربحوا المال. وكان هناك قديماً

(١) كوزنيتشف: اسم خيالي لأستاذ معروف. فمن المحتمل أن تولستوي قد استلهم، لتصوير هذه الشخصية، شخص بوريس تشيتشيرين (١٨٢٨ ــ ١٩٠٤) وهو مؤرخ للحقوق، وفيلسوف ذو اتجاه هيغلي، وكان المؤلف على صلة وثيقة به في هذه الفترة.

الوصايات والمحاكم، أما اليوم فهناك المجالس المحلية. والناس لا يرتشون فيها لكنهم يحصلون على مرتّبات لم يستحقوها.

قال ذلك بشيء من الحدّة وكأن أحد الحاضرين يريد أن يدحض رأيه.

قال له ستيڤان أركادييڤتش:

ــ هيه! هيه! أرى أنك تمر بمرحلة جديدة، إنك تنقلب إلى جهة المحافظين. سنتحدث عن ذلك فيما بعد.

قال ليفين وهو يلقي نظرة حاقدة على يدي غرينفتش:

ــ نعم، صحيح. لكني بحاجة إلى أن أراك.

ابتسم ستيڤان أركادييڤتش ابتسامة خفية، وقال وهو يتفحص بزّةَ صديقه الجديدة التي لعلها خرجت لتوها من عند الخياط الفرنسي:

ــ ما هذا؟ قلتَ إنك لن ترتدي ثياباً أوروبية! حقاً، أنها مرحلة جديدة. . .

احمرَّ ليفين فجأة، لا كما يحمرّ الكبار، سطحياً، دون أن يفطنوا لذلك، لكنْ كالصبيْ الذي يحسّ أن حياءه يجعله مضحكاً فيزداد تضرجاً إلى حد ذرف الدموع. كان شيئاً مؤلماً أن يصطبغ وجهه الذكي، الرجولي بذلك التعبير الصبياني، حتى إن أوبلونسكي أشاح بوجهه.

قال ليفين:

ــ نعم، أين يمكن أن نلتقي؟ لا بد لي من محادثتك.

بدا أوبلونسكي مستغرقاً في تفكير عميق:

ــ إني اقترح عليك ما يلي: لنتناولْ الغداء في «غورين»[١]. يمكننا الحديث هناك. أنا حر حتى الساعة الثالثة.

قال ليفين بعد أن فكر لحظة:

ــ لا، علي أيضاً أن أقوم بجولة.

(١) غورين: مطعم كبير في موسكو.

ـ إذن، فلنتناولْ العشاء معاً.

ـ العشاء؟ لكن ليس لدي شيءٌ خاص أقوله لك: كلمتان فقط؛ وسوف نتحدث فيما بعد.

ـ حسناً؛ قل لي الكلمتين وسوف نتحدث أثناء العشاء.

قال ليفين.

ـ حسناً. على كل حال، ليس هناك شيء خاص.

واكتسى وجهُه تعبيراً منكراً جاءه من الجهد الذي بذله للتغلب على حيائه. قال:

ـ ماذا يفعل آل تشرباتزكي[1]؟ ألم يتغيّر شيء؟

ـ ابتسم ستيڤان أركادييڤتش الذي كان يعلم منذ زمن بعيد أن ليفين مغرمٌ بأخت زوجته «كيتي»، ابتسامة خفية، وأخذت عيناه تلتمعان بفرح.

ـ قلت لي: «كلمتان»، لكني لا أستطيع أن أجيبك بإيجاز، لأن... اعذرني لحظة...

دخل أمين السر وقد بدت عليه تلك الألفةُ الممتزجة بالاحترام، وامتلأ بذلك الشعور المتواضع المشترك بين جميع أمناء السر، وهو الشعور بتقدّمه على رئيسه في شؤون العمل. وحمل أوراقاً إلى أوبلونسكي وأخذ يشرح له إحدى الصعوبات، على شكل أسئلة. وضع ستيڤان أركادييڤتش يده بتودّد على كم أمين السر، دون أن ينتظر انتهاءه من عرضه وقال له، وهو يلطّف ملاحظته بابتسامته:

ـ لا، افعلْ ما قلتُه لك.

وبعد أن شرح له بإيجاز كيف يفهم القضيّة، دفع الأوراق وقال: افعلْ هكذا، أرجوك، يا زخريانيكيتش.

---

(١) تشرباتزكي: اسم علم مبنى على غرار اسم أمراء آل شرباتوف.

انسحب أمين السر خجلاً. وذهب عن ليفين اضطرابُه تماماً أثناءَ هذا الحديث؛ وقد ظل واقفاً، مستنداً إلى كرسي، وعلى وجهه أماراتُ الانتباه الساخر، قال:

ــ لا أفهم، لا أفهم.

قال له أوبلونسكي بابتسامة فرحة، وهو يتناول سيجارة:

ــ لا تفهمُ ماذا؟

كان أوبلونسكي ينتظر فَوْرةً مفاجئة، غريبة، من فورات ليفين.

قال ليفين وهو يهز كتفيه:

ــ لا أفهم ما الذي تفعله. كيف يمكنك أن تفعل ذلك جاداً؟

ــ لماذا؟

ــ لأنه ليس لديك ما تفعلهُ.

ــ أتعتقد ذلك، لكننا مرهقون بالعمل.

وأردف ليفين قائلاً:

ــ أكداس من الورق. لكنك موهوب لهذا العمل.

ــ أنت تعتقد، إذن، أنه ينقصني شيءٌ ما؟

قال ليفين:

ــ ربما. لكني مُعجب بما لك من وقار، رغم كل شيء، وأنا فخور أن يكون صديقي شخصاً عظيم الشأن مثلك.

وأضاف وهو يحمل نفسه حملاً على النظر في عيني أوبلونسكي:

ــ على كل حال، إنك لم تجب عن سؤالي.

ــ حسناً، حسناً؛ انتظر قليلاً، وسوف تنضمّ إلينا أيضاً. ستظل أمورُك على ما يرام ما دام لك ثلاثةُ آلاف هكتار في مقاطعة كارازينو، وعضلاتٌ كعضلاتك، ونضارةُ صبيّةٍ ابنة اثني عشر عاماً، لكنك ستعود إلينا، أنتَ أيضاً. أما جواب

سؤالك فهو أنه لم يحدث أيُّ تبدل. لكن من المؤسف أنك غبتَ زمناً طويلاً قبل أن تجيءَ.

سأله ليفين بهلع:

لماذا؟

أجاب أوبلونسكي:

ـ لأن... سنتحدث عن ذلك فيما بعد. ما الذي جاءَ بك؟

قال ليفين الذي احمرَّ من جديد حتى بياض عينيه:

سنتحدث عن ذلك أيضاً.

قال ستيڤان اركادييڤتش:

ـ حسناً، فهمت، كنت سأدعوك إلى البيت لولا أن زوجتي متوعكة. إذا كنتَ تحب أن تراهم فسوف يكونون، بالتأكيد في حديقة الحيوانات من الرابعة إلى الخامسة. كيتي تمارس التزلج. اذهبْ إلى هناك. سألحق بك وسنذهب إلى العشاء معاً.

ـ ممتاز، إلى اللقاء القريب، إذن.

وصرخ به ستيڤان اركادييڤتش:

ـ انتبهْ، فأنا أعرفك: أنت قادرٌ على أن تنسى أو على أن تعود فجأة إلى الريف.

ـ لا، سآتي من غير شك.

غادر ليفين المكتب، وقد تذكر، في اللحظة التي اجتاز فيها الباب أنه نسي توديع زميلي أوبلونسكي.

قال غرينفتش بعد أن خرج ليفين:

ـ يبدو هذا السيد حازماً، شديد الحزم..

قال ستيڤان اركادييڤتش وهو يهز رأسه:

ــ نعم، يا عزيزي. إنه فتى جسور وسعيد! ثلاثة آلاف هكتار في مقاطعة كارازينو! ومستقبله كله ما يزال أمامه، ثم أية نضارة! وليس مثلنا نحن. . .

ــ ليس لديك ما يدعو إلى الشكوى، يا ستيڤان اركادييڤتش.

قال ستيڤان اركادييڤتش، وهو يتنفس الصعداء:

ــ بلى، كل شيء يسير سيراً سيئاً.

[٦]

عندما سأل اوبلونسكي ليفين عما دعاه إلى المجيء. احمرّ ليفين وحنق على نفسه، لأنه لم يستطع أن يجيب: «جئت أطلب يد أخت زوجتك». ومع ذلك، فإنما يستطع أن يجيب: «جئت أطلب يد أخت زوجتك». ومع ذلك، فإنما جاء من أجل هذه الغاية وحدها.

كان بين أسرتي ليفين وتشرباتزكي، وهما من الأسر الموسوكوفية العريقة والنبيلة، علاقات ودية دائماً، وقد توطدت هذه الأواصر أثناء سني دراسة ليفين. لقد قام بالتحضير لدخول الجامعة ودخلها في الوقت نفسه الذي دخلها فيه الأمير الشاب تشرباتزكي، أخو دولي وكيتي. وكان ليفين، في هذه الحقبة، يتردد باستمرار على منزل أسرة تشرباتزكي وكان شديد التعلق بكل مَنْ في البيت، كان قسطنطين ليفين مشغوفاً بالأسرة كلها. مهما يبدُ ذلك غريباً، ولا سيما بالعنصر النسائي من أسرة تشرباتزكي.

لم يحتفظ ليفين بأية ذكرى من أمه، وكانت أخته الوحيدة أكبر منه سناً، بحيث أنه إنما تعرف في منزل تشرباتزكي بهذا الوسط النبيل والمثقف، وسط الأسر العريقة والنبيلة، الذي حُرمه بسبب موت ذويه. كان جميع أفراد الأسرة، ولا سيما النساء، كأنما تحيط بهم هالةٌ شعرية، محفوفة بالأسرار. ولم يكن يراهم مُبرّئين من كل عيب فحسب، بل إنه كان يَنْسبُ إليهم، في ظل هذه الهالة الشعرية، أرفعَ

المطامح، وجميع ضروب الكمال الممكنة، لماذا كان على هؤلاء الفتيات الثلاث أن يتكلمن الفرنسية والإنكليزية يوماً من يومين؟ لماذا كن يتعاقبن، في بعض الساعات، على البيانو الذي كانت تتعالى أنغامه لتصل إلى غرفة أخيهن، حيث كان يعمل الشابان؟ لماذا كان يمرُّ بالبيت أساتذةُ الأدب الفرنسي، والموسيقا والرسم والرقص؟ لماذا كانت الآنساتُ الثلاث يتوجهن مع الآنسة لينون، في ساعة محدّدة، إلى شارع «تفير»، مرتديات معاطف الساتان (كان معطف دولي طويلاً، ومعطف ناتالي متوسط الطول، ومعطف كيتي قصيراً يكشف عن ساقيها الصغيرتين البديعتين في جوربين أحمرين مشدودين شداً عظيماً)؟ لماذا كان ينبغي لهن أن يتنزهن في شارع تفير، بحراسة خادم يعلّق شارةً مذهبة على قبعته؟ كان كل ذلك يغيب عن فهمه، شأنُه شأن ذلك جميع الأحداث التي تطرأ على عالمهن المحفوف بالأسرار، لكنه كان يعلم أن كل ما يقع هناك هو عجيب، وكان مغرماً، على وجه التحديد، بهذا الجو المحفوف بالأسرار الذي يغمر البيت.

أثناء سني الجامعة، كاد يهيم بالابنة الكبرى، دولي، لكنها سرعان ما اقترنت بأوبلونسكي. عند ذاك، أخذ يُشغَف بالوسطى، وكان يحس إحساساً مبهماً بأنه يجب عليه أن يغرم بإحدى الأخوات، دون أن يحدد بالضبط أيهن، لكن ناتالي، بدورها، ما لبثت بعد ظهورها في المجتمع، أن تزوجتْ الدبلوماسي لفوف. وكانت كيتي ما تزال طفلةً عندما ترك ليفين الجامعة. أما الشاب تشرباتزكي الذي دخل البحريّة فقد غرق في بحر البلطيق. ولذلك تراختْ العلاقات بين ليفين وأسرة تشرباتزكي، بالرغم من المودة التي يكنّها لأبلونسكي. لكن ليفين، عندما وصل في هذا العام، في بداية الشتاء، إلى موسكو، بعد سنة قضاها في الريف، ورأى أسرة تشرباتزكي، أدرك أيّ الثلاث قُدِّر له أن يُحب.

لم يكن ما هو أسهل عليه، في الظاهر، من طلب يد الأميرة تشرباتزكي، فشاب مثله في الثانية والثلاثين، من أسرة كريمة، حسن الثروة، سيُعتبر، في أكبر

الظن، زوجاً صالحاً. لكن ليفين كان عاشقاً، وكانت كيتي تبدو له هي الكمال من جميع النواحي، وهي الكائن الذي يرتفع فوق جميع الاحتمالات، وكان يعتبر نفسه تافهاً، أشد التفاهة مبتذلاً أشد الابتذال، حتى ليتعذر التفكير ذاته في أن الناس أو هي يرونه جديراً بها.

بعد أن قضى شهرين في موسكو، وكأنه في حلم، ملتقياً كيتي كل يوم في المجتمع الراقي، حيث كان يذهب ليلقاها، قرّر فجأة أن ذلك غير ممكن فعاد إلى أرضه. كان قانعاً بأن أهلها يرونه غير كفء للفاتنة كيتي، وأن كيتي نفسها لا يمكن أن تحبه. لم يكن له، في نظر أهلها، أي شغل منتظم ومحدد، ولا أي وضع في المجتمع، في حين أن رفاقه كانوا، بعد أن بلغ هو الثانية والثلاثين، بين عقيد ومساعد عسكري وأستاذ ومدير لمصرف أو لخط حديدي ورئيس لمحكمة مثل أوبلونسكي؛ أما هو (وكان يعلم جيداً رأيهم فيه) فكان ملاكاً، يربي البقر، ويصيد دجاج الأرض، ويعنى بالبناء؛ ما كان إلا شخصاً عاجزاً إذن، لم يبلغ شيئاً، ولم يكن له، في نظر المجتمع، من مشاغل سوى مشاغل الذين لا يصلحون لشيء.

ولم تكن كيتي نفسها، تلك التي يكتنفها السحرُ والسرُ، تستطيع أن تحب شخصاً قبيح النظر (كان يظن نفسه قبيحاً) بسيطاً وعادياً مثله. وفضلاً عن ذلك، فإن علاقاته القديمة مع كيتي (علاقات رجل بطفلةٍ، نتيجة صداقته لأخيها) بدت له كأنها عقبةٌ أخرى في وجه حبّه. كان يعتقد أن شخصاً طيباً، خالياً من الجاذبية الجسدية، (كذلك كان يرى نفسه) يمكن أن يوحي بالصداقة، لكنْ، لكي يُحَبَّ بمثل الحب الذي يحمله لكيتي،، لا بدَّ له من أن يكون جميلاً وأن يكون. . . متفرّداً، على وجه الخصوص.

لقد سمع أن النساء يحببن، في الغالب، الرجال القبيحي المنظر، القليلي الذكاء، لكنه لم يكن يعتقد ذلك، لأنه كان يرى الأمور من خلال نفسه، فهو لا يستطيع أن يحب سوى المرأة الجميلة، المتفردة، التي تكتنفها الأسرار.

على أنه بعد أن قضى شهرين في الريف، أيقن أن ما عراه لم يكن ضرباً من الافتتان الشبيه بما عراه في مطلع شبابه، وأن هذه العاطفة لا تترك له دقيقة واحدة من الراحة، وأنه لا يستطيع أن يعيش دون أن يعلم إن كانت ستصبح زوجةً له أم لا، وأن فقدانَه الأمل لا مسوّغَ له إلا في خياله، وأنْ لا شيء يثبت أن طلبه سيُرفض. فاستقل القطار إلى موسكو وقد عقد العزم على أن يعلن عن حبه وأن يتزوج إن قُبل طلبه. وإلا... لكنه لم يكن يستطيع التفكير فيما سيصيبه لو رُدّ خائباً.

[٧]

عندما وصل ليفين إلى موسكو، في قطار الصباح، نزل في بيت أخيه من أمه، كزنيتشيف. وبعد أن بدّل ثيابه قصد إلى مكتب أخيه، وفي نيته أن يحدثه، على الفور، عن سبب مجيئه، وأن يطلب مشورته؛ لكن أخاه لم يكن وحده. كان معه أستاذُ فلسفة مشهور، جاء خصّيصاً من خاركوف ليجلو خلافاً وقع بينهما في نقطة فلسفية عظيمة الأهمية، كان الأستاذ يشنّ هجوماً عاتياً على الماديين، وكان سيرج كوزنيتشيف يتابع باهتمام هذا الهجوم، وبعد أن قرأ آخر مقالات الأستاذ، وجه إليه، في رسالة أرسلها، بعض الانتقادات؛ لقد أخذَ على الأستاذ أنه يتساهل كثيراً مع الماديين. وما لبث الأستاذ أن وصل ليشرح رأيه. وكان موضوع الجدل قضيةً شاع الاهتمام بها وهي: هل هناك حدٌّ بين الظاهرات النفسية والفيزيولوجية في نشاط الإنسان، وأين يقع هذا الحدُّ؟

استقبل سيرج إيفانوفتش أخاه بالابتسامة اللطيفة والباردة التي كانت ابتسامته المعتادة، وبعد أن قدّمه للأستاذ، استأنف حديثه.

توقف الرجل القصير ذو النظارتين والجبهة الضيقة لحظة ليسلّم على ليفين واستأنف برهانه، دون أن يعيره انتباهاً، جلس ليفين منتظراً انصراف الأستاذ، لكن

الحديثَ ما لبث أن استرعى انتباهه، لقد قرأ، في المجلات، المقالات التي يجري الكلام عليها، واهتمّ بها كما يمكن أن يهتم بتطور العلوم الطبيعية إنسانٌ درسَ هذه العلوم في الجامعة، لكنه لم يُجر أية مقارنات بين هذه الاستنتاجات العلمية عن أصول الإنسان من حيث هو حيوان، وعن المنعكسات وعلم الأحياء وعلم الاجتماع، وبين المشكلات التي أخذت تشغله أكثر فأكثر: معنى الحياة والموت.

لاحظ، وهو يصغي إلى النقاش، أن المتحاوريْن يربطان بين المسائل العلمية والمسائل التي تتعلق بالروح؛ لقد أوشكا، مرة بعد مرة، أن يتطرّقا إلى هذه المسائل، لكنهما ما إن يقتربا مما هو جوهريّ، في رأيه، حتى ينصرفا عنه، على عجل، ليغرقا من جديد في ميدان التمييزات المرهفة، والتفنيدات، والاستشهادات، والإرشادات، والإحالات إلى الذين يُحتجّ بهم؛ وكان يفهم بمشقة ما يقال.

قال سيرج إيفانوفتش بوضوحٍ ودقة وأناقة معهودة في كلامه:

ـ لا أستطيع أن أسلّم، كما يسلم «هيس»، بأن كل تصوري عن العالم الخارجي يأتي من إحساساتي. إن المفهوم الأساسي «للوجود» لم يأتني عن طريق الحسّ، لأنه لا يوجد عضوٌ خاص لِنَقْل هذا المفهوم.

ـ نعم، لكن «ورست» و «كنوست» و «بريباسوف»[1] يجيبونك بأن شعورك بالوجود ينجم عن تلافي الإحساسات، وأن ليس سوى نتاج الإحساسات. بل إن «ورست» يَجْزمُ بأنه إذا انقطع الإحساس انقطع الشعور بالوجود.

بدأ سيرج إيفانوفتش يرد:

أرى، على العكس مما قلت، أن. . .

وفكّر ليفين، مرة أخرى، أنهما كانا يبتعدان عما هو جوهريّ كلما لامساه؛ فعزم على أن يطرح على الأستاذ سؤالاً. وسأله:

---

(١) هيس، ورست، كنوست، بريباسوف: أسماء فلاسفة من اختراع تولستوي.

ـ إذن، إذا غابتْ مشاعري في العدم، وإذا مات جسدي، فلا يمكن أن يكون هناك وجود؟

بدا الأستاذ مغتاظاً وكأنما جَرحتْه هذه المقاطعةُ فكرياً، فحدج بنظرته هذا الواغل الذي هو أشبه بساحب المراكب منه بالفيلسوف، ثم نقل بَصرَه إلى سيرج إيفانوفتش، وكأنه يسأله عما يجب أن يجيبه به، لكن سيرج إيفانوفتش لم يكن مستبداً برأيه كالأستاذ: لقد كان فكره يتسع ليجيب الأستاذ وأيضاً ليَفهم وجهة النظر البسيطة والطبيعية التي ساقت هذا السؤال؛ فتبسّم وأجاب:

ـ ليس لنا حق الفصل بعدُ في هذه القضية.

فشدد الأستاذ قائلاً:

ـ ليس لدينا معطياتٌ.

وتابع برهنته قائلاً:

ـ لا، وأنا أزعم أن الإحساسات إذا قامت، كما يقول بريباسوف، على الانطباعات، فينبغي علينا أن نميزّ بين هذين المفهومين بوضوح أكبر.

ترك ليفين الاستماعَ وانتظر انصراف الأستاذ.

[٨]

عندما انصرف الأستاذ التفت سيرج إيفانوفتش إلى أخيه:

ـ أنا مسرورٌ بوصولك. وهل تنوي البقاء هنا طويلاً؟ كيف حال أراضيك؟

كان ليفين يعلم أن أراضيه لا تَعْني أخاه البكر كثيراً، وأنه إنما أبدى اهتمامه من باب المجاملة فقط؛ ولذلك فقد اقتصر في كلامه على بيع القمح وقبض الإتاوات.

كان ليفين عازماً على أن يحدّث أخاه عن نيّته في الزواج وأن يطلب مشورته، كان قد وطدّ العزم على ذلك، لكنه عندما رأى أخاه، وأصغى إلى حديثه

مع الأستاذ، ثم سمع اللهجة المتعالية، على نحو غير مقصود، التي استخبر فيها عن إدارة الأراضي (كانت الأملاك التي ورثاها من أمهما ما تزال على الشيوع وكان ليفين هو الذي يديرها برمتها)، أحسّ أنه لا يستطيع أن يطلعه على مشروعه في الزواج أحسّ أن أخاه لن ينظر إلى المسألة كما يتمنّى.

سأله سيرج إيفانوفتش وكان يُعنى كثيراً بمحاولات الإدارة الإقليمية التي كان ينسب إليها أهمية عظيمة:

ــ كيف تسير المجالسُ المحلية عندكم؟

ــ لست أعرف شيئاً عن ذلك، على الإطلاق.

ــ كيف؟... أنت مع ذلك عضو في اللجنة التنفيذية[1]؟

أجاب ليفين:

ــ لا، لم أعدْ عضواً؛ قدمتُ استقالتي، وانقطعتُ عن الاجتماعات. قال سيرج إيفانوفتش وهو يقطّب بين حاجبيه:

ــ خسارة!

ولكي يبرّر ليفين مسلكه، أخذ يروي ما كان يجري في اجتماعات المجالس المحلية في مقاطعته.

فقاطعه سيرج إيفانوفتش:

ــ الأمر كذلك دائماً! هذه حالنا دائماً، نحن الروس! ولعل هذه المقدرة على رؤية أخطائنا جانبٌ صالح من طبعنا، لكننا نتجاوز الحد: نحن نلتذّ بالسخرية التي نملك أبداً رصيداً كبيراً منها. سأكتفي بأن أقول لك الشيء التالي: لو أننا أعطينا هذه الحقوق وهذه المؤسسات إلى شعب أوروبي آخر، كالألمان أو الإنجليز، لحوّلها إلى حرية، أما نحن فلا نُحسن إلا الضحك منها.

---

(١) اللجنة التنفيذية: كان المجلس المحلي ينتخب لجنة تنفيذية تهتم بالشؤون العادية.

قال ليفين كالمذنب:

ـ وما العمل؟ كانت هذه التجربة آخر تجاربـي. ولقد كرّست لها كلَّ جهودي. بذلتُ وسعي، أنا عاجز.

قال سيرج إيفانوفتش:

ـ لستَ عاجزاً، لكنك لا تنظر إلى المشكلة من زاويتها الحقيقية.

أجاب ليفين بلهجة كئيبة.

ـ ربما.

ـ أتعلم أن أخانا نيقولا قد عاد.

كان نيقولا شقيق قسطنطين ليفين الأكبر وأخا سيرج إيفانوفتش من أمه. كان إنساناً ضالاً بدّد الشطر الأكبر من ثروته، وتعلّق بجماعة غريبة لا خير فيها، واختلف مع أخويه.

قال ليفين بفزع:

ـ ماذا تقول؟ كيف عرفتَ ذلك؟

ـ رآه «بروكوب» في الشارع.

ـ هنا، في موسكو؟ أين هو؟ أتعلم ذلك؟

نهض ليفين، على الفور، كأنه يريد أن ينصرف.

قال سيرج إيفانوفتش الذي هزّ رأسه وهو يرى اضطراب أخيه الأصغر:

ـ آسف لإخبارك بذلك. لقد أرسلتُ مَنْ يسأل أين يسكن وبعثت إليه بكمبيالة على تروبين دفعتُها عنه. وهاك جوابَه.

وتناول سيرج إيفانوفتش من تحت ثقّالة الورق بطاقة مدّها لأخيه.

قرأ ليفين البطاقة المغطّاة بخط غريب، مألوف: «أرجو بتواضعٍ أن أُترَكَ وشأني. هذا كل ما أطلبه إلى أخويّ العزيزين.

نيقولا ليفين»

بعد أن اطلع ليفين على البطاقة، ظل واقفاً أمام سيرج إيفانوفتش، مطرق الرأس، والبطاقة بيده. وفي نفسه أخذت الرغبة في أن ينسى للحظةِ هذا الأخ الشقي تصارع شعوره بسوء التصرف.

قال سيرج إيفانوفتش:

ــ الظاهر أنه يريد إهانتي، ولن يستطيع، أما أنا فأتمنى من كل نفسي أن أمدّ له يدَ العون، لكنني أعلم أن ذلك مستحيل. فردّد ليفين:

ــ نعم، نعم. إني أفهم موقفك منه وأقدرّ ذلك الموقف، ومع ذلك فسأذهب لأراه.

قال سيرج إيفانوفتش:

ــ اذهبْ، إذا شئتَ، وإنّ كنت لا أنصحك بذلك. لست أخشى، من جانبـي، أن يُفسد ما بيننا. لكن، بالنسبة إليك، أؤكد لك أن الأفضل لك ألا تذهبَ. ليس بوسعنا مساعدته. على كل حال، افعلْ ما يحلو لك.

ــ ذلك ممكن، بيد أني أحسّ ولا سيّما في هذه اللحظة، (لكن هذه قضية أخرى)، أحسّ أنني لن أكون مطمئناً...

قال سيرج إيفانوفتش:

ــ لست أفهمك.

وأضاف:

ــ لست أفهم إلا شيئاً واحداً وهو أن في ذلك إذلالاً لنا. لقد أصبحتُ أكثر تساهلاً مع ما يُسمّى العار منذ أن صار أخونا نيقولا إلى ما صار إليه... أتعلم ماذا فعل؟

كرر ليفين:

ــ آه! هذا رهيب، رهيب!

وبعد أن طلب ليفين عنوان أخيه من خادم سيرج إيفانوفتش، أراد أن يتوجّه

رأساً إليه، لكنه غيّر رأيه، وقرّر أن يؤخرّ زيارته إلى المساء. ولكن يبلغ راحة النفس كان لا بدّ له، قبل كل شيء، من أن يحل المشكلة التي جاءتْ به إلى موسكو. فتوجّه، من منزل أخيه إلى محكمة أوبلونسكي، وبعد أن استعلم عن المكان الذي كانت فيه أسرة تشرباتزكي، توجّه إلى حيث قيل له إنه يمكن أن يلقى كيتي.

[٩]

نزل ليفين من عربته، في الساعة الرابعة، عند مدخل حديقة الحيوانات بقلبٍ واجف، وسار في الطريق المؤدية إلى «الجبال الروسية» وإلى حلبة التزلج، كان واثقاً من أنه سيلقاها هناك، لأنه رأى عربة آل تشرباتزكي قرب المدخل.

كان النهار صافياً وبارداً. وقرب الباب اصطفت المركباتُ والزلاجات والعربات، ووقف رجالُ الشرطة. وازدحم جمهورٌ أنيق، عند المدخل، وفي الدروب الضيّقة المشقوقة بين البيوت الخشبية الصغيرة المزينة بالمنحوتات الخشبية المنقوشة: كانت الشمس تزيّن ببريقها القبعات؛ وبدتْ أشجار البتولة العتيقة المجعّدة في البستان التي تلفعت أغصانها بالثلج، كأنها ترتدي حللاً جديدة ورسمية.

خاطب ليفين نفسه، وهو يتجه إلى حلبة التزلج، قائلاً: «لا ينبغي لك أن تضطرب، ينبغي أن تكون هادئاً. مالك؟؟؟ ماذا تريد؟» وخاطب قلبه قائلاً: «اسكتْ، يا أيها الغبـي». وكان كلما حمل نفسه على الهدوء اشتدّ ضيقُ صدره، وقد لقيه صديق وناداه، لكن ليفين لم يتعرف إليه، واقترب من «الجبال الروسية» حيث كانت تصرّ سلاسل الزلاجات الصاعدة والهابطة بحلبةٍ غارقة في ضوضاء الأصوات الفرحة. وتقدّم بضعَ خطوات فانكشفت له حلبة التزلج، وسرعان ما تعرّف إليها في وسط الجمهور.

عرف أنها هنا من الفرح والقلق اللذين ملأا قلبه. كانت واقفةً تُحدّث سيدةً في الطرف الآخر من حلبة التزلج، ولم يكن في ظاهر زينتها أو وقفتها ما هو

خاص؛ لكنه كان من اليسير على ليفين أن يميزها بين الجمهور كما يميّز زهور أبرة الراعي بين أشواك القراص. كان كل شيء مغموراً بنورها. ولم تكن سوى ابتسامة أضاءت كل ما حولها. وفكّر ليفين: «أأجرؤ على النزول إلى الجليد والاقتراب منها؟». خُيّل إليه أن المكان الذي هي فيه مذبح لا سبيل إلى الوصول إليه، ولولا قليل لانثنى راجعاً، لفرط ما أصابه من الهلع. فتحامل على نفسه وقال لها: إن تلك التي يخاف الاقتراب منها قد أحاط بها الناسُ من كل صنف ولون، وبوسعه أن يسمح لنفسه بالتزلج، فنزل إلى حلبة التزلّج، وهو يتحاشى النظرَ إليها، كما نتحاشى الشمس؛ لكنه كان يراها دون أن ينظر إليها، كما نرى الشمس.

في هذا اليوم، وفي هذه الساعة، كان يجتمع على الجليد ناسٌ من حلقة واحدة يعرفُ بعضهم بعضاً. كان منهم المتزلجون المشهورون الذين يظهرون براعتَهم، والمبتدئون الذين يتدرّبون خلف كراسيهم بحركات مرتبكة، خرقاء، والفتيان الصغار، والسادة الكبار الذين يتزلجون لغاية صحيّة، كانوا جميعاً يبدون لليفين كالمختارين السعداء، لأنهم كانوا في جوار كيتي، كان المتزلجون، مع ذلك، يتجاوزونها ويلحقون بها ويحدّثونها بلا مبالاة كاملة، وكأنهم يتسلّون بدونها، مستمتعين بالطقس الجميل وبنقاء الجليد!

كان نيقولا تشرباتزكي، ابن عم كيتي، جالساً على مقعد، ومزلجاه في قدميه، وقد ارتدى سترة قصيرة وبنطالاً ضيقاً؛ لمح ليفين فصاح به:

ـ هيه! يا أفضلَ متزلّج في روسيا! أمن زمن بعيد أنت هنا؟ الجليد ممتاز، فضعْ مزلجيك!

ـ ليس معي مزلجان.

كذلك أجابه ليفين مندهشاً من مثل هذه الجرأة والعفوية بحضور كيتي التي لم تغب عن بصره وإن لم يتطلع إليها.

أحسّ أن الشمس مقبلةٌ للقائه، كانت في أحد طرفي حلبة التزلج، وكانت

تتقدم نحوه وهي بادية الخوف، وقد غرقتْ قدماها النحيفتان في حذاء مرتفع، تجاوزها فتى بلباس روسي يحرّك ذراعيه بكل قواه، وجذعه منحنٍ إلى الأرض. لم تكن واثقة من نفسها؛ لقد أخرجتْ يديها من فروتهما وكانت معلقة بخيط وهيأتهما للتعلّق بأي شيء؛ كانت تبتسم لليفين الذي عرفته، وعيناها مُحدّقتان فيه، كما كانت تبتسم من فزعها. وعندما تجاوزت المنعطف. انطلقتْ بحركة مرنة من قدمها واندفعت رأساً نحو تشرباتزكي، فتناولت ذراعه وأومأت إلى ليفين برأسها، وهي تبتسم له. كانت أجمل مما تخيّلَها.

عندما كان يفكر فيها، كان بوسعه أن يتصوّرها كلها بوضوح، ولا سيما ملاحة هذا الرأس الصغير والأشقر، القائم بأناقة فوق كتفين متناسقتين، وما فيه من أمارات البراءة الطفولية والطيبة. كانت هذه الأمارات الطفولية منضافةً إلى جمال جسدها الأنثوي الرخص مصدر سحرها: وكان هو شديد الحساسية لذلك. لكن الذي كان يفتنه دائماً، وكأنه شيء مباغت، هو نظرتها الحلوة، الهادئة، النبيلة، ثم ابتسامتها، على وجه الخصوص، وهي ابتسامة كانت تنقل ليفين دائماً إلى عالم مسحور يستشعر فيه الحنان والسكينة، كما يتذكر نفسَه في مطلع طفولته.

قالت له وهي تمد يدها إليه:

ــ أَمِنْ زمنٍ بعيد أنت هنا؟

وأضافت وهو يلمّ المنديل الذي سقط من كمها:

ــ شكراً.

أجاب ليفين الذي لم يفهم، وهو في غمرة اضطرابه، سؤالها على الفور:

ــ أنا؟ لا، وصلتُ أمسْ، أو على الأصح اليوم. وكنتُ أنوي أن أراكِ.

لكنه سرعان ما ارتبك وتضرّج خجلاً عندما تذكر الغاية التي من أجلها كان يرغب في أن يراها. فقال:

ــ ما كنتُ أعلم أنك تحسنين التزلج.

تطلعت إليه بإمعان، وكأنها تحب أن تفهم سببَ اضطرابه. وقالت وهي تنفض بيدها الصغيرة المغطاة بقفاز أسود أبراً من الجليد المتساقط على كمها:

ــ ثناؤك هذا ثمين. والناس هنا يتناقلون أنك خيرُ مَنْ تزلّج.

ــ نعم، لقد شُغفتُ بالتزلج قديماً؛ كنتُ أريد أن أبلغ الكمال.

قالت وهي تبتسم:

ــ يبدو لي أنك تزاول كل شيء بشغف، وأنا أشتهي كثيراً أن أراك تتزلج، ضع زلاجتيك وهيّا نتزلج معاً.

فكر ليفين وهو ينظر إليها «نتزلّج معاً! أممكن هذا؟».

قال:

ــ أنا آتٍ على الفور.

ومضى يضع زلاجتين.

قال له الرجل الذي كان يوزع الزلاجات وهو يمسك بقدمه ليشد الزلاجة على العقب:

ــ طال غيابك عنا، يا سيدي. وليس بعدك، بين هؤلاء السادة، من يُتقن هذا الفن.

وقال وهو يشدُّ سيرَ الزلاجة:

ــ هل مَشَتْ الحالُ هكذا؟

أجاب ليفين الذي كان يجهد في إخفاء الابتسامة المشرقة التي أضاءت وجهه بالرغم منه:

ــ ممتاز، ممتاز، أسرعْ، أرجوك.

وفكّر في نفسه: «هذه هي الحياة، هذه هي السعادة! لقد قالت: «معاً»، «هيّا نتزلج معاً». هل أكاشفها الآن؟ لكنني أخشى أن أكاشفها في هذه اللحظة بالذات لأنني سعيد، بالأمل على الأقل... بينما لو... لكن لا بد من ذلك! لا بد من

ذلك! اخسأ أيها الضعيف!».

وقف ليفين، وخلع معطفه، وبعد أن تدرب على الجليد الخشن قرب كُشك الزلاجات، انطلق على الجليد الصقيل وانزلق بدون جهد، وكأنه كان يسرّع انزلاقه ويُبطّئه ويوجّهه بحسب إرادته. ودنا منها بوجل، لكن ابتسامتها أدخلتْ السكينة إلى نفسه، هذه المرة أيضاً.

مدّت إليه يدها وانطلقا جنباً إلى جنب يحثان الخطا، وكانت كلما أسرعا ضغطتْ على يده.

قالت له:

ــ معك، أستطيع أن أتعلم؛ لستُ أدري لماذا أثقُ بك.

قال:

ــ وأنا أيضاً أثق بنفسي عندما تستندين إلي.

لكنه ما لبث أن ارتعب مما قاله واحمرّ. وبالفعل، فما كاد يلفظ هذه الكلمات حتى توارى عن وجه كيتي بشرُه وإيناسه، كما تتوارى الشمس خلف الغيوم، ورأى ليفين في تبدل ملامح وجهها، وهو تبدلٌ عهدَه من قبل، ما يشير إلى جهد فكري مبذول. فعلى جبهتها الملساء ارتسمتْ إحدى التجاعيد.

قال لها بسرعة:

هل أصابك ما يزعج؟ على كل حال، ليس لي الحق في أن أسألك.

فأجابت بفتور:

ــ ولم ذلك؟ لا لم يصبْني ما يزعج؛

وأردفتْ على الفور:

ــ ألم تر الآنسة لينون؟

ــ لا، لم أرها بعد.

ــ اذهبْ وسلّم عليها، فهي تحبك كثيراً.

فكر ليفين: «ما الذي جرى؟ هل جرحتُها؟ أنجدْني، يا إلهي»!، واتجه بسرعة نحو الفرنسية العجوز ذات الخصل البيضاء التي كانت جالسة على مقعد. فابتسمت له كاشفةً عن جميع أسنانها الاصطناعية، واستقبلته كما يُستقبل الصديقُ القديم.

قالت له وهي تشير بنظرتها إلى «كيتي»:

ــ نعم، لقد كبرنا، أليس كذلك؟... وطعنّا في السن:

وأضافت:

ــ الدبّة الصغير تصبح عانساً.

وذكّرته نكتَتَه بشأن الفتيات الثلاث في إحدى القصص الإنكليزية وكان يدعوهن الدببة الثلاث:

ــ أتذكر، كنت تسميهن دائماً كذلك؟

لم يتذكر شيئاً من ذلك، وها قد مضى عشر سنوات على هذه النكتة وما تزال تضحك لها وتستمتع بها.

ــ حسناً! عد إلى التزلج، عدْ إليه، فقد أخذت كيتي تُحسنه، أليس كذلك؟

عندما أدرك ليفين كيتي، لم يبق في وجهها ما ينمُّ على الجفاء؛ وعاد إلى عينيها ما كان فيهما من معاني الصفاء والمحبة؛ لكن، خُيّل إليه أنه قد تبيّن في لطفها نغماً من الهدوء المقصود. فأحزنه ذلك. وبعد أن تبادلا بضع كلمات بشأن المربية العجوز وغراباتها، سألته عن حياته. قالت له:

ــ ألا ينتابك المللُ في الريف؟

قال وهو يحس أنها تفرض عليه هذه اللهجة الهادئة التي لا يقوى على تركها، كما لم يقو على تركها في بداية الشتاء:

ــ أوه! لا، فأنا منهمك في العمل.

فسألته كيتي:

ــ وهل تنوي البقاء طويلاً؟

أجاب، دون أن يفكّر فيما يقول:

ــ لا أدري.

لكنه قال في نفسه إنه إذا ما التزم هذه اللهجة، لهجة المودة الهادئة، لعاد من حيث أتى من غير أن يحل شيئاً، فقرر أن يثور.

ــ كيف، ألا تدري؟

لا، هذا يتوقّف عليكِ.

قال ذلك وما لبث أن رُوّع من كلماته نفسها.

ألم تسمعْ هذه الكلمات، أم أنها لم تُردْ سماعها؟ لقد زلّت قدمها وكادت تتعثر ونأت عنه على عجل، ودنت من الآنسة لينون وأسرّت إليها بشيء ثم اتجهت إلى البيت الخشبي حيث كانت السيدات ينزعْن زلاجاتهن.

دعا ليفين في نفسه: «يا إلهي! ماذا فعلت؟ أنجدني، يا رب، أنرْني!» وإذْ أحسّ بحاجته إلى الحركة العنيفة، أخذ يركض على الجليد، في هذا الجانب وذاك، راسماً دوائر داخلية وخارجية.

في هذه اللحظة، خرج من المقهى أحد الفتيان، هو بطلُ التزلج الجديد، وزلاجتاه في قدميه، وسيجارته بين شفتيه، وركض نحو الدرج وأخذ يهبط درجاته بضجة، وبقفزات صغيرة، وإذا به يبلغ بعد لحظة أدنى الدرجات ويندفع على الجليد من غير أن يغير وضع ذراعيه.

قال ليفين في نفسه:

«آه، هذه براعة جديدة!» وصعد من فوره الدرجَ ليقلده.

صاح به نيقولا تشرباتزكي:

لا تخاطرْ بنفسك. لا بد لذلك من المران.

عندما أدرك ليفين أعلى الدرج خطا خطوات قبل أن يسرع في النزول ثم أخذ يهبط الدرج محافظاً على توازنه بذراعيه في هذا الوضع غير المعتاد، وعند آخر

درجة أمسك قدمه لكنه لم يكد يمس الجليد بيده، وبذل جهداً عنيفاً فقوم نفسه واندفع وهو يضحك.

فكرت كيتي، وكانت تخرج في هذه اللحظة من البيت الخشبي مع الأنسة لينون، وتنظر إليه بابتسامة وادعة مليئة بالعطف، وكأنه أخ عزيز: «يا له من فتى طيب! أيمكن أن أكون مذنبة، وأن يكون ما أفعله شراً؟ يقولون إن هذا من الغنج والدلال. إني أعلم أنه ليس الشخص الذي أحبه، لكني أستمتع بصحبته مع ذلك، فهو شديد اللطف! لمَ قال ذلك؟...»

عندما رأى «ليفين» «كيتي» منصرفةً، ولمح أمَّها التي جاءت تفتش عنها، توقّف وأخذ يفكر، وقد علته الحمرةُ بعد ذلك التمرين العنيف. فنزع زلاجتيه وأدرك الأمَ وابنتها عند مدخل الحديقة.

قالت الأميرة:

ــ أنا مسرورة برؤيتك. ما زلنا نستقبل الزائرين نهار الخميس.

ــ أي اليوم؟

وردّتْ الأميرة بجفاف:

ــ سنكون سعداء بقدومك.

غاظ هذا الجفافُ كيتي، ولم تستطع أن تقاوم رغبتها في تلطيف فتور أمها، فالتفتت نحو ليفين وقالت له وهي تبتسم:

ــ إلى اللقاء.

في هذه اللحظة دخل ستيڤان اركادييڤتش الحديقة كما يدخل الفاتح المنتصر، مائل القبعة، منتعش الوجه، براق العينين، لكنه عندما لحق بحماته اصطنع هيئة الحزين والمذنب ليردّ على أسئلتها عن صحة دولي. وبعد أن حادث الأميرة لحظةً، بصوت خفيض، وهو بادي الإعياء، اعتدل وأمسك بذراع ليفين، وسأله وهو ينظر إليه نظرة لها معناها:

ــ وبعد! فهل نذهب؟ فكرتُ طوال الوقت فيك وأنا جد سعيد لقدومك.

أجاب ليفين وقد غمرته السعادة حين استحضر ذكرى ذلك الصوت الذي قال له: «إلى اللقاء» والابتسامة التي رافقت هذه الكلمة:

ــ هيّا فلنذهبْ.

ــ إلى فندق انكلترا أو إلى «الارميتاج».

سيان عندي.

قال ستيڤان اركادييڤتش:

ــ إلى فندق انكلتر، إذن. أمعك عربة؟ ممتاز، لأنني صرفتُ عربتي.

وإنما اختار هذا المطعم وفضّله على ذاك لأنه مدين له بقسط أكبر من المال، فرأى من غير اللائق أن يتركه إلى غيره.

لزم الصديقان الصمت طوال الطريق. وكان ليفين يتساءل عما يعنيه هذا التغيّر في تعبير وجه كيتي، فيُقنعُ نفسه تارة بإمكان الأمل، ويُخلد تارة أخرى إلى اليأس معتقداً أن من الجنون الاحتفاظ بذلك الأمل. ومع ذلك، فقد كان يحسّ أنه شخص آخر منذ أن خصّته بابتسامتها وتوجّهت إليه بهذه الكلمة: «إلى اللقاء».

كان ستيڤان اركادييڤتش يختار وجبة الطعام. فقال لليفين وهما يصلان إلى طيّتهما:

أعتقد أنك تحب سمك الترس؟

فسأله ليفين:

ــ ماذا؟ سمك الترس؟ أني أعشق سمك الترس.

[١٠]

عندما دخل ليفين المطعم مع أوبلونسكي لم يستطع إلاَّ أن يلاحظ لوناً خاصاً من التعبير، نوعاً من الإشعاع المكبوت، على وجه ستيڤان اركادييڤتش أوبلونسكي وعلى شخصه كله. خلع أوبلونسكي معطفه، ونزع قبعته المائلة، واتجه إلى قاعة

الطعام، موزعاً أوامره على الخدم التتر[1] الذين بادروا إلى الالتفاف حوله، بلباسهم الأسود، وفوطة كل منهم تحت ذراعه. اقترب من المقصف ملقياً تحياته ذات اليمين وذات الشمال على معارفه الذين كانوا يلتقونه والذين كان يبدو عليهم الابتهاج حين يلمحونه، كما هو شأنه في أي مكان آخر، وتناول عنه قدحاً من الفودكا مع شيء من السمك المدخّن وقال للفرنسية التي طلت وجهها بالمساحيق، على نحو فاضح، وغطت جسدها بالأشرطة والدنتيلا والحلق، وجلست خلف مكتبها، بضعَ كلمات أضحكتها من كل قلبها. أما ليفين فقد رفض أن يشرب شيئاً، لأن هذه الفرنسية التي بدت له مصنوعة كلها من الشعر المستعار، ومن مسحوق الرز، ومن خلّ الزينة، كانت تؤذي ناظريه، فابتعد عنها، على عجل، وكأنها موضع موبوء. وكانت نفسه ملأى بذكرى كيتي، وفي عينيه برقت ابتسامة الظفر والسعادة.

قال تتريٌ عجوز، مائل إلى الشقرة، مفرطٌ في تزلّقه، انفرجت أطراف سترته عن حوض عريض:

ــ من هنا، إذا شئت، يا صاحب السيادة. لن يُزعج سيادتك أحدٌ هنا.

وقال لليفين وهو يبدي له ضروب الاحترام نفسها مراعاةً لستيڤان اركادييڤتش:

إذا شئت، يا صاحب السيادة.

وفي طرفة عين مدّ غطاء نظيفاً على طاولة مستديرة، مغطاة بغطاء آخر من قبل، وواقعة تحت مصباح جداري من البرونز، وقرّب من الطاولة كرسيين من المخمل، وظلّ واقفاً قرب ستيڤان اركادييڤتش ينتظر الأوامر، وفوطته تحت ذراعه، ولائحة الطعام بيده.

---

(١) التتر: إن تتر مقاطعة قازان كانوا يخدمون منذ أجيال في مطاعم العواصم الروسية؛ وكان دينهم يحرم عليهم شرب الخمر ولذلك كان رواد المطاعم يقدرونهم.

وإذا كنتم ترغبون في حجيرة منفصلة. فالأمير غوليتزين والسيدة سيغادران إحدى الحجرات في مدى لحظة، وصلنَا محارٌ طازج.

ـ آه! نعم، محار!

بدا ستيڤان اركادييڤتش كمن يفكر. وقال وهو يضع اصبعه على اللائحة، وقد عبّر وجهه عن حيرة شديدة:

ـ لو غيّرنا برنامجنا، يا ليفين؟ هل هذا المحار ممتاز؟ حذار!

ـ محار من «فلنسبرج»، يا صاحب السيادة. ليس لدينا محار من «اوستند».

ـ لا بأس بمحار «فلنسبرج» فهو طازجٌ، على الأقل؟

ـ وصلنا البارحة.

ما رأيك؟ لو بدأنا بالمحار؟ ولو بدّلنا الوجبة كلها.

ـ سيان عندي. أنا أفضل حساء الملفوف والعصيدة.

قال التتري وهو ينحني نحو ليفين كما تنحني مربية الطفل على طفلها:

ـ أتريد عصيدةً على الطريقة الروسية؟

ـ لا، اخترْ لي، بلا مزاح، ما تريد. لقد تزلجت قبل قليل وأنا جائع.

وأردف قائلاً حين رأى شيئاً من الاستياء على وجه أوبلونسكي:

ـ ولا تظن أنني عاجز عن تقدير اختيارك. سيسرني أن أتعشى عشاء فاخراً.

ـ آمل ذلك! مهما يكن رأيك، فإن هذا من ملذات الحياة. إذن هات، أيها الأخ، دزينتين محار، أوْ، لا، هذا غير كاف: هات ثلاثاً، وحساء بالخضر...

فقال التتري بالفرنسية:

ـ ربيعياً.

لكن ستيڤان اركادييڤتش لم يكن يريد، كما يبدو، أن يمتعه بتعداد أسماء المآكل بالفرنسية:

ـ حساء بالخضر كما قلتُ لك، ثم سمك الترس بالحساء الكثيف، ثم...

لحم البقر المشوي، لكن احرص على أن يُشوى جيداً، والمثوّمة، ثم الفواكه المحفوظة.

تذكر التتري أن ستيڤان اركادييڤتش مشغوف بإعطاء ألوان الطعام أسماء ليست على اللائحة، فتركه يفعل، لكنه ما لبث أن متّع نفسه بتكرار طلبه مستخدماً الأسماء الفرنسية التي على اللائحة: «حساء ربيعي، سمك الترس بحساء بومارشيه، فرخة بالطرخون، مقدونية الفواكه...» ثم سرعان ما وضع إحدى اللوائح المجلَّدة، وكأن هناك نابضاً يحركه، وأخرج لائحة أخرى قدّمها لستيڤان اركادييڤتش:

ــ وماذا سنشرب الآن؟

قال ليفين:

ــ ما تشاء، لكني أحب شيئاً... من الشمبانيا.

ماذا؟ منذ البداية؟ في الواقع، لم لا؟ أنت تحب العلامة البيضاء.

فصحّح التتري:

الدمغة البيضاء.

هات شيئاً منها، مع المحار. وسوف نرى فيما بعد.

حسناً، يا سيدي، وما النبيذ الذي ترغب فيه؟

ــ نبيذ «الليالي». بل أعطنا من نبيذ «شابلي» التقليدي.

ــ حاضر. وهل أقدم لك جبنك المعهود؟

نعم، جبن «بارم»، إلا إذا كنت تفضل جبناً آخر؟

قال ليفين الذي لم يتمالك نفسه من الابتسام.

ــ لا، سيان عندي.

توارى التتري، وطرفا سترته تخفقان خلفه، وعاد بعد خمس دقائق وهو يحمل طبقاً من المحار ذي القوقعة الصدفية وزجاجةً من الخمر.

فرك ستيڤان اركادييڤتش فوطته المنشاة ودس جانباً منها في صدرته، وبعد أن وضع بهدوء يديه على الطاولة أقبل على المحار.

قال وهو يفصل المحار الرخو عن صدفته بشوكة فضية صغيرة، ثم يزدردها الواحدة تلو الأخرى:

ـ ليس رديئاً هذا المحار.

وكرر وهو يلقي نظرة براقة، مخضلّة على ليفين تارة، وعلى التتري تارة أخرى.

ـ ليست رديئة.

كان ليفين يأكل من المحار أيضاً، وإن كان يفضل الخبز الأبيض والجبن. لكنه كان معجباً بأوبلونسكي. بل إن التتري نفسه، بعد أن فتح الزجاجة وصبّ النبيذ الفوّار في كؤوس لطيفة، واسعة الفوهة، أخذ ينظر إلى ستيڤان اركادييڤتش مبتسماً ابتسامة الرضى، وهو يصلح من وضع ربطة عنقه.

قال ستيڤان اركادييڤتش وهو يُفرغ كأسه:

ـ أأنت لا تحب المحار كثيراً؟ أم أنك مشغول البال؟ أخبرني . أراد ستيڤان اركادييڤتش أن يكون ليفين فرحاً. لكن ليفين كان يحس بالضيق، وإن لم يكن حزيناً. فمن جراء ما في نفسه، كان غير مرتاح في هذا المطعم الذي تحيط به حجيراتٌ خاصة يتعشى فيها الرجال والنساء، وسط هذه الروحات والجيئات وذلك الاضطراب؛ كانت جميع هذه الأشياء تؤذيه: البرونز والمرايا والمصابيح الغازية والتتر. كان يخشى أن يدنّس ما تفيض به نفسُه.

قال ليفين:

أنا؟ نعم، إن لي همومي؛ ثم إن كل هذا يضايقني. لا تستطيع أن تتصوّر إلى أي حد يغدو كل ذلك غريباً على ريفيٍ من نوعي. إنها كأظافر هذا السيد الذي رأيتُه عندك. . .

قال ستيڤان اركادييڤتش وهو يضحك:

ــ نعم، لقد لاحظت أن أظافر هذا المسكين غرينفتش قد استرعت اهتمامك كثيراً.

أجاب ليفين:

ــ لا بدَ لي في ذلك. اجهدْ قليلاً لتنظر من الزاوية التي ينظر منها ابن الريف. ففي الريف، ترانا نبذل وسعنا لكي نجعل من أيدينا أداة صالحة للعمل: إنا نقصّ أظافرنا ونشمر أكمامنا، بين الحين والحين، أما هنا فالناس يتركون، عن عمد، أظافرهم تطول ما شاءَ لها الطولُ، ويعلّقون في أردانهم صحوناً صغيرة بدل الأزرار، لكي يتعذر عليهم فعل شيء بأيديهم.

وتبسم ستيڤان اركادييڤتش بفرح.

ــ لكن هذا يُثبت أنه لا حاجة به للعمل بيديه؛ فكرهُ هو الذي يعمل...

ربما... لكن ذلك يبدو لي غريباً، بالرغم من كل شيء. كما يبدو لي غريباً أيضاً أننا نسعى جهدنا في الريف لكي نشبع بأسرع ما يمكن، حتى نصبح قادرين على القيام بعملنا، بينما نسعى أنا وأنت أن نسد جوعنا في أطول مدة ممكنة، ولذلك ترانا نأكل المحار...

قال ستيڤان اركادييڤتش مؤكداً:

بدون شك. لكن هذا هو هدف الحضارة بالضبط، أن تُحوّل كلَّ شيء إلى متعة.

ــ إن كان هذا هو هدفها، فإني أحب أن أظل متوحشاً.

ــ لكنك متوحش، أنتم، آل ليفين، جميعكم متوحشون.

تنهّد ليفين، وفكّر في أخيه نيقولا، فأحسّ بالخجل، وقطّب بين حاجبيه؛ لكن أوبلونسكي حوّل الحديث إلى موضوع آخر صرف ليفين عن تفكيره ذاك.

قال أوبلونسكي وهو يدفع عنه صدف المحار الخشنَ، ويجذب الجبنَ إليه ويلقي على ليفين نظرة بارقةً لها دلالتها:

ـ وإذن فسوف تذهب هذا المساء إلى منزلنا، عنيتُ منزل آل تشرباتزكي؟

أجاب ليفين:

ـ نعم، سأذهب بدون شك، وإن بدا لي أن الأميرة لم تدُعني من قلبها.

قال ستيڤان اركادييڤتش:

ـ ماذا تقول؟ يا لحماقتك! هذا دأبها مع الناس... هيّا هات الحساءَ أيها الأخ!... هذا دأبها كسيدة كبيرة. سأذهب أنا أيضاً، لكني سأذهب أولاً إلى حفلة غنائية عند الكونتيسة بونين. وتقول إنك لستَ متوحشاً؟ فكيف نفسّر غيابك المفاجيء عن موسكو؟ وآل تشرباتزكي يسألونني دائماً عن أخبارك، وكأنني عالم بها! كلُ ما أعلمه أنك تفعل دائماً ما لا يفعله إنسان.

قال ليفين ببطء وقد بدا عليه الاضطراب:

ـ نعم، أنت على حق، فأنا متوحش. لكن توحشي لا يكمن في ذهابـي بل في عودتي الآن... لقد عدتُ...

قاطعه ستيڤان اركادييڤتش، وهو ينظر إليه في عينيه:

ـ أوه! ما أعظم حظك!

ـ لماذا؟

فهتف ستيڤان اركادييڤتش:

ـ أنني أعرف الخيلَ الجامحة من شياتها[1] والعاشقين من عيونهم كلُ مستقبلك أمامك.

ـ وأنت، مستقبلك وراءك؟

---

(١) أنني أعرف الخيل الجامحة من شياتها: استشهاد غير دقيق ببيت من قصيدة لبوشكين (١٨٣٥). وسوف يكرر اوبلونسكي هذا الشاهد فيما بعد.

ــ لا، لكن المستقبل لك، وأنا ليس لي سوى الحاضر، وهو حاضر أبيض حيناً، وأسود حيناً آخر.

ــ مالك؟

أجاب ستيڤان اركادييڤتش:

ــ أحوالي سيئة. لكني لا أريد أن أتحدث عن نفسي ولا أستطيع أن أشرح لك كل شيء، إذن، لماذا جئت إلى موسكو؟...

وصاح بالتتري:

هيه! تعال وارفع الأطباق.

أجاب ليفين وهو يثبت في ستيڤان اركادييڤتش عينيه اللتين التمعتا التماعاً داخلياً:

ــ ألم تحزرْ؟

قال ستيڤان اركادييڤتش وهو ينظر إلى ليفين وعلى ثغره ابتسامة ماكرة:

ــ بلى، لكن ليس لي أن أتصدى قبلك لهذا الموضوع. من هنا تستطيع أن تعرف إن كنتُ قد حزرتُ أم لا.

فعاد ليفين إلى الكلام بصوت متهدج وهو يحس بعضلات وجهه جميعها ترتعش:

ــ ما قولك في ذلك، إذن؟ كيف ترى الأمر؟

أفرغ ستيڤان اركادييڤتش كأسه من «الشابلي» ببطء، دون أن يرفع عينيه عن ليفين. وقال:

أنا؟ هذا منتهى ما أتمناه! وغاية ما يمكن أن أبلغ من السعادة! أردف ليفين قائلاً وهو يلتهم محدّثة بعينيه:

ــ لكنك لستَ مخطئاً؟ وأنت تعلم عمن يدور الحديث؟ أتظن الأمر ممكناً؟

ــ نعم. ولِمَ لا يكون ممكناً؟

ــ أتظـن حقـاً أن ذلـك ممكـن؟ قـل لـي رأيـك كـامـلاً! وإذا اصطـدمـتُ بالرفض. . .؟ بل إني مقتنعٌ. . .

قال ستيڤان اركاديتش وهو يبتسم من انفعاله:

ــ ولِمَ تظنَّ ذلك؟

ــ أحسّ بذلك أحياناً؟ سيكون ذلك فظيعاً: عليها وعليّ.

ــ على كل حال، ليس في ذلك ما هو فظيع على الفتاة. جميعُ الفتيات يَفْخرن حين يُطلبن للزواج.

ــ نعم؛ جميع الفتيات، لا هي.

ابتسم ستيڤان اركاديڤتش. كان يعرف جيداً الشعورَ الذي يَشْعر به ليفين. كان يعلم أن الفتيان ينقسمن، عنده، إلى طائفتين: الطائفة الأولى مؤلفة من جميع فتيات العالم ما عداها، وهؤلاء الفتيات متصفات بصنوف الضعف البشري، وهن عاديّات إلى أقصى الحدود؛ أما الطائفة الثانية فلا تضمّ غيرها؛ وليس فيها أي ضعف وهي متفوّقة على الجنس البشري بأسره.

قال ستيڤان وهو يوقف يد ليفين الذي كان يدفع إناءَ المرق عنه:

ــ انتظره، خذْ شيئاً من المرق.

تناول ليفين طائعاً شيئاً من المرق لكنه لم يدعْ ستيڤان اركاديڤتش يأكل. قال:

ــ لا، اصْغِ. اعلمْ أن المسألة، بالنسبة إلي مسألةُ حياة أو موت. لم أكاشفْ أحداً قط بذلك. ولا أستطيع أن أكاشف غيرك. نحن مختلفان كل الاختلاف في الذوق والرأي، كل شيء يفرّقُ بيننا؛ لكنني على يقين بأنك تحبني وتفهمني، وأنا أيضاً أحبك. وأناشدُك اللَّهَ أن تكون صادقاً معي كل الصدق.

قال ستيڤان اركاديڤتش وهو يبتسم:

ــ إني أقول لك ما أفكّر فيه. لكني أذهب أبعد من ذلك: إن زوجتي امرأة

مدهشة جداً. . .

تنهَّد ستيڤان اركادييڤتش عندما تذكر علاقاته بزوجته، ولزمَ الصمت لحظةً ثم تابع كلامه:

ــ إنّ لها القدرةَ على رؤية خفايا الأمور واستكناه بواطن الناس. بل إنها تتنبأ بالمستقبل ولا سيما فيما يتّصل بالزواج. لقد تنبّأت مثلاً أن الآنسة شاكوفسكوي ستتزوج «برنتين». . . لم يشأْ أحدٌ أن يصدق. ومع ذلك فإن الزواج قد تم. واعلمْ أن امرأتي بجانبك.

ــ وكيف ذلك؟

ــ إنها لا تكنّ لك المودة فحسب، بل هي تقول: إن كيتي ستكون لا محالة، زوجتك.

عند هذه الكلمات، استضاء وجهُ ليفين بابتسامة قريبة من دموع التحنّن. فهتف:

ــ هي تقول ذلك! لقد كنتُ أقول دائماً: إن امرأتك ملاك.

وقال وهو ينهض:

ــ كفى ولندعْ الكلام على هذا الموضوع.

ــ حسناً، لكن اجلسْ.

لكن ليفين لم يستطع أن يجلس. لقد ذرع الحجرة الضيّقة مرتين أو ثلاثاً بخطوات ثابتة، طارفاً بعينيه لكي يستر دموعه، عند ذاك فقط جلس. وقال:

ــ افهَمني، ليس ما أشعر به حباً. لقد أحببتُ من قبل، لكن الأمر الآن مختلف. ليس ما أشعرُ به عاطفة، وإنما هي قوة خارجية استولت علي. لقد ذهبت لأنني كنت قانعاً بأن من المستحيل أن توجد مثل هذه السعادة على الأرض؛ وجاهدتُ نفسي، إلا أنني تبيّنت أنني لا أستطيع أن أحيا بدونها، ولا بد من اتخاذ القرار. . .

ـ لكنْ لم ذهبتَ؟

ـ انتظرْ، انتظرْ! إن في رأسي كثيراً من الأفكار والأشياء التي ينبغي أن أسألك عنها! اصغِ، لا يمكنك أن تعلم ما فعلته لي عندما قلتَ لي ما قلتَه. إنني لسعيد إلى الحد الذي أغدو فيه أنانياً... لقد نسيتُ كل شيء. علمتُ اليوم أن أخي نيقولا... كما تعلم... هنا.. ونسيتُ وجوده! يخيّل إلي أنه سعيدٌ هو الآخر. إنه لضربٌ من الجنون. لكن هناك شيئاً رهيباً... أنت متزوج، وتعرف هذه العاطفة... من المروّع أن نقترب، في مثل هذه السن، وبمثل ذلك الماضي... ماضٍ من الخطيئة لا الحب، من كائن نقيّ، طاهر... هذا مثير! كيف لا يحس المرء بحقارته؟

ـ دعْك من هذا، فأنت لم ترتكب كثيراً من الآثام!

قال ليفين:

ـ آه! ومع ذلك، فعندما أسترجع حياتي باشمئزاز، أرتجفُ، وألعن، وأرثي لنفسي بمرارة... نعم.

قال ستيڤان اركادييڤتش:

ـ ما حيلتك، هكذا صُنع العالم.

ـ عزائي الوحيد هو هذا الدعاء الذي أحببتهُ:

«اغفر لي، لا بحسب استحقاقي، بل بحسب رحمتك» بهذه الطريقة تستطيع هي أيضاً أن تغفر لي.

[١١]

أفرغ ليفين كأسه، ولزما الصمت بضع لحظات.

سأل ستيڤان اركادييڤتش ليفين:

ـ يجب أن أقول لك أيضاً هذا الشيء. أتعرف فرونسكي؟[١]

ـ لا. لِمَ تسألُني عن ذلك؟

قال ستيڤان اركاديييڤتش للتتري الذي كان يملأ كأسيهما ويحوم حولهما ولا سيما في اللحظات التي لا يحتاجان فيها إليه:

ـ زجاجة أخرى...

وأردف:

ـ لأنه أحدُ منافسيك.

قال ليفين الذي تحول وجهه من أمارات الطفولة والحماسة التي أعجب بها ليفين لحظة من قبل إلى الشراسة الفظة:

ـ ومَنْ فرونسكي هذا؟

ـ فرونسكي هو أحد أبناء الكونت سيريل إيفانوفتش فرونسكي ونموذج من أجمل نماذج أبناء الذوات في بطرسبرج. عرفته في «تفبر»، أثناء خدمتي. وقد جاءها للتطوع. هو في غاية الغنى والجمال، وهو مرافق عسكري للأمبراطور، وله معارف مرموقون، وذلك لا يمنعه أن يكون فتى طيباً، ساحراً. وهو ليس بفتى طيّب فحسب، بل إنه متعلم وذكي، ولقد عرفته هنا، إن له مستقبلاً باهراً.

قطّب ليفين بين حاجبيه، ولم يفهْ بكلمة.

ـ لقد وصل إلى هذه المدينة بعد ذهابك، وهو يبدو مغرماً بكيتي؛ إنك تعرف جيداً أن الأم...

قال ليفين الذي تجهّم وجهه:

ـ معذرة، فأنا لا أعرف شيئاً...

---

(١) أتعرف فرونسكي: هذا الاسم ذو جرس بولوني، أما الصيغة الروسية فهي «فورونسكي»، ومن المحتمل أن تولستوي تذكر اسم فيلسوف بولوني صوفي، هو الكونت يوسف فرونسكي (١٧٧٨ ـ ١٨٣٥) الذي نشر كثيراً من المؤلفات بالفرنسية.

وتذكّر من فوره أخاه نيقولا، وقال في نفسه: إنه كان حقيراً لأنه نسي هذا الأخ.

قال ستيڤان اركادييڤتش وهو يبتسم ويمدّ له يده:

ــ انتظر قليلاً. لقد قلتُ لك ما أعلمه. وأنا أكرر لك أن الحظ على قدر ما يسمح به التخمين في هذه القضية الدقيقة ــ إنما هو بجانبك. تهالك ليفين على كرسيه؛ كان شاحباً.

وتابع اوبلونسكي وهو يملأ له كأسه:

ــ لكني أنصحك بأن تتدبر الأمر في أسرع وقت ممكن.

قال ليفين وهو يدفع عنه كأسه:

ــ شكراً، لا أستطيع أن أشرب بعدُ. ربما سكرتُ...

وأضاف وهو يرغب رغبةً واضحة في تغيير الحديث.

ــ حسناً! وأنت، ما أخبارك؟

قال ستيڤان أركادييڤتش:

ــ لي كلمة واحدة أيضاً: على كل حال، أنصحك بتدبّر المسألة في أسرع وقت ممكن. لا تتكلم اليوم. تعال غداً صباحاً واخطبها إلى أهلها بحسب الأصول، وليحفظك الله...

قال ليفين:

ــ كنت تود أن تأتينا للصيد. تعال في الربيع.

لقد عضه الندم الآن، من أعماق قلبه، لأنه بدأ هذا الحديث مع ستيڤان اركادييڤتش. إن مشاعره الصحيحة قد تدنست بهذا الحديث عن ضابط من بطرسبرج ينافسه في مطامحه، وبعروض ستيڤان اركادييڤتش ونصائحه.

ابتسم ستيڤان اركادييڤتش. لقد أدرك ما كان يدور في نفس ليفين.

وقال:

ــ سآتيك ذات يوم. نعم، أيها الأخ، إن النساء هن المحور الذي يدور حوله كل شيء. وأنا أيضاً في حال سيئة، سيئة جداً. والنساء هن السبب دائماً.

وأردف قائلاً وهو يتناول سيجاراً ويمسك بيده كعب كأس الشمبانيا:

ــ أعطني رأيك بصراحة.

ــ فيم؟

ــ فيما يلي. افرض أنك متزوج، وأنك تحب زوجتك، لكنك انجرفت وراء امرأة أخرى...

اعذرني، إني لا أفهم على الإطلاق كيف يمكننا... ذلك شبيه بـي فيما لو قمت عن المائدة الآن لأسرق شيئاً من الخبز الأبيض أثناء مروري أمام أحد الأفران.

برقتْ عينا ستيڤان اركادييڤتش أكثر من عادتهما.

ــ ولم لا؟ فقد تكون للخبز الأبيض رائحةٌ طيبةٌ لا سبيل إلى مقاومتها.

«ما أسعدني عندما أتغلب على شهوة الجسد؛

وإن لم أفلح فسوف تكون اللذة من نصيبي»[١].

عندما قال ستيڤان اركادييڤتش ذلك ابتسم ابتسامة ماكرة. ولم يستطع ليفين أن يتمالك نفسه من الابتسام.

وتابع اوبلونسكي:

ــ دعنا من المزاح. اعلم أن هذه المرأة مخلوق رقيق، وديع، ودود، وهي فقيرة، وحيدة، ضحّتْ بكل شيء. فهل ينبغي هجرانها الآن، بعد أن وقع الشر.

---

(١) هذه الأبيات المذكورة بالألمانية من رباعية الشاعر الألماني هنري هين (١٧٩٧ ــ ١٨٥٦)، وقد أدرجت في أوبريت جوهان شتراوس «الخفاش» التي شاعت شيوعاً عظيماً بدءاً من ١٨٧٣.

ولنسلم أنه لا بد من الانفصال حفاظاً على حياة العائلة، أفليس من الممكن الرأفة بها، والتفكير في مستقبلها، والتخفيف من سوء وضعها؟

ـ اعذرني، لكنك تعلم أن النساء ينقسمن، عندي، إلى نوعين... أو بالأحرى لا... أو على الأصح: هناك النساء وهناك... لم أرَ قط مخلوقات ساقطة وجذابة؛ هذه الفرنسية المطليّة بالمساحيق. خلف مكتبها، بشعرها المجعد، لتثير الرعب في نفسي، وجميع النساء الساقطات يثرن مثل هذا الشعور.

ـ والمرأة الزانية؟[1].

ـ آه! دعك من هذا! ما كان المسيح ليقول هذه الكلمات لو علم أن الناس سيسيئون استخدامها! وهم لم يحفظوا من الإنجيل غير هذا المقطع. على كل حال، إني لا أقول ما أفكر فيه، وإنما أقول ما أحسّ به.

إني أشعر بالاشمئزاز من النساء الساقطات. إنك تخاف من العناكب وأنا أخاف من هذه الحشرة. أنت لم تدرس العناكب وأنت تجهل طباعها: وأنا كذلك.

قال ستيڤان اركادييڤتش بلهجة اليأس:

ـ إنك تتكلم هذا الكلام وأنت في أحسن أحوالك: أنت مثل إحدى شخصيات ديكنز[2] التي ترمي بيدها اليسرى من فوق كتفها اليمنى جميع المسائل المحرجة. لكن إنكار الشيء ليس جواباً عنه. فما العمل؟ قلْ لي ما العمل؟ زوجتك تتقدم في السن وأنت ممتلىء حياة، وفجأة تحسّ أنك لا تستطيع أن تحب هذه الزوجة مهما يكن الاحترام الذي تحمله لها. ثم إذا بالحب يعصف بك وإذا بك قد قُضي عليك، قُضي عليك!

---

(١) والمرأة الزانية: إشارة إلى كلمات السيد المسيح التي رواها يوحنا في الإنجيل (٧، ٥٣ ـ ٨، ١١).

(٢) إحدى شخصيات ديكنز: لعله «ميكوبر» في رواية دافيد كوبر فيلد الذي يشبه اوبلونسكي في طيشه وخفته.

ضحك ليفين ضحكاً خفيفاً.

وأردف اوبلونسكي:

ــ نعم، لقد قُضي علي! فما العمل؟

ــ لا تسرقْ خبزاً أبيض.

فانفجر ستيڤان اركادييڤتش ضاحكاً.

ــ أوه! أيها الواعظ الأخلاقي! لكن، افهم ما أقوله: أنت أمام امرأتين: الواحدة تتبجح بحقوقها وهذه الحقوق... هي حبك الذي لا تستطيع أن تمنحها إياه؛ والأخرى تضحّي من أجلها بكل شيء ولا تطلب شيئاً. فما العمل؟ وكيف تتصرف؟ إنها مأساة ممزقة.

ــ إن كنت تريد رأيي صادقاً، فأنا أقول لك: إنني لا أعتقد أن في ذلك مأساة. ودونك السبب. إن الحب، برأيي،... إن نوعي الحب اللذين عرفهما أفلاطون، كما قد تذكر، في «المأدبة»[1] هما محك الرجال. فبعضهم لا يفهم إلا النوع الأول منهما، وبعضهم الآخر لا يفهم إلا الثاني.

والذين لا يفهمون سوى الحب غير الأفلاطوني ليس لهم أن يتحدثوا عن المأساة. فمثل ذلك الحب لا يمكن أن يبتعث مأساة «أنا ممتن لهذه التسلية، مع احترامي...» هذه هي المأساة كلها. أما الحب الأفلاطوني فلا يمكن أن ينطوي على مأساة، لأن كل ما في هذا الحب صاف، نقي، لأن...

في هذه اللحظة، تذكر ليفين خطاياه والصراع الداخلي الذي كابده. فختم كلامه على نحو غير منتظر:

ــ على كل حال، ربما كنت أنت المحق. هذا محتمل جداً... لست أدري شيئاً، على الإطلاق.

---

(١) المأدبة: في اليونانية «سمبوسيون» هي الحوار الذي عرف فيه الفيلسوف اليوناني الشهير جوهر الحب.

قال ستيڤان اركادييڤتش:

ـــ أتعلم أنك عديم المرونة واللين. وتلك مزية ونقيصة في الوقت نفسه. أنت نفسك كامل، وتودّ أن تتكون الحياة من حوادث خالصة، لا تشوبها شائبة، وليست الحياة كذلك. أنت تحتقر العمل الإداري من حيث هو نشاط اجتماعي لأنك تود أن يكون العمل مطابقاً دائماً للهدف، وهذا غير موجود. أنت تود أيضاً أن يتجه نشاط الإنسان إلى هدف، أن يتحد الحب والحياة الزوجية اتحاداً وثيقاً. . . وليس الأمر كذلك. إن كل ما في الحياة من تنوع وسحر وجمال مصنوع من الظلمة والضياء.

تنهد ليفين ولم يجب، كان يفكر في همومه دون أن يصغي إلى اوبلونسكي. وفجأة أحسّ كلاهما، بالرغم مما بينهما من صداقة، وبالرغم من أنهما تعشيا وشربا معاً ـــ وهو أمر جدير بأن يقرّب الثقة بينهما ـــ أنه لا يفكر إلا في نفسه وأنه لا يكترث للآخر إلا قليلاً. لقد لاحظ اوبلونسكي، غير مرة، مثل هذا التباعد في نهاية وليمة جديرة بأن تزيد من تقارب الصديقين، وكان يعرف ما الذي ينبغي فعله في مثل هذه الحال. فصاح بالخادم:

ـــ الحساب!

وتوجه إلى قاعة مجاورة التقى فيها مساعداً عسكرياً كان يعرفه وشرع في الحديث معه بصدد إحدى الممثلات وحاميها.

وسرعان ما حمل هذا الحديث إلى اوبلونسكي العزاء والراحة؛ وكان الحديث مع ليفين يكلفه جهداً فكرياً شاقاً.

عندما رجع التتريُّ ومعه قائمة الحساب الذي ارتفع إلى ستة وعشرين روبلا ونيف، من دون الخدمة، لم يُلق ليفين بالاً إلى المبلغ، وكان، في الأحوال العادية، يرتعب، وهو ذلك الريفي، من الأربعة عشر روبلا التي كان عليه أن

يدفعها. فدفع الحساب ورجع إلى المنزل ليبدّل ثيابه ويقصد إلى منزل آل تشرباتزكي حيث سيتقرر مصيره.

[١٢]

كان عمر الأميرة الشابة كيتي تشرباتزكي ثمانية عشر عاماً. وكان هذا الشتاء أول شتاء تخرج فيه. وقد لقيت من الحظوة في المجتمع ما فاقت به أختيها الكبيرتين؛ حتى إن أمها لم تكن تتوقع لها ذلك. ولم يكن جميع الشباب الذين يرقصون في حفلات موسكو الراقصة مغرمين بها فحسب، بل إن طالبين حقيقيّين للزواج أخذا يتقدمان وهما: ليفين، ثم الكونت فرونسكي بعد رحيل ليفين رأساً.

كان ظهور ليفين في بداية الشتاء، وملاطفته لكيتي وحبه الظاهر لها ذريعةً للأحاديث الأولى الجادة بين والدي كيتي بصدد مستقبلها، ومدعاةً للنزاع بين الأمير والأميرة. كان الأمير منحازاً إلى ليفين، وكان يقول إنه لا يطمع لكيتي بزوج أفضل، أما الأميرة فكانت تزعم، كعادة النساء في أن يدرْن حول المسألة، أن كيتي لم تزل صغيرة جداً، وأن ليفين لم يُثبتْ قط أن نواياه جادة، وأن كيتي لا تميل إليه، كما كانت تحتجّ بحجج أخرى؛ لكنها لم تكن تصرّح بالشيء الأساسي: وهي أنها ترجو لكيتي زوجاً أكثر تألقاً؛ لم تكن تُطيق ليفين أو تفهمه. ولذلك، فعندما توارى ليفين فجأة، ابتهجت، وقالت لزوجها بلهجة المنتصرة: «هل رأيت، لقد كنتُ محقّة!». وعندما برز فرونسكي على المسرح، ازداد سرورها واستقرّ رأيها على أن كيتي لن تتزوج الزواج المناسب فحسب بل الزواج المتألق.

لم يكنْ هناك وجهٌ للمقارنة بين فرونسكي وليفين، في نظر الأم. إن ما كانت تكرهه في ليفين هو أحكامه الغريبة والقاطعة، وخرقه بين الناس، وهو حرقٌ كانت تردّه إلى الكبرياء، والحياة المتوحشة التي كانت تتصور أنه يعيشها بين حيواناته وفلاحيه، وقد ساءها منه كثيراً أن يكون عاشقاً لابنتها ويتردد على البيت خلال ستة

أسابيع، كمن ينتظرُ ويلاحظ، وكأنه يخشى أن يشرّفهم بإعلانه عن نيته، ولم يفهم أنه ينبغي للمرء الذي يغشى منزلاً يضم فتاة صالحة للزواج أن يكشف عن نيته! وفجأة، يرتحل عن موسكو، دون أن يبرر تصرفه!

وفكرت الأم: «من حسن حظنا أنه قليل الجاذبية وأن كيتي لم تغرم به».

أما فرونسكي فكان يرُضي جميع رغباتها: كان واسع الثراء، ذكياً، من أسرة رفيعة؛ وكان مستقبله يبشر بمنصب مرموق في البلاط وفي الجيش، وكان، فوق ذلك، فاتناً عظيم الفتون. كان ذلك أقصى ما تتمناه.

كان فرونسكي يغازل كيتي جهاراً: كان يراقصها في الحفلات الراقصة، ويزور منزل أهلها، ولم يكن من سبيل إلى الشك في نيته. على أن الأميرة قضت الشتاء في قلق ممض.

لقد تزوجت هي نفسها قبل ثلاثين عاماً، على يد عمة لها، جاء الخطيب الذي عرف أهلُها عنه كل شيء مسبقاً، ليرى الخطيبة ولتراه، واهتمت العمة بالأثر الذي سيتركه كل منهما في نفس الآخر، ونقلت إلى كل منهما خلاصة هذا الأثر: كان أثراً حسناً. وفي اليوم المتفق عليه، قُدِّم الطلب إلى الأهل فوافقوا عليه. جرى كل شيء بسهولة وبساطة كبيرتين. هذا ما كانت تعتقده الأميرة، على الأقل. أما مع بناتها فقد أدركت إلى أي حد كان صعباً هذا المشروع الشديد البساطة، في الظاهر. فكم من رعدةٍ انتابتها، وكم من فكرة قلبتها، وكم من مال نفقته، وكم من احتكاك جرى بينها وبين زوجها بصدد زواج الأختين الكبيرتين، داريا وناتالي! ولا بد لها الآن، بعد أن جاء دور الثالثة، من أن تمر بالقلق نفسه، والشكوك نفسها، وأن تتخاصم وزوجها تخاصماً أكبر من ذي قبل. وكان الأمير العجوز، ككل الآباء، شديد التحسّس فيما يتصل بشرف بناته وطهارتهن، غيوراً عليهن غيرة مفرطة، ولا سيما كيتي، ابنته الأثيرة، وكان يشاجر امرأته، في كل لحظة، إذ يأخذ عليها أنها تشوّه سمعة ابنتها. وقد تعودت الأميرة ذلك منذ زواج ابنتيها الكبيرتين،

أما الآن فكانت تشعر أن لتحسس الأمير ما يبرّره. كانت ترى أن تغيراً كبيراً طرأ في عادات المجتمع منذ بعض الوقت، وأن واجبات الأم غدت من جرّاء ذلك أشد صعوبة. كانت ترى أن لدات كيتي يشكلن مجموعات منفصلة، ويتابعن بعض الدروس، ويَصْطنعْن عادات متحررة مع الرجال، ويخرجن وحدهن في عرباتهن، وأن عدداً كبيراً منهن تخلى عن الانحناء أثناء التحية، وعلى وجه الخصوص، أنهن كن مقتنعات من صميمهن أن اختيار الزوج قضية تخصهن ولا تخص أهلهن. كان جميع هؤلاء الشباب، بل والمتقدمون في السن يفكرون ويقولون: «الناس لا يتزوجون اليوم كما كانوا يتزوجون من قبل». كيف كانوا يتزوجون إذن؟ لقد غدتْ العادة الفرنسية التي تضع مصير الأولاد بين أيدي الأهل مستنكرةً. ونُبذت أيضاً العادة الانجليزية التي تترك للبنات الحرية الكاملة، باعتبار أنها عادة غير مقبولة في المجتمع الروسي، واعتبرت العادة الروسية، عادة التزويج بالواسطة، عادة غير لائقة. كان الجميع يسخرون منها، وكانت الأميرة توافقهم على ذلك، لكن كيف ينبغي، أن يتم الزواج، كيف ينبغي أن يزوج الأهل أولادهم؟ لم يكن أحد يعلم شيئاً من ذلك. وجميع الذين صارحتهم الأميرة بسؤالها أجابوها: «صدّقي أنه قد آن الأوان لنَبْذ تلك العادات البالية! فالأولاد هم الذين يتزوجون لا الأهل، ينبغي أن ندعهم يتدبرون أمورهم كما يشاؤون. لكن، ما أسهل هذا الكلام على الإنسان عندما لا يكون له بنات؟ وكانت الأميرة تخشى أن تهيم ابنتها، وهي تصاحب الشباب، بفتى لا رغبة له في الزواج أو بفتى لا يصلح أن يكون زوجاً لها. وعبثاً أوحى الناس إلى الأميرة بأن الشباب، في أيامنا، ينبغي أن يقرّروا مصيرهم بأنفسهم؛ كانت تأبى أن تصدّق ذلك كما تأبى أن تصدق أن أفضل لعب للأطفال الذين بلغوا الخامسة، في أيامنا، هي المسدّسات المعبأة، ولذلك كان قلقُ الأميرة على كيتي أكثر من قلقها على ابنتيها السابقتين.

أصبحت تخشى الآن أن يقتصر فرونسكي على مغازلة ابنتها. كانت ترى أن

كيتي مغرمةٌ به، لكنها كانت تُطَمئن نفسَها قائلةً لها: إن فرونسكي رجل شريف ولن يسيء إليها. إلا أنها كانت تعلم، في الوقت نفسه، ومع هذه الحرية التي غدت تسود الأخلاق، إلى أي حدّ أصبحَ إغواءُ الفتاة سهلاً، وإلى أي حد يستخف الرجال، في الأغلب، بذلك. لقد نقلت كيتي إلى أمها في الأسبوع الفائت، حديثاً جرى بينها وبين فرونسكي أثناء إحدى رقصات المازوركا. أدخل هذا الحديث شيئاً من الطمأنينة إلى نفسها، لكنها لم تهدأ تماماً. قال فرونسكي لكيتي: إنه تعوّد وأخوه أن يخضعا لأمهما في كل شيء، وأنهما لا يتخذان قراراً مهماً قبل أن يستشيراها، «وأنا أنتظر اليوم وصول أمي من بطرسبرج وكأني أنتظر سعادة خاصة».

ردّدت كيتي هذه الكلمات دون أن تُعلّق عليها أهمية كبيرة. لكن الأم فهمتها فهماً آخر. كانت تعلم أن الكونتيسة العجوز على وشك المجيء، بين يوم وآخر، وأنها ستُسرّ باختيار ابنها، وبدا لها غريباً أن يخاف ابنُها من إزعاجها لو طلب الفتاة. على أنها كانت ترغب رغبة شديدة في هذا الزواج، وتتمنّى كثيراً، على وجه الخصوص، أن تتخلص من قلقها، حتى أنها آمنت بقرب وقوع هذا الزواج. ومهما شقّ على الأميرة ما رأته من شقاء ابنتها الكبرى «دولي»، التي أخذت تستعد لهجران زوجها، فإن انهماكها بمصير ابنتها الصغرى استغرق جميع عواطفها. لقد زاد وصول ليفين من مخاوفها؛ كانت تخشى أن تعمد ابنتها التي مالت زمناً، في تقديرها، إلى ليفين، أن تعمد لفرط نزاهتها إلى رفض فرونسكي، كما كانت تخشى أن يعقد وصولُ الشاب الوضع ويؤخر حلاً وشيكاً.

سألت الأمُ ابنتها وهما راجعتان:

ـ هل وصل منذ زمن طويل؟

ـ اليوم، يا أمي.

بدأت الأم كلامها:

ـ ثمة شيء أحب أن أقوله لك...

لكنَّ كيتي استشفَتْ من وجهها الرصين والمهتاج عما سيدور عليه الكلام. فقالت وهي تتضرج حياء وتلتفت بشدة نحو أمها:

ــ أرجوك، يا أمي، أرجوك. لا تقولي شيئاً. فأنا أعرف، أعرف كل شيء.

كانت تشارك أمها في رغباتها، لكن دوافع أمها كانت تجرحها.

ــ أردتُ أن أقول لك فقط أنك إن بَعثْتِ الأمل في نفس أحدهما..

ــ بالله عليك، يا أمي العزيزة، لا تقولي شيئاً! فالكلام على ذلك يخيفني.

قالت أمها وهي ترى الدموع في عيني كيتي:

ــ حسناً؛ لي كلمة واحدة فقط يا حلوتي: أنتِ وعدتني ألا تكتمي أسرارك عني؟ أليس ذلك صحيحاً؟

أجابت كيتي وهي تحمر وتنظر إلى أمها، وجهاً لوجه:

ــ لن أكتم عنك شيئاً، يا أمي... لكنْ ليس لديّ ما أقوله لك الآن... حتى لو أردت ذلك... لما علمتُ ما أقوله ولا كيف أقوله... لستُ أدري...

فكرت الأمُ في نفسها، وهي تبتسم لاضطراب ابنتها ولغبطتها:

لا، لا يمكنها أن تكذب مع هاتين العينين». كانت تبتسم من الضخامة والأهمية اللتين بلغهما، في نظر تلك الفتاة المسكينة، ما كان يجري في قلبها.

[١٣]

أحست كيتي وهي تنتظرُ الحفلةَ الساهرة، بعد العشاء، بشعور شبيه بما يشعر به المرءُ قبل المعركة. كان قلبها يَخْفقُ بعنف، وكان فكرها عاجزاً عن الوقوف عند شيء. كانت تشعر أن هذه الأمسية التي يلتقي فيها الشابان لأول مرة، ستقرّرُ مصيرها. كانت لاتني تتصوره وحيداً تارة، ومعها تارة أخرى. فإذا فكرت في الماضي توقفت بلذة وحنان عند ذكرى صلاتها بليفين. وكانت ذكريات الطفولة والصداقة بين ليفين وأخيها الميت تسبغُ على هذه الصلات سحراً شعرياً، خاصاً.

وكان حبه الذي لا تشك فيه يُرضي غرورها ويملؤها سعادة. ولذلك كانت تستعذب التفكير في ليفين. وعلى النقيض من ذلك، كانت تستشعر شيئاً من الضيق دائماً حين تفكر في فرونسكي، مع أنه كان إنساناً كاملاً من علية القوم، يحسن التحكم بنفسه؛ فكأن شيئاً زائفاً كان ينسلّ إليها لا إليه (لقد كان بسيطاً وساحراً)؛ أما بصحبة ليفين فكانت تحسّ بنفسها بسيطة غاية البساطة، صافية غاية الصفاء. وبالمقابل، ما أن تحلم بمستقبلها مع فرونسكي حتى تتفتحُ أمامها آفاق من الغبطة البرّاقة، بينما يبدو المستقبل، مع ليفين، ضبابياً.

صعدت لاستبدال ثوبها، وبعد أن ألقت نظرة خاطفة إلى المرآة تبينّت بفرح أنها في أبهى أيامها وأحسن حالاتها؛ وكان ذلك ضرورياً جداً لها في هذه المناسبة؛ كانت تحسّ بالسكينة في قلبها وبالأناقة الرشيقة في حركاتها.

وما كادت تهبط إلى قاعة الاستقبال، في السابعة والنصف، حتى أعلن الحاجب قدوم: «قسطنطين دمتريتش ليفين». كانت الأميرة ما تزال في غرفتها، وكان الأمير غائباً. وفكرت كيتي: «قد كان ما توقّعتُه». وتدفّق دمُها كله إلى قلبها. وعندما لمحتْ نفسها في المرآة ارتعبت من شحوب وجهها.

كانت واثقة الآن من أنه عجّل مجيئه لكي يلقاها وحدها ويكاشفها بحبه. ولأول مرة، برزت لها القضيةُ من زاوية مختلفة كل الاختلاف. لقد أدركتْ فجأة أن هذه القضية لا تدور حولها وحدها ولا تدور حول سعادتها وعواطفها وحدها، بل إن عليها بعد قليل، أن تسيء إلى رجل كانت تكن له الود، أن تسيء إليه بفظاظة. . . لماذا؟ لأن هذا الفتى الكريم النفس يحبّها. لكنْ لا حيلة لها بذلك، ولا مردّ له، ولا بد أن تكون الأمور كذلك.

وفكرتْ في نفسها: «يا إلـهي! عليّ أن أقول ذلك بنفسي! لا أستطيع مع ذلك، أن أقول له: اني لا أحبه. ليس ذلك صحيحاً. . . ماذا سأقول له؟ أنني أحب رجلاً آخر؟ لا، هذا مستحيل. سأنصرف».

كانت قرب الباب، عندما سمعتْ خطواته. وقالت في نفسها عندما لمحت هذا الفتى الطويل، القوي، الوجل، بعينيه البراقتين الشاخصتين إليها: «لا، هذا عملٌ غيرُ شريف. ليس هناك ما يخيفني.

وأنا لم أرتكب إثماً. فليكنْ ما سيكون. سأصارحه بالحقيقة. ليس الأمر معه شاقاً. ها هوذا».

نظرت إليه في عينيه كأنها تتضرع إليه أن يُعفيها مما تخاف، ومدت يدها إليه.

قال وهو يلف القاعة المقفرة بنظرته:

ــ يبدو لي أنني وصلتُ مُبكراً.

وعندما رأى أن أمله يتحقق، وأن لا شيء يحول بينه وبين الكلام، تجهّم وجهُه.

فردّت عليه كيتي وهي تجلس قرب الطاولة:

ــ اوه! لا.

بدأ كلامه، بعد أن ظل واقفاً، وهو يتحاشى النظر إليها لكي لا يفقد شجاعته:

ــ كنت أرغب، بالضبط، في أن ألقاك وحدك.

ــ لن تلبث أمي أن تأتي. كانت متعبة، البارحة. أمس...

كانت تتكلم دون أن تعلم ما تقوله شفتاها، وهي تحدّق فيه بنظرتها المتضرعة، المتوددة.

وحدجها بعينيه، فتضرّجتْ وصمتت:

ــ قلتُ لكِ أنني لا أعلم إن كنتُ سأبقى طويلاً... وأن هذا يتوقف عليك.

زادت من إطراقة رأسها، وهي تجهل ما ستجيبه عمّا سيقوله لها. فردّد:

ـ أن هذا يتوقّف عليك. أردتُ أن أقول لك... أردتُ أن أقول لك... جئتُ لكي... تكوني زوجتي!

هكذا أنهى كلامه، دون أن يعلم نفسه ما كان يقوله؛ لكنه أحسّ أن أشد ما في الأمر هولاً قد قيل؛ فتوقف ونظر إليها.

كانت تتنفس بصعوبة، من غير أن ترفع عينيها إليه. وكانت تشعر بفرح عظيم. وكانت نفسُها تفيض سعادةً. وما مرّ ببالها قط أن الاعتراف بهذا الحب سيؤثر فيها مثل هذا التأثير القوي. لكن ذلك لم يدم سوى لحظة. إذ تذكّرتْ فرونسكي، فرفعت عينيها الصافيتين، الصريحتين، وحين رأت وجهه الذي غشيه اليأسُ، قالت على عجل:

ـ هذا غير ممكن... اغفرْ لي.

لكم كانت، قبل دقيقة، قريبةً منه، ضروريةً لحياته؟ وكم يشعر الآن أنها بعيدة، غريبة!

قال دون أن ينظر إليها:

ـ ما كان يمكن أن تكون الأمور غير ذلك.

ثم انحنى وأراد أن يخرج.

[١٤]

لكن الأم دخلت في هذه اللحظة بالذات. فارتسم الفزعُ على وجهها حين رأتهما منفردين، وقد امتُقع وجهاهما. حياها ليفين دون أن ينطق بكلمة. وأخلدت كيتي إلى الصمت، وغضّتْ طرفها. قالت الأم في نفسها: «الحمد لله، لقد رَفضَتْ»، واستضاء وجهُها بالابتسامة التي تستقبل بها عادةً مدعوّي الخميس. وجلست وأخذت تطرح على ليفين أسئلة عن حياته في الريف، فعاد إلى الجلوس منتظراً وصول المدعوين حتى ينسحب دون أن يلمحه أحد.

لم تمر خمس دقائق حتى دخلت صديقةٌ لكيتي تزوجت في الشتاء السابق هي: الكونتيسة نوردستون.

كانت امرأةً حادّة الطبع، جافة، صفراء، سوداء العينين، عليلة المظهر. وكانت تؤثر كيتي بحبها، وهو حبٌ تبدّى، كما هي الحال في حب المتزوجات للفتيات، في حرصها على أن تزوج كيتي وفقاً لمثلها الأعلى عن السعادة؛ كانت تريد أن تزوجها لفرونسكي. أما ليفين الذي لقيته كثيراً في منزل آل تشرباتزكي في مطلع الشتاء فكانت تَنْفر منه. وكان همُّها الأكبر، عندما تراه، أن تسخر منه. كانت تقول:

ـ أحب أن ينظر إلي من علياء عظمته، أو أن يقطع حديثه لأنني غبيةٌ مسرفة الغباء، أو أن يتنازل إلى الحديث معي. أحبُّ هذه الكلمة «يتنازل»! وأنا مغتبطة بأنه لا يطيقني.

لم تكن مخطئةً: وبالفعل، فإن ليفين لم يكن يطيقها وكان يحتقر فيها ما كانت تتباهى به بالذات: حدة طبعها، واحتقارها لكل ما هو خشن ومادي، ولا مبالاتها المتأنقة بذلك.

لقد قامت بين الكونتيسة نوردستون وليفين علاقاتٌ كثيراً ما نَقَعُ عليها بين الناس: علاقات بين شخصين يظلان صديقين، في الظاهر، لكن كلاً منهما يحْتقر الآخر إلى الحد الذي لا يعيره فيه التفاتاً ولا يجرحه منه شيءٌ.

ما لبثت الكونتيسة نوردستون أن تصدت لمهاجمة ليفين. فقالت وهي تمدّ له يداً نحيلة، صفراء، وتلمّح إلى كلمة قالها ليفين، ذات يوم، في مطلع الشتاء وهي: «أن موسكو ما هي إلا بابل»:

ـ آه! قسطنطين دميتريفتش! ها أنت ذا تعود إلى بابلنا الفاسدة. فهل اهتدتْ بابل أم تطرّق إليك الفسادُ.

قالت ذلك وهي تلقي نظرة خاطفة، ضاحكة على كيتي.

أجاب ليفين بعد أن أُتيح له من الوقت ما يتمالك به روعه وبعد أن استعاد على الفور، لهجته المزّة التي يستخدمها عندما يخاطب الكونتيسة نوردستون:

ـ إنه لممّا يحملني على الزهو والعجب أنك تتذكرين كلماتي بدقة. فلا شك أنها وقعتْ من نفسك موقعاً عظيماً.

ـ آه! وكيف لا؟ إنني أسجّلها جميعاً... حسناً! هل عدتِ، يا كيتي، إلى التزلّج؟

وأخذت تحدّث كيتي. ومع أنه كان عسيراً على ليفين أن يعود مبكراً إلا أنه آثر أن يرتكب عدم اللياقة على أن يقضي السهرة كلها بجانب كيتي التي كانت ترمي ببصرها نحوه، بين الحين والحين، وتتحاشى نظرته. أراد أن ينهض، لكن الأميرة التي لاحظت سكوته، خاطبته قائلةً:

ـ أتنوي البقاءَ طويلاً في موسكو؟ أنت تعمل في قضاء الصلح في المجالس المحلية، على ما أعتقد؟ وأنت لا تستطيع، من غير شك، أن تمكث طويلاً!؟

قال:

ـ لا، يا أميرة، لستُ أعمل الآن في المجالس المحلية. وقد جئت لقضاء بصعة أيام.

قالت الكونتيسة نوردستون في نفسها وهي تفحص وجه ليفين الرصين، القاسي: «هناك شيءٌ ما. فهو لا ينطلق في استطراداته المعتادة. لكني أعرف كيف أسوقه إليها. إني أحب أن أجعله ضُحْكة أمام كيتي، وسأُفلح في ذلك».

قالت له:

ـ يا قسطنطين دميتريفتش، اشرحْ لي، أرجوك، وأنت تعرفُ الجواب عما أريد، لماذا يُنفقُ الفلاحون ونساؤهم، عندنا، في مقاطعة كالوغا، على الشراب كل ما يملكون ولا يبقى معهم من المال ما يدفعون به الإتاوات؟ ما معنى ذلك؟ إنك تُثني دائماً على الفلاحين ثناءً عظيماً.

في هذه اللحظة، دخلت القاعةَ سيدةٌ أخرى، فنهض ليفين وقال:

ـ اعذريني، ياكونتيسة، فلست عارفاً بما تسألين عنه، وليس بوسعي أن أقول لك شيئاً.

وأعرض عنها لينظر إلى ضابط كان يدخل في اثر السيدة.

فكّر ليفين: «لا بد أن يكون فرونسكي، ولكي يتأكد من ذلك، رمى كيتي بنظرة خاطفة. كانت كيتي قد لمحت فرونسكي ونقلت بصرها إلى ليفين. فأدرك ليفين من تلك النظرة وحدها ومن عينيها المتألقتين أنها تحب هذا الرجل، ووثق من ذلك كما لو أنها جهرت بذلك الحب جهراً. لكن مَنْ يكون هذا الرجل؟

ما كان يمكن لليفين، الآن، إلا أن يمكث، سواءً أكان مكثه موافقاً للياقة أم مخالفاً لها: كان عليه أن يعلم مَنْ يكون ذلك الرجل الذي تحبه.

هناك أشخاص يعمدون، إذا التقوا خصماً محظوظاً، إلى إنكار كل ما فيه من حسنات، فلا يرون سوى سيئاته وحدها. وهناك آخرون، على النقيض من ذلك، يتوقون إلى أن يكشفوا، في هذا الخصم المحظوظ، عن المزايا التي أكسبتْه انتصاره، فلا يرون ــ وإن تمزّقت قلوبُهم ــ سوى الجوانب الحسنة. كان ليفين من هؤلاء. ولم يُتعبْ نفسه كثيراً لكي يكتشف ما في فرونسكي من جاذبية. كان ذلك واضحاً للعيان. كان فرونسكي أسمر، متوسط القامة، متّسق الجسم، جميل المحيّا، أنيس الطلعة، هادىء القسمات، واثقاً من نفسه إلى أقصى الحدود. كان كل شيء في وجهه وشخصه، بدءاً من شعره الأسود القصير وذقنه الحليقة منذ وقت قريب، إلى بزته الجديدة الرائعة التفصيل، بسيطاً وأنيقاً في آن واحد. وبعد أن تنحّى فرونسكي للسيدة التي دخلت معه، دنا من الأميرة ثم من كيتي.

وبينما كان يتّجه إليها، اتّقدت عيناها الجميلتان بضياء من الحنان، فانحنى لها ومد يداً صغيرة وإن كانت عريضة، وعلى شفتيه ابتسامةٌ سعيدة، لا تكاد تُلمح، ابتسامةٌ متواضعة تَنمُّ على الانتصار (على ما خُيّل إلى ليفين).

وبعد أن حيّا المدعوين ولاطف كلاً منهم ببضع كلمات، جلس دون أن يلتفت إلى ليفين الذي لم يرفع بصره عنه.

قالت الأميرة وهي تشير إلى ليفين:

ـ اسمحا لي أن أقدم كلاً منكما إلى الآخر: قسطنطين دميتريفتش ليفين، الكونت الكسي كيريلوفتش فرونسكي.

نهض فرونسكي، ونظر إلى ليفين نظرة ودية، وشدّ على يده. وقال بابتسامته البسيطة والصريحة:

ـ كان مقرراً، فيما أعتقد، أن نتعشى معاً هذا الشتاء. لكنك سافرت فجأةً إلى الريف.

قالت الكونتيسة نوردستون:

ـ قسطنطين دميتريفتش يحتقر ويكره مدينتنا وأهلها.

قال ليفين:

ـ يُخيّل إلي أن كلماتي تقع من نفسك موقعاً عظيماً لأنك تتذكرينها بدقة.

ثم تذكّر أنه قال لها هذه الجملة من قبل، فاحمرّ.

ألقى فرونسكي نظرةً على ليفين وعلى الكونتيسة نوردستون وابتسم. ثم سأل:

ـ أما زلتَ تُقيم في الريف. لا شك أن الريف مملٌّ، مضجر في الشتاء.

أجاب ليفين بِنَتْرٍ:

ـ المرء لا يصيبه الملال إذا كان مشغولاً، وعلى كل حال، فأنا لا أضجر أبداً إذا كنتُ وحدي.

قال فرونسكي وهو يتظاهر بأنه لم يلاحظ لهجة ليفين:

ـ أُحبُّ الريف.

قالت الكونتيسة نوردستون:

ــ لكني آمل، يا كونت، أنك لن ترضى بالإقامة الدائمة في الريف. وتابع كلامه:

ــ لستُ أدري، لم أُقِمْ في الريف طويلاً. لكنني أشعر بشعور غريب، فلم أحنّ قط مثل هذا الحنين إلى الريف، إلى الريف الروسي وفلاحيه بخفافهم من اللحاء، إلا بعد أن قضيتُ شتاءً في «نيس» مع أمي. إن «نيس» مملّة بذاتها، كما تعلمون. وكذلك نابولي وسورنت، فهما لا تطاقان إلا لفترة من الزمن. هناك يتذكّر المرء روسيا بشدة. فكأنما. . .

كان يتحدث مخاطباً كيتي تارة، وليفين تارة أخرى، منقّلاً بينهما نظرته الهادئة المتودّدة؛ كان يقول، على ما يبدو، كلَّ ما يخطر بباله.

وحين لاحظ أن الكونتيسة نوردستون تنوي أن تقول شيئاً توقّف في وسط جملته وأصغى إليها بانتباه.

لم يفتر الحديث لحظةً واحدة؛ ولم تُضطر الأميرة إلى عرض قضيتيها الكبريين اللتين تدخرهما للحظة التي تَنْضب فيها الموضوعات وهما: الدراسات الكلاسيكية والمدارس المهنية، ثم الخدمة العسكرية الإلزامية. وكذلك لم يتسنّ للكونتيسة نوردستون أن تُكايدَ.

لم يستطع ليفين أن يشارك في الحديث العام بالرغم من رغبته في ذلك؛ كان يقول لنفسه في كل لحظة: «يجب أن أنصرف الآن»، لكنه كان يمكث منتظراً شيئاً ما.

انتقل الحديث إلى الطاولات الدائرة والأرواح[1]، فأخذت الكونتيسة نوردستون التي تؤمن باستحضار الأرواح، تروي العجائب التي شاهدتها.

قال فرونسكي وهو يبتسم:

(١) الطاولات الدائرة والأرواح: شاع استحضار الأرواح الذي نشره وسطاء إنجليز شيوعاً عظيماً في مجتمع بطرسبرج أثناء السنوات ١٨٧٠ ــ ١٨٨٠.

ــ آه! بالله عليك، يا كونتيسة، خذيني إلى هؤلاء الناس! فلم أر، في حياتي قط، شيئاً خارقاً، مع أنني لا أتوق إلا إلى ذلك.

أجابت الكونتيسة نوردستون:

ــ موافقة، السبت القادم.

وسألتْ ليفين:

ــ وأنت، يا قسطنطين دميتريفتش، ألا تعتقد بذلك؟

ــ لمَ تسألينني عن ذلك؟ أنت تعلمين جيداً ما سأجيبك به.

ــ لكني أحب لو أسمع رأيك.

أجاب ليفين:

ــ رأيـي ببساطة هو أن هذه الطاولات الدائرة تدل على أن المجتمع الذي يسمّى مثقفاً ليس أكثر تحضّراً من فلاحينا. إنهم يعتقدون بالعين الشريرة والسحر والرقى المؤذية، ونحن. . .

ــ وإذن فأنت لا تعتقد بها.

ــ لا أستطيع أن أعتقد بذلك، يا كونتيسة.

ــ وإذا كنتُ قد رأيتُ ذلك بعيني؟

ــ الفلاحون أيضاً يَرْوون أنهم رأوا جنّ البيوت.

ــ أنت تظن إذن إنني أروي أكاذيب؟

وضحكت ضحكة زائفة الرنين.

تدخلت كيتي قائلة:

ــ كلا، ياماشا، فقسطنطين دميتريفتش يقول إنه لا يستطيع أن يؤمن باستحضار الأرواح.

وتضرجت حياءً عن ليفين؛ فأحسّ ليفين بذلك واغتاظ وأراد أن يرد، لكن فرونسكي بابتسامته الودية، المنفتحة، ما لبث أن تدخل في الحديث الذي أخذ

ينذر بالاحتداد، وسأله:

ـ أنت لا تسلّم إطلاقاً بإمكان وجود ذلك؟ فلمَ ذاك؟ إننا نسلّم بوجود الكهرباء التي لا نفهمها أيضاً... فلماذا لا تكون هناك قوةٌ جديدة، قوة ما تزال مجهولة، وهي...

قاطعة ليفين بشدة:

ـ عندما اكتُشِفَتْ الكهرباءُ اكتفى الناس بملاحظة الظاهرة التي كانوا يجهلون مصدرها ونتائجها؛ ومرت قرون قبل أن يفكروا باستخدامها. أما متسحضرو الأرواح فقد بدؤوا باستكتاب الطاولات وباستحضار الأرواح، ولم يشرعوا في الكلام على تلك القوة المجهولة إلا فيما بعد.

كان فرونسكي يصغي إليه بانتباه، كما يفعل دائماً، وكأنه مهتمٌ بحديثه.

ـ نعم، ولكن مستحضري الأرواح يقولون الآن: «اننا لا نعلم ما تلك القوة، ومع ذلك فهي موجودة، وهي تعمل في هذه الظروف التي تشاهدونها. وعلى العلماء أن يكتشفوا قوام تلك القوة. لا، لستُ أرى لماذا لا يمكن أن يكون هناك قوة جديدة، لو...

فقاطعه ليفين مرة أخرى:

ـ ذلك أنك كلما فركتَ الصوف بالراتنج ـ ولنكتَفْ بالكهرباء مثلاً ـ فسوف تحصل على ظاهرة محددة، أما في استحضار الأرواح فنحن لا نحصل دائماً على نتيجة. وذلك لا يُعدّ ظاهرة طبيعية.

لم يجب فرونسكي، ولعله رأى أن الحديث قد اتخذ وجهة مسرفة في الجد بالنسبة إلى هذا المكان؛ ولكي يغيّر الحديث ابتسم بفرح والتفت إلى السيدات وقال:

ـ لنجرّب ذلك، على الفور.

لكن ليفين أراد أن يكمّل برهانه فقال:

ــ أظن أن محاولة مستحضري الأرواح لتفسير أعاجيبهم بقوة جديدة مكتوبٌ عليها الفشل. إنهم يتحدثون عن قوة روحية ويريدون أن يخضعوها لتجربة مادية.

كان الجميع ينتظرون أن ينتهي ليفين من كلامه، وأحسّ هو بذلك. قالت الكونتيسة نوردستون:

ــ وأنا أعتقد أنك تصلح لأن تكون وسيطاً ممتازاً: ففيك شيء من الحماسة البالغة.

فتح ليفين فاه ليرد، لكنه احمرّ ولم يقلْ شيئاً.

قال فرونسكي:

ــ فلنسأل الطاولات، على الفور. أتسمحين، يا أميرة؟

ونهض باحثاً عن منضدة صغيرة.

ونهضت كيتي، والتقت نظرتُها نظرةَ ليفين وهي تمر أمامه. لقد رثت له من كل قلبها، وازدادت رأفة به لأنها سبب آلامه. كانت نظرتها تقول: «اغفرْ لي، إن كنت تستطيع... فأنا جدّ سعيدة». وأجابتها نظرةُ ليفين: «إنني أكره الناس جميعاً، أكرهك وأكره نفسي» وأراد أن يأتي بقبعته. لكنْ قُدِّرَ له ألا يترك القاعة. فبينما كان الجميع يجلسون حول المنضدة، وكان يستعد للخروج، دخل الأميرُ العجوز وحيّا السيدات والتفت نحو ليفين، وقال بلهجة مرحة:

ــ آه أمن زمن طويل وصلتَ؟ لم أكن أعلم أنك هنا. أنا مسرور برؤيتك.

كان الأمير العجوز يخاطب ليفين بضمير المفرد حيناً وبضمير الجمع حيناً آخر. وعانقه، ولم يُعرْ فرونسكي أدنى انتباه، وهو يكلمه؛ وكان فرونسكي قد نهض وانتظر بهدوء أن يلحظ الأمير حضوره.

أحسّت كيتي، بعد الذي جرى، أن ملاطفة أبيها ستشق على ليفين. ورأت أباها يردّ بفتور على تحية فرونسكي، ورأت فرونسكي ينظر إلى أبيها بحيرة باشة، وكأنه يتساءل عن علة هذا الجفاء نحوه، فتضرّجت حياءً.

قالت الكونتيسة نوردستون:

ــ يا أمير، أعدْ لنا قسطنطين دميتريفتش. فسوف نَقوم بتجربة.

قال الأمير العجوز وهو ينظر إلى فرونسكي، وقد تكهّن بأنه هو المحرّك لهذه التجربة:

ــ أية تجربة؟ تدوير الطاولات؟ اعذروني، أيها السيدات والسادة، ففي رأيـي، أن لعبة التمريرة أدعى إلى التسلية وأمتع. فلهذه اللعبة معنى ما على الأقل.

ألقى فرونسكي على الأمير نظرة هادئة، مدهوشة، وما لبث أن تحوّل نحو الكونتيسة نوردستون، وعلى شفتيه ابتسامة خفية، وأخذ يحدّثها عن حفلة راقصة كبيرة ستُقام في الأسبوع القادم.

سأل كيتي:

ــ سوف تحضرينها، كما أرجو؟

ما إن غادر الأمير القاعة حتى انسلّ ليفين دون أن يلحظه أحد؛ وكانت آخر صورة حملها من تلك السهرة وجه كيتي المغتبط، الباسم، وهي تردّ على سؤال فرونسكي.

[١٥]

عندما انتهت السهرة، روت كيتي لأمها الحديث الذي دار بينها وبين ليفين؛ كانت سعيدة لأنها تلقت طلباً للزواج، برغم الشفقة التي أوحى بها ذلك الشاب، ولم يكن يراودها شك بأنها تصرفت كما يليقُ بها أن تتصرف لكنها ما إن أوت إلى فراشها حتى جفاها النومُ. لقد حاصرْتها الذكرى: ذكرى وجه ليفين وهو مقطّبٌ بين الحاجبين، واقفٌ، يصغي إلى الأمير العجوز، ويلقي عليها وعلى فرونسكي نظرة كامدة، آسفة، وأخذتها الرأفة به حتى اغرورقت عيناها بالدموع، لكنها ما لبثت أن فكّرت فيمن حلّ محلّه، واستحضرت بجلاء ذلك الوجه الحازم

والرجولي، وهذه الثقة النبيلة بالذات، وتلك الطيبة البادية في كل حركة من حركاته. تذكرت الحبّ الذي يبادلها إياه من تحبه، فعاد الفرحُ إلى نفسها؛ أسندت رأسها إلى وسادتها وعلى وجهها ابتسامةُ السعادة، وحدّثت نفسها: «إن هذا يؤلمني، لكن، ما حيلتي؟ ليس الذنب ذنبي»، مع أن صوتاً داخلياً كان يقول لها العكس، ولم تكن تعلم إذا كانت نادمةً. فتنتْ ليفين أو لأنها رفضته. لقد كان الشك يسمم سعادتها.

وردّدت قبل أن تنام «ارحمني، يا إلهي! ارحمني، يا إلهي!».

في هذه الأثناء، وفي مكتب الأمير، كانت تدور إحدى هذه المشاحنات التي كثيراً ما تقع بين والدي كيتي بصدد ابنتهما المفضلة.

كان الأمير يصرخ وهو يحرك ذراعيه ثم لا يلبث أن يكفّ بهما طرفي مبذله المبطن بفرو السنجاب:

ــ الذي جرى؟ سوف تعرفينه! جرى أنك بلا إباء ولا كرامة. لقد دنّست شرفَ ابنتك وأضعتِها بهذه الطريقة السخيفة والسوقية التي تبحثين فيها عن زوج لها!

قالت الأميرة التي أوشكت أن تبكي:

ــ لكن، ماذا فعلتُ، بحق السماء، يا أمير؟

لقد جاءت، وهي مغتبطة، مسرورة بعدحديثها مع ابنتها، لتحيّي زوجها، على عادتها، ومع أنها لم تَنْو أن تُطلع زوجها على طلب ليفين ورفض كيتي، فقد لمحّت بأنها تعتبر اقتران ابنتهما بفرونسكي كالمؤكد، وأنه سيتقرر منذ اللحظة التي تصل فيها الكونتيسة. عند سماع هذه الكلمات انفجر الأمير وأوسعها تأنيباً فظاً.

ــ ما فعلته؟ سأقول لكِ ما فعلت: أولاً، اجتذبت خطيباً: وسوف تتحدث موسكو بأسرها عن ذلك، ولها ملءُ الحق. عندما تقيمين السهرات فادعي جميع الناس، ولا تقصريها على طالبي الزواج الذين تختارينهم. ادعي جميع هؤلاء الزغاليل (هكذ كان الأمير يدعو فتيان موسكو)، ادعي هؤلاء، وليرقصوا، لكن

لا تدبّري مقابلات كما فعلت هذا المساء، إني لأتقزز حين أرى ذلك؟ وقد وصلتِ إلى مبتغاك، ولعبتِ بعقل الفتاة! ليفين أفضل ألف مرة من هذا الصبي. هؤلاء المدّعون من بطرسبرج إنما يُصنعون بالجملة، وكلهم متشابهون، لا يصلحون لشيء. وحتى لو كان أميراً من محتدٍ شريف، فليست ابنتي بحاجة إلى أحد!

ــ لكن، ماذا فعلتُ؟

فهتف الأمير بغضب:

أنتِ. . .

وقاطعته الأميرة:

ــ لو أصغينا إليك لما زوجنا ابنتنا أبداً. مثلنا كمثل من يَذهب إلى الريف.

ــ وهذا أفضل.

ــ اصغ إلى! إني لم أركض وراء أحد على الإطلاق. لقد أحب ابنتنا شابٌ جميل، وأظن أن ابنتنا أيضاً. . .

ــ نعم، تظنين! وإذا كانت مشغوفة حقاً به وكان تفكيره في الزواج لا يزيد على تفكيري أنا فيه؟ . . . أوه! وددتُ لو لم يكن لي عينان. . . «آه! استحضار الأرواح، آه! «نيس» آه! الحفلة الراقصة. . .» (وتصوّر الأميرُ أنه يقلد امرأته فأخذ ينحني عند كل كلمة) وهكذا نعمل على شقاء كيتي، إذا ما تصورت حقاً أن. . .

ــ لكنْ لمَ تظن ذلك؟

ــ لست أظن، لكني أعلم؛ إن لنا عيوناً ترى ذلك، أما النساء فهن عميُ. إني أرى رجلًا له نيّةٌ صادقة هو ليفين؛ وأرى مدّعياً هو هذا الشاب المغرور الذي لا همَ له سوى التسلية.

ــ دعكَ من هذا، أنتَ الذي يتوهّم. . .

ــ سوف تتذكّرين ذلك، ولكنْ بعد فوات الأوان، كما كانت الحال بالنسبة إلى دولي.

أوقفته الأميرة عند ذكر العائرة الحظ دولي:

ــ كفى، كفى. ولندعْ الكلام.

ــ طيب! ليلة سعيدة!

افترق الزوجان بعد أن تبادلا رسم إشارة الصليب وتعانقا، وإن أحسّا أن كلاًّ منهما متمسك بموقفه.

كانت الأميرة، في البداية، مقتنعة اقتناعاً أكيداً بأن السهرة قد قررت مصير كيتي وأنه لا سبيل إلى الشك في صدقِ نيّة فرونسكي. لكن كلمات زوجها هزّتها وأدخلت الاضطراب إلى نفسها. وعندما عادت إلى حجرتها والرعبُ يملؤها أمام هذا المستقبل المجهول، ردّدت مرات، كما فعلت كيتي، من أعماق قلبها: «ارحمْني، يا إلهي! ارحمني، يا إلهي!».

[١٦]

لم يعرف فرونسكي قط الحياة العائلية، فأمه، وهي من نساء المجتمع اللامعات في شبابها، قد كان لها في حياة زوجها وفيما بعد على وجه الخصوص، مغامراتٌ عديدة أثارت ضجة كبيرة، وهو لا يكاد يذكر شيئاً عن والده، وقد نشأ وتربّي في «مدرسة الوصفاء»[١].

وعندما تخرج من المدرسة ضابطاً في مقتبل الشباب، نهجَ رأساً نهج الضباط الأغنياء في بطرسبرج، ومع أنه كان يخالط الناس بين الحين والحين، إلاَّ أن مصالحه الغرامية كانت في مكان آخر.

ففي موسكو أحسّ، لأول مرة بعد تلك الحياة المترفة، الماجنة في بطرسبرج، بسحر علاقة حميمة مع فتاة من المجتمع الراقي، فتاة بريئة، فاتنة، شُغفت به، ولم يخطر بباله أن في علاقته بكيتي ما يمكن أن يدعو إلى اللوم. كان

---

(١) مدرسة الوصفاء: مدرسة عسكرية أرستقراطية في بطرسبرج.

يراقصها، في معظم الأحيان، في الحفلات الراقصة، وكان يرتاد منزل أهلها ويحدثها عما يتحدث عنه الناس في المجتمع: سفساف الأحاديث التي يسبغ عليها، على نحو عفوي، معنى خاصاً عندها. ومع أنه لم يكن يقول لها ما لا يجدر بالآخرين سماعه، فقد كان يحس أنها كانت تزداد ارتباطاً به، وكان كلما اشتد إحساسه بهذا الارتباط، تعاظم سرورُه، وشعوره بالحنان نحوها. ولم يعلم أن لتصرفه هذا إزاء كيتي اسماً محدداً تحديداً دقيقاً، وهو أنه محاولة إغراء دون نية الزواج، وأن محاولة الإغراء هذه تُعَدّ من الأعمال الشريرة المتداولة بين الشباب اللامعين من جنسه، لقد كان يظن أنه اكتشف لذة جديدة، وكان يستمتع باكتشافه.

ولو أنه سمع ما كان يقوله والدا الفتاة، في هذا المساء، ولو أنه نظر من الزاوية التي ينظر منها أهلها، وعلم أن كيتي ستكون تَعِسةَ إن لم تتزوجْه، لذهل ولأبَى أن يصدّق ما كن بوسعه أن يصدّق أن ما يوفّر، له ولها بخاصة، مثل هذه اللذة العظيمة يمكن أن يستحق اللوم. وكان أقلّ تصديقاً لفكرة الزواج.

لم يفكر في الزواج قط. فهو لم يكن يكره الحياة العائلية فحسب، بل إن العائلة، ولا سيما الزوج، كانا يمثلان، في وسط العزّاب الذي يعيش فيه، عنصراً غريباً، معادياً، وفوق ذلك كله... عنصراً مضحكاً. ومع أنه لم يخطر ببال فرونسكي ما كان يقول عجوزا آل تشرباتزكي، فقد أحسَ وهو يخرج من عندهم أن هذا الربط الروحي والسري، القائم بينه وبين كيتي قد توطّد، في هذا المساء إلى حد يفرض عليه أن يشرع في شيء ما. أما ما يمكن أو يجب أن يشرع فيه، فلم يكن يعلم عنه شيئاً.

كان يقول في نفسه وهو عائد من عند آل تشرباتزكي، حاملاً معه شعوراً عذباً من النقاء والنضارة، مردُّهُ جزئياً إلى أنه لم يدخّن طوال السهرة، وشعوراً جديداً من الحنان أمام الحب الذي أبدته الفتاةُ له:

ــ اللطيفُ أننا لم نقل شيئاً، لا هي ولا أنا، وأننا قد تفاهمنا تفاهماً عظيماً في هذه المبادلة الصامتة للنظرات والنبرات، التي كشفت لي عن حبها بوضوح، ما أعظم رشاقتها، وبساطتها، وثقتها، على وجه الخصوص! أحسّ أن لي قلباً. وأن فيّ كثيراً من الخير. هاتان العينان العاشقتان! عندما قالت: «نعم، تماماً. . .».

«وبعد ذلك؟ لا شيء، هذا يلذ لي، ولها أيضاً» وتساءل أين ينبغي أن ينهي السهرة.

وطاف بخياله في الأماكن التي يمكن أن يذهب إليها. «إلى النادي؟ ليلعب بالورق، ويشرب الشمبانيا مع إيغناتون؟ لا، إلى قصر الزهور[1] سألقى أوبلونسكي هناك، والأحاديث المعادة، والقيل والقال؟ لا، يكفيني ما لقيت منها. من أجل ذلك أحببت آل تشرباتزكي؛ إنهم يجعلونني أفضل. سأرجع إلى غرفتي». ومضى رأساً إلى غرفته في فندق «دوسو»[2] وتناول عشاءه، وخلع ملابسه، ولم يكد يضع رأسه على وسادته حتى استغرق في نوم عميق.

[١٧]

في الساعة الحادية عشرة، من صباح اليوم التالي، قصد فرونسكي إلى محطة بطرسبرج للقاء أمه؛ وكان أوبلونسكي أول شخص لقيه على الدرج الكبير، وقد جاء لاستقبال أمه في القطار نفسه.

هتف أوبلونسكي:

ــ هيه! يا صاحب السيادة! من تراك تنتظر؟

أجاب فرونسكي، وهو يبتسم، مثله مثل جميع الذين يصادفهم أوبلونسكي:

ــ أمي. فمن المقرر أن تصل اليوم من بطرسبرج.

---

(١) قصر الزهور: مقهى ومغنى فرنسي في موسكو.

(٢) دوسو: فندق ومطعم فرنسي في موسكو.

وشدّ على يده، وصعد الدرج معه.

ـ انتظرتُكَ حتى الساعة الثانية. فأين ذهبت بعد أن غادرت منزل آل تشرباتزكي؟

أجاب فرونسكي:

إلى غرفتي. وأنا أعترفُ أنني وجدت السهرة جدّ ممتعة بحيث فقدت الرغبة في الذهاب إلى مكان آخر.

وهتف ستيڤان اركادييڤتش كما هتف البارحة وهو يخاطب ليفين:

ـ إنني أعرف الخيل الجامحة من شِياتها والعاشقين من عيونهم.

ابتسم فرونسكي ابتسامة الموافق، لكنه ما لبث أن غيرَ الحديث وسأل:

ـ وأنتَ، من تنتظر؟

قال أوبلونسكي:

أنا، أنتظر امرأة جميلة.

عجباً، عجباً!

ـ الخزي لمن يسيء الظن[1]! إنها أختي آنا.

قال فرونسكي:

ـ أنت تعرفها، بلا شك؟

أجاب فرونسكي بشيء من الشرود، وقد ذكّره اسمُ كارينين، على نحو مبهم، بإنسان متصنّع، مُضجر.

ـ نعم، أعتقد ذلك! أوْ لا... الحقيقة أنني لا أتذكر شيئاً.

لكنك تعرف، من غير شك، صهري المشهور أليكسي ألكسندروفتش؟ الجميعُ يعرفونه.

---

(١) الخزي لمن يسيء: رمز وسام ربطة الساق الإنكليزي، وهو مكتوب على شعار المملكة المتحدة.

قال فرونسكي:

ـ يعني أنني سمعت بصيته، ورأيتُه، إني أعلم أنه ذكي، متعلم، مرموق المكانة. لكن، أتَعْلَمْ، أنه ليس... ليس من نمطي.

فعلّق ستيڤان اركادييڤتش قائلاً:

ـ نعم، إنه رجل رفيع الشأن؛ وهو محافظ قليلاً، لكنه رجل ممتاز.

قال فرونسكي وهو يبتسم:

ـ جزاه الله خيراً!

وقال لخادم أمه العجوز الذي كان يقف قرب الباب:

آه! هذا أنت! تعال.

كان فرونسكي يحس، في هذه الأيام الأخيرة، بمتعة خاصة حين يرى أوبلونسكي، فضلاً عن السرور الذي كان يشعر به الجميع وهم يرونه، لأنه كان يتصوّر أن ذلك يقرّ به من كيتي.

قال له وهو يأخذ بيده ويبتسم:

إذن، سوف نقيم عشاء، في يوم الأحد، على شرف مغنيتنا الرائعة.

ـ بدون شك وأنا أتلقى الاكتتابات.

وأردف سائلاً:

ـ آه! هل تعرفتَ البارحة إلى صديقي ليفين.

نعم، لكنه انصرف بسرعة.

وأضاف أوبلونسكي:

إنه فتي لطيف. أليس كذلك؟

أجاب فرونسكي وهو يلوّن كلامه بلون من الدعابة:

ـ لست أدري لماذا نجد في جميع أهالي موسكو، ما عدا الذين أكلّمهم، بطبيعة الحال، ذلك الجانب الحاسم، فهم يثورون ويغضبون كمن يريدون أن يعظوك.

قال ستيڤان اركادييڤتش وهو يضحك بمرح:

ــ فيما تقوله شيءٌ من الحق.

وسأل فرونسكي أحد المستخدمين.

ــ هل يتأخر القطار؟

أجاب الرجل:

ــ إنه يوشك أن يصل.

اتضح قربُ وصول القطار شيئاً فشيئاً من الحركة المتعاظمة على الرصيف، ومن روحات وجيئات الحمّالين، ومن ظهور رجال الشرطة والمستخدمين، ومن توافد الذين جاؤوا لاستقبال المسافرين. وخلال الضباب، بدا العمال بمعاطف الفرو القصيرة وبجزمات اللبد المرنة، وهم يجتازون تقاطع الخطوط، وتناهى من بعيد صفيرُ المرجل وتحرّكُ شيءٍ ثقيل.

قال ستيڤان اركاديبڤتش، وكان يتحرق شوقاً إلى أن يطلع فرونسكي على نيّة ليفين:

ــ لا، لم يُتح لك أن تُقدر ليفين حقٌّ قدره. إنه شخص حاد الطبع، عصبي المزاج، وهذا ما يجعله في بعض الأحيان كريهاً، وأنا أوافق على ذلك، لكن في وسعه أيضاً أن يكون فتاناً. فهو إنسان عظيم الاستقامة، عظيم النزاهة، طيب القلب!

وتابع ستيڤان اركاديبڤتش بابتسامة لها دلالتها، متناسياً تناسياً كلياً المودة الخاصة التي واجه بها ليفين أمس، ومحولاً هذه المودة إلى فرونسكي:

ــ لكن، قد كانت له دواعيه الخاصة أمس. نعم، كان بين اثنين: إما أن يكون سعيداً جداً أو شقياً جداً.

توقف فرونسكي وسأله بصراحة:

ــ هل تعني بذلك أنه قد طلب الزواج من أخت زوجتك، أمس، قال ستيڤان اركاديبڤتش:

ـ ربما. يُخيّل إليّ. نعم، إذا كان قد انصرف مبكراً، وإذا كان مغتماً عند انصرافه، فذلك لأنه... إنه مُغرم بها منذ زمن بعيد، وهو يثير شفقتي.

قال فرونسكي وقد نهض وأخذ يتمشى:

حقاً؟... أعتقد، على كل حال، أنها يمكن أن تأمل العثور على زوج خير منه.

وأضاف:

ـ لكني لا أعرفه. نعم. الموقف شاق. ولذلك يفضّل معظم الناس أن تكون علاقتهم بكلارا[1]. على الأقل إن فشلتَ هناك فذلك يعني ببساطة أنك لا تملك ما يكفي من المال. أما هنا... فكرامتك هي المعرّضة للتجريح. لكن، ها قد أقبلَ القطار.

وبالفعل، كانت القاطرة تصفر من بعيد. وبعد دقائق اهتز الرصيف، ودلف القطار إلى المحطة وهو ينفخ دخاناً ردّه البرد إلى الأرض، وكان ساعد العجلة المركزية ينطوي وينبسط بحركة بطيئة ومنتظمة؛ وأخذ السائق يحيي الناس وقد تلفع وتغطّى بالجليد؛ وخلف مقطورة الماء والوقود، جاءت مقطورة المتاع التي كان ينبح فيها كلب، وهزّت الرصيف هزةً أعنف؛ وأخيراً أقبلت عربات المسافرين، وسط الارتجاجات التي تسبق الوقوف.

قفز مراقبٌ طلقُ المحيا من العربة. وصفر بصفارته. ومن خلفه، أخذ المسافرون الذين عيل صبرُهم ينزلون واحداً واحداً: نزل ضابط من ضباط الحرس، يابساً كالعصا، ملقياً حوله نظرات قاسية؛ وتاجرٌ صغير بادي الانهماك، حاملاً كيسه والبسمة على شفتيه؛ وفلاح يتقلد خرجه على منكبيه.

كان فرونسكي واقفاً بجنب اوبلونسكي يتأمل الأشياء والناس: لقد نسي أمه كلياً. فما عرفه قبل قليل بصدد كيتي حمل إليه فرحاً ممتزجاً بالنشوة. فنفخَ صدره تلقائياً، والتمعت عيناه: ذلك أن شعوراً بالظفر أخذ يداخله.

(١) كلارا: مومسات العاصمة ومعظمهن لم يكن روسيات.

قال المراقبُ وهو يقترب من فرونسكي:

ــ الكونتيسة فرونسكي في هذه المركبة.

نبهته هذه الكلماتُ، وذكرته بأمه ولقائهما الوشيك. كان في قرارة نفسه، لا يحترم أمه، ولا يحبها، وإنْ لم يقرّ بذلك. لكنه لم يكن يتصوّر موقفاً إزاء أمه سوى ذلك الموقف الذي بلغ أقصى درجات الاحترام والطاعة، طبقاً لأفكار الوسط الذي يحيا فيه وطبقاً لتربيته، ذلك الموقف الذي يتعاظم فيه الاحترام والطاعة بمقدار ما يتناقض فيه حبه واحترامه الحقيقي لها.

[١٨]

تبع فرونسكي المراقب إلى القطار؛ وفي اللحظة التي كان سيدخل فيها المركبة، توقف كي يفسح المجال لسيدة كانت تهم بالخروج.

استطاع فرونسكي، بغريزة الرجل العارف بأحوال الناس، ومن نظرة خاطفة واحدة، أن يصنّف هذه السيدة بين نساء المجتمع الراقي.

فاعتذر وأراد أن يتابع طريقه، لكنه استدار بشكل غريزي ليتطلع إليها مرة أخرى، لا بسبب جمالها، ولا بسبب الأناقة والرشاقة الرصينة اللتين ينبعثان من شخصها كله، بل لأن تعبير وجهها الفاتن، عندما مرّتْ أمامه، بدا له طافحاً بالبشر والإيناس. وبينما كان ينظر إليها التفتتْ هي أيضاً. وحطت عيناها الرماديتان، اللامعتان، اللتان أظهرتهُما الأهدابُ الكثيفة داكنتين، حطتا بانتباه ودي على وجهه الذي خُيّل إليها أنها تعرفه، ثم مالبثتا أن تحولتا إلى جمهور المارة وكأنها تبحث عن شخص ما. في هذه النظرة القصيرة، أتيح لفرونسكي أن يلاحظ الحيوية المكتومة التي كانت تتراقص على وجهها، وتظهر في عينيها الملتمعتين حيناً، وحيناً آخر في تلك الابتسامة الخفية التي كانت تطوف بشفتيها النضرتين. فكأنما كان كيانها يفيض بالحياة التي كانت تنعكس بالرغم منها في بريق عينيها أو في

ابتسامتها، وكان ضياءُ نظرتها المُغشى عن قصد، يتبدّى بالرغم منها في ابتسامتها التي لا تكاد تُلحظ.

دخل فرونسكي القطار. فحَصتْهُ أُمه، وكانت عجوزاً جافة، سوداء العينين، قد سوّت شعرها في جدائل صغيرة، وهي تغمض عينها نصف إغماضة، وتبتسم بشفيتها الرقيقتين، نهضت عن مقعدها، وناولت خادمتها حقيبتها، ومدت يدها الناتئة العظام إلى ابنها كي يلثمها، وقبلته بدورها على جبينه.

ـ هل وصلتكَ برقيتي؟ وصحتك جيدة؟ الحمد لله!

قال لها ابنها وهو يجلس بجانبها ويصيح، بلا تعمد، إلى صوت امرأة خلف الباب:

ـ أكان سفركِ مريحاً؟

كان يعلم أن ذلك الصوت هو صوت السيدة التي صادفها وهو يصعد القطار. كان الصوت يقول:

ـ لستُ من رأيك، بالرغم من كل شيء.

هذه وجهة نظر بطرسبرج، يا سيدتي.

فأجابت:

ـ لا، وإنما هي ببساطة وجهة نظر أنثى.

ـ حسناً! اسمحي لي أن أقبل يدك.

قالت السيدة عند مدخل المركبة التي دخلتها:

ـ إلى اللقاء، يا إيفان بتروفتش. انظر إن كان أخي هنا وأرسله إليّ.

سألتها الكونتيسة فرونسكي:

هل وجدتِ أخاك؟

حينئذٍ تذكر فرونسكي أنها السيدة كارينين.

قال لها وهو ينهض.

ـ أخوك هنا. اعذريني، فأنا لم أعرفّك. لم نلتق إلا نادراً حتى أنك لا تتذكرينني، بدون شك.

قالت وقد تركت ابتهاجها ينفذ إلى ابتسامتها.

ـ أوه! بلى، كنتُ سأعرفك، لأننا، أمك وأنا، لم نتحدثْ طوال الطريق إلا عنك. ألم يأتِ أخي بعد؟

قالت الكونتيسة العجوز:

ـ هيا ناده. يا اليوشا.

ـ نزل فرونسكي إلى الرصيف وصرخ:

ـ اوبلونسكي! من هنا!

لـكـن السيدة كارينين لم تنتظر أخاها: فما أن لمحته حتى نزلت إلى الرصيف بخطوات خفيفة وثابتة. وعندما أدركته أمرّتْ ذراعها حول عنقه وجذبته إليها. بحركة أدهشت فرونسكي برشاقتها وقوتها، وعانقته بود. لم يرفع فرونسكي بصره عنهما وابتسم دون أن يعرف لماذا. لكنه تذكر أن أمه تنتظرهُ، فصعد إلى القطار.

قالت له الكونتيسة العجوز:

ـ ألا تراها فاتنةً؟ لقد عَهِد بها زوجها إليّ. فأسعدني ذلك. تبادلنا الحديث أثناء الطريق كله. قل لي، وأنتَ؟ يُقال أنك... قد وجدتَ ضالتك المنشودة. هذا أفضلُ لك، يا عزيزي، أفضل لك.

فأجاب ابنها بفتور:

ـ لا أعلم يا أمي، ماذا تقصدين، هل نخرج؟

دخلت السيدة كارينين إلى المركبة لتستأذن الكونتيسة، فقالت لها بفرح:

ـ وأخيراً! عثرتِ أنت على ابنك، يا كونتيسة، وأنا على أخي. على كل حال لقد نفذ ما عندي من قصص، ولم يبق لدي ما أرويه لك.

قالت الكونتيسة وهي تمسك بيدها:

ـ لا أظن ذلك أبداً، قد أطوف العالم معك دون أن يداخلني السأمُ، فأنت من هؤلاء النساء الفاتنات التي يطيب معهن الكلامُ والصمت. وأرجوك ألا تفكري في ابنك: إذْ لا بدْ من الفراق بين الحين والحين.

ظلت السيدةُ كارينين واقفةً، بغير حراك، منتصبة، وعيناها تبتسمان.

وضَحَّت الكونتيسة لابنها:

ـ آنا اركادييفنا لها طفل في الثامنة لم تفارقهُ قط، وهي تتألم لفراقه.

قالت السيدة كارينين والابتسامة تضيءُ وجهها من جديد: ابتسامة حلوة موجهة إلى فرونسكي.

ـ نعم، لقد تحدثنا، الكونتيسة وأنا، عن ولدينا.

فقال لها رداً على تلك الكلمة التي أرسلتها بغنج ودلال:

ـ لا شك أن ذلك قد أدخل السأم إلى نفسك.

لكنْ يبدو أنها لم تشأ أن تتابع الحديث بهذه اللهجة فالتفتت إلى الكونتيسة العجوز:

ـ أشكرك كثيراً، لم أحسّ بمرور نهار أمس، إلى اللقاء، يا كونتيسة.

أجابت الكونتيسة:

ـ وداعاً، يا صديقتي. اسمحي لي أن أقبّل وجهك الجميل. وأستطيع أنا المرأة العجوز، أن أقول لك بدون تكلف أنك قد أسرْتني.

مهما تكن هذه الجملة تقليدية، فقد بدت السيدةُ كارينين متأثرةً بها فتضرجت، وانحنت قليلاً، وقربت وجهها لقبلة الكونتيسة. ثم انتصبتْ ومدت يدها إلى فرونسكي، وقد لازمتها تلك الابتسامةُ التي كانت ترتعش في نظرتها تارةً، وتارة أخرى على شفتيها، فشد على هذه اليد الصغيرة، مغتبطاً أشد اغتباط حين

أحس بضغطها الثابت والقوي في يده. وخرجت بخطوات سريعة، خفيفة إلى حد مدهش، نظراً لامتلاء جسمها.

قالت الكونتيسة العجوز:

ـ إنها ساحرة حقاً!

كان هذا هو بالضبط ما مرّ ببال ابنها. وتبعها بنظره إلى أن توارى شخصها اللطيف، وظلت الابتسامةُ على شفتيه. ومن النافذة، رآها تدنو من أخيها، وتضع يدها على ذراعه وتشرع في الحديث بحماسة؛ وكان واضحاً أن الحديث لا علاقة له إطلاقاً بفرونسكي، فأحزنه ذلك.

ردّد وهو يلتفت إلى أمه.

ـ هل الحال على ما يُرام، يا أمي؟

ـ نعم، على أتم ما يراد. كان الكسندر لطيفاً جداً، أما ماري فقد أصبحت أجمل بكثير. إنها جذابة جداً.

أخذتْ تتحدثُ عما يعنيها قبل كل شيء: عن تعميد حفيدها الذي من أجله جاءت إلى بطرسبرج، وعن اللفتة الكريمة التي خصّ بها الامبراطور ابنها الأكبر.

قال فرونسكي وهو ينظر من النافذة.

ـ ها هوذا «لوران». لنذهبْ، إذا شئتِ.

جاء الخادمُ العجوز الذي يرافق الكونتيسة ليُعلن أن كل شيء غدا جاهزاً، فنهضت الكونتيسة. وقال فرونسكي:

ـ لنذهبْ الآن. فلم يبق خلقٌ كثير.

حملت الخادمة الحقيبة والكلبَ الصغير، وحمل الخادم مع أحد الحمالين بقية الأمتعة. قدّم فرونسكي ذراعه لأمه، وعندما نزلا من المركبة، مرّ أمامهما فجأة جمعٌ من الناس وقد بدا الرعبُ على وجوههم. وكان بينهم ناظرُ المحطة، وعلى

رأسه قبعةٌ من نوع خاص. كان من الواضح أن أمراً غير عادي قد وقع. وأخذ المسافرون يرتدّون إلى مؤخرة القطار، وسُمعتْ هذه الكلمات بين المارة:

ــ ماذا؟... كيف؟... أين كان ذلك؟... رمى بنفسه تحت القطار؟... دُهِسَ؟

عاد ستيڤان اركاديڤتش وأخته، وذراع كل منهما في ذراع الآخر، وقد امتقع وجهاهما. ووقفا قرب باب المركبة، لكي يتفاديا الزحام.

صعدت السيدتان إلى المركبة، بينما ذهب فرونسكي وستيڤان أركاديڤتش يتحريان تفاصيل أوسع عن الحادث المؤسف.

وعلما أن حارساً لم يسمع مؤخرة القطار تتحرك، لأنه كان ثملاً أو لأنه قد تلفع بثيابه اتقاءً للبرد، فدُهس.

عرفت السيدتان حقيقة الحادث من الخادم قبل وصول فرونسكي واوبلونسكي. كان هذان قد رأيا الجثة مشوهة. وبدا اوبلونسكي متأثراً. كان يقطب بين حاجبيه وكأنه يهم بالبكاء. وردّد:

ــ آه! يا لبشاعة هذا المنظر! آه! آنا، لو رأيته! آه! يا لبشاعته!

أما فرونسكي فقد أخلد إلى الصمت: كان وجهه الجميل رصيناً، لكنه كان هادئاً كلَّ الهدوء.

طفق ستيڤان أركاديڤتش يقول:

ــ آه! لو رأيت ذلك، يا كونتيسة. كانت زوجته هنا أيضاً... كان شيئاً رهيباً أن يراها المرءُ... لقد ارتمت على جسده. يبدو أنه كان يعول وحده أسرةً كبيرة. هذا هو الشيء الرهيب!

قالت السيدة كارينين بلهجة متأثرة:

ــ ألا يمكن أن نمد إليها يد المساعدة؟

نظر إليها فرونسكي وما لبث أن غادر المركبة. وقال وهو يلتفت في اللحظة التي كان سيجتاز فيها الباب.

ــ سأعود، على الفور.

وعندما عاد بعد بضع دقائق، كان ستيڤان اركادييڤتش يتحدث إلى الكونتيسة عن المغنية الجديدة، وكانت هذه تنظر بجزع إلى ناحية الباب تترقب ابنها.

قال فرونسكي وهو يعود:

ــ لنذهبْ، الآن.

خرجوا معاً. كان فرونسكي يسير أمام أمه. وخلفهما السيدة كارينين وأخوها. وعند المخرج، لحق ناظرُ المحطة بفرونسكي وقال له:

ــ لقد سلّمت نائب ناظر المحطة مائتي رويل. فهلا تكرمت وقلت لي مَنْ الذي تهبه هذا المال؟

قال فرونسكي وهو يهز كتفيه:

ــ الأرملة. لستُ أفهم لمَ تسألُ هذا السؤال؟

هتف اوبلونسكي من خلفه:

ــ فَعَلْتَها؟

وأضاف وهو يشدّ على ذراع أخته:

ــ إن هذا العمل كريم جداً! كريم جداً! ألا ترينه فتى رائعاً؟ تحياتي، يا كونتيسة.

وتوقف هو وأخته بحثاً عن خادمة السيدة كارينين.

وعندما خرجا من المحطة، كانت عربةُ فرونسكي قد انصرفت. وكان الناس الذين يدخلون ما يزالون يتحدثون عن الحادث. قال سيدٌ وهو يمرّ بالقرب منهم.

ــ تلك ميتة بشعة! يُقال إنهُ شطر شطرين.

فرد عليه رجلٌ آخر:

ـ على العكس، إنها أهون ميتة، لأنها كانت فورية.

وقال ثالث:

ـ وكيف لا تُتخذ الاحتياطات الضرورية؟

كانت السيدة كارينين تصعد العربة ورأى أخوها بدهشة أن شفتيها ترتجفان وأنها لا تكاد تقوى على حَبْس دموعها. فسألها بعد أن مضيا في الطريق:

ـ ما بك، يا آنا.

قالت:

ـ هذا نذير شؤم.

ـ قال ستيڤان آركادييڤتش:

ـ يا للحماقة! لقد وصلت، وهذا هو المهم. وأنت لا تعرفين مقدار ما أعلق من أمل عليكِ.

سألته:

ـ أمن زمن بعيد عرفتَ فرونسكي؟

ـ نعم، ونحن نأمل أن يتزوج كيتي.

واستطردتْ وهي تهز رأسها كأنها تريد أن تطرد عنها فكرةً مزعجة، مضايقة، وقالت بهدوء:

ـ آه! نعم؟ لنتحدث الآن عنك. لنتحدث عن شؤونك. لقد تلقيتُ رسالتك، وهأنذا أجيء.

قال ستيڤان اركادييڤتش:

ـ نعم، ليس لي أمل إلاَّ بك.

ـ هات، ارو لي كل شيء.

وأخذ ستيڤان اركادييڤتش يروي لها ما جرى.

عندما بلغ اوبلونسكي البيت، أنزل أخته من العربة، وشدّ على يدها، وتوجه إلى المحكمة.

[١٩]

عندما دخلت آنا. كانت دولي جالسة في غرفة الاستقبال الصغيرة تعطي ابنها درسه في اللغة الفرنسية. كان ابنها صبياً صغيراً، ممتلىء الوجه، أشقر، قد غدا الآن صورة صادقة لأبيه. وكان الصبيُ يقرأ وهو يفتل زراً رخواً في سترته ويحاول جاهداً أن ينزعه عنها. وأرادت الأم أن تمنعه من ذلك عدة مرات، لكن اليد الربلة كانت تعود دائماً إلى الزر. فنزعت دولي ذلك الزر ووضعته في جيبها. وقالت له:

ــ غريشا، أرخ يديك.

واستأنفت سرد غطائها، وهو عمل بدأته منذ زمن بعيد. وكانت تعود إليه في الأوقات العصبية. كانت تعمل بعصبية، مرسلةً اصبعها بحركة متقطعة، وعادةَ سرداتها. ومع أنها قالت أمس لزوجها: إنها لا تبالي كثيراً إن جاءت أختهُ أم لم تجيء، إلاَّ أنها قد أمرت بتهيئة كل شيء لقدومها، وكانت تنتظرها بانفعال.

لقد أرهق الحزنُ دولي وسحقها. ومع ذلك فلم يغبْ عن بالها أن أخت زوجها آنا كارينين زوجةُ شخصيةٍ عظيمة النفوذ وأنها هي نفسها سيدة كبيرة في بطرسبرج.

وفكرت في نفسها: «نعم، الحقيقة أنه لا دخل لآنا في ذلك. ولم أعرف منها إلاَّ الخصال الحميدة وقد أظهرتْ لي دائماً المحبة والودّ». والواقع أن الأثر الذي انطبع في نفسها ــ على ما تذكر ــ بعد زيارتها آل كارينين في بطرسبرج هو أن المنزل لم يرقْ لها: لقد كان في حياتهما العائلية شيءٌ من الزيف. وحدثت دولي نفسها: «لمَ لا أستقبلُها؟ على ألا تسعى إلى تعزيتي! العزاء والنصح والمغفرة المسيحية، كل ذلك ردّدته على نفسي آلاف المرات بغير جدوى». لقد ظلت

دولي، طوال هـذه الأيام وحـدهـا مـع الأولاد. لم تشأ أن تتحدث عن حزنها، ولم تستطعْ أن تتحدث عن شيء آخر، مع هذا الحزن الذي يغشي قلبها. وكانت تعلم أنها ستطلع آنا عـلى كـل شيء، بهـذا الشكل أو ذاك، فتسعد حيناً بأنها ستبوح لها بذات نفسها. وتغتاظ حيناً آخر من أنها ستضطر إلى أن تتحدث عن مذلتها إلى أخت زوجـهـا، وإلى أن تستمع إلى جُمل جـاهزة عن التشجيع والعزاء.

كانت تتطلع إلى رقاص الساعة، منتظرةً أخت زوجها بين لحظة وأخرى لكنها أغفلت ــ كما يقع في الغالب ــ عن اللحظة ذاتها التي وصلت فيها المسافرةُ، ولم تسمع الجرس.

ولما سمعت حفيفَ ثوب، وخطوات خفيفة عند عتبة الباب، التفتتْ وعبّر وجهها المتعب عن الدهشة، لا عن الفرح. فنهضتْ واحتضنتْ أختَ زوجها بين ذراعيها.

قالت لها وهي تعانقها:

ــ كيف، قد وصلت؟

ــ دولي، كم أنا سعيدة برؤيتك!

ــ وأنا أيضاً.

قالت دولي ذلك، وعلى وجهها ابتسامةٌ شاحبة، ساعيةً جهدها إلى أن تستشف ما تعرفه آنا، من خلال تعبير وجهها. وقالت في نفسها وهي ترى الإشفاق على وجهها: «لا شك، أنها تعلم». وأضافت محاولةً إبعاد لحظة المكاشفة قدر الإمكان:

ــ تعالي، سآخذك إلى غرفتك.

قالت آنا:

ــ هذا غريشا؟ يا إلـٰهي، لكم كبر!

وقبّلت الصبيَّ دون أن ترفع عينيها عن دولي، ثم توقفت واحمرّت، ثم قالت:

ـ لا، اسمحي لي أن أبقى هنا.

رفعت آنا خمارها عن كتفيها، وقبعتها التي علقت بإحدى خصل شعرها الأسود، الجعد. فتخلصت منها بأن هزّت رأسها.

قالت لها دولي بشيء من الحسد:

ـ إنك تتألقين سعادةً وصحة.

قالت آنا:

ـ أنا؟... نعم.

وأضافت وهي تلتفت إلى الطفلة التي دخلت راكضة:

ـ يا إلـٰهي، تانيا! من سن سيرج.

وأخذتْها بين يديها وقبّلتها:

ـ يا لها من طفلة حلوة، حلوة! أرني الأولاد جميعاً!

وسمّتهم واحداً واحداً، لم تكن تتذكّر أسماءهم فحسب، بل أيضاً أعمارهم بدقة، وطباعهم، والأمراض التي أصيبوا بها. فلم تستطع دولي إلا أن تتأثّر بذلك، وقالت:

ـ هيّا لنَرَهم. لكن «فاسيا» ينام الآن. وهو شيء مؤسف.

وبعد أن زارتا الأولاد، جلستا منفردتين في قاعة الاستقبال لتناول القهوة. صبت آنا لنفسها، ثم أبعدت الصينية وقالت:

ـ دولي، لقد حدّثَني بكل شيء.

نظرت دولي إلى آنا ببرودة. وأخذت تنتظر جملاً من الشفقة المصطنعة؛ لكن آنا لم تقلْ شيئاً من ذلك. بل قالت:

ـ دولي، يا عزيزتي، لا أريد أن أدافع عنه أو أن أعزيك، فذلك لا طائل تحته. لكني أرثي لك، يا صديقتي، أرثي لك من كل قلبـي!

وبرقت الدموعُ عند أهدابها الكثيفة. وأدنتْ مجلسها من زوجة أخيها، وتناولت يدها بيدها الصغيرة، القوية. فلم تُعرض دولي، لكن وجهها احتفظ بأمارات القسوة. وقالت:

ـ لا سبيل إلى العزاء، بعد كل ما جرى. لقد انتهى كلُّ شيء. لقد أضعتُ كل شيء!.

وما أن قالت ذلك حتى رقت قسماتُ وجهها فجأة. فقبلت آنا يدها الجافة، الناحلة، وقالت لها:

ـ لكن، ما العمل، يا دولي، ما العمل؟ وكيف ينبغي أن يتصرّف الإنسان في هذا الموقف الرهيب؟

قالت دولي:

ـ لقد انتهى كل شيء، ولا يمكن الرجوع عن ذلك. لكن أسوأ ما في الأمر أنني لا أستطيع أن أتركه: فهناك الأولاد، وأنا لستُ حرةً. ومع ذلك فليس بوسعي أن أعيش معه بعد الآن، إن من دواعي عذابـي أن أراه.

ـ دولي، يا عزيزتي، لقد حدثني، لكني أود لو تحدثينني أنت بدورك. أخبريني بكل شيء.

نظرتْ إليها دولي نظرةً مستطلعةً. كان الاهتمام والحب باديين على وجه آنا.

قالت دولي بغتة:

ـ فليكنْ. لكني سأروي لك القصة من بدايتها. تعرفين كيف تزوجتُ. وبسبب تربية أمي، لم أكن ساذجةً فحسب، بل كنت حمقاء أيضاً. لم أكن أفقه شيئاً. يُقال إن الأزواج يقصون على زوجاتهم حياتهم الماضية، لكن ستيڤا... (ثم راجعت نفسها وقالت: ستيڤان اركادييڤتش) لم يقلْ لي شيئاً. ولا يمكنك أن

تصدقي أنني كنت واثقة، حتى هذه الأيام الأخيرة، بأنني المرأة الوحيدة التي عرفها! لقد عشتُ على هذا المنوال ثماني سنوات. واعلمي أنني لم أكن أُبرّئه من الخيانة فحسب، بل كنت أقدّر أن ذلك مستحيل... ثم إذا بي ـ تصوّري ـ اطّلع على هذه الفظاعات والقبائح، وأنا على مثل أفكاري تلك! .... افهميني.

كنت متأكدة من سعادتي، واثقة بها، وفجأة...

وتابعت وهي تحبس عبراتها:

ـ إذا بي أعْثرُ على رسالة... رسالة منه إلى عشيقته، إلى مربية أولاده! لا، إن ذلك لشديد البشاعة! (وأخرجتْ منديلها بسرعة وغطّت به وجهها).

واستأنفت بعد لحظة من الصمت:

ـ أنا أفهم أن ينجرف وراء الإغراء، أما أنْ يخدعني عن عمد، وبحذقٍ ومهارة... ومع من؟... ثم يظل زوجي، وفي الوقت نفسه... هذا فظيع! لا تستطيعين أن تفهمي...

قالت آنا وهي تشدّ على يدها:

ـ أوه! بلى، إني أفهم، إني أفهم، يا دولي العزيزة!

وأردفتْ دولي:

ـ وتظنّين أنه يحسّ بفظاعة موقفي؟ أبداً. إنه سعيد ومسرور.

فقاطعتها آنا بحدّة:

ـ أوه! لا، فهو يثير الشفقة، والندم ينهشُه.

فقاطعتها دولي وهي تتأمل بإمعان وجه أخت زوجها:

ـ أهو قادر على الندم؟

ـ نعم، إني أعرفه، ولا أستطيع أن أنظر إليه بدون شفقة. كلانا يعرفه. إنه طيب، لكنه عزيز النفس وهو يحسّ بالإهانة إحساساً كبيراً! وما أثّر فيّ بخاصةٍ (وهنا تنبّأت آنا بما يمكن أن يؤثر في دولي أكثر من غيره) أن هناك شيئين يعذّبانه:

تبكيت ضميره تجاه الأولاد من جهة، وكونه قد سبّب لك، من جهة ثانية، مثل ذلك الألم، في حين أنه يحبك. . . لأنه يحبك أكثر من أي شيء في العالم.

وأسرعت آنا فقاطعت دولي التي همّت بالرد عليها:

ـ وهو يردد دائماً: «لا، لا، لن تغفر لي».

كانت دولي تصغي بترو لأخت زوجها، دون أن تنظر إليها. وقالت:

ـ نعم، إني أدرك أن موقفه فظيع: فهو موقف أشدّ على المذنب منه على البريء، عندما يحس أن الشقاء يجيء ممّا جنته يداه. لكن كيف أصْفحُ، كيف يمكنني أن أظل زوجة له، بعدها؟ سيكون العيش معه عذاباً لي، ولا سيما أنني ما أزال أحبّه كما أحببته من قبل. . .

وخنقتها العبرات.

لكنها لم تكنْ تهدأ حتى تعود إلى الكلام على ما يثير حفيظتها، وكأنها تفعل ذلك قصداً. فانبرت تقول:

ـ إنها شابة، جميلة. أتعلمين، يا آنا، من الذي استلب جمالي وشبابي؟ هو والأولاد. لكنني قد بَليتُ. ضحّيتُ بكل ما كان عندي، وهو الآن يجد متعة أكبر بالقرب من مخلوق نضرٍ وسوقي. ولا شك أنهما تحدثا عني، أو لعلهما أغفلا ذكري، وذلك أسوأ. . . أتفهمين؟

ومن جديد، لمع في عينيها بريقُ الغضب:

ـ وسوف يقول لي، بعد ذلك. . أأصدّق ما يقول؟ أبداً. لا، لقد انتهى كل شيء. كل ما كان يعزّيني، ويكافئني عن متاعبي، ويجزيني عن همومي. . . أتصدقينني؟ لقد أعطيت غريشا درساً قبل قليل؛ كان ذلك، من قبل، مصدر فرح لي، أما الآن فهو مصدر عذاب؟ لمَ كان لي أولاد؟ الفظيع أن نفسي قد انقلبت فجأةً؛ إني لا أشعر نحوه إلاّ بالكره، نعم بالكره، بدلاً من الحب والحنان. أستطيع أن أقتله وأن. . .

ـ دولي، يا صديقتي، إني أفهمك، لكن لا تعذّبي نفسك. أنت ساخطة لما لحق بك من إهانة، مضطربة أشد اضطراب حتى أنك لا ترين الأشياء على حقيقتها.

هدأت دولي، ولاذتا كلتاهما بالصمت خلال بضع دقائق.

ـ ما العمل؟ فكري في ذلك، يا آنا، وأنجديني. استعرضتُ كل شيء فلم أرَ مخرجاً.

لم تعثر آنا على الحل، لكن قلبها كان يتجاوب مع كل كلمة من كلمات زوجة أخيها، ومع كل تعبير من تعابير وجهها.

شرعت تقول لها:

ـ دونك ما سأقوله لك: أنا أختُه، وأنا أعرف طبعه، أعرف قدرته على أن ينسى كل شيء (ومرّت بيدها على جبهتها)، على أن ينجرف وراء أهوائه انجرافاً كلياً، وأيضاً على أن يتوب من أعماق قلبه. إنه لا يدرك، اليوم، كيف استطاع أن يُقدم على ما أقدم عليه.

فقاطعتها دولي:

ـ بلى، بلى! كان مدركاً واعياً لما يفعل! لكنني... أنت تنسينني... وهذا ليس أقل إيلاماً لي!

ـ انتظري. أعترف لك أنني لم أفهم على الفور، عندما حدثني، هولَ وضعك. لم أكن أرى سواه وسوى تفكك الأسرة؛ وكنتُ أعطف عليه؛ أما الآن وقد تحدثتُ إليك حديثي إلى امرأة، فإني أرى شيئاً آخر: أرى آلامك، ولا أستطيع أن أقول لك كم أرثي لك! دولي، يا ملاكي، إني أفهم تماماً آلامك، لكني أجهل إلى أي حد ما تزالين تحبينه. وعليك أنتِ أن تعلمي إن كان قد بقي لديك من الحب ما يحملك على الصفح عنه، اصفحي عنه، إن كنت تستطيعين!

بدأت دولي كلامها:

ـ لا . . .

لكن آنا قاطعتها وهي تلثم يدها مرة أخرى. وقالت لها:

ـ إني أعرف الناس خيراً منك. أعرف كيف ينظر الرجال من أمثال ستيڤا إلى هذه الأمور. تقولين إنهما تحدثا عنك. هذا خطأ. فهؤلاء الرجال يقترفون الخيانة، لكن منزلَ الأسرة والزوجة مذبحٌ مقدس عندهم. وهم لا ينفكّون يحتقرون أولئك النساء، فلا يسيئون إلى أسرهم. إنهم يرسمون بينهن وبين أسرهم خطاً لا يمكن تجاوزُه. لست أفهم ذلك، لكن ذلك واقع.

ـ نعم، لكنه كان يعانقها.

ـ دولي، يا روحي، إصغي! رأيت ستيڤا عندما كان مغرماً بك. إني أذكر ذلك الزمن الذي كان يأتي فيه إليّ ليبكي وهو يتحدث عنك. وفي أية منزلة شاعرية سامية كان يضعك؛ وأنا أعلم أنك كنت تكبرين في عينيه كلما عايشك. كنا نسخر منه لأنه كان يضيف بعد كل كلمة: «دولي إمرأة مدهشة». لقد كنتِ وما زلت معبودةً لديه. لم يكن ذلك انجرافاً من قلبه . . .

ـ وإذا ما تكرر انجرافه؟

ـ أظن أن ذلك غير ممكن . . .

ـ أكنتِ تصفحين، أنت؟

قالت آنا التي كانت غارقة في التأمل.

ـ لا أدري، لا أستطيع أن أقول . . .

وانتهزت المناسبة بفكرها، ووزنتها بموازين داخلية وأضافت:

ـ بلى، بلى، أستطيع، أستطيع، نعم، كنتُ سأصفح. لن أكون أنا نفسي، لكنني سأصفح، كأن شيئاً لم يقع، على الإطلاق . . .

فقاطعتها دولي بحرارة، وكأنها كانت تعبّر عن فكرة خطرت ببالها أكثر من مرة.

ــ بدون شك، وإلا لما كان صفحاً. إذا صفحنا فينبغي أن يكون الصفح كاملاً. تعاليْ، سآخذك إلى غرفتك.

قالت ذلك وهي تنهض، وفي الطريق احتضنت أخت زوجها بين ذراعيها، وقالت لها:

ــ يا عزيزتي، ما أعظم سروري بقدومك! أشعر أنني تحسنت، تحسنت كثيراً.

[٢٠]

قضت آنا النهار كله في المنزل، أي منزل آل أوبلونسكي، ولم تستقبل أحداً (بعض أصدقائها الذين علموا بوصولها جاؤوا للسلام عليها). وظلت مع دولي والأولاد طوال الصباح، وأرسلت بطاقة إلى أخيها تدعوه فيها إلى المجيء، دون تخلف، للعشاء. وقد كتبت فيها «تعال. إن الله رحيم».

تعشى أوبلونسكي في بيته؛ شارك الجميع في الحديث، وخاطبته امرأته بضمير المفرد، وهو ما لم تفعله منذ زمن. ظلّت الصلاتُ بين الزوجين متباعدة، لكن مسألة الانفصال لم تعد واردةً، واستشفّ ستيڤان أركادييڤتش إمكان التعاتب والتصالح.

جاءت كيتي بعد العشاء رأساً. لم تكد كيتي تعرف آنا، وقد قصدت إلى منزل أختها في شيء من التخوف، تخوفها من الاستقبال الذي ستستقبلها به هذه السيدةُ الكبيرة التي أطنب الناس في الثناء عليها. لكنها أعْجبت آنا أركادييفنا وتبيّنتْ ذلك على الفور. لا ريب أن آنا قد سحرها جمالُ كيتي وشبابها. كما أن كيتي قد وجدت نفسها، وقبل أن تتمالك نفسها، خاضعةً لسلطان آنا بل مشغوفة بإمرأة متزوجة أكبر منها سناً. ولم يكن في مظهر آنا ما يدل على أنها من النساء البارزات في المجتمع الراقي، أو على أنها أم لصبـي عمره ثمانية أعوام؛ بل كانت كأنها ابنة عشرين، إذا

ما نظرنا إلى رشاقة حركاتها، ونضارة وجهها، وحيويته التي كانت تبدو في ابتسامتها تارة، وفي نظرتها تارة أخرى، لولا ذلك التعبير الرصين والكئيب أحياناً الذي أدهش كيتي واجتذبها. وكانت كيتي تحسَّ أن آنا بسيطة كل البساطة وهي لا تبطن شيئاً، بل إنها تحمل في ذاتها عالماً آخر، عالماً سامياً من الاهتمامات الشاعرية والمعقّدة، عالماً يعزّ عليها بلوغُه.

عندما أوتْ دولي إلى حجرتها بعد العشاء، نهضت آنا بعجلة، ودنتْ من أخيها الذي كان يُشعل سيجاراً، وقالت له وهي تغمز بعينين باشتين، وترسم عليه إشارة الصليب، وتشير له إلى الباب بنظرتها:

ــ ستيڤا، اذهبْ، وليكن الله في عونك!

وفهم ما قصدْته، فرمى بسيجاره وتوارى خلف الباب.

عندما خرج ستيڤان أركادييڤتش عادت إلى الأريكة التي كانت جالسةً عليها، والأولاد من حولها. فهل لاحظ هؤلاء أن أمهم تؤثر هذه العمة بحبها، أم أنهم وجدوا فيها سحراً خاصاً؟ لقد تعلق بهذه العمة الجديدة، قبل العشاء، الابنان الأكبران، وحذا حذوهما الأصغران، كما يحدث في معظم الأحيان، وأبوا أن يتركوها. وقد قام بينهم ضربٌ من اللعب وهو أن يتقربوا جهدهم من عمتهم، وأن يلمسوها، وأن يمسكوا بيدها الناعمة، وأن يلثموها، وأن يلعبوا بخاتمها، وأن يلامسوا حواشي تنورتها.

قالت آنا وهي تعود إلى الجلوس:

ــ هيا، لنعدْ كما كنا.

فدسّ غريشا رأسه تحت يد عمته وأسنده إلى ثوبها وهو يشع عُجباً وسعادةً.

قالت وهي تلتفت إلى كيتي:

ــ متى تُقام الحفلةُ الراقصة الآتية؟

ـــ في الأسبوع القادم: وستكون حفلة بديعة، حفلة من هذه الحفلات التي يستمتع فيها الانسان دائماً.

قالت آنا بشيء من التهكم الرقيق:

ـــ وهل هناك حفلات لا يستمتع فيها الإِنسان دائماً؟

ـــ نعم، وهذا غريب، لكن الأمور هكذا. في منزل آل بوبريشتشيف نستمتع دائماً، وكذلك في منزل آل نيكيتين. أما في منزل آل بيحكوف فالضجر يصيبنا دائماً. ألم تلاحظي ذلك؟

قالت آنا:

ـــ لا، يا روحي، ليس هناك، بالنسبة إلي، حفلات نستمتع بها. ليس هناك سوى حفلات يكون ضجرُنا فيها أقل...

ولمحت كيتي في عينيها ذلك العالم الخفي الذي كان مغلقاً في وجهها.

ـــ كيف يمكنك أن تشعري بالضجر، في حفلة راقصة؟

فسألتها آنا:

ـــ كيف لا يمكنني، أنا، أن أشعر فيها بالضجر؟

رأت كيتي أن آنا تعرف ما سيكون جوابها.

ـــ لأنك دائماً تفوقين غيرك جمالاً.

كانت آنا تحمرّ بسهولة. فاحمرت وقالت:

ـــ أولاً، هذا غير صحيح؛ وثانياً، لو كان هذا صحيحاً لما انتفعتُ به كثيراً!

فسألتها كيتي:

ـــ هل في نيّتك أن تأتي إلى هذه الحفلة الراقصة؟

ـــ أعتقد أنه لا بد لي من المجيء.

وقالت لتانيا التي كانت تسحب خاتماً أخذ يزلق من إصبعها البيضاء الناحلة:

ـــ خذيه، خذيه!

ـ سأكون مسرورةً لو جئت. أحب كثيراً أن أراك في الحفلة الراقصة.

ـ إذا كنت سأذهب، فسوف أتعزى بأنني قد أحمل السرور إلى نفسك، على الأقل...

وقالت وهي تعيد إلى موضعها خصلة شعر كان الصبي الصغير يعبث بها:

ـ غريشا، لا تشدّ شعري، أرجوك. فقد صرتُ محلولة الشعر.

ـ وهل أراك بثوب ليلكي؟

فسألتْها آنا وهي تبتسم:

ـ ولم اللونُ الليلكي بالذات؟

وقالت وهي تتخلص من الأولاد وترسلهم إلى قاعة الطعام:

ـ انصرفوا، يا أولاد، انصرفوا. أتسمعون؟ الآنسة «هوك» تدعوكم للشاي.

وأردفت قائلة:

ـ أعرف لماذا تدعينني إلى هذه الحفلة. أنت تنتظرين منها الكثير، وتودين لو يحضرها ويشارك فيها الجميع.

ـ كيف عرفتِ ذلك؟ نعم، هذا صحيح.

قالت آنا:

ـ آه! يا لفتوتك! إني لأذكر تلك الضبابة الزرقاء التي تشبه ما نراه في سويسرا على الجبال. هذه الضبابة التي تلفّ كل شيء، في تلك الفترة السعيدة التي نفارق فيها الطفولة... ومن هذه الدائرة العريضة، السعيدة، الفرحة، يضيق الدربُ شيئاً فشيئاً... إنا لنشعر بروعة السحر وبالقلق معاً حين نمضي على هذه الدرب الضيقة مع أنها تبدو مضيئة، بديعة... من ذا الذي لم يمرّ بها؟

كانت كيتي تبتسم دون أن تفوه بكلمة. وحدثت نفسها وهي تتذكر مظهر اليكسي الكسندروفتش، زوج آنا، وهو مظهر قليل الشاعرية: «كيف أمكنها أن تمرّ بهذا الدرب؟ كم أتمنى أن أعرف قصتها كلها!»

وتابعت آنا:

ــ أنا على علم بكل شيء. ستيڤا حدثني، ولك تهانيَّ، إنه يعجبني كثيراً، لقد لقيتُ فرونسكي في المحطة.

سألتها كيتي وهي تحمّر:

ــ آه! أكان هناك؟ وماذا قال لك ستيڤا؟

فردّت آنا:

ــ روى لي كل شيء. وسأكون جدّ سعيدة... لقد سافرتُ مع أم فرونسكي، وهي لم تكفّ عن الكلام عليه، إنه ابنها المفضل، أعلم أن الأمهات متحيّزات، لكن...

ــ وماذا قالت لك أمه؟

ــ آه! الكثير من الأشياء! إنه ابنها المفضّل، لكنه بالرغم من كل شيء، عظيم النخوة والإباء... مثلاً، حدثتني أنه كان ينوي أن يتخلّى عن ثروته كلها لأخيه، وقد أقدم في طفولته على مأثرة فذّة: إذ أنقذ امرأةً أشرفت على الغرق وبكلمة واحدة: إنه بطل.

قالت آنا ذلك وهي تبتسم وتتذكر الروبلات المائتين التي وهبها في المحطة. ولكنها لم تتحدث عن الروبلات، لأن هذه الذكرى لم تطب لها. كانت تحس أن فيها شيئاً يخصها، شيئاً جديراً باللوم.

واستأنفت آنا كلامها:

ــ لقد أصرت علي كي أزورها. سأكون مسرورة أن أراها، وسأذهب غداً لزيارتها.

وأضافت وهي تغير الحديث وتنهض:

ــ الحمد لله أن ستيڤا بقي طويلاً عند دولي: خيل إلى كيتي أنها رأت على وجهها أمارات الضيق.

وتصايح الأولاد الذين انتهوا من شرب الشاي فهرعوا إلى عمتهم:

ـ لا، أنا سبقت! لا، أنا سبقت!

قالت آنا وهي تركض ضاحكة للقائهم:

ـ كلكم، في آنٍ واحد!

ضمتهم بين ذراعيها، وألقت على الأريكة بهذه الجماعة التي اضطرب بها المكان، والتي ضجت من الفرح.

[٢١]

خرجت دولي من غرفتها لتناول شاي الكبار. ولم يحضر ستيڤان اركادييڤتش. فلا شك أنه غادر غرفة زوجته من الباب الخلفي.

قالت دولي وهي تلتفت نحو آنا:

ـ أخشى أن يصيبك البرد فوق، وأحب أن تقيمي في الطابق الأرضي. وهكذا سنغدو أقرب كلتانا من الأخرى.

أجابت آنا وهي تسبر وجه دولي وتسعى إلى أن تستشف: إن كانت المصالحة قد تمت أم لا:

ـ آه! أرجوك، لا تشغلي بالك بـي.

فقالت زوجة أخيها:

ـ المكان أضوأ هنا.

ـ قلت لك: إنني أنام أينما أكن، نوماً عميقاً.

قال ستيڤان اركادييڤتش وهو يخرج من غرفته، مخاطباً زوجته:

ـ عم تتحدثان؟

أدركت آنا وكيتي على الفور، من جرس صوته، أنهما قد تصالحا. فأجابته دولي:

ـ أحب أن تقيم آنا هنا، لكن من المستحسن تغيير الستائر. ولا يستطيع أحد أن يفعل ذلك، ولا بد من أن أفعله بنفسي.

حدثت آنا نفسها وهي تلاحظ هدوء دولي وفتورها: «والله يعلم إن كانا قد تصالحا تماماً».

قال لها زوجها:

ـ لا تعقّدي حياتك دائماً. سأهتم أنا بالأمر، إن شئت.

قالت آنا في نفسها: «نعم، لا شك أنهما تصالحا».

فردت دولي عليه:

ـ أرى منذ الآن كيف ستتصرف، سوف تلقي على «ماتفي» أوامرك التي لا تفهم، ثم تنصرف أنت، ويفسد هو كل شيء...

وافترت شفتا «دولي» عن ابتسامة ساخرة.

استنتجت آنا أن «المصالحة تامة، تامة، والحمد لله!» ودنت من دولي، وهي سعيدة لكونها سبب الوفاق، وعانقتها.

قال ستيڤان اركاديیڤتش وهو يلتفت إلى زوجته وعلى وجهه ابتسامة لا تكاد تلمح:

ـ أبداً، لم تحتقريننا إلى هذا الحد ما تفي وأنا؟

كانت دولي طوال السهرة ساخرة، كعادتها، من زوجها سخرية خفيفة، وكان ستيڤان أركادييڤتش مرحاً، مسروراً، لكن إلى الحد الذي لا يبدو معه أنه نسي أخطاءه، بعد أن صُفح عنه.

في الساعة التاسعة والنصف انقطع الحديث الذي كان فكهاً بنوع خاص هذا المساء، حول مائدة الشاي، في منزل آل اوبلونسكي، قطعه حادثٌ عادي جداً في الظاهر، لكنه بدا غريباً لكل منهم. فبينما هم يتحدثون عن معارفهم في بطرسبرج، نهضت آنا بشدة، وقالت:

ـــ إن صورتهم عندي، بين مجموعة صوري.

وأضافت بابتسامة تنطق بالاعتزاز الأمومي:

ـــ وبهذه المناسبة سأريكم صورة ابني سيريوجا.

ففي نحو الساعة العاشرة، وهي الساعة المعتادة التي كانت تتمنى فيها لابنها: ليلة سعيدة، أو التي كانت تأتي فيها غالباً إلى فراشه لتغطيه، قبل أن تذهب إلى الحفلة الراقصة، أحست بالحزن لبعدها عنه، وكانت تغتنم موضوع الحديث، أياً كان نوعه، لتنتقل بفكرها إلى قرب صغيرها، سيريوجا بشعره الجعد، وراودتها الرغبة في تأمل صورته والحديث عنه قليلاً. وتذرعت بأول ذريعة، فنهضت وذهبت لتأتي بمجموعة صورها. وكان الدرج المؤدي إلى غرفتها يطل على سطح الدرج الكبير المدفأ للطابق الأرضي.

وفي اللحظة التي كانت تخرج فيها من غرفة الاستقبال رن الجرس في البهو.

قالت دولي:

ـــ من عساه يكون؟

ولاحظت كيتي:

ـــ إن كان الطارق آتياً لاصطحابي إلى البيت فقد جاء قبل الأوان، أو كان زائراً فليس هذا وقت الزيارة.

قال ستيڤان اركادييڤتش:

ـــ لعله إنما جاء بالأوراق إليّ.

وبينما كانت آنا تمر قرب الدرج، صعد خادم على عجل يعلن قدوم أحد الزائرين، ألقت آنا نظرة إلى الأسفل، وتبينت فرونسكي على الفور، فخالج قلبها فجأة شعور غريب من السرور الممتزج بالخوف. ظل واقفاً، دون أن يخلع معطفه، وكان يخرج شيئاً من جيبه، وفي اللحظة التي بلغ فيها منتصف الدرج، رفع عينيه ولمحها، فاصطبغ وجهه بإمارات الارتباك والفزع. حنت رأسها قليلاً ومرت.

وبعد ذلك بقليل، سمع صوت ستيڤان اركادييڤتش الجمهوري وهو يرجو صديقه أن يدخل، وصوت فرونسكي الهادي، العذب البهيم بعض الشيء، وهو يرفض عرضه.

عندما عادت آنا بصورها، وكان فرونسكي قد رجع، وكان ستيڤان اركادييڤتش يروي أنه جاء ليستخبر عن العشاء الذي سيقام في اليوم التالي على شرف إحدى الشخصيات الشهيرة أثناء مرورها بالمدينة.

وأضاف ستيڤان اركادييڤتش:

ـ لقد أبى أن يدخل: ما أسخفه!

إحمرت كيتي. خيل إليها أنها وحدها قد حزرت لماذا جاء ولماذا لم يدخل، وفكرت في نفسها: «مر على بيتنا فلم يجدني، وتصور حينئذٍ أنني هنا، لكنه لم يدخل لأنه جاء بعد أوان الزيارة ولأن آنا كانت هنا».

تبادل الجميع نظرات صامته، ثم شرعوا ينظرون في مجموعة آنا. لم يكن هناك ما هو خارق للعادة ولا ما هو فريد في كون أحد الأصدقاء قد مر، في الساعة التاسعة والنصف، على صديق له، كي يسأله عن تفاصيل عشاء تُنوى إقامته، وفي كونه قد رفض الدخول، لكن الجميع وجدوا ذلك غريباً، وأثار ذلك حيرة آنا وامتعاضها، أكثر من غيرها.

[٢٢]

لم تكد الحفلة الراقصة تبدأ حتى دلفت كيتي وأمها إلى الدرج الكبير الذي ازدان بالأزهار، وغمره النور، ووقف على جانبيه الخدم بشعورهم المستعارة وخلعهم الحمراء. ومن القاعات وافى حفيف شبيه بالذي في خلية النحل، وبينما كانتا تلقيان نظرة أخيرة على تسريحةُ شعرهما وزينتهما في مرآة سطح الدرج التي حفت بها شجيرات في أصصها، تعالت نغمات «الفالس» الأولى التي وقعتها باتقان كمنجات الجوقة.

اصطدم بهما، على الدرج، شيخ قصير بثياب مدنية كان يلمسُ بعناية شديدة شعر صدغه الأبيض أمام مرآة أخرى، وقد فاح منه أريج عطر، ثم تنحى لهما وهو ينظر إلى كيتي التي لا يعرفها نظرة ملؤها الإعجاب. وانحنى أمامهما فتى أمرد، هو واحد من هؤلاء الفتيان الذين يظهرون في المجتمع الراقي والذين سماهم الأمير تشرباتزكي «الزغاليل»، وقد ارتدى صدرة مفتوحة فتحة عريضة، وربطة بيضاء كان يصلحها وهو يمشي، وتجاوزهما ثم عاد أدراجه ليدعو كيتي إلى الرقصة المربعة، ولما كانت رقصتها الأولى مخصصة لفرونسكي، فإنها لم تجد بداً من أن تعد هذا الشاب بالرقصة الثانية، واصطف قرب الباب ضابط كان يزرر قفّازيه، وتأمل كيتي بثوبها الوردي، وهو يداعب شاربيه.

ومع أن زينتها، وتسريحة شعرها، وجميع استعدادات السهرة قد كلفت كيتي كثيراً من الجهد والتفكير، إلاّ أنها دخلت الحفلة الراقصة، في ثوب من التول المعقد، المركب على فستان ضيق وردي، وبكثير من اليسر والبساطة حتى لكأن عقد الشريط، والتخريم، وجميع متممات الزينة لم تتطلب منها ومن وصيفاتها دقيقة من العناية، وكأنها ولدت في هذه التول، وفي تلك التخريمات، ومع هذه التسريحة العالية التي تعلوها وردة تحيط بها ورقتان.

وعندما أرادت الأميرة العجوز، قبل دخول القاعة، أن تصلح الشريط الذي يطوّق خصر كيتي، رفضت كيتي بلطف: لقد كانت تحس أن كل ما تلبسه يزينها بأناقة وإن لم تتصنع، وأنه لا حاجة بها إلى إصلاح شيء.

كانت كيتي في أحسن حالاتها، ففستانها لم يكن يضايقها في أي موضع من جسمها، وقبتها المخرمة ثبتت في مكانها، وظلت عقد الشريط سليمة، ولم يكن حذاؤها الوردي ذو الكعبين العاليين، المقوسين يضغط على قدمها الصغيرة، بل كان مريحاً، على قياس قدمها. وقد علقت برأسها اللطيف، ثلاث عصائب كثيفة من الشعر الأشقر المستعار، فبدت متينة كشعرها الأصلي، وأمكن بغير شد تزرير

الأزرار الثلاثة لقفازها الطويل الذي لف يدها لفاً دون أن تتثنى خطوطه وكان مخمل حليتها الأسود يحيط عنقها برشاقة. وكان هذا المخمل رائعاً: وعندما تأملته كيتي على عنقها في المرآة بدا لها كأنه يملك موهبة الكلام يمكن للمرء أن يجادل في كل ما سواه، أما هذا المخمل فكان أعجوبة. وعندما وصلت كيتي إلى الحفلة، ابتسمت له في المرآة مرة أخرى. وكان يخيل إليها أن كتفيها وذراعيها العارية جميعها إنما هي من الرخام البارد (وهو إحساس كانت تؤثره على غيره). كانت عيناها تلتمعان، وشفتاها النضرتان تبتسمان بالرغم منها: لقد كانت تشعر بسحرها.

ولم تكد تدخل قاعة الاستقبال وتنضم إلى جمهور السيدات المتزينات بالورود والتول والأشرطة والتخريمات، واللائي كن ينتظرن الراقصين (لم تكن كيتي تتريث قط بين هذه الجماعة)، حتى دُعيتْ إلى الفالس، دعاها أفضل الراقصين، وأعظمهم شأناً في مراتب الحفلات الراقصة، ومحرك الأمسيات الراقصة، وسيد حفلات البلاط: ايغوروشكا[1] كورسونسكي، وهو رجل متزوج، طويل، بهي الطلعة، لقد ترك قبل هنيهة الكونتيسة بونين التي رقص معها رقصة الفالس الأولى، ونقل بصره في رعاياه، أي في بضعة أزواج من الراقصين، فلمح كيتي وأسرع إليها وهو يسير هملجةً لينةً خاصةً بأساتذة رقص الباليه، وانحنى أمامها، ودون أن يسألها إن كانت ترغب في الرقص، قدم ذراعَه ليحيط بها قامتها النحيفة، والتفتت لترمي من تعهد إليه بمروحتها، فتناولتها منهاربةُ المنزل وهي تبتسم.

قال لها وهو يطوّق قامتها:

ــ أحْسنتِ إذ وصلتِ في الوقت المناسب، ما معنى هذا النوع من الوصول المتأخر؟

(١) ايغوروشكا: تصغير للتحبب، وهو تصغير «ايغور» (جورج).

حطّت ذراعها اليسرى، المطوية على كتف مراقصها، وانطلقت قدماها الصغيرتان في حذائهما الوردي، بخفة وإيقاع، على أرض القاعة الخشبي، الزلق.

قال لها وهو يشرع في خطواته الأولى، وهي أقل سرعة من الفالس:

ــ يرتاح المرءُ وهو يراقصك، رائع! أية خفة، وأية دقة!

كان يردد ما يقوله لجميع الراقصات تقريباً.

ابتسمت لهذا الإطراء، وظلت تفحص القاعة من فوق كتف مراقصها. لم تعد تلك المبتدئة التي تذهل الوجوهُ أمامها، وفي الحفلات الراقصة، لتنطق جميعها بإمارات واحدة من الانبهار، كما أنها لم تكن تلك الفتاة المتقززة التي غدت جميع هذه الوجوه مألوفة لديها حتى ضاقت صدراً بها. كانت بين هذه الحدّين: كانت مهتاجةً، لكنها كانت تظل مسيطرةً على نفسها بمقدار ما تحتفظ بقدرتها على الملاحظة. ورأت أن زهرة المجتمع قد تجمعت في الركن الأيسر من القاعة. كانت هناك ليديا الجميلة، زوجة كورسونسكي التي كشفت عن كتفيها بشكل فاضح، وهناك وقفت ربةُ المنزل، هناك كان «كريفين» الذي يتبع دائماً زهرة المجتمع، يعرض صلعته اللامعة. كان الشباب يَرْنون إلى هذا الركن دون أن يجرؤوا على الاقتراب منه. واكتشفت فيها ستيڤا، كما اكتشفت، بعد لحظة، شخص «آنا» البديع ووجهها، وهي ترتدي فستاناً من المخمل الأسود، وكان «هو» هنا أيضاً، ولم تكن كيتي قد رأته منذ المساء الذي رفضتْ فيه ليفين. اكتشفتْه عيناها الثاقبتان. على الفور. بل إنها لاحظت أنه كان ينظر إليها.

قال لها كورسونسكي وهو يلهث لهاثاً خفيفاً:

ــ أندور دورة بعد! ألم تتعبي؟

ــ لا، شكراً.

ــ إلى أين آخذك؟

ــ أظن أن السيدة كارينين هناك... فخذْني إليها.

ــ كما تشائين.

واقتادها كورسونسكي، وهو يرقص أبداً وإن بطّأ خطواته، إلى جماعة الركن الأيسر من القاعة، وكان يقول أثناء مروره: «عفواً سيداتي، عفواً، عفواً سيداتي». سار متلوياً في هذا البحر من التخريمات والتول والأشرطة، دون أن يمسّ أحداً، ثم أوقف مراقصته بغتة بحيث انكشفت قدماها الصغيرتان في جوربيهما الشفافين، وانتشرت جبتها كالمروحة ولامست ركبتي كريفين. حيّاً كورسونسكي، ونفخ صدره، وقدّم ذراعه للفتاة كي يأخذها إلى جانب آنا اركاديفنا، خلّصت كيتي تنورتها من كريفين، وهي متضرجة، وتطلّعت خلفها، وهي شاردة الذهن، باحثة عن آنا.

لم تكن آنا في ثوب ليلكي كما تمنت كيتي، كانت ترتدي فستاناً مقوراً من المخمل الأسود يكشف عن كتفين رائعين وصدر عجيب، وكأنها نُحتت من العاج القديم، وعن ذراعين مدورتين نحيفتي المفاصل. وكان فستانها مزخرفاً بتخريم من فينيسيا، وفي شعرها الأسود الذي خلا من زخرف الصنعة ثُبّت إكليل صغير من زهر البنفسج، كما ثُبت مثل هذا الإكليل على مخمل زنارها الأسود، بين التخريمات البيضاء، وكانت تسريحة شعرها بسيطة جداً، وليس لها من زينة سوى عدد من الخصل الصغيرة التي حرنت وتفلّتتْ على صدغيها وقذالها. وأحاط بعنقها القوي، البديع عقد من اللؤلؤ.

كانت كيتي ترى آنا كل يوم، وكانت مشغوفة بها، وقد تصورتها دائماً في ثوب ليلكي، وأما وقد رأتها الآن في ثوب أسود فإنها أحست أنها لم تقدر سحرَها حق قدره. رأتها بغتة بمنظار آخر. وأدركت أن آنا لا يمكنها أن تكون في ثوب ليلكي، وأن سحرها يكمن بالذات في أن تمحو زينتها، في أن تحمل الآخرين على نسيانها، لم تكن زينتها سوى الإطار الذي تبرز فيه بسيطةً، طبيعيةً، أنيقةً، وفي الوقت نفسه مرحةً، باشة.

كانت تقف منتصبةً، على عادتها، وعندما اقتربت كيتي من جماعتها كانت تحدّث ربَّ البيت، عاطفةً رأسها قليلاً نحوه. كانت تقول وهي تهز كتفيها:

ــ لا، لن أرميه بحجر، مع أنني لا أفهم...

ولم تلبث أن التفتت إلى كيتي وعلى فمها ابتسامةً رقيقة، متعطّفة. ثم لفّتْ زينتها بنظرة خاطفة أنثوية، وأومأت إليها برأسها إيماءة استحسان فهمتْها الفتاةُ. قالت لها:

ــ دخلتِ وأنت ترقصين.

قال كورسونسكي، وهو يحيي آنا اركادييفنا لم يكن قد رآها بعد:

ــ إنها إحدى مساعداتي اللواتي لا غنى لي عنهن. الأميرة تسهم في إضفاء الحسن على الحفلة الراقصة وبثّ الحياة فيها.

وأردف وهو ينحني:

ــ أترقصين هذا الفالس، آنا اركادييفنا؟

قالت:

ــ إني لا أرقص عندما أستطيع أن أعتذر عن الرقص.

فأجابها كورسونسكي:

ــ الاعتذار، اليوم، مستحيل.

في هذه اللحظة اقترب فرونسكي:

ــ قالت دون أن تعير تحية فرونسكي التفاتاً، واضعة بحرارة يدها على كتف كورسونسكي:

ــ لنرقص إن لم يكن من الرقص بدٌّ.

فكرت كيتي وقد رأت آنا تأبى عن قصد أن ترد على تحية فرونسكي: «لم تحقدْ عليه؟» وأقبل فرونسكي عليها فذكّرها وعدها له بالرقصة المربّعة الأولى، وعبّر عن أسفه لأنه لم يحظ برؤيتها في هذه الأيام الأخيرة. كانت كيتي تتطلع

بإعجاب إلى آنا وهي ترقص، وتُصغي إلى فرونسكي كانت تنتظر أن يدعوها إلى الرقص، فلم يفعلْ، نظرت إليه بدهشة فاحمر وأسرع إلى دعوتها، لكنه ما كاد يطوق قامتها النحيفة ويشرع في خطوته الأولى حتى توقّفت الموسيقا. نظرت كيتي إلى وجهه، وكان قريباً من وجهها، ولقد ظلت هذه النظرةُ الطافحة بالحب التي رَمَتْهُ بها، في هذه اللحظة، والتي لم يردّ عليها بمثلها، تمزّق قلبها مع شعور من الخجل المعذّب، إلى سنوات عديدة تلتْ.

هتف كورسونسكي من طرف القاعة الآخر.

ـ عفواً، عفواً! الفالس، الفالس!

وأمسك بأول راقصة لقيها، واستأنف رقصه.

[٢٣]

رقص فرونسكي بضع جولات من الفالس من كيتي. وبعد الفالس، رأت كيتي أمها، وأتيح لها أن تتبادل بضع كلمات مع الكونتيسة نوردستون، عندما جاءَ فرونسكي يدعوها للرقصة المربّعة الأولى. لم يقولا شيئاً خاصاً أثناء هذه الرقصة: لقد تحدثا حديثاً لا نظام فيه ولا رابط بين أجزائه، تارة عن آل كورسونسكي، الزوج والزوجة، الذين صورهما لها، على نحو طريف، وكأنهما طفلان ساحران في الأربعين، وتارة أخرى عن مسرح من مسارح المجتمع بُدىء بإنشائه؛ مرةٍ واحدة، لامس الحديثُ شغاف قلبها، وذلك عندما سألها إن كان ليفين ما يزال في موسكو، وأضاف أن ليفين قد أعجبه كثيراً. لكن كيتي لم تكن تعتمد على هذه الرقصة. كانت تنتظر رقصة المازوركا، وهي خائرة القوى. خُيّل إليها أن كل شيء سيتقرر أثناء المازوركا. ولم تبال لأنه أهمل دعوتها إلى المازوركا أثناء الرقصة المربعة. كانت واثقة من أنها سترقصها معه، كما كانت الحال في الحفلات السابقة؛ وقد رفضت خمسة راقصين، قائلة إنها قد وعدتْ غيرهم.

كانت الحفلةُ كلها، بالنسبة إلى كيتي، حتى آخر الرقصة المربّعة حلماً ساحراً مليئاً بالزهور والأنغام والحركات الفرحة. لم تكن تلزم كرسيها إلاَّ إذا شعرت أن التعب أعياها، وأنها بحاجة إلى استراحة قصيرة. لكنها عندما كانت ترقص الرقصة المربعة الأخيرة مع أحد الشباب المضجرين، وهو شاب لم يمكنها رفضُه، وجدت نفسها في مواجهة آنا وفرونسكي. إنها لم تقاربْ آنا منذ دخولها حلبة الرقص، فرأتها هذه المرة وقد تبدلت تبدلاً كاملاً. تبيّنت في وجهها إمارات الاندفاع التي تعرفها جيداً: إمارات الظفر. رأت آنا نشوى بالإعجاب الذي ابتعثتْه. كانت كيتي تعرف هذا الشعور، تعرف دلائله، وقد رأته على وجه آنا: رأت ضياءَ عينيها البراق، الخفّاق، رأت ابتسامتها السعيدة، المظفّرة، وشفتيها الراعشتين بغير إرادتها، ورشاقة حركاتها وصحتَها وخفتَها.

تساءلت: «من الذي أثملها؟ الجميع أو واحد بينهم».

لقد تركتُ مراقصها المسكين يحاول أن يصل ما انقطع من الحديث، وانصاعت لدعوات كورسونسكي الفَرِحة، الآمرة، التي تطلب إلى الراقصين أن يؤلفوا «الحلقة الكبرى» حيناً و «السلسلة» حيناً آخر، وهي، في أثناء ذلك كله، تراقب، وقد أخذ قلبُها ينقبض شيئاً فشيئاً. «لا، ليس اعجاب الجمهور هو الذي أثملها، لكنه إعجابُ رجل واحد! مَنْ هو! أمن الممكن أن يكون «هو نفسه»!

كان كلما وجه الكلام إلى آنا برقتْ عيناها، وافترت شفتاها الممتلئتان عن ابتسامة مشرقة. وكانت كأنما تحمل نفسها حملاً على إخفاء فرحها، لكن هذا الفرح يشعُّ بالرغم منها على وجهها. «وهو»؟ نظرت إليه كيتي فروَّعها ما رأتْ. إن ما رأته، على وجه آنا، انعكس على وجه فرونسكي بوضوح، كما تنعكس الأشياء في المرآة. أين تلك الهيبةُ الهادئةُ، المتماسكة، أين ذلك التعبير المطمئن، اللامبالي؟ كان كلما خاطبها حنى رأسه قليلاً، كأنه يريد السجود، وعبّرت نظرته عن التذلل والهلع وحدهما. وكأنما كانت هذه النظرة تقول: «لا أريد أن أجرحكِ،

لكني أود لو أنقذ نفسي، ولست أدري كيف». واكتسى وجهه تعبيراً لم تره له قط من قبل.

كانا يتحدثان عن معارفهما المشتركة، عن أتفه الموضوعات، لكن كيتي شعرت أن كل كلمة من كلماتها كانت تقرر مصيرهما ومصيرها. والغريب أنه وإن لم يتحدثا، في الواقع، إلاّ عن فرنسية ايفان أيفانوفتش المضحكة، وزواج الآنسة ايليتزكي المتواضع، إلاّ أن هذه الكلمات كانت عظيمة الأهمية عندهما، كانا يحسان بذلك كما أحسنت به كيتي. غابت الحفلة وغاب الحاضرون عن عينْي كيتي. ولم يشدّ من عزيمتها إلاّ تربيتُها المدرسيةُ الصارمة التي أجبرتها أن تفعل ما يُطلب منها، أي أن ترقص، وتجيب عن الأسئلة، وتتحدث، بل وتبتسم. لكن، قبل المازوركا بالذات، وبينما كانت الكراسي تُصفّ، وكان الراقصون يغادرون القاعات الصغيرة ليجتمعوا في القاعة الكبيرة، أصيبت كيتي بالهلع ودبّ فيها اليأس. لقد رفضت خمسةَ راقصين ولم يدعُها أحد إلى المازوركا! ولم يبق لها حظ في أن تُدعى، وذلك لأن لها حظوةً كبيرة في المجتمع ولن يمرّ ببال أحد أنها ما تزال بدون مراقص. كان ينبغي أن تقول لأمها أنها متوعكة، لكنها لم تقوَ على ذلك. وأحست بنفسها متلاشيةً!

هربت إلى القاعة الصغيرة، وتهالكت على أريكة. وكانت تنورتُها الهفهافة تلفّ كالسحابة قامتها الرهيفة؛ وارتدّتْ ذراعُها العارية، الهزيلة، النحيفة، فاقدةً قوتها، إلى ثنايا ثوبها الوردي؛ أما يدُها الأخرى فقد أمسكت بمروحةٍ كانت تحركها بحركة خاطفة وعصبية أمام وجهها المحترق. ومع أنّها كانت تشبه فراشة حطت على العشب واستعدت للطيران ولنشر أجنحتها المقتزحة، إلاّ أن أسى رهيباً كان يعتصر قلبها. «لعلّي مخطئة؟ لعلّ ذلك غير صحيح؟». وأخذت تسترجعُ في ذاكرتها كلَّ ما رأته.

قالت الكونتيسة نوردستون التي اقتْربت دون ضجيج على السجادة:

ــ كيتي، ماذا جرى؟ لستُ أفهم شيئاً.

ارتعشتْ شفة كيتي السفلى؛ فنهضت على عجل.

ــ ألن ترقصي المازوركا؟

قالت كيتي بصوت أرعشتْه الدموعُ:

ــ لا، لا.

قالت الكونتيسة نوردستون وهي تعلم أن كيتي تدرك مَنْ المقصود:

ــ لقد دعاها أمامي، فقالت له: «ظننت أنك ستراقص الأميرة تشرباتزكي؟».

أجابت كيتي:

ــ آه! لا فرقَ عندي!

لم يكن أحدٌ غيرها يفهم موقفها، لم يكن أحد يعلم أنها رفضت أمس رجلاً ربما كانت تحبّه، لأنها وضعت ثقتها في رجل آخر.

بحثت الكونتيسة نوردستون عن كورسونسكي الذي كانت ترقص معه المازوركا، وأمرته أن يدعو كيتي.

كانت كيتي بين أوائل الراقصين؛ ولحسن الحظ، لم تضطر إلى الكلام، لأن كورسونسكي كان مشغولاً بالركض في هذه الجهة أو تلك لأداء مهمته. كان فرونسكي وآنا في مواجهتها. رأتهما من بعيد بعينيها الثاقبتين، كما رأتهما عن كثب عندما اختلطا بالراقصين.

وكانت كلما أمعنت النظر فيهما ازدادت يقيناً بأن شقاءها غدا ناجزاً. كانت ترى أنهما يشعران بوحدتهما في هذه القاعة الغاصة بالناس. وعلى وجه فرونسكي الهادىء أبداً، الذي لا يناله التأثر أبداً، وقعتْ كيتي، مرة أخرى، على تعبير الهلع والتذلل الذي أدهشها من قبل، كالذي نجده لدى كلب ذكي أحسّ بذنبه.

وتبتسم آنا. . . فيرد على ابتسامتها. وتخلد آنا إلى التفكير. . . فيعود إليه جدُّه ووقاره. إن قوة خارقة كانت تجتذب نظر كيتي إلى وجه آنا. كانت آنا تفيض إغراءً بثوبها الأسود البسيط، وذراعيها البديعتين المزدانتين بالأساور، وعنقها القوية التي يحيط بها عقدٌ من اللؤلؤ، وضفائرها المتناثرة، والحركات الخفيفة والرشيقة لقدميها الصغيرتين ويديها النحيفتين، ووجهها الجميل الطافح بالحياة؛ كان كل شيء فيها جذاباً، لكن هذا السحر كان ينطوي على شيء رهيب، طاغ.

كانت كيتي معجبةً بها أكثر من ذي قبل، فازداد ألمُها حدةً من جرّاء ذلك. كانت تشعر أنها مسحوقة، وكان وجهها ينمّ على ذلك. وعندما لمحها فرونسكي، حين قابلها عرضاً أثناء إحدى حركات الرقص، لم يعرفها على الفور، لفرط ما تغيرّتْ.

قال فرونسكي، لكي يقول شيئاً:

ــ ما أجمل هذه الحفلة!

أجابت كيتي:

ــ نعم.

في وسط المازوركا، عندما كانت آنا تكرر حركةً ابتكرها كورسونسكي، انطلقت آنا إلى وسط الحلقة واختارت راقصيْن وسيدتين إحداهما كيتي. تأملتها كيتي بفزع وهي تدنو منها. نظرت إليها آنا، وهي مغمضة نصف إغماضة، وابتسمت لها وهي تشد على يدها. ولكنها عندما لاحظت أن كيتي لا تردد على ابتسامتها إلاَّ بإمارات اليأس والدهشة، أشاحت بوجهها عنها وأخذت تحدَّث السيدة الأخرى بمرح.

قالت كيتي في نفسها: «إن فيها إغراءً غريباً وشيطانياً».

لم تشأ آنا أن تلبث للعشاء مع أن رب المنزل رجاها بإلحاح.

تدخّل كورسونسكي وهو يدسّ ذراع آنا العارية تحت ذراعه:

ـ اقبلي منه، يا آنا أركادييفنا. وسوف ترين تجديدي لرقصة «الكوتيون». تحفة من التحف!

ومضى، محاولاً أن يجرّها. فابتسم رب المنزل مستحسناً.

قالت آنا وهي تبتسم:

ـ لا، لا أستطيع البقاء.

لكن، بالرغم من ابتسامتها، أدرك كورسونسكي ورب المنزل، من لهجتها الحازمة، أنها لن تبقى.

وأردفتْ وهي تلتفتُ لترى فرونسكي الذي وقف بجانبها:

ـ لا، لقد رقصتُ في موسكو، في حفلتكم هذه، أكثر مما رقصتُ طوال الشتاء في بطرسبرج. ينبغي أن أستريح قبل السفر.

فسألها فرونسكي:

ـ وهل أنت مزمعةٌ على السفر غداً؟

أجابت آنا:

ـ نعم، أقدّر ذلك.

قالت ذلك كالمندهشة من جرأة سؤاله؛ لكنّ ذلك البريق الراعش في نظرتها وابتسامتها، وهي تقول هذه الكلمات، أشعله إشعالاً.

لم تمكث آنا اركادييفنا للعشاء وانصرفت.

[٢٤]

حدّث ليفين نفسه وهو يخرج من منزل آل تشرباتزكي ليمضي مشياً إلى منزل أخيه: «نعم، إن فيّ شيئاً منفرّاً. إنني لا أرضي الناس. يقولون: إن هذا من الكبرياء. ومع ذلك، فلستُ متكبراً. ولو كنت متكبراً لما تورطتُ في هذا الموقف». وتمثّل فرونسكي، سعيداً، طيّباً ذكياً، هادئاً، لم يُلفَ قط في مثل هذا

الوضع المروّع الذي يُلفي نفسه فيه. «نعم، كان ينبغي لها أن تختاره، كان لا بد من ذلك، وليس لي أن أشكوا شيئاً أو أحداً. أنا نفسي المخطىء. وبأي حق افترضتُ أنها ترغب في الجمع بين حياتها وحياتي؟ مَنْ أنا؟ وما أنا؟ رجل تافه، ليس ضرورياً لأحد». وخطر أخوه نيقولا بباله، وتريّث بفرح عند هذه الذكرى. «أليس على حق حين قال: إن كل ما على الأرض شيّءٌ وخسيس؟ أخشى أننا لم ننصفْ نيقولا في حكمنا عليه. ومن البديهي أنه، ومن وجهة نظر «بروكوب» الذي رآه سكران، في معطف ممزّق، رجلٌ جدير بالاحتقار؛ أما أنا فإني أراه على نحو آخر. إني أعرف نفسه، وأعلم أننا نتشابه. وبدلاً من أن أذهب إليه، ذهبت إلى الغداء، وجئت إلى هذا المكان.

اقترب ليفين من أحد مصابيح الطريق ليقرأ عنوان أخيه الذي كان في محفظته، ونادى عربة. وأثناء الطريق الذي كان طويلاً، استعرض في ذاكرته، بجلاء، جميع الأحداث في حياة أخيه نيقولا التي كان على علم بها. تذكّر أنه عاش، أثناء الجامعة وفي السنة التي تلتها، كما يعيش الراهب بالرغم من سخرية رفاقه، متقيداً تقيداً دقيقاً بجميع تعاليم الدين: الفروض والصيام، معرضاً عن الملذات ولا سيّما النساء؛ ثم هجر ذلك كله بغتة، وخالط أنذل الناس، واندفع في مجونه الفاسق. وتذكر بعد ذلك قصة ذلك الصبي الصغير الذي التقطه في الريف ليربيه والذي ضربه ضرباً مبرّحاً، في سورة غضبه، حتى رُفعت عليه الدعوى بسبب استخدام العنف. ثم قصة ذلك النصّاب الذي أعطاه كمبيالة ليسدد ديناً من ديون القمار، ثم قدّم بحقه شكوى زعم فيها أن ذلك الرجل قد خدعه. (وهذا المبلغ هو الذي دفعه قبل حين سيرج إيفانوفتش) وقد قضى ليلة في النظارة بسبب صخبه الليلي. وأقام دعوى شائنة على أخيه سيرج إيفانوفتش فاتّهمه باختلاس حصته من الإرث الذي تركته أُمه. وأخيراً توظّف في إحدى مقاطعات الغرب فأحيل إلى المحاكمة بسبب تعدّيه على رئيسه... كان ذلك كله كريهاً، لكنه لم يكن كريهاً

بالنسبة إلى ليفين كما كان بالنسبة إلى الذين لا يعرفون نيقولا، لا يعرفون أعماق نفسه، ويجهلون قصة حياته برمتها.

تذكر ليفين أن نيقولا، عندما كان في فترة تقاه، وصيامه، وعندما كان يتردّد على الكنائس والأديرة، ويبحث في الدين عن كابح لجماح أهوائه، لم يجد من يسنده، بل إن الجميع وهو نفسه سخروا منه، كانوا يَستثيرونه ويسمّونه نوح» و «الراهب»؛ وعندما هجر تقاه، لم يهبّ أحد إلى معونته، بل أن الجميع أعرضوا عنه برعب واشمئزاز.

كان ليفين يشعر أن أخاه نيقولا، في أعماق نفسه، بالرغم من حقارة حياته، لم يكن أكبر إثماً من الذين كانوا يحتقرونه. وإذا كان قد وُلد بهذا الطبع الشرس وذلك الذكاء المحدود، فليس ذلك ذنبه.

لقد تمنى دائماً أن يكون خيّراً. «سأقول له كل ما في قلبـي، سأجبرهُ على أن يصارحني كلياً، وسأريه أنني أحبه، ومن ثم، أنني أفهمه».

هذا ما عزم عليه ليفين وهو ينزل، في الحادية عشرة مساء، أمام الفندق المعيّن في العنوان.

قال له البواب:

ــ أنه فوق، رقم ١٢، ١٣.

ــ وهل هو في غرفته؟

ــ ربما.

كان باب الرقم «١٢» مشقوقاً، وكان يخرج منه دخان كثيف من تبغ رديء؛ وانبعث منه صوتٌ مجهول، لكن ليفين أدرك على الفور أن أخاه هنا؛ لقد سمعه يَسْعل.

وعندما دخل، كان الصوت المجهول يقول:

ــ كل شيء رهنٌ بالاهتمام الجدّي الذي سيُدار به المشروع.

ألقى قسطنطين ليفين نظرة إلى داخل الغرفة ورأى أن الذي كان يتكلم شابٌ بصدرة فلاح، وعلى رأسه قبْعةٌ ضخمة؛ وجلست على الأريكة امرأة تلبس ثوباً من الصوف بلا قبة ولا كمين، وقد ظهرت في وجهها آثار الجدري. ولم يكن أخوه مرئياً. فانقبض قلب ليفين عندما فكّر في هذا الوسط الغريب الذي يعيش فيه أخوه. لم يسمعْه أحدٌ وهو يدخل، وكان يصيخ السمع، وهو ينزع حذاءه المطاطي إلى حديث الرجل ذي الصدرة.

كان يتحدث عن مشروع ما.

قال صوتُ أخيه بعد أن انتهى من سعاله:

ــ سحقاً لهذه الطبقات ذات الامتياز! ماشا، هاتي لنا شيئاً نتعشاه، وأعطنا خمراً إن بقي خمر؛ وإلاَّ فاذهبي وَأْتي به.

نهضت المرأة ودلفت إلى ما وراء الحاجز فلمحت قسطنطين ليفين.

فقالت:

ــ ها هنا رجل، يا نيقولا دميتريتش.

قال صوت نيقولا ليفين بغيظ:

ــ مَنْ تريد؟

قال قسطنطين ليفين وهو يُري نفسه:

ــ هذا أنا.

فكرر صوت نيقولا وقد ازداد غيظاً:

ــ من «أنا»؟

وسمعه ليفين ينهض بشدة متشبثاً بشيء، ثم رأى أمامه، في فرجة الباب، شخص أخيه المديد، المعهود: ناحلاً، مقوساً، ذا عينين كبيرتين، قلقتين، كان مثيراً بمظهره الغريب المعتلّ.

لـقـد ازداد نحـوُلُه منذ أن رآه قسطنطين ليفين، آخر مرة، منذ ثلاث سنوات. كان يرتدي سترة قصيرة. وبدت يداه وعظامه أعرض. وخفّ شعره. أما شارباه فمازالا يتدليان على شفتيه؛ وما زالت عيناه تتفرسان في القادم بغرابة وسذاجة.

قال بغته حين عرف أخاه، وقد أخذت عيناه تلمعان من الفرح:

ــ آه! كوستيا!

لكنه رمى الشاب الآخر، في اللحظة نفسها، بنظرة خاطفة، وأصيب بحركة متقطّعة في رأسه وعنقه حركة كان ليفين يعرفها جيداً، وكأنما كانت ربطة عنقه تضايقه؛ ثم ظهر على وجهه الناحل تعبير مختلف كل الاختلاف: ظهرت إماراتُ الألم والمشاكسة والشر.

ــ لقد كتبتُ إليك وإلى سيرج إيفانتش انني لا أعرفكما ولا أريد أن أعرفكما. ماذا تبغي وإلامَ تحتاج؟

كان مختلفاً عما تصوّره ليفين. لقد نسي ليفين، وهو يفكر فيه، أصعب جانب في خلقه، وهو ما يجعل العلاقة به عسيرةً؛ تذكّر ذلك كله الآن وهو يرى وجهه، وحركة رأسه العصبية، على وجه الخصوص.

أجاب ليفين بوجل:

ــ لست محتاجا إلى شيء. جئت فقط لأراك.

وكأنما هدّأه وجلُ أخيه، فزم شفتيه وقال:

ــ آه! طيّب. ادخلْ، واجلسْ. أترغبُ في العشاء. ماشا، هاتي ثلاث وجبات. لا، انتظري.

ثم قال وهو يلتفت نحو أخيه ويشير إلى الرجل ذي الصدرة؛

ــ أتعرف مَنْ هذا؟ إنه السيد كريتزكي، وهو صديق من كييف، ورجل مرموق جداً. والشرطة تطارده، بطبيعة الحال، لأنه ليس نذلاً.

ونظر إلى جميع الحاضرين، على عادته، وحين رأى المرأة واقفة عند العتبة، تهمُّ بالخروج، صاح بها: «قلتُ لك أن تنتظري». وأخذ يروي لأخيه، وهو ينقّل بصره بينه وبين كريتزكي، قصة كريتزكي برمتها، بكثير من عدم الثقة بالنفس، ومن صعوبة في التعبير، وهي صعوبة كان قسطنطين يعرفها جيداً: لقد طُرد كريتزكي من الجامعة لأنه أسّس جمعيةً لمساعدة الطلاب والفقراء، ونظم مدارس الأحد، ثم إنه كان معلماً في مدرسة ابتدائية فطُرد إيضاً، وهو الآن مُلاحَق لسبب آخر.

قال قسطنطين ليفين لكريتزكي ليقطع صمتاً ثقيلاً:

ـ أنت من جامعة كيف؟

أجاب كريتزكي بلهجة خشنة وهو يقطّب بين حاجبيه:

ـ نعم، كنتُ فيها.

قاطعة نيقولا ليفين وهو يشير إلى المرأة:

ـ وهذه المرأة رفيقتي، ماري نيقولاييفنا. وقد خطفتها من أحد البيوت (وارتجف عنقه وهو يقول ذلك). لكني أحبها وأحترمها.

وأضاق وهو يرفع صوته ويتجهّم:

ـ وأنا أرجو جميع الذين لهم صلة بي أن يحبوها ويحترموها. وأنا اعتبرها كامرأتي تماماً. أنت ترى إذن مع مَنْ أتعامل!... وإذا كنتَ تعتقد أن في هذا عاراً عليك، فهذا هو الباب!

ورمى مَنْ حوله بنظرة مُستطلعة.

ـ ولمَ العار؟ لست أفهم...

إذنْ، هاتي العشاء، يا ماشا: ثلاث وجبات، ومع الفودكا والنبيذ... لا، انتظري... لا، لا أهمية لذلك... اذهبي.

[٢٥]

استأنف نيقولا كلامه وهو يقطّب بين حاجبيه، ويغضّن وجهه بجهد، وكأنما كان من الصعب عليه أن يصمّم على الفعل أو القول:

ــ أنت ترى. . . (وأشار إلى قضبان من الحديد معلقة بحبال في زاوية الغرفة). أترى إلى هذا؟ إنه بداية عمل جديد شرعنا به. إنه تعاونيّة للإنتاج. . .

لم يكن قسطنطين يصغي إليه كثيراً، وإنما كان يتأمل هذا الوجه المعتل، وجه المسلول، وكان يحس بشفقةٍ متعاظمة تمنعُه من الإصغاء إلى ما كان يقوله أخوه عن التعاونيّة. وكان يرى أن هذه الجمعية هي الملاذ الأخير الذي يصرفه عن احتقار نفسه.

وتابع نيقولا ليفين كلامه:

ــ أنت تعلم أن رأس المال يَسْحق العامل. فالعمال والفلاحون، عندنا، يحملون جميعاً أعباء العمل، وهم في حال لا تسمح لهم، مهما بذلوا من جهد، أن يخرجوا من وضعهم كحيوانات معدة لحمل الأثقال. إن جميع الأرباح التي يستطيعون بها أن يحسِّنوا شروط حياتهم، وأن يُؤمِّنوا لأنفسهم شيئاً من الفراغ، ومن ثمَّ أن يتعلموا، جميع هذه الأرباح ينتزعها منهم الرأسماليون. والمجتمع مبني بحيث أن العمال والفلاحين كلما عملوا ازداد التجار والملاكون غنى، بينما يظلون هم كالحيوانات.

ــ وختم حديثه وهو ينظر إلى أخيه نظرةً مستطلعة:

ــ هذا الوضع ينبغي أن يتغيَّر.

قال قسطنطين وهو ينظر إلى الحمرة التي علت وجنتي أخيه:

ــ نعم، بالتأكيد.

ــ ولذلك أخذنا ننظّم جمعية للحدادين[١] يكون فيها الإنتاج والربح

(١) جمعية للحدادين. حاول الاشتراكيون الروس الأوائل في ١٨٧٠ أن يؤسِّسوا جمعيات عمالية. =

والأدوات الرئيسية ملكاً مشتركاً.

فسأله قسطنطين ليفين:

ـ وأين ستقوم هذه الجمعية؟

ـ في قرية فوزدريما، من مقاطعة قازان.

ـ ولِمَ تقيمونها في قرية؟ يبدو لي أن العمل متوفر في الريف. لِمَ تقيمون جمعية للحدادين في قرية؟

قال نيقولا ليفين وقد غاظته هذه الملاحظة:

ـ لأن الفلاحين ما زالوا عبيداً كما كانوا في الماضي، ولذلك يسوءُك أنت كما يسوء سيرج ايفانيتش أن نرغب في انتشالهم من العبودية

أرسل قسطنطين ليفين زفرة، وهو يجول بنظراته في الغرفة الوسخة والمظلمة. وكأنما زادت هذه الزفرة من غيظ نيقولا:

ـ أعرفُ أحكامكما الأرستقراطية المسبقة، أنت وسيرج ايفانتش. وأعلم أنه يستخدم جميع قوى عقله لتسويغ الشر القائم.

قال ليفين وهو يبتسم:

ـ لكن، ما الداعي إلى الكلام على سيرج ايفانتش؟

فصرخ نيقولا ليفين وهو يسمع اسم أخيه:

ـ الكلام على سيرج ايفانتش؟ سأقول لك لماذا... لكنْ ما جدوى ذلك؟... قل لي فقط ما الداعي إلى مجيئك؟ إنك تحتقر مشروعنا، هذا أفضل، اغرب عن وجهي!

وصرخ وهو ينهض:

ـ انصرفْ! انصرف! انصرف!

قال قسطنطين ليفين بهدوء

ـ لستُ أحتقر شيئاً. بل إني لا أناقش في شيء.

في هذه اللحظة رجعت ماري نيقولاييفنا. فرماها نيقولا ليفين بنظرة غاضبة. فدنت بشدة منه وأسرَّتْ إليه بشيء.

فقال نيقولا، وقد هدأ قليلاً، وثَقُلَ نَفَسه:

ـ إني مريض؛ أصبحتُ سريع الغضب، وقد جئتَ تحدثني عن سيرج وعن مقالته! إنها سخافاتٌ وأكاذيب وأوهام! وكيف يستطيع أن يتحدّث عن العدالة امرؤ لا يَفْقه من العدالة شيئاً!؟ هل قرأت مقالته؟

قال ذلك وهو يلتفت إلى كريتزكي، ويعود إلى الجلوس قرب الطاولة ليزيح عنها أنصاف السجائر التي كانت عليها.

قال كريتزكي متجهماً، وكأنما لم يشأ أن يشارك في الحديث:

ـ لا.

قال نيقولا ممتعضاً:

ـ لماذا؟

ـ لأني أقدِّر أنه لا جدوى من إضاعة الوقت في ذلك.

ـ عفواً، ولكن كيف تعلم أنك تضيِّع وقتك؟ هذه المقالة لا يفهمها كثيرٌ من الناس، إنها تتجاوز إدراكهم. أما أنا، فأمري مختلف؛ إني أنفذ إلى لبّ فكرته، وأعرفُ مَواطن ضعفها.

لزم الجميع الصمت. ثم نهض كريتزكي ببطء وتناول قبعته.

ـ ألا تريد أن تتعشّى؟ ليلة سعيدة، إذن. تعال غداً مع الحداد.

ما إن خرج كريتزكي حتى غمز نيقولا بعينه وهو يبتسم، وقال:

ـ وهذا أيضاً لا يُرجى منه خير. أرى ذلك...

لكن كريتزكي ناداه، في هذه اللحظة، من وراء الباب. فقال نيقولا ليفين الذي قام إليه في الممر:

ـ وماذا يلزمك أيضاً؟

عندمـا بقي ليفين وحـده مـع مـاري نيقولايفنا شرع في محادثتها، وقال لها:

ــ أأنت تعيشين مع أخي منذ زمن بعيد.

قالت:

ــ من نحو سنتين. إن صحته سيئة، وهو يشرب كثيراً.

ــ كيف، هل يشرب؟

ــ إنه يشرب الفودكا، وهذا يؤذيه.

وسألها ليفين بصوت منخفض:

ــ أيشرب كثيراً؟

قالت وهي تلقي نظرةً وجلةً على الباب الذي ظهر فيه نيقولا ليفين: نعم.

قال وهو يقطب بين حاجبيه وينقّل بصره بينهما:

ــ عمَّ كنتما تتحدثان؟

أجاب قسطنطين مرتبكاً:

ــ لا شيء.

قال وقد ارتجف عنقه:

ــ لا تريدان أن تخبراني بذلك؛ كما تشاءان. لكن لا شأن لك في الحديث معها. هذه فتاةٌ وأنت رجل.

وأردف وهو يرفع صوته:

ــ أرى أنك فهمتَ كل شيء، وكوَّنت لنفسك حكماً على كل شيء، وأنك تنظر إلى أخطائي بعطف.

ــ همستْ ماري نيقولاييفنا، من جديد، وهي تدنو منه:

ــ نيقولا دميتريتش، نيقولا دميتريتش.

قال:

ـ كفى، كفى... حسناً! والعشاء؟

ثم قال بعصبية وقد رأى خادماً يحمل طبقاً:

ـ آه! ها هوذا! هنا، ضع ذلك هنا.

وما لبث أن تناول زجاجة الفودكا وصبّ منها قدحاً صغيراً شربه بنهم. وسأل أخاه وقد غدا أشد مرحاً:

ـ أتريد كأساً؟ إذن، كفى كلاماً على سيرج ايفانتش. أنا، مع ذلك، سعيد برؤيتك. مهما يُقَلْ فلسنا غريبين، أحدنا عن الآخر.

وأضاف وهو يلوك بشراهة لقمة من الخبز ويصب لنفسه كأساً صغيرة أخرى:

ـ خذْ، هيا اشربْ واروِ لي ما تفعله. ما الحياة التي تحياها؟

أجاب قسطنطين، وهو ينظرُ برعب إلى نهم أخيه في شربه وأكله، باذلاً وسعه في أن يخفي شعوره:

ـ إنني أعيش وحدي في الريف، وأُعْنى بالأملاك، كما كنت أفعل قديماً.

ـ ولِمَ لا تتزوج؟

فردَّ قسطنطين وهو يحمرّ:

ـ لم تُتَحْ لي الفرصةُ:

ـ لماذا؟ أنا... انتهى أمرى. أفسدتُ حياتي. قلتُ وأكرر أنني لو نلتُ حصتي من الإرث، عندما كنتُ محتاجاً إليها، لكانت حياتي مختلفة كل الاختلاف.

أسرع قسطنطين فغيَّر دفةَ الحديث، قال:

ـ أتعلم أن فانيوشكا موظف عندي، في بوكروفسكوي[1].

---

(١) بوكروفسكوي: اسم ملكية ليفين، وقد استعار هذا الاسم من ملكية لأخت الكاتب. على كل حال، إن ملكية ليفين تشبه ملكية: «اياسنايا بوليانا». =

ارتجف عنق نيقولا وبدا كالحالم.

ـ نعم، حدِّثْني عما جرى في بوكروفسكوي. أما زال البيت قائماً. وأشجار البتولة؟ وقاعة دراستنا؟ والبستاني «فيليب» أما زال حيّاً؟ ما أكثر ما أذكر العريشَ والأريكة!... اصغ، لا تغيِّرْ شيئاً في البيت، لكن تزوجْ بأسرع ما يمكن، وأعدْ تنظيم الحياة فيه، كما كانت من قبل. حينئذ سآتي إلى بيتك، إن كانت امرأتُك كريمة الخلق.

قال ليفين:

ـ لكنْ، تعال منذ الآن. وما أهنأ الحياة التي سنحياها!

ـ كنتُ سآتي حتماً، لو كنت واثقاً من أنني لن ألقى هناك سيرج ايفانتش.

ـ لن تراه أبداً. أنا مستقلٌّ تماماً.

قال وهو ينظر بوجل في عيني أخيه:

ـ نعم، لكن مهما تقلْ فينبغي أن تختار بينه وبيني.

ـ هزّ هذا الوجلُ ليفين:

ـ إذا كنتَ تريد مني اعترافاً بهذا الصدد فأنا أعترف لك بأنني سأقف على الحياد في خصامك مع سيرج ايفانتش. أنتما مخطئان كلاكما. أنت مخطىءٌ من الناحية الخارجية، وهو مخطىء من الناحية الداخلية.

فهتف نيقولا بلهجة الفرح:

ـ ها! ها! فهمتَ ذلك، فهمتَ ذلك.

ـ وإذا كنتَ تريد أن تعلم الحقيقة فأنا أحرصُ على صداقتك، لأن...

ـ لماذا؟ لماذا؟

لم يستطع قسطنطين أن يقول أنه حريص على صداقته لأن نيقولا تعسٌ وهو بحاجة إلى المحبة. لكن نيقولا فهم أن هذا هو بالضبط ما قصده، فقطب بين حاجبيه واستأنف شربه.

قالت ماري نيقولايفنا وهي تمد يدها المنتفخة إلى الزجاجة:

ـ كفاك شرباً، يا نيقولا دميتريتش.

فصرخ:

ـ دعي عنكِ ذلك! ولا تضايقيني، وإلا ضربْتكِ. ابتسمت ماري نيقولايفنا ابتسامة بريئة أذهبت غيظه، ثم تناولت الزجاجة.

قال نيقولا:

ـ لعلك تظن أنها لا تفهم شيئاً؟ إنها تفهم ذلك كله خيراً منا جميعاً. ألا ترى أن فيها شيئاً من الطيبة واللطف؟

سألها قسطنطين، ليقول شيئاً:

ـ ألم تأتي إلى موسكو قط؟

فصاح نيقولا بغتة:

ـ لا تخاطبْها بصيغة الجمع. هذا يُخيفها. لم يخاطبها أحدٌ بهذه الصيغة ما عدا حاكم الصلح عندما حكم عليها لأنها أرادت الخروج من منزل الدعارة. يا إلهي، ما أكثر السخافات، في هذا العالم؟ وما أغربَ هذه المؤسسات الجديدة، وقضاةَ الصلح، وتلك المحاكم المحلية!

وأخذ يروي نزاعاته مع هذه المؤسسات الجديدة.

كان قسطنطين ليفين يُصغي إليه، وقد بدا له هذا النقد لجميع المؤسسات الاجتماعية، وهو نقد كثيراً ما كان يمارسه هو نفسه، نابياً في فم أخيه.

قال وهو يمزح:

ـ سنفهم ذلك، في العالم الآخر.

فأجاب وهو يُثْبت عينيه الخائفتين في وجه أخيه:

ـ في العالم الآخر؟ اوه! إني لا أحب ذلك العالم! ومع ذلك، فمن المفرح

أن نخرج من هذا العار، ومن تلك الفوضى، لكنني أخاف الموت، أخافه، على نحو فظيع.

وارتجف، ثم أضاف:

ـ اشربْ شيئاً. أتشتهي الشمبانيا؟ أو فلنخرجْ، إذا شئت؟ لنذهبْ إلى حيث الغجريات! أتعلم أنني صرت أحب الغجريات والأغنيات الروسية.

أخذ لسانه يتعثّر، وكان يقفز من موضوع إلى آخر. وأقنعه قسطنطين بمساعدة ماشا، ألا يغادر المنزل؛ وأضجعاه وقد أخذ منه السكر.

وَعَدتْ «ماشا» ليفين أن تكتب إليه إذا دعتْ الحاجةُ، وأن تحاول الإتيان به إلى منزل أخيه ليعيش هناك.

[٢٦]

في صباح اليوم التالي، غادر ليفين موسكو ووصل إلى بيته في المساء، وأثناء السفر، تحدث مع جيرانه عن السياسة، عن الخطوط الحديدية الجديدة، وقد أرهقه، كما كانت الحال في موسكو، تشوشُ أفكاره، واستياؤه من نفسه، وخجله؛ لكنه عندما هبط إلى المحطة وعرف حوذيه الأعور «ايناس»، بقبة قفطانه المرفوعة، وعندما رأى، على الضوء الضعيف المنبعث من نوافذ المحطة، زلاجته المغطاة بالسجاد، وخيله المرفوعة الذيول، بعدّتها من الحلق والأهداب، وعندما روى له الحوذي ايناس، وهو يُجلسه، جميعَ الأخبار وهي أن المقاول قد وصل، وأن البقرة «بافا»[١] قد نَتَجتْ، أحسَّ شيئاً فشيئاً أن تشوش فكره أخذ يتبدَّد، وأن خجله واستياءه من نفسه بدأا يتلاشيان. أحسَّ بذلك كله لمجرد أن رأى ايناس والخيل؛ لكنه عندما تدثر بمعطف فرو الخروف الذي حمله الحوذي معه، واستقر في زلاجته التي انطلقت، أخذ يفكر بالأوامر التي ينبغي أن يُصدرها في القرية،

(١) بافا: «الطاووسة»: اسم مستعار لبقرة جميلة.

ملقياً بين الحين والحين نظرة عجلى على الجواد ذي اللبب، جواد ركوبه القديم (وهو جواد سريع من الدون، لكنه مُنهك)، وتأمل فيما وقع له، من زاوية مختلفة، أحسَّ بأنه هو هو ولم يشأ أن يكون إنساناً آخر. كل ما أراده هو أن يكون أفضل من ذي قبل. صمّم، قبل كل شيء، على أنه لن يحلم، بدءاً من هذا اليوم، بسعادة مستحيلة يوفرها له الزواج، وبالتالي فهو لن يزدري الحاضر بعد الآن كما فعل من قبل. ثم إنه لن يسمح لنفسه بالانجراف وراء الأهواء الخسيسة، مثل تلك الأهواء التي عذَّبته ذكرياتُها، قبل أن يتقدم بطلبه. وعندما مرت بباله ذكرى أخيه نيقولا، عزم على أن يُشرف عليه دائماً، ليهبّ إلى نجدته إذا ما ساءت أحواله. ولن يتأخر ذلك طويلاً. كذلك كان يحس. إن أحاديث أخيه عن الشيوعية، وهي أحاديث استخفَّ بها كثيراً، أخذت تدفعه إلى التفكير. كان يعتبر الاتجاه إلى إصلاح الأحوال الاقتصادية غباءً، لكنه أحسَّ دائماً أن من الظلم أن يستمتع بالفائض، بينما كان الشعب غارقاً في البؤس، وقطع على نفسه عهداً، لكي يريح ضميره، أن يعمل أكثر وأن يمنح نفسه قدراً أقل من الرفاهية، هذا مع أنه كان يعمل كثيراً ومع أنه كان يعيش ببساطة شديدة. وبدا له أن الحصول على ذلك أمرٌ بالغ السهولة، حتى أنه استغرق، أثناء ما بقي من الطريق، في أعذب أحلام اليقظة. ولقد وصل إلى بيته، في الساعة التاسعة مساءً، وهو مُفْعم بالقوة والأمل بحياةٍ أفضل.

كانت نوافذ غرفة «آغات ميخايلوفنا»[1] المربية العجوز التي كانت تقوم بمهام أمين الصندوق، في البيت، تضيء درج المدخل المغطى بالثلج. لم تكن قد نامت بعد. فأيقظت «قزما» على غفلة، فهرع إلى الدرج حافي القدمين، نصفَ نائم. واندفعت «لاسكا»[2]، كلبة التربص، إلى الخارج، وكادت ترمي «قزما» في

(١) آغات ميخايلوفنا: اسم وشخصية لخادمة أمينة في «اياسنايا بوليانا» (١٨٢٠ ــ ١٨٩٦)، وكان تولستوي يحبها كثيراً، وقد ظهر اسمها أيضاً في الحرب والسلم.

(٢) لاسكا: أي المداعبة، اسم أطلق على الكلبة.

طريقها، وأخذت تحكّ جسمها بساقيه وهي تَضْغو من الفرح، ثم انتصبتْ على قائمتيها الخلفيتين، دون أن تجرؤ على وضع قائمتيها الأماميتين على صدر سيدها.

قالت له «آغات ميخايلوفنا»:

ــ لقد عدتَ بسرعة، يا عزيزي.

فأجاب:

ــ شعرتُ بالضجر، يا آغات ميخايلوفنا. قد يرتاح المرء عند الآخرين، لكنه يرتاح في بيته أكثر.

ومضى إلى مكتبه.

استنار المكتب ببطء على ضوء الشمعة. وخرجت من العتمة تلك الأشياء الصغيرة التي ألفها: خشبُ الأيل، رفوف الكتب، المرآة، المدفأة بفتحة الحرارة التي كان ينبغي إصلاحها منذ زمن طويل، أريكة أبيه، الطاولة الكبرى؛ وعلى الطاولة كتاب مفتوح، ومنفضة مكسورة، ودفتر مغطّى بخطه. وعندما شاهد ذلك كله ارتاب لحظة في إمكان تغيير حياته، كما حلم أثناء الطريق. كانت آثارُ حياته الماضية كأنما تهاجمه وتقول له: «لا، لن تتركنا، لن تتغيَّر، ستبقى كما كنتَ دائماً؛ بشكوكك، باستيائك المستمر في نفسك، بمحاولاتك الباطلة لإصلاح نفسك، بعثراتك، وبهذا الانتظار الأبدي لسعادة لن تبلغها أبداً، لأنها ليست في مُتناولك».

ــ هـذا ما كانت تقوله الأشياءُ؛ لكن صوتاً آخر في قرارة نفسه كان يقول له: إنه لا ينبغي لـه أن يـكـون عبـداً لمـاضيه، وأن المرء يستطيع أن يصنع من نفسه ما يشاء. وانصاع لهذا الصوت، فقصد إلى ركن من أركان الغرفة، وكانت هناك وزنتان تزنان ثلاثين ليبرة، فرفعهما بحركات رياضية، محاولاً أن يشدَّ من عزمه، وصرَّ خشب الأرض من وطءِ خطوات خلف الباب، فبادر إلى إلقاء الوزنتين.

كان القادم وكيله؛ قال له إن الأمور تسير سيراً حسناً، بفضل الله، لكن الحنطةَ السوداء عفّنت في مَنْشرها الجديد. فأثار هذا الخبر حفيظة ليفين ذلك أن هذا المنشر الجديد إنما بناه وابتكره، جزئياً، ليفين نفسه.

وكان الوكيل يعارض دائماً إقامة مثل هذا المنشر وهو الآن يبلّغه أن الحنطةَ عفّنت وقد بدت عليه إماراتُ المنتصر، المتواضع. أما ليفين فكان قانعاً قناعة ثابتة أن الحنطةَ عفّنتْ لأن التدابير التي أمر بها مائة مرة لم تُتّخذْ. فسخط على الوكيل ووبّخه. لكن حدثاً سعيداً ومهمّاً قد وقع: ذلك أن «بافا»، أجمل أبقاره وأثمنها، وهي البقرة التي اشتراها من المعرض.

قد نَتَجت. وقال:

ـ أعطني، يا قزما، معطفي الجلدي.

وقال لوكيله:

ـ وأنت، أحضرْ مصباحاً، فسوف أراها.

كانت زريبة الأبقار الثمينة خلف المنزل رأساً. فاجتاز الباحة بين أكوام الثلج، بجانب الليلك، ودخل الزريبة. انبعثت رائحة ساخنة من الزبل عندما فُتح الباب الذي جمّده الجليد، وأخذت الأبقار التي فوجئتْ بضوء المصباح الغريب تضطربُ على مفارشها الغضّة. وظهر، في الضوء. ردفُ البقرة الهولاندية العريض، الأملس، بجلده المبقّع ببقع بيضاء وسوداء. وكان الثور، «بركوت» مضطجعاً وحلقته في منخريه؛ همّ بأن ينهض لكنه غيّر رأيه، ونخر مرتين أو ثلاثاً، عندما مرّ الداخلون بقربه، أما «بافا»، الجميلة بين الجميلات، الضخمة مثل فرس النهر، فقد أدارت ردفها للقادمين لتحمي به صغيرها التي كانت تشتمّه من رأسه إلى ذيله.

دخل ليفين المربطّ، وفحص «بافا»، ورفع العجل المبقع ببقع بيضاء وحمراء على قوائمه الطويلة المترنحة. أرادت «بافا» وقد ذُعرت، أن تخور، لكنها اطمأنتْ

عندما أعاد إليها ليفين صغيرها، ونفخت بقوة، وأخذت تلحسه بلسانها الخشن. فلبد الحيوانُ الصغير متلمساً بفمه ضرع أمه، وحرّك ذيله.

قال ليفين وهو يفحص العجل:

ــ أضيءْ هذا الجانب، يا فيدور، هات المصباح. إنه كأمه، مع أن له جلد أبيه. إنه لجميل جداً، وهو ناعم وممشوق. ألا تراه جميلاً، يا بازيل فيدورفتش؟

قال ذلك هو يلتفت إلى وكيله، ناسياً الحنطة في غمرة فرحه الذي سبّبه مولدُ العجل.

قال الوكيل:

ــ لا عجب، فهو يشبه أمه وأباه!... جاء «سيمون» المقاول في صباح اليوم التالي لذهابك. ينبغي الاتفاق معه. لقد حدثتك عن الآلة.

هذه الجملة وحدها ذكّرت ليفين بجميع تفاصيل الإدارة المعقدة في ملكه الواسع؛ انتقل رأساً، من الاسطبل إلى مكتبه، وبعد أن حادث وكيله وسيمون المقاول، عاد إلى المنزل، وصعد إلى قاعة الاستقبال.

[٢٧]

كان البيت واسعاً وقديماً. لكن ليفين كان يشغله كله ويدفئه كله، مع أنه كان يعيش وحده. وكان يعلم أن ذلك منافٍ للعقل، جدير باللوم، ومناقض تماماً لمشاريعه الجديدة، إلاّ أن هذا البيت كان عالماً، بالنسبة إلى ليفين. كان العالم الذي عاش فيه أهله وماتوا. لقد عاشوا فيه حياة كانت تبدو له مثالاً لضروب الكمال، حياة كان يحلم أن يستأنفها ومعه زوجة وأولاد.

لا يكاد ليفين يذكر شيئاً عن أمه. لكن ذكراها كانت مقدسة عنده، وكان يرى أن زوجته المقبلة ينبغي أن تكون تجسيداً جديداً لهذا المثل الأعلى من الملاحة والقداسة الذي جسدته أمه.

كان يرى أن الحب يمكن أن يوجد، خارج الزواج. بل إنه كان يفكر، قبل كل شيء بالأسرة، وبعد ذلك بالمرأة التي ستهبه هذه الأسرة. وكانت أفكاره عن الزواج تختلف عن أفكار معظم أصدقائه الذين لم يكن الزواج، في نظرهم، سوى حدث بين أحداث الوجود. أما ليفين فكان يرى أنه فعل الحياة الأساسي، الفعل الذي تتوقف عليه سعادته بأسرها، وكان لا بد له الآن من العزوف عنه.

عندما دخل إلى القاعة الصغرى حيث كان يتناول دائماً شايه، وجلس في مقعده ومعه كتابه، بينما كان أغات ميخايلوفنا تحمل له شاية وتجلس على كرسي أمام النافذة مرددة كلمتها المعهودة: «سأجلس، أنا أيضاً، يا عزيزي»، أحس، وإن بدا إحساسه غريباً، أنه لم يتخل عن أحلامه. وأنه لا يستطيع أن يحيا بدونها. مع كيتي أو غير كيتي، سيتحقق ذلك. كان يقرأ ويفكر فيما يقرأ، وهو يتوقف ليصغي إلى آغات ميخايلوفنا التي كانت تتكلم بدون انقطاع، وفي الوقت نفسه كانت تطوف بخياله لوحات لا نظام فيها عن نشاطه في الريف وعن حياته العائلية المقبلة. كان يحس أن في أعماق نفسه شيئاً يستقر، ويهدأ، ويثبت.

كان يصغي إلى حديث «آغات ميخايلوفنا»: كانت تقول «بروكور» قد نسي الله، وأنه يشرب شراباً متصلاً، بالمال الذي أعطاه إياه ليفين ليشتري حصاناً، وأنه ضرب امرأته ضرباً مبرحاً.

كان يصغي ويقرأ ويتابع سلسلة الأفكار التي أيقظتها القراءة. كان الكتاب لتندال عن الحرارة[1]. تذكر أنه لام تندال لرضاه عن نفسه بعد نجاح تجاربه، ولقصر نظره الفلسفي. وفجأة، دارت بخلده فكرة مفرحة: «في مدى سنتين، سيكون عندي بقرتان هولنديتان، وربما كانت «بافا» حية أيضاً: ما أجمل ذلك

---

(١) الكتاب لتندال عن الحرارة: كتب الفيزيائي الانكليزي جون تندال (١٨٢٠ ــ ١٨٩٣)، كتاباً (في الحرارة من حيث هي وسيلة محركة)، وقد ترجم إلى الروسية في ١٨٦٩ وقرأه تولستوي.

المشهد الذي ستختلط فيه هذه البقرات الثلاث بالقطيع المؤلف من اثنتي عشرة بقرة من بنات «بركوت!» وعاد إلى كتابه «طيب، الكهرباء، والحرارة شيء واحد، لكن هل يمكننا أن نستخدم مقاييس المقدار نفسها في المعادلات لحل هذه المسألة؟ لا. وإذن؟ إن العلاقة بين جميع قوى الطبيعة تُحس، على كل حال، بالغريزة... كم سيكون جميلاً ذلك المشهد، عندما تصبح ابنة «بافا» بقرة مبقعة ببقع حمراء وبيضاء، وتنضم هذه البقرات الثلاث إلى القطيع! سأخرج مع زوجتي وضيوفي لنتفرج على عودة القطيع.. ستقول زوجتي: «لقد ربينا، كوستيا وأنا، هذه العجلة كما يُربى الطفل» ـ وسيسألها أحد الضيوف: «وكيف يمكن لذلك أن يثير اهتمامك هذا» وستجيب هي: «كل ما يهمه يهمني». لكن من عساها تكون هذه الزوجة؟ وتذكر ما جرى في موسكو... ما العمل؟... ليس الذنب ذنبي، سيتغير كل شيء الآن. إنها لحماقة ألا يقبل المرء الحياة، أن ينكر ماضيه. ينبغي أن نناضل لنعيش حياة أفضل، أفضل بكثير...» ورفع رأسه واستغرق في أفكاره. أما لاسكا الهرمة، التي لم تتمالك نفسها من الفرح بوصول سيدها والتي ذهبت إلى الخارج لتنبح، عادت وهي ترقِّص ذيلها، حاملةً معها شيئاً من رائحة الهواء الطلق: لقد اقتربت من ليفين ودست رأسها تحت يده وهي تصغو شاكية، سائلة المداعبة.

قالت آغات ميخايلوفنا:

ـ لا ينقصها إلا الكلام. إنها تفهم، وإن تكن كلبة، أن سيدها قد عاد وأن السألم يداخله.

ـ السأم؟ لماذا؟

ـ إني أرى ذلك جيداً، فلا تنكر، يا سيدي، إنني خبيرة بأحوال السادة، وأنا أعيش عندهم منذ الطفولة. لا تقلق، يا عزيز. ما دمت في صحتك، وما دام ضميرك مرتاحاً...

نظر إليها ليفين بانتباه، وأدهشه أنها قرأت أفكاره.

قالت وهي تخرج بابريق القهوة:

ــ أتريد فنجاناً آخر؟

كانت لاسكا تحاول دائماً أن تدس رأسها تحت يده. وداعبها فلم تلبث أن اضطجعت متكورة عند قدميه، وقد وضعت رأسها على قائمة مطوية من قائمتيها الخلفيتين. ولكي تظهر أنها سعيدة الآن، فقد فتحت فكيها قليلاً، وتلمظت بشفتيها السائلتين اللتين أغلقتهما مرة أخرى على أسنانها القديمة، وتجمدت في طمأنينتها المغتبطة.

وفكر: «حالها كحالي، كحالي! لا بأس... كل شيء على ما يرام».

[٢٨]

في الصباح الباكر، بعد الحفلة الراقصة، أرسلت آنا اركادييفنا برقية إلى زوجها لتنبئه أنها ستغادر موسكو، في اليوم نفسه. قالت لزوجة أخيها مفسرة هذا التغيير، وكأنها تتذكر مشاغلها التي لا تحصى:

ــ لا ، يجب أن أذهب، والأفضل أن أسافر اليوم.

لم يكن ستيڤان اركادييڤتش يتعشى في البيت، لكنه وعد أن يعود في الساعة السابعة ليصطحب أخته.

لم تكن كيتي هنا أيضاً: فقد أرسلت بطاقة تقول فيها إنها مصابة بالصداع. كانت دولي وآنا تتعشيان وحدهما مع الأولاد والمربية الانجليزية. هل فعل الأولاد ما فعلوه بسبب تقلبهم، أم أنهم أحسوا أن آنا لم تعد تلك التي شغفوا حباً بها، وأن في رأسها شيئاً آخر؟ لقد كف هؤلاء الأولاد فجأة عن اللعب مع عمتهم، وكأنهم لا يكترثون كثيراً لرحيلها. وانشغلت آنا. طوال الصباح، بالتأهب للسفر.

فكتبت بضع بطاقات لأصدقائها في موسكو، وسجلت حساباتها، وحزمت أمتعتها. خيل إلى دولي أنها قلقةٌ وأنها نهبى للاضطراب الذي كانت تعرفه

بالخبرة، والذي لا يولد بدون سبب، وإنما يخفى، في معظم الوقت، عدم الرضى عن الذات. وبعد العشاء، أوت آنا إلى غرفتها، لتغير ثيابها وصحبتها دولي.

قالت لها دولي:

ــ ما أغربك اليوم!

قالت آنا بشدة:

ــ أنا؟ أترين ذلك؟ لست غريبة، وإنما أنا مضطربة. وقد يقع لي ذلك أحياناً. وأنا أشتهي البكاء طوال الوقت. هذا غباء، لكنه سيزول. ما كنت أريد أن أغادر بطرسبرج، وأنا الآن آسفة لفراقكم.

وأكبت بوجهها المتضرج على حقيبة صغيرة للسفر كانت تضع فيها قبعتها الليلية ومناديلها الكتانية الرقيقة. كانت عيناها تلتمعان التماعاً غريباً وهي تحبس دموعها.

قالت لها دولي وهي تراقبها باهتمام:

ــ لقد جئت لتقومي بعمل كريم.

رمتها آنا بنظرة مبللة بالدموع:

ــ لا تقولي لي ذلك، يا دولي. لم أفعل شيئاً، وما كان بوسعي أن أفعل شيئاً، إني لأتساءل غالباً، لم يُجمع الناس على تدليلي إلى هذا الحد. ماذا فعلت وماذا كان بوسعي أن أفعل؟ لقد وجدت في قلبك ما يكفي من الحب للصفح.

قالت دولي:

ــ الله وحده يعلم ما الذي سيقع لولاك! ما أسعدك، يا آنا! كل شيء في نفسك صاف وخير.

ــ لكل واحد في نفسه خطاياه السرية، كما يقول الانكليز.

ــ ما الخطايا التي يمكن أن تكون لك؟ كل شيء صاف فيك.

قالت آنا فجأة وقد ظهرت على شفتيها ابتسامة ماكرة، ساخرة، غير متوقعة بعد تلك الدموع:

ــ إن لي مع ذلك خطاياي.

قالت دولي وهي تبتسم:

ــ وإذن فهي خطايا مسلية، وليست محزنة.

قالت آنا وهي ترتمي بعزم على مسند أريكتها وتحدق في عيني دولي:

ــ بلى، إنها محزنة، أتعلمين لمّ أذهب اليوم بدلاً من الغد؟ إن الاعتراف يشق علي، لكني سأعترف لك.

وكانت دهشة دولي عظيمة عندما رأت آنا تحمر حتى بياض عينيها، حتى خصل شعرها السوداء، الجعدة، على قذالها.

استأنفت آنا كلامها بصوت نحيف وهي تمط الكلمات الأخيرة:

ــ نعم، أتعلمين لمَ لمْ تأت كيتي إلى العشاء؟ لغيرتها مني. أفسدت... كنت السبب لأن تكون هذه الحفلة سبباً لعذابها، بدلاً من أن تكون مصدراً لفرحها، لكن، في الحقيقة، في الحقيقة، لست مذنبة، إلا أقل الذنب...

فعلقت دولي وهي تضحك:

ــ أوه! كم تشبهين ستيڤا، وأنت تقولين ذلك.

أحست آنا أنها أهينت فقالت:

ــ أوه! لا! أوه! لا! إنما قلت لك ذلك لأني لا أرتضي أن أشك بنفسي، دقيقة واحدة.

لكنها أحست، في اللحظة التي لفظت فيها هذه الكلمات، أنها كاذبة، فهي لا تشك بنفسها فحسب، بل إن التفكير في فرونسكي يشوشها ويحملها على الاضطراب، وإذا كانت قد سبقت موعد رجوعها على ما انتوته من قبل، فذلك فقط لأنها لا تريد أن تلقاه بعد الآن.

ـ نعم، قال لي ستيڤا أنك رقصت معه رقصة «المازوركا» وأنه. . .

ـ لا تستطيعين أن تتصوري كيف آلت الأمور إلى هذا النحو الغريب. كنت أود أن أسوّي هذا الزواج، وفجأة تغيّر كلُ شيء. فلعلي، بالرغم مني. . .

قالت دولي:

ـ أوه! هذه الأشياء يحسّها الإنسان بسرعة.

فقاطعتها آنا:

ـ كنتُ سأغتمُّ لو كان هناك شيء جاد من جانبه، أياً كان نوعه. وأنا مقتنعةٌ أن كل شيء سيُنسى، وأن كيتي ستكفّ عن الحقد علي.

ـ على كل حال، سأقول لك صراحةً، يا آنا، إني لا أتمنى كثيراً هذا الزواج لكيتي. وإذا كان فرونسكي قد شُغف بك ذات يوم، فالأفضل ألا تذهب أبعد من ذلك.

قالت آنا، وقد علت وجهها حمرةٌ ثانيةٌ من الفرح عندما سمعت الفكرة التي تشغلها معبراً عنها بالكلمات:

ـ آه! يا إلهي، سيكون ذلك بالغ الغباء! أأذهب وقد صنعتُ من كيتي التي أحبها كثيراً عدوة لي! آه! ما أروعها! لكنك ستسوّين ذلـك، يا دولي! أليس كذلك؟

تمالكت دولي نفسها من الابتسام بجهد، كانت تحب آنا، لكنها لم تستأ حين وجدت مواطن ضعفها.

ـ عدوة؟ مستحيل.

قالت آنا والدموع في مآقيها:

ـ أودّ كثيراً أن تحبوني جميعاً كما أحبكم، وأنا الآن أحبكم أكثر! آه! ما أغباني اليوم!

ومسحت عينيها. وأخذت تبدّل ملابسها.

قُبيل السفر، وصل ستيڤان اركاديڤتش، متأخراً، مرحَ الوجه، متقد القسمات، يفوح بالخمر والتبغ.

انتقل حنان آنا إلى دولي، فهمست وهي تعانقها لآخر مرة:

ــ تذكري يا آنا إنني لن أنسى أبداً ما فعلته لي. وتذكري أيضاً أنني أحبّك وسأحبك أبداً كأفضل صديقة لي!

قالت آنا وهي تعانقها وتخفي دموعها.

ــ لا أفهم لماذا...

ــ لقد فهمتِني، وأنت تفهمينني الآن، وداعاً، يا ملاكي!

[٢٩]

كانت أول فكرة مرت بخاطر آنا، بعد أن ودّعت لآخر مرة أخاها الذي سدّ مدخل الحافلة حتى دقت الجرس الثالثة: «وأخيراً، انتهى كلُ شيء، بفضل الله». وجلستْ على مقعدها، قرب آنوشكا، وتطلعت حولها، في غبش الغسق. «الحمد لله سأرى غداً «سيريوجا» وألكسي الكسندروفتش، وستعود حياتي الطبيعية، الهانئة. كما كانت في الماضي».

وبمثل تلك الحاجة إلى الانهماك التي تملكتها طوال النهار، شرعت في ترتيب مجلسها بشيء من العناية المفرطة: فبيديها النحيفتين والحاذقتين، فتحتْ وأغلقت بالمفتاح حقيبتها الصغيرة، الحمراء، وأخرجت منها وسادة وضعتها على ركبتيها، وبعد أن غطَّتْ ساقيها برفق، استوت في جلستها المريحة. كان بجنبها امرأةٌ مريضة تهمّ بالنوم، وبدأت سيدتان أخريان الحديث مع آنا، وأخذت عجوز ضخمة لفت ساقيها بغطاء، تبدي ملاحظاتها حول التدفئة. أجابت آنا السيدات ببضع كلمات، ولما قدّرت أن حديثهما لا يستحق الاهتمام، طلبت إلى خادمتها أن تأتي بمصباح الجيب، فعلقته بيد المقعد، وتناولت من حقيبتها اليدوية مقطعاً

للورق وروايةً انكليزية. لم تستطع، في البداية، أن تقرأ شيئاً. إذ أزعجتها الروحات والجيئات؛ ثم تعذّر عليها، بعد أن سار القطار، أن تتخلص من الضوضاء؛ وأخيراً فإن الثلج الذي كان يضرب النافذة اليسرى ويلتصق بالزجاج، ومرأى المُراقب الذي كان يمرّ وهو متلفعٌ، ومغطًّى بالثلج من جانب واحد، والأحاديث عن العاصفة التي كانت هائجة في الخارج، كل ذلك صرف انتباهها عن الكتاب. لكن كلَّ شيء ما لبث أن غرق في الرتابة: الرجّات الممتزجة بالضجيج هي ذاتها، والثلج الذي يلطم النافذة هو ذاته، والانتقالات المفاجئة من البخار المحرق إلى البرد، ثم من البرد إلى الدفء مرة أخرى. هي ذاتها، وظهور الوجوه ذاتها، في الغبش، وارتفاع الأصوات ذاتها.. وأخذت آنا تقرأ وتفهم ما تقرأ. أما آنوشكا فقد أغفت واضعة الحقيبة الحمراء الصغيرة فوق ركبتيها، وممسكة إياها بيديها الضخمتين اللتين غطاهما قفازان تمزّق أحدهما. كانت آنا اركادييفنا تقرأُ وتفهم، لكنها لم تكن تجد متعةً في تتبع مغامرات الآخرين. كانت ترغب رغبة عارمة في أن تعيش بذاتها. فإذا عُنيت بطلة الرواية بالمرضى.. أحست بالرغبة إلى أن تمشي بخطوات صامته في غرفة مريض؛ وإذا ألقى عضو البرلمان خطبة... تمنت لو أنها ألقت هذه الخطبة؛ وإذا خرجت «اللادي ماري» على حصانها في إثر كلاب الصيد، وضايقت أخت زوجها، وأدهشتْ الناسَ جميعاً بجسارتها، ثاقت نفسها إلى أن تفعل ذلك كله بذاتها. لكن، أنى لها ذلك؟ كانت تكره نفسها على القراءة وهي تدعك بيديها اللطيفتين المقبض الأملس لمقطع الورق.

بلغ بطلُ الرواية قمّة سعادته الانكليزية: لقبَ بارون وقطعة أرض، فاشتهت آنا أن تطوف معه على أملاكه، عندما أحست فجأة أنه خجلٌ وأنها خجلة. وتساءلت وهي تشعر بالدهشة والإهانة: لكن ممّ؟ ممّ أخجل؟ وألقت كتابها، واستندت إلى مسند أريكتها، ضاغطة على مقطع الورق بين يديها. ليس هناك ما يمكن أن تخجل منه. واستعرضتْ جميع ذكرياتها في موسكو: فإذا بها كلها

ذكرياتٌ سعيدة، عذبة، وتذكرّتْ الحفلة الراقصة. تذكرت فرونسكي ووجهه المتذلّل، العاشق، وصلاتها به: ليس في ذلك ما يُوجب الخجل. إلاَّ أن إحساسها بالخجل، في هذا الموضوع بالذات من ذكرياتها، كان يزداد، وخيِّل إليها أن صوتاً داخلياً كان يَهتْفُ بها، في اللحظة نفسها التي تفكّر فيها في فرونسكي: «حار، حار جداً، محرق» وتساءلت بجلاء وهي تغيّر مكانها: «ما معنى هذا؟»، «ما معنى هذا؟» أأخشى أن أواجه تلك الذكرى بصراحة؟ لا يمكن أن يكون ما بيني وبين هذا الضابط المراهق غير العلاقات التي بيني وبين الناس. وطافت بشفتيها ابتسامةٌ مستخفةٌ، وعادت إلى كتابها، لكنها لم تستطعْ، هذه المرة، أن تفهم ما تقرأ، على الإطلاق. وأمرّت مقطع الورق على الزجاج، ثم ألصقت على وجنتها صفحته الملساء والباردة، وكادت تغرب في ضحك عال تحت وطأة الفرح الذي اجتاحها بغتة. وأحست بأعصابها تتوتّر شيئاً فشيئاً، كأوتار الكمان التي تُشد على مَلاويه. وخُيِّل إليها أن عينيها تتفتحان انفتاحاً مفرطاً، وأن أصابع قدميها ويديها تتشنج، وأن هناك ثقلاً يضغط عليها، وأن الصور والأصوات تنصبّ عليها بقوة غريبة، في هذا الغبش الرجراج. وكانت تتساءلُ، في كل لحظة، إن كانت الحافلة تسير إلى الأمام أو إلى الخلف، أم أنها توقفت. وهل الواقفة بجانبها آنوشكا أم امرأة أخرى؟ «ما الذي على ساعد المقعد؟ أهو فروٌ أم هو وحش؟ وأنا نفسي، أأنا أنا أم أنا إنسانة أخرى؟» خافت أن تسترسل في هذه الحالة اللاشعورية. كان هناك ما يجتذبها إليها، لكنها كانت ما تزال قادرةً على أن تعزّف عنها وأن تقاوم هواها، ونهضت لتتمالك نفسها، وألقتْ معطفها، ونزعت طوقها. وعادت إلى نفسها دقيقةً، وأدركتْ أن هذا الرجل الهزيل الذي دخل قبل حين مرتدياً معطفاً طويلاً، أصفر، خالياً من الأزرار، إنما هو السائق، وأنه جاء لينظر في ميزان الحرارة، وأن الريح والثلج كانا يندفعان خلفه من الباب، لكن كل شيء عاد فتشوّش مرة أخرى... فذاك الفلاحُ بقامته الطويلة أخذ يقضم الجدار؛ ومدت العجوز ساقيها

على طول الحافلة وملأتها بسحابة سوداء، ثم سمع صرير مصحوب بضربات، كأن هناك إنساناً يمزِّق إلى نصفين؛ وأعمتْها نارٌ حمراء، ثم توارت النارُ خلف الجدار. وأحست آنا أنها تسقط في هاوية. لكن ذلك كان مسليّاً، بدلاً من أن يكون مرعباً. وصرخ الرجلُ المتلفع الذي غطاه الثلج بأحد الأسماء في أذنها. فنهضت، واستجمعتْ قواها: أدركت أن القطار يقترب من المحطة وأن هذا الرجل هو المراقب. وطلبت إلى آنوشكا أن تعيد إليها طوقها وخمار كتفيها، فتلفعت به واتجهت إلى الباب.

سألتها آنوشكا:

ـ تريدين الخروج؟

ـ نعم، أشتهي أن أتنفس. فالهواء خانق هنا.

وسحبت المصراع. فانهال الثلج والهواء عليها وأغلقا الباب. وبدا لها ذلك مضحكاً. ثم فتحت البابَ وخرجت. وكأنما كان الهواءُ ينتظرها: لقد أخذ الهواء يصفر أَشِراً بَطِراً، وأراد أن ينتزعها ويحملها. فتشبثت يدُها بحديد الدرج، وثبتت خمارها باليد الأخرى، ونزلت إلى الرصيف ولاذت بالحافلة. كانت الريح عنيفةً، لكن، كان هناك منطقة هدوء، على الرصيف، خلف الحافلة. تنفست بلذة الهواء الجليدي، بملء رئتيها، ونظرت من حولها إلى الرصيف والمحطة المضاءة.

[٣٠]

انطلقت الريحُ من عقالها عاصفةً تحت عجلات الحافلة وبين الأعمدة. كان الناس والحافلات والأعمدة، كان كلُّ ما يُرى مغطى في أحد جوانبه بطبقة من الثلج تتكاثف بين لحظة وأخرى. وهدأتْ العاصفة لحظةً، لكنها عادت إلى هياجها الذي بدا أنْ لا سبيل إلى مقاومته. وبالرغم من ذلك، كان بعضُ الرجال يركضون هنا

وهناك، وهم يتصايحون بفرح، ويفتحون ويغلقون في كل لحظة بابَ المحطة، فتصرّ ألواحُ الرصيف تحت أقدامهم. وانسل بين قدمي آنا ظلُّ رجلٍ محدودبٌ، وسُمعَ صوتُ مطرقة تطرق الحديد. وهتف صوتٌ غاضب من الجانب الآخر من الظلمة: «هات البرقية!» وصرخت أصواتٌ عديدة: «من هنا، إذا شئت، الرقم ٢٨!» وهُرع على طول الرصيف رجالٌ قد تدثروا بثياب دافئة. ومرّ أمام «آنا» رجلان، وفي فم كل منهما سيجارة مشعلة. واستنشقت الهواء مرة أخرى، كأنها تريد أن تملأ به رئتيها، وأخرجت ذراعها من ردنها لتتعلق بحديد السلم وتصعد إلى الحافلة، إلاَّ أن رجلاً يرتدي معطفاً عسكرياً اعترض سبيلها ووقف بينها وبين ضوء المصباح المذبذب، فالتفتت وعرفت فيه فرونسكي من فورها.

انحنى، ويده على مقدمة قبعته، وسألها إن كانت تحتاج إلى شيء وإن كان يمكنه أداء خدمةٍ لها. نظرتْ إليه طويلاً، دون أن تجيب، ومع أنه كان في الظلمة فقد رأت أو خُيل إليها أنها رأت عينيه وتعبير وجهه. كان تعبيراً عن الإعجاب المفعم بالاحترام، وهو الذي فعل في نفسها فعلاً عظيماً في اليوم الفائت: لقد قالت لنفسها غيرَ مرة. في هذه الأيام الأخيرة وفي هذه اللحظة بالذات، إن فرونسكي لم يكن سوى شاب من هؤلاء الشباب الذين يتشابهون أبداً ممّن نلقاهم بالمئات في المجتمع، شاب لا تبيح لنفسها أبداً التفكير فيه؛ لكنها ما أن رأته، الآن حتى تملكها، إحساسٌ من الفرح الممتزج بالكبرياء، لم تكن بحاجة لتتساءل: لمَ كان هنا. كانت تعلم حقّ العلم، كما لو أنه هو الذي أنبأها بذلك، أنه كان هنا ليكون حيث تكون.

قالت له وهي ترخي يدها عن حديد السلم:

ــ ما كنتُ أعلم أنك مسافر. لمَ غادرْتَ موسكو؟

وشعّ وجهها بفرح لا سبيل إلى دفعه.

فردّد وهو ينظر إليها في عينيها:

ــ لمَ أغادرْ موسكو؟ تعلمين أنني أفعل ذلك لكي أكون حيث تكونين؛ ليس بوسعي أن أفعل غير ذلك.

في هذه اللحظات بالذات، كسحت الريح، وكأنها قد تغلبت على جميع العقبات، الثلجَ عن سطح الحافلات، وهزّت في طريقها صفيحة مقتلعةً من الحديد. ومن وراء ذلك، أطلقت صافرةُ القاطرة نداءً شاكياً. بدا هولُ العاصفة لآنا، في هذه اللحظة، أجمل من ذي قبل. كان فرونسكي يقول لها الكلمات ذاتها التي تتوق إليها نفسُها ويخشاها عقلُها. لم تجبْ، ورأى هو على وجهها الصراع الذي تعانيه. فقال بلهجة خاضعة:

ــ اغفري لي إن كان ما قلتُه لا يرضيك.

كان يتكلم بأدب واحترام، لكنّ لهجته نمّت على كثير من العزم والإصرار حتى إنها ظلّت برهةً طويلة دون أن تقوى على الجواب. ثم قالت أخيراً:

نعم، إن ما تقوله يسوءني، وأرجوك، إن كنت رجلاً رقيقاً، أن تنساه كما سأنساه أنا نفسي.

ــ لن أنسى أبداً، ولا يمكنني أن أنسى أبداً كلمةً من كلماتك، ولا حركة من حركاتك. . .

فهتفت وهي تجهد عبثاً في أن تصطنع معاني القسوة والصرامة لوجهها الذي كان يتأمله بنهمٍ:

ــ اسكتْ، اسكتْ!

وأمسكت بحديد السلم المجلّد، فصعدت الدرجَ ودخلت الحافلة مسرعةً. ثم توقّفت عند المدخل لتستعيد في خيالها ما حدث. لم تكن تتذكّر لا كلماتها ولا كلمات فرونسكي، إلاّ أنها أحست أن هذا الحديث القصير قد قرّب بينهما على نحو غريب؛ فأسعدها ذلك وأرعبها. تسمّرتْ بضع ثوان، ثم دخلت الحافلة واستقرّتْ في مكانها. وكان التوتّر الذهني الذي عذّبها في بداية سفرها يتفاقم بدلاً

من أن يتلاشى: حتى لقد خشيت أن يتحطّم فيها شيء. فلم تنمْ طوال الليل. لكن هذه الحالة من التواتر، والأحلام التي ملأت خيالها، لم يكن فيها ما يزعج، بل إنها كانت، على النقيض من ذلك، مفرحةً، كاويةً، مثيرة.

عند الصباح، أغفت، وهي جالسة على مقعدها؛ وعندما استيقظت، كان الصبح قد طلع وكان القطار يقترب من بطرسبرج. وما لبث أن عاد إلى ذاكرتها بيتُها وزوجها وابنها وهمومُ يومها والأيام الآتية.

ما أن وقف القطار حتى نزلت، وكان وجه زوجها هو أول وجه شاهدته. وفكّرت، وهي تنظر إلى هذا الوجه الفاتر والمتميز، ولا سيما إلى غضاريف أذنيه التي استندت إليها حواشي قبعته المدورة والتي أثارت دهشتها. «آه! يا إلهي! لماذا كبرتْ أذناه إلى هذا الحد؟» شاهدها وبادر إلى لقائها، زاماً شفتيه في ابتسامته الساخرة المعهودة، ومحدقاً فيها بعينين مجهدتين. وعندما التقت نظرتُها نظرتَه العنيدة، المتعبة، ضغط على قلبها إحساسٌ مزعج: بدا لها أنها كانت تتوقع أن تجد رجلاً آخر، وأذهلها بخاصة استياؤها من ذاتها الذي أحست به وهي تشاهده. كان إحساسها إحساساً منزلياً، أهلياً، على غرار النفاق الذي تحس به في علاقاتها بزوجها؛ إنها لم تشعر بهذا الإحساس من قبل شعوراً واعياً، أما الآن فإنه يفرض عليها نفسه بوضوح: لقد آلمها الآن إيلاماً شديداً.

قال بصوته البطيء النحيل، وبتلك اللهجة الهازئة التي يتّخذها معها دائماً، وكأنه يريد أن يهزأ من الذين يتكلمون فعلاً بهذه اللهجة:

ــ أنت ترين أنني زوج رقيق، وأنني، كالسنة الأولى من زواجنا، أتلظّى شوقاً إلى رؤياك.

فسألته:

ــ وسيريوجا، هل هو بخير.

فأجاب:

أهذه هي مكافأتك على حرارة الشوق. نعم، إنه بخير، إنه بخير...

[٣١]

لم يحاول فرونسكي أن ينام في تلك الليلة. ظل جالساً في مقعده، محدّقاً أمامه تارةً، وتارةً أخرى منقّلاً عينيه فيمن يدخلون ويخرجون. وإذا كان قد استطاع، قديماً، أن يبهر الآخرين ويهزهم بما يُظهر من هدوء راسخ، فإنه بدا، في هذه اللحظة، أعظم كبرياءً، وأبعدَ عن التأثر. كان ينظر إلى الناس كأنهم أشياء. فهذا شاب عصبي، موظف في محكمة الدائرة، جالس إزاءه، يُحسّ بالكره الحقيقي له، من جراء تلك النظرة، لقد طلب إليه هذا الشاب ناراً، ووجه إليه الكلام، بل إنه حرّكه بقدمه ليُشعره أنه كائنٌ من الكائنات الحية، لكن فرونسكي واجهه بالنظرة التي يواجه بها المصباح، فأصيب الشاب بحركة عصبية، وأحسّ أنه يفقد رباطة جأشه، واحتدم غيظاً أن يتجاهله إلى هذا الحد.

لم يكن فرونسكي يرى شيئاً أو أحداً. ظن أنه أصبح أمبراطوراً، لا لأنه وقع موقعاً حسناً من آنا (لم يكن يجرؤ على التفكير في ذلك بعد)، بل لأن الأثر الذي تركته فيه ملأه غبطة وكبرياء.

إلامَ سينتهي ذلك كله؟ كان يجهل ذلك، بل إنه لم يكنْ يفكر فيه. كان يحس أن قواه كلها، المشتتّة حتى الآن، قد تجمّعت واتجهت، بقوة غريبة، نحو هدف واحد. واغتبط بذلك.

كان يعلم الآن أنه قال لها الحقيقة: إنه آت إلى حيث تقيمُ، وأن سعادته ورغبته الوحيدة تنحصران منذ الآن في أن يراها ويسمعها. وعندما نزل من الحافلة في بولوغوي[١]، ليشرب كأساً من ماء «سلتز» الغازي، وشاهد آنا، بالرغم منه،

---

(١) بولوغوي: محطة من محطات القطار الحديدي في مقاطعة «نوفغورود» في منتصف الطريق =

عبّرت الكلمات الأولى التي خاطبها بها عما يفكر فيه، وكان سعيداً لأنه قالها لها؛ وهي الآن تعلم ذلك وتفكر فيه. وقضى ليلته مسهّداً. فما أن عاد إلى الحافلة وتذكر جميع المواقف التي رآها فيها، وتذكر جميع كلماتها. حتى تهافت قلبه لدى استحضاره رؤى مستقبل محتمل، رؤى زوّده بها خيالُه.

عندما نزل في بطرسبرج أحسّ أنه نشيط، غضّ، بعد تلك الليلة المسهّدة، كأنه قد استحم بماء بارد. وظل قرب حافلته، منتظراً خروج آنا. وقال في نفسه، وهو يبتسم ابتسامة لا إرادية: «سأراها أيضاً، مرة أخرى. سأرى مشيتها، ووجهها؛ ستقول لي شيئاً ما، ستلتفت إلي، ستلقي علي نظرة عجلى، ولعلها ستبتسم لي». لكنه قبل أن يراها شاهد زوجها يرافقه ناظر المحطة باحترام وسط الجمهور. «آه، نعم، الزوج!» ولأول مرة، أدرك فرونسكي بوضوح أن هذا الزوج جزءٌ لا يتجزّأ من حياة آنا. كان يعلم أنّ لها زوجاً، لكنه لم يؤمن بوجوده، ولم يؤمن بهذا الوجود حقاً إلاَّ عندما رآه برأسه، وكتفيه، وساقيه في بنطالهما الأسود؛ آمن بهذا الوجود، على الخصوص، عندما رأى هذا الزوج يتناول بهدوء ذراع آنا، في نوع من الإحساس بالملكية.

عندما شاهد الكسي الكسندروفتش بوجهه الوردي وتعبيره الصارم، الحازم، في قبعة مدورة، محدودب الظهر قليلاً، آمن بوجوده، وانتابه إحساسٌ مزعج: إحساسُ رجل يبرّح به العطش، ثم يجد قرب النبع الذي تهالك عليه كلباً وخروفاً، أو خنزيراً شرب منه ودنّس ماءه، على أن ما صدم فرونسكي بخاصة هو مشية الكسي الكسندروفتش المتصلّبة، الثقيلة. لم يكن يعترف لأحد بحق حبّ آنا إلاَّ لنفسه. أما هي فكانت دائماً شبيهة بذاتها، وكان منظرها يؤثر فيه تأثيراً قوياً، فيبعث في جسده الحياة، ويستشير نفسه ويملؤها سعادة، أمر خادمَه الألماني الذي هُرع من حافلة الدرجة الثانية، أن يحمل متاعه إلى المنزل، ودنا منها، كان شاهداً

= بين موسكو وبطرسبرج.

للقاء بين الزوجين، وقد لاحظ، بفطنة العاشق، الضيقَ الذي انتابها وهي ترد على أسئلة زوجها. وقرر فيما بينه وبين نفسه: «كلا، إنها لا تحبه؛ لا يمكنها أن تحبه».

وبينما كان يلحق بها، رأى أنها أحست باقترابه وأنها ألقت نظرة خاطفة إلى الخلف؛ وعندما تبيّنته، التفتت إلى زوجها.

قال وهو يحيي الزوجَ والزوجة معاً، ليوهم الزوج بأن التحية له، سواء عليه أعرفه أم لم يعرفه:

ــ هل قضيتِ ليلة مريحة؟

فأجابت:

ــ أشكرك، كانت مريحة جداً.

بدا وجهُها متعباً، وقد خلا من تلك البشاشة التي كانت تنفذ إلى ابتسامتها حيناً وإلى عينيها حيناً آخر؛ لكن ضياءً انسل إلى النظرة التي ألقتها عليه، ومع أن هذه الشعلة انطفأت على الفور، إلاَّ أنه سَعد بها. وتطلّعت إلى زوجها لترى إن كان يعرف فرونسكي. أما الكسي الكسندروفتش فقد أخذ ينظر إلى فرونسكي وهو بادي الاستياء، وكأنما كان يتذكر بغموض من عساه يكون. إن هدوء فرونسكي وجسارته كانا يصطدمان بثقة الكسي الكسندروفتش الباردة بذاته.

قالت آنا:

ــ الكونت فرونسكي.

قال الكسي الكسندروفتش بلهجة غير مبالية، وهو يمد يده:

ــ آه! أظن أن بينكما معرفة.

وقال لزوجته وهو يشدّد على كلماته، وكأنه يعد روبلانه روبلاً روبلاً:

ــ ذهبتِ مع الأم، وعدتِ مع الابن.

وقال لفرونسكي:

ــ لعلك عائد، في عطلة؟

وأضاف مخاطباً زوجته بلهجته المازحة، ودون أن ينتظر الجواب:

ــ وهل ذرفتِ الدموع غزاراً، في موسكو، ساعة الفراق؟

لقد قصد أن يُفهم فرونسكي، بهذا الموقف، أنه يرغب في البقاء وحده، فالتفت إليه، ولمس قبّعته. لكن فرونسكي خاطب آنا اركاديفنا قائلاً:

ــ أرجو أن أحظي بشرف زيارتكم.

رماه الكسي الكسندروفتش بنظرة متعبة، وقال له ببرودة:

سيسعدنا ذلك، ونحن نستقبل في يوم الاثنين.

وبعد أن استأذن فرونسكي، قال لزوجته بلهجة المزاح نفسها:

ــ من حسن حظي أن تتاح لي نصفُ ساعة لاستقبالك وللبرهنة على محبتي لك.

فأجابت باللهجة نفسها:

ــ في الحقيقة، أنت تلح كثيراً على المحبة لكي أبالغ في تقديري لها.

وأعارت، من غير تعمد، أذناً صاغية لخطوات فرونسكي الذي كان يمشي خلفهما. وفكرت في نفسها: «وماذا يهمّني»، وسألتْ زوجَها كيف قضى سيريوجا وقته في غيابها.

ــ كان في أحسن حال! قالت «مارييت» إنه كان لطيفاً جداً و . . . سأزعجك. . . إنه يأسف لفراقك كما أسف زوجُك. شكراً لك، مرة أخرى، لأنك بكرت بالمجيء يوماً. سيبتهج «سماورنا»[1] الرائع. (وكان يطلق هذا الاسم على الكونتيسة المشهورة ليديا ايفانوفنا لأنها كانت تضطرب وتفور في كل مناسبة).

(١) السماور: غلاية للشاي تدفئتها داخلية.

كانت مشغولة البال عليك، وإذا سمحت لي بتقديم النصيحة، فأنا أنصحك بزيارتها اليوم. تعلمين أن قلبها يتألم من كل شيء. إنها مهتمة، الآن، إضافة إلى همومها الآخرى، بالمصالحة بين اوبلونسكي وزوجته.

كانت الكونتيسة ليديا ايفانوفنا صديقة لزوجها ومركزاً لحلقة من حلقات المجتمع في بطرسبرج التي كانت آنا ترتادها بسببه.

ــ لكنني كتبتُ إليها.

إنها تريد أن تطلع على جميع التفاصيل. اذهبي إليها، يا عزيزتي، إن لم تكوني مرهقة. سيأتيك «كادرات» بالعربة. وسأذهب أنا إلى المجلس.

وأضاف الكسي الكسندروفتش بلهجة جادة، هذه المرة:

ــ وأخيراً، لن أتعشى وحدي. لا تستطيعين أن تصدقي كم تعوّدتُ. .

وساعدها على صعود العربة، وعلى فمه ابتسامة خاصة، وهو يشدّ طويلاً على يدها.

[٣٢]

كان أول وجه شاهدته آنا لدى عودتها إلى البيت وجه ابنها. وقد هبط الدرج أربعاً فأربعاً، بالرغم من احتجاج مربيته، وهو يصرخ: «ماما! ماما!» في نوبة من الفرح الجنوني. وعندما أدرك أمَّه، تعلّق بعنقها.

وقال لمربيته صارخاً:

ــ لقد أكدّت لك أنها أمي. كنت واثقاً من ذلك.

لكن ابنها، شأنه شأن زوجها، أيقظ فيها إحساساً قريباً من الخيبة. تصوّرته أجمل ممّا هو في الواقع. وكان لا بدّ لها من النزول إلى الواقع لتستمتع به، كما هو في الواقع، ومع ذلك، فقد كان رائعاً، بشعره الأشقر الجعد، وبعينيه الزرقاوين، وبساقيه الصغيرتين المتماسكتين في جوربيهما المشدودين شداً عظيماً،

لقد سُرَّتْ سروراً يكاد يكون جسدياً، حين أحست بحضوره ومداعباته، وشعرت بسكينة نفسية حيت التقت نظرتَه المحبة، البريئة، الآمنة، وحين سمعت أسئلته الساذجة. وأخرجت آنا الهدايا التي أرسلها إليه أبناء دولي، ورويتْ لابنها أن في موسكو طفلة صغيرة اسمها «تاينا»، وأنها تعرف القراءة، بل أنها تعلّم إخوتها وأخواتها الصغار القراءة:

سألها سيريوجا:

ــ أأنا أقل لطفاً منها؟

ــ ليس عندي أنا، مَنْ هو ألطف منك، في العالم.

قال سيريوجا مبتسماً:

ــ أعلمُ ذلك.

لم تكد آنا تشرب قهوتها حتى أنبئت بوصول الكونتيسة ليديا. كانت الكونتيسة ليديا امرأة طويلة وقوية، لها وجه أصفر، عليل، وعينان سوداوان، جميلتان، حالمتان. كانت آنا تكنّ الحب لها، لكنْ خُيلَ إليها، في هذا اليوم، أنها ترى عيوبها لأول مرة.

سألتها الكونتيسة ليديا إيفانوفنا، فور دخولها الغرفة:

ــ حسناً! وهل حملت معك، يا عزيزتي، غصن السلام؟

فأجابت آنا:

ــ نعم. انتهى كل شيء. لكن الأمور لم تكن بالخطورة التي تصورناها. إن زوجة أخي تتسرع كثيراً في اتخاذ قراراتها.

لكن الكونتيسة ليديا ايفانوفنا التي كانت تهتم بما لا يعنيها. تعودت ألا تصغي إلى ما يعنيها: فقاطعت آنا:

ــ نعم، هناك الكثير من الأحزان والمصائب على الأرض. أحس أنني منهوكة القوى.

سألتها آنا، وهي تسعى جهدها لإخفاء ابتسامتها:

ـ ولم ذاك؟

ـ بدأت أتعب في الدفاع عن الحقيقة، وينتابني اليأس تماماً، في بعض الأحيان. إن عمل الأخوات الصغيرات (المقصود بذلك إحدى المؤسسات الإنسانية والوطنية ـ الدينية) بدأ بداية حسنة.

وأضافت الكونتيسة ليديا إيفانوفنا بلهجة الإذعان المتهكم:

ـ لكن، من المستحيل التعامل مع هؤلاء الرجال، لقد وضعوا أيديهم على مشروعي ليشوهوه، وإن لهم طرائق في النظر مسكينة جداً، وتافهة جداً! ليس هناك سوى شخصين أو ثلاثة، وزوجك من بينهم، يدركون أهمية هذا العمل، أما الآخرون فهمّهم أن يزروا عليه وينتقصوا منه، أمس، كتب إليّ «برافدين»...

كان برافدين من أنصار الجامعة السلافية المشهورين، وكان يعيش في الخارج، وروت الكونتيسة ليديا ايفانوفنا ما تحتويه رسالته.

ثم عدّدت المضايقات والمكائد التي يتعرض لها مشروع توحيد الكنائس، وعادت على عجل، لأن عليها أن تحضر، في هذا اليوم، جلسة إحدى الجمعيات، واجتماع اللجنة السلافية[١].

قالت آنا في نفسها:

«لكنها كانت كذلك من قبل، فلمَ لمْ ألاحظْ ذلك قبل الآن، أم لعلها في غاية العصبية اليوم؟ هذا مضحك، في الحقيقة: إن هدفها هو الحقيقة، وهي مسيحية، لكنها غضبى دائماً، ولها أعداؤها، وأعداؤها مسيحيون أيضاً، وليس لهم من هدف سوى الفضيلة».

---

(١) اجتماع اللجنة السلافية: كان الهدف الأول لجمعية البر السلافية، وهي جمعية أسسها في عام ١٨٥٨ الأستاذ بوغودين، مساعدة الطلاب السلاف الآتين إلى روسيا. وفي سنة ١٨٦٨ أنشىء فرع لها في بطرسبرج. وأثناء سنوات ما بين ١٨٧٤ ـ ١٨٧٧ دافع الفرعان عن قضية السلاف الجنوبيين الثائرين على الترك.

بعد الكونتيسة ليديا إيفانوفنا جاءت صديقة لها، هي زوجة موظف كبير، فروت لها ما في المدينة من هُراء، وانصرفت في الساعة الثالثة، بعد أن وعدت بالعودة إلى العشاء. كان الكسي الكسندروفتش في الوزارة.

فلما بقيت آنا وحدها، أنفقت الوقت الذي يفصلها عن العشاء، في حضور عشاء ابنها (كان يتعشّى وحده، وفي ترتيب متاعها، وفي قراءة البطاقات والرسائل التي تجمّعت على الطاولة، والردّ عليها.

اختفى كلياً اضطرابُها وإحساسها بالخجل غير المسوّغ اللذان أحست بهما أثناء السفر. ففي ظروف حياتها المعتادة ألْفتْ نفسها رابطة الجأش، بعيدة عن اللوم.

تذكرت بدهشة حالتها النفسية، يوم أمس. «وماذا جرى؟ لا شيء. تفوّه فرونسكي بحماقة من السهل علي أن أضع نهايةً لها، وأجبته بالجواب اللائق بـي. لا جدوى من إطلاع زوجي على ذلك، لو فعلتُ لعلّقت أهمية على ما ليس له أهمية». وتذكرت أنها أنبأت زوجها ذات يوم بما فاتحها به مرؤوسيه الشباب من بوح متستر، وأن زوجها أجابها بأن المرأة التي تخالط المجتمع يمكن أن تتعرض دائماً لمثل هذه الحوادث، لكنه يثق ثقةً تامة بلباقتها، ولن يسمح لنفسه أبداً أن ينساق وراء غَيْرةٍ مُذلةٍ لها وله. وقالت في نفسها: «لا داعي إذن للكلام على ذلك. وعلى كل حال، فالحمد لله أنْ ليس عندي ما أقوله».

[٣٣]

عاد الكسي الكسندروفتش من الوزارة في الساعة الرابعة، وكما يتفق له في الغالب، لم يجد الوقت الكافي للدخول إلى غرفة زوجته. فقصد إلى مكتبه لاستقبال المراجعين الذين كانوا ينتظرونه، ولتوقيع بعض الأوراق التي حملها رئيس مكتبه. وقد وصل للعشاء (كان يحضر عشاء آل كارينين دائماً ثلاثة أشخاص

أو أربعة): قريبةٌ مكتهلة لألكسي الكسندروفتش، وموظف كبير من موظفي الوزارة مع زوجته، وشاب أُوصيَ به الكسي الكسندروفتش. وأقبلت آنا إلى قاعة الاستقبال لاستقبالهم.

وفي الساعة الخامسة تماماً (ولم تكن ساعةُ الجدار البرونزوية التي هي من عهد بطرس الأول، قد دقت الدقّة الخامسة بعد)، دخل الكسي الكسندروفتش، بربطة بيضاء، وبلباس مزيّن بوسامين لأن عليه أن يخرج بعد العشاء مباشرة. كانت كل لحظة من لحظات كارينين مشغولةً ولها وجهتُها المحددة. ولكي يفلح في تعيين ما عليه أن يفعله، في يومه، حمل نفسه على ضرب من الدقة الصارمة. كان شعاره «بلا عجلة وبلا راحة». دخل قاعة الاستقبال. وحيّا الجميع، وجلس بسرعة وهو يبتسم لزوجته:

ــ نعم، لقد انتهت عزلتي، لا تستطيعين أن تصدقي كم يضايقني، (وشدّد على كلمة يضايقني) أن أتعشى وحدي.

أثناء العشاء، استعلمَ زوجتَه عما كان يجري في موسكو، وسألها عن أخبار ستيڤان اركادييڤتش بابتسامة ساخرة؛ لكن الحديث ظل عاماً، وتناول شؤون الخدمة ومجتمع بطرسبرج، وبعد العشاء، لبث نصف ساعة مع مدعوِّيه، وبعد أن شد على يد زوجته وهو يبتسم، انصرف ليحضر الجلسة.

لم تذهب آنا، في هذا اليوم، لا إلى منزل الأميرة «بيتسي تفيرسكوي» التي علمت بوصولها، فدعتها إلى قضاء العصر عندها، ولا إلى المسرح حيث حُجزت مقصورةٌ لها، في هذا اليوم. ولزمت البيت لأن الثوب الذي كانت تنوي ارتداءه لم يكن جاهزاً. ذلك أنها عندما استعرضت ما في خزانة ثيابها، بعد انصراف المدعوين، أصيبت بالخيبة. فقبل السفر إلى موسكو، كانت آنا، وهي تتقن فن انتقاء الملابس الأنيقة بالقليل من النفقة، قد عهدت إلى خياطتها بثلاثة ثياب لتحويلها. وكان المطلوب تصحيحها بحيث لا يعرفها أحد. فوجدت أن اثنين

منهما لم ينتهيا بعد، وأن الثالث لم يُحوَّل على الإطلاق، كما كانت تريد آنا. وجاءت الخياطةُ لتبرّر تصرفها، فزعمت أنه ألْيَقُ بها على هذا الشكل. لكن آنا ثارت بشدة حتى أنها خجلت من ذلك فيما بعد. ولكي تُهدّىء نفسها، مضت إلى غرفة ابنـهـا وقضت المساء كله معه. وأضجعته بنفسها ورسمت عليه إشارة الصليب وغطته. كانت مغتبطة لأنها لم تغادر البيت ولأنها قضت الأمسيةَ بسرور. أحست بنفسها خفيفة، مطمئنّة، ورأت بوضوح أن كل ما بدا لها في غاية الأهمية أثناء سفرها لم يكن سوى عارض تافه من عوارض الحياة الاجتماعية وأنها لم تأتِ ما يُخجل لا أمام نفسها ولا أمام أحد أياً كان. وجلست قرب المدفأة وانتظرت زوجهـا. وفي الساعة التاسعة والنصف بالضبط، سُمع قرعُ الجرس، ودخل الغرفة.

قالت له وهي تمد يدها:

ــ وأخيراً، جئتَ!

فقبل يدها وجلس بجانبها.

قال لها:

ــ على الإجمال، أرى أن رحلتك كُلّلت بالنجاح.

أجابت:

ــ نعم.

وأخذت تَرْوي له كلَّ شيء منذ البداية: رحلتها مع أم فرونسكي، وصول فرونسكي، حادث المحطة، ثم وصفت له شعور الشفقة الذي أحست به نحو أخيها أولاً، ثم نحو دولي.

قال الكسي الكسندروفتش بلهجة قاسية:

ــ لا أسلّم بجواز مسامحة مثل هذا الرجل، وإن يكن أخاك.

ابتسمت آنا. وأدركت أنه يقول هذا بالذات ليدلّل على أن الاعتبارات العائلية

لا تمنعه من أن يعبّر عن رأيه بصدق. وكانت تعرف هذه السمةَ في خلق زوجها وتكبرها.

وأضاف:

ــ أنا مسرور لأن كل شيء قد انتهى بسلام، ولأنك عدتِ. وماذا يقولون هناك عن النظام الجديد الذي أدْخلتهُ إلى المجلس؟

لم يقل أحدٌ لانا كلمةً عن ذلك النظام، وخجلت لأنها نسيت بسهولة ما كان عظيم الأهمية، بالنسبة إلى زوجها.

فقال بابتسامة راضية:

ــ أما هنا، فقد أثار ضجة كبيرة.

كانت ترى أن زوجها يريد أن يطلعها بهذا الصدد على بعض التفاصيل التي ترضي غروره، فساقته إلى ذلك بأسئلتها سوقاً. وبابتسامة الرضى نفسها. صوّر لها الترحيب الحار الذي لقيه، على أثر هذا التدبير الجديد.

ــ وقد سُررتُ بذلك كثيراً، كثيراً. فذلك يُظهر أن الناس أخذوا، في النهاية، يكوّنون لأنفسهم آراء ثابتة، حصيفة، حول هذه المسألة.

وبعد أن تناول كأساً ثانية من الشاي بالقشدة مع الخبز، نهض قاصداً مكتبه. وقال لزوجته:

ــ ألم تخرجي؟ لا بدّ أنك ضجرتِ؟

فأجابت وهي تنهض لترافقه إلى باب مكتبه:

ــ أوه! لا. ماذا تقرأ في هذا الوقت؟

فأجاب:

ــ «شعر الجحيم» للدوق دوليل[١]، وهو كتاب رفيع القيمة.

---

(١) «شعر الجحيم» للدوق دوليل: الكتاب والمؤلف خياليان من اختراع تولستوي، لكنهما قد يكونان تذكراً بعيداً لـ«النزول إلى الجحيم» الذي اقتبسه من فيرجيل، جاك دوليل =

ابتسمت آنا، كما تبتسم لمواطن الضعف في الذين نحبهم، وأخذت يده وقادته إلى باب مكتبه. كانت تعرف عادته التي أصبحت ضرورةً، وهي أن يعمد إلى المطالعة في المساء، وكانت تعلمُ أنه كان يرى فرضاً عليه، بالرغم من واجبات الخدمة التي تلتهم تقريباً كل وقته، أن يطّلع على كل ما يبدو جديراً بالاهتمام في المجالات الفكرية. كانت تعلم أيضاً أنه يهتم فعلاً بكتب السياسة والفلسفة والدين، وأنه، بطبيعته، غريب كلياً عن الفن، لكنه بالرغم من ذلك، أو على الأصح، بسبب ذلك لم يكن يهمل شيئاً له صداه البعيد في هذا الميدان، ويعتقد نفسَه ملزماً بقراءة كل شيء. كانت تعلم أنه يتشكك أو يبحث في مجال السياسة والفلسفة والدين؛ بينما كانت له في الفن والشعر، ولا سيما في الموسيقا التي كان عاجزاً عجزاً كاملاً عن فهمها، آراؤه الراسخة، القاطعة. كان يحبّ أن يتحدث عن شكسبير ورفائيل وبيتهوفن، وعن أهمية مدارس الشعر والموسيقا الحديثة التي يصنفها بمنطق عنيد.

قالت له عند باب مكتبه الذي نُصبت فيه كمة المصباح فوق الشمعة، ووُضع فيه إبريق الماء قرب المقعد:

ـــ هيا، ليباركك الله. أما أنا فسأكتب إلى موسكو.

فشد على يدها ولثمها مرة أخرى.

قالت آنا في نفسها وهي تعود إلى حجرتها، وكأنما كان عليها أن تدافع عنه في وجه من كان يتهمه ويقول لها: إن من المستحيل أن تحبه:

«إنه لرجل ممتاز مع ذلك: رجل مستقيم، كريم النفس، ومرموق في ميدانه. لكن لماذا برزت أذناه إلى هذا الحد؟ لعله قد قصّر شعر رأسه كثيراً».

في منتصف الليل بالضبط، كانت آنا ما تزال أمام منضدتها، تنهي رسالتها

= (١٧٣٨ ـــ ١٨١٣)، وقد يكون تلميحاً لـ «القصائد البربرية» (١٨٦٢)، لشارل ليكونت دوليل الذي يجانس اسمه في السمع: الكونت دي ليل.

إلى دولي، عندما تناهى وقعُ خطوات منتظمة ومخنوفة، ودخل إلى غرفتها الكسي الكسندروفتش، وفي قدميه خف، وقد اغتسل ورتّب شعره، وهو يحمل كتابه تحت ذراعه.

قال لها بابتسامة خاصة:

ــ حان الوقت، حان الوقت.

ودلف إلى غرفته.

حدثت آنا نفسها، وهي تتذكر النظرة التي ألقاها فرونسكي على الكسي الكسندروفتش: «بأي حقّ تفرَّس فيه، على هذا النحو؟»

عندما خلعت ثيابها، مضت إلى غرفته، لكن وجهَها فقد تلك الشعلة المتّقدة التي كانت تنبثق، في موسكو، من عينيها ومن ابتسامتها؛ أما الآن فقد بدت منطفئةً فيها، أو مختبئة في مكان ما، في مكان بعيد.

[٣٤]

منذ أن غادر فرونسكي بطرسبرج، ترك شقته في شارع مورسكايا لصديقه «بيتريتزكي» الذي كان يكنّ له محبة عظيمة.

كان بيتريتزكي ملازماً شاباً ليس فيه ما يلفت النظر، ولم يكن فقيراً فحسب، بل كان غارقاً في الدين حتى أذنيه؛ كان ثملاً دائماً في آخر النهار، وقد سيق كثيراً إلى مركز الشرطة بسبب مغامراته المضحكة والماجنة، لكن رفاقه ورؤساءه كانوا يحبونه كثيراً. وبينما كان فرونسكي يقترب، عند الظهر، من شقته التي توجه إليها مباشرة من المحطة، شاهد قرب درج المدخل عربةً لم تكن غريبةً عليه. وسمع، وهو أمام الباب، بعد قرع الجرس، صحكات رجل، وصوت امرأة، وصرخات بيتريتزكي: «إن كان الطارق أحد هؤلاء اللصوص، فلا تدعْه يدخل!». لم ينتظر فرونسكي الإذن ودخل بخطوات صامتة الغرفة الأولى. كانت البارونة «شيلتون» تفيض نضارةً بثوب الساتان الليلكي، وبوجهها الصغير المتورّد، وبخصل شعرها

الشقراء، وتثرثر كالعصفور بصوتها الباريسي النبرات. كانت تصنع القهوة، وهي جالسة أمام طاولة مدوّرة، وإلى جانبها جلس بيتريتزكي بمعطفه، والنقيب كاميروفسكي بلباسه الرسمي.

هتف بيتريتزكي وهو ينهض فجأة، ويرجع كرسيه بجلبة:

ــ ممتاز! هاهوذا فرونسكي! صاحب البيت بذاته! قدّمي له، يا بارونة، فنجان قهوة من الغلاّية الجديدة. ما كنا ننتظر قدومه في مثل هذا الوقت المبكّر!

وقال وهو يشير إلى البارونة:

ــ أرجو أن ترضى عن هذه الحلية التي ازدان بها مكتبُكَ. بينكما معرفة، أليس كذلك؟

قال فرونسكي وهو يبتسم ببهجة ويشد على يد البارونة الصغيرة:

ــ بلا شك! وكيف، ونحن صديقان قديمان!

قالت البارونة:

ــ أنت عائد من السفر، إني أستأذن. سأنصرف على الفور، إن كنت أضايقك.

قال فرونسكي:

ــ أنتِ في بيتك أينما كنت.

وأضاف وهو يشدّ ببرودة على يد كاميروفسكي:

ــ مرحباً.

قالت البارونة لبيتريتزكي:

ــ أرأيتَ، أنك لا تستطيع أن تقول مثل هذه الأشياء اللطيفة.

ــ بلى، ولم لا؟ بعد الغداء، أستطيع كغيري أن أقول كثيراً من الأشياء اللطيفة.

قالت البارونة وهي تعود إلى الجلوس وتدير بحذر صنبور الغلاية الجديدة:

ـ بعد الغداء، لا فضلَ لك! سأصبّ لك شيئاً من القهوة، اذهبْ واغتسلْ وبدّل ثيابك.

وقالت لبيتريتزكي التي كانت تدعوه «بطرس» بسبب اسم عائلته، دون أن تحاول إخفاء ما بينهما من علاقة:

ـ أعطني القهوة، يا بطرس. سأزيدها.

ـ ستفسدين القهوة.

ـ كلا! لن أُفسدها.

وقالت البارونة فجأة، وهي تقطع حديث فرونسكي مع صديقه:

ـ حسناً! وزوجتك! لقد زوجناك هنا. هل جئتَ بزوجتك؟

ـ لا، يا بارونة، وُلدت غجرياً، وسأموت غجرياً.

ـ هذا أفضل، هذا أفضل! أعطني يدك.

لم تترك البارونة فرونسكي، وروت له، بكثير من المزاح، خطط حياتها الجديدة، وسألته النصيحة:

ـ إنه يصرّ على رفض الطلاق! (ضمير الغائب يعني زوجها).

ماذا سيحل بـي؟ سأقيم عليه دعوى. بم تنصحني؟ انتبه، يا كاميروفسكي، إلى القهوة، فقد فارت؛ ألا ترى أني مستغرقة في قضايا هامة! سأقيم عليه دعوى، لأنني بحاجة إلى ثروتي.

وقالت بازدراء:

ـ هل رأيت مثل هذا الغباء؟ يريد أن يستولي على أموالي، بحجة أنني أخونه!

كان فرونسكي يصغي بانشراح إلى هذه الأحاديث المفرحة من امرأة جميلة: كان يوافقها على رأيها، ويزجي إليها بنصائح نصفها ساخرٌ، ولقد استعاد دفعة واحدةً تلك اللهجة التي يستخدمها عادةً مع هذا النوع من النساء. ففي عالمه، عالم بطرسبرج. كان الناس ينقسمون إلى فئتين متعارضتين بوضوح. كانت الفئة الأولى

مؤلفة من أناس باهتين، أغبياء، مضحكين، يعتقدون أن الزوج ينبغي أن يعيش فقط مع المرأة التي تزوجها، وأن الفتاة ينبغي أن تكون طاهرة، والمرأة محتشمة، والرجل شجاعاً، قنوعاً، قوياً، وأنّ على المرء أن يربّـي أولاده، ويكسب قوته، ويسدّد ديونه، إلى ما هنالك من ترهات. هذه الفئة من الناس فئة عتيقة ومضحكة. لكنّ هناك فئة أخرى من الناس، وهي الفئة التي ينتمون إليها جميعاً، وينبغي للمرء فيها أن يكون أنيقاً، كريماً، جريئاً، مرحاً، وأن يستسلم لأهوائه بلا خجل ولا حياء، وأن يستخفّ بما سوى ذلك.

لم يتبلبل فرونسكي سوى لحظة بعد الانطباعات التي حملها من موسكو عن عالم مختلف كل الاختلاف، لكنه سرعان ما انخرط في هذا المجتمع الخفيف والفَرِح الذي كان عالمه، كما يدسّ المرء قدميه في خفّه القديم.

أما القهوة فلم تنته وإنما أصابت برشاشها جميع الحاضرين، وفاضت من الغلاّية، وبلغت هدَفها المنشود: أي إنها كانت ذريعة للضجيج والضحك عندما سالت على السجادة الثمينة وعلى ثوب البارونة.

ــ والآن، وداعاً، وإلاّ لما استطعتَ أن تغتسل، ولبكّتني ضميري على أبشع الجرائم التي يمكن أن يرتكبها إنسان حسن التربية: وهي ألا يكون نظيفاً نظافة تامة. وإذن، فأنت تنصحني بأن أمسك بخناقه.

ــ تماماً، وبحيث تكون يدُك قريبةً من شفتيه. فسوف يلثمها وسوف تنتهي الأمور بسلام.

ــ طيب، إلى اللقاء، هذا المساء، في المسرح الفرنسي!

وتوارت وسط حفيف ثوبها.

ونهض كاميروفسكي بدوره، ودون أن ينتظر فرونسكي ذهابه، مدّ إليه يده واتجه إلى المغسلة. وبينما كان يغتسل، وصف له بيتريتزكي باقتضاب وضعه، وما جدّ فيه منذ سفر فرونسكي. فهو خال من المال. وقد قال له أبوه: إنه لن يعطيه

شيئاً ولن يسدّد ديونه. وأراد أحد خياطيه أن يودعه السجن، وهدّده خياط آخر أيضاً بتوقيفه. ونبّهه عقيده بأنه إذا لم يَنْتهِ عن فضائحه فيجب عليه أن يترك الجيش. وأرهقتْه البارونةُ إلى آخر الحدود، ولا سيما وهي تهبه المال في كل مناسبة! لكن هناك امرأة أخرى يريد أن يريها فرونسكي: تحفة من التحف، السحر الخلالُ في أسلوب شرقي صارم، «من نمط رفْقة الأمّة»، فهمتَ. واختصم أيضاً مع «بيركوشيف»، وأراد أن يبعث إليه بشهوده، لكن من المؤكد أن ذلك ما كان ينتج عنه شيءٌ. وعلى الإجمال، كان كل شيء يجري بشكل مُعجب ومفرح جداً. وأخذ بيتريتزكي يروي لصديقه جميع الأخبار الشائقة، دون أن يدع له الوقت الكافي ليتعمق في الوضع. لقد أحس فرونسكي، وهو يصغي إلى قصص بيتريتزكي المعتادة، في هذا الإطار الأهلي لشقته التي كان يسكنها منذ ثلاث سنوات، بذلك الإحساس العذب، إحساسه بأنه يعود إلى حياته العابثة في بطرسبرج.

هتف وهو يرخي دواسة المغسلة التي كانت تقذف بالماء على عنقه الغليظة والحمراء:

ــ غير ممكن!

وكرر هذه الكلمة حين علم أن لور هجرت فرنتكوف طلباً لِـ «ميليف».

ــ غير ممكن! أما يزال غبياً، راضياً عن نفسه كما كان؟ وبوزولوكوف، ماذا حلّ به؟

صاح بيتريتزكي:

ــ آه! وقعت له قصةٌ، شيءٌ رائع! أنت تعرف هواه: إنه الحفلات الراقصة. لا تفوته حفلةٌ راقصة من حفلات البلاط. كان قاصداً إلى إحدى الحفلات الكبرى وعلى رأسه القبعة الجديدة(١). أرأيت القبعات الجديدة. إنها مريحة، وخفيفة

(١) القبعة الجديدة: أدخل وزير الحرب من ١٨٦١ ــ ١٨٨١، ديمتري ميلوثين، إصلاحات نافعة إلى الجيش، خفف البزة وبسطها، مستبدلاً بالقلنسوة الثقيلة القبعة الفرنسية. وفي =

جداً. . . كان إذن هناك. . . لا، أصغِ!

أجاب فرونسكي وهو يفركُ يديه بمنشفةٍ ناعمة.

ــ أنا مصغٍ، أنا مصغٍ.

ــ مرت دوقة كبيرة مع سفير أجنبي، ولسوء حظه، تطرق الحديث إلى القبعات الجديدة. وأرادت الدوقة أن تريه واحدة منها. . . فرأت صاحبنا (قلّد بيتريتزكي زميله، وهو واقفٌ وقبعتُه على رأسه). وطلبت إليه أن يعطيها قبعته. . . فلم يتحرك. ما معنى ذلك؟ وأخذ الناس يغمزونه بعيونهم ويُومئون إليه برؤوسهم، فلم يتحرك، وكأنه ميت. تصوّرْ! عند ذاك اقترب منه فتى. . . لست أذكر اسمه. . . وأراد أن ينتزع قبعته. . . فلم يقبل! ثم إذ به ينزعها هو نفسه ويقدمها للدوقة. قالت الدوقة: «ها هي ذي القبعة الجديدة:. وتُقلّب الدوقةُ القبعةَ. . . فتخرج منها إجاصةٌ وسكاكر، ليبرتان من السكاكر!. . . لقد دس فيها صاحبنا مؤنته!

أغرب فرونسكي في ضحك صاخب. وظل يضحك بعد ذلك بزمن، وهما يتحدثان عن شيء آخر، كلما مرّت القبعة بباله، ضحكاً مُعافًى يكشف عن أسنانه القوية المرصوفة أحسن رصف.

بعد أن اطلع فرونسكي على جميع الأخبار، ارتدى بزته، بمساعدة خادمه، وذهب لزيارة رؤسائه. وكان ينوي أن يمرّ بعد ذلك على منزل أخيه، ومنزل بيتسي، وأن يقوم ببعض الزيارات حتى يتمكن من الدخول على عالم السيدة كارينين. لقد خرج من المنزل لكي لا يعود إلا في ساعة متأخرة من الليل، كعادته دائماً في بطرسبرج.

* * *

= ١٨٧٤ حلت الدائرة محل التجنيد العام وأنقصت الخدمة العسكرية من أربع عشرة سنة إلى أربع سنوات.

الجزء الثاني

[١]

في آخر الشتاء، جرت في منزل آل تشرباتزكي مشاورة طبية، للبت في حالة كيتي الصحية، وفيما يجب فعله لترميم قواها التي أوهاها المرض. كانت معتلّةً، ثم إن اقتراب الربيع فاقم من ألمها. وقد وصفَ لها طبيبُ الأسرة زيت كبد الحوت، ثم الحديد، ثم حجر جهنم. فلم يفلح أي من هذه الأدوية في تخفيف ألمها، وبما أنه أشار عليها بالسفر إلى الخارج، في نهاية الربيع، فقد استُدعي طبيبٌ ذائع الصيت للتشاور. طلب هذا الطبيبُ الذائع الصيت، وهو ما يزال شاباً مهيباً، فَحْصَ المريضة. وبدا كأنما يُلح بشيء من العجب الخاص على أن حياء الفتيات إنما هو بقية من البربرية، وأن من الطبيعي جداً أن يجسّ الطبيب الشاب فتاةً تعرّت من ملابسها. كان يجد ذلك طبيعياً، لأنه كان يمارسه كل يوم، ولا يرى فيه بأساً، وكان لا يعتبر حياء الفتيات بقية من البربرية فحسب، بل يعتبرها إهانة شخصية أيضاً.

كان لا بدَّ من الإذعان. فمع أن جميع الأطباء درسوا في المدرسة نفسها، وفي الكتب نفسها، وتزودوا بالعلم نفسه، ومع أن بعض الأشخاص زعموا أن هذا الطبيب، على شهرته، طبيب رديء، فقد كان من المسلّم به، في منزل الأميرة وفي حلقتها، أن هذا الطبيب الشهير هو وحده المزوّد بمعارف خاصة، وهو وحده القادر على إنقاذ كيتي. وبعد الفحص الدقيق والتسمّع على المريضة التي أضناها الخجل. غسل الطبيبُ الشهيرُ يديه بعناية، ولبث في قاعة الاستقبال ينتظر الأمير ليتحدث وإياه. كان الأمير يقطّب بين حاجبيه، ويسعل سعالاً خفيفاً وهو يصغي إلى الطبيب، فهذا الرجلُ الذي تقدمت به السنُ والذي أوتي حساً سليماً وصحةً

متينة، لم يكن يؤمن بالطب، وكان، في قرارة نفسه، ثائراً على هذه المهزلة، ولا سيما أنه كان وحده قادراً على فهم مرض كيتي. وحدّث نفسه قائلاً: «كلب آخر ينبح على القمر»، مطبقاً في فكره هذا المثل المأخوذ من لغة الصيادين، على الطبيب الشهير، وهو يُصغي إلى ثرثرته عن أعراض مرض ابنته. وكان الطبيب، في هذه الأثناء، لا يكاد يتمالك عن إبداء احتقاره لهذا النبيل الصغير، الطاعن في السن، وكان يتساهل بالنزول إلى مستواه، وأدرك أنه يضيع وقته سدى حين يحدّث هذا العجوز. وأن رب الأسرة الحقيقي هو الأم. فاحتفظ ببلاغته لها. في هذه اللحظة، دخلت الأميرةُ القاعة مع طبيب الأسرة. فابتعد الأمير وهو يبذل وسعه كي لا يُظهر مدى استخفافه بهذه المهزلة، وكانت الأميرة في ضيق شديد، لا تعرف ما تفعل، وكان تشعر أنها مذنبةٌ بحق كيتي.

قالت الأميرة:

ــ أخبرنا، يا دكتور، قرّرْ مصيرنا. قلْ لي كل شيء. ما رأيك؟

وأرادت أن تقول: «هل بقي لنا أمل؟» لكن شفتيها أخذتا ترتجفان، ولم تستطع أن تنطق بهذه الكلمات.

ــ سأبحث المسألة، على الفور، مع زميلي، وسأتشرف، بعد ذلك، بإبلاغكم رأيي.

ــ أأترككما وحيدين؟

ــ كما تشائين.

أرسلت الأميرة زفرة وخرجت.

عندما بقي الطبيبان وحدهما، أبدى طبيب الأسرة رأيه بوجل وهو أن هناك بداية سل، بيد أن. . .

كان الطبيب الشهير يصغي إليه، وفي وسط كلامه، تطلّع إلى ساعته الذهبية الضخمة، وقال:

ــ نعم، ولكن. . .

صمتَ طبيبُ العائلة باحترام، وهو في وسط عَرْضه.

ــ لا نستطيع، كما تعلم، تشخيص بداية السل، وما لم تظهر الكهوف الرئوية فليس هناك شيء مؤكد. بيد أنه من حقنا أن تكون لنا شكوكنا. وهناك دلائل واضحة: سوء التغذية، التهيجُ العصبي. . . الخ والمسألة المطروحة هي التالية: إذا اشتبهنا في السل فماذا ينبغي أن نفعل للحفاظ على التغذية الكافية؟

سمح طبيب العائلة لنفسه أن يلمحّ، وعلى فمه ابتسامة ماكرة:

ــ لكنك تعلم جيداً أن هناك أبداً أسباباً نفسية تكمن في خلفية هذا المرض.

أجاب الطبيب الشهير وهو ينظر إلى ساعته مرة أخرى:

ــ هذا غني عن القول.

وسأل:

ــ معذرة، لكن هل أصلح جسرَ «اياوزا»[1]، أم ينبغي أن ندور حول الطريق؟ آه! أُصلحَ. إذن. يمكن أن أصل في ظرف عشرين دقيقة. كنا نقول أن المسألة المطروحة هي التالية: تحسين التغذية وشفاء الأعصاب. وبما أنهما مترابطان فلا بد من أن نعمل على التأثير في نصفي الدائرة.

وسأله طبيبُ الأسرة:

ــ وما رأيك برحلة إلى الخارج.

ــ أنا عدوُ الرحلات إلى الخارج. أرجو أن تفهمني: إذا كان هنا بداية سل، وهو ما لا يمكننا معرفته، فالرحلة لن تخفف آلامها. ويجب أن نبحث عن وسيلة غير مؤذيةٍ لتحسين التغذية.

وعرض الطبيبُ الشهير خطته: المعالجة بالمياه المعدنية التي تمتاز قبل كل شيء بأنها غير مؤذية.

---

(١) «اياوزا»: رافد للموسكوفا، شرقي الكرملين.

أصغى إليه طبيبُ الأسرة حتى النهاية بانتباه مفعم بالاحترام، وقال: لكني احتجّ، من أجل سفرها إلى الخارج، بحجتين: تغيير العادات، والابتعاد عن الظروف المثيرة لبعض الذكريات. ثم إن الأم ترغب في ذلك.

ـ آه! في هذه الحالة، لا بأس؛ فلتذهبا. لكن على شرط ألا يُفاقم هؤلاء الدجالون الألمانَ من مرضها. . . يجب أن تتبع تعليماتنا. . . نعم، فلتذهبا.

وألقى نظرة أخيرة على ساعته.

ـ أوه! حان الوقت!

واتجه إلى الباب.

قال الطبيب الشهير للأميرة (روح المجاملة هي التي أملت عليه قوله) إن من الضروري أن يرى المريضةَ مرةً أخرى.

فقالت الأم بذعر:

ـ كيف؟ تريد أن تفحصها مرة أخرى!

أوه! لا أحتاج إلا إلى بعض التفاصيل، يا أميرة.

ـ أرجوك.

وذهبت الأم، برفقة الطبيب، إلى قاعة الاستقبال حيث وقفت كيتي في وسطها. كانت كيتي بَادِيةَ النحول، ملتهبةَ الوجه، وفي عينيها ضياءٌ غريب، هو بقيةُ الخجل الذي عراها. وعندما دخل الطبيب تضرّج وجهُها، وامتلأتْ عيناها بالدموع. بدا لها مرضها والعلاج المفروض عليها غباءً وسخفاً. بدا العلاج مضحكاً وكأنه محاولةٌ لجمع قطع إناء محطّم. كان قلبُها هو الذي تحطّم، وكانوا يعتقدون أنهم يشفونه بأقراصهم ومساحيقهم. لكنه كان من المستحيل عليها أن تُحزن أمها، ولا سيما أن هذه الأم كانت تحس بذنبها:

قال الطبيب الشهير:

ـ تفضلي بالجلوس، يا أميرة.

جلس وهو يبتسم قبالتها، وجسّ نبضها، وأخذ يلقي عليها من جديد أسئلة مُضجِرةً. فردت عليها، لكنها نهضت فجأةً وقد عيل صبرها:

ـ أعذرني، يا دكتور، لكني أؤكد لك أن كل ذلك لن يؤدي إلى نتيجة. لقد سألتني ثلاث مرات عن الشيء نفسه.

لم يتأثر الطبيبُ الشهير.

وقال للأميرة عندما خرجت كيتي: حساسية مرضية، على كل حال، لقد أنهيتُ. .

خاطب الأميرة كما لو كانت امرأة فذة الذكاء، فوصف لها وصفاً علمياً حالة ابنتها، وختم حديثه مشيراً إلى وجوب شرب تلك المياه التي ليس لها أي تأثير، وعندما سألتْه: «هل ينبغي أن نسافر إلى الخارج؟» استغرق الطبيب في التفكير، وكأن عليه أن يَفْصل في مسألةٍ دقيقة. وأخيراً نطق بحكمه: يمكنهما السفر، على ألا تثقا بالمشعوذين، وأن تتقيدا بتعليماته.

بعد انصراف الطبيب، بدا البيت وكأن حدثاً سعيداً قد وقع. عادت الأم إلى جانب ابنتها وقد هدأ روعُها، وتظاهرت كيتي بأنها استعادتْ مرحَها وبشاشتها، وكثيراً ما اتفق لها، في هذه الفترة، أن تصطنع المواقف.

قالت لأمها:

ـ في الحقيقة، إن صحتي جيدة، يا أمي.

وبذلك وسعها كي تظهر لها اهتمامها بهذا المشروع، فطفقت تتحدث عن أهبة السفر.

[٢]

بعد الطبيب، جاءت دولي. كانت تعلم أن المشاورات الطبية موعدها اليوم. ومع أنها لم تكدْ تنهضُ من نِفاسها (لقد وضعت طفلة صغيرة، في أواخر الشتاء)، وبالرغم من مشاغلها، إلا أنها تركت رضيعها وبنتاً من بناتها ألمّ بها المرضُ، لتستخبر عن مصير كيتي.

قالت وهي تدخلُ قاعة الاستقبال، دون أن تنزع قبعتها:

ــ ما أخباركم؟ يبدو الانشراحُ عليكم جميعاً؟ معنى ذلك أن الأمور بخير؟

حاولت أمها أن تروي لها ما قاله الطبيبُ، لكنْ، مع أن الطبيب أسهب في حديثه، بلغته المنتقاة، فقد تعذّر عليها أن تعيد ما قال: النقطة الوحيدة المهمة هي أنهم قرروا السفر إلى الخارج.

أفلتت من دولي زفرةٌ. ذلك أن أفضل صديقاتها، وهي أختها، ستتركها. ولم تكن حياتها بهيجة. فعلاقاتها مع ستيڤان اركادييڤتش. منذ المصالحة، كانت تبدو لها مُذلّةً. وأسفر اللِحام الذي لَحمتْه آنا عن هشاشته، وكانت وحدة الزوجين تنذر دائماً بالتحطم في الموضع نفسه. لم يكن لدى دولي شيءٌ محدد دقيق، لكن ستيڤان اركادييڤتش كان قلما يأتي إلى منزله، وكانت بحاجة مستمرة إلى المال، وكان الشكُ يعذّبها أبداً.

وكانت تنبذ ذلك الشكَّ خوفاً من آلام الغيرة التي عانتها. فالنوبة الأولى التي تغلّبتْ عليها لا يمكن أن تتكرر، واكتشاف خيانة جديدة ما كان يمكن له أن يترك فيها أثراً عنيفاً كالمرة الأولى. مثل هذا الاكتشاف سيحرمها فقط من عاداتها الزوجية؛ وأمعنت في خداعها نفسها محتقرةً زوجها، ومحتقرةً نفسها احتقاراً أكبر بسبب هذا الضعف. وفضلاً عن ذلك، فإن هموم أسرتها الكبيرة العدد لم تدع لها وقتاً للراحة: فتارةً يكون إرضاعُ الوليد ناقصاً، وتارة أخرى تغيب إحدى الممرضات، وفي بعض الأحيان يقع أحد الأولاد مريضاً، كما هي الحال الآن.

سألتها الأميرةُ:

كيف حال الأولاد.

ــ آه! إن متاعبنا كثيرة، يا أمي! فـ «ليلّي» «ألمّ بها مرض وأخشى أن يكون الحمى القرمزية. خرجتُ اليوم لمعرفة أخباركم. لأني لن أترك البيت إن صح توقعي. ليحفظنا الله من ذلك.

خرج الأميرُ العجوز من مكتبه أيضاً بعد ذهاب الطبيب. فقدّم خده لدولي، وتحدّث لحظات معها، ثم التفت إلى زوجته.

ــ ماذا قررتِ؟ هل أنت عازمة على السفر؟ وماذا تنوين أن تفعلي بي؟

قالت له زوجته:

ــ أعتقد أن من الأفضل لك أن تبقى، يا الكسندر.

ــ كما تشائين.

قالت كيتي:

ــ لِمَ لا يأتي أبـي معنا، يا أمي؟ ذلك أبْهجُ له ولنا؟

نهض الأميرُ العجوز وداعبَ بيده شعر كيتي. فرفعت رأسها، ونظرت إليها، وهي تبتسم بجهد. كان يُخيّل إليها دائماً أنه يفهمها أكثر من الآخرين، مع أنه لا يكلمها إلا نادراً. كانت هي ابنته الأثيرة: لأنها أصغر بناته، وكانت تشعر أن حبه لها يجعله أنفذ بصيرةً. وعندما التقت نظرتُها عينيْ أبيها الوادعتين، الزرقاوين، المحدّقتين فيها، بدا لها أنه كشف نفسها واطلع على جميع العواطف الشريرة التي تضطرب فيها، ورفعت نفسها إليه، وهي محمرة، منتظرةً قبلةً، لكنه اكتفى بأن شدّ شعرها شداً رفيقاً، وقال:

ــ ما أسخف هذه العقائص المستعارة! لا يستطيع المرءُ أن يصل إلى ابنته، فتراه يُداعب شعر امرأة مسكينة مشت إلى قبرها!

والتفت إلى ابنته الكبرى وقال لها:

ــ اخبريني، يا دولي؟ ماذا يفعل بطلُك؟

أجابت دولي وقد فهمتْ أن زوجها هو المقصود:

ــ لا شيء، يا أبـي.

ولم تتمالك من أن تضيف بابتسامة ساخرة:

ــ إنه دائماً خارج البيت، وأنا لا أكاد أراه.

ـ ألم يذهبْ بعد إلى الريف ليبيع غابته؟

ـ لا، وهو ما يزال ينوي الذهاب.

قال الأمير لزوجته وهو يجلس:

ـ صحيح؟ يجب أن أقوم أنا بهذه المهمة؟ نعم.

وخاطب صغيرته، كيتي قائلاً:

ـ اصغي، يا كيتي، يجب أن تقول لنفسك، ذات صباح، وأنت تستيقظين: «أنا معافاة، مبتهجة، وعلي أن أستأنف نزهاتي الصباحية مع والدي، في صبيحة جليدية». ما قولكِ؟

بدا ما قاله أبوها شديد السهولة، لكن كيتي اضطربت عند سماعها هذه الكلمات، وأحسَّتْ أنها لا تجد ما تقوله أو تفعله كالمذنب الذي أفحِم وأسقِط في يده: «إنه يعلم كل شيء، إنه يدرك كل شيء: وهو يريد أن يُفهمني بذلك أنه مهما تكن المذَلّة التي لحقتْني فيجب أن أتغلّب عليها». ولم تقوّ على الجواب. فتحتْ فمها وأجهشت فجأة بالبكاء وغادرت الغرفة على عجل.

قالت الأميرةُ موبخة زوجها:

ـ وهذا أيضاً فصلٌ من فصولك! لقد كنتَ دائماً. . .

وشرعت في حديث مليء باللوم.

استمع الأمير طويلاً إلى تأنيب امرأته، دون أن يفوه بكلمة، لكن وجهه كان يكفهّر شيئاً فشيئاً.

قالت الأميرة:

ـ إنها لجديرة بالرثاء، تلك المسكينة الصغيرة، إنها لجديرة بالرثاء. ألا تحس أنها تتألم من كل تلميحٍ إلى سبب حزنها. آه! ما أكثر ما ننخدع بالناس!.. لا أفهم كيف لا توجد قوانين تردعُ تلك المخلوقات التي بلغت خستُها وحقارتُها هذا الحد.

وأدرك الأمير ودولي أنها تقصد فرونسكي بكلامها.

قال الأمير وقد بدا عليه التجهم:

ــ آه! وددتُ لو لم تكن لي أذنان لسماع ذلك.

ونهض كأنه يريد الخروج، لكنه توقف عند عتبة الباب:

ــ هناك قوانين، يا عزيزتي، وبما أنك تستثيرينني فسأقول لك مَنْ المسؤول عن ذلك كله: أنتِ، وأنتِ وحدك. هناك قوانين تردع هؤلاء المتطرفين الصغار، ولقد كانت هذه القوانين موجودةً دائماً! نعم، ولو لم تقع أشياء ما كان ينبغي لها أن تقع لدعوتُه إلى المبارزة.

هذا الظريف المتأنق! وإن كنتُ عجوزاً! والآن، عالجيها، واستدعي جميع هؤلاء المشعوذين!

لا شك أن الأمير كان سيتابع كلامه بهذه اللهجة، لو لم تبادر الأميرةُ، كما تفعل دائماً في المواقف الحرجة، إلى الخضوع والندم.

همست، وهي تذرف الدموع الغزار وتدنو منه:

ــ الكسندر! الكسندر!

وما إن أخذت تبكي حتى هدأ الأمير أيضاً. وأقبل عليها قائلاً:

ــ كفى! كفى فالأمر قاس عليك أيضاً! ما العمل؟ وليست المصيبة كبيرة. الله رحيم... شكراً.

وقال الكلمة الأخيرة، وهو لا يعلم ما يقول، رداً على قبلة الأميرة الرطبة التي أحسَ بها على يده.

وغادر الأميرُ الغرفة.

عندما خرجت كيتي من قاعة الاستقبال، وهي تبكي، أحسّتْ دولي فوراً، بغريزة الأمومة، أن هذه القضية لا تحلها إلا امرأةٌ، فأعدّت نفسها للتدخل. نزعتْ قبعتها، وشمّرت ــ مجازياً ــ عن كُميّها، وانتظرت اللحظة المناسبة للعمل. وبينما

كانت أمها تهاجم أباها، بذلت وسعها لكبح جماح الأميرة، على قدر ما يسمح به بُرهاً لوالديها. وعندما انفجر الأمير، لاذت بالصمت. لقد أحسّتْ بالخجل عن أمها وبالحنان لأبيها الذي طغت طيبته على كل ما سواها. لكنها تهيأت، عندما خرج أبوها، للقيام بالشيء الأساسي: اللحاق بكيتي وتهدئتها.

ــ كنت أريد أن أقول لك ذلك، منذ زمن بعيد، يا أمي: أتعلمين أن ليفين كان ينوي أن يطلب يد كيتي، عندما جاء إلى هنا، في المرة الأخيرة؟

ــ ماذا تقولين؟ لست أفهم...

ــ ولعل كيتي رفضتْه؟ ألم تقلْ لك شيئاً؟

ــ لا، فهي لم تحدثني لا عن هذا ولا عن ذاك. إنها غزيزة النفس، لكني أعلم إن كل شيء أتى من هذا...

ــ لكن تصوري أنها لو رفضت ليفين... وما كانت لترفضه لولا الآخر. أنا متأكدة من ذلك... ثم إنها خُدعت، على أبشع وجه.

ارتعبت الأميرةُ عندما فكرت في المسؤولية التي تثقل كاهلها، فغضبتْ:

ــ آه! لستُ أفهم شيئاً من ذلك! الفتيات اليوم يركبن رؤوسهن ولا يقلن شيئاً لأمهاتهن، وبعد ذلك...

ــ أنا ذاهبة لألقاها، يا أمي.

أجابت الأم:

ــ اذهبي إليها، لست أمنعك من ذلك.

[٣]

عندما دخلت دولي حجرة كيتي، وهي حجرة رائعة، مغطاة بلون وردي، وفيها تحفٌ خزفيةٌ عتيقة، حجرة نضرة، وردية، بهجة، مثل كيتي نفسها قبل شهرين، تذكرت أنهما زينتا هذه الحجرة معاً في السنة الماضية، وأنهما كانتا

آنـذاك مبتهجتين وسعيدتين! تجمـدّ قلبهـا عندمـا شاهدت كيتي، جالسةً على كرسي منخفض قرب الباب، وعيناها محدّقتان في جـانب مـن السجادة. ألقت كيتي نـظـرة عجلى عـلى أختهـا، لكن تعبير وجهها البارد والقاسي قليلاً لم يختف.

قالت داريا الكسندروفنا، وهي تجلس بجنبها:

ـ سأضطر إلى لزوم البيت، ولن تستطيعي أن تأتي لزيارتها. وأود أن أحدّثك...

سألتها كيتي بشدة، وهي ترفع رأسها، وقد، بدا عليها الخوف:

ـ عمّ؟

ـ عن حزنك، طبعاً.

ـ لستُ حزينةً.

ـ كفّي عن ذلك، يا كيتي. وهل تصوَّرتِ أنني لستُ على علم بما جرى؟ إني أعلم كل شيء. وصدِّقيني أن ذلك كله قليل الأهمية جداً... لقد مررنا جميعاً بهذه التجربة.

كانت كيتي صامتة، لكن وجهها احتفظ بتعبيره القاسي.

واستأنفت داريا الكسندروفنا مفتتحةً الموضوع بصراحة:

ـ إنه لا يستحق أن تتألمي بسببه...

قالت كيتي بصوت متهدّج:

ـ لأنه احتقرني. لا تحدثيني عن ذلك. أرجوك، لا تحدِّثيني عن ذلك!

ـ لكنْ، مَنْ قال لك ذلك؟ لا أحد. أنا واثقة من أنه كان مغرماً بك وأنه ظل مغرماً، لكن...

فصرخت كيتي، وقد غضبت فجأة:

ـ ليس أبشع عندي من هذه التعازي!

وأعرضتْ عنها وهي تحمر وتدعك بأصابعها المحمومة حلقة زنارها. وكانت دولي تعرف عادة أختها في معالجة الأشياء بيديها عندما تستشيط؛ كانت تعلم أن كيتي قادرة، في هذه اللحظات، على أن تنسى نفسها فيند عنها كلامٌ كريهٌ، لا خير فيه؛ أرادت أن تهدّئها ولكن بعد فوات الأوان.

قالت كيتي على عجل:

ــ ماذا تريدين أن تُفهميني. أنني عشقتُ رجلاً لم أكن موجودة في عينيه، وأنني أموت من حبّي له؟ وأختي هي التي تقول لي ذلك، معتقدةً أنها تريني... عطفها! لا أريد هذه الشفقة ولا ذلك الرياء!

ــ أنتِ ظالمةٌ، يا كيتي!

ــ لِمَ تعذبينني؟

ــ على العكس، إني... إني أرى أنك متألمة...

لكن كيتي، في سورة غضبها، لم تكن تصغي إليها.

ــ ليس لي الحق في أن أحزن أو في أن أبحث عن العزاء، وأنا على درجة كبيرة من الإباء لا أسمح لنفسي معها أن أحب من لا يحبني.

أجابتها داريا الكسندروفنا وهي تمسك بيدها:

ــ لستُ أزعمُ أيضاً... لكنْ، قولي لي الحقيقة، قولي لي: هل كلّمك ليفين.

ــ عندما سمعت كيتي اسم ليفين، بدت كأنها فقدت سيطرتها على نفسها؛ فوثبت فجأة عن كرسيّها، ورمت أرضاً بحلقة زنارها، وحركت ذراعيها صارخة:

ــ لماذا تقحمين ليفين هنا؟ لست أفهم تلك الحاجة التي تدفعك إلى إزعاجي! قلتُ لك وأكرر ما قلته إنني أبية النفس، وأنني لن أفعل أبداً ما فعلته، أبداً؛ لن أعود أبداً إلى رجل خدعني وأحب امرأة أخرى! لست أفهم هذا الأمر! لعلك أنت تستطيعين ذلك، أما أنا فلا!

بعد أن قالت كيتي هذه الكلمات، تطلّعت إلى أختها، وعندما رأتها صامتةً، مطرقةً رأسها بصمت، جلست قرب الباب، بدلاً من أن تغادر الغرفة كما كانت تنوي، ودفنت وجهها في منديلها.

امتدَّ الصمتُ بضع دقائق. كانت دولي تفكر في نفسها. إن ذلّها الذي كانت تشعر به شعوراً شديداً، بدا لها الآن أشد إيلاماً، بعد أن ذكّرتها به أختُها. لم تكنْ تتوقع مثل هذا الخبث من أختها فحقدت عليها. لكنها سمعت فجأةً، حفيف ثوب، وصوت زفرات مخنوقة، وأحست بيدين تطوقان عنقها: كانت كيتي جاثيةً أمامها.

همست كيتي كالمذنبة:

ــ أيْ دولي العزيزة، إنني لتعِسة جداً، جداً.

ودفنتْ وجهها الحلو الذي غمرته الدموع في جبة داريا الكسندروفنا.

بعد أن بكتْ دولي وكيتي، تركتا الكلام عما كان يشغلهما، وتفاهمتا مع أنهما لم تتكلما إلا على أشياءَ تافهة، وكأن الدموع هي الزيت الضروري لسير العلاقات بين الشقيقتين سيراً حسناً. أدركتْ كيتي أن الكلمات التي لفظتها، في غضبها، بصدد خيانة زوج أختها ومذلّة هذه الأخت، قد أصابتا قلب المسكينة دولي في التصميم، وأن دولي صفحتْ عنها. وكانت دولي، من جهتها، تعلم كل ما تريد علمه: كانت واثقة من أن حدسها صادق وأن ذلك الحزن، حزن كيتي العضال، إنما يأتي، على وجه التحديد، من أن ليفين قد طلبها للزواج وأنها رفضته؛ لقد خَدَعَها فرونسكي، وكانت على وشك أن تحبّ ليفين وتكره فرونسكي. لم تفه كيتي بكلمة عن ذلك، واكتفت بالحديث عن حالتها النفسية.

وعندما هدأت قالت:

ــ لستُ حزينةً، على الإطلاق. لكن كل شيء يبدو لي الآن حقيراً، مُنفّراً، فظّاً، وأنا قبل كل شيء، أتفهمين. لا تستطيعين أن تتصوري أية أفكار قبيحة تراودني، في كل مناسبة.

فسألتها أختُها وهي تبتسم:

ـ ما الأفكار القبيحة التي قد تراودك؟

ـ أقبح الأفكار وأشدها فظاظة؛ لا أستطيع أن أصارحك بها. إنها ليست حزناً ولا مللاً، لكنها أسوأ من ذلك بكثير. فكان كل ما فيّ من جوانب خيِّرة اختفى ولم يبق إلا ما هو شر.

وعندما رأت الشك في عيني أختها، أرْدفتْ:

ـ كيف أشرح لك ذلك؟ أراد أبي أن يكلِّمني قبل قليل... ظننتُ أنه لا يفكِّر إلاَّ في رغبتي في الزواج. وإذا اصطحبتني أمي إلى الحفلة الراقصة، تصورتُ أنها لا تفعل ذلك إلا لتزوجني بأسرع ما يمكن، ولتتخلص مني. أنا أعلم أن ذلك غير صحيح. لكنني لا أستطيع أن أطرد هذه الخواطر. لا أستطيع أن أتحمَّل «الشبابَ الصالحين للزواج» كما يُقال. يُخيَّل إليَّ دائماً أنهم يقيسون أبعادي. كان الذهاب قديماً بثوب السهرة، إلى أي مكان، مصدرَ لذّة لي دون قصد سيء: كنت أُعْجبُ بنفسي، أما الآن فأنا أخجل، وأشعر بالضيق. ماذا تريدين أن أفعل؟ إن الطبيب... لقد...

توقفت كيتي؛ كانت تريد أن تستمر، أن تقول: إن ستيڤان أركادييڤتش أصبح كريهاً بالنسبة إليها، منذ ذلك التغيُّر الذي طرأ عليها، وأن منظره يثير في ذهنها أشد التصوُّرات فظاظة وأقلها لياقة.

قالت:

ـ نعم، كل شيء يبدو لي في أشد مظاهره ابتذالاً وحقارة. وهذا هو مرضي. وربما زال ذلك...

ـ لا تفكري فيه...

ـ لا أستطيع. وأنا لا أشعر بالراحة إلا في بيتك، مع الأولاد.

ـ من المؤسف أنك لا تستطيعين أن تأتي لتعيشي معي، في هذه الفترة.

ـ بلى، سآتي. لقد أُصبتُ بالحمى القرمزية، وسأقنع أمي.

أصرتَّ كيتي وذهبت لتقيم في بيتها أختها. واعتنت بأولاد أختها أثناء فترة الحمى القرمزية (المرض الذي ألمَّ بهم). وبفضل الأختين، نجا الأولاد من الخطر، لكن كيتي لم تتعاف. وأثناء الصوم الكبير، سافر آل تشرباتزكي إلى الخارج.

[٤]

ليس في مجتمع بطرسبرج المختار سوى حلقة واحدة: كل الناس فيها يعرفون بعضهم بعضاً، وكل واحد فيها يزور الآخر. لكنَّ لهذه الحلقة الواسعة فروعاً. وكان لآنا اركادييفا علاقات وثيقة بثلاثة أوساط مختلفة. كان الوسط الأول حلقةَ زوجها الرسمية، المؤلفة من زملائه ومرؤوسيه الذين كانت تجمعهم أو تفرقهم أشدُّ الظروف الاجتماعية تنوُّعاً وتقلُّباً. ولا تكاد تذكر آنا شعور الاحترام الشبيه بالاحترام الديني الذي أحست به في الأوقات الأولى نحو هؤلاء الأشخاص. أما الآن فهي تعرفهم جميعاً، كما يعرف الناس بعضهم بعضاً في مركز من مراكز النواحي؛ كانت تعرف مواطن عيبهم وهوسهم وضعفهم؛ وكانت على علم بالعلاقات التي يقيمونها بعضهم مع بعض، ومع المركز الأساسي؛ كما كانت على علم بما يشدّهم بعضهم إلى بعض، بما يجمعهم وبما يفرِّقهم؛ لكن هذه الحلقة من الناس الذين لم يكونوا يخوضون إلا في قضايا المصلحة العامة، لم تثر اهتمامها قط، بالرغم من نصائح الكونتيسة ليديا، وكانت تهرب منها.

أما الحلقة الثانية التي كانت ترتادها فهي الحلقة التي أتاحت لزوجها، الكسي الكسندروفتش، أن يبلغ منصبه. كان مركزها الكونتيسة ليديا ايفانوفنا، وكانت مجتمعاً من العجائز الورعات، البشعات، الفاضلات، ومن الرجال الطموحين، الأذكياء، المتعلِّمين. إن أحد الأذكياء ممن ينتمون إلى هذه الحلقة سماها: «ضمير

مجتمع بطرسبرج». كان الكسي الكسندروفتش شديد التعلُّق بهذه الجماعة، وقد اصطفت آنا منها، بما أوتيت من مهارة في التلاؤم مع ما يحيط بها، عدداً من الأصدقاء في الأوقات الأولى من إقامتها في بطرسبرج. لكن هذه الجماعة غدت لا تطاق الآن، بعد عودتها من موسكو. خُيِّل إليها أن جميع الناس في هذه الحلقة، وهي نفسها على رأسهم، قد تجمَّدوا في وضع واحد، واستشعرت فيها ضرباً من الضجر والضيق دفعها إلى الإقلال من زياراتها للكونتيسة ليديا.

أما الحلقة الثالثة التي وطَّدت آنا علاقاتها بها فكانت ــ بحصر المعنى ــ ذلك العالم الراقي: عالم الحفلات الراقصة، والولائم، والزينة الباذخة، عالم يستند بيدٍ إلى البلاط، لكي لا يقع في عالم الغانيات المشبوه الذي يعتقد أنه يحتقره، وإن كانت ميولهما ليست متشابهة فحسب، بل وواحدة أيضاً. وكانت آنا ترتبط بهذه الحلقة عن طريق الأميرة «بيتسي»[1] زوجة أحد أقربائها، التي بلغ دخلها مائة وعشرين ألف روبل، والتي أحبت آنا، منذ ظهورها في هذا العالم، حبّاً خاصاً، وغمرتها بعنايتها واجتذبتها إلى حلقتها، هازئةً بحلقة الكونتيسة ليديا ايفانوفنا.

كانت تقول:

ــ إذا كبرتُ وصرتُ دميمة الشكل، فعلت مثلها، لكن امرأة شابة وجميلة مثلك لا ينبغي أن تحبس نفسها في مأوى العجزة ذاك.

كانت «آنا» تزور، في البدء، وَسَطَ الأميرة «تغيرسكوي» قدر المستطاع، لأن هذا الوسَط كان يتطلب نفقات فوق طاقتها، وكانت تُفضل، في قرارة نفسها، حلقة علاقاتها الأولى؛ لكنها انقلبت إلى عكس ذلك، بعد رحلتها إلى موسكو. أخذت تهرب من أصدقائها الفاضلين وخرجت إلى ذلك العالم المُترف. وهناك التقت «فرونسكي» وأحسَّت بفرح ممزوج بالاضطراب. كانت تلتقيه، على الأغلب، في منزل الأميرة تغير سكوي، وهي من عائلة فرونسكي بالولادة، وابنة عم الكسي

(١) الأميرة «بيتسي»: الصيغة الإنكليزية لاسم: «أليصابات».

كيريلوفتش. كان يقصد دائماً إلى حيث يسعفه حظه في لقائها، فيحدّثها عن حبّه لها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. لم تكن تمنحه الذريعة للكلام على حبه، لكنها كلما لقيته أحست بشعور من الامتلاء يلهب نفسها، وهو نفس الشعور الذي تملّكها في أول مرة رأته فيها، في الحافلة. كانت تحس، عندما تشاهده، أن الفرح يشع في عينيها، ويجبر شفتيها على الافترار، ولم تكن تقوى على كتمان أمارات هذا الفرح.

في بداية الأمر، اعتقدت آنا بصدق أنها مستاءةٌ من سماحه لنفسه بمتابعتها؛ لكنها، بعد عودتها من موسكو بقليل، وبعد وصولها إلى سهرةٍ لم تجدْه فيها وكانت تظنّه موجوداً، أدركتْ بوضوح، من الحزن الي اعتراها، أنها تخدع نفسها، وأن مواظبته لا ترضيها فحسب، بل تحتوي أيضاً على مباهج وجودها كلها.

كانت تغني في مسرح بطرسبرج مغنية شهيرة للمرة الثانية، وكانت الطبقة الراقية كلها في المسرح. وعندما شاهد فرونسكي ابنة عمه، لم ينتظر الاستراحةَ وترك مقعده في الصف الأول ليلقاها في مقصورتها.

قالت له:

ــ ما لك؟ لِمَ لَم تأتِ إلى العشاء؟

وأضافت مبتسمةً بحيث لا يسمعها أحد سواه:

ــ إن لقاء العاشقين الثاني لهو مدهش حقاً. و «هي» لم تكن هنا. لكن تعال بعد الأوبرا.

نظر إليها فرونسكي نظرة مستفهمة. فحنت رأسها. شكرها بابتسامة وجلس بجانبها.

وأردفت الأميرة «بيتسي»، وكانت تجد لذة خاصة في تتبّع نمو هذه العاطفة:

ــ آه! إني لأذكر سخريتك! انظر إلى أين أوصلتْك! لقد وقعتَ في الشرك، يا عزيزي.

فأجابها فرونسكي ببسمته الوادعة، الهادئة:

ــ لست أتمنى سوى شيء واحد هو أن أقع في الشرك. وإذا كنتُ أشكو شيئاً، في الحقيقة، فذلك أنني لم أقع وقوعاً كافياً. لقد بدأ اليأسُ ينتابني.

قالت «بيتسي» وكأنما اغتاظت لصديقتها:

ــ ما الذي يمكنك أن تأمله؟ دعْنا نتفاهمْ...

ولمعت في عينيها شعلٌ صغيرة تقول إنها فهمت، مثله، ما الأمل الذي يحرِّكه.

قال فرونسكي وهو يضحك ويكشف عن أسنانه المرصوفة:

ــ لا شيء.

وأضاف وهو يتناول المنظار من يدي قريبته لينظر من فوق كتفها العارية إلى صف المقاصير المقابل:

ــ أخشى أن أغدو مثاراً للضحك.

وكان يعلم جيداً أنه لن يتعرض لذلك، لا في نظر بيتسي ولا في نظر الناس من مجتمعها. كان يعلم جيداً أن دور العاشق الذي ترفضه فتاةٌ أو امرأة غير متزوجة يمكن أن يكون مثاراً للضحك، في نظر هؤلاء الناس؛ أما دور الرجل الذي يغازل امرأة متزوجة ويبذل وسعه لإغوائها، هذا الدور ينطوي على ما هو جميل وعظيم ولا يمكن أن يكون موضوعاً للاستهزاء؛ ولذلك أَنْزَلَ المنظارَ ونظر إلى قريبته، وقد تراقصت، تحت شاربيه، ابتسامةُ الاعتزاز والفرح.

قالت له وهي ترميه بنظرة معجبة:

ــ لِمَ لَمْ تأتِ إلى العشاء؟

ــ يجب أن أروي لكِ ذلك. كنتُ مشغولاً، وبماذا؟ أراهنك أنك لن تحزري أبداً. أصلحتُ بين زوجٍ ورجل أهان امرأته! نعم، الأمر كما قلتُ لك!

ــ وهل وُفِّقتَ؟

ـ تقريباً.

قالت وهي تنهض:

ـ يجب أن تروي لي ذلك. تعال في الاستراحة القادمة.

ـ لا أستطيع: سوف أذهب إلى المسرح الفرنسي.

ـ فسألته بيتسي بذعر، مع أنها عاجزة عن التمييز بين نلسون[1] وأية مغنية في جوقة:

ـ بعد نيسلون؟

ـ وما العمل؟ لقد ضربت موعداً فيه من أجل قضية المصالحة.

قالت بيتسي وقد تذكَّرت أنهاسمعت شيئاً مشابهاً:

ـ طوبى لصانعي السلام فإنهم ينجون. اجلسْ إذن، وارْوِ لي موضوعَ المصالحة.

ـ وعادت إلى الجلوس.

[٥]

قال فرونسكي، وهو ينظر إليها بعينين ضاحكتين:

ـ إنها قصة خليعةٌ، لكنها رائعة جداً، وأنا أشتهي كثيراً أن أرويها لك. ولن أصرِّح بالأسماء.

ـ لكني سأحزرها، وهذا أفضل.

ـ اصغي إذن: شابان مرحان جداً...

ـ تعني ضابطين من فوجك، ولا شك؟

ـ لم أقل إنهما ضابطان، بل قلت فقط إنهما شابان تناولا غداءً شهياً.

---

(١) نيلسون: المغنية السويدية كريستيان نيلسون (١٨٤٣ ـ ١٩٢١) التي كانت تُغنِّي منذ ١٨٦٨ في باريس وفي جميع عواصم أوروبا.

ـ أي أن الخمر أخذت منهما.

ـ ربما. كانا ذاهبين إلى العشاء في منزل أحد رفاقهما، وهما مبتهجان. فرأيا امرأة جميلة تسبقهما في عربتها، وتلتفت، أو على الأقلّ، هذا ما اعتقدا أنهما رأياه، وتومىء إليهما برأسها. ولشدّ ما كانت دهشتهما عندما شاهدا الجميلة تقف أمام المنزل الذي يقصدانه، وتصعد إلى الطابق العلوي. لم يريا سوى شفتين غضّتين من خلال غلالتها، وقدمين صغيرتين رائعتين.

ـ إنك تروي ذلك بكثير من البلاغة يخيَّل إلي معها أنك أحد هذين الشابين.

ـ ماذا قلت لي قبل قليلٍ؟ إذن، صعد الشابُ إلى منزل رفيقهما الذي كان يقيم عشاءَ الوداع. وهناك شرباً ولعلهما أفرطا في الشراب، كما هي الحال في حفلات الوداع. وأثناء العشاء سألا عمن يسكن الطابق الأعلى. فلم يعلم أحد سوى خادم رفيقهما الذي أجاب، عندما سألاه إن كان هناك «آنسات» يسكن الطابق العلوي، إن فيه الكثيرات منهن. وبعد العشاء، يذهب الشابان إلى مكتب صاحب المنزل ويكتبان رسالةً إلى المجهولة: رسالة مشبوبة العاطفة، مليئة بالاحتجاج. ويحملانها بنفسيهما إلى الطابق العلوي، لكي يشرحا ما قد يبدو قليل الوضوح في الرسالة.

ـ لِمَ تروي لي مثل هذه المخازي؟ وبعد ذلك؟

ـ ويدقان الجرس. فتخرج الخادمة: ويعطيانها الرسالة ويعلنان لها أنهما عاشقان كلاهما وأنهما مستعدان للموت على عتبة الباب. وتجادلهما الخادمة وهي منذهلة. وفجأة يطلع سيد له سالفان حلزونيان، أحمر كالسرطان، ويخبرهما أنه ليس في المنزل سوى امرأته، ويطردهما.

ـ وكيف عرفت أن له سالفين، كيف قلتَ، حلزونيين؟

ـ اصغي إلي. لقد ذهبت اليوم لأصلح بينهما.

ـ وماذا جرى؟

ــ هنا أطرفُ ما في الأمر. تبيَّن أن هذين الزوجين السعيدين هما مستشار مثبّت[1] ومستشارة مثبّتة. وقد تقدم المستشار بشكوى وكنت أنا الوسيط، وأي وسيط!... أؤكد لك أن تاليران ليس شيئاً بجنبـي!

ــ وأين كانت الصعوبة؟

ــ سترين... اعتذرنا له كما يليق: «نحن آسفون أشد الأسف، نرجوك أن تصفح عن هذه الغلطة المزعجة...» وبدأ المستشارُ ذو السالفين الحلزونيين يرقّ، وأراد أن يعبّر عن عواطفه، لكنه ما إن بدأ بالتعبير عنها حتى استشاط وأقذع في كلامه، عند ذاك استخدمتُ جميع مواهبـي الدبلوماسية: «أنا أعترف بأن سلوكهما كان مؤسفاً، لكني أرجو أن تأخذ بعين الاعتبار غلطهما وشبابهما، كان هذا الشابان قد تغذيا، أنتَ تُدرك ذلك. وهما نادمان من أعماق قلبيهما ويطالبان الصفح عن خطيئتهما» فهدأ المستشار: «قبلتُ، يا كونت، وأنا مستعد للصفح، لكن اعلم أن زوجتي، زوجتي، المرأة الشريفة، تعرّضت لملاحقات وفظاظات ووقاحات من هذين الولدين الفاسدين، الذنيئـ... ــ» وكان الوالدان حاضرين، فكان لا بد لي من تهدئتهما. فأستخدم دبلوماسيتي مرة أخرى. وتوشك القضية على الانتهاء لكن مستشارنا يصاب بغضب مفاجىء ويشتدّ احمراره ويقف شعر سالفيه الحلزونيين، فأستفيض من جديد في ملاطفاتي الدبلوماسية.

قالت الكونتيسة بيتسي وهي تضحك، لسيدة دخلت مقصورتها:

ــ آه! يجب أن أقص عليك ذلك! لقد أمتعني كثيراً...

وأضافت وهي تمدّ لفرونسكي إصبعاً ابقته المروحةُ طليقاً، وتمنع صدارها من الارتفاع بحركة من كتفيها، وذلك لكي تظل عارية الكتفين والصدر تماماً، كما يليق بها، عندما تعود إلى الجلوس في مقدمة مقصورتها، تحت نور الغاز، وعلى مرأى من الجميع:

(١) المستشار المثبت: لقب موظف من الدرجة التاسعة، ومن مرتبة جد متواضعة.

ـــ هيا، أتمنى لكَ حظاً سعيداً.

ذهب فرونسكي إلى المسرح الفرنسي ليقابل بالفعل قائد فوجه الذي لم يكن يفوته أيٌّ عرض، وليحدّثه عن مشروع المصالحة الذي كان يشغله ويسلّيه منذ يومين. أما فارسا هذه القضية فكانا بيتريتزكي والأمير الشاب كيدروف، وهو فتى ساحر دخل الفوج حديثا، والأهم أن مصالح الفوج أصبحت مستهدفة. كانا كلاهما من كوكبة فرونسكي، وقد جاء المستشار «وندن» يشكو إلى قائد هذين الضابطين اللذين أهانا امرأته. كانت امرأته الشابة، على ما روى وندن، (لم يتزوج إلاَّ منذ ستة أشهر) في الكنيسة مع أمها، فأحست فجأة بتوعك راجع إلى حالة الحمل، ولم تستطع البقاء واقفةً، فاستقلت أول عربة صادفتها لتعود إلى منزلها، . فاندفع هؤلاء الضباط حينئذٍ في ملاحقتها، وخافت، وشعرت بتوعكها يزداد، فصعدت الدرج أربعاً فأربعاً. وسمع «وندن» نفسه، وكان عائداً من مكتبه، رنين الجرس وأصواتاً أخرى. فخرج، وعندما شاهد ضابطين ثملين يحملان رسالة طردهما.

قال القائد لفرونسكي بعد أن استدعاه:

ـــ لا، مهما تقلْ فإن بيتريتزكي غداً لا يُطاق. لا يمرّ أسبوع إلاّ سبّب لنفسه قصة. لن يظلّ هذا الموظف هنا. .

كان فرونسكي يرى الجانب المزعج في القضية، وبما أن المبارزة لم تكن واردةً في هذه المناسبة، فلم يكن بدٌّ من استخدام الوسائل كافة لتهدئة هذا المستشار ولدفن الحادثة، لقد استدعى القائد فرونسكي لأنه يعتبره رجلاً نبيهاً، حريصاً على شرف الفوج. فتباحثا فترة وقررا أن يذهب بيتريتزكي وكيدروف مع فرونسكي ليعتذرا إلى المستشار. وكان القائد وفرونسكي يدركان كلاهما أن اسم فرونسكي وأشرطة المرافق العسكري لجلالته سيكون لها أثرٌ مهدّىء في المستشار. وقد أسفرت هاتان الوسيلتان بالفعل، عن أنهما ناجعتان جزئياً، لكن نتيجة المصالحة ظلت غير مؤكّدة، كما قال فرونسكي.

عندما وصل فرونسكي إلى المسرح الفرنسي، دعا القائد إلى صالة الاستراحة وأطلعه على نجاح مهمته أو بالأحرى على عدم نجاحها، وبعد أن فكّر القائد، قرّر عدم متابعة القضية، ثم سأل فرونسكي، طلباً للاستمتاع، عن تفاصيل المقابلة، ولم يملك نفسه من الضحك زمناً طويلاً، وهو يستمع إلى حكايته.

وسأله من جديد وهو يضحك:

ـ إنها قصةٌ حقيرة، لكنها تُميت من الضحك. وكيدروف لا يستطيع، مع ذلك أن يقاتل هذا السيد! وهل استشاط إلى هذا الحد؟.

وأردف قائلاً عن الممثلة الفرنسية الجديدة:

ـ كيف وجدت «كلير» هذا المساء؟ أعجوبة! مهما ترها تجدْ أنها تتجدد كل يوم. الفرنسيون وحدهم قادرون على ذلك.

[٦]

غادرت الأميرة «بيتسي» المسرح، دون أن تنتظر الفصل الأخير. ولم تكد تدخل حجرة زينتها، وترش وجهها الطويل، الشاحب بالمسحوق وتصلح من وضع ثوبها، وتطلب الشاي إلى قاعة الاستقبال الكبرى، حتى كانت العربات قد اصطفت الواحدة بعد الأخرى أمام مسكنها الواسع في شارع مورسكايا الكبير. كان المدعوون يصعدون درج المدخل وكان الحاجب الضخم الذي قضى الصباح يقرأ الجرائد خلف الباب الزجاجي، لتنوير المارة، هو الذي يفتح الباب الكبير ليدع الزائرين يمرون أمامه.

دخلت ربةُ المنزل، وقد طرَّتْ وجهها وأصلحت زينتها، مع مدعويها، في الوقت نفسه تقريباً، من أبواب مختلفة، قاعة الاستقبال الكبيرة بجدرانها المعتمة وسجادها الناعم، وطاولتها التي أضاءتها الأنوار المتلألئة فالتمع، تحت شعل الشموع، بياضُ الغطاء، وفضةُ السماور، وخزف طقم الشاي الشفاف.

جلست ربةُ الدار خلف السماور ونزعت قفازيها. توزعت الجماعةُ، بعد أن أخّرت الكراسي بمساعدة خدم صامتين، وانقسمت إلى فريقين:

قرب السماور مع ربة الدار، وفي الطرف الآخر من القاعة، حول المرأة الجميلة، وهي زوجة أحد السفراء، بثوبها المخملي، وبحاجبيها الأسودين المرسومين بدقة، تعثّر الحديث أول الأمر، هنا وهناك، كما يقع في اللحظات الأولى، وتقطّع بسبب وصول الزائرين، والمجاملات، وتقديم الشاي، وبدا كأنما يبحث عن موضوع يستقرّ عليه.

أحدُ الدبلوماسيين، في حلقة زوجة السفير، قال:

ــ إنها نادرة المثال، كممثلة، ومن الواضح أنها درست «كولباخ[1]» هل لاحظتم كيف وقعتْ...:

فردّت سيدةٌ ضخمة شقراء، حمراء اللون، بلا حاجبين ولا عقيصة، ترتدي ثوباً من الحرير الباهت.

ــ آه! من فضلكم، اعفونا من الكلام على «نيلسون»، فليس من جديد يقال حولها. لقد قال لي ثلاثة أشخاص، في هذا اليوم، الجملة نفسها بصدد كولباخ، فكأنهم قد اتفقوا على ذلك. ولست أدري لماذا كانت هذه الجملة كأنما تسحرهم.

كانت هذه السيدة هي الأميرة مياغكوي، المعروفة ببساطتها، وبخشونة أحاديثها، والملقّبة: «الولد الرهيب».

وكانت جالسةً بين الفريقين، تصيخ السمع، وتشارك في حديث هذا الفريق تارة، وفي حديث ذاك تارة أخرى.

انقطع الحديث بسبب هذه الفكرة وكان لا بد من العثور على موضوع جديد.

قالت امرأةُ السفير التي كانت تملك فن الحديث المنتقى الذي يسمى حرفياً

---

(١) كولباخ: رسام إلماني (١٨٠٥ ــ ١٧٤٧)، صاحب لوحات وصور فخمة، وكان شهيراً في عصره.

في الإنكليزية «الحديث الصغير»، وكانت تخاطب الدبلوماسي الذي لم يكن هو أيضاً يعلم من أين يبدأ:

ــ حدثنا حديثاً مسلياً، على ألا يكون خبيثاً.

وأضاف بابتسامة:

ــ يقال إن ذلك صعبٌ جداً، وأن الخبث وحده مضحكٌ. لكني سأحاول. إطرحي علي موضوعاً، كلُّ شيء يكمن هنا. عندما يُطرح الموضوع فمن اليسير توسيعه وبسطه. وإني لأقول في نفسي أحياناً إن المحدثين المشهورين في القرن الماضي سيُحرجون حرجاً عظيماً الآن لو تحدثوا ببراعة، فكل ما ينم على البراعة مملّ جداً...

فقاطعته زوجة السفير وهي تضحك:

ــ لقد قيل ذلك منذ زمن بعيد.

بدأ الحديث ممتعاً، لكن لأنه كان مفرط الإمتاع بالذات توقّف مرة أخرى. وكان لا بد من اللجوء إلى وسيلة موثوقة، لا تخطىء: الغيبة.

قال وهو يشير برأسه إلى شاب جميل، أشقر، يقف قرب الطاولة:

ــ ألا ترون أن في توشكييڤتش شيئاً من عصر لويس الخامس عشر.

ــ أوه! بلى إنه من طراز قاعة الاستقبال، ولذلك يُكثر من مجيئه إلى هنا.

استمرّ الحديثُ هذه المرة، لأن الكلام فيه كان تلميحاً إلى ما لا يمكن قوله في هذه القاعة: إلى علاقات توشكييڤتش بربة الدار.

أما الحديث، في هذه الأثناء، حول السماور والأميرة بيتسي، فبعد أن تردّد أيضاً بين ثلاث موضوعات محتومة: خبر اليوم، المسرح، ونقد القريب، استقرّ على الموضوع الأخير أي. على الغيبة.

ــ أتعلمون أن السيدة «ماليتثييف» (الأم لا البنت) ستوصي على طقم وردي.

ـ غير ممكن؟ لا، هذا رائع!

ـ يدهشني أنها لم تفطن، مع مالها من فطنة، لأنها ليست غبية، إلى أنها تضحك الناس عليها، وشارك كلُ واحد من الحاضرين بكلمة يلوم فيها المسكينة، ماليتشتييف ويسخر منها وأخذ الحديث يتفجّر بفرح، مثل الثار التي بدأت تلتهب أما زوج الأميرة بيتسي، وهو رجلٌ ضخم، طيب القلب، مولع بجمع الصور، فبعد أن علم أن عند زوجته ضيوفاً، مرّ بالقاعة قبل أن يتوجّه إلى ناديه، واقترب من الأميرة مياغكوي بخطوات صامتة، على السجادة السميكة. وقال لها:

ـ كيف وجدتِ نيلسون؟

فأجابت:

ـ آه! كيف يجوز تخويفُ الناس هكذا! لمْ أسمعْك! لا تحدثني عن الأوبرا، أرجوك، فأنت لا تفقه شيئاً من الموسيقا. وأنا أفضّل أن أنزل إليك لأحدثك عن خزفك وصورك فما الكنز الذي وجدته حديثاً في متاجر الأمتعة القديمة؟

ـ أتريدين أن أريك إياها؟ لكنك لا تفهمين شيئاً فيها.

ـ أرنيها. لقد تدرّبت لدى هؤلاء... كيف تدعوهم... أصحاب المصارف... إن لديهم صوراً جميلة جداً أروني إياها.

سألتها ربة الدار:

ـ كيف، ذهبت إلى منزل آل شوتزبرغ؟

قالت الأميرة مياغكوي بصوتٍ عالٍ، حين أحست أن الجميع يصغون إليها:

ـ نعم، يا عزيزتي. لقد دَعُونا إلى العشاء، زوجي وأنا، وقيل لي: إن نوعاً من الحساء كلّفه ألف روبل. لكن هذا الحساء كان كريهاً، فقد كان فيه شيء أخضر. وكان لا بدّ لي من أن أردّ على المجاملة بمثلها، فعلمتُ لهم حساء بخمسة وثمانين كوبيكاً، سُحروا به. وأنا لا أستطيع أن أضع ألف روبل في حساء.

قالت ربة الدار:

ـ إنها فريدة من نوعها!

وقال آخر:

ـ مدهشة!

كان الأثر الذي يحدثه كلامُ الأميرة مياغكوي واحداً، في كل الأحوال، وكان سرها يكمن في أنها تقول أشياء بسيطة لها معنى، وإن لم تدعُ إليها المناسبة دائماً، كما هي الحال الآن، كانت أحاديثها تفعل فعل المزاح الظريف، في المجتمع الذي تحيا فيه، لم تكن الأميرة مياغكوي تدرك لماذا أحرزت مثل هذا النجاح، لكنها كانت تعلم مدى نجاحها، وكانت تَسْتَغل ذلك.

استمع الناس جميعاً إلى الأميرة مياغكوي أثناء كلامها، وتوقّف الحديث حول زوجة السفير، وأرادت ربة الدار حينئذ أن تجمع الحاضرين كلهم، فكلّمت زوجة السفير.

ـ ألا تريدون، حقاً، أن تتناولوا الشاي؟ ينبغي أن تأتوا إلى قربنا.

فأجابت زوجةُ السفير وهي تبتسم:

ـ لا، نحن مرتاحون هنا.

واستأنفت حديثاً بدأتْه.

كان الحديث شائقاً جداً. كان نقداً لآل كارينين، الزوج والزوجة.

قالت إحدى صديقاتها:

ـ تغيرت آنا كثيراً منذ رحلتها إلى موسكو. إنها غريبة الأطوار.

قالت زوجة السفير:

ـ يرجع تغيّرها إلى أنها حملت معها ظل الكسي فرونسكي.

ـ ولماذا؟ هناك قصة لغريم[1]: الرجل الذي لا ظل له، الرجل الذي حُرِمَ

---

(١) قصة لغريم: تولستوي مخطىء، لأن قصة الرجل الذي فقد ظله لم يروها غريم، بل الكاتب الرومانسي الألماني «دي شاميو» في أقصوصته «قصة بطرس شليميل العجيبة» التي ظهرت في ١٨١٤. =

ظلّه. هذا عقاب. ولم استطع أن أفهم قط ما قوام هذا العقاب. لا بد أن يشقّ على المرأة كونها بلا ظل.

قالت صديقة آنا:

ــ صحيح، لكن النساء اللواتي لهن ظلٌ ينتهين، في العادة، نهاية سيئة.

قالت الأميرة مياغكوي فجأة، وهي تسمع هذه الكلمات:

ــ وَرَّم اللهُ ألسنتكن! إن السيدة كارينين امرأة ساحرة. لا أحبُّ زوجها، أما هي فأحبها كثيراً.

قالت زوجة السفير:

ــ لمَ لا تحبين زوجها؟ إنه مرموق جداً يول زوجي: إن أمثاله من رجال الدولة قليلون في أوروبا.

فأجابت الأميرة مياغكوي:

ــ وزوجي يقول الشيء نفسه، لكني لا أصدقه. ولو لم يقل زوجانا ذلك لرأيناه على حقيقته في رأيـي أن الكسي الكسندروفتش ليس سوى أحمق. أقول هذا بصوت خافت... أليس صحيحاً أن هذا يوضّح كل شيء؟ عندما كنتُ أؤمَرُ، قديماً، بأن أراه ذكياً، كنت أبحث عن سبب ذكائه، وكنتُ أظن أنني أنا الغبيّة لأنني لم أر ذكاءه، لكني ما إن وصفتُه بأنه أحمق، بصوتٍ خافت طبعاً، حتى اتّضح كل شيء.

أليس هذا هو رأيك؟

ــ كم أنت خبيثة اليوم!

ــ أبداً. ليس هناك مخرج آخر. واحد من الاثنين غبـي. وأنت تعلم أن من المستحيل على المرء الاعتراف بغبائه.

قال الدبلوماسي مستشهداً ببيت من الشعر الفرنسي:

ــ «لا أحد يرضى عن وضعه، وكل واحد يرضى عن عقله».

قالت الأميرةُ مياغكوي بشدة:

ـ بالضبط. لكنْ من المؤكد أنني لن أتخلّى لكم عن آنا. إنها جد لطيفة، جد مليحة! وإذا كان الناس كلهم مغرمين بها، وإذا كانوا يلاحقونها مثل ظلها، فهل هذا ذنبُها؟

قالت صديقة آنا مبرّرة نفسها:

ـ لكني لم أفكّر في الحكم عليها.

ـ إذا لم يلاحقْنا أحدٌ مثل ظلنا، فذلك لا يدلّ على أن لنا الحق في الحكم على الآخرين.

نهضت الأميرة مياغكوي، بعد أن ردعتْ صديقة آنا، واقتربت، مثل زوجة السفير، من الطاولة التي كان الحديث يدور على ملك بروسيا.

سألت بيتسي:

ـ مَنْ كنتم تعتابون هناك؟

قالت زوجة السفير، وهي تجلس مبتسمةً قرب المائدة:

ـ آل كارينين. رسمت لنا الأميرة صورة الكسي الكسندروفتش.

قالت ربةُ الدار وهي تلقي نظرة سريعة على الباب:

ـ من المؤسف أننا لم نسمع ما قيل.

وقالت، وهي تبتسم، لفرونسكي الذي دخل لتوه:

ـ آه! جئتَ أخيراً!

لم يكن فرونسكي يعرفُ جميعَ الحاضرين في هذا المساء فحسب، بل إنه كان يراهم كل يوم، فدخل بثقةِ مَنْ يدخل على أناس لم يكدْ يتركهم.

قال رداً على سؤال زوجة السفير:

ـ من أين آتي؟ ما العمل؟ يجب أن أعترف بذلك. من مطعم

«النَهمَ[1]». أظن أن هذه هي المرة المائة، وأنا أجد فيه دائماً لذةً جديدة. إنه رائع. أعلم أن ذلك مخجل، لكني أغفو في الأوبرا، بينما أجد المتعة في مطعم النهم، حتى آخر دقيقة. اليوم. . .

وسمّى ممثّلة فرنسية وأراد أن يروي حكاية تتعلّق بها، لكن زوجة السفير قاطعته بذعر ماجن:

ــ أرجوك، لا تروِ لي هذه الفظاعات!

ــ طيّب، سكت، ولا سيما أنك تعرفينها جميعها، تلك الفظاعات! وأيّدت الأميرة ماغكوي:

ــ وأنتنّ جميعكن مستعدات للركض إليها، لو كان ذلك مسموحاً مثل الأوبرا.

[٧]

تناهى وقعُ خطوات عند الباب، فنظرت الأميرة بيتسي إلى فرونسكي، وقد علمت أن القادمة آنا. كانت عيناه شاخصتين إلى الباب، واتخذ وجهُه تعبيراً غريباً، تأمّل الوافدةَ الجديدة وقد بدا عليه الفرحُ والإصرارُ والوجل، ونهض من مقعده ببطء. ودخلت آنا، منتصبة القامة، واجتازت كعادتها، بخطوات خفيفة، ثابتة وسريعة، خطوات تميزّها عن النساء الأخريات، المسافةَ التي تفصلها عن ربة الدار، وشدّت على يدها، وابتسمت لها، والتفتت إلى فرونسكي، وعلى وجهها الابتسامةُ نفسها. فانحنى لها فرونسكي انحناءَةً عميقة وقدّم لها كرسياً.

---

(١) مطعم «النهم»: مطعم فرنسي كبير في بطرسبرج يحتوي على مسرح تمثل فيه تمثيلات غنائية وشعبية.

لم تردّ عليه إلاَّ بإمالة رأسها، واحمرّت وقطّبت بين حاجبيها. لكنها ما لبثت أن حيّت معارفها بحركة قوية من رأسها، وشدّت على الأيدي الممدودة، والتفتت إلى ربة الدار:

ــ ذهبتُ إلى منزل الكونتيسة ليديا؛ أردت أن آتي قبل الآن، لكنني احتُجزتُ. كان عندها السير جون. وهو رجل يثير الاهتمام ويستميل القلوب.

ــ آه، ذلك المبشّر؟

ــ نعم، لقد تحدث حديثاً أخّاذاً عن الحياة في الهند.

ترجّح الحديثُ الذي انقطع بوصولها، مرة أخرى، مثل شعلة مصباح نُفخ عليه.

ــ السير جون؟ آه! نعم، السير جون! رأيتُه. إنه حسن الحديث. وفلاسييف هائمةٌ به.

ــ أصحيح أن الصغرى من آل فلاسييف ستتزوج «تابوف».

ــ نعم، يُقال إن هذا أمرٌ مقرّر.

ــ يدهشني أن يقبل الأهل. يبدو أن الحب هو الدافع.

قالت زوجة السفير:

ــ الحب؟ ما هذه الأفكار السابقة للطوفان؟ من يذكرُ الحبَّ في الوقت الحاضر؟

قال فرونسكي:

ــ ما العمل؟ إن هذه البدعة البالية لا تريد أن تزول.

ــ الغلطة غلطة الذين يَتْبعونها. الزواج السعيد الذي أعرفه هو زواج العقل وحده.

قال فرونسكي:

ــ صحيح، لكنّ هذه السعادة تتبدّد دخاناً عندما تظهر بالذات تلك العاطفة التي أنكرناها.

ـ لكننا لا نذكر زواج العقل إلاَّ عندما يستنفذ الطرفان جنون الشباب فهذا الجنون كالحمى القرمزية لا بد من أن نُصاب به.

ـ في هذه الحالة، ينبغي أن نتعلم تلقيح الحب اصطناعياً، مثل الجدري.

قالت الأميرة مياغكوي:

أغرمتُ، في شبابـي، بمرتّل. ولا أدري إن كان ذلك قد نفعني.

قالت الأميرةُ بيتسي:

ـ لا، أظن، دون مزاح، أننا، إذا أردنا أن نَعْرف الحب، فيجب أن نخطىء، ثم نعود إلى الطريق المستقيم.

قالت زوجةُ السفير بلهجة ساخرة:

ـ حتى بعد الزواج؟

قال الدبلوماسي مستشهداً بمثل إنكليزي:

ـ التوبة مقبولة، في كل الآونة.

فرد فرونسكي:

ـ بالضبط، يجب أن نخطىء، ثم نصلح ما في أنفسنا.

والتفتَ إلى آنا التي كانت تصغي إلى الحديث، وعلى شفتيها ابتسامة لا تكاد تُلمح، وقال لها:

ـ ما رأيك؟

قالت آنا التي كانت تلعب بقفاز نزعته من يدها:

ـ أعتقد، أعتقد أن. . . الآراء تتعدّد بِتعدُّدِ العقول، أي: أن طرائق الحب تتعدد بتعدّد القلوب.

كان فرونسكي يرنو إلى آنا، وهو منخوبُ الفؤاد، منتظراً ما ستقوله.

وبعد أن نطقت بهذه الكلمات تنهّد كمن تخلّص من خطر.

وخاطبته آنا بغتةً:

ـ تلقيت رسالةً من موسكو تخبرني أن كيتي تشرباتزكي مريضة جداً.

قال فرونسكي وهو يقطب بين حاجبيه:

ـ حقاً؟

فرمته آنا بنظرة قاسية:

ـ ألا يَعنيك هذا؟

ـ على العكس، كثيراً.

ثم سألها:

ـ ماذا كتبوا إليك بالضبط، أيمكنني أن أعلم؟

نهضت آنا ودنت من بيتسي، وقالت لها:

ـ أعطني كأساً من الشاي.

وظلت واقفة خلف كرسي صديقتها.

بينما كانت بيتسي تصب الشاي، تقدّم فرونسكي منها وكرّر سؤاله:

ـ ماذا كتبوا إليك.

قالت آنا، دون أن تجيبه:

ـ كثيراً ما أقول لنفسي إن الرجال لا يعرفون ما النبل، مع أنهم يتحدثون عنه باستمرار.

وأضافت:

ـ كنت أود أن أقول لك ذلك، منذ زمن بعيد.

وسارت بضع خطوات، وجلست في ركن تكدّست عنده مجموعات الصور.

قال لها وهو يناولها كأسها:

ـ لم أفهم جيداً فحوى كلامك.

ألقت نظرةً على الأريكة بجانبها، وجلست، من فورها، عليها قالت له دون أن تنظر إليه:

ـ نعم، كنت أريد أن أقول لك ذلك: لقد أسأتَ التصرفَ، جداً.

ـ أتظنين أنني أجهل ذلك؟ الذنبُ ذنبُ مَنْ؟

قالت له وهي تنظر إليه بصرامة:

ـ لمَ تقول لي ذلك؟

فأجاب بجرأة، وقد صمد لنظرتها فلم يغضّ بصره:

ـ أنت تعلمين لماذا؟

فاضطربت هي نفسها، وقالت:

ـ هذا لا يدلّ إلاّ على أنك بلا قلب.

لكن نظرتها قالت: إنها تعلم أن له قلباً وأنها من أجل ذلك تخافه.

ـ ما أشرتِ إليه قبل قليل كان خطأً، ولم يكن حباً.

قالت آنا وهي ترتعش:

ـ تذكر أنني منعتك من أن تتفوّه بهذه الكلمة، هذه الكلمة الرهيبة. لكنها أحسّتْ، في اللحظة نفسها، أنها أظهرتْ، بهذه الكلمة «منعتك»، اعترافها لنفسها ببعض الحقوق عليه، وأنها تشجعه بذلك على الحديث عن الحب.

وتابعت كلامَها وهي تنظر إليه نظرة حازمة، وقد اصطبغ خداها بالحمرة:

ـ كنت أود أن أقول لك ذلك منذ زمن بعيد؛ وقد جئت اليوم خصيصاً لعلمي أنني سألقاك هنا. إنني لم أخجل أمام أحد وأنت تحملني على الإحساس بأنني مُذنبة.

نظر إليها فبهره ما في وجهها من جمال روحي. وسألها ببساطة وبلهجة جادة:

ـ ماذا تريدين مني؟

قالت:

ـ أريد أن ترجع إلى موسكو، وأن تطلب الصفح من كيتي.

قال:

ـ أنتِ لا تريدين ذلك.

لقد رأى أنها تقول ما تُرغم نفسها على قوله، لا ما ترغب فيه.

فهمستْ:

ـ إذا كنتَ تحبني كما تقول، فافعل ما يهدّىء نفسي.

فأشرق وجهُ فرونسكي.

ـ ألا تعلمين أنكِ أنت حياتي كلها؟ لكني لا أعرف ولا أستطيع أن أمنحك الهدوء. أمنح نفسي كلها، حبي... نعم. لا أستطيع أن أفكر فيك تفكيراً مستقلاً عن نفسي، ولا في نفسي تفكيراً مستقلاً عنك، فأنا وأنت لسنا سوى كائن واحد، في نظري. إني أرى إمكان اليأس والشقاء... أو أرى إمكان السعادة، وأية سعادة!...

وأضاف محركاً شفتيه فقط:

ـ هل هي غير ممكنة التحقق؟

لكنها سمعتْه.

استنهضت كل قواها الروحية لتقول له ما ينبغي أن يُقال؛ لكنها بدلاً من أن تتكلّم رمقتْه بنظرة ملأى بالحب ولم تجب بشيء.

فكرّ وقد استخفّه الفرح: «تمَّ الأمرُ وبلغنا الغاية! في حين بدأ اليأس يراودني، وفي حين لم أكن أتبين نهايةً لذلك كله! إنها تحبّني وهي تعترف لي بذلك الحب!».

قالت:

ـ افعل ذلك من أجلي، ولا تكلّمني بمثل هذا الكلام؛ عند ذاك سنصبح صديقين حميمين.

لكن نظرتها كانت تقول شيئاً آخر.

ـ لن نكون أبداً صديقين، وأنت تعلمين ذلك. وسواء أصرنا أسعد الكائنات أم أشقاها، فعليك وحدك أن تقرّري ذلك.

أرادت أن تقول شيئاً، لكنه قاطعها:

كل ما أطلبه، هو الحق في الأمل وفي الألم، كما هي حالي الآن؛ أما إذا كان ذلك مستحيلاً فأمريني أن أختفي، وسوف أختفي. لن تريني بعد الآن، إذا كان حضوري شاقاً عليك.

ـ لا أريد أن أطردك.

قال بصوت مرتجف:

ـ إذن لا تغيري شيئاً. دعي الأشياء على ما هي عليه الآن. ها هو ذا زوجك.

وبالفعل، فقد دخل الكسي الكسندروفتش القاعة بخطوته الثقيلة الهادئة.

ألقى نظرة سريعة على زوجته وفرونسكي، ودنا من ربة الدار وبعد أن جلس قرب مائدة الشاي، بدأ يتكلم بصوته البطيء، الواضح النبرة، وبلهجته الساخرة المعتادة.

قال وهو يطوف بنظره جميع الحاضرين:

ـ أرى قاعة «رامبوييه»[1] غاصة بروادها؛ بربات الفن والجمال!

لكن الأميرة بيتسي لم تكن تطيق هذه اللهجة الهازئة. وسرعان ما ساقته، بمهارة ربه الدار الفَطِنة، إلى موضوع جاد: الخدمة العسكرية الإلزامية. وانجرّ الكسي الكسندروفتش إلى الحديث وأخذ يدافع عن القانون الجديد رداً على الأميرة بيتسي التي هاجمته.

ظل فرونسكي وآنا جالسين قرب الطاولة الصغيرة.

همست سيدة وهي تشير بعينها إلى فرونسكي وآنا وزوجها:

---

(١) إشارة إلى الصالون الأدبي في باريز للمركيزة «دي رامبوييه» (١٥٨٨ ـ ١٦٦٥).

تجاوز الأمرُ حدود الحشمة.

فأجابت صديقة آنا:

ــ لقد قلتُ لكِ ذلك من قبل.

ولم يقتصر الأمر على هاتين السيدتين، بل إن جميع الحاضرين، بما فيهم الأميرة مياغكوي وبيتسي نفسها، حدجوا بنظراتهم، غير مرة، هذين اللذين أعرضا عن الحلقة، وكأنهما لا يريدان أن يزعجهما أحد. الكسي الكسندروفتش وحده لم ينظر إليهما ولم ينصرفْ عن حديثه الشائق الذي شرع فيه.

وحين لاحظت الأميرةُ بيتسي الأثر السيء الذي أحدثه ذلك في المدعوّين، كلّفت من يجلس مكانها قرب الكسي الكسندروفتش، ومضت إلى آنا، وقالت لها:

ــ إني معجبة أبداً بوضوح لغة زوجك ودقتها. فأشدَّ المفاهيم سمواً تصبح في متناولي عندما يتحدث.

فأجابت آنا وهي تشع سعادة دون أن تفهم كلمة ممّا قالته لها بيتسي:

أوه! صحيح.

وعادت إلى المائدة الكبرى وشاركت في الحديث العام.

بعد أن قضى الكسي الكسندروفتش نصف ساعة، دنا من زوجته وعرض عليها أن تعود معه، لكنها أجابته، دون أن تنظر إليه، بأنها ستمكثُ لتناول العشاء، فانحنى الكسي الكسندروفتش وخرج.

كان حوذي آل كارينين العجوز، وهو تتري ضخم، بسترة جلدية، لا يكاد يقوى على تهدئة جواد العارضة الرمادي الذي كان يشبّ أمام درج المدخل، وقد ارتعد من البرد. كان أحد الخدم يمسك باب العربة، وترك الحاجب باب المدخل مفتوحاً على مصراعيه. أخذت آنا اركادييفناتفك بيد عصبية تخريمة كمها التي علقت بمشبك الفرو، وكانت تصغي، بغبطة، وقد حنت رأسَها، إلى ما كان يقوله فرونسكي وهو يودعها.

كان يقول:

ـ لمْ تقولي شيئاً، هذا صحيح؛ ولستُ أطلب شيئاً، لكنه تعلمين أن ما أحتاج إليه ليس الصداقة. إن سعادة الوجود الوحيدة عندي تتضمّنها هذه الكلمة التي تكرهينها كثيراً... الحب... فرددت ببطء وكأنها تخاطب نفسها.

ـ الحب...

وأضافت فجأة، في اللحظة التي فكّت فيها تخريمتها:

ـ لا أحب هذه الكلمة، لأنه مثقلة بالمعاني عندي، أكثر بكثير مما يمكن أن تتصوّر.

ونظرت إلى وجهه وقالت:

ـ إلى اللقاء.

مدّت إليه يدها، ومرت أمام الحاجب بخطوات رشيقة، سريعة، وتوارت في عربتها.

ألهبت نظرتُها ولمسةُ يدها فرونسكي. فقبّل راحة يده، في الموضع الذي مستّه، وعاد إلى منزله، سعيداً، مقتنعاً بأن هذه الأمسية قد قرّبته من هدفه أكثر من الشهرين السابقين.

[٨]

لم يجد الكسي الكسندروفتش ما يُستغرب أو يُستَجَهن في بقاء امرأته جالسة قرب فرونسكي على حدة، وهي تكلمه بحيوية، لكنه لاحظ أن ذلك بدا مستغرباً ومستهجناً في نظر الحاضرين، ولذلك رأى أَنْ يَسْتهجنه. وقرر أنه يجب مفاتحة امرأته بذلك.

عندما عاد الكسي الكسندروفتش إلى بيته، دلف إلى مكتبه، كما يفعل عادة، وجلس في مقعده، وفتح كتابه عن اتّباع البابوية، في الموضع الذي أشار إليه

بمقطع الورق، وقرأ، على عادته، حتى الساعة الواحدة صباحاً. ومن حين إلى حين، كان يمرّ يده على جبهته ويهزّ رأسه، كأنه يريد أن يطرد عنه فكرة مزعجة. وفي الساعة المعتادة، نهض، ولبس ثياب النوم. لم تكن آنا قد رجعت بعد. فصعد إلى الطابق الأول، متأبطاً كتابه؛ لكن أفكاره المعتادة ومشاغله في الخدمة أَخْلَتْ مكانَها للتفكير في امرأته وفي حادث مزعج وقع له. ولم يضطجعْ، خلافاً لعادته، وإنما أخذ يذرع الغرفة، ويداه متشابكتان خلف ظهره. لم يستطع الاضطجاع لأنه كان يحس أن من واجبه استعراض جميع جوانب الحدث الذي وقع.

عندما عزم الكسي الكسندروفتش على مفاتحة امرأته، بدا له ذلك سهلاً وبسيطاً جداً، لكنه عندما أخذ يفكر الآن في الحادث تفكيراً جاداً، بدا له ذلك صعباً ومعقداً جداً.

لم يكن الكسي الكسندروفتش يستشعر الغيرة. فالغيرةُ، في نظره، مُذلّةٌ لزوجته، وينبغي له أن يثق بها. أما لماذا ينبغي أن يثق بها، وبعبارة أخرى لماذا ينبغي أن يظل قانعاً في صميمه بأن زوجته الشابة ستحبّه أبداً، فهذا ممّا لم يتساءل عنه، لكنه لم يكن قلقاً لأنه كان يثق بها ويعتقد أنه على حق. بيد أنه أخذ يحسّ الآن، مع قناعته المستمرة بأن الغيرة شعورٌ مُخزٍ وأن الثقة واجبةٌ، أنه بإزاء وضع لا هو بالمنطقي ولا هو بالمعقول، وأنه في حيرة من أمره. ألفى الكسي الكسندروفتش نفسه بإزاء الحياة، بأن من الممكن أن تحب زوجته رجلاً غيره، فبدا له ذلك غير معقول ولا مفهوم، لأن ذلك هو الحياة نفسها، لقد عاش الكسي الكسندروفتش وعمل دائماً في الأوساط الإدارية. ولم يكن على صلة إلاّ بأصداء الحياة وظلالها. وما من مرة اصطدم فيها بالحياة، إلاّ نأى عنها. كان شعوره اليوم كشعور رجل يجتاز بطمأنينة جسراً فوق هاوية، ويكتشف فجأة أن الجسر مهدّم وأن تحت قدميه هوّةً.

كانت الهوة هي الحياة نفسها، والجسر هو الحياة الاصطناعية التي عاشها

الكسي الكسندروفتش. ولأول مرة، بدا له ممكناً أن تعشق زوجته رجلاً آخر، فارتعب.

لم يخلع ملابسه وأخذ يذرع، بخطوته المنتظمة، أرضَ غرفة الطعام الخشبية الرنانةَ، التي يضيئها مصباح واحد، وسجادةَ قاعة الاستقبال المظلمة، حيث كان الضوء ينعكس على صورة له، مرسومة حديثاً ومعلّقة فوق الأريكة، وحجرةَ زوجته حيث كانت تشتعل شمعتان تغمران بضيائهما صورَ أبويها وصديقاتها، والتحفَ المنزلية الجميلة على مكتبها، ومن حجرة آنا كان يبلغ باب غرفة النوم ثم ينثني راجعاً.

كان، أثناء تمشّيه، ومعظمه على أرض غرفة الطعام المضاءة، يقف ويحدّث نفسه: «نعم، لا بد من اتخاذ قرار، من حسم الأمر، من تعريفها بنظرتي وقراري». ويعود أدراجه. «لكن ماذا أقول لها؟ وأي قرار أتخذ؟» كذلك كان يحدث نفسه في قاعة الاستقبال، دون أن يعثر على الجواب. ثم يتساءل في حجرة آنا قبل أن ينثني راجعاً: «وماذا جرى؟ لا شيء. لقد حادثته طويلاً. وماذا في ذلك؟ وما أكثر الرجالَ الذين تحدّثهم النساءُ في المجتمع! ثم إن غيرتي مُذلّة لها ولي» لكن هذه المحاكمة التي كان لها وزنها الكبير من قبل، بدت له الآن عديمة الجدوى. ويدور عند باب غرفة النوم ليعود إلى غرفة الطعام؛ وما إن يلج القاعة المظلمة حتى يهتف به صوت: إن الأمور على خلاف ما تصورتَ وإذا كان الآخرون لاحظوا ذلك، فذلك لأن شيئاً قد حدث. ويكرر في غرفة الطعام: «نعم، لا بد من اتخاذ قرار، من تعريفها بنظرتي...» ويتساءل من جديد، في القاعة، قبل أن ينثني راجعاً: «وماذا أقرّر؟» ثم يتساءل: «وماذا جرى؟». ويجيب «لا شيء» ويردد على نفسه أن الغيرة شعور مذل للمرأة، ثم تنبعث قناعته، في قاعة الاستقبال، بأن شيئاً قد حدث. كانت أفكاره، مثل جسمه، تدور في دائرة كاملة دون أن تصطدم بشيء جديد. وفطن لذلك، فمرّ بيده على جبهته وجلس في حجرة آنا.

وهناك اتّخذتْ أفكارُه، فجأةً، مجرى آخر، وهو ينظر إلى مكتب زوجته، وورق النشاف، وبطاقة بدأتها ولم تتمها. أخذ يفكر في حقيقة أنها تفكّر وتحسّ، ولأول مرة، تصور أن لها حياة شخصية، وأفكاراً، ورغبات، وبدت له هذه الفكرة: وهي أنه قد يكون لها أو لا بدّ أن يكون لها حياتها الخاصة، مرعبةً وبادر إلى دفعها عنه. كانت هذه الفكرة هي الهوة التي يخاف أن يسبرها بنظره. كان الانتقال بالفكر والشعور إلى كائن آخر، منهجاً عقلياً غريباً عن الكسي الكسندروفتش. وكان يعتبر هذا المنهج في التفكير حافلاً بالأذى والخطورة والأوهام.

وفكرّ: «أرهبُ ما في الأمر أن هذا القلق غير المعقول ينصبّ علي في اللحظة ذاتها التي يبلغ فيها مشروعي نهايته»، (كان يفكر في المشروع الذي يسعى إلى إقراره)، والتي أحتاج فيها إلى كل هدوئي وكل قواي. لكن ما العمل؟ لستُ من الناس الذين يعانون الهموم ولا يقوون على مواجهتها.

وقال بصوت مرتفع:

ـ يجب أن أفكر وأن أتخذ قراراً، وأن أكف بعده عن التفكير في ذلك الأمر.

وقال في نفسه: «أما التنبؤ بعواطفها، بما يجري وبما قد يجري في نفسها، فليس ذلك من شأني. ذلك من شأن ضميرها، وهو خاضع للدين».

لقد تعزّى بأنه اكتشف القانون الذي يخضع له الحادث الطارىء.

ثم قال في نفسه: «قضية عواطفها إذن، قضية تتعلق بضميرها، وليس لي أن أتدخّل فيها. إن واجبي يرتسم بوضوح. فبصفتي رب أسرة، من واجبي أن أوجّهها وأنا أتحمل، من ثمّ، قسطاً من المسؤولية؛ من واجبي أن أدلها على المخاطر التي ألمحها، وأن أحذّرها منها، وأن أستخدم سلطتي، عند الضرورة. من واجبي أن أبيِّن لها ذلك كله».

وارتسم بوضوح، في ذهن الكسي الكسندروفتش، كل ما سيقوله الآن لزوجته. وكان يأسف، وهو يفكّر فيما سيقوله، أن يُضطر إلى استخدام وقته وموارده الفكرية، في غير أوانها، لغرض منزلي؛ ومع ذلك فقد تحدَّدَ في رأسه شكلُ الكلام الذي سيقوله وخطتُه بوضوح التقرير المكتوب ودقته.

«هذا ما يجب أن أفهمها إياه: أولاً: شرح أهمية الرأي العام وأصول اللياقة، ثانياً، شرح ديني لمعنى الزواج، ثالثاً، وإذا كان ذلك ضرورياً، بيان المصائب التي قد تحل بابنها، رابعاً، الإشارة إلى المصيبة التي قد تلحق بها.». وضم الكسي الكسندر وفتش يديه وهو يفرقع مفاصل أصابعه.

وكانت هذه الحركة، وهي عادة سيئة، تهدئه دائماً، وتوفّر له ذلك الاتزان الذي يحتاج إليه كثيراً، في هذه اللحظة. وتناهى ضجيج مركبة تدنو من درج المدخل. فتوقف الكسي الكسندروفتش في وسط قاعة الطعام.

صعدت الدرجَ خطواتُ امرأة. وكان الكسي الكسندروفتش متأهباً لإلقاء خطبته، ضاغطاً يديه المتشابكتين، عسى أن تفرقعا... وفرقع أحدُ المفاصل.

أحسّ بدنوّ آنا، عند سماعه وقع خطوات خفيفة على الدرج، ومع أنه كان راضياً عما أعده من كلام، فقد خاف من المفاتحة التي ستحدث.

[٩]

كانت آنا تسير، خافضة رأسها، عابثة بشرّابة ردائها. كان وجهها يشعّ، لا بالفرح، بل بما يشبه ضياءً رهيباً من حريق كبير في ليلة مظلمة.

وعندما شاهدتْ زوجها، رفعتْ رأسها وابتسمت له، وكأنها تصحو من حلم.

قالتْ وهي تخلع رداءها:

ــ ألم تنمْ بعد؟ هذه أعجوبة!

ودون أن تتوقف، مضت إلى غرفة زينتها، ونادته من وراء الباب:

ـ لقد حان الوقت، يا الكسي الكسندروفتش.

ـ آنا، ينبغي أن أكلمك.

قالت بدهشة:

ـ تكلمني أنا؟

ـ وخرجت ونظرت إليه، وسألته وهي تجلس:

ـ ماذا جرى؟ وبصدد أي شيء؟ لنتكلمْ إن كان ذلك ضرورياً. لكن الأفضل أن ننام.

كانت آنا تقول ما يجري على شفتيها، وتدهش، وهي تصغي إلى نفسها، من قدرتها على الكذب. فكم كانت كلماتُها بسيطةً وطبيعية، وكم كانت تبدو، في الحقيقة، وسنى! كانت تحسّ أنها ليست درعاً حصينة من الكذب. وكان يخيل إليها أن قوة خفية تسندها.

قال لها:

ـ يجدر بي، يا آنا، أن أحذّرك.

ـ تحذّرني؟ ممّ؟

ونظرت إليه نظرةً بالغة السذاجة والمرح، بحيث يعجز الذي لا يعرفها كمعرفة زوجها بها أن يتبيّن التصنّع في جرس صوتها أو في كلماتها. أما هو الذي يعرفها، ويعلم أنه لم يكن يتأخر خمس دقائق عن نومه حتى تفطن إلى ذلك، وتسأله عن السبب، أما هو الذي يعلم أنها كانت تطلعه على جميع أفراحها وأحزانها، فور حدوثها، فقد اتخذ رفضُها مراعاة حاله، ورفضُها الكلام على نفسها، أهميةً كبرى، في نظره. لقد رأى أن أعماق نفسها التي كانت مفتوحة له دائماً، من قبل، غدت الآن مغلقةً في وجهه. وأكثر من ذلك، لقد رأى أنها لا تشعر بأدنى اضطراب، وأنها تخاطبه بهدوء ظاهر؛ نعم، لقد أغلقتْ نفسها دون: كان لا بد أن يكون الأمر كذلك، وسيكون كذلك أبداً.

اعتراهُ، في هذه اللحظة، شعورٌ شبيه بشعور مَنْ يعود إلى منزله فيجده مغلقاً. لكنه قال في نفسه: «لعلي أعثر على المفتاح».

أنشأ يقول لها بصوت وادع:

ـ ينبغي أن أحذّرك من الغفلة والخفّة اللتين تعطين بهما للناس الذريعة ليتقوّلوا عليك فيما بينهم. إن حديثك الحاد، هذا المساء، مع الكونت فرونسكي (وقد لفظ هذا الاسم ببطء، وبعد وقفة) جذب الانتباه إليك.

كان ينظر، وهو يتكلم، إلى عينيها الضاحكتين اللتين أرعبتاه بصفاقتهما، وكان يحسّ بعدم جدوى كلامه وبتفاهته.

أجابت، وكأنها لم تفهمه، وقد قصدت ألا تلتفت، من كل ما قاله، إلا إلى الكلمات الأخيرة:

ـ أنت لا تتبدّل. أنت لا تحب ما يُضجرني، لكنك لا تحب ما يسليني. إني لم أضجر، هذا المساء. هذا ما يجرحك؟

ارتعش الكسي الكسندروفتش وضمّ يديه ليفرقعهما:

ـ قالت:

ـ آه! أرجوك، دع يديك، فذلك كريه جداً.

قال الكسي الكسندروفتش بصوت مكبوت، وهو يبذل جهده لكي يبقي يديه هادئتين:

ـ آنا، أهذا أنت؟

فقالت بدهشة مضحكة وصادقة:

ـ لكنْ، ما الذي جرى؟ وماذا تريد مني؟

لزم الكسي الكسندروفتش الصمت، ومرّ بيده على عينيه وجبهته. لقد رأى أنه بدلاً من أن يظل وفياً لمقصده، أي بدلاً من أن يحذر زوجته من خطيئةٍ في نظر الناس، عُني، بالرغم منه، بما يجري في ضميرها واصطدم بعقبة خيالية.

استأنف كلامه ببرودة وهدوء:

ــ دونكِ ما كنتُ أريد أن أقوله لك، وأرجوك أن تصغي إليّ حتى النهاية. تعلمين أنني أعتبر الغيرة شعوراً مهيناً وشائناً، ولن أسمح لنفسي أبداً بأن أنساق وراء هذا الشعور؛ لكن هناك بعض أصول اللياقة التي لا يمكن خرقها دون عقاب. اليوم (ولست أنا الذي لاحظ هذه الملاحظة، لكنني أتصوّرها من خلال الانطباع الذي أحدثته في الناس)، لاحظ الجميع أنك لم تتصرّفي تماماً التصرف المطلوب.

قالت آنا وهي تهز كتفيها:

ــ لم أفهم شيئاً، على الإطلاق.

وفكرَّت في نفسها: «سيان عنده، إن ما يقلقه هو رأي الناس».

وتابعت:

ــ لا بد أنك مريض، يا الكسي الكسندروفتش.

ونهضتْ وأرادت أن تخرج؛ فهبّ في وجهها كأنما يريد أن يوقفها.

لم تر آنا قطّ له مثل هذا الوجه المكفهر والكريه. لقد وقفتْ، وردّتْ رأسها إلى الوراء، على أحد جانبيه، وبدأت تسحب دبابيس الشعر بيد رشيقة.

قالت له بهدوء، وبلهجة ساخرة:

ــ حسناً! إني مصغيةٌ، ومصغية باهتمام، لأني أود أن أفهم بوضوح علام يدور كلامك.

دهشت وهي تتكلم من هذه اللهجة الطبيعية، الهادئة، السليمة، في صوتها وفي اختيار الكلمات التي استخدمتها.

انبرى الكسي الكسندروفتش يقول:

ــ ليس لي حق الدخول في تفاصيل عواطفك، وأنا أعتبر ذلك، بشكل عام، عديم الجدوى بل ومضراً. فعندما ننقّب في نفوسنا نستخرج منها، في الغالب، ما ظلّ مدفوناً دون أن يلحظه أحد. إن عواطفك تخصّ ضميرك وحده،

لكن من واجبي تجاهك وتجاه نفسي وتجاه الله أن أذكرك بواجباتك، لقد اتحدتْ حياتانا. جمعهما الله لا البشر. والجريمة وحدها يمكنها أن تحل هذا الرباط، لكن جريمة من هذا النوع تستدعي العقاب.

قالت آنا وهي تُمر يداً خفيفة على رأسها لتنزع آخر الدبابيس:

ــ لست أفهم شيئاً مما تقول: وزيادة في مصيبتي، فقد استولى علي نعاسٌ رهيب.

قال بهدوء:

ــ لا تتكلمي هكذا، يا آنا، بالله عليك! ربما كنتُ مخطئاً، لكنْ صدّقي أن ما أقوله لك، إنما أقوله من أجلك كما أقوله من أجلي. أنا زوجك وأنا أحبك.

انبسط وجه آنا، وغاب من نظرتها ذلك الضياءُ الساخر، في لحظة قصيرة من الزمن؛ لكن كلمة: «أحبك» ألهبت سخطها. وفكرت في نفسها: «الحب؟ أهو قادر على الحب؟ لو لم يسمع الناس يتحدثون عن الحب لما استخدم هذه الكلمة أبداً. إنه لا يعرف حتى ما الحب».

ــ الكسي الكسندروفتش، في الحقيقة، إني لا أفهم شيئاً. اشرحْ لي ما تجده..

ــ انتظري، دعيني أتكلم. إني أحبك. لكني لا أتحدث عن نفسي: الشخصان المعنيان هنا هما ابننا وأنت نفسك. ربما بدت كلماتي ــ وأنا أكرر ذلك ــ نابيةً عن مكانها، ولا جدوى منها أبداً؛ ولعلها ثمرة من ثمرات الضلال؛ وفي هذه الحالة، أرجو أن تعذريني. أما إذا شعرت بنفسك أن لها أساساً ما، فأتوسل إليك أن تفكري، وأن تفتحي قلبك لي، إذا رغبتِ في ذلك...

لقد كان الكسي الكسندروفتش يقول ــ من غير أن يفطن لذلك ــ أشياء أخرى غير التي أعدَّها.

قالت فجأة وعلى عجل، وهي لا تكاد تملك نفسها من الابتسام:

ــ ليس لديّ ما أقوله لك. وعلى كل حال... لقد حان أوان النوم حقاً.

أرسل الكسي الكسندروفتش زفرة، واتجه نحو غرفة النوم، دون أن يقول شيئاً.

وعندما دخلت بدورها الغرفة، كان قد أوى إلى فراشه.

كان يزمّ شفتيه، وهو منقبض الأسارير، دون أن ينظر إليها، اضطجعت آنا، وانتظرت أن يخاطبها. كانت تخشى ما سيقوله، وكانت تتوق إليه في الوقت نفسه. لكنه لاذ بالصمت. وانتظرت طويلاً، بلا حركة، وانتهت بأن نسيت زوجها. أخذت تفكّر في الآخر وتراه، وأحست حين أخلدت إلى هذا التفكير أن قلبها يمتلىء بالاضطراب والفرح الآثم. وفجأت سمعتْ غطيطاً هادئاً ومنتظماً. لكن الكسي الكسندروفتش توقف عن غطيطه، في اللحظة الأولى، وكأنه خاف من غطيطه نفسه؛ بيد أنه ما لبث، بعد نَفَسين، أن استأنف غطيطاً أشد هدوءاً وانتظاماً.

وهمست باسمةً: فات الآوانُ الآن، فات الآوان.

وظلت بلا حراك، زمناً طويلاً، مفتوحة العينين، وقد خُيّل إليها أنها تحس ببريقهما في الظلمة.

[١٠]

منذ ذلك اليوم، بدأت حياةٌ جديدة، بالنسبة إلى الكسي الكسندروفتش وبالنسبة إلى زوجته. لم يحدثْ شيءٌ خاص. ظلت آنا، على عادتها، تخالط الناس. ولا سيما في منزل الأميرة بيتسي، وتلتقي فرونسكي أينما ذهبت. وتأكد الكسي الكسندروفتش من ذلك لكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً. كانت زوجته تواجه محاولاته للاستفسار والاستيضاح بجدار صفيق من التجاهل الماجن. لقد حافظا على المظاهر، لكن علاقاتهما، في الداخل، تبدلّت تبدلاً كاملاً. وأحس الكسي الكسندروفتش بعجزه، وهو الرجل العظيم السطوة فيما يتصل بشؤون الدولة. كان

كالثور، ينتظر، وقد خفض رأسه بإذعان، الضربة التي ستقضي عليه. وكان كلما فكرّ في ذلك الأمر، أحسّ بأن عليه أن يقوم بمحاولة أخيرة، وأن هناك أملاً في إنقاذها وفي إرغامها على أن تفتح عينيها، إذا ما استخدم الطيبة والحنان والإقناع، وكان يتهيأ، كل يوم، لمفاتحتها، لكن ما أن يبدأ بالكلام حتى يحس بأن روح المكر والخداع التي استولت عليها قد تملكته هو أيضاً بدوره، وأنه قد قال شيئاً آخر مختلفاً كل الاختلاف. وبلهجة مختلفة كل الاختلاف عن اللهجة التي أراد التكلم بها.

كان يصطنع معها بالرغم منه تلك اللهجة المتهكمة التي ألفها، وكان كأنما يسخر بها من الذين يتكلمون، في الحقيقة، مثل هذا الكلام، وبمثل هذه اللهجة، كان من المستحيل أن يقول لها ما ينبغي أن يقوله.

[١١]

إن ما كان الرغبة الوحيدة التي كسحتْ بقية الرغبات، قرابة عام، بالنسبة إلى فرونسكي، وما كان حلم السعادة المستحيل، المرعب، الساحر الذي يزيدُ الرعب من سحره، بالنسبة إلى آنا، إن ذلك الحلم قد تحقّق.

كان يقف حانياً عليها، شاحباً، مرتجف الحنك، متوسلاً إليها أن تهدأ دون أن يعرف لمَ وكيف.

كان يقول بصوت متهدج:

ــ آنا! آنا! بحق السماء!

لكنها كانت كلما رفع صوته خفضت رأسها الذليل المهان، وكان عزيزاً فرحاً من قبل، كانت مائلة بكل جسمها، وكادت تنزلق من الأريكة التي جلست عليها إلى أرض الغرفة، عند قدميه، ولولا أنه سندها لوقعت على السجادة.

قالت وهي تنتحب وتضغط يدي فرونسكي على صدرها:

ــ يا إلهي! اغفرْ لي!

كانت تحسّ أنها مجرمة، آثمة، وأنه لم يبق عليها إلا أن تُذلّ نفسها وتطلب المغفرة. لم يبق لها الآن غيره في الدنيا، ولذلك التمست مغفرته. كانت تحس، وهي تنظر إليه، بمذلتها جسدياً، فلم تستطع أن تقول غير ما قالته. أما هو فكان يشعر بما يشعر به القاتل حين يرى الجسد الذي انتُزعت منه الحياة. كان هذا الجسد الذي حُرم الحياة هو حبهما، الفترة الأولى من حبهما. كان هناك شيءٌ رهيب وبشع في تذكرهما لما اشترياه بعارهما. إن عار عريها الأخلاقي كان يخنقها وقد انتقل بالعدوى إلى فرونسكي. لكنْ، بالرغم من رعب القاتل أمام جسد ضحيته، فإن عليه أن يقطع هذا الجسد إرباً إرباً، وأن يخفيه، وأن يستغل جريمته.

وينقض القاتل على هذا الجسد بضراوة واندفاع، ويجره ليقطّعه إرباً؛ كذلك كان يفعل فرونسكي الذي غمر وجه آنا وكتفيها بالقبل.

كانت تمسك بيده، دون حراك. نعم، إن هذه القبل قد اشترتها بالعار ثمناً. نعم، إن هذه اليد التي غدت ملكاً لي إلى الأبد، هي يد شريكي في الجريمة. ورفعت يده وقبلّتها. فجثا على ركبتيه وأراد أن يرى وجهها، لكنها أخفته ولم تقل شيئاً. وأخيراً نهضتْ، وكأنها تحمل نفسها حملاً على النهوض، ودفعته عنها. كان وجهها جميلاً كسابق عهده، وكان لذلك يوحي بشفقة أعظم.

قالت:

ــ انتهى كلُ شيء، ولم يبق لي غيرك. تذكّرْ ذلك.

ــ أيمكنني أن أنسى قوامَ حياتي! من أجل دقيقة من هذه السعادة...

فقالت بذعر ممتزج بالاشمئزاز:

ــ أية سعادة! بالله عليك، لا تضفْ كلمة، لا تضفْ كلمة!

وشعر أن هذا الذعر قد سرى إليه.

نهضت بشدة وابتعدت عنه ورددت:

ــ لا تُضفْ كلمة!

واستأذنته وعلى وجهها تعبير من اليأس البارد الذي بدا له غريباً. كانت تحس أنها عاجزة، في هذه اللحظة، عن التعبير بالكلمات عمّا انتابها من شعور بالخجل والذعر والفرح قبل دخولها هذه الحياة الجديدة، وكانت تُؤثر ألا تقول شيئاً على أن تغض من هذا الشعور بكلمات غير ملائمة. وفي الأيام التالية لم تعوزها فقط الكلمات التي تستطيع بها أن تعبّر عن تعقّد عواطفها، بل إنها لم تعثر حتى على الأفكار التي تساعدها على أن ترى بوضوح ما يجري في نفسها.

كانت تقول في نفسها: «لا، لا أستطيع الآن أن أفكر في ذلك، سأفكّر في ذلك، فيما بعد، عندما استردُّ هدوئي». لكن هدوء الفكر هذا لم يأت. وكانت، كلما تراءى لها ما فعلتْه، وما سيقع لها، وما ينبغي أن تفعله، أصابها الدعرُ، وطردت تلك الأفكار، وقالت في نفسها: «سأفكر في ذلك، فيما بعد، فيما بعد، عندما يعود إليّ هدوئي».

بيد أن وضعها كان يتجلى لها بكل عريه البشع، في الحلم، عندما تفقد السيطرة على ذاتها. كانت تحلم كل ليلة الحلم نفسه. كانت تحلم أن الاثنين أصبحا زوجيها وأنهما يغمرانها بمداعباتهما. وكان الكسي الكسندروفتش يبكي وهو يقبّل يديها ويقول: «ما أسعدنا، الآن!».

وكان فرونسكي هنا أيضاً، وكان هو أيضاً زوجها. وكانت تدهش لأن ذلك بدا لها مستحيلاً من قبل؛ وكانت توضّح لهما وهي تضحك أن الأمر أسهل ممّا تصورت وأنهما الآن سعيدان ومسروران.

لكن هذا الحلم كان يضغط عليها كالكابوس فتستيقظ وقد استبد بها الرعبُ.

[١٢]

كان ليفين، في الآونة الأولى التي تلت عودته من موسكو، كلما ارتعش واحمرّ لذكرى عار الرفض، قال في نفسه: «لقد احمررتُ وارتعشت، على هذا

النحو، وظننتُ أنني انتهيت عندما نلت علامة واحدة في فحص الفيزياء، واضطررت لإعادة الصف الثاني؛ وظننتُ أنني انتهيت عندما عرّضتُ للضياع قضية أختي التي أُوكلتْ إليّ. فماذا جرى بعد ذلك؟ إني لأدهش الآن، بعد مرور السنين، أن أكون قد كابدتُ ما كابدت. وكذلك الأمر، بالنسبة إلى هذا الغم. سوف يمرّ الزمن، وسيأتي يوم لا أبالي فيه بهذا الغمّ.

لكن أشهراً ثلاثة مرت ولم يأت ذلك اليومُ؛ وظلّت الذكرى مؤلمةً كما كانت في الأيام الأولى. ولم يستطع أن يجد إلى الراحة سبيلاً؛ فبعد أن حلم طويلاً بحياة عائلية، وأعد نفسه لها، لم يتزوج، وألفى نفسه أبعد عن الزواج من ذي قبل. ولقد كان يحسّ، بشكل مرضيّ، كما كان يحُس مَنْ حوله، أن من غير المناسب لرجل في مثل سنه أن يعيش وحيداً. وتذكّر أنه قال ذات يوم، قبل سفره إلى موسكو، لبقّاره نيقولا، وهو رجل بسيط كان يحبُ أن يحادثه عند الضرورة: «أتعلم، يا نيقولا، أنني أرغب في الزواج»، وأن نيقولا قد أجابه بشدة كما يجيب عن سؤال لا يحتمل الشك: «كان ينبغي أن تفعل ذلك، منذ زمن بعيد، يا قسطنطين دميتريتش». والآن غدا الزواج أبعد مما كان عليه. كان المكان مشغولاً، وعندما كان يضع له خياله فتاةً أخرى ممن يعرفهن، في ذلك المكان، كان يحس أن ذلك مستحيل، على الإطلاق. وفضلاً عن ذلك، فقد كانت تعذّبه ذكرى الرفض والدور الذي لعبه. وعبثاً كان يقول لنفسه إنه غيرُ مذنب؛ فقد كانت تلك الذكرى، شأنها شأن الذكريات المخجلة من هذا النوع، تحمله على أن يرتعش ويحمرّ، كان يجد في ماضيه، مثلما نجد في ماضي كل إنسان، أفعالاً سيئة يسلّم هو نفسه بسوئها. وكان ينبغي لضميره أن يعذّبه بشأنها. بيد أن ذكرى تلك الأفعال السيئة لم تكن تقضّ مضجعه مثل تلك الذكريات المخجلة وإن كانت تافهة. كانت هذه الجراح تأبى أن تندمل. وفيما بين هذه الذكريات يندرج ذلك الرفضُ وتلك الهيئة المسكينة التي طالع بها الناس في ذلك المساء. كان الزمن والعمل يفعلان فعلهما.

وتغطّت الذكريات المؤلمة شيئاً فشيئاً بأحداث الحياة في الريف، وهي أحداث لا تكاد تُلحظ ولكنها مهمة. وأخذ تفكيره، في كيتي، يتضاءل يوماً بعد يوم. وكان ينتظر بفارغ الصبر نبأ زواجها، آملاً أن يشفيه هذا النبأ شفاء كاملاً، كقلع السن.

على أن الربيع جاء جميلاً، لطيفاً، لم يخيّبْ رجاءً ولم يُخفِ غدراً، كان ربيعاً نادراً ابتهج به الناس والحيوانات والنباتات جميعاً. هذا الربيع الجميل زاد من اهتياج ليفين وثبّته في عزمه على نبذ ماضيه، بغية تنظيم حياته المنعزلة تنظيماً وطيداً مستقلاً عن أية تبعية. ومع أن جزءاً كبيراً من الخطط التي عاد بها إلى الريف لم تُنفّد، فإن النقطة الجوهرية وهي: نقاء الأخلاق، قد روعيت. وزال ذلك الشعور بالخجل الذي كان يعذّبه بعد السقوط وصار يستطيع النظر بجرأة إلى الناس، في عيونهم. وكان قد تلقى في شباط رسالة من ماري نيقولا يفنا تنبئه فيها أن صحة أخيه نيقولا تدهورت، وأنه يرفض التداوي. فذهب رأساً إلى موسكو وأقنع أخاه باستشارة الطبيب وبزيارة المياه في الخارج. وقد وُفق في إقناع أخيه وفي إقراضه مالاً لسفره، دون أن يجرح شعوره، وكان راضياً عن نفسه بهذا الصدد. وفضلاً عن إدارة إملاكه التي تتطلب عناية خاصة في الربيع، وفضلاً عن المطالعة، فإن ليفين بدأ بتأليف كتاب عن الزراعة ينطلق فيه من هذه الفكرة وهي: أن طباع العامل الزراعي هي إحدى المعطيات المطلقة كالمناخ والأرض، وأن جميع الفرضيات التي تعالج موضوع الزراعة يجب أن تستند، من ثمَّ، لا على معطيات المناخ والأرض وحدها، بل وأيضاً على معطيات طباع العامل الزراعي، طباعه المعروفة التي لا تتغيّر. حتى إن حياته كانت ملأى بالرغم من وحدته، أو من جرّاء وحدته؛ وبين الحين والحين، كان يخامره شعورٌ بالرغبة في أن يُطلع على الأفكار التي تخطر بباله محدّثاً غير آغات ميخايلوفنا، لأنه كثيراً ما كان يعالج أمامها مسائل الفيزياء والزراعة والفلسفة بخاصة: ذلك أن الفلسفة كانت الموضوع المفضّل عند آغات ميخايلوفنا.

تباطأ الربيع حتى جاء. كان الطقس بارداً وصافياً أثناء الأسابيع الأخيرة من الصيام. كان الثلج، في النهار، يذوب تحت الشمس، لكن درجة الحرارة كانت تهبط في الليل إلى سبع درجات تحت الصفر؛ وكانت قشرةُ الجليد من الكثافة بحيث أنه لم يبقَ أي طريق تسلكه القوافل. كان السهل أبيض في يوم الفصح. ثم هبّت فجأة، في الاثنين الأول الذي تلا الفصح ريحٌ ساخنة، وتجمّعت السحبُ وهطل المطر الفاتر خلال ثلاثة أيام وثلاث ليال. وفي يوم الخميس سكنت الريحُ وانتشرتْ على الأرض ضبابةٌ رمادية كثيفة، كأنها تريد أن تخفي أسرار التغيرات التي كانت تتمّ في الطبيعة. ففي أعماق هذا الضباب، كانت المياه تشق ممراً لها، والجليد يتكسر زاحفاً فوقها، والسيول المزبدة تستأنف جريها السريع. وفي يوم الاثنين الثاني، في المساء، انقشع الضبابُ، وتبددت السحبُ مثل قطيعٍ من الخراف، وظهر الربيعُ الحقيقي، تحت السماء المجلوّة. وفي صباح اليوم التالي، التهمت الشمسُ المتلألئة، عند طلوعها، قشرة الجليد الرقيقة التي غطت المياه، وارتعش الهواء الساخن بالبخار الصاعد من الأرض التي عادتْ إليها الحياةُ. فاخضر العشب القديم، وطلع العشب الجديد بإبره على وجه الأرض. وامتلأت بالنسغ براعم البلسان والكشمش والبتولة اللزجة ذات الإريج المُثمل، وحول الصفصاف الذي غمره الضوءُ المذهب، طفق النحلُ يرتع وهو يدوّي، بعد أن سُحب من خصاص الأغصان التي وضع فيها أثناء الشتاء. وأخذت القبراتُ التي لا تُرى تصبَ ألحانها فوق المروج المخملية، وبين أصول الزرع المغطّى بالجليد، وجعلت طيور الزقزاق النهرية تبكي وديانها ومستنقعاتها بعد أن غمرتها مياه الفيضان التي طال مكثُها على الشطآن؛ وبين السحب، كانت تمرّ أسرابُ الكركي والبط البري مرسلةً صراخ الربيع. وخارت الماشية التي ذهب شعرها ولم ينبت بعد إلا في بعض المواضع، وهي تروح إلى المراعي، ووثبت الحملان ذاتُ القوائم الواهية حول أمّاتها الثاغية التي بدأت تفقد صوفها؛ وتراكض الصبيةُ الخفاف على

طول الدروب حيث كانت تجف آثارُ أقدامهم العارية، ودوّت أصواتُ النساء فرحةً قرب المستنقع الذي كن يغسلن فيه غسيلهن، وفي باحات الدور رنّت فؤوس الفلاحين وهم يصلحون المحاريث والأمشاط. لقد أقبل الربيع الحقيقي.

[١٣]

احتذى ليفين جزمته الطويلة، واستبدل لأول مرة، بمعطف الفرو سترةً من الجلد، ومضى يطوف في أراضيه، متخطياً السواقي الباهرة، واضعاً رجله على قطعة من الجليد تارة وعلى الوحل اللزج تارة أخرى.

الربيع زمنُ الخطط والمشاريع. عندما خرج ليفين، لم يكن يعلم جيداً ما سيشرع به أولاً في هذا الملك الذي أحبه كثيراً، لكنه كان يحس أنه مليء بالخطط والمشاريع العظيمة؛ كان كشجرة في الربيع تجهل إلى أي حد وكيف ستنمو البراعم والأغصان المحبوسة في هذه البراعم المليئة بالنسغ. ذهب، قبل كل شيء، إلى زيارة الماشية. كانت البقرات قد أُرخيت في زريبة مسوّرة، تدفيء شعرها اللماع الذي كان ينبت، وتخور طالبة أن تُساق إلى الحقول. بعد أن تأمل ليفين هذه البقرات التي ألفها حتى في أدنى تفاصيلها، أمر أن تُساق إلى الحقول وأن تُخرج العجولُ إلى هذه الزريبة. فمضى الراعي فرحاً يستعد للرحيل. وشمّرت البقّارات تنانيرهن وركضن بعصيهن، وهن يحبطن في الوحل بأرجلهن البيضاء الحافية، خلف العجول الخائرة التي أثملها فرح الربيع، ودَفَعْنها إلى فناء الزريبة.

تأمل ليفين الحيوانات الفتيّة، المولودة في هذه السنة، وكانت نادرة الجمال؛ أكبرها سناً كان بقامة البقرة العادية، وكانت ابنة «بافا»، وعمرها ثلاثة أشهر، قوية كحيوان ابن سنة. ثم أمر أن يحمل المزود إلى الخارج وأن يوضح طعامها في المعالف. لكن هذه المعالف التي صنعت في الخريف، ولم تُستعمل في الشتاء، أصيبت بأضرار. وأرسل ليفين مَنْ يطلبُ النجار الذي استُدعي لإصلاح الدرّاسة،

فتبين أن هذا النجار كان يصلح الأمشاط التي ينبغي أن تكون جاهزة للعمل بعد الصيام. فاغتاظ ليفين، تألمَ لأنه كان يصطدم أبداً بهذا التقصير الدائم الذي قاومه بكل قواه منذ سنوات. إن المعالف، وهي عديمة الفائدة في الشتاء، نُقلت إلى اسطبل خيل الجرّ، أو صُنعت للعجول بدون اتقان، فانكسرت. وفضلاً عن ذلك، فإن الأمشاط وجميع الآلات الحراثية، التي ينبغي أن تُفحص وتُعد منذ الشتاء (استخدم ثلاثة نجارين لهذه الغاية)، لم تمسّها يد، والعمل منصب الآن على الأمشاط، بينما كان ينبغي أن ينصب على تفتيت المدر. وأرسل ليفين من يسأل عن الوكيل، لكنه ما لبث أن ذهب بنفسه للبحث عنه. وصل الوكيل، متألق الوجه، ككل شيء في هذا اليوم، لابساً ثوباً قصيراً من جلد الحمل، قادماً من بيدر الدراسة، وهو يكسر بين يديه عوداً من القش.

ـ لماذا لم يعمد النجار إلى إصلاح الدرّاسة؟

ـ نعم، أحببتُ أن أقول لك ذلك البارحة: يجب إصلاح الأمشاط، لأن موعد الحراثة قد جاء.

ـ وماذا فعلتم إذن في هذا الشتاء؟

ـ وما حاجتك إلى النجار؟

ـ أين المعالف الخفيفة للعجول؟

ـ طلبت إخراجَها؟ لكن ماذا أفعل بهؤلاء الناس؟

فال ليفين متفجراً:

ـ أنا لا أؤاخذ الناس وإنما أؤاخذ الوكيل! ولماذا يا ترى، أدفعُ لك أجرك؟

ثم تذكر أن هذه ليست الوسيلة لإصلاح الأشياء، فتوقف في وسط خطبته واكتفى بإرسال زفرة، وسأله، بعد صمت:

ـ إذن، يمكن أن نبدأ البذار؟

ـ يمكن البذار خلف «توركينو» غداً أو بعد غد؟

ــ والنفل؟

ــ أرسلت بازيل وميشكا لبذاره، لكني لا أعلم إن كانا يستطيعان: فالوحل يغطي الأرض.

ــ كم هكتاراً ستزرعون؟

ــ ستة.

ــ فصرخ ليڤين:

ــ ولم لا تزرعون الأرض كلها؟

أن يزرعوا ستة هكتارات فقط من النفل بدلاً من عشرين، أشدّ إغاظة أيضاً. فالنفل لا يغلّ، نظرياً وتبعاً لتجربته الخاصة، إلاَّ إذا بذُر في وقت مبكّر، على الثلج تقريباً. وذلك ما لم يستطع ليفين أن يحصل عليه.

ــ تنقصنا اليدُ العاملة، وماذا تريد أن أفعل بهؤلاء الناس؟ ثلاثة منهم لم يأتوا. وسيمون. . .

ــ كنت تستطيع أن تعفيهم من نقل القش.

ــ هذا ما فعلته.

ــ أين هؤلاء إذن؟

ــ خمسة منهم يعملون في السماد، وأربعة ينقلون الشوفان، فأنا أخاف كثيراً أن يتعفن، يا قسطنطين دميتريتش.

كان ليفين يعلم كل العلم أن «أخاف كثيراً أن يتعفن» تعني أن الشوفان الانكليزي البذار قد تعفّن؛ لقد أُهملت أوامرُه، مرة أخرى. فصرخ:

ــ ألم أقل لكم أثناء الصوم أنه ينبغي أن توضع مدافىء.

ــ لا تشغلْ بالك، سيُصنع كل شيء في وقته.

حرّك ليفين يده بغضب، وذهب إلى مخازن الحبوب يتفقّد الشوفان وعاد إلى الاسطبل. لم يكن الشوفان قد خرب بعد. لكن العمال كانوا يرمونه بمجارفهم،

بينما كان يجب أن يُصَبّ رأساً في الطابق السفلي. فأعطى الأوامر المناسبة وسحب رجلين من هنا ليرسلهما إلى بذار النفل.

وسكن غضبُه على وكيله. كان النهار من الجمال بحيث يتعذر على المرء أن يغضب.

وصرخ بحوذيّه الذي شمّر عن كميه وأخذ يغسل العربة بالماء الغزير من البئر:

ــ اينياس، أسرجْ لي جواداً.

ــ أيها؟

ــ كولبيك.

ــ بأمرك.

بينما كان اينياس يسرج الجواد، دعا ليفين الوكيل الذي كان يتجوّل في أنحاء المكان، ليصالحه، وأخذ يحدثه عن أعمال الربيع وعن مشاريعه الجديدة.

يجب نقل السماد في وقت مبكّر، لكي ينتهي كل شيء قبل زمن الحش؛ حراثة الحقول البعيدة بالمحراث لكي ترتاح فترة من الزمن؛ استخدام العمال في الحصاد، لا المناصفة مع الفلاحين.

كان الوكيل يصغي بانتباه، وهو يبذل جهداً ظاهراً للموافقة على مشاريع معلّمه. لكنه بدا مهدوداً، واهي العزيمة، وهي هيئة كان ليفين يعرفها فيه ويغتاظ منها. كانت هذه الهيئة تقول: «كل ما تقوله حسن، لكن الأمور ستجري بمشيئة الله».

ما كان يمكن لشيء أن يُثير حفيظةَ ليفين مثل تلك الهيئة. وكانت مشتركة بين جميع الوكلاء الذين عملوا في خدمته. كانوا جميعاً يقفون منه هذا الموقف عندما يتحدث عن مشاريعه، لذلك لم يعد يغضب بسببها. إلا أنها كانت تؤلمهُ وتحفزه

إلى مصارعة تلك القوة البدائية التي لا يجد لها إسماً سوى: «ستجري الأمور بمشيئة الله»، وهي قوة كانت تقف، في كل لحظة، سداً منيعاً في وجهه.

ــ عسى أن نُفلح في ذلك، يا قسطنطين دميتريتش.

ــ ولمَ لا؟

ــ ينبغي استخدام نحو خمسة عشر رجلاً أيضاً. والعاملون قلة. لقد جاء بعضهم اليوم: طلبوا سبعين روبلاً في الصيف.

لزم ليفين الصمت. هذه القوة هي التي كانت تعيق أهدافه دائماً. كان يعلم أنه، مهما يبذلْ من جهد فلن يستطيعوا تشغيل أكثر من سبعة وثلاثين عاملاً أو ثمانية وثلاثين، بأجر معقول. ومع ذلك فلم يكن بوسعه أن يتخلى عن الصراع.

ــ أرسلْ إلى «سوري» وتشيفيروفكا وإذا لم يأتِ أحد، فيجب أن تبحث.

قال باسيل فيدورفتش برخاوة:

ــ نعم، هذا يمكن أن نفعله دائماً. وبالمناسبة، لقد ضعفت الجياد.

ــ سوف نشتري بعضاً منها.

وأضاف وهو يضحك:

ــ وأنا أعلم أنكم تستخدمونها أقل استخدام وأسوأه. لكني لن أترككم تعملون على هواكم، هذا العام. سأفعل كل شيء بنفسي.

ــ هذا مع أنك لا تنام كثيراً. بالنسبة إلينا، أبهجُ لنا أن نكون تحت عين المعلم. . .

قال وهو يعلو ظهر جواده الصغير «إيزابيل» الذي قاده الحوذي:

ــ إذن، سيُبذر النفلُ خلف حرجة البتولا؟ سألقي على المكان نظرةً سريعة.

صاح به الحوذي:

ــ لا تمرّ بالسواقي.

ــ طيب، سأمرّ من الغابة إذن.

على ذلك الجواد الصغير، اللطيف الذي سار سيراً ليناً سريعاً، وأخذ، من فرحته لترك الاسطبل، يشم مياه البرك وينخر فيها، ويشدّ رسنه، اجتاز ليفين الفناء الموحل، ومر من الباب الكبير، وأدرك الحقول.

إذا كان ليفين قد أحسّ بالفرح في الزريبة والفناء، فإن ابتهاجه تعاظم في قلب الحقول. كان يتهادى تهادياً موقّعاً من جراء هملجة جواده النشيط، متنشقاً الهواء الفاتر الذي امتزجت به أطرافٌ من النداوة عندما يجتاز بقايا الثلج المذرذر في الغابة والذي انتشرت آثاره هنا وهناك، منذهلاً أمام كل شجرة من أشجاره، أمام الطحلب الجديد على قشرتها وبراعمها المنتفخة. وحين خرج من الغابة امتدّ أمام ناظريه بساطٌ عريض من الأعشاب؛ لم تكن تظهر فيه أماكن جرداء، أو أماكن مملوءة بالماء، إلا بعض بقع الثلج المتخلفة في الوهاد. ولم يغتظْ لا من مرأى حصان الحراثة والجواد الأصيل اللذين كانا يدوسان حقله (لقد أمر فلاحاً لقيه في الطريق بأن يطردهما)، ولا من الرد الأحمق، المتهكم الذي ردّ به عليه الفلاح «هيبات»، وقد صادفه في الطريق وسأله: «ما رأيك، يا هيبات، هل يتم البذار قريباً؟» فأجابه هيبات: «يجب أن تُفلح الأرض أولاً». كان كلما تقدّم ازداد إحساسُه بالفرح وانهالت على فكره مشاريع شتى، كلُ مشروع منها أجودُ من أخيه: زراعة أشجار فتية، على الحد الجنوبي من حقوله، تمنع الثلج من البقاء طويلاً فيها؛ تقسيم الأراضي إلى ست قطع تُسمّد، وثلاث قطع احتياط لزراعة الكلأ؛ إقامة اسطبل على تخوم الحقول وحفر مستنقع فيها؛ بناء زرائب محمولة للماشية، بغية تسميد الأرض. وهكذا سيكون بالإمكان زراعة ثلاثمائة هكتار بالقمح، ومائة هكتار بالبطاطا، وخمسين هكتاراً بالنفل، دون أن تُنْهك الأرضُ.

وأدرك ليفين العمالَ الذين كانوا يبذرون النفل، وهو مستغرق في أحلامه، يسوق جواده بحذر على أطراف الحقول، لكي لا يطأ حقول القمح. لكن العربة المحمّلة بالبذار، بدلاً من أن تظل على الحد، دخلت الأرض المفلوحة، فديسَ

القمحُ بالعجلات وبحوافر الحصان. وكان العاملان جالسين، عند أول ثلم، ولعلهما أرادا أن يدخّنا غليوناً مشتركاً. ولم تكن الأرضُ الممتزجة بحبوب البذار قد نُعّمتْ بعد، وكانت عبارة عن كتل صغيرة من المدر القاسي أو المتجلّد. وعندما رأيا المعلم، اتجه باسيل إلى عربة البذار، وأخذ ميشكا يبذر. كان ذلك جديراً باللوم، لكن ليفين قلما كان يغضب على العمال. وعندما صار باسيل بجنبه، أمره أن يقود الحصان إلى مدخل الحقل.

فقال له باسيل:

ـ لا خيرَ من ذلك، يا معلم، فسيطلع القمحُ مرة أخرى.

قال ليفين:

ـ لا تناقش، إذا شئت، وافعلْ ما تُؤْمر به.

أجاب باسيل وقد أخذ الحصان برأسه:

ـ أنا بأمرك.

وأضاف ابتغاءَ مرضاته:

ـ هذا خيرُ بذار، يا قسطنطين دميتريتش! لكن المشي ليس سهلاً! والمرء يجر في كل قدم أثقالاً من المدر، وهو يمشي.

قال ليفين:

ـ ولِمَ لَمْ تُنعّم الأرض؟.

أجاب باسيل وهو يتناول في كفه قطعة من التراب ويفتّتها بين يديه:

ـ إننا ننعّمها.

ـ لم يكن باسيل مذنباً إذن، لكن ليفين اغتاظ، مع ذلك.

وبما أن ليفين تبين مراتٍ أن من الأفضل له كظم غيظه وتحمل البلاء بصبر، فقد استخدم هذه الوسيلة مرة أخرى. فلاحظ مشيةَ ميشكا، وهو يجرُّ كتلاً ضخمة من الطين عالقة بقدميه، ونزل عن جواده، وأخذ الخرج من باسيل وهمّ بالبذار.

ـ أين توقّفتَ؟

أشار لـه باسيل إلى أثر قـدم، وجعل يبـذر كما اتّفق لـه. كـان التقدم صعباً وكأنه في مستنقـع؛ وإذا بليفين يسبـح في عرقه، بعد ثلم واحد؛ فوقف وأرجـع المبذر.

قال باسيل:

ـ لا ينبغي أن تلومني في الصيف، على هذا الثلم، يا معلم.

فسأله ليفين بفرح وقد أحسَّ بنجوع الوسيلة المستخدمة:

ـ لماذا؟

ـ سترى في هذا الصيف. سيبدو واضحاً للعيان. انظر قليلاً إلى حيث بذرتُ في الربيع الماضي. كم أينعَ زرعه! ذلك لأنني أجهد نفسي، يا قسطنطين دميتريتش، كما أفعل لأجل أبـي! لا أحب أن أسيء العمل. وأنا أوصي الآخرين بذلك. إذا سُرَّ المعلم سُرِرْنا. عندما يرى المرءُ ذلك الحقل فإنه يبتهج.

وأشار بيده إلى أحد الحقول.

ـ هذا الربيع جميل، يا باسيل!

ـ إنه جميل جداً، حتى إن الكبار لا يتذكرون أنهم شاهدوا مثله. كنتُ في منزل الأهل؛ لقد زرع والدي ثلاثين صاعاً من الحنطة هناك. وهو يقول إنها لا تتميَّز من الشيلم.

ـ أمن زمن بعيد تبذرون الحنطة؟

ـ أنت نفسك أوصيتنا بذلك، في السنة الفائتة. أنت منحتنا البذار، فبعنا قسماً، وبذرنا ثلاثين صاعاً.

قال ليفين وهو يقترب من جواده:

ـ طيب، انتبهْ إلى تفتيت كتل المدر، وراقب ميشكا. وإذا جاد النفل ونما، فسوف تنال خمسين كوكباً على كل هكتار.

ـ علا ليفين جواده واتجه إلى الحقل الذي زُرع بالنفل في السنة الماضية. والحقل الذي حُرث ليزرع بقمح الربيع.

كان النفل يانعاً. لقد نما نمواً تاماً واشتدَّت خضرتُه خلف سوق القمح المكسّرة من السنة الماضية. كان الجواد يغوص في الوحل حتى رسغه، وكان كل حافر من حوافره ينفصل عن الأرض التي ذاب نصف جليدها وله مثل صوت المِحْجم. كان من المستحيل تماماً اجتياز الأرض المحروثة. الأرض المجلَّدة وحدها، هي التي ظلت صلبةً تقاوم، أما في الأثلام فإن الجواد كان يغوص في الوحل حتى عرقوبه. كانت الحراثة رائعة. ففي مدى يومين يمكن تمشيط الأرض وزرعها.

كل شيء كان جميلاً، كل شيء كان بهيجاً. وعند عودته، رجع ليفين عن طريق السواقي، آملاً أن تكون المياه قد انخفضت. وبالفعل، فقد استطاع أن يعبرها، وخوّف بطتين. وفكّر: «لا بد أن يوجد هنا أيضاً دجاج الأرض»، وعند المنعطف، قبل البيت، التقى حارساً أكَّد له صحَّة ظنه.

ـ سار ليفين عدواً لكي يتسنّى له أن يتعشّى وأن يُعدّ بندقيّته للمساء.

[١٤]

بينما كان ليفين يعود إلى بيته، وهو في أقصى حالات الفرح، سمع جلجلاً من جهة درج المدخل المركزي.

قال في نفسه: «إنه شخص يصل من المحطة، فهذا بالضبط موعد قطار موسكو... مَنْ تراه يكون؟ وإذا كان أخي نيقولا؟ قال لي: ربما ذهبت إلى مياه الاستشفاء، وربما ذهبتُ إليك». شعر، في اللحظة الأولى، بالسرور، والخوف من أن يفسد عليه أخوه الإحساس بالسعادة الذي حمَله إليه الربيع. لكنه ما لبث أن خجل من ذلك الشعور، وفتح، بالفكر، ذراعيه لأخيه، وأخذ يأمل من كل قلبه،

وبفرح متحنِّن، أن يكون حقاً هو. وحثَّ جواده، وعندما تجاوز شجرة سنط، شاهد عربةً من عربات الأجرة في المحطة تتجه إلى مسكنه وفيها رجلٌ جالس بمعطف فرو. لم يكنْ أخاه. قال في نفسه: «عسى أن يكون، على الأقل، شخصاً قريباً من النفس، أستطيع أن أحادثه قليلاً».

هتف ليفين بفرح وهو يتبيَّن شخص ستيڤان أركادييڤتش.

ورفع ذراعيه:

ــ آه! هذا ضيف جدير بالترحاب! أنا سعيد برؤيتك.

وفكر في نفسه: «سأعرف إن كانتْ قد تزوَّجتْ أو متى ستتزوَّج».

وبدا له أن ذكرى تلك الفتاة، في مثل هذا اليوم الربيعي الجميل، لا يسبّب له ألماً.

قال ستيڤان أركادييڤتش وهو ينزل من زلاجته، وقد تلطخ حاجباه وجبهته ووجنتاه بالوحل، لكنه كان يشع فرحاً وصحة:

ــ لم تكن تنتظرُني؟

وقال وهو يضم صديقه ويعانقه:

ــ جئت لأراك، أولاً؛ ولقليل من الصيد، ثانياً؛ ولبيع غابة ارغوشوفو، ثالثاً.

ــ رائع! ما رأيك بهذا الربيع؟ كيف استطعت أن تصل بهذه الزلاجة؟

فأجاب الحوذي الذي كان يعرف ليفين:

ــ جاء بعربة «التليغا» وهي أيضاً أسوأ، يا قسطنطين دميتريتش.

قال ليفين وعلى وجهه ابتسامة مشرقة طفولية:

ــ آه! أنا سعيد برؤيتك!

قاد ليفين ضيفه إلى غرفة الأصدقاء التي حُملت إليها أمتعة ستيڤان أركادييڤتش، وهي: حقيبةٌ، وبندقية في غطائها، وعلبة سيجار؛ ثم تركه يغتسل

ويبدِّل ثيابه، وقصد إلى مكتب الوكيل ليحدِّثه عن النفل والحراثة. أوقفته آغات ميخايلوفنا في البهو، وهي أبداً حريصة على كرامة المنزل، لتسأله عما ينبغي إعداده للعشاء.

فقال لها:

ــ اعملي ما تشائين.

وذهب إلى منزل وكيله.

عندما عاد، خرج ستيڤان أركادييڤتش من غرفته، وقد اغتسل وامتشط، وعلت وجهه ابتسامةٌ عريضة، فصعدا كلاهما إلى الطابق الأول.

قال ستيڤان أركادييڤتش:

ــ أنا سعيد بالوصول إليك! الآن، سأدرك الخفايا التي تفعلها هنا. لا، في الحقيقة، أنا أغبطك. وما أبدع البيت! وما أعذب كل شيء هنا! الجوُّ صافٍ، بهيج...

ونسي ستيڤان أركادييڤتش أن الربيع ليس أبدياً هنا، وأن الأيام ليست صافية جميعها كهذا اليوم. وأضاف:

ــ والمربية العجوز كم هي رائعة! ربما فضلتُ الخادمة المغناج بوزرتها البيضاء؛ لكن لا بأس بتلك مع حياتك الرهبانية، وأسلوبك البسيط.

ــ أنبأه ستيڤان أركادييڤتش بكثير من الأخبار المثيرة؛ ومن بينها أن أخاه سيرج ايفا نوفتش ينوي أن يأتيه في هذا الصيف.

لم يذكر شيئاً عن كيتي وعن آل تشرباتزكي؛ ونقل إليه فقط تحيات زوجته. فكان ليفين ممتنّاً لهذه اللباقة واغتبط بقدوم هذا الضيف. لقد جمّع في عزلته، كما هو شأنه دائماً، جملةً من الأفكار والعواطف لم يستطع أن يُطلع عليها أحداً ممَّن حوله، وأخذ يصبّ الآن على ستيڤان أركادييڤتش فرحه الشاعري بالربيع، وأنباءَ خيبته، ومشاريعه، وأفكاره، والملاحظات التي توصل إليها أثناء مطالعاته، ولا

سيما فكرته في كتابة كتاب يقوم، وإن لم يفطن لذلك، على نقد جميع المؤلفات السابقة حول الزراعة. أما ستيڤان أركادييڤتش، وهو أنيس المعشر، سريع الفهم أبداً، فقد بدا أثناء هذه الإقامة على درجة عظيمة من الظرف حتى خيّل إلى ليفين أنه رأى في موقفه منه ظلاً من الاحترام أرضى غروره، وضرباً من الحنان.

كان من نتائج الجهود التي بذلتها آغات ميخايلوفنا والطاهي لترتيب عشاء ممتاز، أن انقضَّ الصديقان على الخبز والزبدة والطيور والفطر المملَّح في المقبّلات، وأن ليفين أمر بتقديم الحساء قبل فطائر اللحم التي رجا الطاهي أن يَبْهر بها ضيفَه. لكن ستيڤان أركادييڤتش الذي تعوّد ألواناً أخرى من الطعام، استحسن كل شيء: الشراب والخبز والزبدة، ولا سيما الدجاج المملح والفطر وحساء القراص والدجاج بمرق بيشاميل، ونبيذ القرم الأبيض؛ كل شيء كان ممتازاً وشهياً.

قال وهو يشعل سيجارة كبيرة بعد الشواء:

ـ ممتاز، ممتاز! يُخيَّل إلى أنني هبطتُ على شاطىء أمين، بعد ضوضاء السفينة ورجّاتها! أنت ترى، إذن، أن العنصر العمّالي يجب أن يُدرس في ذاته وأن يوجّهك في اختيار مشروعاتك؟ أنا جاهلٌ في هذه القضايا، لكن يبدو لي أن هذه النظرية وتطبيقها سيكون لهما بدورهما تأثيرٌ في العامل.

ـ نعم، لكن انتظرْ: إني لا أتحدَّثُ عن الاقتصاد السياسي، بل عن الاقتصاد الريفي. إنه علم، والعامل من وجهة نظر اقتصادية وعرقية...

في هذه اللحظة، دخلت آغات ميخايلوفنا، حاملة الحلوى.

قال لها ستيڤان أركادييڤتش وهو يلثم رؤوس أصابعه الغليظة:

ـ تهانيّ، يا آغات ميخايلوفنا، ما أطيب تلك الثمار المحفوظة!... والشراب!...

وأضاف:

ــ ألم يحن أوانُ الذهاب، يا كوستيا؟

نظر ليفين من النافذة: كانت الشمس تهبط وراء القمم العارية.

ــ بلى، بلى. يا «كوْزما»، اربط الخيل.

ــ ونزل راكضاً.

عندما بلغ ستيڤان أركادييڤتش الطابق الأرضي، نزع بعناية غطاء القماش الثخين الذي يغطي صندوقة مدهونة، ثم فتح الصندوقة وأخرج منها بندقيةً ثمينة من نوع حديث. ولم يتركه «كوزما» الذي كان ينتظر حلواناً كبيراً، فألبسه جوربيه وجزمته، وارتضى أوبلونسكي ذلك.

ــ كوستيا، إذا وصل التاجر «ريابينين» (لقد قلتُ له أن يأتي اليوم) فقلْ له أنكم تستقبلونه ولينتظره...

ــ أتريد أن تبيع «ريابينين» الغابة؟

ــ نعم... أتعرفه؟

ــ لا شك! وقد عقدت معه صفقةً «موضوعياً ونهائياً».

فأخذ ستيڤان أركادييڤتش يضحك، لأن كلمتي «موضوعياً ونهائياً» كانتا الكلمتين المفضَّلتين عند التاجر:

ــ نعم، إن له طريقةً مضحكةً في الكلام.

قال ذلك وأضاف وهو يداعب بيده «لاسكا» التي كانت تئن شاكية، وتتململ أمام ليفين، لاحسةً يده حيناً، وجزمته وبندقيته، حيناً آخر:

ــ إنها تعلم أين يذهب سيّدها!

عندما خرجا كانت تنتظرهما عند درج المدخل عربة بمقعد.

ــ أمرتُ بإعداد العربة، مع أن المكان غير بعيد؛ ونحن نستطيع أن نذهب مشياً على الأقدام، إذا كنتَ تفضّل ذلك.

قال ستيڤان أركادييڤتش وهو يدنو من العربة:

ـ لا، إني أحبُّ العربة كذلك.

وجلس وغطى ساقيه بغطاء مخطَّط، وأشعل سيجاراً، وأضاف:

ـ كيف تستغني عن التدخين؟ السيجارُ، بصرف النظر عن اللذة، تتويجٌ للذة وعلامتها. هكذا فلتكنْ الحياة! ما أبدعها! كذلك أحب أن أعيش!

قال ليفين باسماً:

ـ ومَنْ يمنعك؟

ـ نعم، أنت رجل سعيد. ولديك كل ما تحب. أنت تحب الجياد، ولديك جياد؛ وتحب الكلاب، ولديك كلاب؛ وتحب الصيد والزراعة، وأنت تستطيع أن تمارسهما.

قال ليفين وهو يفكر في كيتي:

ـ لعل ذلك لأني أستمدُّ فرحي مما أملك دون أن آسف على ما فاتني ملكُه.

فهمه ستيڤان أركادييڤتش، وتطلع إليه، لكنه لم يقلْ شيئاً.

كان ليفين ممتناً لأوبلونسكي امتناناً كبيراً. ذلك أن أوبلونسكي لاحظ، بلباقته المعهودة، أن ليفين يخشى الحديث عن آل تشرباتزكي، ويتحاشى الكلام عليهم، لكن ليفين كان في شوق إلى أن يعرف معرفة دقيقة ما كان يقلقه، دون أن يجرؤ على التطرق إلى هذا الموضوع.

قال ليفين وقد رأى أن من غير اللائق التفكير في نفسه وحدها:

ـ وكيف تسيرُ أمورك؟

أخذتْ عينا ستيڤان أركادييڤتش تلمعان بفرح، وقد فهم سؤال ليفين، على طريقته:

ـ أنت لا تسلّم بأننا يمكن أن نشتهي الخبز الأبيض إذا نلنا حصَّتَنا منه بدقة؛ وفي رأيك أن هذا جرم؛ أما أنا فلا أسلّم بأننا يمكن أن نعيش بدون حبّ. وما حيلتي، هكذا جُبلتُ! والحق أن هذا قلَّما يسيء إلى الآخرين، وهذا يوفِّر لك لذَّة. . .

وسأله ليفين:

ـ كيف، وهل من جديد؟

ـ نعم، يا أخي. أتعرف ذلك النموذج من النساء لدى «لوسيان»... أولئك النسوة اللواتي نراهن، في الحلم... حسناً! هؤلاء النسوة موجودات، في الواقع... وهنّ رهيبات. المرأة موضوع جديد أبداً، مهما أنفقنا في دراسته من الوقت.

ـ إذن، فالأفضل ألا ندرسه أبداً.

ـ بلى، يقول أحد الرياضيين: إن المتعة ليست في اكتشاف الحقيقة، بل في البحث عنها.

كان ليفين يصغي دون أن يفوه بكلمة، لكنه لم يستطع، بالرغم من الجهد الذي بذله، أن يضع نفسه موضع صديقه، ولا أن يفهم عواطفه والسحرَ الذي يجده في دراسة هذا النوع من النساء.

[١٥]

قصدا إلى مكان غير بعيد من البيت، قرب ساقية، في غابة صغيرة من الحور. وعند طرف الغابة، نزل ليفين وقاد اوبلونسكي إلى ركنٍ في فرجةٍ مستنقعيّة مغطاة بالطحلب الذي تخلص من الطبقة الثلجية. وكَمنَ هو نفسُه في الطرف الآخر، بالقرب من شجرة عظيمة من أشجار البتولة، وبعد أن أسند بندقيته إلى قرمة أقرب الأغصان الجافة إليه، نزع قفطانه، ووضع زناره، وتأكدّ من حرية حركة ذراعيه.

جلستْ لاسكا العجوز التي تبعته، بحذر قبالته، ونصبتْ أذنيها. كانت الشمسُ تهبط خلف الغابة، وفي ضياء المغرب، برزت بروزاً واضحاً أشجارُ البتولة والحور بأغصانها المتدلية التي انتفخت براعمُها وأشرفت على التفجّر.

ومن الغابة التي بقي فيها شيءٌ من الثلج، كان الماء يسيل رقراقاً، في جداول صغيرة متعرّجة. وكانت العصافير تزقزق، وتتطاير من غصن إلى آخر، بين الحين والحين.

وفي فترات الصمت المُطلق، كان يُسمع حفيفُ الأوراق الميتة التي حركها الجليد أو العشب الطالع.

قال ليفين في نفسه، وقد لاحظ ورقة حور قرميدية اللون يرفعها طرف العشب الطالع: «في الحقيقة، إننا نرى ونسمع العشبَ الطالع!» لقد ظل واقفاً، مصيخاً بسمعه، متطلعاً حيناً إلى الأرض الرطبة المغطاة بالطحلب، وإلى لاسكا المترصّدة حيناً آخر، ناقلاً بصره إلى ذلك البحر من القمم العارية تارة، وتارة أخرى إلى السماء المكفهرة التي تجوبها كتلٌ من الغيوم البيضاء. ومرّ، في الأعالي، فوق الغابة البعيدة، عقابٌ يحرّك جناحيه ببطء، ومضى عقابٌ آخر في الاتجاه نفسه، وهو يحرّك جناحيه ببطء مثله، وتوارى عن الأنظار. وغدت زقزقةُ العصافير في الشجر أشد حدّة ولجاجة. وأرسلتْ بومةٌ، غير بعيدة، نعيبها: فارتعشت لاسكا، وتقدمت بضع خطوات حذرة، وحنت رأسها لتسمع. ودوّى نداء الوقواق في الضفة الأخرى من الساقية: أرسل صرخته المألوفة مرتين، وأراد أن يسرع فبُحّ وتوقف.

قال ستيڤان أركاديڤتش وهو يترك دغله:

ــ أتسمع، إنه وقواق!

أجاب ليفين، وخُيّل إليه أن رنين صوته قد عكّر الصمت:

ــ نعم، سمعتُ حان الوقتُ، الآن.

توارى شخص ستيڤان أركاديڤتش مرة أخرى خلف الدغل، ولم ير ليفين بعد ذلك سوى لهب متوهج، تبعته على الفور نقطة حمراءُ في سيجارة ودخان أزرق خفيف. وسُمعَ صوتٌ تشيك! تشيك! كان ستيڤان أركاديڤتش يصلي بندقيته.

سأل أوبلونسكي وهو يسترعي انتباه ليفين إلى صوت أصم ممتدّ:

ــ وهذا، صوت ماذا؟ كأنه مهر يصهل عابثاً، بصوته النحيف.

صاح ليفين وهو يصلي بندقيته:

ــ ألا تعرفه؟ هذا هو ذكر الأرنب. كفّ عن الكلام. اصغ. وسُمع من بعيد صغير خفيف، وفي مدى ثانيتين، وبايقاع منتظم يعرفه الصيادون جيداً، تبعه صفيرٌ ثانٍ، وثالث انتهى بصوت شبيه بصوت الخشخيشة.

رمى ليفين ببصره إلى اليمين، وإلى الشمال، وفجأة ظهر طائرٌ يطير في السماء ذات الزرقة الكدرة، فوق رؤوس الأغصان الرخصة المتشابكة في أعالي الحور. كان مقبلاً عليه. ودوى قرب أذنيه صوت أبح، شبيه بتقصف قماش مشدود يُمزَّق على دفعات؛ وانكشف منقار الطائر الطويل وعنقه؛ وفي اللحظة التي صوّب فيها ليفين عليه، لمع بريقٌ أحمر خلف الدغل الذي كمن عنده اوبلونسكي؛ وسقط الطائر كالسهم ثم استأنف طيرانه. وبريقٌ آخر تبعه انفجارٌ، وبعد أن صفق الطائر بجناحيه كأنه يحاول جهده أن يمكث في الفضاء، توقف، وسكن لحظة وسقط ثقيلاً على الأرض الموحلة.

قال ستيڤان اركادييڤتش الذي حال الدخان دون رؤيته:

ــ هل أخطأته؟

قال ليفين وهو يشير إلى لاسكا التي نصبت أذناً، وحركت في الهواء ذيلها الكثّ، وقد حملت الطائر القتيل إلى سيّدها بخطى وئيدة، كأنها تريد أن تطيل أمد سروره، وكأنها تبتسم:

ــ ها هو ذا!

أجاب ستيڤان اركادييڤتش وهو يحشو بندقيته:

ــ قناة البندقية اليمنى أخطأتْ هدفها، هذا سيء! اسكت... ها هي ذي دجاجة ثانية.

وبالفعل، سُمعت صَفراتٌ حادة تتابعت بسرعة. ووصلت دجاجتان بريتان تتطاردان وهما تطلقان صفيراً ضعيفاً فوق رأس الصيادين بالذات. فدوّت أربع طلقات، وإذا بالدجاجتين تنعطفان بغتة، كالسنونو، وتتواريان.

كان الصيد وفيراً. وقد صاد ستيڤان اركادييڤتش طائرين أيضاً وليفين اثنين، لكنه لم يجد سوى واحد. وحلّ الظلام. وصبّت الزهرةُ المضيئةُ الفضيّة، المنخفضة في الأفق، نورها الوضّاء في المغرب، ووراء أشجار البتولة الفتية. أما في المشرق، فإن السماك الرامح المعتم أشعل في الأعالي ناره الحمراء الغمّازة. وكان ليفين يتبين نجوم الدب الأكبر فوق رأسه حيناً، وتغيب عن بصره حيناً آخر. لكنه أصرّ على أن ينتظر الزهرة التي رآها من بين فرجات أغصان البتولة، حتى تظهر فوق رأسه[١]، وحتى تبدو جميعُ نجوم الدب الأكبر. ولقد تجاوزت الزهرة فرجات الأغصان، وبدت نجوم الدب الأكبر بأسرها في السماء الزرقاء المعتمة، لكن ليفين ظل ينتظر. فقال له ستيڤان أركادييڤتش:

ــ ألم يحن وقتُ العودة؟

كانت الغابة صامتة، لا يتحرك فيها طائر.

أجاب ليفين:

ــ لننتظره أيضاً بعض الشيء.

ــ كما تشاء.

ــ كانا الآن على نحو خمس عشرة خطوة أحدهما من الآخر.

قال ليفين فجأة:

ــ سيتفا، لم تخبرني إن كانت أخت زوجتك قد تزوجت أو إن كانت ستتزوج عما قريب.

(١) تظهر فوق رأسه: إن تولستوي المولع بالصيد والطبيعة، يغلط هنا غلطة مذهلة. فالزهرة التي تظهر مساء عند المغرب، لا تصعد بل تغيب ببطء.

كان ليفين يحس في نفسه بالثقة الشديدة وبالهدوء العظيم حتى خُيل إليه أن أي جواب عاجزٌ عن أن يهزّه. لكنه لم يكن يتوقّع هذا الجواب من ستيڤان أركادييڤتش:

ـ إنها لم تكن تفكّر في الزواج، وهي لا تفكّر فيه الآن أيضاً. وهي مريضةٌ جداً. وقد أرسلها الأطباء إلى الخارج. بل إنهم يخافون على حياتها.

فهتف ليفين:

ـ ماذا تقول؟ مريضة جداً! ماذا حلّ بها؟ كيف...

وبينما كانا يتحدثان، نصبت لاسكا أذنيها، وأخذت تفحص السماءَ وتنقل إليهما نظراتها المفعمة باللوم. وكأنما كانت تفكر وتقول في نفسها: «ما أحسن الوقت الذي اختاراه لحديثهما! هذه واحدة تأتي... ها هي ذي. سيخطئانها».

في هذه اللحظة بالذات، سمعا كلاهما صغيراً حاداً خرق أذنيهما؛ وفي الحال، تناول كل منهما بندقيته ودوّت، في الوقت نفسه، طلقتان. فطوت الدجاجة البرّية التي كانت تطير عالياً، جناحيها في الحال، وسقطت في الدغل فلَوَتْ أفنادَهُ اللدنة.

هتف ليفين الذي ركض مع لاسكا للبحث عن الطائر:

ـ آه! رائع! معاً!

وفكر: «آه! صحيح! لقد وقع حادثٌ مزعج! آه! إن كيتي مريضة... طيب! ما العمل؟ هذا مؤسف».

وقال وهو يسحب الطائر الساخن من فم لاسكا ويضعه في جعبته الملأى تقريباً.

ـ لقد وجَدتَهْ! ما أروعها!

وصرخ:

ـ ها هو ذا، يا ستيڤا!

عندما رجعا، سأل ليفين اوبلونسكي عن مرض كيتي وعن مشاريع آل تشرباتزكي، وقد سُرّ بما سمع، وإنْ خجل من الاعتراف بذلك أمام نفسه. لقد سُرَّ لأن هناك أملاً يلوح، ولا سيّما لأن التي جرّعته الآلام، أخذتْ تتألم بدورها. وعندما أراد ستيڤان أركادييڤتش أن يحدثه عن أسباب مرض كيتي وسمّى فرونسكي، قاطعه ليفين قائلاً:

ــ ليس لي الحق أبداً أن أطّلع على الأسرار العائلية، والحقيقة أني لا أهتمّ بها، على الإطلاق.

طافت على شفتي ستيڤان أركادييڤتش ابتسامة خفيّة، حين شاهد التبدّل المفاجىء في أسارير صديقه، وهو تبدّلٌ كان يصيبه، في العادة: لقد بدا مقطباً بقدر ما كان مرحاً قبل قليل.

سأله ليفين:

ــ هل اتفقت مع ريابينين لبيع الغابة؟

ــ نعم كان الثمنُ مغرياً: ثمانية وثلاثين ألف روبل. ثمانية آلاف تدفع مقدّماً، والبقية مقسّطة على ست سنوات. لقد أتعبتُ نفسي كثيراً في البحث. فلم يدفع أحدٌ أكثر من ذلك.

قال ليفين وهو متجهم الوجه:

ــ بعتَ غابتك بثمن زهيد.

قال ستيڤان أركادييڤتش وعلى فمه ابتسامة وادعة لعلمه أن ليفين لن يرضى عن شيء بعد الآن:

ــ بثمن زهيد وكيف ذلك؟

ــ لأن الهكتار منها يساوي خمسمائة روبل على الأقل.

قال ستيڤان أركادييڤتش بلهجة المزاح:

ـ آه! يا لهؤلاء النبلاء الريفيين! هذه هي حقاً لهجة الاحتقار التي تخاطبون بها سكان المدينة من أمثالي!... لكننا عندما نكون بصدد قضية نعالجها أو صفقة نعقدها فإننا نتصرف خيراً منكم. صدّقني. لقد عملتُ حساباتي، وهذه الغابة بيعت بشروط مناسبة جداً، حتى إني أخشى أن يتراجع التاجر عن كلامه. وأنت تعلم أن هذا السعر ليس مجحفاً بحقي.

لقد استخدم ستيڤان أركادييڤتش كلمة «مجحف» ليدلّل لليفين أن ريبته غير مسوّغة. وأضاف:

ـ ثم إن خشب الغابة أصلح للوقود. ولن يعطي الهكتار أكثر من ثلاثين قامةً، وقد دفع مائتي روبل بالهكتار.

ابتسم ليفين ابتسامة ازدراء. وفكرّ في نفسه: «أعرف هذه الأساليب، إنها أساليب جميع أبناء المدن. هم يأتون مرتين أو ثلاثاً إلى الريف كل عشر سنوات، ويلتقطون بعض الكلمات، ويستعملونها جزافاً، ويعتقدون أنهم يعرفون كل شيء. «مجحف»، «يعطي ثلاثين قامة»! إنه لا يفهم حتى معنى الكلمات التي يستخدمها. وقال:

ـ لستُ أقبل أن أعطيك درساً، عندما يتعلق الأمر بأوراق محكمتك، بل إني سآتيك عند الحاجة لأسألك المشورة. لكنك أنت قانع بأنك تفهم قضية الغابة بحذافيرها. المسألة دقيقة. هل عددت الأشجار؟

قال ستيڤان أركادييڤتش ضاحكاً، وراغباً أبداً في أن يبدّد سوداوية صديقه:

ـ عدّ الأشجار؟ كيف؟ كيف نعدّ ذرات الرمل[1] أو أشعة الكواكب؛ إن فكراً أسمى ربما أمكنه أن يفلح في ذلك...

ـ بالضبط: إن فكر ريابينين الأسمى يُفلح في ذلك، من دون شك. وليس

(١) كيف تعد ذرات الرمل: استشهاد ببيتين من قصيدة شهيرة عنوانها: «الله» للشاعر الروسي الكبير غابرييل دير جافين (١٧٤٢ ـ ١٨١٦).

من تاجر يشتري دون عد، إلا إذا تنازل البائع عن ملكه من أجل لقمة خبز، مثلك. إني أعرف غابتك. وأنا أذهب إلى الصيد فيها كل عام: إن الهكتار يساوي فيها خمسمائة روبل نقداً، بينما أعطاك هو مائتي روبل بالتقسيط. لقد وهبته حوالي ثلاثين ألف روبل.

قال ستيڤان أركادييڤتش بلهجة تدعو إلى الرثاء:

ــ لا تتحمس. لمَ إذن لا يدفع أحدٌ هذا المبلغ؟

ــ لأنه متواطىء مع التجار. أعطاهم تعويضاً لكي يتنازلوا. لقد تعاملتُ معهم، وأنا خبير بهم جميعاً. إنهم ليسوا تجاراً، بل هم لصوصٌ مهرّبون. وهم لا يدخلون صفقةً تدرّ فقط عشرة أو خمسة عشر بالمائة. بل إنهم ينتظرون أن يشتروا بعشرين كوبيكاً ما يساوي روبلاً.

ــ آه! اسكتْ! أنت متكدّر النفس.

قال ليفين وهو بادي الغم، وقد اقتربا من المنزل:

ــ أبداً، لا.

كانت تقف، أمام درج المدخل، عربةٌ مدعّمة بالحديد والجلد، وقد ربُط بها حصان فارهٌ بحزام عريض. وفي هذه العربة جلس وكيل ريابينين الذي كان يقوم بدور الحوذي. متحزّماً في ثيابه، أحمر الوجه. أما ريابينين نفسه فكان في المنزل، وقد استقبل الصديقين في البهو، كان ريابينين رجلاً متوسط العمر، طويلاً، نحيلاً، له شاربان، وذقن طويلة ومعقوفة، وعينان كئيبتان جاحظتان. وكان يرتدي معطفاً طويلاً، غامق الزرقة، له أزرار في أسفل الظهر، ويحتذي جزمة طويلة قابلة للطي فوق القدم، ومستقيمة على ربلة الساق، ومن فوقها مطاطٌ عريض. مسح وجهه بمنديله وشدّ أطراف معطفه، وهو لا يحتاج إلى الشدّ، وسلّم على القادمين وهو يبتسم، ماداً يده إلى ستيڤان أركادييڤتش كأنه يريد أن يلتقط شيئاً.

قال له ستيڤان أركادييڤتش وهو يمد يده:

ـ آه! وصلتَ. ممتاز.

ـ لم أجرؤْ على مخالفة أوامر سيادتك، مع أن الطريق سيئة. «موضوعياً» لقد قطعتُ الطريق ماشياً، لكنني جئت في اليوم المحدد.

وقال لليفين وهو يحرك يده ليلتقط يد ليفين:

تحياتي، يا قسطنطين دميتريتش.

لكن ليفين تظاهر، وهو مقطبٌ، بأنه لم يلمحه، وأخرج الدجاجَ البري من جعبته.

فأضاف ربايينين وهو ينظر إلى الدجاج نظرة اشمئزاز:

ـ كنتما تتسليان بالصيد؟ ما هذه الطيور؟ لا بد أن طعمها لذيذ.

وهزّ رأسه مستنكراً، وكأنه يشك بقيمة مثل هذه الغنيمة.

قال ليفين لستيڤان أركادييڤتش بالفرنسية وقد بدت الكآبة عليه:

ـ أتريد أن تنتقل إلى مكتبي؟ انتقلا إلى مكتبي، فهو أروحُ للحديث.

قال ريابينين بشيء من الوقار المتعالي، وكأنه يريد إشعاره بأن غيره يمكن أن يحس بالحرج في طريقة تعامله مع الناس، أما هو فإنه لا يتحرّج من شيء.

عندما دخل ريابينين المكتب، جال فيه بعينيه، كأنه يبحث عن الأيقونة، لكنه لم يرسم إشارة الصليب بعد أن وجدها. وتفحّص المكتبة والرفوف الملأى بالكتب بنظرة الشك نفسها التي نظر بها إلى الدجاج، وابتسم ابتسامةٌ مستخفة، وهزّ رأسه هزة استنكار حاسم، هذه المرة.

سأله أوبلونسكي:

ـ حسناً! هل جئت بالمال؟ اجلسْ.

ـ المال لن يقف عائقاً. لكني جئت لأراك، لأحدثك.

ـ وما حاجتنا إلى الحديث؟ لكنْ، هلا جلستَ.

قال ريابينين، وهو يجلس، ويتكىء على مسند المقعد، على نحو غير مريح:

ــ نعم، ينبغي أن تتساهل في السعر، يا أمير، سيكون ذلك إخلالاً مني لكن المال جاهزٌ «نهائياً»، حتى آخر كوبيك. لن يقع تأخرٌ بشأن المال.

كان ليفين، في هذه الأثناء، يضع بندقيته في الخزانة، وقد أوشك أن يَعْبر عتبة الباب، لكنه عندما سمع هذه الكلمات توقف وقال:

ــ إنك اشتريتَ الغابة بثمن بخس. ولقد جاءني متأخراً، وإلا لحدّدتُ السعر بنفسي.

نهض ريابينين، ونظر إلى ليفين من رأسه إلى قدميه، وهو يبتسم، دون أن يتفوّه بكلمة.

وقال لستيڤان أركادييڤتش مبتسماً:

ــ قسطنطين دميتريتش كثير التدقيق. وهو لا يشتري «في النهاية» شيئاً. لقد ساومْتُه على حنطته ودفعت له سعراً مناسباً. . .

ــ ولمَ أعطيك غلتي بلا مقابل، إني لم ألتقطها من الأرض ولا سرقتها.

عفوك، من المستحيل «موضوعياً» أن يسرق الإنسان في عصرنا. كل شيء، في عصرنا، يتمّ، نهائياً، عن طريق الإجراءات العامة، بشرف، فالسرقة غير واردة. إننا نتحدث بكل صدق. فلو اشتريت الغابة بثمن فاحش لما استطعت أن أردّ النفقات التي دفعتها. إني أطلب إليكم تخفيض السعر قليلاً.

قال ليفين:

ــ مهلاً، هل تمّ البيعُ، نعم أم لا؟ إذا كان قد تمَّ فلا مجال للمساومة، أما إذا لم يتمّ فسأشتري أنا بنفسي الغابة.

توارت الابتسامةُ بغتةً عن وجه ريابينين. وكسا وجهه تعبيرٌ وحشيٌّ شره كالذي للطيور الكاسرة. وحل أزرار معطفه على عجل، بأصابعه الناحلة،

فكشف عن قميصه، وأزرار صدرته النحاسية، وسلسلة ساعته، وأخرج محفظةً بالية.

وقال وهو يرسم إشارة الصليب بسرعة ويمد يده:

ــ عفواً، الغابةُ لي. خذ المال. الغابة لي.

وأردف وهو يقطب حاجبيه ويهزّ محفظته:

ــ هكذا ينهي ريابينين أموره، إنه لا ينظر إلى المال.

قال ليفين:

ــ لو كنتُ مكانك، لما استعجلتُ.

قال اوبلونسكي بدهشة:

ــ لكني أرجوك، لقد أعطيته وعداً.

خرج ليفين من الحجرة وهو يصفق الباب. تبعه ريابينين ببصره وهزّ رأسه مبتسماً:

ــ ذلك كله من جراء الشباب، وليس سوى صبيانيّة، «في النهاية»، لا أكثر. لأني لم أشتر هذه الغابة، قسماً بشرفي، إلا للافتخار، إذا صح القول لكي يقال: إن ريابينين لا غيره هو الذي اشترى غابة اوبلونسكي. ولستُ أدري ماذا سيحلّ بي. خلِّها على مشيئة الله. سنذهب لتحرير هذه الاتفاقات الصغيرة، إذا شئتَ.

بعد ساعة، صعد التاجر بمعطفه وفروته المشدودة بعناية، وفي جيبه عقدُ البيع، إلى عربته ذات العجلات الممدّدة بقوة وعاد إلى بيته.

وقال لوكيله:

ــ آه هؤلاء السادة! إنهم يرددون الأغنية نفسها أبداً!

أجاب الوكيل وهو يعطيه الزمام من أجل أن يزرّر ستارها:

هيه! صحيح. وهذه الصفقة الصغيرة، يا ميشيل اغنافيتش؟

ــ لا بأس! لا بأس!

[١٧]

صعد ستيڤان أركادييڤتش إلى الطابق الأول، وجيبه محشوّ بالأوراق النقدية الجديدة. (سلفة عن ثلاثة أشهر من التاجر). لقد تمّ البيعُ، ووضَعَ المال في جيبه، وكان الصيد رائعاً، فامتلأت نفسه بالحبور والانشراح؛ لذلك حرص أشد الحرص على أن يبدد الكآبة التي استولت على صديقه. وكان يود أن ينهي يومه، عند العشاء، بسرور كما بدأه.

كان ليفين في الحقيقة منقبضَ النفس، وبالرغم من رغبته التامة في أن يظهر لطفه وإيناسه لصديقه، إلا أنه لم يستطعْ أن يسيطر على نفسه. فالنشوة التي أحسّ بها، عندما علم أن كيتي لم تتزوج، تملكته شيئاً فشيئاً.

كيتي لم تتزوَجْ، لكنها كانت مريضةً، مريضة بحب رجل ازدراها. خُيّل إليه أن هذه الإهانة تصيبه مباشرة. فرونسكي ازدرى كيتي، وكيتي ازدرته، هو، ليفين. فمن حق فرونسكي إذن أن يحتقر ليفين، فهو عدوّه. لكن ليفين لم يكن يفكّر في ذلك كله. كان يحسّ إحساساً غامضاً أن في ذلك شيئاً مهيناً له، فيغضب في هذه اللحظة لا على ما يهينه بل على كل شيء. هذا البيعُ الأحمق للغابة، والحيلة التي انطلت على أوبلونسكي، تحت سقفه، كل ذلك كان يغيظه.

قال وهو يُقبل على ستيڤان اركادييڤتش:

ــ انتهت القضية، إذن؟ أترغب في العشاء؟

ــ لست أرفض ذلك. إني أشعر بشهية غير عادية في الريف.

لِمَ لمْ تقدّم شيئاً لريابينين؟

ــ فليْغرب عني لا ردّه الله.

قال اوبلونسكي:

ــ إنك تعامله على نحو غريب! حتى إنك لم تمد إليه يدك. لماذا؟

ــ لأنني لا أمدّ يدي لخادم. مع أن الخادم أفضل بمائة مرة منه.

قال اوبونسكي:

ــ كم أنت متخلّف! ودَمْج الطبقات؟

ــ أتركْهُ لمن يجدون لذةً في الدمج! أما أنا فآنف من ذلك.

ــ أنت متخلّف، من غير شك، على ما أرى.

ــ في الحقيقة، لم أسأل قط نفسي مَنْ أنا. أنا قسطنطين ليفين، وكفى.

قال ستيڤان أركادييڤتش وهو: يبتسم:

ــ وقسطنطين ليفين متكدّر المزاج.

أنا متكدّر المزاج، أتعلمُ لماذا؟ بسبب هذه الصفقة الغبية للغابة، أعذرْني على هذه الكلمة...

ظهر على ستيڤان اركادييڤتش القلقُ والسذاجة، كالرجل الذي يُهان ويُذَل ظلماً. وقال:

ــ لندعْ ذلك. فالمرء لا يبيع شيئاً حتى يقول له الناس على الفور: «إنه يساوي أكثر من ذلك!» وهو لا يجد قبل البيع من يسومُه... لا، أرى أنك حاقدٌ على هذا المسكين ريابينين.

ــ ربما. أوَ تعلمُ لماذا؟ ستقول لي أيضاً إنني متخلف أو كلمة فظيعة من هذا النوع، لكني حزين وقلق على هذا الافتقار العام لدى الطبقة النبيلة التي أنتمي إليها، وأنا بالرغم من دمج الطبقات سعيدٌ بالانتماء إليها... وهذا الافتقار ليس نتيجة لحياة البذخ. ولو كان كذلك لهان الأمر، فحياة البذخ من شأن النبلاء، وهم وحدهم يحسنونها، الفلاحون، اليوم، يجمّعون الأراضي من حولنا: وهذا لا يسؤُني. فالسادة الإقطاعيون لا يعلمون شيئاً، والفلاحون يعملون وينتزعون من العاطلين أرضهم. لا بد أن تكون الأمور على هذا النحو. وأنا جد سعيد بذلك للفلاحين. لكن الذي يذلّني هو أن هذا الافتقار يرجع إلى... لا أدري كيف أقول... إلى ضرب من البراءة. فهذا مزارعٌ بولوني يشتري بنصف الثمن ملكيةً

رائعة من سيدة تسكن في «نيس». وهذا يبيع تاجراً أرضه بيعَ عِينة، الهكتار منها بروبل مع أنه يساوي عشرة. وها أنت هنا تهب هذا النذلَ، بدون أي داع، ثلاثين ألف روبل.

ـ ما الذي كان ينبغي فعله، إذن؟ عدّ الأشجار؟

ـ بدون شك. أنت لم تعدّها، لكن ريابينين عدّها. وأولاد ريابينين سيحصلون على وسائل العيش، وسيمكنهم أن يتعلموا، أما أولادك فربما لا.

ـ عوفاً، في هذه الحسابات ما يدعو إلى الرثاء، إن لنا مهنتنا ولهم مهنتهم، وعليهم أن يستغلّوها. على كل حال، لست أبالي بما جرى، فما كان قد كان. آه! ها هوذا البيض في الطبق، إن طريقة تحضير البيض هي التي أفضلّها! وستعطينا آغات ميخايلوفنا شيئاً من ذلك الشراب الرائع. . .

جلس ستيڤان أركادييڤتش إلى المائدة وأخذ يُمازح آغات ميخايلوفنا، مؤكداً لها أنه لم يتناول، منذ زمن بعيد، مثل هذا العشاء الفاخر ولا مثل ذلك الحساء اللذيذ.

قالت آغات ميخايلوفنا:

ـ أنت، على الأقل، تحسن الثناء. ولست مثل قسطنطين دميتريتش: إذ يمكننا أن نقدم له ما نشاء، ولو كسرة خبز، فيأكل وينصرف.

عبثاً حاول ليفين أن يسيطر على نفسه، فقد ظل حزيناً وصامتاً. كان يود لو يطرح سؤالاً على ستيڤان اركادييڤتش، لكنه لم يستطع أن يُقْدم على ذلك، ولم يَعْرف بأي شكل وفي أي وقت يطرحه. وكان ستيڤان اركادييڤتش قد نزل إلى حجرته، وخلع ثيابه، واغتسل، ولبس ثوب النوم المخططَ بأنابيب، واضطجع، ولبث ليفين في غرفته يحدثه بتفاهات، ولم يقوَ على سؤاله عمّا يريد.

قال وهو يخرج ويفحص قطعة من الصابون المطيّب الذي أعدته آغات ميخايلوفنا للضيف، وإن لم يستخدمه اوبلونسكي.

ـــ ما أحسن الصابون الذي أخذوا يصنعونه. انظر: إنه تحفة فنية.

قال ستيڤان اركاديـيڤتش وهو يتناءب وقد بدت الغبطة على محياه:

ـــ نعم، كل شيء يسير في طريق الإتقان، في أيامنا المسارح وأماكن اللهو مثلاً...

وتثاءب وهو يقول:

ـــ آآه! آآه! لقد انتشر النورُ الكهربائي في كل مكان... آآه!

قال ليفين:

ـــ نعم، النور الكهربائي.

وسأله وهو يضع قطعة الصابون فجأة:

ـــ نعم، قل لي: أين فرونسكي الآن؟

قال ستيڤان اركاديـيڤتش وقد توقف عن التثاؤب:

ـــ فرونسكي؟ إنه في بطرسبرج. لقد سافر بعدك بقليل، ولم يرجع إلى موسكو بعد.

ثم أردف قائلاً، بعد أن اتكأ بمرفقه على الطاولة، وأسند على يده وجهه الجميل النضر الذي لمعت فيه عيناه الوادعتان، الرقيقتان، الناعستان كما تلمع النجوم:

ـــ أتعلم، يا كوشيا، سأصارحك بالحقيقة. أنت مخطىء، لقد خفتَ من منافسك. لقد قلتُ لك آنذاك أنني لا أعلم حظّ أيّ منكما أوفر، فلمَ لمْ تتقدّمْ لخطبتها؟ لقد قلت لك، في ذلك الزمن أن...

وهنا تثاءَب بفكيه دون أن يفتح فمه.

فكّر ليفين وهو ينظر إليه:

ـــ «أيعلم أم لا يعلم أنني طلبتُها للزواج. نعم، إن في وجهه شيئاً من المكر والمداورة».

وإذا أحسّ أنه أخذ يحمّر، حدّق في عيني ستيڤان اركادييڤتش، دون أن ينطق بحرف.

وتابع اوبلونسكي قائلاً:

ــ وإذا كان قد بدر منها شيء فهو انجذاب سطحي. فتلك الأساليب الكيّسة والتطلعات الاجتماعية أشد تأثيراً في أمها منها في كيتي، كما تعلم.

اكفهرّ ليفين. فإهانة الرفض الذي اصطدم به، لذعت قلبه كأنها جرح حديث العهد. لكنه كان في بيته، وجدران البيت تحمي مَنْ فيها.

فانبرى ليفين يقول، مقاطعاً اوبلونسكي:

ــ انتظرْ، انتظر. إنك تتحدث عن الأساليب الكيّسة. فاسمح لي أن أسألك ما قوام هذه الأساليب الكيّسة لدى فرونسكي أو غير فرونسكي، هذه الأساليب الكيّسة التي أباحت لها أن تحتقرني؟ أنت تعتبر فرونسكي ارستقراطياً، أما أنا فلا. رجلٌ أبوه طلع من لا شيء، بفضل المكيدة، وكان لأمه مغامرات غرامية مع جميع الناس... لا، أعذرْني. لكنني اعتبر الطبقة الارستقراطية أولئك الناس الذين يستطيعون مثلي أن يسلسلو أنفسهم إلى ثلاثة أجيال من العائلات النبيلة أو أربعة أجيال، وهي في أعلى درجات الثقافة (أما الموهبة والذكاء فتلك قضية أخرى)، ولم تتملق أحداً ولم تحتجْ إلى أحد، مثل أبي وجدي، وأنا أعرف الكثير من أمثالهما. أنت ترى من الحقارة أن أعدّ شجر الغابة. وتهبّ ريابينين ثلاثين ألف روبل، ولكنك ستقبض دخلاً[1] أو شيئاً لا أدري ما هو، وهو ما لن أفعله، ولذلك تراني أكبرُ قيمةَ ميراثَ أهلي وثمرة عملي... نحنُ الارستقراطيون، لا أولئك

(١) ستقبض دخلاً: كان يمكن للملك أن يخصص لأحد أصحاب الرتب العالية، زيادة على أجره أو تقاعده، مرتباً خاصاً يحمل إسماً غريباً هو «المزارعة»، ولعل أصل ذلك أن أملاك الدولة قديماً كانت تؤجر بالمزارعة.

الذين لا يستطيعون أن يعيشوا إلاَّ بفضل الأقوياء في هذا العالم، والذين يمكن شراؤهم بعشرين كوبيكا.

قال ستيڤان اركاديپڤتش بفرح صادق، وإن أحسّ ليفين، حين تحدّث عن أولئك الذين يمكن شراؤهم بعشرين كوبيكاً قد قصده هو أيضاً. لقد استمتع كثيراً بهذه الفَوْرة، فقال:

ــ على مَنْ تثور؟ أنا من رأيك، على من تثور؟ ومع أنك ظلمتَ فرونسكي من وجوه عدة، إلاَّ أنني لا أتحدّث عن ذلك الآن. إني أقول لك بصراحة: لو كنتُ مكانك لذهبت إلى موسكو معي. . .

ــ لا، لا أدري إن كنتَ تعلم أم لا، سيان عندي، وسأصارحك: لقد طلبتُ يد كاترين الكسندروفنا فرُددتُ خائباً، ولذلك فذكراها مؤلمة ومُذلّة لي.

ــ ولماذا؟ يا لها من حماقة!

قال ليفين، بعد أن أفرغ كل ما في قلبه واسترد هدوءَ الصباح:

ــ لنترك الكلامْ على ذلك. اعذرني، أرجوك، إذا كنتُ خشناً معك. ألم تغضب علي، يا ستيڤا؟ أرجوك، لا تغضب.

وأخذ يده وهو يبتسم.

ــ لا، أبداً، لا داعي للغضب. أنا مسرور لأننا تفاتحنا. أتعلم أن الصيد ممتع أيضاً في الصباح، في هذه الحالة لن أنام، وسأذهب رأساً إلى المحطة.

ــ اتّفقنا.

[١٨]

مع أن حياة فرونسكي الداخلية بأسرها قد استغرقها حبّه، إلاَّ أن حياته الخارجية لم تتبدل، وسارت سيرها المحتوم في المنحدر الذي كانت تجذبها إليه مصالحه القديمة وعلاقاته، في المجتمع وفي الفوج على حد سواء، وكانت مصالح

الفوج تحتل مكاناً هاماً في حياة فرونسكي، لأنه كان يحب فوجه، وفوق ذلك، لأن أفراد فوجه كانوا يحبونه ولم يكونوا يحبونه فحسب، بل إنهم كانوا يحترمونه. ويفخرون به، ويعتزون بأن هذا الرجل العظيم الثراء، المثقف، المقتدر، الذي بوسعه أن يبلغ أسباب النجاح الباعث على الغرور وحب الذات، قد احتَقَرَ ذلك كله، ووضع فوق مصالح الوجود كلها، مصالحَ فوجه ورفاقه. كان فرونسكي يعرف رأي رفاقه فيه، فكان يحس أنه ملزم بتصديق هذا الرأي، فضلاً عن أنه كان يحبّ هذه الحياة.

وغنيّ عن القول أنه لم يكن يحدّث أحداً عن حبه. ولم يندّ عنه ما يثير الشك حتى في أطول جلسات السكر (على كل حال، لم يصل به السكرُ قط إلى حد فقدان الرقابة على ذاته)، وكان يُخرس أفواه الطائشين الذين يحاولون التلميح إلى علاقته.

وبالرغم من ذلك، فقد كانت المدينة كلها تعرفُ حبّه، وكان الناس يستشفون، على نحوٍ ما، علاقَته بالسيدة كارينين: وكان معظم الشباب يحسدونه على ما كان يرهقه أكثر من غيره: مركز السيد كارينين الرفيع الذي أسهم في نشر أنباء علاقته.

أما معظم النساء الحاسدات لآنا واللواتي طالما تعبن من ترديد الناس: إنها امرأة «مضبوطة»، فقد فرحن حين رأين ظنونهن تصدق، ولم يكنّ ينتظرن سوى التأكد من تحول الرأي العام ليسحقها بكل ثقل احتقاره، وقد هيّأن مجارف الوحل الذي سيلقينه عليها إذا آن الأوان، وأسف الذين تقدّمت بهم السن والذين تسنّموا المناصب العالية للفضيحة الاجتماعية الوشيكة.

لقد سُرّت أم فرونسكي، في البداية، عندما علمت بهذه العلاقة، فلا شيء، في رأيها، يمكن أن يكمل تكوين شاب لامع مثل هذه العلاقة في المجتمع الراقي، ولأن كارينين هذه التي أعجبتها كثيراً، والتي حدثتها كثيراً عن ابنها لا تتميّز، آخر

الأمر، في شيء (هكذا كانت تفكر الكونتيسة فرونسكي) عن النساء الجميلات الراقيات. لكنها سمعت، في الآونة الأخيرة، أن ابنها قد رفض مركزاً مرموقاً في عمله، وذلك ليظلْ فقط في فوجه قريباً من السيدة كارينين، وعلمت أن شخصيات كبيرة قد حقدتْ عليه من جراء ذلك، فتغير رأيُها. كما أثار امتعاضَها أن هذه العلاقة لم تكن ــ على قدر ما تستطيع أن ترى ــ تلك العلاقة اللامعة، الاجتماعية الملأى بالرشاقة، التي توافق عليها، بل إنها كانت هوىً فاجعاً، على نمط «فرتر[1]»، هوى يمكن أن يؤدي بابنها إلى ارتكاب الحماقات. لم تكن قد رأته منذ ذهابه المفاجيء من موسكو فأرسلت إليه مع أخيه تطلب مجيئه إليها.

وكان أخو فرونسكي الأكبر غير راض عن أخيه أيضاً. ولم يكن يُبالي بأن يعلم إن كان هذا الحب عميقاً أم سطحياً، مشبوبَ العاطفة أم لا، متيناً أم لا، (هو نفسه كان يُنفق على راقصة، مع أن له أولاداً، ولهذا كان ميالاً إلى التسامح)، لكنه كان يعلم أن هذا الحب لا يُرضي مَنْ ينبغي أن يرضوا، ولذلك كان يستنكر سلوك أخيه.

وكان لفرونسكي شاغلٌ آخر أيضاً، فضلاً عن خدمته والتزاماته الاجتماعية، هو الجياد التي كان هاوياً مولعاً بها.

كان على الضباط أن يشاركوا، هذا العام، في سباق الحواجز فسجّل فرونسكي اسمه، في قائمة المتسابقين، واشترى فرساً إنجليزيةً أصيلةً، وبالرغم من حبه، فقد أقبل بشغف، وبشيء من التحفظ، على استعدادات السباق.

لم يكن حبه لآنا وولعه بالخيل متناقضين على العكس، لقد كان بحاجة إلى ما يُزجي به وقته، إلى تسلية مستقلة عن حبه يجدّد فيها نشاطه، ويستريح فيها من الانفعالات العنيفة التي كانت تهزّه.

---

(١) فرتر: بطل رواية شهيرة لغوته (١٧٧٤)، وهو عاشق عاطفي بائس انتهى بالانتحار.

[١٩]

في يوم السباق، في «كراسنويه سيلو[١]»، جاء فرونسكي أبكر من عادته ليتناول شريحة من لحم البقر في نادي الضباط. ولم يكن بحاجة إلى مراقبة نفسه بصرامة مفرطة، فقد بلغ وزنه الحد المفروض بالضبط.

لكن كان من الواجب ألا يسمن أكثر من ذلك، ولذلك كان يتحاشى المعجنات والحلويات. جلس، وسترته المفتوحة الأزرار تكشف عن صدرةٍ بيضاء، واتكأ بمرفقيه على الطاولة، وفتح كتاباً فرنسياً موضوعاً على الصحن أمامه، بانتظار قطعة اللحم التي طلبها. كان ينظر إلى الكتاب لكي لا يكلّم الضباط الداخلين والخارجين، ويفكّر.

فكّر في أن آنا وعدته باللقاء، اليوم، بعد السباق، لم يكن قد رآها منذ ثلاثة أيام، ولم يكن يعلم إن كان ذلك ممكناً اليوم، لأن زوجها عاد من الخارج قبل فترة وجيزة. كيف يتأكد من ذلك؟ لقد رآها، آخر مرة، في منزل قريبته «بيتسي»، وكان لا يذهب إلى منزل آل كارينين، إلاَّ في الأقلّ، الأندر، وفي هذه اللحظة، راودته الرغبة في الذهاب إليها، وتساءلَ: كيف؟

وصمم. وهو يرفع رأسه عن كتابه:

ـ «طبعاً، سأقول إن بيتسي هي التي أرسلتني لتسألها إن كانت ستحضر السباق نعم، سأذهب إليها».

وتصور بشدة سعادة هذا اللقاء فاستضاء وجهه.

قال للخادم الذي كان يقدم له شريحة اللحم على طبق فضيّ ساخنٍ:

ـ إذهب إلى منزلي وقل للخدم أن يعدوا عربتي بأسرع ما يمكن.

وأخذ يأكل شريحته.

---

(١) كراسنويه سيلو: (القرية الجميلة): قرية تقع على ٢٥ كم جنوبي بطرسبرج، كانت تعسكر فيها أفواج الحرس، في الصيف، وكان يقام فيها سباق الضباط.

ومن قاعة البليار المجاورة، وافت ضوضاء الكرات والأصوات والضحكات. وظهر ضابطان عند باب المدخل: أحدهما شاب فتيّ، دقيق القسمات، لطيف الهيئة، تخرّج حديثاً من المدرسة العسكرية، والآخر كهلٌ، بدين، في معصمه سوارٌ، وله عينان صغيرتان غارقتان في الشحم.

نظر إليه فرونسكي، وقطّب بين حاجبيه، وتظاهر بأنه لم يره فأقبل على كتابه يقرأ ويأكل في آنٍ واحد.

قال الضابط الضخم وهو يجلس بجنبه:

ــ أتقوي نفسك؟

أجاب فرونسكي، وقد بدا عليه العبوس، وهويمسح فمه دون أن ينظر إليه:

ــ كما ترى.

قال الآخر، وهو يؤخّر كرسياً للضابط الشاب:

ــ ألا تخاف السمنة؟

قال فرونسكي بغضب، وهو يكشر تكشيرة الاشمئزاز التي كشفت عن أسنانه المنتظمة:

ــ ماذا؟

ــ ألا تخاف السمنة؟

قال فرونسكي، من غير أن يجيب، وقد نقل كتابه من جنب إلى جنب وأخذ يقرأ:

ــ هات خمر «الجريز»، أيها الندل.

تناول الضابط الضخم قائمة الخمور والتفت إلى زميله، وقال له وهو يمد إليه القائمة:

ــ اخترْ ما ينبغي أن نشربه.

قال الضابط الشاب وهو يختلس نظرة عجلى إلى فرونسكي ويحاول أن يمسك بأصابعه شاربيه اللذين لم يكادا يطران.

ــ خمر الرين، إذا شئت.

ولمّا رأى الضابط الشاب أن فرونسكي لم يلتفتْ، نهض وقال:

ــ لنذهبْ إلى غرفة البليار.

نهض الضابطُ الضخم منصاعاً واتجها إلى الباب.

في هذه اللحظة دخل الغرفةَ النقيبُ إياشفين وهو رجل طويل، جميل المحيا، حيّا الضابطين بإيماءة مترفّعة من رأسه، ودنا من فرونسكي.

هتف وهو يلطم كتف فرونسكي بيده العريضة:

ــ آه! ها هو ذا!

فهاج فرونسكي والتفت، لكن أسارير وجهه ما لبثت أن انبسطت واكتست ذلك التعبيرَ الودود الهادىء الذي امتاز به.

قال النقيب بصوته الجهير، الرنان:

ــ مرحى لك، يا اليوشا. كلْ الآن واشرب كأساً صغيرة.

ــ لستُ جائعاً.

وأضاف وهو ينظر نظرة هازئة إلى الضابطين اللذين خرجا من الغرفة:

ــ هذان هما المتلازمان اللذان لا يفترقان. لمَ لمْ تأتِ البارحة إلى المسرح؟ لقد أدّت «نوميروفا» دورها أداءً لا بأس به. أين كنت؟

وجلس قرب فرونسكي، طاوياً ساقيه الملفوفتين في بنطال الفروسية، وهما أطول بكثير من علو الكراسي.

قال فرونسكي:

ــ تأخرتُ لدى آل تفير سكوي.

قال إياشفين:

ـــ آه!

كان إياشفين مقامراً، متهتكاً، ولم يكن رجلاً عديم المبادىء فحسب، بل كان ذا مبادىء لا أخلاقية، وكان خير أصدقاء فرونسكي في الفوج. وكان فرونسكي يحبه، من أجل قوّته الجسدية الخارقة التي تتجلى في إفراطه في الشراب، وفي إمتناعه عن النوم واحتفاظه مع ذاك بنشاطه، ومن أجل قوته النفسية التي تتجلى في علاقاته مع رؤسائه ورفاقه الذين كان يبعث فيهم الرهبة والاحترام، وتتجلى في القمار: لقد كان يجازف بعشرات آلاف الروبلات ويراهن دائماً بكثير من الثقة بالنفس ومن الدقة، مع إسرافه في الشراب، حتى اعتبر أفضل لاعب في النادي الإنكليزي[1]. وكان فرونسكي يُقدّره ويحترمه بخاصة لأنه أحس أن إياشفين إنْ أحبّه فإنه لا يحبه بسبب اسمه أو ثروته، بل إنه يحبه لذاته.. وهو وحده الذي أراد فرونسكي أن يحدثه عن حبه. لقد أحسّ أن إياشفين يستطيع وحده، مع تكلّفه احتقار العواطف جميعها، أن يفهم هذا الهوى العاتي الذي ملأ كلَّ حياته، وفوق ذاك، فقد كان متأكداً من أن إياشفين لا يرتاح إلى الهذر والفضيحة، وأنه يفهم هذه العاطفة فهماً سليماً، ويعلم أن الحبَّ ليس مزحةً ولا تسلية، وإنما هو شيء جادٌ وخطير.

لم يحدّثه فرونسكي قط عن حبه، بيد أنه كان مقتنعاً أنه يعلم كل شيء، ويفهم كل شيء كما ينبغي: رأى ذلك في عينيه، فسرّه ما رأى.

قال إياشفين، عند سماعه اسم «تفير سكوي»:

ـــ آه نعم!

وأخذت عيناه السوداوان تلتمعان، وأمسك بشاربه الأيسر فوضعه في فمه، جرياً على عادته السيئة.

---

(١) النادي الإنكليزي: نادي المجتمع الراقي في بطرسبرج. تأسس سنة (١٧٧٠) في نفس الوقت الذي تأسس فيه النادي الإنكليزي في بطرسبرج.

سأله فرونسكي:

ــ وأنت، ماذا فعلت البارحة؟ هل ربحتَ؟

ــ ثمانية آلاف روبل. لكن ثلاثة منها غير مؤكدة؛ لستُ أدري إن كانت ستُدفع لي.

قال فرونسكي ضاحكاً:

ــ أيمكن أن تخسر لو راهنت عليّ (لقد راهن أياشفين بمبلغ كبير على فرونسكي).

ــ لا، أبداً. ماكوتين وحده هو الذي يُخشى جانبه.

وانتقل الحديث إلى السباق. ولم يكن فرونسكي يستطيع أن يفكّر إلا فيه.

قال فرونسكي:

ــ هيّا، لقد انتهيتُ

ونهض واتجه إلى الباب، ونهض أياشفين بدوره، بعد أن مدّ ساقيه الطويلتين ورفع قامته الطويلة.

قال إياشفين:

ــ الوقت مبكر جداً على الغداء، لكنْ، لا بد من أن أشرب شيئاً. سآتي في الحال...

وصرخ بصوته الآمر الشهير، صوته العميق الذي هزّ الزجاج:

ــ هيه! هات خمراً.

لكنه ما لبث أن استدرك قائلاً:

ــ لا، لا فائدة من ذلك. إن كنتَ ذاهباً إلى بيتك فسآتي معك.

ومضيا معاً.

[٢٠]

كان فرونسكي يسكنُ في منزل خشبـي فنلندي[(١)] واسع ونظيف، يَقْسمه حاجزٌ إلى قسمين. وكان بيتريتزكي يسكن معه في المعسكر أيضاً. كان نائماً عندما دخل فرونسكي وإياشفين.

قال إياشفين وهو يمضي إلى خلف الحاجز ويهز بيتريتزكي بكتفه، وقد تشعّثَ شعرُه، ودفن وجهَه في الوسادة.

ــ انهضْ، كفى نوماً.

نهض بيتريتزكي فجأة على ركبتيه ونقّل نظراته حوله، وقال لفرونسكي:

ــ جاء أخوك، وأيقظني، ذلك الشيطان! وقال إنه سيعود.

وردّ غطاءَه عليه، وارتمى على وسادته. وقال وقد غضب على إياشفين الذي كان يشد الغطاء عنه:

ــ دعْني، دعني!

ثم استدار وفتح عينيه وقال:

ــ قلْ لي بالأحرى ما الذي ينبغي أن أشربه: إن في فمي طعماً كريهاً و. . .

قال أياشفين بصوته الجهير:

ــ الفودكا، فليس هناك ما هو خيرٌ منها.

وصرخ وكأنه كان راضياً عن سماع صوته:

ــ تيريشتشنكو، هات الفودكا وشيئاً من الخيار لسيّدك.

سأله بيتريتزكي وهو يكشّر ويفرك عينيه:

ــ الفودكا، أتظن ذلك؟ أتشرب أنت؟ إذا شربتَ معي، فأنا موافق! فرونسكي هل تشرب كأساً؟

---

(١) منزل خشبـي فنلندي: كان الضباط، أثناء مناورات الصيف في أرباض العاصمة، يحتلون في الغالب بيوت الفلاحين الروس والفنلنديين.

قال ذاك ونهض وهو يلفّ نفسه في غطاء مخطّط. ومضى إلى عتبة الباب ورفع ذراعيه في الفضاء وطفق يغني بالفرنسية:

ــ كان هناك ملكٌ في تو... ليـ...[١] فرونسكي، أتشرب معنا كأساً؟

قال فرونسكي الذي كان يلبس سترة قدمها له خادمه:

ــ اذهبْ عني!

سأله إياشفين:

ــ أين تذهب؟

وأضاف وهو يشاهد العربة التي كانت تدنو:

ــ انظرْ، هذه عربتك.

قال فرونسكي:

ــ إلى الاسطبلات، ويجب أيضاً أن أرى بريانسكي بصدد الجياد.

وبالفعل، كان فرونسكي قد وعد بأن يذهب إلى بريانسكي، على عشرة فراسخ من «بيترهوف»[٢]، وبأن يحمل له المال من أجل جياده. كان يرجو أن يجد الوقت الكافي للمرور عليه. لكن رفيقيه أدركا في الحال أنه لن يذهب إلى هناك فقط.

غمز بيتريتزكي بعينه وبرطم بشفتيه، وهو يتابع غناءه، وكأنه يقول: «إننا نعرف بريانسكي هذا».

اكتفى إياشفين بالقول:

ــ لا تتأخرْ!

---

(١) كان هناك ملك في تو... لي: أغنية مارغريت في أوبرا فاوست، لشارل غونو، وقد ظهرت في ١٨٥٩، وكانت شديدة الانتشار في ذلك العصر.

(٢) بيترهوف: قرية غربي العاصمة كان فيها قصر للصيف لبطرس الأكبر (ومن هنا اسمها)، وهي مكان للاصطياف واسمها اليوم بيترود فوريتن.

ثم سأله، لكي يغيّر الحديث، وهو ينظر من النافذة:

ــ كيف وجدتَ فرسي الأغبر؟ هل هو حسن القياد؟

كان يقصد الفرس الذي باعه فرونسكي.

صاح بيتريتزكي بفرونسكي وهو خارج:

ــ انتظرْ! ترك لك أخوك رسالة وبطاقة. دقيقة واحدة: أين هما؟

توقّف فرونسكي.

ــ حسناً! وأين هما؟

قال بيتريتزكي بلهجة مفخّمة، وهو يضع إصبعه أمام أنفه:

ــ أين هما؟ هذه هي المسألة.

قال فرونسكي وهو يبتسم:

ــ قلْ لي، وخلِّصْني. هذا هو الغباء!

ــ إني لم أشعل ناراً. ولا بد أن تكونا هنا، في موضع ما.

ــ كفى حماقةً: أين تلك الرسالة؟

ــ لا، أؤكد لك أنني نسيتُ. أم تراني حلمتُ. انتظرْ، انتظرْ! لا فائدة من الغضب! لو شربتَ، مثلي البارحة، أربع زجاجات، لما تذكرتَ أين نمتَ. انتظرْ، سأتذكر بعد قليل!

ومضى بيتريتزكي إلى خلف الحاجز واضطجع.

ــ هكذا! كنتُ نائماً هكذا، وكان هناك. نعم، نعم، نعم.. لقد وجدتُهما!

وأخرج بيتريتزكي رسالةً من تحت فراشه.

تناول فرونسكي الرسالةَ والبطاقة. كانتا كما توقع بالضبط: لوم أمه له لأنه لم يذهبْ إلى زيارتها، وبطاقة من أخيه يقول له فيها: إنه يرغب في التحدث إليه. وكان فرونسكي يعلم أنهما يبغيان الكلام على الموضوع نفسه. وفكر فرونسكي: «ما لهما ولهذا؟»، ودَعَكَ الرسالتين، ودسّهما بين أزرار سترته، ليقرأهما قراءة

متأنيّة في الطريق. وعند مدخل المسكن، التقى ضابطين أحدهما من فوجه. وكان مسكن فرونسكي ملتقى الضباط جميعاً.

ــ أين تذهب؟

ــ يجب أن أذهب إلى «بيترهوف».

ــ هل وصل الجواد من تساركوي[١]؟

ــ نعم، لكني لم أره بعد.

ــ يقال إن «المصارع»، جواد ماكوتين، يعرج.

قال الآخر:

ــ يا للحماقة! كيف ستفعلون للركض في مثل هذا الوحل؟

هتف بيتريتزكي، وهو يَلْمح القادميْن:

ــ آه! أقْبلَ مُنقذاي!

ووقف خادمُه أمامه، وهو يحمل «فودكا» وخياراً مملّحاً على طبق. فقال:

ــ إياشفين الذي ترونه أمرني بأن أشرب لكي أُنعش نفسي.

قال أحد الضابطين:

ــ لقد ملأتم الدنيا بالضجيج ليلة أمس، حتى أننا لم نغمض جفناً طوال الليل.

فروى بيتريتزكي:

ــ لكنّ الأمورَ انتهتْ بشكل رائع! تسلّق فولكوف على السطح، لأنه قال إنه كان يحسّ بالحزن. عندئذٍ قلتُ: تقدّمي أيتها الموسيقا واعزفي اللحن الجنائزي! فنام فوق السطح نوماً عميقاً على أنغام اللحن الجنائزي!

---

(١) تساركوي «سيلو»: قرية القياصرة، جنوبي العاصمة، وفيها قصر فخم بنته الامبراطورة اليصابات سنة ١٧٥٠. وتسمى اليوم مدينة بوشكين، تخليداً لذكرى بوشكين الذي درس في مدارسها.

قال إياشفين، وهو ينحني فوق بيتريتزكي، مثل أمّ نُبلعُ ابنها الدواء:

ــ اشربْ، اشربْ، لا بدّ لك من ذلك. وبعد ذلك تناولْ ماءً معدنياً مع كثير من الليمون الحامض. وبعد ذلك، خذْ شيئاً من الشمبانيا، نصف زجاجة.

ــ هذا هو رجل الفكر. انتظرْ. فرونسكي هل تشرب معنا؟

ــ لا، وداعاً، يا سادة. لن أشرب اليوم.

ــ لماذا، هل تخاف أن يزداد وزنك؟ حسناً! سنشرب بدونك. هات ماء معدنياً وحامضاً.

وصرخ أحد الضباط، بينما كان في البهو:

ــ فرونسكي!

ــ ماذا تريد؟

ــ ينبغي أن تقصّ شعرك، وإلا زاد وزنك، ولا سيّما الشعر الذي على صلعتك.

وبالفعل، لقد بدأ فرونسكي يفقد شعره. فأخذ يضحك بفرح، كاشفاً عن أسنانه الجميلة، وخرج وهو يخفض قبعته إلى الموضع الذي تساقط شعره فيه، وصعد إلى عربته، وقال لحوذيه:

ــ إلى الاسطبلات!

وحرك يده ليخرج الرسالتين ويعيد قراءتهما، ثم غيّر رأيه: لم يشأ أن يتلهّى عن رؤية جواده. «فيما بعد! . . .».

[٢١]

كان الاسطبل الموقت، وهو تخشيبة من الألواح الخشبية، مبنياً إلى جانب مضمار السباق بالذات، ولا بد أن جواده قد جيء به إليه. لم يره في هذه الأيام الأخيرة، ولم يركبْه، لكنّه عهد به إلى المدرّب، وكان يجهل كلياً الحالة التي وصل

إليها الجواد. ولم يكد يهبط من عربته حتى عمد السائسُ وقد عرف عربته من بعيد إلى دعوة المدرّب. فأقبل عليه انجليزي جاف، يحتذي جزمةً عالية، ويرتدي سترةً قصيرة، وعلى ذقنه كتلة من شعر، وهو يتمايل بارتباك، وقد أبرز مرفقيه إلى الأمام، على نحو ما يفعل فرسانُ السباق.

سأله فرونسكي بالانجليزية:

ـ كيف حال الجواد: «الحفيف».

أجابه صوتُ الانجليزي، من مكان ما في حنجرته:

ـ على أتم ما يُراد، يا سيدي.

وأضاف وهو يرفع قبعته:

ـ الأفضل ألا تذهب إليه. لقد وضعتُ له كمامةً، والحيوان مضطرب. الأفضل ألا تذهب، فهذا يزعجه.

بلى، سأذهب. إني أشتهي أن أراه.

قال الانجليزي وهو يقطب بين حاجبيه دون أن يفتح فمه:

ـ هيّا.

ومضى أمامه بخطوات قلقة، وهو يُرنّح مرفقيه.

دخلا إلى الفناء الصغير الذي يسبق الاسطبل. فاستقبلهما السائس، وهو فتى حسن المظهر في سترة بيضاء، بادي التيقظْ، وبيده مكنسة، وتبعهما. خمسة جياد كانت تشغل محابس التخشيبة، وعلم فرونسكي أن «المصارع» منافسه الرئيسي، جواد ماكوتين الأشقر الفاره، لا بد أن يكون هنا. وكان فرونسكي يشتهي أن يرى «المصارع» أكثر مما يشتهي أن يرى «الحفيف»، لأنه لا يعرفه. لكنه كان يعلم أن قواعد اللياقة التي يتبعها أصحابُ الجياد تمنعه من رؤية ذلك الجواد بل ومن إلقاء الأسئلة بشأنه. وبينما كان يسير على طول الممر، فتح السائس باب المحبس الثاني، الأيسر، فلمح فرونسكي جواداً فارهاً أشقر اللون، أبيض القوائم. وعلم أن

هذا هو «المصارع»، وبه شعور مَنْ يُعْرض عن رسالة مفتوحة لم توجّه إليه، فلوى رأسه ودنا من محبس «الحفيف».

قال الانكليزي وهو يشير، من فوق ظهره، باصبعه ذي الظفر الوسخ، إلى محبس «المصارع».

ــ ها هنا جواد ماكـ. . ـر. . ماكـ. . ـر. . لا يمكن لفظ هذا الاسم.

ــ ماكوتين؟ نعم، هو وحده المنافس الذي يُرهب جانبه.

قال الانجليزي:

ــ لو كنتَ أنت الذي يركبه لراهنتُ عليك.

قال فرونسكي وهو يبتسم لإطرائه.

ــ «الحفيف» أشد عصبية، وهو أقوى.

قال الانجليزي:

ــ في سباق الحواجز، كل شيء يكمن في طول النفس.

طول النفس أي قوة الجَلَد والجرأة؛ وكان فرونسكي يحس أنه لا يتحلى بما يكفي منهما فحسب، بل لقد كان (وهذا أهم بكثير) قانعاً قناعة ثابتة أنْ ليس في الدنيا من يتحلّى بهما أكثر منه.

ــ أوثق أنت أن التعريق الشديد ليس ضرورياً؟

أجاب الانجليزي:

ــ لا. لا ترفعْ صوتَك، إذا شئت.

وأضاف وهو يومىء برأسه نحو المحبس المغلق الذي توقفا أمامه والذي سمعا منه الجواد يطأ فراشه.

فتح الباب، ودخل فرونسكي إلى المربط الذي تضيئه نافذة صغيرة إضاءةً خفيفة. كان في المربط جوادٌ كميتٌ، غامق اللون، له كمامة، يضرب بحوافره العشب الغض. وفي نور المربط الضعيف، فحص فرونسكي بنظره فحصاً مُدققاً

شكل جواده المفضّل. كانت فرساً متوسطة القامة، ومن الممكن أن يجد الناظر في شكلها بعض المعايب. كانت ضيقة الهيكل، بارزة اللبان، مضمومة الصدر. وكان كفلها مائلاً بعض الميل، وقوائمها، ولا سيما القائمتين الخلفيتين، صدفاء. ولم تكن عضلات سوقها شديدة القوة، لكن خاصرتيها كانتا، بالمقابل، عريضتين جداً، وهو شيء يبهر الناظر الآن بعد الترويض، نظراً لنحول بطنها. أما عظامُ سوقها، فلم تكن تبدو، من الجهة الأمامية أغلظ من الإصبع، ولكنها كانت تبدو، من الجهة الجانبية، شديدة العرض. ولولا الخاصرتان، لقيل أن جانبيها قد حُفرا وكأنما امتُصّا من الداخل. على أنها كانت تتّصف بمزية تُنسي جميع معايبها؛ وهذه الصفة هي الأصل الكريم، الأصل الذي يَنْطقُ، كما يقول الانجليز. فالعضلات الناتئةُ، تحت شبكة العروق التي تروي جلداً ناعماً، متحركاً وأملس كالساتان، كانت تبدو قاسية كالعظام. ورأسها النحيف بعينيه البهيجتين، اللامعتين، الجاحظتين، كان يَعْرُضُ عند قصبة الأنف ذي المنخرين المتمدّدين بغشائهما المحتقن بالدم. وكان جسمها كله، ولا سيما رأسها، ينطق بالقوة والرقة. لقد كانت من هذه الحيوانات التي ينقصها الكلام فقط لأن بنية فكها لا تصلح للكلام.

خيل إلى فرونسكي على الأقل أنه يفهم ما كانت تُحسّ به، وهو ينظر إليها.

فما أن دخل مربطها حتى نخرت بعمق وألقت على القادمين نظرة منحرفة من عينها المحتقنة بالدم، هازّة كمامتَها، ضاربة بمرونة حوافرها، حافراً بعد حافر.

قال الانجليزي:

ــ أرأيت مدى اضطرابها؟

قال فرونسكي وهو يدنو منها ليهدئها:

ــ هو! يا حلوتي، هو!

لكنها كانت تزداد اضطراباً كلما دنا منها. وعندما صار قريباً من رأسها سكنتْ فجأة، وأخذ منخراها يرتعشان تحت جلدها الطري والناعم. فمسح

فرونسكي بيده عنقها الصلبة، ورد إلى موضعها خصلةً من شعر العرف كانت منقلبة إلى الجهة الأخرى من الغارب الضيّق، وقَرّب وجهه من منخريها المتمددين والناعمين مثل جناح الوطواط. تنشّقتْ الهواء بصخب وردّته بمنخريها المنفوخين، وارتعشت، ونصبتْ أذنيها الدقيقتين، ومدّت شفتيها السوداوين نحو فرونسكي، كأنها تريد أن تمسكه من كمه. لكنها تذكرت الكمامة، فهزّت رأسها، وعادت إلى ضرب الأرض بساقيها النحيفتين.

قال لها بعد أن داعب كفلها:

ـ اهدئي، يا حلوتي، اهدئي.

وغادر المربط سعيداً، موقناً أن جواده في أحسن أحواله.

سرى قلقُ الفرس إلى فرونسكي؛ لقد أحسّ أن الدم يرتد إلى قلبه، فاشتهى أن يتحرك، أن يعض: ؛ كان ذلك محزناً ومضحكاً في الوقت نفسه.

قال للانكليزي:

ـ إني أعتمد عليك. في الساعة السادسة والنصف على أرض المضمار.

قال الانجليزي:

ـ كل شيء سيكون جاهزاً.

وسأله فجأةً:

ـ وأين تذهب، يا مولاي.

واستعمل «يا مولاي»، وهو لم يكن يستعملها من قبل.

رفع فرونسكي رأسه بادي الدهشة ونظر إلى الانجليزي النظرة التي يحسنُها، لا في عينيه، بل في جبهته؛ بدا مندهشاً من جسارة السؤال. لكن أدرك أن الانجليزي عندما ألقى هذا السؤال إنما كان يخاطب الفارس لا المعلّم، أجاب:

ـ ينبغي أن أمرّ على بريانسكي؛ سأكون في البيت بعد ساعة.

وفكرّ في نفسه: «كم مرة سيُلقى عليّ هذا السؤال اليوم؟». واحمرّ، وهو ما لا يقع له إلا نادراً. أمعن الانجليزي النظر فيه، وكأنه يعلمُ إلى أن سيذهب فرونسكي، وأضاف:

ــ الأهم أن يظل المرء هادئاً قبل السباق. فحافظ على انشراحك وبشاشتك، ولا تبتئس لشيء.

أجاب فرونسكي مبتسماً:

ــ حسناً!

وصعد بسرعة إلى عربته، وأمر حوذيه بالذهاب إلى «بيتر هوف».

لم يسر خطوات حتى اكتسحت السماءَ السحبُ التي كانت تُنذر بالمطر منذ الصباح، وحتى هطل المطر مدراراً.

فكّر فرونسكي وهو يرفع غطاء عربته: «هذا مزعج. كانت الأرضُ موحلةٌ قبل المطر، أما الآن فستصبح مستنقعاً حقيقياً». وإذْ وجد نفسه وحيداً في العربة المغلقة، تناول رسالة أمه وبطاقة أخيه ليقرأهما.

نعم. إنهما يقولان دائماً الشيء نفسه. كلاهما: أمه وأخوه، رأيا من المفيد أن يتدخلا في شؤونه العاطفية. وهذا التطفّل بعث فيه شعوراً بالحقد، وهو شعورٌ قلّما كان ينتابه. وفكّر: «هذا لا يخصُّهما! لماذا يقدّر كل منهما أن من واجبه أن يهتم بي؟ ولم يزعجاني لأنهما يريان في ذلك شيئاً لا يمكنهما فهمه. ولو كانت علاقة اجتماعية مبتذلةً، عادية، لتركاني وشأني. إنهما يحسان أن هاهنا شيئاً مختلفاً، وليس لهواً، وأن هذه المرأة أعزّ علي من حياتي. وهذا ما لا يستطيعان فهمه، وهو ما يغيظهما. مهما يكن مصيرنا ومهما قُدّر له أن يكون (لقد جمع نفسه مع آنا، في ضمير الجمع هنا) فإننا نحن قد صنعناه، ولسنا نشكو منه. ليس لهما أن يعلّماني كيف أعيش. فلم تخطر ببالهما مثلُ هذه السعادة. وهما لا يعلمان أننا، بدون هذا الحب، لا نملك سعادة ولا شقاء. . . بل ولا حياةً».

كان غضبُه على فضول هؤلاء الناس شديداً، ولا سيما أنه كان يحسّ أنهم، في أعماقهم، محقّون. كان يحس أن الحب الذي يربطه بآنا لم يكن انجذاباً موقتاً يمضي كما تمضي تلك العلاقات الاجتماعية التي لا تترك من أثر في حياة المحبين سوى الذكريات السارة أو المؤلمة. كان يحس بالجانب الممضّ في وضعه وفي وضع آنا. بصعوبة إخفاء حبهما، مع ما هما عليه من الانكشاف لأعين الناس، بالصعوبة في أن يلجأا إلى الكذب والخداع: أن يلجأا إلى الكذب والخداع والحيلة، وأن يفكرا أبداً في الآخرين، في حين يبلغ الهوى الذي يجمعهما حداً ينسيان معه كل ما ليس حبهما.

عادت إلى ذاكرته بوضوح جميعُ المناسبات، وهي كثيرة، التي اضطر أن يستخدم فيها الكذب والحيلة، وهما مناقضان لطبيعته؛ تذكّر بخاصة الخجل الذي فاجأه لدى آنا غير مرة، والذي كانت تَبْعث عليه ضرورة اللجوء إلى الحيلة. وأحسّ بإحساس غريب كان يجتاحه من وقت إلى آخر منذ بداية علاقته بآنا. كان إحساساً بالنفور: من الكسي الكسندروفتش، من ذاته، أو من الناس جميعاً. . لم يكن على معرفة دقيقة به، لكنه كان يدفع عنه دائماً هذا الشعور الغريب. . وفي هذه اللحظة أيضاً، نفض نفسه، واستأنف مجرى أفكاره.

وعزم فيما بينه وبين نفسه: «لقد كانت شقيةً، فيما مضى، لكنها كانت عزيزة النفس، هادئة البال، أما اليوم فلا يمكنها أن تكون هادئة أو عزيزة، وإن لم تُظهر شيئاً من ذلك. نعم، لا بد من أن أنهي ذلك».

ولأول مرة، خطر على باله بوضوح أن يضع حداً لهذا الكذب، وأن التعجيل بذلك هو الأفضل. قال في نفسه: «ينبغي أن نترك، هي وأنا، كل شيء وأن نمضي فنختبىء، في مكان ما، وحدنا مع حبنا».

لم تدم الزخةُ طويلاً، وبينما كان فرونسكي يبلغ غايته، خبباً في عربة أعْتقَ جوادُها المتقدم، جاراً وراءه الجوادين الآخرين اللذين عدوا بكل سرعتها في الوحل. عادت الشمسُ إلى الظهور، والتمعتْ سطوحُ المنازل وأشجار الزيزفون في الحدائق على جانبي الشارع الرئيسي، ببريق رطب. وكان الماء يقطر بفرح من الأوراق ويسيل من السطوح. لم يكن يفكّر بالأضرار التي يمكن أن يسببها المطر في ميدان السباق، لقد ابتهج، الآن، حين تصور أنه سيلقاها، من غير شك، في البيت وحدها، بفضل هذا المطر، لأنه كان يعلم أن الكسي الكسندروفتش، الذي عاد حديثاً من مشافي المياه المعدنية، لم يغادر بطرسبرج بعد.

وإذْ قَدَّر أنه سيلقاها وحدها، نزل قبل الجسر الصغير، لكي لا يثير انتباه الناس كما كان يفعل دائماً، وسار بقية الطريق مشياً على قدميه، ولم يدخل من درج المدخل الذي يطل على الشارع بل من الفناء.

سألَ البستانيَّ:

ـ هل عاد معلمك؟

فأجابه الرجل:

ـ لا، والسيدة هنا. لكن تفضَّلْ وادخلْ من درج المدخل، سيفتح لك الخدمُ.

ـ لا، أريد أن أمرَ من الحديقة.

كان متأكداً من أنه سيلقاها وحدها، وأحب أن يفاجئها، لأنه لم يَعِدْ بالمجيء اليوم، ولم تكن هي تتصوّر أنه قد يأتي قبل السباق؛ فمضى إلى الشرفة التي تطل على الحديقة، وهو يثبّت سيفه بيده ويمشي باحتراس على رمل الطريق المحاط بالورود. نسي فرونسكي كل ما خطر له في الطريق عن فداحة وضعه وصعوبته. وفكّر فقط أنه سيراها بعد لحظة، لا في الخيال، بل حيّة،

كاملةً، كما كانت في الواقع. كان يصعد درج الشرفة الخفيف الميل، وهو يضغط على باطن قدمه لكي لا يُحدث صوتاً، عندما تذكّر فجأة ما كان ينساه دائماً وما كان أشدّ مظاهر علاقته بآنا إيلاماً. . . ابنها، بنظرته المستطلعة والمعادية، على ما بدا.

كان هذا الصبي العقبة الوحيدة في علاقاتهما. وعندما يكون حاضراً لم يكن فرونسكي وآنا يمتنعان عن ترديد ما لا يجوز ترديده أمام جميع الناس فحسب، بل إنهما كان يمتنعان عن التلميح بما كان يمكن للصبي أن يفهمه. لم يتفقا على ذلك، بل إن الأمر تمّ من ذاته. لقد رأيا أن من المهين لهما خداع هذا الصبي. كانا يتكلمان أمامه كما يتكلم المعارف العاديون. مع ذلك، وبالرغم من ضروب الاحتياط، كان فرونسكي يواجه دائماً نظرة الصبي إليه، وهي نظرة حيرى ومتنبّهة.

وكان الصبي يبدي المودة حيناً، والضيق والجفاء حيناً آخر، ويدلّل بحضوره على خجل غريب وعلى تقلّب كبير في المزاج، وكأنه أحس أن بين هذا الرجل وأمه صلات خطيرة يفوته معناها.

كان سيرج يحسّ، بالفعل، أنه لا يستطيع فهم هذه الصلات، وكان يبذل جهده، دون جدوى، كي يتبيّن هذه العواطف التي ينبغي أن يكنّها لهذا الرجل. وكان يرى، بحدس الأطفال، أن أباه ومربيته والمشرفة عليه لم يكونوا يحبّونه، بل كانوا ينظرون إليه برهبة واشمئزاز مع أنهم لا يتحدثون عنه، وأن أمه تنظر إليه على أنه أحسن صديق لها.

كان الصبي يحدث نفسه: «ما معنى هذا؟ مَنْ هذا؟ كيف يجب أن أحبه؟ وإذا كنتُ لا أفهم، فهذا ذنبي أو أنني طفل غبي وخبيث». ومن هنا هيئته المستطلعة، الفاحصة، المرتابة، ومن هنا الخجل وتقلّبات المزاج التي كانت تضايق فرونسكي كثيراً. إن حضور هذا الصبي كان يُولّد بالضرورة في فرونسكي هذا الإحساس بالنفور، وهو إحساس غير منطقي أخذ يخالجه منذ بعض الوقت. كان حضور هذا

الصبي يبعث في فرونسكي وآنا شعوراً شبيهاً بشعور البحار الذي يحسّ أن الطريقَ التي يسير فيها بسرعة فائقة تنحرف عن الطريق السوية، وأنه لا يملك القوة على إيقاف حركته، وأن كل دقيقة تبعده شيئاً فشيئاً، وأن اعترافه بأنه قد ضل طريقه يَعْدل اعترافه بالهلاك.

كان هذا الصبي بنظرته الساذجة أمام الحياة هو البوصلة التي تُظهر لهما أنهما ابتعدا عن الطريق السويّة؛ كانا يعيان ذلك، لكنهما كانا يأبيان أن يُقرّا به.

في هذا اليوم، لم يكن سيرج في المنزل؛ وكانت آنا جالسة وحدها على الشرفة، منتظرة رجوع ابنها الذي فاجأه المطر أثناء نزهته. فأرسلت وراءه خادماً وخادمة يأتيان به. كانت ترتدي ثوباً أبيض موشى بتطريزات عريضة، وتجلس في ركن من الشرفة تحجبه الأزهار، فلم تسمعه حين جاء. لقد كانت تحني رأسها وتسند جبهتها على مرشّة منسيّة فوق حاجز الشرفة أمسكته بيديها الجميلتين اللتين ألف فرونسكي مرأى خواتمهما، وكان جمال رأسها بشعره الأسود الجعد، وعنقها، ويديها وشخصها كله، يبهر فرونسكي أبداً وكأنه يراه لأول مرة. وقف ونظر إليها بنشوة. لكنه ما كاد يتقدم خطوة حتى أحست بمقدمه، فدفعت المرشّة ولَوتْ نحوه وجهها الملتهب.

قال لها بالفرنسية وهو يُقبل عليها:

ــ ما بك؟ أأنت مريضة؟

لقد أراد أن يركض، لكنه تذكر أنهما ربما لم يكونا وحيدين، فألقى نظرة إلى الباب الزجاجي واحمرّ، كما يحمرّ كلما أحسّ بضرورة التخّوف والحذر.

قالت وهي تنهض وتضغط بقوة على اليد التي مدها إليها:

ــ لا، أنا بخير، لم أكنْ... انتظرك.

قال لها:

ــ يا إلهي، ما أبرد يديك!

قالت:

ــ لقد أخفْتني. أنا وحدي أنتظر سيريوجا الذي ذهب إلى النزهة؛ سيعودون من هنا.

ومع أنها بذلت وسعها لتصطنع الهدوء، فقد كانت شفتاها ترتعشان.

واستأنف بالفرنسية، كما يفعل دائماً، متحاشياً ضميريْ المخاطب بالروسية: ضمير الجمع الشديد البرودة، وضمير المفرد الشديد الخطورة:

ــ اغفري لي مجيئي، لا أستطيع قضاء النهار دون أن أراك.

ــ ولِمَ أغفرُ لك؟ أنا مغتبطة جداً!

وأضاف دون أن يرخي يدها، وقد انحنى عليها:

ــ لكنك متوعكة أو حزينة. فبم كنت تفكّرين؟

قالت وهي تبتسم:

ــ في الشيء ذاته.

كانت تقول الحقيقة. فأيان سُئلتْ أمكنها أن تجيب: في الشيء ذاته، في سعادتها وفي شقائها. في ذلك بالذات كانت تفكر في اللحظة التي باغتها فيها: كانت تتساءل لِمَ كان كلُ شيء سهلاً بالنسبة إلى غيرها من النساء، أو بالنسبة إلى بيتسي مثلاً (كانت تعلم علاقتها الخفيّة بتوشكييڤتش)، وكان معذّباً بالنسبة إليها. لقد أمضَّتْها هذه الفكرة اليوم. وسألته عن السباق فأجابها، وأراد أن يسليها حين رآها مضطربةٌ، فقصَّ عليها، بلهجة طبيعية تماماً، تفاصيل استعدادات السباق بأسرها.

وحدّثت نفسها وهي تنظر إلى عينيه الوادعتين الوالهتين:

«هل ينبغي أن أصارحه أم لا؟ إنه لسعيد جداً، منهمك بسباقه إلى حد لن يفهم معه كل ما في هذا الحدث من أهمية بالنسبة إلينا».

وقال وهو يقطع روايته:

ـ لكنك لم تقولي لي فيم كنتِ تفكرين عندما دخلت؟ قولي لي ذلك أرجوك!

لم تجبْ: كانت تنظر إليه نظرةً مستفهمة من خلال أهدابها الطويلة، وقد انحنى رأسها قليلاً. كانت عيناها تلمعان، ويداها اللتان تعبثان بورقة منزوعة، ترتجفان، تبيّن هذا، ونطق وجهُه بذلك التعبير المتواضع المتعبّد الذي تملكها.

وردّد بلهجة ضارعة:

ـ إني أرى أنه قد حدث لك شيء. وكيف أهدأ دقيقةً واحدة إذا علمتُ أن بك غماً لا أشارك فيه؟ تكلّمي. بحق السماء.

فكَرتْ: «لا ، لن أغفر له إن لم يحسّ بكل ما في الحدث من أهمية، الأفضل ألا أتكلم. ولمَ أضعهُ على محكّ التجربة؟»

ظلت تنظر إليه وتحسّ أن يدها الممسكة بالورقة تزداد ارتجافاً.

فردّد وهو يتناول يدها:

ـ بحق السماء!

ـ ألا بدّ من ذلك؟

ـ نعم، نعم، نعم. . .

قالت بهدوء وبصوت خافت:

ـ إنني حامل.

ازداد ارتجافُ الورقة في يدها، لكنها لم تَنْقلْ عينيها عنه، لأنها أرادت أن تعرف كيف يتلقّى النبأ. لقد شَحب، وأراد أن يقول شيئاً، لكنه توقف، وأرخى يدها، وأطرق رأسَه. ففكّرت في نفسها: «نعم أدرك كل ما في الحدث من أهمية» وشدت على يده بامتنان.

لكنها كانت مخطئة حين اعتقدت أنه يمنح الحدث ما تمنحه من أهمية. فلدى سماع فرونسكي هذا النبأ، اجتاحه بقوة عاتية، ذلك الشعورُ الغريب بالنفور

الذي كان يصيبه أحياناً. لكنه أدرك، في الوقت نفسه أن الأزمة التي تمنّاها قد وافتْ، وأنه لا يمكن إخفاء شيء بعد الآن عن الزوج، وأنه ينبغي الخروج من هذا الوضع الكاذب، بهذا الشكل أو ذاك. ثم إن اضطراب آنا قد سرى إليه جسدياً. فألقى عليها نظرة متذلّلة، متحنّنة، ولثم يدها، ونهض وأخذ يذرع الشرفة بصمت.

قال وقد أقبل عليها بخطوات ثابتة:

ــ نعم، إننا لم ننظر، لا أنت ولا أنا، إلى علاقاتنا على أنها لهوٌ وتسلية.

وأضاف وهو ينظر حوله:

ــ الآن تقرّر مستقبلُنا. وينبغي أن ننهي ذلك الكذب الذي نعيش فيه.

قالت بهدوء:

ــ ننهي الكذبَ؟ وكيف ذلك، يا الكسي؟

عاد إليها الآن هدوءها، واستنار وجهها بابتسامة:

ــ ينبغي أن تتركي زوجك وأن نجمع حياتنا.

فأجابت بصوت لا يكادُ يُسمع:

ــ إنهما كذلك.

صحيح، ولكن ينبغي أن نجمعهما جمعاً كاملاً، كاملاً.

قالت بسخرية حزينة، وقد خطر ببالها ما في وضعها من تعقيد مستعصٍ على الحل:

ــ لكنْ كيف، قل لي، يا الكسي، كيف؟ هل هناك مخرج؟ ألستُ امرأةَ لزوجي؟

قال:

ــ هناك دائماً مخرج. لا بد من اتخاذ قرار. كل شيء أفضل من الوضع الذي أنتِ فيه. وأنا أرى أنك تتعذّبين بصدد كل شيء: الناس وابنك وزوجك.

قالت بضحكة قصيرة:

ـ آه! لا، إني لا أتعذب بصدد زوجي. لم أعدْ أعلم شيئاً عنه، ولست أفكر فيه. إنه غيرُ موجود.

ـ لست صادقة فيما تقولين. وأنا أعرفك. إنك تتعذبين أيضاً بصدده.

ـ لكنه لا يعلم. على كل حال، لندعْ الحديث عنه.

وفجأة اجتاحت وجهها حمرةٌ قانية: احمرّ خداها وجبهتها وعنقها، وهَمَتْ دموعُ الخجل من عينيها.

[٢٣]

كان فرونسكي قد حاول من قبل. عدة مرات، وإن كانت محاولاته آنذاك أقل حزماً مما هي عليه اليوم، أن يسوقها إلى التفكير في وضعها، لكنه اصطدم دائماً بتفاهة أحكامها وخفتها، وبهذه التفاهة وتلك الخفة ردّت اليوم على إلحاحه. فكأنما كان هناك شيءٌ لا تستطيع أو لا تريد فهمه، وكأن آنا الحقيقية، ما إن تبدأ بالكلام على ذلك الشيء حتى تختفي في موضع ما من ذاتها، مُخليةً مكانها لامرأة أخرى غريبة، بعيدة، امرأة لا يحبها، ويخشاها، امرأة تقاومه. لكنه صمّم هذه المرة على الكلام.

قال فرونسكي بلهجة حازمة وهادئة قد اعتادها:

علمَ أم لم يعلم، إن ذلك قليل الأهمية. إننا لا نستطيع...

أنت لا تستطيعين أن تَبْقي هكذا، ولا سيّما الآن.

سألته آنا بالسخرية ذاتها:

ـ فماذا ينبغي عمله إذن، برأيك؟

لقد كانت تخشى أن يستخفَ بحملها، وهي الآن غضبى لأن خلص إلى ضرورة القيام بشيء ما.

ـ أن تصارحيه بكل شيء وأن تتركيه.

قالت:

ـ طيّب: لنفرض أنني فعلتُ ذلك، أتدري ما الذي سيحدث؟ أستطيع أن أنبئك به منذ الآن (واتقد في عينيها اللتين كانتا رقيقتين قبل لحظة ضياءٌ شرير). «آه! أنتِ تحبين رجلاً آخر أنشأت معه علاقةً مُجرمة؟» وقلّدتْ زوجها فشدّدت، كما يفعل، على كلمة «مجرمة» (لقد حذّرتك من مغبّة سلوكك، من وجهة نظر الدين والمجتمع والأسرة. فلمْ تُصغي إليّ. لا أستطيع أن أسلم اسمي للعار. . .) (وأوشكت أن تقول: واسم ابني، لكنها لا تستطيع أن تهزأ بابنها)، اسلم اسمي للعار. . .» سيقول لي هذا وشيئاً من هذا القبيل. على الإجمال، سيقول لي بأسلوبه، أسلوب رجل الدولة، وعلى نحو واضح وجليّ: إنه لن يدعني أذهب، وأنه سيتّخذ التدابير التي في حوزته ليحول دون الفضيحة. وسوف ينفذ بوضوحٍ ودقة ما قاله. هذا ما سيقع، إنه ليس رجلاً، لكنه آلة، وهو آلة خبيثة حين يغضب.

قالت الجملة الأخيرة، وهي تتصور في اللحظة نفسها أسارير وجه زوجها، وطريقته في الكلام، منحيةً باللائمة على كل ما لا يرضيها فيه وكأنه جرمٌ اقترفَه، ممعنةً في قسوتها على قدر إحساسها بالإثم.

قال فرونسكي بصوت هادىء مقنع، محاولاً أن يهدئها:

ـ لكن ينبغي أن تصارحيه، يا آنا. . . ثم تتصرّفين بحسب ما يقرّر.

ـ أنهرب، إذن؟

ـ ولِمَ لا؟ لست أرى إمكان الاستمرار على هذا النحو. . . لا من أجلي. . . أرى أنك تتألمين.

قالت بخبث:

ـ نعم، نهرب، وأُعلنُ على الملأ أنني عشيقتك.

قال بصوت رقيق مليء باللوم:

آنا. . .

واستأنفت:

ـ نعم... أصبح عشيقتك وأفقد كل شيء...

وأرادت أن تقول، مرة أخرى، أفقد ابني، لكنها لم تقو على لفظ هذه الكلمة.

لم يستطع فرونسكي أن يفهم كيف يمكن لطبيعة بلغت هذا الحد من القوة والاستقامة أن تصبر على هذا الوضع الكاذب دون أن تتمنّى الخروج منه؛ ولم يكن يقدّر أن سبب ذلك كله هو ابنها. كانت عندما تفكر بابنها وبعلاقاته المقبلة بأم منفصلة عن أبيه، تُصاب بالذعر الشديد مما فعلتْ حتى إنها تكف عن التفكير، وتحاول وسعها أن تهدىء نفسها، كما تفعل النساء، بحجج كاذبة، قائلة لنفسها: إن كل شيء يمكن أن يستمر كما كان في الماضي، وذلك لكي تنسى السؤال الرهيب: ماذا سيحلّ بابنها؟

قالت فجأة وهي تمسك بيده، بصوت مختلف كل الاختلاف، صوت رقيق وصادق:

ـ أرجوك، أَضرع إليك، لا تحدثْني عن ذلك بعد الآن!

ـ لكن، يا آنا...

أبداً. اترك الأمرَ لي. إني أحسّ بحقارة وضعي وبشاعته. إلاَّ أنه ليس من السهل اتخاذ قرار بهذا الشأن، كما تظن. اتركْ الأمر لي، وأُطعْني. لا تحدثني عن هذا الأمر أبداً. أَتعدُني بذلك؟.. عدني، عدني بذلك!

ـ أعدُك بكل ما تطلبين، لكني لا أستطيع أن أطمئن، ولا سيما بعد ما قلته لي. لا أستطيع أن أطمئن إذا لم تكوني أنت نفسك مطمئنة...

قالت:

ـ أنا؟ نعم، إني أتعذب أحياناً، لكن عذابي سيزول إذا كففتَ عن التطرّق إلى هذا الموضوع. ولا أغتم إلاَّ حين تحدثني عنه.

قال:

ـ لست أفهم.

فقاطعته قائلة:

ـ أعلم كم يشق الكذبُ على طبيعتك، وأنا أرثي لك. وكثيراً ما أقول لنفسي: إنك أفسدت حياتك من أجلي.

قال:

ـ كنت أفكر في الشيء نفسه: كيف أمكنك أن تضحي بكل شيء من أجلي. لا أستطيع أن أغفر لنفسي إذ أراك تعسةً.

قالت، وهي تدنو منه وتنظر إليه بابتسامة نشوى.

ـ أنا تعسةٌ؟ أنا؟ أنا كالإنسان الجائع الذي قُدِّم له الطعام. فلربما أحسّ بالبرد، ولربما كان رثّ الثياب، ولربما كان حجلاً، لكنه ليس تعساً. أنا، تعسة؟ لا، هذه هي سعادتي...

سمعتْ صوت ابنها الذي كان راجعاً، ونهضت فجأة وهي تلفُّ الشرفةَ بنظرة عجلى. وفي نظرتها اتّقد ذلك الضياء الذي طالما عرفه، وبحركة سريعة، رفعت يديها الجميلتين المحمّلتين بالخواتم، وأمسكت برأسه، وتأملته طويلاً، وقرّبت وجهه الباسم وشفتيه المفترتين، وقبّلته بسرعة في فمه وفي عينيه، ودفعته عنها، وهمّت بالانصراف، لكنه أوقفها، وهمس بصوت خافت، وهو ينظر إليها بنشوة:

ـ متى؟

فهمست:

ـ اليوم، في الساعة الواحدة.

وأطلقتْ زفرة عميقة، ومضت بخطوات خفيفة وحثيثة للقاء ابنها.

لقد فاجأ المطر «سيريوجا» في الحديقة، فلجأ هو ومربيته إلى ظلة فيها.

قالت لفرونسكي:

ـ إلى اللقاء، إذن، يا فرونسكي، لا بد من الذهاب إلى السباق بعد قليل. لقد وعدتني بيتسي بالمرور عليّ لاصطحابـي.

ومضى فرونسكي مسرعاً، بعد أن نظر إلى ساعته.

[٢٤]

عندما نظر فرونسكي إلى ساعته على شرفة كارينين، كان مبلبل الفكر، مشغول البال إلى حد كبير حتى أنه رأى العقارب على ميناء الساعة ولم يتبين كم كانت الساعة. ونزل إلى الممر، واتجه إلى عربته، ماشياً بحذر خوفاً من الوحل. كان مستغرقاً استغراقاً شديداً في التفكير بآنا حتى إنه لم يتساءل عن الساعة ولا عما إذا كان قد بقي لديه ما يكفي من الوقت للذهاب إلى بريانسكي. لم يبق له، كما يقع في الغالب، سوى ذاكرة خارجية تدله على ما عزم أن يفعله عندما ترك آنا. دنا من حوذيّه الذي أغفى على مقعده، في الظل المائل لزيزفونةٍ ضخمة، ومكث لحظة يتأمل جماعات الذباب الصغير وهي تحوّم حول الجياد العرقى، ثم أيقظ الحوذيَّ ووثب إلى العربة وأمره بالذهاب إلى بريانسكي، ولم يَثُبْ إلى رشده إلاَّ بعد سبعة فراسخ، حين نظر إلى ساعته، وتبيّن أن الساعة بلغت الخامسة والنصف وأنه كان متأخراً.

في هذا النهار، كانت هناك عدة أنواع من السباق: سباق حرس جلالته[١]، ثم سباق الفرسخين للضباط، وسباق الأربعة فراسخ، والسباق الذي سيشارك فيه، كان بوسعه أن يبلغه في الوقت المحدد، لكنه لو مرَّ على بريانسكي فلن يصل إلاَّ في الدقيقة الأخيرة، وبعد وصول البلاط، وهو أمر غير لائق، ومن جهة أخرى فقد وعد بريانسكي بالمجيء، ولذلك قرر أن يتابع طريقه، وأمر حوذيّه ألا يرحم الجياد.

---

(١) حرس جلالته: كوكبة الشرف المكونة من نبلاء القوزاق ونخبتهم، من الفرسان الامعين.

لم يمكث عند بريانسكي سوى خمس دقائق وعاد بأقصى سرعته. فأدخلَ السيرُ السريعُ السكينةَ إلى نفسه. وخلا فكره من كل ما هو ثقيل في علاقاته بآنا، ومن الحيرة التي انتابته بعد حديثهما؛ وغدا يفكّر في السباق بسرور ممتزج بالانفعال، ويقدّر أنه سيصل في الوقت المحدد، وبين الحين والحين، كان انتظار سعادة اللقاء في الليلة التالية يلقي في خياله بريقاً متوهجاً.

كانت تجتاحه فكرةُ المباراة المقبلة، كلما أوغل في جو السباق، متجاوزاً العربات القاصدة إليه من المدن المجاورة لبطرسبرج.

لم يجد أحداً في بيته، لقد ذهب الجميع وظلّ وصيفُه ينتظره عند عتبة الباب. وبينما كان يبدّل ثيابه، قال له الخادم أن السباق الثاني قد بدأ، وأن كثيراً من الناس جاؤوا يسألون عنه قلقين، وأن السائس جاء مرتين من الاسطبل.

بعد أن بدّل فرونسكي ثيابه دون استعجال (لم يكن فرونسكي يستعجل أبداً ولم يكن يفقد الرقابةَ على نفسه أبداً)، أمر حوذيه بالتوجه إلى الاسطبل، ومن هنا، كان يُرى بحرٌ من العربات، والمشاة، والجنود المحيطين بميدان السباق، والمنصات التي تعجّ بالناس. كان الشوط الثاني قد بدأ، على ما يبدو، لأنه سمع، عندما دخل الاسطبل صوتَ الجرس. وفي الطريق التقى «المصارع» جواد ماكوتين ذا الجلد الأصهب والقوائم البيضاء، وهو يُساق إلى حلبةِ السباق وقد غُطي بجلٍّ مزركش برتقالي وأزرق وبدت أذناه الموشّاتان باللون الأزرق ضخمتين.

سأل السائسَ:

ــ أين «كورد»؟

ــ في الأسطبل؛ إنه يسرج جوادك.

كانت فرسه «الحفيف» قد أُسرجت. وهي على وشك أن تخرج من المربط المفتوح.

ــ ألم أتأخر؟

قال الإنكليزي:

جيّد! جيد! كل شيء على ما يرام، ولا تُقلقْ نفسك.

ألقى فرونسكي نظرةً أخيرة على شكل فرسه البديع، وكان يرتجف بجسمه كله، وخرج من التخشيبة، وهو ينتزع نفسه بجهد من هذا المشهد. وصل إلى المنصة في أنسب وقت لا يلاحظه فيه أحد. كان سباق الفرسخين على وشك أن ينتهي، وقد استقرت الأبصار جميعاً على فارس من فرسان الحرس في طليعة المتبارين، وعلى خيّال من الحرس الإمبراطوري كان يتبعهُ: كان كلاهما يستحثّ جواده بكل قواه وهو يقترب من نهاية الشوط. وتجمّع الناس من كل صوب قرب نقطة الوصول، وأخذ جماعةٌ من فرسان الحرس يعبّرون بالهتافات الصاخبة عن فرحهم بانتصار رفيقهم المنتظر. انسلّ فرونسكي إلى وسط الجمهور دون أن يلحظه أحد، في الوقت ذاته الذي رنّ فيه الجرس معلناً انتهاء الشوط. وتهالك فارس الحرس الذي كان مجلياً، وهو رجلٌ مديد القامة، مغطى بالوحل، تهالك على سرجه، وأرخى عنان جواده الأشهب الذي بلّله العرق وتثاقل نَفَسُه.

شدّ الجواد عرقوبيه بألم، وخفّف من سرعة جسده الفاره، ونظر الفارسُ، مثل رجل يستيقظ من حلم مزعج، نظر حوله وابتسم بجهد. فأحاطَ به جمهورٌ من الأصدقاء.

تحاشى فرونسكي بعناية الجمهورَ المختار، الأنيقَ، الوقور المظهر، الذي كان يتمشى ويتحدث بحرية أمام المنصات. وكان يعلم أن آنا وبيتسي وزوجة أخيه هنا، ولم يشأ أن يقترب، حتى لا يتلهّى عن غايته. لكن الأصدقاء الذين كان يصادفهم في كل لحظة كانوا يوقفونه ويقصون عليه تفاصيل الأشواط السابقة ويسألونه لمَ تأخّر.

وبينما كان الفائزون يُدْعون إلى منصة الشرف ليتلقوا الجوائز، وكان الناسُ يتوجهون إلى تلك الجهة، لحق بفرونسكي أخوه الأكبر، الكسندر، وهو عقيد

بكتفيتين، قصير القامة، ربعة مثل الكسي، لكنه أجمل وجهاً وانضر لوناً، ذو أنف أحمر كأنف السكيّر، ووجه منفتح.

وقال له:

ــ هل وصلتك كلمتي؟ إننا نلقاك أبداً.

كان الكسندر فرونسكي رجلاً من رجال الحاشية البارعين، بالرغم من مجونه ومن ميله إلى الخمر.

لقد كان يتحدّث، في هذه اللحظة، مع أخيه عن موضوع وعر، ويعلم أن العيون محدّقة فيه، فأظهر الناس على وجه مبتسم، وكأنه يمازح أخاه.

قال فرونسكي:

ــ نعم وصلتني. ولا أعلم، في الحقيقة، ما الذي يقلقك.

ــ ما يقلقني هو ما نُبِّهْتُ عليه، قبل لحظة، من أنك غائب، في حين لقيك البعض في بطرسبرج، في الإثنين الماضي.

ــ هناك أمور لا تخصّ سوى أصحابها الذين تعنيهم مباشرة، والأمور التي تشغل بالك بها...

ــ صحيح، ولكن ينبغي أن تترك الخدمة حينئذ...

ــ أرجوك ألا تتدخل في ذلك، وكفى.

شحب وجه الكسي فرونسكي وأخذ فكه الأسفل يرتجف، وهو ما لا يقع له كثيراً. لقد كان رجلاً واسع الصدر قلماً يغضب. لكنه عندما يغضب، وعندما يرتجف فكه، يغدو شرساً. كان الكسندر فرونسكي يعلم ذلك، فابتسم بفرح. وأضاف وهو يبتسم:

ــ أردت فقط أن أنقل إليك رسالةَ أمي. رُدَّ عليها، ولا تُثر أعصابَك قبل السباق. أتمنى لك حظاً سعيداً.

وابتعد.

وما لبث أن اقترب منه ستيفان أركادييفتش الذي لم يكن أقل إشراقاً في مجتمع بطرسبرج الأنيق منه في موسكو، بوجهه النضر، وسالفه الممشوطين والمدهونين. قال له:

ــ لم تعد تعرف أصدقاءك! مرحباً، يا عزيزي! وصلتُ البارحة ويسعدني أن أشهدَ فوزك. متى نتقابل؟

قال له فرونسكي:

ــ مرَّ غداً على النادي.

وشدّ، وهو يتعذر، على كم معطفه، واتجه إلى داخل الحلبة التي اقتيدت إليها الجياد لسباق الحواجز.

كان السُوّاسُ يقودون الجياد المنهكة والمبللة بالعرق بعد أن انتهت من سباقها، وأخذت تتوافد جيادُ السباق التالي النشيطةُ، واحداً بعد الآخر، وأكثرها جيادٌ انكليزية قد أُتقن حزمُها، فبدتْ في أجلالها مثل طيور ضخمة وغريبة. اقتيدت، إلى اليمين «الحفيفُ»، تلك الفرسُ الجميلة والنحيفة، مقدّمةً أرساغها الطويلة رسغاً بعد رسغ في مشية شديدة المرونة. وغيرَ بعيد عنها، أخذ السائس يرفع عن «المصارع». جَلّه الذي كانت أذناه متأخرتين إلى الوراء كثيراً. وقد استرعى انتباه فرونسكي. بالرغم منه، ما في شكل هذا الجواد من امتلاء واتساق وكمال، بكفله الرائعة، وأرساغه الشديدة القصر، فوق الحافر بالذات. وأراد أن يلحق بجواده، لكن صديقاً آخر استوقفه مرةً أخرى.

قال له محدّثْه:

ــ آه! ها هو ذا كارينين! إنه يبحث عن امرأته، وهي على المنصة. ألم ترها؟

أجاب فرونسكي:

ــ لا.

ودنا من جواده، دون أن يلتفت إلى المنصة التي أشار محدّثه إلى آنا فيها.

لم يكد يجد الوقت لفحص السرج الذي كان ينبغي إصلاح بعض الأشياء فيه، حتى نودي على المتبارين للإقتراع على أرقامهم. فاجتمع حول المنصة سبعة عشر فارساً بوجوههم الرصينة التي شحب أكثرها، وسحبوا أرقامهم. وكان رقم فرونسكي سبعة.

ثم نوديَ بهم:

ــ اعتلوا جيادكم.

اتجه فرونسكي إلى جواده، وهو في حالة من التوتر كانت تعيد إليه عادةً هدوءه وبطء حركاته، وقد أحس أنه مع المتبارين محطّ أنظار الجمهور. لبس كورد، على شرف السباق، بزته الرسمية: سترة سوداء مزرّرة، وقبّة منشّاة تعلو إلى خديه، وقبعة سوداء مدوّرة، وجزمة طويلة. كان، كعادته دائماً، هادئاً ومتوقّراً، وواقفاً أمام جواده وهو يمسكُ بطرفي عنانه. استمرت الفرسُ في ارتجافها وكأنها محمومةٌ. ورمت فرونسكي الذي دنا منها بنظرة من عينها المتقدّة. مرّ فرونسكي باصبعه تحت الحزام، فنظرت إليه شزراً، وكشفت عن أسنانها، ونصبتْ أذنيها. افترت شفتا الانكليزي عن ابتسامة عندما رآه يتحقق من الحزام.

قال له:

ــ اركبْها، وستكون أقلّ اضطراباً.

استدار فرونسكي للمرة الأخيرة كي ينظر إلى منافسيه. وكان يعلم أنه لن يراهم أثناءَ السباق. وقد اتجه اثنان منهم إلى نقطة الانطلاق. وكان غالتزين، وهو من أخطر المتبارين وأحد أصدقاء فرونسكي، يدور حول جوادٍ كميت لم يمكّنه من امتطاء صهوته. وأخذ خيّال قصيرٌ من الحرس، في بنطال ضيق، يعدو على جواده عدواً قصيراً، وقد تجمّع على كفل الفرس، احتذاءً بالانكليز. وكان الأمير كوزوفليف شاحباً على جواده الكريم الأصل المأخوذ من مرابط

غرابوسكي[1] والذي قاده انكليزي بعنانه. وكان فرونسكي ورفاقة يعرفون كوزوفليف وصفاته المميّزة: أعصاب «ضعيفة» وحبٌ هائلٌ للذات. كانوا يعلمون أنه يخاف كل شيء، وأنه يرهب من امتطاء جياد الجيش. لكنه عزم على الاشتراك في هذا السباق بسبب خوفه بالذات، ولأن هناك مَنْ تُدَقّ عنقهُ: ولأن قرب كل حاجز طبيباً ونّقالة وممرّضة. التقتْ نظراتُهما فغمزه فرونسكي بعينه غمزة الود والموافقة. فارس واحد لم يره فرونسكي وهو أخطر منافسيه: ما كوتين على جواده «المصارع».

قال كورد لفرونسكي:

ــ لا تستعجلْ، وتذكّر جيداً ما أقول: لا تكبح جماح الفرس عند الحواجز ولا تستحثها أيضاً، ودعها تفعل ما يحلو لها.

قال فرونسكي وهو يتناول العنان:

طيّب، طيّب.

ــ كنْ المجلّي إذا استطعت؛ لكنْ لا تفقدْ شجاعتك قبل النهاية، حتى لو كانت الأخير.

لم يتسنَّ للفرس أن تتحرك حتى كان فرونسكي قد وضع قدمه في الركاب الفولاذي المحزّم، بحركة ثابتة ومرنة، واستقرّ بخفة على السرج الجلدي الذي كان يصر. وبعد أن دس قدمه اليمنى في الركاب سوّى بإصابعه، وبحركة عادية، بين طرفي العنان؛ أرخى كورد اللجام من يده، فمدّت الفرس عنقها وجذبت عنانها: وكأنما كانت تتساءل كيف تنطلق؛ تهادتْ كأنها على نوابض، وهزّت فارسها على ظهرها اللين. وكان كورد يتبع فرونسكي حاثاً خطاه. والفرس العصبية تجذب

(١) مرابط غرابوسكي: مرابط الكونت البولوني غرابوسكي، في مقاطعة ليدا قرب فيلنا، مشهورة.

العنان إلى هذه الجهة تارة، وإلى تلك تارة أخرى، محاولة تضليل فارسها، فيبذل فرونسكي وسعه في تهدئتها بصوته وبيده.

كانوا يقتربون من الساقية التي بُني عليها حاجز، ويتجهون إلى موضع الانطلاق، وبعضهم يسبق فرونسكي، وبعضهم الآخر يتلوه؛ وفجأةً سمع وراءه، على الدرب الموحل، عدوَ حصان، وتجاوزه ما كوتين على جواده «المصارع» بأذنيه المتباعدتين وبقوائمه البيضاء.

ابتسم ماكوتين كاشفاً عن أسنانه البيضاء، لكن فرونسكي حدجه بنظرة غاضبة. لم يكن يحبه، في الأوقات العادية، أما في هذه اللحظة فكان يعتبره أخطر خصومه؛ ولذلك ثار عندما مرّ أمامه عدواً، مرعباً فرسه التي انطلقت تعدو بساقها اليسرى، ووثبت وثبتْين، وهاجهَا أن يُكبح جماحها، فأخذت تخب خبباً متقطّعاً هزّ فارسها. قطّب كورد بين حاجبيه، وجرى في آثار فرونسكي بمشيته الظالعة.

[٢٥]

اشترك في السباق سبعة عشر فارساً. وكان عليهم أن يجروا في مضمار طوله أربعة فراسخ وشكله أهليلجي، يمرّ أمام المنصة. وقد أُقيمتْ فيه تسعة حواجز: ساقيةٌ، ومانعٌ مملوء بارتفاع اثني عشر قدماً، وحفرةٌ جافة، وحفرةٌ ملأى بالماء، ومُنحدر، وحاجز خضير **(وكان من أصعب الحواجز)**، وهو عبارة عن ردم مغطّى بالأغصان توجدُ خلفه حفرةٌ لا يمكن أن يراها الجواد، بحيث كان على الجواد إما أن يقفز الحاجزين معاً وإما أن يهلك، ثم حفرتان جافتان، وحفرة أخيرة ملأي بالماء، وكانت نهاية السباق أمام المنصات بالذات. ولم يكن السباقُ يبدأ من داخل الحلبة، ولكن من على نحو مائتي متر وراءها، وفي هذه الفسحة أُنشيءَ الحاجز الأول: وهو الساقية التي أُقيم عليها حاجزٌ يستطيع المتسابقون أن يقفزوا فوقه أو أن يخوضوا ماءه خوضاً.

اصطفّ الفرسان ثلاث مرات، وفي كل مرة كان أحد الجياد يتقدم على الجياد الأخرى، وكان لا بد من الإعادة. وغضب العقيد الذي كان يأمر بالانطلاق؛ وأخيراً صرخ، في المرة الرابعة: «انطلقوا»، فانطلق الفرسان.

كانت جميع الأبصار: وجميع المناظير منصبّة على جماعة المتبارين المزركشة، وهي تقترب من المنصات.

وسَمع من كل صوب، بعد صمت الانتظار:

ـ ها هم قد أقبلوا! لقد مروا!

أخذ المشاهدون يُهرعون، جماعات وأفراداً، من موضع إلى آخر، ليتمكنوا من الرؤية الواضحة. ومنذ الدقيقة الأولى، تناثرت مجموعةُ الفرسان المرصوصة، وأخذ الفرسان يقتربون من الساقية، أحادَ أو ثُناءَ أو ثُلاثَ. أما المشاهدون فكانوا يرونهم يركضون معاً، لكنَ هذه المسافة القصيرة التي كانت تفصلهم بعضهم عن بعض كان لها عند المتسابقين أهمية عظمى.

تأخرت «الحفيفُ» في البداية، وكانت مضطربةَ ومسرفة العصبية، وتجاوزتها عدةُ جياد؛ لكن فرونسكي، أدرك ثلاثة منها بسهولة، قبل بلوغ الساقية، مع أنه كان يكبح فرسه بكل قواه، ولم يبق أمامه سوى «المصارع» الذي كان يسبقه بطول جسمه، و «ديانا» التي كانت تتقدمهما وتحمل كوزوفليف وهو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة.

أثناء الدقائق الأولى، لم يكن فرونسكي مالكاً لنفسه ولجواده. فحتى الحاجز الأول: وهو الساقية، لم يتمكن من التحكم بحركات جواده.

كان «المصارع» و «ديانا» يتقدمان جنباً إلى جنب، وقد وثبا: في اللحظة نفسها تقريباً، فوق الساقية وعبرا إلى الجانب الآخر، أما «الحفيفْ» فقد تركت الأرضَ وراءهما بسهولة شديدة كما لو كانت تطير، لكن فرونسكي شاهد فجأة، في اللحظة نفسها التي أحس فيها أنه في الهواء. وتحت قدمي جواده تقريباً،

كوزوفليف يتخبّط مع ديانا في الجانب الآخر من الساقية. (لقد أرخى العنان بعد أن وثب فسقط من فوق رأس جواده). ولم يعرف فرونسكي هذه التفاصيل إلا فيما بعد؛ أما في هذه اللحظة فلم يَرَ سوى شيء واحد وهو أن فرسه قد تحطُّ قدمَها على رأس ديانا أو على ساقها، وكانت ديانا تحتها بالضبط. لكن «الحفيف» بذلت مجهوداً من ظهرها وساقيها، مثل هر يسقط، وتحاشت الحيوان الآخر وتابعت جريها.

ففكّر فرونسكي: «أوه! يا حلوتي!».

بعد الساقية ملك فرونسكي زمام فرسه كلياً وأخذ يكبحها، قاصداً أن يَعْبُر الحاجز الأكبر بعد ماكوتين، وأن يتجاوزه فيما يتبقى من الأرض الخالية من الحواجز.

كان الحاجزَ الأكبر أمام المنصّة الامبراطورية بالذات. وكان الامبراطور[1] والحاشية وجمهور من الناس يحدّقون فيهما: فيه وفي ماكوتين. الذي كان يسبقه، وهما يقتربان من الشيطان (هكذا كان يسمى هذا الحاجز المملوء). وكان فرونسكي يحسّ بالأنظار جميعاً متجهةً إليه من كل صوب، لكنه لم يكن يرى سوى أذني جواده وعرفه، والأرضَ التي تَجْري للقائه، وكفل «المصارع» وسوقه البيضاء وهي توقع جريها أمامه محافظة على المسافة نفسها بينهما. وثب «المصارع» دون أن يمسّ شيئاً، وحرّك ذيله القصير، وغاب عن عيني فرونسكي.

قال صوت:

ــ مرحى.

وفي اللحظة نفسها، ألفى فرونسكي نفسه أمام ألواح الحاجز. فوثب جواده تحته، دون أن يغير شيئاً من سرعته؛ توارت الألواح، لكنه سمع صدمة خلفه. ذلك أن «الحفيف» قد هاجها المصارع الذي يسبقها، فقفزت قبل الأوان وصدمت

(١) الامبراطور: الاسكندر الثاني (١٨٥٥ ــ ١٨٨١).

الحاجز بأحد حافريها الخلفيين. لكنها لم تخفف سرعتها، ورأى فرونسكي، وهو يتلقى كتلةً من الوحل في وجهه، أن المسافة بينه وبين المصارع ما تزال هي نفسها. وشاهد أمامه كفله، وذيله القصير، وسوقه السريعة الحركة، القريبة منه.

في اللحظة ذاتها التي كان فرونسكي يحدّث نفسه فيها بأنه ينبغي أن يتجاوز ماكوتين، استشفّت «الحفيفُ» ما خطر بباله، فزادت من سرعتها، دون أي حثّ، وتدانت من ماكوتين من جهة الشمال. لكن ماكوتين لم يَفسحْ له المكان ولم يكد فرونسكي يفكرَ في أنه قد يستطيع أن ينعطف من الخارج حتى غيرت الفرس من وجهها ومالت. كان كاهلها الذي صيَّره العرق داكناً، في مستوى كفل المصارع، وقد جريا جنباً إلى جنب لبضع ثوان. لكن فرونسكي، قبل الحاجز التالي بالذات، حرص أن يتقرّب من الجهة اليسرى، فحرّك العنان وتجاوز ماكوتين بأقصى سرعته في وسط المنحدر. ورأى، وهو يمر، وجه ماكوتين مغطى بالوحل. بل خُيِّل إليه أنه كان يبتسم. ولقد سبقه فرونسكي بمسافة لكنه كان يحس به خلفه، وكان يسمع وراء ظهره جريّ «المصارع» المنتظمَ، ونفسه المنقطعَ وأن لم يدلَّ على التعب.

كان فرونسكي مجلياً: هذا ما كان يتوق إليه، وما نصحه به كورد؛ كان الآن واثقاً من الفوز. وكان انفعاله وفرحه وعطفه على فرسه، لاتني تزداد. اشتهى أن ينظر إلى الوراء، وحاول أن يخفف من غلوائه، وألا يحث فرسه ليحتفظ لما يقدر من القوى الاحتياطية كالذي بقي لجواد ماكوتين. لم يبق سوى حاجز واحد، هو أصعب الحواجز: وإذا عبر هذا الحاجز قبل غيره فسوف يكون المجلّي. اقترب بأقصى سرعته من الحاجز الخضير. لمحته الفرسُ في الوقت نفسه الذي لمحه فيه وتَردّدا لحظة كلاهما: الفارسُ والفرسُ. لاحظ هذه الحيرة من أدنى الفرس فرفع سوطه، لكنه ما لبث أن أحسّ أن ريبته لا مسوغ لها: ذلك أن الفرس أحست بما يجب فعله، فاندفعتُ وأغارتْ، كما كان يُقدِّرُ. وانتزعت نفسها من الأرض.

وأسلمتْ نفسها لقوة العطالة التي حملتها إلى ما وراء الحفرة: وتابعت سيرها بالإيقاع نفسه، بلا جهد، وبالسرعة نفسها.

صرخت بعض الأصوات في إحدى الجماعات:

ـ مرحى، فرونسكي.

كان يعلم أن أصدقاءه في الفوج يقفون قرب هذا الحاجز. ولم يخفَ عليه صوت إياشفين، لكنه لم يره.

قال، في نفسه. لفرسه وهو يصغي إلى ما يجري وراءه: «أوه! يا حلوتي». وفكَّر وهو يسمع عَدْوَ «المصارع»: لقد وثب؟ لم يبق عليه سوى الحفرة المملوءة بالماء والتي يبلغ عرضها متراً ونصف المتر. لم يتطلع فرونسكي إليها وإنما عمد، لحرصه على أن يكون مجلياً. إلى تحريك العنان بحركة مستديرة كانت ترفع وتخفض رأس الجواد مع إيقاع العدو. كان يحس أن فرسه تستنفذ آخر قواها المدَّخرة: لم يبتلّ بالعرق عرفها وكتفاها فحسب. بل إن العرق كان يقطر من غاربها ورأسها وأذنيها الدقيقتين، وغدا نَفَسُها ضيقاً متقطعاً لكنه كان يعلم أن تلك القوى المدَّخَرة كافيةٌ بشكل جيد لما بقي من الشوط. وكان إذا أحسَّ أن قربه من الأرض قد زاد أو أن الحركة التي تحمله قد غدت أهدأ أدرك فقط أن الفرس زادت من سرعتها. قفزت الحفرةَ بيسر شديد. طارت من فوقها كالعصفور: لكن فرونسكي أحسّ بذعر، في اللحظة نفسها، أنه لم يساير حركة الفرس وأنه حين ارتدّ إلى السرج لم يستقر في مكانه منه وأخطأ في جلسته وذلك على نحو لا يُفهم ولا يُغتفر. لقد تغيّر الوضع فجأةٌ، وأدرك أن شيئاً رهيباً حدث. وقبل أن يتبيّن حقيقة ما وقع لمح سوق «المصارع» البيضاء تمر بجنبه كالبرق. كان ماكوتين ينأى عَدْواً . لمس فرونسكي الأرضَ بقدمه وسقطت الفرس على هذه القدم. ولم يكد يخلَص قدمه حتى انهارت على جنبها وهي تنخر بشدة وتبدل، بعنقها النحيفة التي غطاها العرق. جهوداً غير مجدية لتنهض من كبوتها. كانت تتخبّط على الأرض

عند قدميه، مثل طائر جريح. إن حركة فرونسكي الخاطئة كسرت ظهرها. لكنه لم يدرك ذلك إلا فيما بعد. لم ير، في هذه اللحظة، سوى شيء واحد: ما كوتين ينأى بسرعة عنه، وهو باقٍ هنا على الأرض مبللاً، بلا حراك، بينما فرسُه طريحةٌ أمامه، تتنفس ببطء، وقد مال رأسها نحوه وأخذت تنظر إليه بعينيها الجميلتين دون أن تفهم ما حدث. جذب فرونسكي عنانها، فتخبطت كالسمكة. وانتصبت على قائمتيها الأماميتين، فصرّت أجزاءُ السرج؛ لكنها عجزت عن رفع قائمتيها الخلفيتين وما لبثت أن خذلتها ساقاها فسقطت على جنبها. ضربها فرونسكي بعقبه في بطنها، وجذب عنانها من جديد، وقد شوه الغضب وجهه، وشحب، وأخذ فكه الأسفل يرتعش. لكنها لم تتحرك واكتفت بأن حدجتْه بنظرة بليغة، وقد غرق منخراها في التراب.

زمجر فرونسكي وهو يمسك رأسه بيديه:

ــ ها ــ آ ــ! آه ــ آه ــ آه! ماذا فعلتُ؟ خسرتُ السباق!

الغلطةُ غلطتي، وهي غلطة مخزية، لا تُغتفر! وهذا الحيوان البائس، الرائع، قد قُضي عليه! ها ــ آ ــ آه! ماذا فعلت؟

هُرِع إليه الناس، والجرّاح ومساعده، وضباطُ فوجه. وأحسّ، بأسى شديد، أنه سليم معافىً. أما الجواد فقد كُسِر عموده الفقري، وكان لا بدّ من الإجهاز عليه. لم يستطع فرونسكي أن يجيب عن الأسئلة ولا أن يكلّم إنساناً. وانثنى، تاركاً قبعته تتدحرج على الأرض، هارباً من ميدان السباق، دون أن يعلم إلى أين يذهب. كان تعساً، ولأول مرة في حياته، كان لا بد له من أن يتحمل مصيبة فادحة، لا يمكن تداركها، مصيبةً كان هو نفسه سببها.

لحق به إياشفين ليردّ له قبّعتّه ورافقه إلى البيت. وبعد نصف ساعة تمالك فرونسكي نفسه. لكن هذا السباق ظل زمناً طويلاً، ذكرى من أشد الذكريات إيلاماً في حياته.

ظلّت العلاقات الخارجية بين الكسي الكسندروفتش وزوجته كما كانت سابقاً. والفرق الوحيد هو أنه صار يعمل أكثر من ذي قبل. ولقد سافر منذ الربيع إلى الخارج، كما كان يفعل في السنين السابقة، طلباً للعافية في مصحات المياه، بعد أن تضعضعت صحته من جراء عمل الشتاء. وعاد في تموز، واستأنف عمله على الفور، بعزم متزايد. وذهبت امرأته لتُقيم، كعادتها، في الريف، بينما بقي هو في بطرسبرج.

بعد الحديث الذي دار بينهما على أثر عودته من سهرة الأميرة تفرسكوي، لم يعدْ إلى مفاتحة آنا بشكوكه وغيرته، وغدت لهجتُه العادية الساخرة ملائمةً إلى أقصى الحدود في علاقاته الراهنة بزوجته. أخذ يُبدي لها قدراً أكبر من البرودة، وكأنما حقد عليها قليلاً بعد أن رفضت حديثه الأول. كان، في موقفه منها، شيءٌ من الحنق، لا أكثر. فكأنه كان يقول لها وهو يخاطبها في فكره: «أبَيْتِ المكاشفةَ، فليكنْ، الذنبُ ذنبك، سترجينني أنت الآن، وأنا الذي سيرفض، فليكن الذنب ذنبك». كان يخاطبها هذا الخطاب في ذهنه، مثل رجل حاول بدون جدوى أن يطفىءَ حريقاً، فاستشاط غيظاً وقال: «اشتعلْ، كما يحلو لك، إن كانت الأمور كذلك».

إن هذا الرجل الذكي والماهر في ممارسة وظيفته، لم يكن يرى إلى أي حد كان سلوكه نحو زوجته أخرق. لم يكن يرى ذلك لأنه كان يخاف خوفاً شديداً من أن يفهم وضعه الحاضر، وقد أغلق وختم ذلك الدرج، في أعماق قلبه، حيث توجد عواطفهُ نحو أسرته، أي نحو زوجته وابنه. إن هذا الأب الذي كان شديد الرعاية لابنه، بدأ، في أواخر الشتاء، يظهر الفتور لابنه، مصنطعاً معه اللهجة الساخرة التي يصطنعها مع زوجته. كان يقول له حين يلقاه: «حسناً! أيها الفتى!».

كان الكسي الكسندروفتش يفكّر ويقول: إنه لم يُرهقْ بالعمل كما أُرهق هذه السنة، لكنه لم يكن يعترف لنفسه أنه هو نفسه الذي اخترع هذه المشاغل، وأن ذلك وسيلةٌ من الوسائل التي تمنعه من فتح الدرج الذي استقرت فيه عواطفهُ نحو زوجته وأسرته والأفكارُ المتعلقةُ بهما، وهي أفكار تغدو أشد هولاً كلما طال انحباسها في ذلك الدرج.

ولو كان لأحدٍ الحقُّ في أن يسأله عن رأيه في سلوك امرأته لما أجاب الكسي الكسندروفتش الوديعُ الهادىء، بشيء، ولاستشاط غضباً على مَنْ ألقى هذا السؤالَ. ولذلك كان يصطنع الوقار والرصانة عندما يُسأَلُ عن أخبار آنا. لم يكن الكسي الكسندورفتش يريد أن يرى رأياً في سلوك زوجته وعواطفها. وبالفعل فلم يكن يرى رأياً في ذلك.

كانت دارةُ آل كارينين في «بيترهوف»؛ وكانت الكونتيسة ليديا إيفانوفنا تقضي فيها الصيف عادة، وتقيم مع آنا علاقات حسنة. لكن الكونتيسة لم تشأ أن تذهب هذا العام إلى «بيترهوف»، ولم تزر آنا ولو مرة واحدة، ولمحّت ذات يوم إلى سوء عواقب هذه الصداقة الحميمة بين آنا وبين بيتسي وفرونسكي. لكن الكسي الكسندروفتش أوقفها بخشونة، معلناً أن زوجته فوق الريبة، ومنذ ذلك الحين، أخذ يتحاشى ليديا إيفانوفنا. لقد صمّم على ألا يرى شيئاً، فلم يكنْ يلاحظ أن عدداً لا بأس به من الناس أخذ ينظر شزراً إلى زوجته؛ لم يشأ أن يفهم ولم يكن يفهم لماذا أصرّت زوجتُه كثيراً على أن تقيم في تساركوي، حيث تقيم بيتسي، غير بعيد عن معسكر فرونسكي. لم يكن يسمح لنفسه أن يفكر في ذلك، ولم يكن يفكّر في ذلك؛ لكنه، في الوقت نفسه، كان قانعاً، في أعماق نفسه، دون أن يعلن ذلك لنفسه، ودون أن يملك أيّ دليل بل دون أن يخالجه أيُّ شك، كان قانعاً أنه زوجٌ مخدوع، ولذلك كان تعساً في أعماقه.

كم من مرة، قال الكسي الكسندروفتش لنفسه، خلال هذه الأعوام الثمانية

من السعادة الزوجية، وهو يرى الزوجات الخائنات والأزواج المخدوعين: «كيف أمكنهم أن يصلوا إلى هذا الحد؟ وكيف لا يخرجون من هذا الوضع الشائن؟» أما الآن، وقد حلّت به المصيبةُ، فلم ينصرف عن التفكير في الخروج من وضعه فحسب، بل إنه كان حريصاً على تجاهله تجاهلاً تاماً، تجاهله لأنه كان رهيباً كأشد ما تكون الرهبة، هائلاً كأشد ما يكون الهول.

زار الكسي الكسندروفتش الريفَ مرتين، منذ عودته من الخارج، فتعشّى مرة هناك، أما، في المرة الثانية فقد قضى السهرة مع ضيوف زوجته، لكنه لم يبت الليل هناك، وهو ما كان يفعله عادةً في السنوات الأخرى.

كان يوم السباق يوماً مليئاً عند الكسي الكسندروفتش. لكنه حين وضع برنامج يومه، قرّر أن يتعشّى مبكراً، وأن يقصد على الفور بعد ذلك إلى منزل زوجته، ومن هناك إلى ميدان السباق حيث سيحضر البلاط كله، وحيث ينبغي عليه الظهورُ أمام الناس. لقد عرّج على امرأته لأنه قرر أن يراها مرةً في الأسبوع، مراعاة للياقة. وفوق ذلك كان يجب عليه، حسب الجدول المقرر، أن يسلم آنا، في هذا اليوم، قبل الخامس عشر من الشهر، المالَ الضروري للنفقات.

فكرّ في ذلك كله، بما عُهد فيه من سيطرة على ذاته، ودون أن يسمح لفكره بالاسترسال فيما يتعلق بامرأته.

كان منهمكاً جداً في الصباح. ذلك أن الكونتيسة ليديا ايفانوفنا أرسلت إليه البارحة كرّاسةً كتبها رحَالةٌ مشهور جاب الصينَ وهو الآن في بطرسبرج. وقد ربطت الكونتيسة بها رسالة ترجوه فيها أن يستقبل هذا الرّحالة، وهو رجلٌ قوي، مثيرٌ للاهتمام، ونافعٌ من عدة وجوه. ولم يتح لألكسي الكسندروفتش أن يقرأ الكراسة كلها في الليل، فأتمها في صباح اليوم التالي. ثم جاءه المراجعون، وبدأت المقابلات والاستقبالات والتعيينات والعزل، وتوزيع المكافآت والأجور والمرتبات، والمراسلات، بدأ عملُ « أيام العمل »، كما كان يسميه الكسي

الكسندروفتش، وهـو عمل كان يستغرق جزءاً عظيماً من وقته. وجاء بعد ذلك عملُه الخاص، زيارةُ طبيبه ووكيله الذي لم يمكث طويلاً. إذ اكتفى بأن سلّم الكسي الكسندروفتش المال الـذي كان يحتاجه وقدّم له بياناً موجزاً عن حالة أعماله التي لم تكن رائعة هذا العام: لقد أنفقوا كثيراً من المال بسبب التنقلات وكانوا في عجز مالي. لكن الطبيب، وهو طبيب متمرس في بطرسبرج، وكان ذا علاقات ودية مع الكسي الكسندروفتش، بقي وقتاً أطول. لم يكن كارينين ينتظره، في هذا اليوم، ودهش لزيارته، ودهش بخاصة لإلحاقه في السؤال عن حالته، وفي التسمع إلى صدره، وفي جسّ كبده، وكان يجهل أن صديقته ليديا ايفانوفنا، قد لاحظتْ أن صحته لا تبعثُ على الطمأنينة، فطلبت إلى الطبيب أن يزور المريض ويفحصه.

قالت الكونتيسة ليديا ايفانوفنا للطبيب:

ــ افعل هذا من أجلي.

فأجاب الطبيب:

ــ سأفعل ذلك من أجل روسيا.

قالت له الكونتيسة:

ــ أنت صديقٌ لا نظير لك!

لم يكن الطبيبُ راضياً عن الفحص. فقد وجد الكبد منتفخاً، والغذاء ناقصاً، وتأثير المياه معدوماً. فأشار عليه بقدر أكبر من الحركة الجسدية، وبقدر أقل من التوتر العقلي، وبتفادي المضايقات، وبعبارة أخرى: لقد أشار الطبيب بما هو مستحيل على الكسي الكسندروفتش استحالة امتناعه عن التنفس؛ وانصرف الطبيبُ مخلّفاً في نفسه انطباعاً مؤلماً بأن فيه شيئاً غير سليم لا سبيل إلى علاجه.

حين خرج الطبيب من عند الكسي الكسندروفتش، لقي على درج المدخل رئيسُ مكتب كارينين، «سليودين»، الذي يعرفه جيداً. كانا زميلين في الجامعة،

ومع أنهما كانا قلّما يلتقيان فقد كان بينهما الكثير من التقدير المتبادل والصداقة المخلصة، وما كان الطبيب ليحدّث أحداً عن مريضه بمثل هذه الصراحة.

قال سليودين:

ــ ما أعظم سروي بزيارتك له. يلوح لي أن صحته ليست حسنة. . .

ما رأيك؟

قال الطبيب وهو يشير، من فوق رأس سليودين، إلى حوذيه كي يقترب:

ــ رأيـي! هو. . .

وأخذ بين يديه اصبع قفازه المتجمدة ومطّها:

ــ رأيـي هو أنك إذا حاولت أن تقطع حبلاً دون أن تشدّه صَعُبَ ذلك عليك جداً، أما إذا شددته إلى أقصى حد فيكفي أن تضع إصبعك عليه حتى ينقطع. إنه متوتر إلى أقصى حد، بمثابرته على العمل وإخلاصه فيه، هذا مع ضغط قوي من الخارج.

وقال الجملة الأخيرة برزانة وهو يهزّ كتفيه. وأضاف وهو يهبط الدرج نحو العربة التي اقتربت منه:

ــ ألن تذهب إلى السياق؟

وردّ على كلام قاله سليودين ولم يسمعه جيداً.

ــ نعم، نعم، بدون شك. فذلك سيستغرق وقتاً طويلاً.

بعد الطبيب الذي أخذ كثيراً من وقته، حضر الرحّالة الشهير، وأدهش الكسي الكسندروفتش زائره، بعمق معارفه واتساع نظراته بعد أن استخدم الكراس الذي قرأه واستعان بمعلوماته السابقة.

في الوقت نفسه الذي انبىء فيه بوصول الرحالة، انبىء أيضاً بوصول مارشال النبلاء في الريف، وكان ماراً ببطرسبرج، وله به حاجة. وبعد انصرافه، كان لا بد من تصريف الأعمال الجارية مع رئيس مكتبه، وزيارة شخصية رفيعة لقضية هامة.

ولم يبق لالكسي الكسندروفتش من الوقت إلا ما يكفي للعشاء مع رئيس مكتبه الذي دعاه إلى دارته وإلى السباق.

لقد غدا الكسي الكسندروفتش يحاول، دون أن يتبيّن هو نفسه ذلك، أن يُشرك ثالثاً في لقاءاته مع زوجته.

[٢٧]

كانت آنا في الطابق الأعلى واقفةً أمام المرآة تُثْبتُ بمساعدة، «آنوشكا» آخر عقدة في فستانها، عندما سمعت أمام درج المدخل صوت عجلات تسحق الرمل.

فكّرت في نفسها: «لم يحنْ الوقت لمجيء بيتسي بعد». وألقت من النافذة نظرة عجلى فشاهدت المركبة التي برزت منها قبعةُ زوجها السوداء وأذناه اللتان تعرفهما جيداً. قالت في نفسها: «آه! يا لسوء الحظ! أرجو ألا يقضي الليلة هنا!» ورُوّعت من كل ما قد ينجم عن ذلك؛ وقبل أن تفكّر في ذلك، خرجت للقائه بوجه مشرق. وأحست في نفسها بروح الكذب والخداع التي غدت مألوفةً عندها، فاستسلمت لها وأخذت تتكلم دون أن تعلم ما ستقول.

قالت وهي تمد يدها إليه وتواجه بابتسامتها سليودين الذي كان من المترددين على المنزل.

ــ آه! ما ألطف هذا منك! ستبقى الليلة هنا، أرجو ذلك؟

ــ (كانت هذه أول كلمة توحي بها روحُ الخداع). وسنذهب معاً. من المؤسف أنني وعدتُ بيتسي. سوف تمرّ لتأخذني.

قال بلهجته الساخرة المألوفة:

ــ أوه! لا أريد أن أفرّق بين اللتين لا تفترقان. سأذهب مع ميشيل فاسيليفتش ــ لقد نصحني الأطباء بشيء من الرياضة ــ وسأقطع قسماً من الطريق مشياً، وأتخيل أني في السباق.

قالت آنا:

ـ لا داعي للعجلة. أتريد شاياً؟

ودقت الجرس، وقالت للخدم:

ـ قَدِّموا الشاي، وقولوا لسيرج أن الكسي الكسندروفتش قد وصل.

وخاطبتْ ميشيل فاسيليفتش قائلة:

ـ وأنت! كيف صحتك؟ أنت لم تأتِ بعد، يا ميشيل فاسيليفتش، إلى منزلي، انظرْ إلى شرفتي، ما أحسن ترتيبها.

كانت تتكلّم على نحوٍ بسيط وطبيعي، لكنه مفرط السرعة.. كانت تحسّ بذلك هي نفسها، ولا سيّما عندما استشفّتْ في النظرة المستطلعة التي رماها بها ميشيل فاسيليفتش أنه يراقبها.

قصد ميشيل فاسيليفتش من فوره إلى الشرفة، وجلست هي إلى جانب زوجها.

قالت له:

ـ لا يبدو الانشراحُ على وجهك.

فأجاب:

ـ لا، زارني الطبيب اليوم، وأخذ ساعةً مني. أظن أن أحد أصدقائك هو الذي أرسله: إن صحتي ثمينة جداً...

ـ وماذا قال لك؟

وسألته عن صحته ومشاغله، ودعته إلى الراحة وإلى أن يأتي ليعيش معها.

كانت تقول ذلك بفرح وسرعة، وفي عينيها بريقٌ غريب؛ لكن الكسي الكسندروفتش لم يكن يمنح لهجتها، في هذه اللحظة، أية أهمية، كان لا يسمع سوى الكلمات ولا يعطيها إلاَّ معناها المباشر. فأجابها ببساطة، وإنْ كان جوابُه مشوباً بالسخرية دائماً.

لم يكن في هذا الحديث ما هو خاص، لكن آنا لم تستطع أن تتذكر هذا اللقاءَ القصير فيما بعد، دون الإحساس بالخجل المعذِّب.

دخل سيريوجا تسبقه مربيته، ولو أن الكسي الكسندروفتش سمح لنفسه بالملاحظة لشاهد النظرة الوجلة، الولهى التي ألقاها الطفل على أبيه ثم على أمه. لكنه لم يشأْ أن يرى شيئاً، فلم ير شيئاً.

ــ أهلاً بالفتى! لقد كبر. في الحقيقة، لقد غدا رجلاً.

مرحباً يا فتى.

ومدّ يده إلى سيرج الذي استولى عليه الذعرُ.

لقد أخذ الطفلُ الذي كان وجلاً مع أبيه دائماً، أخذ يتحاشاه منذ أن صار يدعوه: «فتى»، ومنذ أن بدأ يتساءَل: إن كان فرونسكي صديقاً أو عدواً. والتفت إلى أمه كأنه يلتمس حمايتها. لم يكن يحسّ بالراحة إلا معها. لقد شرع الكسي، في هذه الأثناء، يحدّثُ المربية، وكان يمسك ابنه من كتفه، فأحسّ سيريوجا بالغم والضيق حتى رأتْ أمهُ أنه يوشك أن يجهش بالبكاء.

احمرّتْ حين رأته يدخل؛ ولاحظت ارتباكه فنهضت ورفعت يد الكسي الكسندروفتش عن كتف ابنها، وقبّلت الصغير، وقادته إلى الشرفة وعادتْ من فورها.

قالت وهي تلقي نظرةً على ساعتها:

ــ حان الوقت الآن. فكيف لم تأت بيتسي؟.

قال الكسي الكسندروفتش وهو ينهض ويشبك يديه ويفرقع أصابعه:

ــ جئتُ أيضاً لأحمل إليك المالَ، لأن القفص لا يطعم عصفوره. لا بد أنك محتاجة إلى المال؟

قالت دون أن تنظر إليه، وهي تحمر إلى جذور شعرها:

ــ لا... آه! بلى. سوف تعود من غير شك بعد السباق؟

أجاب الكسي الكسندروفتش:

ـ بالطبع!

قال وهو يشاهد من النافذة مركبةً انجليزية كان صندوقها الصغير معلقاً في أعلاها:

ـ ها قد أقبلت جوهرة «بيترهوف». يا للأناقة! يا للرشاقة! هيّا، فلنذهبْ.

لم تنزل الأميرةُ تفرسكوي من عربتها؛ الخادم وحده بلفافتيه وياقته وقبعته السوداء هو الذي وثب أمام درج المدخل.

قالت آنا:

ـ أنا آتية، وداعاً!

وقبّلت ابنها، وأقبلت على الكسي الكسندروفتش، ومدت إليه يدها، وقالت:

ـ كان لطيفاً منك أنْ أتيتَ.

لثم الكسي الكسندروفتش يدها.

قالت له:

ـ إلى اللقاء، إذن! تعال لتناول الشاي، رائع!

وخرجت وهي مشرقة مرحة. لكنها ما كادت تتوارى عن نظره حتى أحست على يدها بالموضع الذي لامسته شفتاه فارتعشتْ من الاشمئزاز.

[٢٨]

عندما وصل الكسي الكسندروفتش إلى ميدان السباق، كانت آنا جالسة قرب بيتسي في المنصة التي تجمّعت عليها الطبقة العليا من المجتمع. شاهدت زوجها من بعيد. كان هذان الرجلان: زوجها وعشيقها، مركزيْ حياتها، وكانت تُخْطَر بوجودهما من غير الاستعانة بالحواس. أحسّتْ من بعيد باقتراب زوجها فتبعته

تلقائياً بعينيها في جمهور الوافدين الذين كان يسير بينهم. رأته يدنو من المنصة، وهو يردّ تارة بتعالٍ على تحية متزلّفة، ويشدّ تارة أخرى بمودة وشرود على أيدي أقرانه، ويرصد بنظره، بين الحين والحين، أقوياء هذا العالم، فيرفع قبعته الكبيرة المدوّرة التي كانت تضغط أطراف أذنيه.

كانت تعرف كل هذه الأساليب، وكانت تأنف منها جميعاً. وفكّرت: «الطموح والرغبة في النجاح، هذا كل ما في نفسه؛ أما الاعتبارات العليا، وحب التعليم، والدين، فذلك ليس سوى وسيلة للوصول إلى هدفه».

لقد أدركتْ من نظراته (كان ينظر إلى اتجاهها بالضبط، لكنه لم يتبيّنْ امرأتَه في هذه الأمواج من الموصلي والأشرطة والريش والمظلات والأزهار) أنه يبحث عنها؛ لكنها تظاهرتْ بأنها لم تره.

صرخت به الأميرة بيتسي:

ـ الكسي الكسندروفتش! ألا ترى امرأتك؟ ها هي ذي!

فابتسم ابتسامته الباردة، وقال:

ـ لكل شيء هنا من البريق ما يبهر الناظرين.

أقبل على المنصة. وابتسم لآنا كما ينبغي أن يبتسم الزوجُ الذي يلقى زوجته بعد أن تركها قبل حين، وحيّا الأميرةَ والأشخاص الآخرين من معارفه، معطياً كل واحد حقه: ممازحاً النساء، ومبادلاً الرجال صنوف المجاملات. وكان في أدنى المنصة جنرالٌ مرافق عسكري، مشهور بذكائه وثقافته، يحترمه الكسي الكسندروفتش. فشرع في الحديث معه.

كان ذلك في أثناء الوقت بين شوطين. فلم يعكّر حديثهما شيء. انتقد الجنرالُ هذه الرياضة. فتصدّى الكسي الكسندروفتش للدفاع عنها. وأصغت آنا إلى صوته النحيف الرتيب، ولم تفتْها كلمةٌ من كلماته: بدا لها كل ما يقوله زائفاً يؤذي سمعَها.

عندما بدأ سباقُ الحواجز، انحنتْ إلى الأمام؛ كانت تصغي إلى ذلك الصوت الكريه، صوت زوجها الذي استفاض في الحديث، وعيناها محدّقتان في فرونسكي الذي دنا من جواده واعتلى صهوته. كانت تتعذب من القلق على فرونسكي، وكانت تتعذّب أكثر من الجرْسِ النحيل لذلك الصوت الذي بدا عليه أنه لن يسكت أبداً والذي تعرف جميع نبراته.

وفكّرتْ في نفسها: «أنني امرأةٌ ساقطة، امرأة ضالة، لكني لا أحب أن أكذب، لا أطيق الكذب، بينما يغتذي «هو» بالكذب. إنه يعلم كل شيء، ويرى كل شيء؛ فما الذي يحسّ به، إن كان يستطيع أن يتكلم بمثل هذا الهدوء؟ لو قتلني أو قتل فرونسكي لاحترمته. لا، إنه لا يحتاج إلا إلى الكذب وإلى مظهر التوقير والاحترام».

كذلك كانت آنا تحدّث نفسها، دون أن تتساءل ما الذي تنتظره بالضبط من زوجها، وما الموقف الذي تتمنى أن يتّخذه إزاءها. ولم تفطنْ إلى أن هذا الهذر الذي غاظها كثيراً من الكسي الكسندروفتش لم يكن سوى تعبير عن قلق دفين. كان الكسي الكسندروفتش بحاجة إلى هذه الرياضة العقلية ليُبعد الأفكار التي كانت تَفْرض نفسها عليه بحضور زوجته وفرونسكي الذي أخذ اسمه يتردد في كل لحظة، شأنه شأن الطفل الذي يصطدم بشيء فيَثبُ ويضطرب لينسى وجعه.

كان يقول:

ــ الخطرُ في سباق الضباط شرط ضروري. وإذا استطاعت انكلترا أن تُباهي بمآثر فروسيّةٍ باهرةٍ حقاً في تاريخها العسكري، فإنها غيرُ مدينةٍ بذلك إلا لنمو القوة التاريخي في خيلها وفرسانها. إنّ للرياضة، في رأيي، أهميةً عظمى، لكننا لا نرى، كما هو شأننا دائماً، إلا الجانب السطحي.

قالت الأميرة تفرسكوي:

ــ ليس سطحياً دائماً. يبدو أن أحد الضباط قد كُسر له ضلعان.

قال:

ــ لنفرضْ، يا أميرة، أنه جانبٌ غير سطحي، ولكنه داخلي. إلا أن المسألة ليست هنا.

والتفت من جديد إلى الجنرال الذي كان يحدّثه حديثاً جاداً:

ــ لا تَنْسَ أن الذين يتسابقون هم الضباط، وأنهم هم الذين اختاروا هذا الدرب، ولكل درب مساوئه. وذلك يدخل مباشرة ضمن واجبات الضابط. إن الرياضة الوحشية مثل الملاكمة أو مصارعة الثيران دليلٌ على البربرية. أما الرياضة المتخصّصة فهي دليلُ التقدم.

قالت الأميرة بيتسي:

ــ آه! لن أعود أبداً، إن ذلك ليضجرني أشدّ الضجر! أليس كذلك، يا آنا؟

قالت سيدة أخرى:

ــ صحيح، لكن هذا فاتن. ولو كنتُ رومانيةً لحضرت جميع ألعاب الملاعب.

لم تقلْ آنا شيئاً ولم ترخِ منظارها الصغير الذي ظل مصوّباً إلى الاتجاه نفسه.

في هذه اللحظة، عَبَر المنصةَ جنرال مديدُ القامة. فقطع الكسي الكسندروفتش كلامَه، ونهض على عجل، لكن بوقار، وحيّاه تحيةً عميقة.

قال له الجنرال مازحاً:

ــ ألست تجري مع المتسابقين:

أجاب الكسي الكسندروفتش باحترام:

ــ إن سباقي من نوع آخر.

ومع أنه لم يكن لهذه الجملة أي معنى، فقد بدا الجنرالُ كمن يلتقط كلمة من رجل بارع الذكاء ويدرك مرماها.

واستأنف الكسي الكسندروفتش كلامه:

ـ هناك وجهتا نظر: وجهةُ نظر الممثلين ووجهة نظر المشاهدين. وحبُّ هذا النوع من المشاهد أوثق دليل على تدني درجة تطور المشاهدين، وأنا أقرّ بذلك، لكن. . .

صاح من أدنى المنصة صوتُ ستيڤان أركادييڤتش مخاطباً بيتسي:

ـ أتراهنين، يا أميرة. على مَنْ تراهنين؟

أجابت بيتسي:

ـ آنّا وإنا نراهن على الأمير كوزوفليف.

ـ وأنا على فرونسكي. قفازان؟

ـ موافقة!

ـ ما أجمل هذا، أليس كذلك؟

لزم الكسي الكسندروفتش الصمت أثناء الكلام حوله، لكنه لم يلبث أن استأنف: ؛

ـ أنا أقرّ بذلك، لكنها ليست ألعاباً رجولية. . .

وأراد أن يتابع، لكن إشارة الانطلاق أُعطيتْ فتوقفتْ جميعُ الأحاديث. وصمت الكسي الكسندروفتش أيضاً. ونهضَ الجميعُ وتطلّعوا صوب الساقية. لم يكن الكسي الكسندروفتش يهتم بالسباق، ولذلك لم ينظر إلى الفرسان لكنه نقلّ عينيه المتعبتين في الجمهور بشرودٍ ساهم. ووقف نظرهُ على آنا.

كان وجهها شاحباً، رصيناً، وكأنها لا ترى شيئاً أو إنساناً سوى شخص واحد. وشدّت يدُها على مروحتها شداً تشنّجياً، وحبستْ نفسَها. وتلفّت كارينين فجأة ليفحص وجوهاً أخرى.

قال في نفسه: «تلك السيدة هناك، والسيدات الأخريات يبدو عليهن الانفعال؛ وهذا أمرٌ طبيعيٌ جداً». ووَدّ لو لم ينظرْ إلى امرأته، لكن عينيه كانتا تنتقلان إليها تلقائياً. لقد لاحظ هذا الوجه، للمرة الثانية، محاولاً ألا يقرأ فيه ما

كُتبَ عليه جهاراً، وهاله أنْ يرى فيه، بالرغم من إرادته، ما لم يشأْ أن يعلمه.

أثارَ السقوطُ الأول، سقوط كوزوفليف بعد الساقية مشاعرَ الناس جميعاً، لكن الكسي الكسندروفتش رأى بوضوح، من وجه آنا الشاحب، المزدهي بالنصر أن الذي تنظر إليه لم يَسقطْ. وعندما سقط ضابطٌ آخر على رأسه، بعد أن قفز ماكوتين وفرونسكي الحاجز الأكبر، وظن الناسُ أنه قد مات، وسرت في الحضور رعشةُ الذعر، رأى الكسي الكسندروفتش أن آنّا لم تلاحظ الحادث، ولم تكد تفهم ما يُقال حولها. وصار يطيلُ النظر إليها بلجاجة متزايدة. وأحسّت آنا، وهي مستغرقة في المشهد، بالنظرة الباردة التي حدج زوجُها بها وجهَها.

أدارتْ رأسَها لحظة، ورمتْه بنظرة مُسْتفهمة، ثم قطّبت بين حاجبيها وعادت إلى وضعها. وكأنها تقول: «آه! سواءٌ علي». ولم تُعرْه بعد ذلك أية التفاتة.

كان السباقُ فاجعاً: فمن سبعة عشر فارساً سقط النصف وأصيبوا بكسور. وفي آخر المباراة، كان الانفعال العام شديداً، وزاد من شدته أن الامبراطور أبدى استياءَه.

[٢٩]

عبّر الجميع بصوت عالٍ عن سخطهم؛ وأخذ الناس يردّدون جملةً قالها أحدُ الحاضرين: «لم يعد ينقصُنا إلاَّ السيرك والأسود»، وغدا الذعر عاماً؛ ولذلك، فعندما سقط فرونسكي وأطلقت آنّا صرخةً، لم يكن في ذلك ما يُدهش. لكن التبدّل الذي طرأ، في الحال، على أسارير وجهها قد خلا حقاً من الاحتشام، هذه المرة. كانت تتخبّط، مهتاجةً، مثل عصفور عَلقَ في الشرك: فتارةً تريد أن تنهض وتنصرف، وتارةً أخرى تخاطب بيتسي قائلة:

ـــ لنذهبْ، لنذهب.

لكن بيتسي لم تسمعها. كانت منحنيةً على نفسها تحادث جنرالاً جاء لتحيّتها.

قالت لها زوجها بالفرنسية:

ــ لنذهبْ، إن كنتِ ترغبين في ذلك.

لكن آنا كانت تصغي إلى ما يقوله الجنرال ولم تلمح زوجها.

قال الجنرال:

ــ يبدو أنه قد كسَر رجلَه أيضاً. هذا غير معقول!

لم تجب آنّا زوجها، ورفعت منظارها إلى عينيها ونظرت إلى الموضع الذي سقط فيه فرونسكي؛ لكن المكان كان بعيداً وكان الجمهور مزدحماً فلم تستطع أن تميّز شيئاً. فأنزلتْ منظارَها وأرادتْ أن تنصرف. لكن ضابطاً جاء يعدو، في هذه اللحظة، بكل سرعته لينبىء الامبراطور بما جرى. فانحنت آنا إلى الأمام لتستمع.

وصاحت بأخيها:

ــ ستيڤا! ستيڤا!

لكن أخاها لم يسمعها. فأرادت أن تغادر المنصة.

قال لها الكسي الكسندروفتش، وهو يلمس يدها:

ــ إني أقدّم لك ذراعي للمرة الثانية، إذا شئت أن تنصرفي.

فأعرضَتْ عنه باشمئزاز، وأجابته دون أن تنظر إليه:

ــ لا، لا. دعْني؛ فسأبقى.

رأت الآن ضابطاً يهرع، من الموضع الذي سقط فيه فرونسكي، نحو المنصة. فأشارت إليه بيتسي بمنديلها. أعلن الضابط أن الفارس لم يُجْرح، لكن الجواد قد انكسر عمودُه الفقري.

عندما سمعتُ آنا هذا النبأ، جلست بسرعة وخبّأتْ وجهها بمروحتها. ورأى الكسي الكسندروفتش أنها تبكي وأنها لا تستطيع أن تكظم نشيجها الذي كان يرفع صدرها. فوقف في وجهها ليسترها إلى أن تسكن نفسُها.

وقال لها بعد لحظة:

ـ إني اعْرضُ عليك ذراعي للمرة الثالثة.

فنظرت إليه آنا، وهي لا تدري ما تقول. لكن بيتسي هبّتْ إلى نجدتها، فتدخّلت قائلة:

ـ لا، يا الكسي الكسندروفتش، أنا جئتُ بآنا وأنا سأعود بها.

أجابها وهو يبتسم بأدب، ناظراً إليها، مع ذلك، بحزم:

ـ عفواً، يا أميرة، إني أرى أن آنا متوعكة وأحب أن أعود معها.

ـ التفتت آنا وقد بدا عليها الذعر، ونهضت منصاعةً وتناولت ذراع زوجها.

همست إليها بيتسي:

ـ سأرسل مَن يستخبر عنه، وسأطلعك على كل شيء.

تحدث الكسي الكسندروفتش، وهو يترك المنصة، مع جميع الذين صادفهم، وكأن شيئاً لم يكن. وكان لا بد لآنا أن تجيب وتتكلم، كأن شيئاً لم يكن، لكنها لم تكن حاضرة الذهن، فمشت كمن يمشي في الحلم، وذراعها في ذراع زوجها.

ـ وفكرت: «أهو جريح أم لا؟ أحقاً أنه لم يُجرح؟ وهل سيأتي؟ هل أراه اليوم؟

لاذتْ بالصمت، وهما يصعدان إلى عربة الكسي الكسندروفتش، ويخرجان من زحمة العربات. لم يكن الكسي الكندروفتش يسمح لنفسه، رغم كل ما رآه، بالتفكير في وضع امرأته الحاضر. لم يكن يرى من هذا الوضع سوى العلاقات الخارجية. كان يرى أنها تصرفت على نحوٍ غير لائق، ويعتقد أن من واجبه تحذيرها من ذلك. لكنه كان من الصعب عليه أن يقتصر على ذلك وألّا يزيد عليه شيئاً. وفتح فمه لينبّهها على أنها أساءت التصرف، لكنه قال شيئاً آخر، بالرغم منه. قال:

ـ كم تجتذبُنا هذه المشاهدُ القاسية. لقد لاحظت...

قالت له آنا بلهجة مُزدرية:

ــ كيف؟ لم أفهم.

قال لها:

ــ ينبغي أن أقول لك. . .

فكرّتْ: «ها هوذا الاستفسار». واستولى عليها الذعر.

قال لها بالفرنسية.

ــ ينبغي أن أقول لك: إن سلوكك اليوم كان قليل اللياقة.

فردت عليه بصوت عال وهي تُدير إليه رأسها بشدة، وتحدجه في عينيه بنظرة خالية من تلك البشاشة التي كانت تسمح لها بالمداجاة، لكنها نظرة حازمة لا تكاد تخفي الرعب الذي انتابها:

فيمّ؟

قال لها وهو يشير إلى زجاج المركبة الذي كان مخفوضاً خلف الحوذي:

ــ انتبهي.

ونهض فرفع الزجاج.

فكررت:

ــ فيم كان قليل اللياقة؟

ــ الأسى الذي لم تستطيعي إخفاءه عندما سقط أحدُ الفرسان.

كان ينتظر ما ستجيبه به؛ لكنها كانت تتطلع أمامها، دون أن تقول كلمة.

ــ لقد طلبتُ إليكِ أن تتصرفي بين الناس تصرفاً لا تجد معه الألسنةُ الشريرة ما تغتابك به. مضى زمنٌ كنتُ أتحدث فيه عن المشاعر الداخلية ولا داعي للكلام عليها بعد الآن. أما في هذه الساعة فأنا أحدثك عن العلاقات الخارجية. لقد تصرفتِ تصرفاً خالياً من الحشمة، وأحب ألا يتكرّر ذلك.

ـ لم تسمعْ نصف ما قاله لها. كان يخيفها، و كانت تتساءل إن كان صحيحاً أن فرونسكي لم يُجرحْ. أعنه قال الناسُ «إنه سليمٌ معافى لكن جواده انكسر عموده الفقري»؟ وإنما ابتسمت ابتسامتها الساخرة بدافع من الكبرياء، دون أن تجيب، عندما انتهى زوجُها من كلامه: لم تسمعْ ما قاله لها. لقد بدأ الكسي الكسندروفتش بداية جريئة، لكنه عندما أدرك بوضوح علامَ كان يتكلم سرى إليه الرعبُ الذي انتابها. رأى هذه الابتسامةَ فوقع فريسةً لوهم غريب. «إنها تبتسم هازئةً من شكوكي. نعم، ستردّد ما قالته لي في المرة الأخيرة: إن شكوكي لا أساس لها، وإنها مُضحكة».

في هذه اللحظة التي يوشك أن يوضعَ فيها أمام الأمر الواقع، لم يكن يرغب في شيء رغبته في أن يراها تجيب، ساخرةً، كما كانت تجيب في الماضي بأن شكوكه مضحكة ولا أساس لها. فما يعرفه كان رهيباً جداً حتى إنه كان مستعداً لتصديق كل شيء. لكن أسارير وجهه الخائفة، المكفهرّة لم تكن تُطْمعه ولو بكذبها.

فقال:

ـ لعلّي مخطىء. وفي هذه الحالة، أرجو أن تسامحيني.

قالت له ببطء وهي ترمي وجهَه البارد بنظرة شرسة:

ـ لا، أنت لم تخطىء. كنتُ مغمومةً ولا أستطيع إلا أن أكون كذلك. إني أصغي إليك وأفكّر فيه. أنا أحبّه، وأنا عشيقته؛ لا أستطيع أن أطيقك، أنت تخيفني، وأنا أكرهك... افعلْ بي ما تشاء.

وارتمت في ركن العربة، ولجّتْ في النحيب، وغطّت وجهها بيديها. لم يرمشْ الكسي الكسندروفتش، ولم يرفع بصره عنها، لكن وجهه اكتسى بيبوسةَ الموتى الجنائزية، وظلَّ تعبير هذا الوجه واحداً أثناء بقية الطريق. وبينما كانا يقتربان من دارتهما، أدار نحوها وجهه الذي حافظ على تعبيره، وقال:

ــ طيِّب! لكني أطلب إليك المراعاة الخارجية لأصول اللياقة إلى أن اتَّخذ (وأخذ صوته يتهدَّج) التدابير التي تُنقذ شرفي، وهي تدابير سوف تُبَلِّغينها.

وخرج أولاً وساعدها على النزول من العربة. وشدَّ يدها، بحضور الخدم، وصعد عربته وعاد إلى بطرسبرج.

لم يكد ينصرف حتى جاء خادم الأميرة بيتسي يحمل إلى آنا البطاقة التالية:

«استخبرتُ الكسي عن حالته، فكتب إليَّ أنه سليم معافى، لكنه يحسّ بالأسى الشديد...».

وفكَّرتْ:

«وهكذا ــ فهو ــ سوف يأتي. لقد أحسنتُ فعلاً أنني صارحتُه بكل شيء».

نظرت إلى ساعتها. بقي للقاء ثلاثُ ساعات. وأشعلتْها ذكرى تفاصيل لقائهما الأخير.

«يا إلهي، ما أبدع هذا النور! هذا رهيب، لكني أحب أن أرى وجهه، وأحب أن أرى هذا النور العجيب... زوجي! آه! صحيح... الحمد لله، تخلَّصتُ منه!».

[٣٠]

كانت مدينة المياه الإلمانية التي وصل إليها آل تشرباتزكي شبيهة بجميع الأماكن التي يجتمع فيها الناس: لقد حدث فيها نوعٌ من البَلْورة الاجتماعية التي تُعيّن لكل عضو من أعضاء المجتمع مكاناً محدَّداً لا يتغيَّر. وكما أن قطرات الماء المعرَّضة للبرد لا بد أن تتخذ ذلك الشكل المحدَّد لبلورات الثلج، فكذلك المستحمُّون الجدد توضَّعوا على الفور، في الفئة الاجتماعية التي تناسبهم.

لم يطل المقامُ بالأمير تشرباتزكي وزوجته وابنته حتى تبلوروا في المكان المحدَّد الذي خُصِّص لهم بسبب الشقّة التي يشغلونها، وبسبب اسمهم، وبسبب العلاقات التي أنشؤوها.

زارت المياه، في هذا العام، أميرةٌ ألمانية حقيقية، وهو أمر ساعد على بلورةٍ اجتماعية أقوى. وأصرَّت الأميرة تشرباتزكي على أن تقدِّم لها ابنتها، وجرى الاحتفال في اليوم التالي لوصولهم. انحنت كيتي انحناءةً عميقة ورشيقة، في ثوبها الصيفي «الشديد البساطة» أي في ثوبها الشديد الأناقة الذي أُوصيَ عليه من باريس.

قالت الأميرة الألمانية: «أرجو أن تُبْعَثَ الورود على هذا الوجه الفاتن»، ومضى آل تشرباتزكي في طريق تعذَّر عليهم الخروج منه. فتعرَّفوا إلى عائلة إنجليزية، وكونتيسة ألمانية، وابنها الذي جُرح أثناء الحرب الأخيرة، وعالِم سويدي، وعلى «السيد كانوت» وأخته. لكن المجتمع الأساسي الذي خالطه آل تشرباتزكي تألَّف من سيدة من موسكو، هي «ماري ايفغنيفنا رتيتشيف»، وابنتها (التي لم تكن تُعْجِبُ كيتي، لأنها مرضت مثلها على أثر خيبة أمل عاطفية، وعقيد من موسكو كانت كيتي تراه منذ طفولته ببزّته ذات الكتفيتين، وكان، هنا، مضحكاً بعينيه الصغيرتين وعنقه المكشوفة التي تحيط بها ربطة ملوَّنة، ومُضْجراً بطريقته في التشبّث بالناس. عندما رَسَخَ ذلك كله، ألمّ السأمُ بكيتي، ولا سيما أن الأمير سافر إلى كارلسباد وأنها بقيت وحدها مع أمها. لم تكن تهتمّ بالناس الذين تعرفهم، لإحساسها أنها لن تجد عندهم جديداً. وكان شغلها الفكري الأساسي هو أن تلاحظ الناسَ الذين لا تعرفهم، وأن تذهب في تخميناتها بصددهم كلَّ مذهب. كانت كيتي، بسببٍ من طبيعتها، تنسب إلى الناس، ولا سيما الذين لا تعرفهم، أكرم الصفات. وكانت تتصور الآن، وهي تكدّس افتراضاتها عن العلاقات التي يقيمها الناس فيما بينهم، وعن أخلاقهم، أن هناك نفوساً رفيعةً وكانت تعثر على مؤيدات لافتراضاتها.

ـ من الأشخاص الذين أثاروا اهتمام كيتي أكثر من غيرهم فتاةٌ وصلت مع سيدة روسيّة كان جميعُ الناس يسمُّونها السيدة «ستاهل». وكانت هذه السيدة تنتمي

إلى المجتمع الراقي، لكنها كانت مريضةً جداً حتى أنها لم تكن تَقْوى على المشي، ولم تكن تخرج إلا في أيام الصحو النادرة، في عربة صغيرة. لم تكن تخالط الروس، وكانت الأميرة تؤكد أن سبب ذلك هو أنَفتُها لا حالتها الصحية. كانت الفتاة تُعنى بالسيدة «ستاهل»، وقد لاحظت كيتي أن هذه الفتاة تقرَّبتْ من المرضى المُخطرين، الآخرين، وهم كُثُرٌ عند المياه، وبذلت لهم عنايتها بصدر سمح. كما لاحظت أن هذه الفتاة ليست من أقرباء السيدة «ستاهل»، وليست ممرِّضة مأجورة. كانت السيدة ستاهل تدعوها «فارنكا»[1]، وكان الآخرون يدعونها «الآنسة فارنكا». وفضلاً عن اهتمام كيتي بملاحظة علاقة هذه الفتاة بالسيدة ستاهل وبالآخرين الذين لا تعرفهم، فإنها كانت تشعر، كما يقع ذلك في الغالب، بضربٍ من الودّ الذي لا تفسير له، إزاء الآنسة فارنكا، وتحسّ، من النظرات التي تتبادلانها، أنها تنال إعجابها أيضاً.

لم يكن للآنسة فارنكا مظهر الشباب، مع أنها فتيةٌ: فقد تُعطى تسعة عشر عاماً وقد تُعطى ثلاثين. ولو دقَّق الناظر في أسارير وجهها لوجدها أقرب إلى الجمال منها إلى القبح، بالرغم من شحوبها المرضي. ولولا نحولها الشديد ورأسها الذي لا يتناسب مع قامتها المعتدلة لكانت حسنة الهيئة؛ لكنها لا تجذب الرجال. إنها شبيهة بزهرة تزينها تويجياتُها، بيد أنها زهرةٌ ذابلة لا عطر لها. وفوق ذلك، فقد كان ينقصها، لكي تُعجب الرجال، ما كان يفيض من كيتي: الحيوية المكبوتة، وشعورها بفتنتها.

كانت تبدو دائماً مستغرقةً في واجبات مُلحَّة، ومن ثَمَّ فقد كانت كأنما لا تُعنى بأي شيء آخر. فهذا التناقض مع ذاتها هو الذي اجتذب كيتي، على وجه الخصوص. كانت كيتي تحس أنها تعثر في حياة هذه الفتاة على مثال لما غدت تبحث عنه لقاءَ مثل هذه الآلام: اهتمامات وكرامة لا جامع بينها وبين العلاقات

---

(١) فارنكا: تصغير فرفارة (بربارة) للتحبُّب.

الاجتماعية للفتيات «الصالحات للزواج» اللواتي صرن يثرن حفيظتها الآن، وصرنَ يَلُحْنَ لها مثلَ عَرْض مُخْزٍ لبضاعة تنتظر مشتريها. وكانت كيتي كلما أَمعنتْ في ملاحظة صديقتها المجهولة، أيقنت أن هذه الفتاة هي الكائن الكامل الذي تتصوَّره، واشتدَّت رغبتُها في التعرُّف إليها.

كانت الفتاتان تلتقيان عدة مرات في اليوم، وفي كل لقاء كانت عينا كيتي تقولان: «مَنْ أنتِ؟ ما أنتِ؟ أحقاً أنك ذلك الكائن الساحر الذي أتخيَّله؟» وكانت نظرتُها تضيف: «لكنْ، لا تعتقدي، بحقّ الله، أنني سأرتمي عليك. كل ما في الأمر أنني معجبةٌ بك، وأنني أحبك» وكانت نظرةُ الفتاة المجهولة تقول: «وأنا أيضاً أحبك، وأنت رائعة جداً، جداً. ولو كان لدي الوقت الكافي لأحببتك أكثر». وبالفعل، فقد كانت كيتي تراها دائماً مشغولة: إما عائدةً من الحمام بأولاد أسرة روسية، أو حاملةً غطاءً لمريض كي تلفّ به ساقيه، أو جاهدةً في تسلية مريض سريع الغضب، أو ذاهبةً كي تختار وتشتري حلوى لقهوة أحد مرضاها.

بعد وصول آل تشرباتزكي بقليل، ظهر، أثناءَ علاج الصباح، شخصان أثارا نظرات معادية. كان أحدهما رجلاً مديد القامة، مقوّساً، ضخم اليدين، في معطف قديم، وله عينان سوداوان، ساذجتان ومرعبتان في آن واحد، والشخص الآخر امرأةً مليحة الشكل، في وجهها آثار الجدري وهي ترتدي لباساً خالياً من الأناقة والذوق. وإذْ عرفتْ كيتي أنهما روسيّان، أخذتْ تؤلف في خيالها عنهما روايةً بديعةً ومؤثِّرة. لكن الأميرة التي علمت من قائمة المستشفين أنهما نيقولا ليفين وماري نيكولايفنا، أفهمتْ كيتي أيّ رجل حقير هو ليفين هذا، فتهاوتْ جميع الأحلام التي بنتْها كيتي حول هذين الشخصين. لقد لاحا لها فجأة كريهين لا بسبب ما قالته أمُّها فحسب، بل وأكثر من ذلك لأنه شقيق ليفين. لقد أخذ ليفين هذا يوقظ فيها، بحركات عنقه العصبية، نفوراً لا سبيل إلى قهره.

خُيِّل إليها أنها ترى في عينيه الكبيرتين المرعبتين اللتين كانتا تتابعانها بلجاجة، تعبيراً عن الحقد والسخرية، فكانت تتحاشى لقاءَه.

[٣١]

كان الطقس رديئاً؛ هطل المطر طوال الصباح وتجمَّع المرضى؛ بمظلاتهم، في الرواق.

كانت كيتي مع أمها وعقيد موسكو الذي كان يخطر بسترته المصنوعة على الطريقة الأوروبية، والتي اشتراها جاهزةً من فرانكفورت. كانوا يسيرون في أحد جانبي الرواق وهم يسعون إلى تحاشي ليفين الذي كان يروح ويجيء في الجهة المقابلة. وكانت فارنكا في ثوب قاتم، وقبعة مكفوفة الحافات، تذرع الرواق، على طوله، إلى جانب فرنسية عمياء، وكلما قابلت كيتي بادلتها نظرات ودِّية.

قالت كيتي وهي تتابع بعينيها صديقتها المجهولة، وتلاحظ أنها تقترب من النبع وأنهما يمكنهما أن تلتقيا عنده:

ــ أيمكنني، يا أمي، أن أكلِّمها؟

قالت أمها:

ــ نعم، إن كنتِ تشتهين ذلك كثيراً. سأَسْتعلم عنها وسأذهب بنفسي لألقاها. ما الشيء الخاص الذي تجدينه فيها؟ لا شك أنها وصيفة. إذا كنتِ ترغبين فسأتعرف على السيدة «ستاهل».

وأضافت الأميرةُ وهي ترفع رأسها باعتزاز:

ــ إني أعرف زوجة أخيها.

كانت كيتي تعلم أن الأميرة مجروحة لأن السيدة ستاهل بدت كأنها تتحاشى التعرف بها. فلم تصرّ.

قالت وهي تنظر إلى فارنكا في اللحظات التي مدَّت فيها هذه كأساً إلى الفرنسية:

ـ إنها فاتنة حقاً! انظري كيف تفعل كل شيء بلطف وبساطة.

قالت الأميرة:

ـ أنت تُموِّتينني من الضحك «بتولُّعكِ».

واستأنفت حين رأت ليفين يقترب مع صاحبته وطبيب ألماني كان يقول شيئاً بصوت عالٍ وبلهجة غاضبة:

ـ لا، الأصحُّ أن نبتعد.

ـ لم تَدورا نصفَ دورةِ حتى سمعتا فجأةً صياحاً لا حديثاً. كان ليفين الذي توقَّف يصرخ، وكان الألماني يستشيط بدوره. وتجمَّع الناس حولهما. أما الأميرة وكيتي فقد ابتعدتا على عجل، واختلط العقيد بالناس ليعلم ما الأمر.

لحق بهما العقيد بعد بضع دقائق، فسألته الأميرة:

ـ ماذا جرى؟

أجاب العقيد:

ـ العار والخزي! ليس هناك ما هو أسوأ من أن يلتقي المرءُ روساً في الخارج. هذا السيد الكبير تخاصم هو والطبيب، وأوسعه حماقةً لأنه لم يعالجه كما ينبغي، وهزَّ له عصاه. ذلك هو العارُ الخالصُ.

قالت الأميرة:

ـ آه! ما أسوأ ذلك! وكيف انتهت الأمور؟

قال العقيد:

ـ لحسن الحظ أنْ تدخَّلْت، في هذه اللحظة تلك... تلك الإنسانة التي تضع قبعةً كالفطر. أعتقد أنها روسية.

سألت كيتي، وكلها فَرَحٌ:

ـ الآنسة فارنكا؟

ـ نعم، إنها هي. كانت أول مَنْ أمسك هذا السيد من ذراعه وقاده.

قالت كيتي لأمها:

ــ أرأيتِ، يا أمي، وتدهشين بعد ذلك من حماستي لها.

عندما راقبتْ كيتي، في اليوم التالي، صديقتَها المجهولة، لاحظت أن علاقة الآنسة فارنكا بليفين وصاحبته كانت كعلاقتها بكل الذين «تحميهم». كانت تلقاهما وتحدِّثهما، وتجعل من نفسها ترجماناً للمرأة التي لم تكن تتكلم أية لغة أجنبية.

رجت كيتي أمّها بقوة، مرة أخرى، لكي تسمح لها بالتعرُّف إلى فارنكا. ومع أن الأميرة كانت تكره أن تظهر كمن يقتسر صحبة السيدة «ستاهل» التي كانت تتكلَّف الكبرياء، فقد استعلمت عن فارنكا، واستَنْتَجتْ من التفاصيل التي حصلتْ عليها أن إنشاءَ علاقة مع هذه الفتاة لا يخلّ بالشرف في شيء، وإن لم يدعُ إلى الفخر؛ فقامت بالخطوات الأولى.

اختارت الأميرة اللحظة التي كانت فيها ابنتها عند النبع والتي وقفت فيها فارنكا أمام الفرن، فدنت منها، وقالت لها بابتسامة مفعمة بالوقار:

ــ اسمحي لي أن أقدِّم نفسي. إن ابنتي مشغوفة بك. لعلك لا تعرفينني. أنا...

أجابتها فارنكا بحيوية:

ــ العاطفة متبادلة، يا أميرة، وأكثر...

قالت الأميرة:

ــ لقد أديتِ البارحة خدمةً كبيرةً لمواطننا البائس.

احمرَّت فارنكا وقالت:

ــ لا أذكرُ ذلك. يلوحُ لي أنني لم أفعل شيئاً.

ــ بلى، خلَّصتِ ليفين هذا من ورطة.

ــ آه! صحيح. دعتْني صاحبتُه، وحاولت أن أهدِّئه: إنه مريضٌ جداً، وهو غير راضٍ عن طبيبه. ومن عادتي أن أعتني بهذا النوع من المرضى.

ــ قيل لي إنك تسكنين «مانتون» مع عمتك: السيدة «ستاهل»، على ما أعتقد. عرفتُ زوجةَ أخيها.

أجابت فارنكا وهي تحمرّ من جديد:

ــ ليست عمتي. إنني أدعوها «ماما»، لكننا لسنا قريبتين؛ وهي التي ربَّتني.

قالت ذلك ببساطة، وكان التعبير المنفتحُ، الصريحُ الذي لون وجهها من الروعة بحيث أدركت الأميرةُ لماذا شُغِفتْ كيتي بفارنكا هذه.

سألت الأميرةُ:

ــ وماذا سيفعل ليفين هذا؟

أجابت فارنكا:

ــ سيسافر.

في هذه اللحظة، عادت كيتي من النبع. وعندما رأت أن أمها قد تعرَّفتْ إلى صديقتها المجهولة، تألَّق وجهُها.

ــ كيتي، إن رغبتك الحارة في التعرف إلى الآنسة. . .

فهمست الفتاة:

ــ فارنكا؛ جميع الناس يدعونني هكذا.

احمرَّت كيتي من السعادة وشدَّت، دون أن تفوه بكلمة، على يد الصديقة الجديدة التي تركت لها يدها دون أن ترد على شدها بمثله. لكن وجه الآنسة فارنكا أشرق بابتسامة عَذْبة، فرحة، وإن كانت مشوبة بالكآبة، ابتسامة كشفت عن أسنان كبيرة لكنها جميلة.

وقالت لها:

ــ كنت أتمنى ذلك، منذ زمنٍ بعيد.

ــ لكنك منهمكةٌ على نحو. . .

قالت فارنكا:

ـ آه! على العكس، ليس لدي أي عمل.

وفي اللحظة نفسها اضطُرَّت إلى ترك صديقتيها الجديدتين لأن طفلتين روسيتين، أبوهما مريض، أقبلتا تركضان، وصاحتا:

ـ فارنكا، «ماما» تنادينا.

فتبعتهما فارنكا.

[٣٢]

إن ما علمته الأميرة عن ماضي فارنكا، وعن علاقتها بالسيدة ستاهل، وعن السيدة ستاهل، هو التالي:

إن السيدة ستاهل التي قال عنها بعضهم: إنها أشقتْ زوجها بسوء سيرتها، بينما ألقى آخرون اللوم نفسه على زوجها، كانت دائماً في حالة من الهياج المرضي. فعندما وضعت بكرها، وكانت منفصلةً عن زوجها، لم يلبث الطفلُ أن مات على الفور، وكان أهلها يعرفون حساسيتها، ويخشون أن يقتلها النبأُ، فاستبدلوا بالطفل الميت ابنة طاهٍ في البلاط وُلِدت في الليلة ذاتها، وفي البيت ذاته، في بطرسبرج. وكانت فارنكا. وقد علمت السيدة ستاهل فيما بعد أن فارنكا ليست ابنتها، لكنها ظلَّت تربِّيها، وعلى كل حال، لم يطل الأمر بفارنكا حتى أصبحت وحيدةً في هذا العالم.

كانت السيدة ستاهل تعيش في الخارج، منذ أكثر من عشر سنوات، ولا تغادر فراشها. وقد قال بعضهم: إنها أنشأت لنفسها مركزاً اجتماعياً بفضيلتها وتقواها؛ وقال بعضهم الآخر: إنها تتَّصف حقاً بتلك الأخلاقية العالية التي تكسو بها شخصيتها، وأنها لا تعيش إلا كي تفعل الخير للبشر. ولم يكن أحدٌ يعلم إن كانت كاثوليكية أو بروتستانتية أو أرثوذكسية، لكن من المؤكد أنها أقامت علاقات وديّة مع أعلى شخصيات الكنائس جميعاً والطوائف جميعاً.

كانت فارنكا تسكن معها؛ وكان جميع الذين يعرفون السيدة ستاهل يعرفون ويحبون «الآنسة فارنكا».

عندما علمت الأميرة بهذه التفاصيل، لم تجد ضيراً في تقارب ابنتها وفارنكا، وخصوصاً أن فارنكا قد حَصلتْ على تربية ممتازة، إذ كانت تتكلم الإنجليزية والفرنسية بطلاقة، وعلى الأخصّ لأنها نقلت للأميرة أسف السيدة ستاهل التي حرمها مرضها متعة الاتصال بها.

بعد أن تعرفت كيتي إلى فارنكا، أخذ افتتانُها بها يتعاظم شيئاً فشيئاً، وأخذت تكتشف فيها كل يوم مزايا جديدة.

وحين سمعت الأميرةُ أن لفارنكا صوتاً جميلاً، رجتْها أن تأتي ذات مساء لتغنِّي عندهم.

قالت الأميرة:

كيتي تعزف على البيانو؛ عندنا هنا بيانو غيرُ حسن، لكنك ستسرّيننا كثيراً إن غنَّيتِ.

قالت ذلك بابتسامتها المتكلّفة التي لم ترضَ عنها كيتي، لا سيما حين لاحظت أن فارنكا لم تكن ترغب في الغناء. لكن فارنكا جاءت مع ذلك، في المساء نفسه ومعها دفتر موسيقا. وكانت الأميرة قد دعت ماري ايغينيفنا وابنتها والعقيد.

بدتْ فارنكا غيرَ مبالية بحضور شخصيات غريبة، ودنتْ من البيانو دون أن يرجوها أحد. لم تكن تحسن مصاحبة نفسها، لكنها كانت تقرأ السلّم جيِّداً. فصاحبتها كيتي، التي كانت تُتقن العزف على البيانو.

قالت لها الأميرة بعد القطعة الأولى التي غنَّتها غناءً جميلاً:

ــ إن لك موهبةً رائعة.

وشكرتْها ماري ايغينيفنا وابنتها، وهنّأاها.

قال العقيد وهو ينظر من النافذة:

ـ انظري إلى الجمهور الذي تجمَّع ليصغي إليك.

وبالفعل، فقد احتشد عددٌ كبير من الأشخاص تحت النوافذ.

أجابت فارنكا ببساطة:

ـ أنا مسرورة لأنني أدخلت البهجة إلى نفوسكم.

تطلَّعت كيتي إلى صديقتها باعتزاز. لقد تملَّكها الإعجابُ بفنها وصوتها ووجهها، لكنها فُتنت، على الخصوص، بموقفها: كانت فارنكا كأنها تستخفّ بصوتها، وكأنها لا تبالي البتة بثناء الناس عليها. كانت تبدو كأنها تتساءل فقط: «هل أغنِّي أيضاً أم أسكت؟».

فكَّرتْ كيتي وهي تتأمل وجهها الوديع: «كم كنتُ سأتباهى، لو كنتُ مكانها! كم كنتُ سأسعد برؤية الجمهور تحت النوافذ! أما هي فإنها لا تكترث بذلك. إنها لا تنقاد إلا للرغبة في ألاّ ترفض شيئاً وأن تَسرَّ أمي. ما الذي يكمنُ فيها؟ ما الذي يعطيها القدرةَ على ازدراءِ كل شيء، على الهدوء، على الاستقلال؟ كم أودّ لو أعلم ذلك وأتعلَّمه منها!».

طلبت الأميرة إلى فارنكا أن تغنِّي أيضاً، وغنَّت فارنكا قطعةً ثانية بالدقة نفسها، واليسر نفسه، والإتقان نفسه التي غنَّتْ بها القطعة الأولى، وهي واقفةٌ قرب البيانو، موقِّعة النغم بيدها النحيلة والسمراء.

القطعة التالية في الدفتر كانت أغنية إيطالية. عزفت كيتي المقدّمة والتفتت إلى صديقتها.

قالت فارنكا وهي تحمرّ:

ـ لنترك هذه.

حدقت كيتي في وجهها بعينين قلقتين ومتسائلتين، وقالت بعجلة وهي تقلب الصفحة بعد أن أدركتْ على الفور أن هذه القطعة ترتبط بذكرى من ذكرياتها:

ـ تريدين قطعة أخرى، إذن.

استدركتْ فارنكا وهي تضع يدها على الصفحة وتبتسم:

ـ لا، لا، فَلْنُغَنِّ هذه.

وغنَّت اللحنَ غناءً هادئاً، خالياً من الاضطراب، متقناً، كما غنَّت الألحان السابقة.

عندما انتهتْ، شكرها الجميعُ وذهبوا لتناول الشاي. أما كيتي وفارنكا فقد مَضَتا إلى الحديقة الصغيرة المجاورة للمنزل.

قالت كيتي:

ـ هذه الأغنية مرتبطة عندك بذكرى، أليس كذلك؟

وأضافت بشدة:

ـ لا تقولي لي شيئاً، أجيبيني فقط.

أجابت فارنكا ببساطة:

ـ لماذا؟ أستطيع أن أصارحك!

وأضافت دون أن تنتظر الجواب:

ـ نعم، إنه مرتبط بذكرى كانت تؤلمني قديماً. أحببتُ رجلاً وكنتُ أغنِّي له هذه الأغنية.

ـ نظرتْ كيتي بعينين واسعتين، وهي متأثِّرة، دون أن تفوه بكلمة.

وأردفت فارنكا:

ـ كنتُ أحبه وكان يحبّني؛ لكنَّ أمه عارضت زواجنا، فتزوَّج أخرى. وهو الآن يسكن غيرَ بعيد عنا، وأنا أراه من وقت إلى آخر. ما كنتِ تظنّين أنه قد كانتْ لي، أنا أيضاً، قصتي؟

وظهرتْ على وجهها تلك الشعلة، التي كانت تضيئها كلها، فيما مضى من الزمان، كما خُيِّل إلى كيتي.

ــ كيف لم يخطرْ ذلك ببالي؟ لو كنتُ رجلاً لما أحببت غيرَك بعد أن أعرفك. ولستُ أفهم كيف استطاع أن ينساك ويشقيكِ، أرضاءً لأمه. إنه رجل لا قلب له!

ــ اوه! بلى، إنه رجل طيِّب جداً، ولست شقيّة؛ على العكس، أنا سعيدة.

وأضافت وهي تتجه إلى البيت:

ــ إذن لن نعود إلى الغناء اليوم.

هتفت كيتي:

ــ ما أكرم نفسك، ما أكرم نفسك! ليتني أستطيع أن أُشبِّهكِ، ولو قليلاً.

وأوقفتْها وعانقتها.

قالت لها فارنكا بابتسامتها الهادئة، المُتعبة:

ــ ولمَ تريدين أن تُشبهي غيرَك؟ أنتِ رائعةٌ على ما أنت عليه.

قالت كيتي وهي تُجلسها على مقعدٍ قربها:

ــ لا، لست رائعةً على الإطلاق. لكنْ، قولي لي.. انتظري، لنجلسْ. قولي لي. أليس مهيناً أن تريْ رجلاً يحتقر حبّك، يرفضه؟

ــ إنه لم يحتقرْ حبـي! أعتقد أنه كان يحبني، لكنه كان ابناً شديد الاحترام لأمه.

قالت كيتي، وهي تحسّ أنها تُذيع سرّها، وأن وجهها الذي توهَّج بحمرة الخجل قد نمَّ عليها:

ــ صحيح، لكن، لو فعل ذلك بمحض إرادته، لا ليُطيع أمّه؟...

أجابت فارنكا وكأنها أدركت أن المقصودةَ كيتي، لا هي:

ــ عند ذاك، سيكون قد أساء التصرف، ولن آسف عليه.

قالت كيتي وقد تذكَّرت نظرته في آخر حفلة، أثناء توقُّف الموسيقا:

ــ والإِهانة؟ من المستحيل نسيانُ الإِهانة.

ـ أين الإِهانة؟ أنت لم تسلكي سلوكاً شائناً؟

ـ أسوأ من ذلك. . . لقد ذللتْ.

قالت فارنكا:

ـ كيف؟ أنت لم تقولي، مع ذلك، لرجل غير مبال بك: إنك تحبينه؟

ـ طبعاً، لا! لم أَفهْ بكلمة، لكنه كان يعلم ذلك، لا، لا:

هناك نظرات وحالات. . . لو عشتُ مائة سنة لما نسيتُ.

قالت فارنكا مُسَمِّيةً الأشياء بأسمائها:

ـ مهلاً، إني لا أفهمك. المهم أن نعرف إن كنتِ ما زلت تحبينه أم لا.

ـ إني أكرهه. ولا أستطيع أن أغتفر لنفسي. . .

ـ وإذن؟

ـ العار، والإِهانة؟

قالت فارنكا:

ـ آه! لو أن جميع الناس كانوا حسَّاسين مثلك!. . ليس هناك من فتاة لم تُعان ما عانيتِه. وليس ذلك بشيء عظيم الأهمِّية.

قالت كيتي وهي تتفرَّسها بدهشة مُستغرِبةٍ:

ـ ما المهم، إذن؟

قالت فارنكا وهي تبتسم:

ـ آه! أشياء كثيرة!

ـ ما هي؟

أجابت فارنكا، وهي لا تعلم ما تقول:

ـ آه! هناك أشياء كثيرة أعظم أهمِّيةً.

لكنْ، في هذه اللحظة، صرختْ الأميرة من النافذة:

ـ كيتي! الجو بارد! خذي شالاً أو عودي إلى غرفتك!

قالت فارنكا، وهي تنهض:

ــ صحيح، حان الوقت! عليَّ أن أمرّ على السيدة «بيرت». لقد رجتْني.

ــ كانت كيتي تمسكها بيدها، وعيناها تسألانها بفضول مُتَّقدٍ، ضارعٍ: «ما الشيء الذي هو أعظم أهمِّيةً، ومَنْ الذي يمنحك هذه السكينة؟ أتعرفين ذلك، قوليه لي!» لكن فارنكا لم تكن تفهم ما تطلبه هذه النظرة. كانت تتذكَّر فقط أنه ينبغي لها أن تمرّ أيضاً على السيدة «بيرت» وأن تعود في الوقت المحدد لشاي «الماما»، في منتصف الليل. ودخلت المنزل، وتناولت دفتر الموسيقا، وأرادت الانصرافَ، بعد أن استأذنت كلاً من الموجودين.

قال العقيد:

ــ اسمحي لي أن أرافقك.

وأيَّدتْه الأميرةُ:

ــ نعم، ليس بوسعك أن تعودي وحدك، وقد حلَّ الليلُ. سأبعث معك «باراشا» على الأقل.

ــ رأت كيتي أن فارنكا لا تكاد تتمالك نفسها من الابتسام لأنهم يفكِّرون في اصطحابها.

قالت وهي ترفع قبَّعتها:

ــ لا، إني أخرج دائماً وحدي، ولا يُصيبني شيء.

وبعد أن قبّلت كيتي مرة أخرى، دون أن تذكر لها ما الشيء المهم، توارت في ليلة من ليالي الصيف يشوبُ الضياءُ ظلمتَها، بخطوات رشيقة، متأبطةً دفترها، حاملةً معها سرّ سكينتها وكرم نفسها اللذين شدّ ما غبطتْها كيتي عليهما.

[٣٣]

تعرَّفت كيتي إلى السيدة «ستاهل»، ولقد أثَّرت علاقاتها بها وصداقتها لفارنكا تأثيراً عظيماً فيها، بل إن تلك العلاقات وهذه الصداقة آستها في حزنها. لقد

اكتشفت، بفضل هذه الصداقة، عالماً جديداً كل الجدّة لا جامعَ بينه وبين ماضيها: عالماً رفيعاً، مثيراً للإعجاب، تستطيع من أعلاه أن تتأمَّل ماضيها بهدوء. اكتشفت أن هناك، خارج الحياة الغريزية التي استسلمت لها حتى الآن، حياةً روحيّةً. والإنسان يبلغُ هذه الحياةَ بطريق الدين، لكنه دينٌ لا يُشبه في شيءٍ الدينَ الذي عرفته كيتي منذ الصغر، والذي يقوم على حضور القداس وصلاة المساء في «مأوى الأرامل»[1]، حيث يمكن للمرء أن يلتقي أناساً من معارفه، وأن يحفظ نصوصاً سلافيةً مع كاهن الأبرشية؛ كان ديناً عالياً، مليئاً بالأسرار الخفية، مرتبطاً بأفكار وعواطف رفيعة: ديناً لا يمكن للإنسان أن يؤمن به فقط لأنه يُؤْمَرُ بذلك، بل إنه قد يُحبّه.

تعلَّمت كيتي ذلك بطريقة أخرى غير الكلام. كانت السيدة «ستاهل» تكلّمها كما تكلِّم طفلاً لطيفاً، تُعْجَبُ به، وكأن كلامَها استذكارٌ لشبابها؛ مرةً واحدةً فقط، لمَّحتْ إلى العزاء الذي يحمله الحبُّ والعقيدةُ وحدهما في الآلام الإنسانية، وأضافتْ أنه ليس من ألم تافه في نظر المسيح الشفيق، ثم غيَّرت الحديث رأساً. لكن كيتي كانت تكتشف في كلٍّ من حركاتها، في كل من كلماتها، في كل من نظراتها «السماوية»، كما كانت تقول الفتاة، ولا سيما في تاريخ حياتها كله الذي عرفته من فارنكا، كانت تكتشف «ما هو مُهمّ»، وما جهلتْه حتى الآن.

بيد أن كيتي اكتشفت، عن غير تعمُّد، في السيدة «ستاهل» بعض السمات الخلقية التي حيَّرتها، وإن يكن خلقُها عالياً، وقصتُها مؤثرةً، وكلامها رفيعاً ورقيقاً. لقد لاحظت كيتي، وهي تسألها عن أسرتها، أنها ابتسمت بازدراء، وهو أمرٌ مخالف للمحبّة المسيحية. ولاحظت أيضاً، وقد وجدت عندها ذات يوم كاهناً كاثوليكياً، أنها كانت تستر وجهها بكمّة المصباح وتضحك ضحكاً غريباً. فمثل

(١) مأوى الأرامل: «فدوفيي روم»: مؤسسة كبرى في موسكو كانت تأوي إليها الأرامل المعوزات، أرامل موظفي الدولة.

هذه الملاحظات بلْبلتها وحملتها على الشك في السيدة ستاهل. وبالمقابل فإن فارنكا وحدها، وهي بلا أهل وبلا أصدقاء، وهي لا تتمنَّى شيئاً، ولا تأسف على شيء بعد خيبتها المحزنة، إن فارنكا كـانت الكمال الخالص الـذي كانت كيتي تبيح لنفسها أن تحلم به فقط. لقد أدركت، بفضل فارنكا، أنه يكفي أن تنسى نفسها وتحب الآخرين لتكون هادئةً، سعيدة، جميلة هذا ما كانت تتمنى كيتي أن تكونه.

فبعد أن أدركت كيتي الآن بوضوح «ما الأهم»، لم تعد تكتفي بالحماسة، لكنها سرعان ما انصرفتْ من كل قلبها إلى هذه الحياة الجديدة التي انفتحت أمامها. لقد رسمت كيتي خطةً لحياتها الآتية وفقاً للروايات التي روتها فارنكا عن نشاط السيدة «ستاهل» وأشخاص آخرين سمّتهم لها. فهي ستطوف اقتداءً بآلين، ابنة أخت السيدة «ستاهل» وقد حدثتها فارنكا عنها كثيراً، ستطوف حيثما عاشت بحثاً عن البؤساء لتعينهم جهد المستطاع؛ وستوزع الأناجيل، وستقرأ الإنجيل على المرضى والمجرمين والمحتضرين. وفكرة قراءة الإنجيل على المجرمين كانت تفتن كيتي بنوع خاص. لكن ذلك كان أحلاماً دفينةً لا تُطلع عليها أمها ولا فارنكا.

وفضلاً عن ذلك، فقد وجدت كيتي بيسرٍ الفرصةَ لتطبيق مبادئها الجديدة، اقتداء بفارنكا، منذ الآن، عند المياه حيث يوجد الكثير من المرضى والبؤساء، وذلك ريثما تأتي اللحظة المناسبة لتنفيذ خطتها على مستوى أوسع.

في البدء، لاحظت الأميرةُ أن كيتي تخضع لتأثير «تولُّعها»، كما كانت تقول، أي لتأثير السيدة ستاهل وفارنكا. كانت ترى أن كيتي لا تقلِّد فارنكا في نشاطها فحسب، لكنها تقلّدها من غير تعمُّد، وفي مشيتها وكلامها وغَمْز عينيها. ثم لاحظت الأميرةُ أن تحوُّلاً داخلياً خطيراً يعتملُ في ابنتها، بمعزل عن ذلك الافتتان.

كانت كيتي تقرأ مساءً في إنجيل فرنسي أعطتها إياه السيدةُ «ستاهل»، وهو شيء لم تكن تفعله كيتي من قبل؛ وغدت تتحاشى العلاقات الاجتماعية ولا تتردَّد

إلى على المرضى الذين «تحميهم» فارنكا، ولا سيما أسرة رسّام فقير ومريض، يُدعى بيتروف. وكانت تتباهى لأنها تقوم، في هذه الأسرة، بدور الممرضة المُحسنة ــ كان كل ذلك جديراً بالثناء، ولم تجد الأميرةُ عليه ما يُقال، ولا سيما أن زوجة الرسام كانت امرأة لا غبارَ عليها، وأن الأميرة التي لاحظت نشاط كيتي أثنتْ عليها وسمّتها «الملاك المعزِّي» كل ذلك كان حسناً، لولا الإفراط. وقد لاحظت الأميرةُ أن ابنتها تجاوزت الحدَّ، فقالت لها:

ــ يجب ألاَّ نُبالغَ في شيء.

لم تجبْها ابنتُها بشيء؛ لكنها فكَّرت في أعماقها أنه لا يجوز الكلام على المبالغة فيما يتَّصلُ بالحياة المسيحية. وهل يمكن أن تكون هناك مبالغة في مراعاة المبدأ الذي يأمر بأن ندير الخدّ الأيمن لمن ضربنا على الخد الأيسر وأن نعطي قميصنا لمن أخذ رداءنا؟ لكن هذه المبالغة كانت تزعجُ الأميرةَ، وأزْعَجَها أكثر من ذلك أن كيتي كانت تأبـى أن تفتح لها أعماق نفسها. والواقع أن كيتي كانت تختبـىء عن أمها قناعاتها الجديدة وعواطفها الجديدة. لم تكن تخبّئها عن أمها لأنها لا تكنّ لها الاحترام والحب، بل لأنها أمها لا غير. وكانت حَرِيّةً بأن تفتح صدرها لأي إنسان غير أمها.

قالت لها الأميرةُ، ذات يوم، وهي تتحدَّث عن زوجة الرسام بيتروف:

ــ يلوحُ لي أن آنا بافلوفنا لم تزرْنا منذ زمن طويل.

لقد دعوتُها. فبدا عليها أنها تضايقَتْ.

قالت كيتي التي تضرّج وجهُها:

ــ لا، لم ألاحظْ ذلك، يا أمي.

ــ وهل زرتِها منذ زمن بعيد؟

قالت كيتي:

ــ سنقوم غداً بنزهة في الجبل.

قالت الأميرة وهي تفحص وجهَ ابنتها المضطرب وتَجْهد في التنبُّؤ بسبب اضطرابها.

في اليوم نفسه، جاءت فارنكا إلى العشاء وأعلنت أن آنا بافلوفنا عَدَلَتْ عن نزهة الغد. فلاحظت الأميرةُ أن كيتي احمرَّت من جديد.

قالت الأميرة عندما أصبحتا وحدهما:

ـ كيتي، ألم يحدُثْ بينك وبين آل بيتروف ما يُكْرَه؟ ولماذا كفّتْ عن إرسال الأولاد إلينا وعن زيارتنا؟

أجابت كيتي بأنْ ليس بينهما شيء، وبأنها لا تفهم على الإطلاق لماذا بدا على آنا بافلوفنا أنها حاقدة عليها. كانت تقول الحقيقة كاملةً. لقد كانت تجهل أسباب تغيُّر موقف آنا بافلوفنا نحوها، لكنها كانت تستشفّها. وما تستشفّه لا يمكنها أن تصارح به أمها، لأنها لم تكن لتعترف به أمام نفسها. كان ذلك من الأشياء التي نعلمها، لكننا لا نجرؤ على الإفصاح عنها لأنفسنا، لفرط ما يكون الخطأُ فيها رهيباً ومخزياً.

استعادت في خيالها، بغير تحديد، جميع علاقاتها بهذه الأسرة. تذكرت الفرحَ الساذجَ الذي كان ينعكس على وجه آنا بافلوفنا المدوَّر اللطيف أثناء لقاءاتهما، وأحاديثهما السرِّية بصدد المريض، وجهودهما لصَرْفه عن العمل الذي كان محظوراً عليه، وأخذه إلى النزهة؛ وتعلّق الابن الأصغر الذي كان يأبـى إلا أن يرقد معها. كم كان ذلك كله حلواً! تذكَّرت، بعد ذلك، شبحَ بتروف المهزول برقبته الطويلة، ومعطفه الكستنائي، وشعره القليل الجعد، وعينيه الزرقاوين المتسائلتين اللتين كانتا تخيفانها في الآونة الأولى، وجهوده المضنية ليبدو رشيقاً، باشّاً، في حضورها. تذكَّرتْ كم تحاملت على نفسها في البداية لكي تتغلّب على النفور الذي ابتعثَه فيها، شأن جميع المسلولين، وكم عانتْ من مشقَّة لتعثر على موضوعات للحديث. تذكَّرت تلك النظرة الوجلة والرقيقة التي كان يلقيها عليها،

وذلك الإحساس الغريب بالرأفة والضيق، وهو إحساسٌ خامرها آنذاك، ثم حلَّ محلَّه فيما بعد الشعور بفضيلتها. كم كان ذلك رائعاً! لكن ذلك كان في البداية. أما الآن، أي قبل بضعة أيام، فقد فسد كلُّ شيء فجأةً. كانت آنا بافلوفنا تستقبل كيتي ببشاشة متكلِّفة، ولاتني تلاحظها كما تلاحظُ زوجها.

أمن الممكن أن يكون الفرحُ المؤثرُ الذي يسبِّبه لبيتروف حضورُ كيتي هو سبب فتور آنا فافلوفنا؟

قالت كيتي في نفسها: «نعم، إن في آنا بافلوفنا شيئاً متكلِّفاً لا ينسجم مع طيبتها. وذلك عندما قالت لي قبل أمس بتبرُّم: «انتظرَكِ؛ ولم يشأْ أن يشرب قهوتَه بدونك، ومع ذلك فقد ضعف كثيراً».

ــ وأخذتْ كيتي تردّد على نفسها بذعر: «نعم، لعل ذلك هو الذي أزعجها كما أزعجها أنني أعطيته غطاءَه. كان ذلك بسيطاً جداً، لكنه بدا مُتضايقاً وشكرني كثيراً حتى أحسستُ أنا نفسي بالضيق. وهناك تلك الصورة التي رسمها لي والتي هي جميلةٌ جداً. ثم تلك النظرة الرقيقة المرتبكة!... نعم، نعم، هذا هو السبب.

وأضافت: «كلا، ذلك مستحيل، ولا ينبغي أن يكون! إنه ليدعو إلى الرأفة!».

هذا الشك سمَّم سحرَ حياتها الجديد.

[٣٤]

قطع الأمير تشرباتزكي علاجه، وغادر كارسبالد إلى بادن، وكيسينغن ليرى مواطنيه «وليتزوَّد بشيء من الهواء الروسي»(١)، كما كان يقول، ثم رجع إلى أسرته.

---

(١) «ليتزود بشيء من الهواء الروسي»: كان عدد كبير من النبلاء الروس يترددون، في ذلك العهد، على، على مدن المياه الألمانية ولا سيما بادن التي كانت مركزاً للقمار بالروليت.

كانت أفكارُ الأمير والأميرة عن الحياة في الخارج متعارضةً تعارضاً شديداً. كانت الأميرةُ تجد كلَّ شيء رائعاً، وبالرغم من مكانتها الوطيدة في المجتمع الروسي، فقد كانت تبذل وسعها في الخارج لكي تظهر بمظهر السيدة الأوروبية، وهو ما لم يصحّ، لأنها كانت روسية تصطنع مواقف تشقّ عليها. أما الأميرُ فكان، على العكس، يرى كل شيء بغيضاً؛ كان يستثقل الحياة الأوروبية، ويحتفظ بعاداته الروسية، ويبذل قصاراه لكي يظهر، في الخارج، أقل أوروبيّةً مما هو في الواقع.

عاد الأميرُ ناحلاً، مع جيوب تحت عينيه، لكنه كان نشيطاً. وقد أخذ هذا الانشراحُ يزيد عندما رأى كيتي في سبيلها إلى الشفاء. لكن صداقة كيتي للسيدة ستاهل وفارنكا، والملاحظات التي بلَّغتْه إياها الأميرة عن التحوُّل الذي كان يتمّ في ابنتهما، أقلقت الأمير وأيقظت فيه شعور الغيرة المعهود الذي كان يخامره إزاء كل ما يَنْتزع منه ابنتَه، كما أيقظت فيه الخشيةَ مِنْ أن تُفلت كيتي من تأثيره، لتبلغَ مناطقَ لا يبلغُها هو نفسه. لكن هذه الأخبار المكدَّرة غَرقتْ في بحر الطيبة والمرح اللذين كان يحملهما أبداً في نفسه، ولا سيَّما بعد عودته من كارلسباد.

في اليوم التالي لوصوله ذهب الأمير مع ابنته إلى المياه، وهو مرح مستبشرٌ، في معطف طويل، وقد انتفخ وجهُه الروسيّ الأصيل، وتجعّد، وغرقَ في قبّته المُنشّاة.

كان الصباحُ بديعاً؛ كانت البيوتُ النظيفة البهيجةُ بحدائقها الصغيرة، ومرأى الخادمات الإلمانيات اللواتي اغتذين بالجعة، وأخذن يعملن فرحاتٍ، بوجوههن وأيديهن الحمراء، والشمسُ الساطعة، كل ذلك كان يملأ القلب بهجة؛ بيد أنهما كانا كلما اقتربا من النبع صادفا المرضى وبدا مرآهم أشد إيلاماً في إطار الحياة الألمانية العادي، الحسن النظام. لم يكن هذا التباين يُدهش كيتي. فالشمس المتألِّقة، ورونقُ الخضرة، وأنغام الموسيقا كانت عندها الإطار الطبيعي لهذه الوجوه من معارفها، وللتغيرات التي طرأت على أحوالهم التي كانت تتابع تحسُّنها

أو تردِّيها. أما بالنسبة إلى الأمير، فإن النور والبهاء في هذا الصباح من شهر حزيران، وأنغام الجوقة التي كانت تعزف «فالساً» مُطرباً عصرياً شائعاً، ومرأى الخادمات الشديدات القوى، بخاصة، كل ذلك كان يبدو له خالياً من الحشمة، هائلاً، بجنب تلك الجثث المتنقِّلة التي زحفتْ إلى هذا المكان من كل أنحاءِ أوروبا.

وبالرغم من اعتزازه ورجوع صباه اللذين كان يشعر بهما وهو يتأبَّط ذراعَ ابنته المفضَّلة، فقد غدا يحسّ بالضيق والخجل من مشيته المتماسكة ومن أعضائه القوية، الموفورة اللحم كان يشعر تقريباً بشعور امرىءٍ عارٍ أمام الناس.

قال لابنته التي شدَّ ذراعها إلى صدره:

ــ عرِّفيني بأصدقائك الجدد. لقد صرتُ أحب مياه «السودان» الكريهة، لأنها شفْتكِ. لكنّ هنا أشياء محزنة جداً. . . مَنْ هذا؟

كانت كيتي تسمي له الأشخاص المعروفين وغير المعروفين الذين يصادفانهم. وعند مدخل الحديقة، وجدا السيدة بيرت العمياء مع ممرّضتها، واغتبط الأميرُ من أمارات الحب التي بدت على الفرنسية العجوز عندما تعرّفت إلى صوت كيتي، وخاطبتها على الفور بكثير من اللطف الخاص بالفرنسيين، وهنّأته على ابنته الساحرة، وأطنبتْ في الثناء عليها، بحضورها، ودعتها «الكنز» و «الجوهرة» و «الملاك المعزي».

قال الأمير وهو يبتسم:

ــ هي، في هذه الحالة، الملاك رقم اثنين. إنها تقول: إن فارنكا هي الملاك. رقم واحد.

فأيّدته السيدة بيرت:

ــ آوه! الآنسة فارنكا ملاكٌ حقاً!

وتحت الرواق التقيا فارنكا بذاتها. فأقبلت عليهما، بخطوات سريعة، ممسكةً بيدها كيساً أحمر، أنيقاً.

قالت لها كيتي:

ـ هذا أبـي الذي وصل قبل حين.

حيته فارنكا تحيةً بسيطةً وطبيعية، بحركة هي وسط بين التحية والإنحناءة، وشرعت في الحديث مع الأمير، بتلك اللهجة الصريحة، الطليقة التي تخاطب بها الناس جميعاً.

قال لها الأمير بابتسامة أَنبأَتْ كيتي أن صديقتها أعجبتْ أباها، وهو ما ملأها بالفرح:

ـ غنيٌّ عن القول أنني أعرفك، وأعرفك جيداً. إلى أين تستعجلين، هكذا؟

قالت مخاطبة كيتي:

ـ «ماما» هنا. وهي لم تنمْ طوال الليل، وقد أشار عليها الطبيب بالخروج. وأنا أحمل إليها شُغلَها.

قال الأمير بعد أن نأت كيتي:

ـ هذا هو، إذن، الملاك رقم واحد.

رأت كيتي أنه يشتهي أن يسخر قليلاً من فارنكا، لكنه لا يستطيعُ ذلك، لأن الفتاة أعجبته.

وأضاف:

ـ طيّب! سنرى جميعَ أصدقائك... حتى السيدة «ستاهل» إذا تنازلت أن تعرفني.

سألته كيتي بذعر وهي تلمح بريق السخرية يتّقد في عيني الأمير، عند ذكر اسم السيدة «ستاهل».

ـ أنت تعرفها إذاً، يا بابا؟

ـ عـرفتُ زوجَهـا، وعـرفتُها هـي أيضاً، قُبيل انخراطها في طائفة التقويين.

ـ سألته كيتي وقد روّعها أن تعلمَ أن هناك اسماً لما تُجلّه في السيدة «ستاهل»:

ـ وما التقويّ، يا بابا؟

ـ لا أعرف أنا نفسي بالضبط ما التقويّ؟ كلُّ ما أعرفه أنها تشكر الله على كل شيء، على جميع المصائب التي تُصيبها... حتى إنها تشكر الله على موت زوجها. وذلك مضحك، لأنهما لم يكونا متّفقين...

وسألها، وهو يلاحظ مريضاً جالساً على مقعد، بمعطف رمادي وبنطال أبيض قد تجعدّ في ثنايا غريبة على ساقيه المهزولتين. رفع هذا الرجلُ قبّعة القشّ، كاشفاً عن شعره النادر الجعد وعن جبهته العالية التي احمرّتْ تحت القبعة:

ـ مَنْ هذا؟ مَنْ هذا الكائن المسكين؟

أجابت كيتي وهي تحمّر:

ـ إنه الرسام بيتروف.

وأضافت وهي تُشير إلى آنا بافلوفنا التي نهضت، لحظةَ اقترابهما، لتركض وراء أحد أولادها، وكأنها، تتعمّد ذلك تعمّداً:

ـ وهذه امرأته.

قال الأمير:

ـ ما أجدره بالرثاء، وما أبدع وجهه!! لمَ لم تقتربي منه؟ لقد أراد أن يقول لكِ شيئاً.

قالت كيتي وهي تعُود أدراجها:

ـ لِنعدْ، إذن!

وسألت بيتروف:

ـ كيف حالكَ اليوم؟

نهض بيتروف وهو يتكيء على عصاه ونظر إلى الأمير بوجل.

قال الأمير:

ــ إنها ابنتي. هل تسمح بأن نتعارف؟

انحنى الرسام وابتسم، كاشفاً عن أسنان بيضاء تلمع لمعاناً غريباً، وقال لكيتي:

ــ انتظرناك أمس، يا أميرة.

ترنّح وهو يقول هذه الكلمات وكرّر هذه الحركة ليوهم أنه فعلها عامداً.

ــ كنتُ أريد أن آتي، لكن فارنكا قالت لي: إن آنا بافلوفنا أنبأتها بأنكم لن تخرجوا.

قال بيتروف، وهو يحمر ويأخذ في السعال فجأة.

ــ كيف!.

وأخذ يصرخ، فانتفحت كالحبال العروقُ على عنقه البيضاء:

ــ آنّيت! آنيت!

اقتربت آنا بافلوفنا فقال لها بصوت خافت، وبلهجة غاضبة، لأنه بُحَّ:

ــ لماذا أبلغتِ الأميرةَ أننا لن نذهبَ في نزهة؟

قالت آنا بافلوفنا بابتسامة متكلّفة، مختلفة جداً عن استقبالها قديماً:

ــ صباح الخير، يا آنسة.

وقالت للأمير:

ــ أنا سعيدة بمعرفتك. كنا ننتظرك منذ زمن طويل، يا أمير.

وردّد الرسام بصوت أبح، وبلهجة أشد غضباً، وكأن غيظه أخذ يشتد عندما خانه صوتُه، وعندما لم يستطع أن يمنح كلامه التعبير الذي يتمنّاه:

ــ لماذا أبلغتِ الأميرة أننا لن نخرج؟

أجابت زوجتُه بتبرمّ:

ــ آه! يا إلـهي، لكنني ظننتُ أننا لن نخرج.

ـ وكيف ذلك، عندما. . .

وأخذ يسعل، وأشار بيده إشارةَ العجز.

ـ فرفع الأمير قبّعته وابتعد مع ابنته، وقال وهو يرسل زفرةً عظيمة:

ـ أوه! اوه! أوه! البؤساء.

أجابت كيتي:

ـ صحيح، يا بابا. ولهم ثلاثة أولاد، وليس لهم خدمٌ، ولا مورد!

وقالت بحماسة وهي تحاول أن تتغلّب على الانفعال الذي سبّبه تغيّر آنا بافلوفنا الغريب بصددها:

ـ وهو يتلقّى عوناً من الأكاديمية:

ثم قالت:

ـ هذه هي السيدة ستاهل.

وأشارت إلى العربة الصغيرة التي استلقى فيها شكلٌ بشري تعلوه مظلة، وقد لفَّ بأغطية رمادية وزرقاء سماوية. كان ذلك الشكل هو السيدة ستاهل، وخلفها ألمانيٌ قوي، فظّ الهيئة، كان يدفعها. وإلى جانبها كونتٌ سويدي أشقر الشعر كانت كيتي تعرف اسمه. وتريّث بعضُ المرضى وهم يمرّون أمام العربة، ناظرين إلى هذه السيدة وكأنها شيء عجيب.

اتّجه الأميرُ إليها، وفي الحال لاحظت كيتي في عينيه ذلك البريق الخفيف، بريق السخرية الذي أثار اضطرابها. دنا من السيدة «ستاهل» وشرع في الحديث معها بلغة فرنسية بريئة من الخطأ، ولا يستطيع التحدث. بمثلها إلاَّ القليلون في أيامنا هذه، وبدا أمامها في منتهى الرقة والأنس، وقال وهو يرفع قبعته عن رأسه ويحتفظ بها في يده:

ـ لا أدري إن كنتِ تتذكرينني، لكنني أحب أن أذكرّك بنفسي لأشكر لك طيبتك نحو ابنتي.

قالت السيدة «ستاهل» وهي ترفع إليها عينيها السماويتين اللتين رأت كيتي فيهما ظلاً من الامتعاض:

ـ الأمير الكسندر تشرباتزكي. أنا سعيدة برؤيتك. أحب ابنتك كثيراً.

ـ أما تزال صحتك غيرُ مرضية؟

قالت السيدة ستاهل:

ـ أوه! لقد ألفتُها الآن.

وقدّمت للأمير الكونت السويدي.

قال لها الأمير:

ـ إنك لم تتغيّري كثيراً. لم أحظ برؤيتك منذ عشر سنوات أو إحدى عشرة سنة؟

ـ نعم، إن الله يعطي الصليب ويعطي القوة على تحمله! إني أتساءل أحياناً لماذا تطول حياةٌ مثلُ حياتي...

وقالت بتبرّم لفارنكا التي لم تلفّ الغطاء حول ساقيها كما أرادت:

ـ من هذه الجهة!

قال الأميرُ الذي كانت عيناه تضحكان:

ـ لفعل الخير، ولا شك.

قالت السيدة ستاهل وقد استشفّتْ ظلَّ السخرية على وجهه:

ـ ليس لنا أن نحكم.

وقال للكونت السويدي:

ـ سترسل لي هذا الكتاب إذن، أيها الكونت العزيز؟ شكراً جزيلاً.

وهتف الأمير وهو يرى العقيد في تلك الناحية:

ـ آه!

وحيّا السيدة ستاهل، وابتعد مع ابنته والعقيد الذي لحق بهما.

قال العقيدُ بنبرة هازئة، لأنه كان مجروحاً من أن السيدة ستاهل أبتْ مخالطته:

ــ ها هي ذي ارستقراطيتُنا، يا أمير!

أجاب الأمير:

ــ إنها لم تتغيّر.

هل عرفتها قبل مرضها، يا أمير. أعني قبل أن تلزم الفراش؟

قال الأمير:

ــ نعم، عرفتها منذ اللحظة التي لزمتْ فيها فراشها.

ــ يُقال إنها لم تقمْ منذ عشر سنوات.

ــ وهي تظل مضطجعةٌ لأن ساقيها مفرطتا القصر. إنها مشوّهة الجسم. . .

فهتفتْ كيتي:

ــ بابا، هذا غير جائز!

ــ الألسنة الخبيثة هي التي تؤكد ذلك، يا عزيزتي.

وأضاف:

ــ لا بدّ أن فارنكا تذوق الأمرين منها. أوه! من هؤلاء النسوة المريضات!

فردّتْ كيتي بحرارة:

ــ أوه! كلا، يا بابا! فارنكا تعبدها. وهي عظيمة الإحسان! يمكنك أن تسأل مَنْ شئت! كل الناس يعرفونهما هي و «آلين».

قال وهو يشد ذراع ابنته إليه:

ــ ربّما. لكنْ كان الأفضل ألا يعرف أحدٌ إحسانهما.

صمتت كيتي، لا لأنها لم تجدْ ما تقوله، بل لأنها لم تشأ أن تنبىء أباها بأفكارها الخبئة. والغريب، مع ذلك، أنها، مع عزمها على ألا تخضع لتأثير أبيها، وألا تبيح له بلوغَ مذبحها المقدّس، فقد أحست أن تلك الصورة الرفيعةَ التي

حملتها في قلبها للسيدة ستاهل، شهراً كاملاً، قد تلاشت إلى غير رجعة، شأنها شأن الشكل الذي نتصوره في الثياب المهجورة فإذا عرفنا حقيقة ترتيب القماش توارى ذلك الشكل. لم يبق منها سوى امرأة قبيحة القِصَر، تلزمُ فراشَها لأنها مشوّهة الجسم، وتُعذّب فارنكا عندما لا تحسن دسَّ الغطاءِ تحت ساقيها. ولا يمكن بعد الآن لأي مجهود من مجهودات الخيال أن يبعث السيدة «ستاهل» القديمة حيّة.

[٢٥]

أعدى الأميرُ بانشراحه ساكني البيت، وأسرته، وأصدقاءه، وحتى مالك البيت.

عندما رجع من النبع مع كيتي، دعا العقيد، وماري ايفغينيفنا وفارنكا لتناول القهوة، وأمر بترتيب المائدة تحت شجرة الكستناء في الحديقة. وعادت الحياةُ إلى مالك البيت والخدم الذين كانوا يعرفون كرمه. وبعد نصف ساعة، أخذَ طبيبٌ مريضٌ من هامبورغ، يشغل الطابق الأول. أخذ يتأمل من النافذة بشهوة، هذه الجماعة الروسية الفرحةَ المؤلفة من أناس صحيحي الأجسام، المجتمعة تحت شجرة الكستناء. وتحت ظلال الأوراق المرتعشة، قرب الطاولة المغطاة بغطاء أبيض، والمملوءة بفناجين القهوة، والخبز، والزبدة، والجبن، واللحوم الباردة، تصدّرت الأميرةُ، وعلى رأسها قبّعة ذات أشرطة ليلكية، وأخذتْ توزّع الشاي والخبز المدهون بالزبدة والمربّى. وفي الطرف الآخر من المائدة، كان الأمير يأكل بنهم وهو يثرثر بمرح. وقد رتّب مشترياته بجانبه: العلب المنقوشة، والتحف المزخرفة، وقاطعات الورق من كل صنف ولون والتي اشتراها من جميع مدن المياه التي مرَّ بها. ولقد نال كلُ واحد من الحاضرين هديّته، بمن فيهم الخادمة «ليشن»، ومالك البيت الذي كان يمازحه الأمير بلهجته الألمانية المضحكة، مؤكداً

له أن ما شفى كيتي ليست المياه وإنما طبخه الشهيّ ولا سيّما حساؤه بالخوخ المجفف. وكانت الأميرة تهزأ ممّا في زوجها من هوّسٍ روسيّ، لكنها كانت أكثر مرحاً ونشاطاً منها في أي وقت مضى على إقامتها قرب المياه. وكان العقيد. كدأبه دائماً، يضحك من نكات الأمير؛ أما فيما يتعلّق بأوروبا التي كان يدرسها بعناية. كما كان يظنّ على الأقل، فإنه كان يقف إلى جانب الأميرة. وكاد يُغشى على ماري ايفغينيفنا الطيّبة من الضحك على ما يلقيه الأمير من أحاديث فكهة. أما فارنكا (لم ترها قط كيتي هكذا)، فكادت تختنق من الضحك الصامت والمعدي الذي أثارته نكاتُ الأمير.

كان ذلك كله يسلّي كيتي، لكنها ظلّت مع ذلك مشغولة البال. لم يكن بوسعها أن تحلّ المسألة التي طرحها أبوها، من غير تعمّد، وهو يطوف بنظرته الهازئة، على أصدقائها. وعلى هذه الحياة التي شغفت بها. وإضافة إلى هذه المسألة، جاء تغيّرُ آل بيتروف الذي تجلّى قبل قليل، على نحوٍ واضح ومؤلم. انبسطَ الجميعُ إلا كيتي فلم تستطع أن تفرح. وزاد ذلك في عذابها. كانت تشعر بذلك الشعور الشبيه بما خالجها في طفولتها عندما حُبستْ في غرفتها عقاباً لها وسمعت ضحكَ أخواتها المليءَ بالفرح.

قالت الأميرةُ وهي تبتسم وتملأ فنجاناً من القهوة لزوجها:

ـ ولم اشتريتَ كلَّ هذه الأشياء؟

ـ خرجتُ للنزهة، واقتربتُ من دكانٍ، فأغراني صاحبها بالدخول: «يا صاحبَ الفضيلة، يا صاحبَ السيادة، يا صاحبَ السمّو[1]» فلما وصل إلى: «يا صاحب الرفعة[2]» لم أعدْ أستطيع المقاومة وصرتُ أدفع عشرة «التاليرات» بدون حساب.

(١) بالألمانية في النص الأصلي.

(٢) بالألمانية في النص الأصلي.

قالت الأميرة:

ـ ذلك لأنك كنتَ ضجراً. هذا كل شيء.

ـ بدون شك! كنتُ شديد الضجر، يا عزيزتي، حتى إني لم أعرف أين أذهب بنفسي.

ـ كيف يمكن للمرء أن يُصاب بالضجر. يا أمير؟ ففي ألمانيا الآن الكثيرُ من الأشياء الشائقة.

ـ لكني أعرف كلَّ ما هو شائقٌ: أعرف الحساء بالخوخ المجفّف، أعرف المقانق بالحمص. أعرفُ كلّ شيء.

قال العقيد:

ـ لا، مهما تقلْ، يا أمير، فإن مؤسساتهم شائقة.

ـ ما الشائقُ فيها؟ إنهم متغطرسون كالطواويس لأنهم غلبوا العالم بأسره. ما الذي يُرضيني من ذلك. أنا لم أغلب أحداً، ويجب أن أنزع جزمتي بيديّ، بل وأن أحملها بنفسي لأضعها أمام الباب. وفي الصباح، يجب أن نرتدي ثيابنا فور نهوضنا ونذهب إلى القاعة لنشرب شاياً كريهاً! الأمر هنا مختلفٌ عما هو عندنا. هناك يستيقظ المرء بلا عجلة، ويغضب إن شاءَ، ويتذمّر، وينتظر حتى يصحو، ويخلد إلى التفكير الهادىء على مهل.

قال العقيد:

ـ لكن الوقتَ من ذهبَ، نسيتَ ذلك.

ـ إنه ليس كذلك دائماً: فربّ شهر نعطيه مقابل خمسين كوبيكاً. ورُبَّ نصف ساعة لا نتنازل عنها مقابل ذهب العالم كله. أليس كذلك يا كيتي. لكنْ ما بكِ، تبدين حزينةً؟

ـ ليس بـي شيءٌ.

قال الأمير لفارنكا.

ـــ إلى أين تذهبين؟ ابقي قليلاً.

قالت فارنكا. وقد أصابتْها نوبةٌ جديدة من الضحك عندما قامت:

ـــ يجب أن أعود.

فلما هدأتْ استأذنتْ وذهبت تبحث عن قبعتها.

تبعتها كيتي ببصرها. لقد بدت لها فارنكا ذاتها مختلفة. لم تكن أقل كمالاً، لكنها كانت غير التي تخيّلتها من قبل.

قالت فارنكا وهي تأخذ حقيبتها ومظلتها:

ـــ لم أضحكْ مثل هذا الضحك منذ زمن بعيد. ما أروعَ أباكِ!

لاذت كيتي بالصمت، فسألتها فارنكا:

ـــ متى نلتقي؟

قالت كيتي لتَمْتحنَ فارنكا:

ـــ تريد أمي أن تمرَّ على آل بيتروف. ألن تكوني هناك؟

أجابت فارنكا:

ـــ بل، إنهم سيسافرون وقد وعدتُهم بأن أساعدهم على حزم أمتعتهم.

ـــ إذن، سآتي أيضاً.

ـــ لا، لا داعي لذلك.

قالت كيتي وقد حملقت بها وراقفْتها ممسكةً بمظلتها:

ـــ لماذا؟ لماذا؟ لا. ابقي، لماذا؟

ـــ لأن أباك وصل منذ وقت قريب، ولأنهم يتضايقون عندما تكونين هناك.

ـــ لا، قولي لي لماذا لا تريدين أن أذهب كثيراً إلى آل بيتروف؟ أنت لا تريدين ذلك! لماذا؟

قالت فارنكا بهدوء:

ـــ لم أقلْ ذلك.

ــ بلى، أرجوك، أجيبيني!

سألتها فارنكا:

هل ينبغي أن أقول لك كل شيء.

فأصرت كيتي:

ــ كل شيء! كل شيء!

قالت فارنكا وهي تبتسم:

ــ ليس هناك شيء خاص، لكن ميشيل اليكسيفتش (كان هذا هو اسم الرسام) كان يريد أن يسافر قبل ذلك، وهو الآن يأبى أن يسافر. فألحّتْ عليها كيتي وهي تنظر إليها نظرة متجهّمة:

ــ وإذن، وإذن؟

ــ وإذن، فقد قالت له آنا بافلوفنا: إنه لا يريد أن يسافر بسببك وطبيعي أن ذلك كان في غير محلّه، فتخاصما بصددك. وتعلمين إلى أيّ حدّ يتهيّج مثلَ هؤلاء المرضى.

أخلدتْ كيتي إلى الصمت، وزاد تجهمها. وظلَتْ فارنكا تتكلّم وحدها. محاولةٌ أن تطيِّب خاطرها وتهدّئها، متوقَعةً انفجارها. غيرَ عارفة إن كان سيكون انفجاراً باكياً أو كلامياً.

ــ أنت ترين... من الأفضل ألا تذهبي... افهمي... لا تغضبي...

قالت كيتي بحدّة، وهي تأخذ مظلة فارنكا. دون أن تنظر إلى صديقتها في وجهها:

ــ أنا أستحق ذلك، أستحقُّ ذلك!

اشتهت فارنكا أن تبتسم أمام غضب صديقتها الصبياني، لكنها خافت أن تجرحها. وقالت لها:

ــ لماذا تستحقين ذلك؟ لم أفهم.

ـ لأن ذلك كله كان نفاقاً. لأنه كان مُختلفاً، لأنه لم يصدر عن القلب.

وإلا فما لي ولرجلٍ لا يمتَ إليّ بصلة؟ ونجمَ عن ذلك أنني كنتُ سبباً للخصام بين الزوجين، وأنني تدخَلتُ فيما لا يَعْنيني. لأن ذلك لم يكن إلا نفاقاً! ألا نفاقاً! إلا نفاقاً!...

قالت فارنكا بهدوء:

ـ لأية غايةٍ؟

قالت كيتي وهي تفتح المظلَة وتعلقها.

آه! ما أغبى ذلك وما أحقره! كنتُ في غنى عن ذلك... كلُ ذلك نفاقٌ.

ـ ولأية غاية؟

لأبدو أفضل أمام الناس، وأمام نفسي، وأمام الله: لكي أخدعَ جميع الناس. لا، لن أقع في ذلك بعد الآن! إني أرضى أن أظل شريرةً، لكنني لن أكون، على الأقل، كاذبةً ولا منافقةً.

ـ ومَنْ المنافق، أنت تتكلمين وكأن...

لم تَتحْ لها كيتي، وهي مستسلمة لغضبها، أن تُتمَّ كلامَها:

ـ إني لا أقصدك، لا أقصدك على الإطلاق. أنت... أنت الكمالُ. نعم، نعم، أعلم أنكم كاملون جميعاً، لكنْ ما حيلتي إن كنتُ شريرةً؟ لو لم أكن شريرة، لما وقع ذلك، ولبقيتُ على حالي فلم أكذبْ على نفسي، على الأقل. مالي ولآنا بافلوفنا؟ ليعيشوا كما يشاؤون. وأنا كما أريد. ليس بوسعي أن أغيّر نفسي... وعلى كل حال، ليس الأمر كذلك، ليس الأمر كذلك!

سألتها فارنكا بحيرة:

ـ ما الذي «ليس كذلك»؟

ـ ليس الأمر كذلك! لا أستطيع أن أحيا إلا بقلبي، أما أنتم فتعيشون بحسب المبادىء. أنا شُغفت بكِ، وهذا كل شيء، بينما كان قصدك أنت أنْ تُنْقذيني، أن تعلّميني.

قالت فارنكا:

ـ أنتِ ظالمة.

ـ إني لا أتحدّث عن الآخرين، وإنما أتحدّث عن نفسي فقط.

صرخت الكونتيسة:

ـ كيتي! تعاليْ وأري والدكِ مرجاناتك.

أخذت كيتي علبة المرجان عن الطاولة بشيء من الاعتزاز، ودون أن تُصالح صديقتها، ومضت إلى والدتها.

سألتها أبوها وأمها في آنٍ واحد:

ـ ما بك؟ لمَ أنت مُحْمرّةٌ؟

أجابت:

ـ لا شيء. سأعود على الفور.

وذهبتْ ركضاً.

فكرّت كيتي: «إنها ما تزال هنا! ماذا سأقول لها، يا إلهي! ماذا فعلت؟ ماذا قلت؟ لماذا أهنتُها؟ ماذا سأفعل؟ ماذا سأقول لها؟»

هذا ما ردّدته كيتي في نفسها، وتوقفتْ عند عتبة الباب.

كانت فارنكا جالسةً قربَ الطاولة، وعلى رأسها قبّعتها، وبيدها مظلّتها وقد أخذت تفحص نابضَها الذي كسرتْه كيتي. ورفعتْ رأسها.

همستْ كيتي وهي تدنو منها:

ـ فارنكا، سامحيني، سامحيني! لست أذكر ما قلته. وأنا...

قالت فارنكا وهي تبتسم:

ــ في الحقيقة، لم أكن أقْصد أن أجرحك.

وتصالحتا. لكن وصول والد كيتي حوّل العالم الذي كانت تعيش فيه. فلم تتنكّر لما اكتشفته من قبل فحسب: بل لقد أدركتْ أنها كانت تخدعُ نفسها حين ظنت أن بوسعها أن تكون ما تتمنى أن تكون. خُيِّل إليها أنها تفيقُ من حلمٍ: وأحسّت بصعوبة الثياب في الأعالي التي أرادت أن تخلّق إليها، دون رياء ولا تبجّج: وفضلاً عن ذلك، فقد أحسّت بثقل هذا العالم، عالم الآلام والأمراض والمحتضرين الذي تعيش فيه: لقد بدت لها المجهوداتُ التي بذلتها لتحبّ ذلك كله قاسية، وأحسّتْ بالحاجة إلى أن تستَرْوح الهواءَ الطلق بأسرع ما يمكن، في روسيا، في ارغوشوفو. حيث أقامت أختُها، دولي» مع أولادها. كما أخبرتها في رسالة لها.

لكن حبها لفارنكا لم يفتُرْ. فعندما ودّعتها رجتْها أن تزورها في روسيا.

قالت فارنكا:

ــ سآتي عندما تتزوجين.

ــ لن أتزوج أبداً.

إذن، لن آتي.

ــ في هذه الحالة، لن أتزوج إلا لذلك. خذي حذرك. تذكري وعدك.

صحّتْ تنبؤاتُ الطبيب. فقد عادتَ كيتي إلى روسيا معافاةً. ولكن خلية البال. فرحةً كما كانت من قبل. لكنها غدت هادئةً، وغدت أحزانها القديمة مجرّد ذكريات.

* * *

الجزء الثالث

[١]

كان سيرج إيفانوفتش يرغب في أن يستريح من أعماله الفكرية؛ لكنه، بدلاً من أن يسافر، كعادته، إلى الخارج، وصل في آخر نيسان إلى منزل ليفين. وفي رأيه أنْ لا شيءَ يَعْدلُ الحياةَ في الريف. وقد جاء يَسْتمتع بها عند أخيه. وكان سرور ليفين عظيماً ولا سيما أنه لم يعدْ ينتظر أخاه نيقولا، في هذا الصيف. لكنه، بالرغم من حبه وتقديره لسيرج إيفانوفتش، لم يكن يشعر بالراحة في «بوكر وفسكوي» بحضوره. كان ينزعج، بل ويتألم أن يرى كيف يفهم أخوه الريف. كان الريف، عند قسطنطين ليفين، مسرحاً لحياته، أي لأفراحه وآلامه وأعماله؛ أما عند سيرج إيفانوفتش فكان، من جهة، مكانا للراحة، وكان، من جهة أخرى، علاجاً ممتازاً من فساد المدينة، علاجاً يتناوله برضى، شاعراً بنجوعه. كان الريف، في نظر سيرج إيفانوفتش، يزداد جمالاً، كلما أمكننا أو قُدِّر لنا ألاّ نعمل فيه. ثم إن موقف سيرج إيفانوفتش من الفلاحين كان يُشنِّج قسطنطين قليلاً. كان سيرج إيفانوفتش يزعم أنه يحب الشعبَ ويعرفه؛ وكثيراً ما كان يتحدّث مع الفلاحين دون تحرّج أو تكلّف، وكان يستخلص من هذه الأحاديث معطيات عامة لمصلحة الشعب، معطيات تثبت أنه يعرف هذا الشعب. مثل هذا الموقف لم يكن يرضي قسطنطين ليفين. لقد كان الشعب، بالنسبة إليه، المساعد الأساسي في العمل الشامل، وبالرغم من احترامه الكامل للفلاح، وبالرغم من ذلك الحب الأخوي له والذي كان يؤكّد أنه رضعه مع الحليب من مُرضعه الفلاحة، وبالرغم من الإعجاب الذي كان يحسّه أحياناً أمام قوة هؤلاء الرجال، ولطفهم، واستقامتهم، فإنه كثيراً

مـا كان يثور، ولا سيّما عندمـا كان العملُ المشترك يسْتدعي صفاتٍ أخرى، على عدم اكتراث الفلاحين، ووسخهم، وإدمانهم الخمر، وكذبهم. ولو أن قسطنطين ليفين سُئل إن كان يحبّ الشعب، لمـا عَرفَ صراحة كيف يجيب. كان يكنُّ لهم الودَّ والكره. كما كان يكنهما لبقيّة الناس جميعاً. وبما أنه كان فتى شهماً فقد كان يشعر إزاء الناس بالودّ أكثر مما يشعر بالكره؛ كذلك كان شأنه مع الفلاحين. لكن مشاعره تجاه الشعب كانت تتسم بسمة خاصة. فهو لم يكنْ يعيش مع الشعب فحسب، ولم تكنْ جميعُ مصالحه ومصالحهم مترابطة فحسب، بل إنه كان يعتبر نفسه جزءاً مكمّلاً للشعب، ولذلك فلم يكن بمقدوره أن يرى عيوبه وحسناته هو نفسه. وفضلاً عن ذلك، فمع أنه عاش على صلة بالفلاحين زمناً طويلاً، باعتباره ملاّكاً، «وحاكماً بالصلح»[1]، ومرشداً (كان الفلاحون يثقون به ويأتونه من أربعين فرسخاً ليسألوه مشورته)، إلا أنـه لـم يكـن يحمـل رأياً واضحاً دقيقاً في الشعب، ولـو سُئلَ إن كـان يَعْرفه لارتبك في الجواب ارتباكه حين يُسألُ إن كان يُحبّه. والقول بأنه يعرف الشعب يُعادل عنده القول بأنه يَعْرف الناسَ. كان دائماً يلاحظ ويعرف أصنافاً من البشر يراهم خيّرين وجديرين بالاهتمام، وفي عدادهم الفلاحون؛ وكان، في كل لحظة، يكتشف فيهم سماتٍ جديدة تعدّل رأيه فيهم. أما بالنسبة إلى سيرج إيفانوفتش فكان الأمر على عكس ذلك. فكما أنه كان يحب الحياة الريفية ويمدحها في مقـابـل نوع آخر من الحياة لم يكن يحبه. فكذلك كان يحبّ الشعب في مقابل تلك الطبقة من الناس التي لم يكن يحبّها، وكان يرى في الشعب فئةً من الناس معارضة للناس على العموم. ولقد كوَّنَ فكرُه المنهجي عدداً من المفاهيم الدقيقة عن الحياة الفلاحيّة؛ مفاهيم كان يَدين بها أحياناً إلى ملاحظة

(١) «وحاكماً بالصلح»: أنشئت، في كل مقاطعة، عند تحرير الأقنان عام ١٨٦١، مهمة «حاكم بالصلح» ينتخبه النبلاء المحليون، وعليه أن يقوم بتوزيع الأراضي بين الإقطاعيين والفلاحين. وقد مارس ليون تولستوي هذه المهمات في مقاطعة «كرابيفنا».

حياة الفلاح ذاتها، وفي معظم الأحيان إلى ملاحظة التناقضات. ولم يكن ليعدّل رأيَه في الشعب ولا موقفَه الودّي منه.

وفي النزاعات التي كانت تنشأ بين الأخوين، كانت الغَلبةُ دائماً لسيرج إيفانوفتش، وذلك، بالتحديد، لأن هذا الأخير كان يحمل مفهوماً دقيقاً عن الشعب، وطباعه، وخصائصه المميّزة، وميوله، بينما لم يكن قسطنطين ليفين يحمل رأياً محدّداً؛ ولذلك كان يبدو في هذا الجدل متناقضاً مع نفسه.

كان سيرج إيفانوفتش يُقدّر أن أخاه الأصغر فتى ممتاز، كريم القلب، لكن فكره وإن كان يقظاً، إلا أنه يخضع خضوعاً شديداً لانطباعات اللحظة، ومن ثمَّ فهو مليء بالتناقضات. فكان يشرح له أحيانا، بتنازل الأخ الأكبر، معنى الأشياء، لكنه لم يكن يلتذّ بمناقشته لأنه كان يفحمه بسهولة مفرطة.

أما قسطنطين ليفين فكان يعتبر أخاه رجلاً عظيمَ الذكاء، واسع الثقافة، نبيلاً بأرفع معاني هذه الكلمة، قد أوتي القدرة على العمل من أجل المصلحة العامة. لكنه كان، في أعماق نفسه، كلما تقدّم في السنّ وتعلّم كيف يعرف أخاه، ازداد يقيناً بأن تلك القدرة على العمل من أجل المصلحة العامة، وهي قدرة كان يُحسّ أنه محرومٌ منها تماماً، ليست مزيةً وإنما هي ثغرةٌ، لا بمعنى نقصان الرغبات والميول النبيلة والمستقيمة والخيّرة، لكن بمعنى نقصان الطاقة الحيوية، أي ما يُسمّى القلب، وغياب ذلك الطموح الذي يجبر الانسان على أن يختار، بين مختلف الطرق التي تَعْرض له، طريقاً واحدة لا يبتغي سواها. كان كلما ازدادَ معرفة بأخيه لاحظ أن سيرج إيفانوفتش، ككثيرٍ من الناس الذين يعملون للمصلحة العامة، لم يقدْهم قلبهم إلى حب المصلحة العامة؛ بل إن العقل وحده هو الذي برهن لهم أنّ من الخير أن يهتمّوا بها، وكان هذا هو محرّكهم الوحيد. وقد تأكّد هذا الافتراضُ عندما شاهد أن أخاه لا يولي عنايته المشكلات المتعلّقة بالمصلحة العامة وخلود الروح أكثر مما يوليها لعبةَ الشطرنج أو التنسيق البارع في آلة حديثة.

وكان للضيق الذي يشعر به قسطنطين ليفين في صحبة أخيه سببٌ آخر: كان ليفين مشغولاً أبداً، في أراضيه، ولا سيّما في الصيف، ولم يكن النهار كافياً للقيام بكل الأعمال التي تَعْرِضُ له، بينما كان سيرج إيفانوفتش يستريح. ومع أنه كان يستريح، أي إنه لم يكن يعمل في عمله، فقد تعود على ضروب جمة من النشاط العقلي، وكان يحب أن يعبّر عن الأفكار التي تخطرُ له، بشكلٍ أنيق ومُقتضَب، ويرغب في أن يجد له مستمعاً. ومن الطبيعي أن يكون أخوه هو المستمع العادي. وبالرغم من البساطة الوديّة في علاقاتهما، فإن قسطنطين ليفين كان يتحرّج من أن يتركه وحده. وكان سيرج إيفانوفتش يحبّ أن يظل مستلقيا على العشب تحت الشمس، متعرّضاً لوهجها، مثرثراً بتكاسل. .

كان يقول لأخيه:

ــ لا تستطيع أن تتصوّر مدى استمتاعي بهذه الحياة الخاملة. فيها يخلو الرأس من أية فكرة.

لكن قسطنطين ليفين كان يُضجرُه أن يظل جالساً يصغي إليه، ولا سيما وهو يعلم أن السماد كان ينقل إلى الحقول غير المقلوحة بدونه، وأنه يُكوَّم. كيفما اتفق، إذا لم يُشرف بنفسه على العمل، وأن سكاكين المحاريث قد تُفَكّ وقد تُنزع ليُقال له بعد ذلك: إن المحاريث اختراع سخيف، «وأين هي من تلك السكك القديمة». . الخ.

كان سيرج إيفانوفتش يقول له:

ــ توقّفْ قليلاً عن الركض في مثل هذه الحرارة.

فيجيبه ليفين:

ــ لا، سأذهب إلى المكتب لمدة دقيقة واحدة فقط.

ثم ينطلق إلى الحقول.

في الأيام الأولى من حزيران زلّتْ قدمُ المربية العجوز، الطيّبة آغات ميخايلوفنا التي كانت تقوم أيضاً بمهام الخادمة، وهي تُنزل إلى القبو وعاءً زجاجياً مملوءاً بالفطور المملحّة حديثاً، فوقعت والتوى معصمُها. واستُدعيَ من «زيمستفو» طبيب، هو طالب شاب مهذارٌ ترك الجامعة منذ وقت قريب. ففحص يدها وقال: إن المعصم لم يُخلع، وسُرَّ بمحادثة الشهير سيرج إيفانوفتش كوزنيتشيف، وروى له، لكي يُظهرَه على وجهة نظره المتنوّرة في الأشياء، كلَّ ما في المنطقة من قيل وقال، وشكاله من تعثّر سير الإدارة الاقليمية. كان سيرج إيفانوفيتش يصغي إليه باهتمام، ويطرح عليه الأسئلة، وحفَزَه هذا المستمعُ الجديدُ فاستفاض في الكلام الموشّى بالملاحظات الصائبة والعميقة، التي قدّرها الطبيب الشاب باحترام، واستخفّته الحماسةُ التي يعرفها جيداً أخوه والتي تأتيه بعد الحديث الحامي المتألق. وبعد أن رجع الطبيب، أراد سيرج إيفانوفتش أن يصيد السمك، على جانب الساقية. وكان يحبّ صيد السمك ويبدو كأنما يتباهى بحبه لمثل هذا اللهو السخيف.

عرض قسطنطين ليفين على أخيه، وكان مضطراً إلى الذهاب إلى الأراضي المحروثة والمروج، أن يأخذه معه.

كان ذلك في أوج الصيف: في الفترة التي يتّضح فيها موسم العام، والتي تبدأ فيها هموم البذار للسنة المقبلة، ويقترب فيها موعدُ حصاد الكلأ؛ الفترة التي يُطلع فيها الشيلمُ الجنزاري سنابله، ويهزُّ سوقَه الخفيفة في الريح منتظراً صعود النسغ؛ الفترة التي ينبعث فيها الشوفان الأخضر اللقيس، بغير نظام بين خصل العشب الأصفر؛ وتتفتّح فيها الحنطةُ السوداء المبكّرة، مغطّيةً الأرض؛ ويُمَرُّ بالمحراث على الأرض المستريحة ذات الدروب المهجورة، والتي صلّبها وطءُ الماشية واستعصتْ على المشط؛ وتختلط فيها رائحةُ أكوام السماد المنقولة إلى

الحقول برائحة النباتات؛ وتمدّ فيها المروجُ المحميّةُ وهي في شوق إلى المنجل، بساطها المرصوص الذي تناثرت عليه شمائلُ قائمة من الحمّيض المعزوق.

كان ذلك في الفترة التي تطرأ فيها استراحةٌ قصيرة على أعمال الحقول، قبل الحصاد الذي يعود كل عام ويتطلّب كلَّ مجهودات الفلّاحين. كان الموسم يبشّر بالخير: كانت النُهُرُ صافيةً وحارة، تتبعُها ليال قصيرة يتوضّع فيها الندى بوفرة.

كان على الأخوين أن يجتازا الغابة ليبلغا المروج. لقد انشَدَه سيرج إيفانوفتش أثناء الطريق كله بهذه الغابة الملتفّة الأغصان: فتارةً يُري أخاه زيزفونةً عتيقةً تكاد تلفّها الظلمةُ، تلوّنها أزرارٌ صفراء توشك أن تتفتّح، وتارةً أخرى يُريه أكمام الأشجار الفتية، بزرقتها الزمرديّة الزاهية. ولم يكنْ ليفين يحب أن يتحدث أو أن يَسمَعَ الحديثَ عن جمال الطبيعة. فالكلماتُ، عنده، تُعرِّي الأشياءَ من جمالها. كان يوافقه، لكنه كان يفكّر في شيء آخر. وعندما خرجا من الغابة، استغرقَ انتباهه كله ما رآه على تلة من أرض مستريحةٍ، مغطاةٍ هنا بالأعشاب الصفراء، مفتّتة هناك إلى مدرٍ، تناثرتْ فيها، في مكان ثالث، الكُثبان، وفُلحتْ في مكان رابع. كان يمرُّ بحذائها صفٌّ من العربات، عدّها ليفين وسُرّ إذ تبيّنَ أنها كافيةُ العدد. وعند مرأى المروج أخذ يفكّر في الكلأ. وحصاد الكلأ كان ابداً يمسُّ فيه الوتر الحسّاس. وعندما وصل إلى أطراف المروج، أوقف ليفين جواده.

كان ندى الصباح يغطّي العشب الكثيف، فطلبَ إليه سيرج إيفانوفتش، لكي لا يبلّل قدميه، أن يوصله بالعربة إلى دغل من الحور يُصادُ سمكُ الفرخ بقربه. ومع أن قسطنطين ليفين كان يتأذّى من أن يُداس عشبه، فقد مضى في المرج. كان العشبُ العالي يَنْشب برخاوةٍ في قوائم الخيل وبين العجلات، تاركاً حبوبه على قضب العجلات وثقوبها المبلّلة.

جلس أخوه في ظل الدغل بعد أن كرَّ خيطَ صنارته؛ وقاد ليفين جواده، وربطه بعيداً، ودخل المرجَ الجنزاريَّ الواسع الذي لم تكد الريح تحرّكه. وفي

منطقة الري، كان العشب الحريريُّ التي أُوْفتْ حبوبه على النضج، يصل إلى حزامه تقريباً.

اخترق قسطنطين ليفين المرج من وسطه وأفضى إلى الطريق، حيث التقى شيخاً منتفخَ العين، وهو يحمل قفّةً لجمع جماعات النحل.

سأله ليفين:

ــ ماذا، هل التقطتَ هذه الجماعةَ، يافوميتش[1]؟

ــ التقطتُها! أواه! كل ما أطلبُه هو أن أحافظ على جماعتي. ها هي ذي المرة الثانية التي تهرب فيها هذه الجماعة الفتيّة... لحسن الحظ أن الأولاد وصلوا في الوقت المناسب... كانوا يحرثون عندك، ففكوا الجواد وركضوا خلفها.

ــ وما رأيك يافوميتش، هل نحصد الكلأ الآن أم ننتظرُ؟

ــ ماذا أقولُ لك؟ نحنُ، نحن نفضّل الانتظار إلى عيد القديس بطرس، أما أنتم فتحصدون دائما قبل ذلك. إن شاءَ اللّهُ سيكون مخصباً، وسيكون للماشية ما تأكله.

ــ أتظن أن الطقس سيكون حسناً.

ــ الطقس بيد الله. ولعله سيكون حسناً.

رجع ليفين إلى أخيه.

ومع أن السمك لم يَقْربْ صنارته إلا أنه لم يَضْجرْ، وبدا باشاً مبتهجاً. وقد رأى ليفين أن حديثه مع الطبيب قد حرّضه، فهو يشتهي الكلام. وكان ليفين، على العكس من ذلك، يرغب في أن يعود بأسرع ما يمكن كي يعطي أوامره لدعوة الحاصدين في اليوم التالي ويتّخذ ذلك القرار الذي يشغله بشأن حصاد الكلأ.

قال ليفين:

ــ ليتنا نعود.

---

(١) فوميتش: ابن فوما (توما).

فأجاب أخوه:

ــ ولمَ العجلة؟ لنبقَ قليلاً أيضاً. أنت مبلّلٌ!! إني لا أصيد شيئاً، لكنني مسرورٌ هنا. في كل أنواع الصيد هذه الحسنةُ وهي أننا نحتكّ بالطبيعة. يا لسحر هذه المياه الملتمعة!

وتابع قائلاً:

ــ إن ضفافَ هذه المروج تذكّرني بلغزٍ. أتعرفه؟ يقول العشبُ للماء: «نحن نلوي، نحن نلوي».

أجابه ليفين بلهجة حزينة:

ــ لا أعرف هذا اللغز.

[٣]

قال سيرج إيفانوفتش:

ــ أتعلم؟ كنت أفكر فيك. فما يجري في منطقتكم، حسب ما قال لي الطبيبُ، لا يكاد يُصدَّق. ليس غبياً، هذا الفتى. لقد قلتُ لك وأكرّر ما قلتُه: أنتَ تُخطىء حين لا تذهب إلى الاجتماعات، وعلى وجه عام، حين تظل بمعزل عن المجالس المحلية. وإذا كان الناس الشرفاء سيعتزلون العملَ فسوف ينهارُ كل شيء. نحن نُنفق مالنا في المرتّبات: ليس عندنا مدارس ولا جراحون ولا قابلات ولا صيدليون؛ ليس عندنا شيء.

قال ليفين بصوت خافت، على مضَضٍ:

ــ لقد حاولتُ، فلم أستطعْ! ما العملُ؟

ــ ولماذا لم تستطعْ؟ أعترفُ لك أنني لم أفهمْ. إني أستبعد اللامباة والعجز. فهل الأمر مجردُ كسلٍ إذن؟

قال ليفين:

ـ لا هذا ولا ذاك. لقد حاولتُ ورأيت أنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً.

لم يَمْنحْ ما يقوله أخوه إلا القليل من الانتباه. وفيما هو يتفحّص الأراضي المفلوحة وراء الساقية لمحَ فيها بقعةً سوداء فلم يدر إن كان هذا وكيله على جواده أم أنه فرس بلا فارس.

ـ ولمَ لم تستطعْ أن تفعل شيئاً؟ لقد قمتَ بمبادرة فشلتْ، في رأيك، فأذعنتَ وسكتَّ. أيمكن أن يكون هذا هو كل حبنا لذواتنا؟

قال ليفين وقد قَرَصتْه كلماتُ أخيه:

ـ لا أدري ما حبُّ الذات. فلو قيل لي، في الجامعة، أنني لا أفهم الحساب التكاملي بينما يفهمه غيري، لأثار ذلك فيّ حبَّ الذات. أما هنا، فلا بد من الاقتناع سلفاً بأن من الضروري توافر بعض القدرات لهذا النوع من الأعمال، وبأن هذه الأعمال في غاية الأهمية.

قال سيرج إيفانوفتش وقد استاءَ بدوره من أن يستخفّ أخوه بما يشغلهُ، وبخاصة لأنه لم يصغ إليه، على ما بدا له، بكلتا أذنيه:

ـ ماذا؟ أليست تلك الأمور كذلك؟

قال ليفين، وقد تبيّن أن البقعة السوداء هي وكيله، وأن وكيله، في الظاهر يَصْرف الفلاحين إلى بيوتهم، كانوا يديرون أمشاطهم. وفكّر «أيكونون قد انتهوا؟».

قال له أخوه الأكبر الذي أخذ وجهه الجميلُ الذكيُّ يتربدُّ:

ـ اصغِ إليَّ مع ذلك، لكل شيء حدودهُ. ومن المستحسن أن يبتعد المرءُ عن التقليد، وأن يكون صادقاً، وأن يكره الكذب؛ أعرفُ ذلك كله، لكنَّ ما تقوله إما أنه لا معنى له، وإما أنه قد يُؤوَّل تأويلاً سيّئاً. وإلاَّ فكيف تستهين بأن يموت هذا الشعب الذي تحبّه، كما تقول. . .

فكّر ليفين: «لم أقل شيئاً من هذا القبيل. . .».

ـ . . . دون أن نمدّ له يدَ العَوْن؟ وبأن تَقْتل القابلاتُ الخِشانُ الأطفالَ، وأن يتمرّغ الشعبُ في الجهل ويظلّ تحت رحمة المعلمين الجهلة؟ أنت تملك الوسائلَ لمعالجة هذه الحالة، لكنك لا تتدخّل لأنك تجد ذلك عديمَ الأهمية!

لقد أحرجه سيرج إيفانوفتش ووضعه أمام حدين: فأما أن نموّك العقلي ناقصٌ وأنت لا تستطيع أن ترى ما يمكنكَ القيامُ به، وإما أنك لا تريد أن تتخلّى عن دَعَتكَ، وحبك لذاتك، وأشياء أُخَر . . .

أحسّ قسطنطين ليفين أنه لم يبقَ عليه سوى الرضوخ أو الاعتراف بأنه لا يشعر إلاَّ بحب معتدل نحـو المصلحة العامة. وكان ذلك يضايقه ويهينه. قال بلهجة قاطعة:

ـ كلا الأمرين صحيح. لا أرى أنه يمكننا . . .

ـ كيف؟ أليس بوسعنا تنظيم الإسعاف الطبـي، إذا أحْسنّا توزيع المال؟

ـ لا، لا أعتقد . . لا أجد إمكانية لتنظيم الإسعاف الطبـي، في هذه المنطقة التي لا تزيد عن أربعة آلاف كيلو متر مربع، مع قيعانها الرطبة، وعواصفها، وأعمال الحقول فيها، ثم إني لا أؤمنُ بالطب.

ـ لكنْ، أرجوك، هذا ظلم . . أستطيعُ أن أضرب لك آلاف الأمثلة . . . والمدارس؟

ـ المدارس، وما الغايةُ منها؟

ـ ماذا تقول؟ أيمكننا الشكُّ في فائدة التعليم؟ إذا كان التعليم قد نفعك فهو نافعٌ لجميع الناس!

شعر قسطنطين ليفين أنه قد حُشِر معنوياً إلى جدار، فاغتاظ بغير داعٍ وأفضى، عن غير عَمْد، بالسبب الرئيسي لعدم اكتراثه بالمصلحة العامة. قال:

ـ لعل كل ما قلتَه صحيح؛ لكنْ لماذا أشغل نفسي بإقامة هذه المراكز الطبية، إذا كنت لا أجني منها أيّة فائدة، وتلك المدارس التي لن أرسل إليها

أولادي أبداً، والتي لن يقبل الفلاحون أنفسهم أن يُرسلوا أولادَهم إليها، وأنا غير واثق بعد أن من الضروري إرسالهم إليها؟

أُفحم سيرج إيفانوفتش لحظة من الزمن أمام هذا الأسلوب غير المتوقع في النظر إلى المشكلة؛ لكنه ما لبث أن نظّم خطّةً جديدة للهجوم.

صمت، وأخرج إحدى صنانيره، ورماها في الماء، والتفت إلى أخيه وهو يبتسم:

ــ اسمحْ لي... أولاً لقد قام الدليل على ضرورة المركز الطبـي. فنحن أرسلْنا نستدعي طبيباً من زيمستفو لآغات ميخايلوفنا.

ــ صحيح، لكني أخشى أن تظل يدها مخلوعةً.

ــ سنرى ذلك... ثم إن الفلاح أو العامل الذي يعرف القراءة أثمن، وأنفع لك...

أجاب قسطنطين ليفين بلهجة جازمة:

ــ لا، تستطيعُ أن تسألَ مَنْ تشاء: إن الرجل الذي يعرف القراءة والكتابة هو، من حيث هو عامل، أسوأُ ألف مرّة. إنه يأبـى أن يذهب لإصلاح الطرق؛ وإذا كُلِّفَ بناءَ جسر سرق الموادّ.

قال سيرج إيفانوفتش وهو يقطّب حاجبيه، وكان لا يحب المعارضة التي تقفز من موضوع إلى آخـر، وتحتجّ بحجج جديدة لا رابط بينها بحيث يحارُ على أيّها يردّ:

ــ على كل حال، المسألةُ ليست هنا. أتسلّم بأن التعليم حسنةٌ بالنسبة إلى الشعب.

قال ليفين بغتةً:

ــ نعم.

وما لبثَ أن فطن إلى أنه لم يقلْ حقيقة ما يفكّر فيه. أحسّ، بعد موافقته

هذه، أن أخاه سيبرهن له على أنه لم يكن يقول سوى حماقات لا معنى لها. أما كيف سيبرهن له على ذلك، فذلك ما كان يجهله، لكنه كان يعلم أن أخاه سيدلّل حتماً على ذلك بالبرهان المنطقي وكان ينتظر ذلك التدليل.

كانت الحجةُ أبسط ممّا تصورها قسطنطين ليفين. فقد قال له سيرج إيفانوفتش:

ـ إذا كنتَ تعتقد بأن التعليم حسنةٌ، فليس بوسعك، كرجلٍ شريف، أن تمتنع عن عنايتك بمثل هذا المشروع، وعطفك عليه، وبالتالي مساعدتك له.

قال قسطنطين ليفين وهو يحمرّ:

ـ لكني لست واثقاً حتى الآن من أن هذا المشروع صالح.

ـ كيف؟ لكنك قلتَ قبل قليل...

ـ عنيتُ أنني لست واثقاً إنْ كان المشروع صالحاً أو ممكناً...

ـ لا تستطيع أن تعلم ذلك قبل أن نبذل جهدك في سبيل هذه الغاية.

قال ليفين:

ـ لنسلّمْ بأن التعليم حسنةٌ، (هذا مع أنه لم يُسلّمْ بذلك على الإطلاق) لكنني لا أفهم لماذا ينبغي لي أن أشغل بالي بذلك.

ـ كيف؟

قال ليفين:

ـ بما أننا وصلنا إلى هذا الحد، هات، اعرضْ لي وجهة نظرك الفلسفية.

ـ قال سيرج ايفانوفتش بلهجة توحي (هذا انطباع ليفين على الأقل) بأنه لا يعترف لأخيه بالحق في النقاش الفلسفي:

ـ لا أفهم، ما دَخْلُ الفلسفة هنا.

أغاظ ذلك ليفين، وأجابه محتدّاً:

ـ بلى! أعتقدُ أن محرِّكَ أعمالنا جميعاً هو، بالرغم من كل شيء، السعادة الشخصية. ولست أرى، اليوم، بصفتي نبيلاً، في المؤسسات الإقليمية، ما يمكن أن يسهم في رخائي. ليست الطرقُ أفضلَ ولا يمكن أن تكون أفضل؛ وعلى كل حال، إن جيادي لا يعجزها أن تحملني أحسن محمل في الطرق الرديئة. ولست أبالي لا بالأطباء ولا بالمراكز الطبيّة. ولست بحاجة إلى قاضٍ للصلح؛ لم أحتج إليه قط وعسى ألا أحتاج إليه. والمدارس لا تُفيدُني في شيء، بل إنها تضرّني كما قلتُ لك. والمؤسساتُ الإقليمية لا تُمثّل، بالنسبة إلي، إلا الإلزام بدفع ضريبة ثمانية عشر كوبيكا عن كل هكتار[1]، والذهاب إلى المدينة لأنام مع البقّ، والاستماع إلى ما يُلقى من الغباوات والحقارات؛ ولا دخلَ لمصلحتي في ذلك كله.

فقاطعه سيرج ايفانوفتش مبتسماً:

ـ عفواً، ليست المصلحة الشخصية هي التي دفعتْنا إلى العمل من أجل تحرير الفلاحين؛ ومع ذلك، فقد شاركنا في ذلك العمل.

قاطعه قسطنطين وقد ازداد احتداداً:

ـ كلا! تحريرُ الفلاحين شيءٌ آخر. كان لنا فيه مصلحةٌ شخصية. كل الشرفاء أرادوا أن يهزوا هذا النيرَ الذي كان يَسْحقُهم. أما أن أكون مندوباً في جمعية، وأن أناقش في عدد المنظِّفين وفي خطة المجاري لمدينة لا أقيمُ فيها، وأن أكون محلّفاً[2] لأحكم على فلاح سرق قطعة لحم، وأن أُصغي ست ساعات متواليات لسلسلة من البلاهات يلقيها المدافعون والمدَّعون، وأسمع الرئيس يسأل هذا العجوزَ المسكين: «السيد المتهم، هل تعترفُ بأنك سرقتَ قطعة اللحم؟».

أما كل هذا فلستُ أدري كيف تجده جديراً بالاهتمام؟

---

(١) «ثمانية عشر كوبيكا عن كل هكتار»: كان للمجالس المحلية التي كانت لها ميزانيتها أن تفرض ضرائب إضافية.

(٢) أن أكون محلفاً: أدخل نظام المحلفين في القضايا الجزائية منذ ١٨٦٤.

وانساقَ قسطنطين ليفين مع موضوعه، فقلَّد المشهد بين الرئيس وبين الفلاح العجوز الغبـي، متصوِّراً أنه يتابع بذلك برهنته.

هزَّ سيرج ايفانوفتش كتفيه وقال:

ــ ما قصدُك من ذلك؟

ــ أقصد أنني سأدافع أبداً بكل قواي عن الحقوق التي تمسّني... التي تمسّ مصلحتي الشخصية؛ فعندما كانت الشرطةُ تقوم بالتفتيش عندنا، وتقرأ رسائلَنا، حين كنتُ طالباً، كنت مستعداً للدفاع عن حقوقي في التعليم وفي الحرية، بكل قواي. أنا أقبل بالخدمة العسكرية التي تمسّ مصير أولادي وإخوتي ومصيري أنا نفسي؛ أنا مستعدٌ للنقاش في كـل مـا يخصّني؛ أما أن أناقش في استخدام أربعين ألف روبل، وأمـا أن أحكم عـلى فلاح عجوز أبله، فلست أرى في ذلك نفعاً، ولستُ قادراً عليه.

كان قسطنطين ليفين يتكلم وكأن السد الذي يحبس كلامه قد انهدم. وابتسم سيرج ايفانوفتش، وقال:

ــ وإذا عرضتْ لك غداً قضيَّةٌ. أتحبُّ أن تقضي فيها الغرفةُ الجنائيةُ القديمةُ؟

ــ لن تُعرضَ لي أيةُ قضية. وليس في نيَّتي أن أذبح أحداً، وليس بـي حاجةٌ إلى ذلك كله.

وتابع وقد انتقل إلى نمطٍ آخر من الأفكار:

وخلاصة القول أن هذه المؤسسات الإقليميّة تذكِّرني بأغراس البتولة التي تُغرز في الأرض، يوم عيد العنصرة لتُمثل غابةً، في حين أن الغابة لا تحتاج إلينا لتنبت في أوروبا. ولا أستطيع بصدق أن أسقي هذه الأغراس أو أن أؤمن بها.

اكتفى سيرج ايفانوفتش بهزّ كتفيه، معبِّراً عن دهشته حين رأى هذه الأغراسَ تعترض نقاشهـم، مع أنه فـهم رأساً ماذا يقصده أخوه منها. ثم أبدى هذه الملاحظة:

ـ المعذرةَ، لا يمكننا أن نُحاكم على هذا النحو.

لكن قسطنطين ليفين أراد أن يُبرِّىء نفسه من هذا العيب الذي يعرفه في نفسه: وهو عدم مبالاته بالمصلحة العامة. فتابع قائلاً:

ـ أعتقد أنْ ليس هناك من نشاط ثابت الدعائم إذا لم يرتكزْ على المصلحة الخاصة. وتلك حقيقة عامة فلسفية.

وكرَّر بحزمٍ كلمة «فلسفية»، كأنه يريد أن يبرهن على حقّه، كغيره، في الكلام على الفلسفة.

ابتسم سيرج ايفانوفتش مرة أخرى، وفكَّر في نفسه: «وهو أيضاً له نوعٌ من الفلسفة في خدمة ميوله». وقال:

دع الفلسفةَ وشأنها. إن مهمةَ الفلسفة الأساسيّةَ في كل العصور، هي، على وجه التحديد، أن تجد الرابطَ الضروري بين المصلحة العامة والمصلحة الخاصة. لكنْ، لا دخْل لهذا في نقاشنا. وأحبّ، بالمقابل، أن أصحِّح لك تشبيهك. إن الأغراسَ التي تحدَّثت عنها لا تُغرز غرزاً في الأرض، وإنما يُزْرَع بعضُها، ويُبْذَر بعضُها الآخر؛ وينبغي أن نعالجها برفق. والشعوب التي تحسّ بأهمِّية مؤسساتها وقيمتها، والتي تقدِّرها حقَّ قدرها، هي وحدها الشعوب التي لها مستقبلها، وهي وحدها التي يمكن أن ندعوها تاريخيّة.

وهنا، طرح سيرج ايفانوفتش القضية على مستوى فلسفة التاريخ، وهو ما لا يستطيع قسطنطين بلوغه، وبرهن له على خطأ وجهة نظره واختتم كلامه قائلاً:

ـ أما أنْ تقول إن هذا لا يُعجبك، فاعذرني إن قلتُ لك: إن هذا هو كسلُنا الروسي، هو عاداتنا القديمة، عادات الإقطاعيين الكبار؛ وأنا مقتنعٌ بأنك سترجع عن هذا الخطأ العابر.

لزم قسطنطين الصمتَ. وأحسَّ أنه هُزم شرَّ هزيمة، لكنه أحسَّ في الوقت نفسه أن أخاه لم يفهم قصده. ولم يعلمْ لماذا لم يفهمه أخوه: ألأنه لم يُحسنْ

عـرضَ مـا أراده بـوضـوح، أم لأن أخـاه لـم يشـأْ أو لـم يُحسنْ فهمَـه؟ ولم يتعمَّقْ في هـذه الأفكار، واستغـرق في أفكـار تتَّصل بمـوضوع آخـر، دون أن يجيبَ أخاه.

[٤]

كان الشاغل الشخصي الذي شغلَ ليفين أثناءَ حديثه مع أخيه هو التالي: بينما كان ذاهباً، ذات يوم من السنة السابقة، ليراقب حصاد الكلأ، غضب على وكيله، فلجأَ، لكي يُسكِّن غيظه، إلى وسيلته المعتادة: إذ أخذ منجلَ أحد الفلاحين وبدأَ يحصد.

ولقد أعجبه هذا العملُ كثيراً حتى إنه مارسه غيرَ مرةٍ فيما بعد؛ فحصَدَ المرجَ الممتدّ أمام المنزل، ونوى أن يحصد، في هذا العام، منذ الربيع، أياماً كاملة مع الفلاحين. وكان يتساءل، منذ وصول أخيه، إن كان سينفِّذ هذه الخطة. كان يتحرَّج من أن يترك أخاه وحده اليومَ بأسره، ويخشى أن يهزأ سيرج ايفانوفتش به. لكنه عندما اجتاز المرج، تذكَّر انطباعات الحصاد وصمَّم تقريباً على أن يعود إليه هذا العام. وبعد هذا النقاش المثير، تذكَّر عزمه، وفكَّر: «أنا بحاجة إلى إنفاق جهد جسدي، وإلاَّ أفسدتُ طبعي»، وقرَّر أن يحصد، مهما يكن الضيقُ الذي يحسّ به إزاء أخيه والآخرين.

في هذا المساء، مرَّ قسطنطين ليفين على مكتب المحاسبة، ووزَّع أوامره المتعلِّقة بالأعمال، وأرسل إلى القرى مَنْ يستدعي العمال لحصاد أجمل مروجه وأوسعها: مرج «فيورن». قال، وهو يحاول ألاَّ يُظهر ارتباكَه:

ــ أرسلْ منجلي إلى «تيت» ومُرْهُ أن يشحذه ويأتي به غداً؛ فربما حصدتُ مع الحاصدين.

قال الوكيل:

ـ بأمرك.

في المساء، عند تناول الشاي، قال ليفين لأخيه:

ـ أظن أن الطقس سيطيبُ. وغداً سأبدأ حصاد الكلأ.

قال سيرج ايفانوفتش:

ـ أحبّ هذا العمل كثيراً.

ـ وأنا أيضاً أحبه للغاية. ولقد حصدتُ بين الحين والحين مع الفلاحين، وأود أن أعمل معهم غداً طوال النهار.

رفع سيرج ايفانوفتش رأسه ونظر إلى أخيه بدهشة:

ـ كيف؟ تريد أن تبقى مع الفلاحين، طوال النهار، كواحدٍ منهم؟

قال ليفين:

ـ نعم، هذا ممتع.

قال سيرج ايفانوفتش دون أدنى سخرية:

ـ هذا رائع كتمرينٍ جسدي، لكني أشك في قدرتك على التحمل.

ـ لقد حاولتُ. العملُ قاسٍ في البداية، ثم لا نلبث أن نتعوَّده. وأنا أرجو ألا أقصِّر عن الحاصدين.

ـ ممتاز! لكنْ قلْ لي كيف ينظرُ الفلاحون إلى ذلك. لا بدَّ أنهم يهزؤون منك ويعتقدون أنك غريب الأطوار.

ـ لا، لا أظن ذلك. فهذا العمل بهيجٌ وصعب جداً في آن واحد بحيث لا يجد المرءُ متّسعاً للتفكير.

ـ وكيف تفعل لتتعشَّى معهم؟ فمن الصعب أن تُحْمَل إليك زجاجة «شاتولافيت» مع ديك رومي مشويّ!

ـ لا شك أنني سأعود، عند استراحتهم.

في صباح اليوم التالي، نهضَ قسطنطين ليفين أبكرَ من عادته، لكنه تأخر

بسبب الأوامر التي وزَّعها، عندما وصل إلى المرج، كان الحاصدون قد حصدوا حَصْدَتهم الأولى.

كان يشاهد، من السفح، الجزءَ المحصودَ، عند أدنى الهضبة، مغطًّى بالظلال، وقد تناثرت فيه حزمُ العشب الرمادي والأكوام السوداء الصغيرة من القفطانات التي خلعها الفلاحون في الموضع الذي شرعوا فيه بحَصْدَتهم الأولى.

كان كلما تقدَّم انكشف له الفلاحون متدرِّجين بعضهم خلف بعض، منهم من يرتدي قفطانة، ومنهم من هو في قميصه، وقد أخذوا يحرِّكون مناجلهم بحركات متباينة. فعدَّ منهم اثنين وأربعين.

كانوا يتقدَّمون في وَهْدة المرج الوعرة حيث كان يوجد سدٌّ قديم. وعرف ليفين بعضاً من فلاَّحيه. كان هناك «أرميل» العجوز، في قميص أبيض طويل، وهو ينحني ويحرِّك منجله، وفاسكا الشاب، حوذي ليفين قديماً، وكان يحصد بحركة عريضة من ذراعيه. وكان هناك أيضا «تيت»، وهو فلاح قصير نحيف علَّم ليفين حصاد الكلأ. كان يتقدَّم الحصّادين، ويضرب بمنجله، دون أن يقوّس ظهره، ضربات واسعة بيسر شديد.

نزل ليفين عن جواده، وبعد أن ربطه قرب الدرب، مضى صوب «تيت» الذي ذهب وجاء بمنجل من وراء الدغل. وقال له وهو يرفع قبعته ويمده إليه، وعلى فمه ابتسامة:

ـ إنه جاهزٌ، يا معلم؛ المسن رائع، وهو يمشي وحده.

تناول ليفين المنجل وجرَّبه. أما الفلاحون فبعد أن أنهوا حصد صفّهم الأول، تركوا عملهم وجاؤوا واحداً بعد الآخر، وقد بلَّلهم العرق، فرحين، ليُحيُّوا معلِّمهم، وقد افترَّتْ شفاهُهم عن ابتسامات خفيفة. نظروا إليه. جميعاً، ولم يقلْ أحدٌ شيئاً حتى التفت إلى ليفين شيخٌ طويل أجرد، مُغضَّن الوجه يرتدي سترة من جلد الخروف، وقال:

ـ انتبهْ، يا معلم، عندما نبدأ عملاً فيجب أن نُتمّه.

وسمع ليفين خلفه ضحكات مكتومةً بين الحاصدين.

قال وهو يقف خلف «تيت» منتظراً بداية العمل:

ـ سأبذل وسعي كي لا أُقصِّر.

فردَّد الشيخ:

ـ خُذْ حذرَك.

تقدَّم «تيت» وسار ليفين في إثره. كان العشبُ قصيراً قرب الطريق، وأحسَّ ليفين الذي لم يقم بهذا العمل منذ زمن طويل، بالضيق من جرّاء العيون المحدِّقة فيه. وفي اللحظات الأولى، أظهر شيئاً من عدم المهارة، مع أن حركة ذراعيه كانت قوية. فسمع بعض الملاحظات خلف ظهره.

قال أحدهم:

ـ قبضة المنجل سيئة، إنها أعلى من اللازم. انظر إليه كيف ينحني.

وقال آخر:

ـ شدَّ على شفرة المنجل.

وقال الشيخ:

ـ لا بأس، مشت الحالُ، سيتعوَّد. ها هو ينطلق... حركاتُك واسعة وسوف تتعبُ... لا موجب للتعب إذا كان المرءُ يشتغل لنفسه! العشبُ ما يزال واقفاً خلفك! مثل هذا الشغل كان يعرّضنا للأذى قديماً.

غدا العشبُ طرياً، وكان ليفين يمشي خلف «تيت»، مطيعاً لا يجيب، وهو يحاول أن يؤدي مهمته على أحسن وجه. مَشَيا نحو مائة خطوة. كان «تيت» يتقدَّم دون أن يتوقَّف ودون أن تبدو عليه أيةُ علامة من علاماتُ التعب؛ وراودَ ليفينَ الخوفُ من أن يعجز عن الصمود، لفرط ما تعب.

كان يحسّ أن قواه قد نفدتْ، وعَزَمَ على أن يطلب إلى «تيت» أن يقف. لكن

«تيت» توقَّف في هذه اللحظة؛ لقد انحنى، وتناول قبضةً من عشب ومسح بها منجله الذي بدأ يشحذه. فانتصب ليفين، وزفر زفرةً، ونظر حوله. وكان في أثره فلاحٌ بدا عليه التعبُ، لأنه ما لبث أن وقف، قبل أن يصل إلى ليفين، وأخذ يشحذ منجله. وبعد أن شحذ «تيت» منجله ومنجل ليفين، استأنفا عملهما.

وفي المرة الثانية، جرى ما جرى في المرة الأولى. كان «تيت» يتقدَّم بعد كل حَصْدةٍ، دون ن يتوقَّف أو يكلّ. وليفين يسير خلفه، باذلاً جهده لئلا يتخلَّف عنه؛ ثم لا تلبثُ الصعوبةُ أن تشتدّ حتى تأتي لحظةٌ يشعر فيها بالإعياء وبالعجز. وحينئذٍ، وفي هذه اللحظة بالذات، يتوقَّف «تيت» ليشحذ منجله.

هكذا أنهيا الحصدةَ الأولى التي بدت لليفين شاقّةً إلى حد كبير. لكن عندما بلغا نهاية الحصدة، ألقى تيت منجله على كتفه، ونزل مرة أخرى الرقعة المحصودة من المرج على الآثار التي تركتها قدماه، وفعل ليفين مثله تماماً؛ ومع أن العرقَ كان يتقطَّر بقطرات كبيرة على وجهه، لتسيلَ على أنفه، ومع أن طهره تبلَّل من العرق، فقد كان يحس بغبطة عظيمة. وما كان يفرحُه، على وجه الخصوص، هو علمه بأنه قادر على الصمود الآن.

لكن سروره تكدَّر، مع ذلك، بسبب تصوُّره أنه لم يُتقنْ عمله. وقال في نفسه وهو يقارن بين الرقعة التي حصدها «تيت» بشكل منتظم، واضح، والرقعة التي حصدها هو نفسه فتناثر حصيدها مثل أسنان المنشار: «سأحرِّك جذعي أكثر مما أحرّك ذراعيّ».

لاحظ ليفين أن «تيت» حصد الحصدة الأولى بسرعة كبيرة وكانت شديدة الطول، فلعله أراد أن يمتحن معلِّمه. أما الحصدات التالية فكانت أسهل، ومع ذلك فقد كان عليه أن يَحْفزَ كل قواه لكي لا يتخلَّف.

لم يكن يفكِّر في شيء، ولا يشتهي شيئاً إلا أن يقوم بعمله أحسن قيام، وألا يتخلَّف عن «تيت». لم يكن يسمع سوى صرير المناجل، وكان يرى أمامه شخصَ

«تيت» المنتصب القامة ينأى، ونصفَ دائرة من الحقل، وأعشاباً وأزهاراً تستلقي على الأرض بحركة بطيئة ومتموِّجة من منجله، ومن وراء ذلك يأتي آخر المرج، حيث يُلاقي الراحةَ.

كان في غمرة عمله، عندما أحسَّ بإحساس لطيف من النداوة على كتفيه الملتهبين والمبلَّلتين بالعرق، دون أن يدرك ما هذا ومن أين يأتي. فنظر إلى السماء، بينما كان الفلاحون يشحذون المناجل، رأى سحابةً كثيفةً، منخفضةً، تركض والمطرُ يهطل مدراراً. ذهب بعض الفلاحين ليرتدوا قفطاناتهم؛ وشنّج بعضُهم الآخر، مثل ليفين، أكتافهم بفرح تحت هذا الحمّام الرطب.

توالتْ الحصداتُ قصيرةً أو طويلةً، يانعةَ العشب أو رديئتَه، وفقد ليفين كل الشعور بالزمن، ولم يعد يعلم إن كان الوقتُ مبكِّراً أو متأخِّراً. وطرأ على عمله الآن تغيُّرٌ سبَّب له غبطةً حقيقية. كانت تمرّ به دقائقُ كاملة، وهو في غمرة عمله، ينسى فيها ما كان يفعله؛ كان يُحسّ بالراحة، وكانت حَصْدته في هذه الدقائق منتظمةً ومتقنةً مثل حَصْدة «تيت». لكنه ما أن يفطن إلى ما يفعله وما أن يحاول أن يُحسّ عمله حتى يُحسَّ بكل ثقل عمله وحتى يتراجع فيه.

عندما وصل إلى أطراف المرج، أراد أن يعود أدراجَه مرةً أخرى، لكن «تيت» توقف ودنا من الشيخ، وأسرَّ إليه شيئاً، فنظرا كلاهما إلى الشمس. قال ليفين في نفسه، دون أن يفطن إلى أن الفلاحين قد بدؤوا العمل منذ أربع ساعات وأن موعد فطورهم قد حان: «ماذا عساهما يقولان، ولِم لا يستمرّان في عملهما».

قال الشيخ:

ــ سنتناول فطورنا، يا معلم.

ــ حان الوقت؟ طيِّب.

ناول ليفين «تيت» منجله، ومرَّ مع الفلاحين الذين ذهبوا ليأتوا بخبزهم، عبر

المساحة الشاسعة المحصودة من المرعى التي سقاها المطرُ قليلاً، ودنا من جواده. حينئذٍ فقط أدرك أنه أخطأَ في توقُّعاته، وأن المطر أخذ يبلِّل كلأه.

قال:

ـ سيفسدُ الكلأُ.

قال الشيخ:

ـ لا بأس في ذلك، يا معلم: من يَحصدْ في المطر، يُجفِّفْ في الشمس.

فكَّ ليفين جواده، ورجع إلى منزله ليتناول قهوته.

كان سيرج ايفانوفتش قد نهض قبل قليل. شرب ليفين قهوته وعاد إلى الحصاد قبل أن يجد أخوه متّسعاً من الوقت لارتداء ملابسه وللانتقال إلى غرفة الطعام.

[٥]

بعد الطعام، لم يبق ليفين في مكانه نفسه، بل ألقى نفسَه بين الشيخ الفكِه الذي دعاه ليكون جاره وفلاح شاب متزوج منذ الخريف، وكان يحصد للمرة الأولى.

كان الشيخ يتقدَّم، منتصبَ القامة، بخطوات واسعة منتظمة، وقد تباعدت قدماه، وهو ينهال على الزرع العالي المستوى بحركة سهلة، دقيقة، موقّعة، لا تكلِّفه، في الظاهر من الجهد أكثر مما يكلِّفه تحريكُ يديه. فكأنما كان منجله يَجْلد العشبَ الكثيف وحده.

ووراء ليفين جاء الشاب ميشكا. كان وجهُه النضرُ الجميل الذي تحيط به عصابةٌ من الأعشاب الغضة المجدولة لردّ شعره، يتشنّج من الجهد؛ لكنه كان يبتسم إن نظرَ إليه أحدُهم. فكأنما كان يفضِّل الموت على أن يعترف بخشونة العمل.

كان ليفين يسير بينهما. لقد بدا له العمل، في احتدام الحرّ، أقلَّ مشقةً. كان العرق الطافح يُرطِّبه، والشمس التي أحرقت ظهره ووجهه وذراعيه العاريتين إلى المرفق، تمنحه الجَلَدَ والقوَّةَ. وأخذت تتردَّد عليه أكثر فأكثر فتراتُ اللاشعور التي لم يكن يفكِّر فيها فيما يفعل. إذ ذاك يَشْتغل منجلُه وحده. كانت تلك الفتراتُ فترات سعادة. وكان يُحسّ بسعادةٍ أكبر عندما يبلغ الساقية التي ينتهي عندها المرجُ، فيمسح الشيخ منجله بقبضة من العشب الرطب ويغمسه في الماء البارد ويملأ غمدَ المسن بالماء ويناوله ليفين.

ويقول له وهو يغمز بعينه:

ــ ذُقْ هذه الخمرةَ، يا معلم! رائعة، أليس كذلك؟

والواقع أن ليفين لم يشرب قط شراباً كهذا الماء الفاتر الذي كانت تسبحُ فيه الأعشابُ والذي أعطاه تنكُ غمد المسن طعمَ الصدأ. ثم لا تلبث أن تأتي بعد ذلك النزهةُ البطيئة والممتعة، التي يَمْسح فيها العرقَ الناضج، ويتنفَّس بملء رئتيه، وينقّل نظره في موكب الحاصدين الطويل، وفيما يجري من حوله، في الغابة وفي الحقول.

كان ليفين كلما حصد تواترت لحظاتُ النسيان التي لم تكن يداه فيها هي التي تُدير المنجل بل إن المنجل هو الذي كان كأنما يجتذب ذاتَه الواعية، وجسده المملوءَ بالحياة: كان العملُ يتمّ من ذاته، دقيقاً، منتظماً، دون أن ينتبه هو إلى ذلك، وكأنه يتمّ بضربٍ من السحر. كانت هذه الدقائق هي أهنأَ الدقائق.

أما أشقُّ اللحظات فكانت تلك التي ينبغي عليه فيها أن يقطعَ هذه الحركةَ التي غدت لا شعوريةً، ليفكِّر؛ أو عندما كان ينبغي عليه أن يدور حول تلعة من الأرض أو أجمة من الحمّيض الذي لم يُعزقْ. كان الشيخ يتخلَّصُ منهما بسهولة، فإذا وقع على تلة من الأرض غيَّر حركتَه، وأقبل على التلعة من كلا جانبيها في آن

واحد فانهال عليها بضربات صغيرة من حدّ المنجل أو من عقب قدمه. وكان، وهو يفعل ذلك، يلاحظ كل ما يَعْرِضُ لبصره: فقد يقتلع قصبةَ عشب ليأكلها أو ليقدِّمها لليفين، وقد يردّ غصناً بمنجله، وقد يتأمَّل أحد أعشاش الحجل بعد أن تطير الأنثى من تحت شفرة المنجل، وقد يلتقط حيةً اعترضتْ طريقه، ويلوّح بها في الهواء بمنجله الذي يستخدمه كالمذراة، ويُريها ليفين ثم يرميها بعيداً.

أما ليفين والفتى اللذان كانا يتبعانه فقد كان هذا التنوُّع في الحركات عسيراً عليهما. لقد انخرطا في حركة آلية، فلم يكن بمقدورهما، والعملُ على أشُدّه، أن يقطعا هذا الإيقاع وأن يلاحظا، في آن واحد ما يَعْرِض أمامهما.

لم يكن ليفين يحسّ بمرور الوقت. ولو سُئل منذ متى بدأَ الحصاد لأجاب بأن ذلك كان منذ نصف ساعة، هذا مع أن موعد العشاء قد أزفَ. وعندما نزلوا مرة ثانية من نهاية المرج، لفتَ الشيخُ نظرَ ليفين إلى الصبايا والصبيان الذين كانوا يُهرعون إلى الحصادين، من مختلف الأنحاء، وقد كاد العشب العالي يُغطِّيهم، وهم يحملون خبزاً في خِرَجَة وأباريقَ من الخمرة سُدَّتْ بخرْقةٍ وأثقلتْ أذرعهم الصغيرة.

وقال وهو يشير إليهم:

ـــ ها هم الصبيةُ.

وحمى عينيه بيده ونظر إلى الشمس.

حصدوا صفَّين أيضاً، ثم وقفَ الشيخُ. وقال بلهجة مصمّمة:

ـــ هيا، يا معلم، يجب أن نتعشَّى.

عندما وصل الحاصدون إلى الساقية، نزلوا إلى حيث متاعُهم الذي كان الصبْيةُ ينتظرونهم عنده، ومعهم الطعام. وتجمَّع الرجال جماعات، الأبعدون في ظلّ العربات، والأقربون في ظل دغلٍ من الصفصاف فرشوا أرضه بالعشب.

جلس ليفين قربهم؛ لم يكن يحبّ أن ينصرف.

لم يحس أحدٌ بالضيق في حضوره. كان الفلاحون يستعدون للعشاء. فبعضهم يَغْتسل، والشبان منهم يستحمُّون في الساقية، وبعضهم الآخر يُهيِّىء موضعاً للاستراحة، ويفتح أكياس الخبز وأباريق الخمرة. أما الشيخ فإنه فتّ الخبزَ في قصعة وهرسه بيد الملعقة، وصبَّ عليه ماءً من غمد مسنّه، وقطع قطعاً من الخبز أيضاً، ورشَّ ملحاً على ذلك كله، واتجه إلى الشرق وأخذ يصلّي.

قال وهو يجثو أمام قصعته:

ــ هيه! يا معلم، تعال وذُقْ ثريدي.

كان هذا الثريد لذيذاً جداً حتى أن ليفين عدل عن العودة للعشاء في البيت. وشاركَ الشيخَ طعامَه وتحدَّث معه عن شؤونه المنزلية التي أبدى اهتماماً شديداً بها. وأطلع الشيخَ، من جهته، على مشاريعه وذكر له جميعَ التفاصيل التي قد تهمّه. كان يحسّ أنه أقرب إلى هذا الشيخ منه إلى أخيه، ويبتسم، بشكل لا إرادي، من العطف الذي يحسّه نحو هذا الرجل. ثم إن الشيخ نهضَ مرة أخرى، وصلَّى ونام في ظل الدغل، بعد أن عمل وسادةً من العشب. وفعل ليفين مثله، بالرغم من الذباب الدبق، الملحاح، ومن الخنافس التي كانت تدغدغ وجهه وجسمه المغطى بالعرق، وما لبث أن نام، ولم يستيقظ إلا عندما تجاوزت الشمسُ الدغل وأصابته. كان الشيخ مستيقظاً منذ وقت بعيد: كان جالساً يشحذ مناجلَ رفاقه الشباب.

تطلَّع ليفين حوله فلم يتعرَّف المكانَ: لقد تغيَّر كلُّ شيء. كانت مساحةٌ واسعة من المرج محصودة تلمع لمعاناً خاصاً، جديداً، بحصيدها الأرج، تحت الأشعة المائلة للشمس الغاربة. كان كل شيء جديداً: الأعشابُ النائمة على ضفة الساقية، والساقيةُ نفسها التي كانت لا تُرى من قبل، فصارت تلمع كالفولاذ في تعرُّجاتها، والرجالُ الذاهبون إلى العمل أو الناهضون، وذلك الجدارُ العمودي من العشب الذي ما زال قائماً، والصقورُ التي تحوّم فوق المرج المُعرَّى. وعندما ثاب

ليفين إلى نفسه، حَسَبَ كمِّيةَ العشب المحصودة والكميةَ التي يمكن أن تُحصد في بقية النهار.

قام هؤلاء الاثنان والأربعون رجلاً بعمل كبير. لقد حُصد المرجُ الكبيرُ بأسره، وكان، في عهد القنانة، يتطلَّبُ جهدَ ثلاثين رجلاً لمدة يومين. ولم يبق سوى مساحات صغيرة في بعض النواحي. لكن ليفين أراد أن يبذل، في هذا اليوم، أكبر جهد ممكن، واغتاظ من الشمس التي عجَّلتْ بالمغيب. لم يشعر بالتعب، ولم تكن له سوى رغبة واحدة: أن يُسرع وأن يُجيد في العمل.

قال الشيخ:

ـ ليتنا نحصد أيضاً تلَّةَ «ماشكا»، ما رأيك؟

ـ إن شاء الله؛ الشمسُ مالت إلى المغيب. ولا شك أن هؤلاء الشباب سينالون كأساً صغيرة لقاءَ ذلك؟

أثناء تناول لقمة العصر، وعندما جلس الحاصدون وأشعل المدخِّنون غلايينهم، أعلن الشيخُ للرجال أنهم إن حصدوا تلَّة «ماشكا» فسينالون نصيبهم من الفودكا..

قالت أصواتهم:

ـ ولِمَ لا؟ تقدَّمْ، يا «تيت»! سننتهي من ذلك بلحظة قصيرة! وسنأكل هذا المساءَ. خُذْنا إليها!

بعد أن أنهى الحاصدون خبزهم مضوا إلى العمل.

قال «تيت» وقد تقدَّمهم بسرعةٍ وكأنه يجري:

ـ هيّا، يا أولاد، تشجَّعوا!

قال الشيخُ الذي سار مسرعاً في إثره وأدركه بسهولة:

ـ امضِ! امضِ! انتبهْ! وإلا أصبتُكَ بمنجلي!

كان الكبارُ والشباب يتبارَوْن في الحصد. لكنهم لم يُتْلفوا عشباً بالرغم من عجلتهم، وكانت حصداتهم نظيفةً ومنتظمة. وقد أتوا على الركن الذي ظل عشبه قائماً، في خمس دقائق. كان آخر الرجال ينهون حصدتهم، في حين كان الذين في المقدمة يلقون قفطاناتهم على أكتافهم، ويَعْبرون الطريق باتجاه تلة «ماشكا».

وبعد مشاورة قصيرة لمعرفة ما إذا كان ينبغي حصد التلة بالعرض أو بالطول، تقدَّم «بروكور أَرميلين»، وهو حصّادٌ مشهور، وفلاحٌ مديد القامة، أسود الشعر واللحية. حَصَدَ أوَّل حَصْدة وعاد أدراجه: عندئذٍ تبعَه الجميع، نازلين الوادي، وصاعدين، بعد ذلك، الهضبةَ، إلى تخوم الغابة. كانت الشمسُ قد توارتْ خلف الأشجار. وأخذ الندى يتساقط، والنورُ يُضيء قمة الهضبة وحدها، والحاصدون يتقدَّمون من أعماق الوادي حيث بدأ الضبابُ يتصاعد، على السفح الآخر، وقد لفَّتهم الظلال الندية الرطبة. كان العملُ يسير بأقصى سرعته، والعشبُ الذي رائحته كرائحة التوابل يسقط من علٍ بصوتٍ رخو. وقد ضاق المكان قليلاً بالحاصدين: فالمسنات تهتز، والمناجل تتصادم أو تصرّ تحت حجر الشحذ، والرجال يتداعَوْن بفرح، ويحثُّ بعضُهم بعضاً.

كان ليفين يمشي أبداً بين الشاب والشيخ. وما زال الشيخ الذي ارتدى سترته، مَرِحاً، متهكّماً، حراً في حركاته. كان الحاصدون كثيراً ما يَلقون في الغابة، بين العشب الكثيف، فطوراً غضّة، فيقطعونها بمناجلهم، أما هو فكان كلما شاهدها انحنى فوقها واقتلعها ووضعها في قميصه. وقال مفسِّراً فعلتَه: «وهذه أيضاً هديةٌ صغيرة للعجوز».

كان سهلاً حصدُ العشب الطري والرطب. لكن نزول السفح الوعر إلى الوادي ثم صعوده كانا شاقَّين. أما الشيخ فلم يَضقْ ذرعاً بذلك كله. كان يحرِّك منجله بحركة متماثلة، فيصعد السفح بخطوات متقاربة، على قدميه المتماسكتين، المحتذيتين صندلاً من قشرِ شجرة البتولة. ومع أنه كان يرتجف بكل جسمه، وقد

نزل بنطاله إلى ما تحت القميص، فلم يكن يهمل في دربه نبتةً أو فطراً، ولم يكف عن ممازحة ليفين والفلاحين. وكان ليفين الذي سار خلفه يظنّ، في كل لحظة، أنه سيقع وهو يتسلّق بمنجله هضبة شديدة الميل، كان تسلُّقها عسيراً عليه من قبل، لكنه تابع صعوده وفعل ما يجب فعله. كان يحسّ أن قوة خارجيّة تَسندُه.

[٦]

ما إن حُصد آخر الكلأ في هضبة ماشكا، حتى ارتدى الفلاحون قفطاناتهم وعادوا إلى بيوتهم فرحين. ركب ليفين جواده وعاد إلى منزله، بعد أن فارق الفلاحين على مضضٍ. وعندما بلغ أعلى الهضبة، ألقى نظرة وراءَه: كان الرجال قد غابوا في الضباب الذي أخذ يتصاعد من أعماق الوادي؛ ولم يَسمعْ سوى أصواتهم المبتهجة والخشنة وضحكاتهم، ورنين المناجل التي كانت تتصادم.

كان سيرج ايفانوفيتش قد انتهى من عشائه منذ وقت طويل، وأخذ يشرب شراب الليمون المثلج في غرفته، وهو يتصفَّح الجرائد والمجلاَّت التي وصَلَتْه، عندما دخل ليفين بغتةً غرفته، وقد تشعَّث شعرُه ولصق بجبهته من العرق، وابتلّ ظهرُه وصدره.

قال:

ــ أتعلم أننا حصدْنا المرج كلّه! آه! هـذا رائـع، خارق! وأنت، ماذا فعلتَ؟

ونسيَ تماماً حديثَ البارحة المزعجَ.

قال سيرج ايفانوفتش الذي نظر إلى أخيه، في الدقيقة الأولى، نظرة استياء:

ــ يا إلهي! ما هذه الهيئة؟

وصاح:

ــ والباب، أغلقْ البابَ إذنْ! لا شكَّ أنك سمحتَ للكثير منه بالدخول.

كان سيرج ايفانوفتش يستفظع الذبابَ، فلا يفتح نوافذه إلا في الليل، ويغلقُ بابه بعناية.

ــ كلا! ولو دخلتْ ذبابةٌ لا لتقطتُها. لا تستطيع أن تعلم مدى السرور الذي شعرتُ به! وأنتَ كيف قضيتَ نهارك؟

ــ كأحسن ما يكون! لكنْ ألم تحصدْ طوال هذا الوقت؟ أنت شديدُ الجوع، على ما أقدِّر لقد هيأ «كوزما» كل شيء.

ــ لا، لست جائعاً. لقد أكلتُ هناك. لكني سأغتسل.

قال سيرج ايفانوفتش وهو يهزّ رأسه وينظر إلى أخيه:

ــ اذهبْ، اذهبْ، سألحق بك، في الحال.

وأضاف وهو يبتسم، بعد أن رتَّب كتبه واستعد لمغادرة الغرفة، إذا أحسَّ فجأة أنه فرح ولم يشأ أن يترك أخاه:

ــ اذهبْ، اذهب بسرعة. وأين ذهبتَ أثناء المطر؟

ــ أي مطر؟ لم تكد تهطل سوى بعض قطرات. انتظرْ، سأعود. إذن كنت مسروراً من نهارك؟ رائع.

ومضى ليفين يرتدي ثيابه.

بعد خمس دقائق، التقى الأخوان في غرفة الطعام. كان ليفين يعتقد أنه غير جائع، ولم يجلس إلى المائدة إلا لكي لا يجرحَ «كوزما»، لكنه ما إن بدأ يأكلُ حتى وجد الطعام لذيذاً، في غاية اللذة، وكان سيرج ايفانوفتش ينظر إليه وهو يبتسم، وقال:

ــ آه! صحيح، هناك رسالة لك. اذهبْ، يا كوزما، وجئني بها من تحت، أرجوك. ولا تنسَ أن تغلق الباب.

كانت الرسالة من أوبلونسكي. قرأها ليفين بصوتٍ عالٍ. كَتَبَ أوبلونسكي من بطرسبورج:

ـ تلقَّيتُ رسالةً من «ارغو شوفو»: كل شيء يسيرُ فيها سيراً سيِّئاً. اعملْ معروفاً ومُرَّ عليها وساعدها بنصائحك، أنت الذي يعرفُ كل شيء. ستَسْعدُ برؤيتك. إنها وحدها، المسكينة. أ! حماتي ومَنْ معها فما يزالون في الخارج.

قال ليفين:

ـ آه! رائع! سأذهبُ بدون شك. ينبغي أن تأتي معي. إنها امرأة لطيفة. أليس كذلك؟

ـ إنهم لا يقيمون بعيداً من هنا؟

ـ على ثلاثين فرسخاً، أو ربما أربعين. لكن الطريق ممتازةٌ، ستكون الرحلة ممتعة.

قال سيرج ايفانوفتش، وهو ما يزال متبسِّماً:

ـ بكل سرور.

كان مرأى أخيه الأصغر ممّا يبعث فيه المرح. وقال وهو ينظر إلى وجهه وعنقه اللذين لوَّحتهما الشمس وصبغتهما بالحمرة، بينما انكبَّ على صحنه:

ـ ما أعظمَ إقبالك على الطعام!

ـ ممتاز! لا تستطيع أن تتصوَّر مدى نجوع هذا الأسلوب ضد جميع صنوف الحماقات. وأنا أنوي أن أُغنيَ الطبَّ بمصطلح جديد: المداواة بالعمل.

ـ لستَ بحاجة إليه، فيما يبدو لي.

ـ لا، لكنها صالحةٌ لمعالجة عدة أمراض عصبيّة.

ـ هذه تجربة يجدر القيام بها. أتعلم، لقد أردت أن أراك كيف تحصد الكلأ، لكن الحرَّ كان لا يُطاق حتى إني لم أتجاوز الغابة. فتريَّثْتُ فيها، وذهبتُ عبرَ هذه الغابة إلى القرية حيث لقيتُ مربيتك التي سبرتُها حول رأي الفلاحين بك. وبحسب ما فهمتُ، فهم لا يوافقونك. قالت لي: «ليس هذا من شُغْل السادة».

ويُخيَّل إليَّ أن للعشب آراء محدَّدةً بصدد «نشاط السادة». وهم لا يقبلون أن يخرجوا عن الحدود التي عيَّنوها لهم.

قال ليفين:

ــ ربما؛ لكن سروري كان أعظم سرور شعرتُ به في حياتي. ولا بأسَ في ذلك، أليس كذلك؟ وما العمل، إن كان لا يعجبهم؟ على كل حال، أعتقد أن ذلك لا أهمِّية له. أليس هذا رأيك؟

واستأنفَ سيرج ايفانوفتش:

ــ على الإجمال، أرى أنك راضٍ عن نهارك.

ــ مسحورٌ. لقد حصدنا المرجَ كله. وصادقتُ شيخاً طيّباً! لا تستطيع أن تتصور إلى أي حد هو رائع!

ــ طيِّب. وأنا أيضاً مسرور. لقد حللتُ مسألتي شطرنج، إحداهما لطيفة: الهجوم بالبيدق، سأريك ذلك. ثم إني... فكرتُ في حديثنا البارحة. قال ليفين وهو يغمض عينيه نصفَ أغماضة، ويسترخي بغبطة، بعد أن انتهى من عشائه، ولم يعدْ يقوى على تذكُّرِ الحديثِ المقصود:

ــ ماذا؟ أيّ حديث؟

ــ وجدتُ أن معك جزءاً من الحقّ. إن اختلافنا في الرأي يرجع إلى أنك تعتبرُ المصلحة الشخصية محركاً، بينما أزعمُ أنا أن كل إنسان، في درجة معينة من الثقافة، ينبغي له أن يُعنى بالمصلحة العامة. ولعلك محقٌّ أيضاً حين تذهبُ إلى أن من المفضَّل أن يكون النشاط المادي معنياً بذلك. والخلاصة أن طبيعتك اندفاعية، كما يقول الفرنسيون، وهي مفرطة في ذلك. إنك تريد نشاطاً محموماً، قوياً أو لا تريد شيئاً.

كان ليفين يصغي إلى أخيه ولا يفهم شيئاً مما يقول، ولا يحاول حتى أن يفهم. وكان يخشى فقط أن يطرح عليه أخوه سؤالاً يكشف عن عدم إصغائه إليه.

قال سيرج ايفانوفتش وهو يمسّ كتفه:

ــ أليس كذلك، يا صديقي؟

أجاب ليفين بابتسامة الطفل الذي يحسُّ بذنبه:

ــ نعم، ولا شك. وأنا على كل حال، لستُ عنيداً.

وقال في نفسه: «فيمَ عسانا تناقشنا البارحة؟ بالطبع. أنا محقّ، وهو محق أيضاً، وذلك هو الأفضل. لكنْ، لا بدّ لي من الذهاب إلى المكتب لتبليغ أوامري؟».

فنهض وتمطّى وهو يبتسم.

ابتسم سيرج ايفانوفتش أيضاً وقال:

ــ إذا كنتَ تريدُ أن تقوم بجولةٍ فلنخرجْ معاً. ولنمرَّ على المكتب إذا كنتَ محتاجاً إلى ذلك.

وهتف ليفين بصوت قوي أخافَ سيرج ايفانوفتش:

ــ آه! يا إلهي!

ــ ماذا؟ ماذا دهاكَ؟

قال ليفين وهو يضرب جبهته:

ــ ويد آغات ميخابلوفنا؟ إني نسيتُها.

ــ لقد حسنتْ كثيراً.

ــ آه! حسناً، لكني سأزورها على عجل، وسأعود قبل أن تلبس قبعتك.

ونزل الدرج على عجل، وقدماه تصران عليه.

[٧]

سافر ستيڤان أركاديڤتش إلى بطرسبرج لأداء ذلك الواجب الطبيعي بالنسبة إلى الموظفين والضروري لنجاحهم في وظيفتهم، وإن كان لا يفهمه الذين لم يمارسوا الوظيفة. وهو: أن يُذكِّر الوزير بنفسه. وقد حمل معه كل المال اللازم

لنفقة المنزل، وأخذ يقضي وقته بسرور في ميادين السباق أو في مغاني الضواحي. وذهبتْ دولي مع الأولاد لتُقيم في الزيف، وذلك لكي تقلص النفقات قدر المستطاع. فقصدتْ «أرغوشوفو»، وهي قريةٌ كانت المهر الذي قدّمه أهلها لها، وقد بيعتُ غابتُها في الربيع. وكانت على خمسين فرسخاً من بوكرو فسكوي.

كان منزل «أرغوشوفو» القديم مهدماً منذ زمن طويل، وفي عهد الأمير، رُمِّم أحدُ الأجنحة ووُسِّع. كان هذا المسكن واسعاً ومريحاً قبل خمس وعشرين سنة، عندما كانت دولي طفلةً، مع أنه كان منحرفاً بالنسبة إلى ممر الدخول، وأن واجهته على الجنوب. أما الآن فقد غدا قديماً وخرباً. وعندما ذهب ستيڤان أركادييڤتش إليه في الربيع ليبيع الغابة، طلبت إليه دولي أن يزور البيتَ وأن يأمر بالإصلاحات الضرورية. ولما كان ستيڤان أركادييڤتش حريصاً على راحة زوجته، ككلّ الأزواج المذنبين، فقد فتّش المكان وأعطى تعليماته. وكان رأيَه أنه ينبغي أن يغطّي الأثاث بالكريتون، وأن توضع السائر، وأن تُعشّب الحديقةُ، وأن يُبنى جسرٌ صغيرٌ قربَ المستنقع، وأن تُزرع الزهورُ. لكنه نسي عدداً كبيراً من التفاصيل الضرورية التي تألمت داريا الكسندروفنا بشدة لفقدانها.

عبثاً حاول ستيڤان أركادييڤتش أن يكون أباً عطوفاً وزوجاً متودّداً، فقد كان ينسى دائماً أن له زوجةً وأولاداً. كانت ميولُه ميولَ عَزب، وهذه الميول هي التي كانت تقودُه. وعندما عاد إلى موسكو، أنبأ زوجته باعتزاز. أن كل شيء غدا جاهزاً، وأن المنزل سيكون تحفةً، ونصحها بقوة أن تُسافر إليه. وكان رحيل امرأته إلى الريف يلائمه من كل الوجوه: فسوف تتحسّن صحة الأولاد، وسيخفّف ذلك من المصروف، وسيكون أكثر حريَةً. أما داريا الكسندروفنا فكانت ترى أن تغيير الإقامة هذا ضروريٌّ للأولاد، ولا سيما لأحد بناتها التي تأخّر شفاؤها من الحمى القرمزية، وأخيراً لكي تتخلّص من الإهانات الطفيفة، من الديون الطفيفة لبائع الخشب. وبائع السمك، وبائع الأحذية الذين كانوا يؤذونها بمطالباتهم. وفضلاً

عن ذلك، فقد كان هذا السفر يَخْلب لبها لأنها كانت تحلم باجتذاب أختها كيتي إلى منزلها الريفي، وكان مقرّراً أن تعود من الخارج في منتصف الصيف بعد أن أشار عليها الأطباءُ بزيارة حمامات المياه. وقد كتبتْ لها كيتي من المياه: أنْ لا شيء يُغريها مثل قضاء الصيف مع دولي في أرغوشوفو الملأى بذكريات طفولتهما.

كانت بداياتُ الإقامة في أرغوشوفو قاسيةَ جداً على دولي لقد عاشت فيها أثناءَ طفولتها، وحافظتْ على ذلك الشعور بأن الريف هو الدواءُ لجميع هموم المدينة، وأن الحياة هناك أقل بريقاً (وأخذتْ دولي تألف هذه الفكرة بسهولة) وتكاليفَ، لكنها لا تقل عن حياة المدينة راحةً، ويستطيع المرءُ أن يجد فيها كل شيء بسعر رخيص، كما أن الأطفال سيعثرون على جميع وسائل الرفاهية. لكنها عندما وصلت إلى ملكها، بصفتها ربّة البيت، رأتْ أن كل شيء كان مختلفاً عمّا تصوّرت.

في اليوم التالي لوصولها، هطل المطر مدراراً في الليل، وتسرّبَ الماءُ إلى الممرّ وإلى غرفة الأطفال، وكان لا بد من نقل أسرة الأطفال إلى قاعة الاستقبال. ولم يمكنْ تشغيلُ طاهية للخدم، ومن البقرات التسع، تبيّن، على حد قول الراعية، أن بعضها نَتوج، وبعضها قد وضعت عجلها الأول، ومنها ما هو مُسن، ومنها ما تلفَ ضرعُها، ولذلك فقد كانت هناك حاجةٌ إلى الزبدة والحليب. كما لم يكن هناك بيضٌ. وتعذّر عليها أن تجد دجاجةً؛ وكانت تستخدم في الشواء والحساء الديوك المُسنّة القاسية ذات اللحم البنفسجي. ولم تجدْ مَنْ يغسلُ أرض الغرف. ولم يكن ممكناً التنزّه في العربة، لأن أحد الجياد كان حروناً، سريع اللبط. ولم يبق مكانٌ صالحٌ للاستحمام، ذلك أن الماشية وطئتْ حافتي الساقية فغدت مكشوفة أمام المارة، بل إن النزهة كانت غير ممكنة، لأن الحيوانات كانت تدخلُ إلى الحديقة من السياج المهدَّم، وكان في القطيع ثورٌ مرعبٌ يخور ولا يتوانى عن النَطْح. ولم يكن في البيت خزانةٌ لترتيب الثياب، أو أن الخزائن

الموجودة كان يعسرُ إغلاقها أو كانت تنفتحُ كلما مرّ أمامها أحدٌ. ولم يكن هناك من إناء أو بَرْنيةٍ أو قدر للغسل، أو خشبةٌ للكيّ تستعملها الخادمات.

أمام هذه الكارثة، أُصيبتْ دولي بالأسى الشديد، في الآونة الأولى، بدلاً من أن تستمتع بالهدوء والراحة، وألْفتْ نفسها، بعد عدة محاولات، في وضعٍ لا مخرج منه، وكانت، في كل لحظة، تحبسُ الدموع التي تريد أن تطفر من عينيها. أما الوكيل، وهو موزع قديم للبريد تعلّق به ستيڤان أركادييڤتش بسبب تصرفاته المتأدّبة وبسبب وقاره، ورفعه من رتبة حاجب إلى رتبة مدير للأعمال، فلم يشارك في هموم داريا الكسندروفنا، كان يقول لها بكل احترام: «لا حيلة لنا مع أمثال هؤلاء الناس»، ولا يسعى إلى مساعدتها في شيء.

كان الوضعُ يبدو معقّداً، لا حلّ له. لكنْ، كان في منزل أوبلونسكي، كما كان في جميع المنازل التي فيها أسرٌ، شخصيةٌ مغمورةٌ بيد أنها عظيمةُ الأهمية والفائدة: ماترينا فيلومونوفنا. لقد طمأنتْ سيّدتها وأكدت لها أن الأمور «ستعودُ إلى نصابها» (كان التعبير منها وأخذته «ما تفي» منها)، وكانت تعمل بلا استعجال ولا ضجيج.

لم يطلْ بها الأمرُ حتى تعرّفتْ إلى زوجة الوكيل. ومنذ اليوم الأول، تناولت الشاي معها ومع زوجها تحت أشجار السَنْط واستعرضوا الوضعَ. وبعد قليل أُنشىء منتدىً تحت أشجار السَنْط، ويفضل هذا المنتدى المؤلف من زوجة الوكيل ومن القيّم ومن المحاسب ذُلِّلتْ صعوبات الحياة شيئاً فشيئاً، وفي مدى أسبوع، «عادت الأمور إلى نصابها»، فأُصْلح السطحُ. وعُثر على طاهية هي عرّابة القيّم، وابتيع الدجاجُ، وأخذت البقراتُ تعطي حليباً، وثُبِّتَ سياجُ الحديقة بالعُمُد، ووُضع للخزائن مزاليج فلم تعد تتفتح في غير وقت الفتح، وغطيتْ خشبةُ الكي بقماشة، وأسندت من جهة إلى صُوان الثياب ومن جهة أخرى إلى ساعد أحد المقاعد، وانتشرت رائحةُ الحديد الحامي في حجرة الخادمات.

قالت ماترينا فيليمونوفنا وهي تشير إلى خشبة الكيّ.

ــ رأيت! وأنتِ كنتِ يائسةً!

بل لقد بُنيتْ حجرةٌ للحمّام فيها حواجز من القش المجدول. وبدأتْ «ليلي» تستحم، وتحقّق جزئياً أملُ داريا الكسندروفنا بحياة مريحةٍ على الأقل، إن لم تكن مطمئنةً، لأن داريا الكسندروفنا لا يمكن أن تعرف الطُمأنينة مع هؤلاء الأولاد الستة. فهذا مريضٌ، وذاك قد تصيبه العدوى، وثالث يحتاج إلى كذا وكذا، ورابع تَظْهر عليه أماراتُ الشراسة إلخ. لكن هذه المتاعب والهموم كانت الساعدة الوحيدة المُتاحة لها. ولولا ذلك، لظلّتْ وحدها مع فكرة زوجها الذي لم يكن يحبّها. وفوق ذلك، فمهما يكُنْ شاقاً على الأم الخوفُ من الأمراض، والأمراض ذاتُها، والغم الذي يسبّبه لها ظهور الميول السيئة لدى أولادها، فإن هؤلاء كانوا يعوّضونها من كل ذلك بعض الأفراح الصغيرة. كانت هذه الأفراح طفيفةً جداً يسهلُ اختفاؤها كالذهب في الرمال، وكانت داريا الكسندروفنا لا ترى، في الفترات الرديئة، سوى الرمال، لكنها كانت تجدُ أيضاً بعض اللحظات السعيدة التي لا ترى فيها سوى الذهب.

غَدتْ تشعرُ الآن، في عزلة الريف، شعوراً متواتراً بهذه الأفراح، وغالباً ما كانت تبذل وسعها، وهي تنظر إلى أولادها، لتقنع نفسها بأنها مخطئة، بأنها مفرطةُ التحيز، لكنها ما كانت تستطيع أن تمتنع عن التفكير في أن من النادر العثور على ستة أطفال بهذه الروعة، كلّ في نوعه. حينئذٍ كانت تشعر بالسعادة والاعتزاز.

[٨]

في أواخر نيسان، عندما رُتِّب كلُّ شيء كيفما اتّفق الأمرُ، تلقَّتْ جواباً من زوجها على رسالة شكت فيها من همومها المنزلية. كان يسألها الصفح عن أنه لم يفطن لكل شيء ويَعدُها بالمجيء في أول فرصة. لكن الفرصةَ لم تسنحْ وقضت دولي شهر حزيران وحدها.

وذاتَ أحد، أثناء صوم القديس بطرس، اصطحبت داريا الكسندروفنا أولادها جميعاً للتناول. وكان داريا الكسندروفنا، في أحاديثها الفلسفية الحميمة مع أختها وأمها وأصدقائها، تدهشهم باستقلالها إزاء الدين. كانت تؤمن إيماناً راسخاً بالتقمّص ولا تكترث كثيراً بعقائد الكنيسة. أما في أسرتها فكانت تراعي وصايا الكنيسة مراعاةً دقيقة (لا لكي تكون قدوةً لأولادها، بل من أعماق قلبها). أقضُّ مضجعَها أن الأولاد لم يتناولوا منذ ما يقرب من عام فقررت، بموافقة ماترينا فيليمونوفنا الكاملة، أن تتمّم هذا الفَرْضَ أثناء الصيف.

قبل سبعة أيام من الموعد، اهتمت بزينة الأولاد. فأُنهيت الثياب، وحُوِّلتْ، وغسَلتْ، وفُكّتْ الحواشي وأضيفتْ دوائرُ جديدة وأزرارٌ وعقدُ أشرطة. وتضايقت داريا الكسندروفنا كثيراً بسبب ثوب تانيا الذي تكفَّلتْ به الانكليزية، فقد كان مُنطلقُ الأكمام شديد الارتفاع، وثنايا الصدار في غير محلها، كان منظر تانيا في هذا الثوب محزناً لفرط ما يرفع لها كتفيها، فرأتْ ماترينا فيليمونوفنا أن تضع له نيراً يطوّق العنف والكتفين وأن تُضيف إليه وشاحاً صغيراً. وأمكن تفادي الخطأ، لكن الخلاف كاد يقع بين داريا الكسندروفنا والانكليزية. بيد أن كلَّ شيء كان على ما يُرام في صباح اليوم التالي، وفي الساعة التاسعة (طُلب من الكاهن أن يبقى بعد القُدّاس) كان الأطفال ينتظرون أمهم أمام العربة، قرب درج المدخل، متهلّلين من الفرح، متزيّنين بكل ما لديهم من زينة.

بفضل وساطة ماترينا فيليمونوفنا، استُبدل بالجواد الأدهم الحرون جوادُ الوكيل الكميت. وخرجتْ داريا الكسندروفنا التي عوّقتها زينتُها، من المنزل بثوب حريري أبيض.

لقد لبست داريا الكسندروفنا وتزيّنتْ باهتمام، وانفعال. كانت قديماً تلبسُ من أجل ذاتها، من أجل أن تكون جميلةً وأن تُعجبَ؛ أما الآن وقد بدأت تكبرُ صار يشق عليها أكثر فأكثر أن تتزيّن، لأنها فقدت جمالها. لكنها أخذت، في

الآونة الأخيرة، تجدُ المتعة في اللباس. لم تكن تتزيّن من أجل نفسها، لكي تكون جميلة، بل لكي لا تُفسد الانطباع العام، بصفتها أماً لهؤلاء الأولاد. وبعد أن ألقتْ نظرةً أخيرةً على مرآتها سُرَّت من ذاتها. كانت جميلةً، لا كما كانت ترغب أن تكون قديماً في اختلاف الراقصة، بل على نحوٍ مناسبٍ للهدف الذي ترمي إليه.

لم يكنْ في الكنيسة أحدٌ ما عدا الفلاحين والخدم ونساءَهم. لكن داريا الكسندروفنا رأتْ أو خُيّل إليها أنها رأت الإعجاب الذي أثاره مرورُها ومرورُ أولادها. وقد سلكَ هؤلاء الأولاد الذين يحلو للنظر مرآهم في ملابسهم، سلوكاً ممتازاً. ولا شك أن وضعَ أليوشا لم يكن على ما يُرام: ذلك أنه كان يتلفّتُ دائماً ليرى الأثرَ الذي تتركُهُ أطرافُ سترته، لكنه كان مع ذلك في غاية اللطف. وكَانت تانيا تقف كالفتاة الكبيرة وتراقب الصغار. أما الصغيرةُ المدّللةُ «ليلي» فكانت فاتنةً بدهشتها الساذجة أمام كل ما تراه، وكان من الصعب ألا يضحك المرءُ وهو يسمعها تقول للكاهن بالانكليزية بعد تناول القربان: «أعطني قليلاً منه أيضاً، من فضلك».

عندما رجع الأولاد إلى البيت أحسّوا أن حدثاً رسمياً قد تمّ، فلزموا الهدوء.

وظلت الأمورُ بخير حتى الغداء؛ لكن غريشا أخذ يصفر، على الطاولة، والأسوأُ أنه رفضَ طاعة المربيّة الانكليزية، فحُرمَ الحلوى. ولو كانت داريا الكسندروفنا هنا لما عاقبته هذا العقاب القاسي في مثل هذا اليوم؛ لكنْ كان لا بدّ لها من أن تسند الانكليزية فأبقتْ العقابَ قائماً. وأفسد ذلكَ الفرحَ العامَ قليلاً.

كان غريشا يبكي قائلاً: إن نيقولا قد صَفَر أيضاً ولم يُعاقَبْ، وأنه لا يبكي لأنه حُرم كعكة الفاكهة، فهذا لا يهمّه، وإنما يبكي لأنه ظُلم. كان ذلك محزناً حقاً؛ وقررت أن تطلب إلى الانكليزية الصفح عن غريشا، واتجهتْ إلى غرفتها. وبينما كانت تجتازُ البهوَ رأتْ مشهداً ملأ قلبَها بفرح عظيم استدرَّ عبراتِها، فأخذت على عاتقها الصفحَ عن المذنب.

كان هذا جالساً في البهو قرب نافذةٍ في الركن؛ وكانت تانيا واقفةً قربه، وبيدها صحنٌ. ذلك أنها تذرَّعتْ بأنها ستطعمُ لعبتها واستأذنت الانكليزية بحمل نصيبها من الحلوى إلى غرفة الأطفال فحملتْه إلى أخيها. كان يأكل الحلوى وهو يبكي شاكياً الظلمَ الذي نزل به، وقائلاً خلال عبراتِه: «كلي أنت أيضاً منها، سنأكلها معاً. . . سنأكلها معاً».

اغرورقت عينا تانيا بالدموع، وقد غمرها الحنانُ على أخيها، وشعرتْ أنها قامت ببادرة نبيلة، لكن ذلك لم يمنعها من قبول عَرْض أخيها ومن أكل حصتها.

عندما رأيا أمهما، انتابهما الخوفُ، ثم أدركا، مِنْ وجهها، أنهما أحسنا عملاً فأخذا يضحكان، ومسحا بأصابعهما فميهما المليئين بالحلوى، ولطّخا وجهيهما بالدموع والحلوى.

قالت أمهما وهي تحاول أن تصون ثيابهما:

ـ يا عذراء؟ وثوبك الأبيض! تانيا! غريشا!

لكنها كانت تبتسم ابتسامة السعادة والظفر، وعيناها طافحتان بالدمع.

خلعوا الثياب الجديدة، وارتدت البناتُ وزراتٍ، وارتدى الصبية سِتَراً ورُبطت العربةُ ذات المقاعد (على كره من الوكيل، رُبط الجوادُ الكميت بالعريش مرةً أخرى)، لكي يذهبوا إلى جنيْ الفطور وإلى الاستحمام. وضجتْ حجرةُ الأطفال بالصُراخ الحماسي حتى لحظة الذهاب.

جمعوا قفةً كاملةً من الفطور؛ وحتى ليلي عثرت على واحد منها. كانت الآنسةُ «هول» هي التي تدلّها عليه من قبل، أما اليوم فقد عثرتْ هي نفسها على فطرٍ كبير، وهتفَ الجميعُ بحماسة: «عثرتْ «ليلي» على فطر كبير».

وبعد ذلك، عادوا إلى الساقية. توقفت الجيادُ تحت أشجار البتولة ومضوا إلى الاستحمام. أما الحوذي «تيرنس» فبعد أن ربَطَ بشجرةٍ الجيادَ التي كانت تضرب خواصرها بذيولها لتطرد النُعرَ، تمدَّدَ على العشب في ظل شجرة بتولة

وأشعل غليونه، ومن حجرة الحمام، تناهت إليه صرخات الفرح التي أطلقها الأولاد.

ومع أن مُراقبة الأولاد ومنْعَهم من ارتكاب الحماقات، مع أن ذلك كان يمتصّ وقت داريا الكسندروفنا، ومع أنه كان صعباً عليها أن تهتدي إلى طريقها بين كل هذه الجوارب والثياب والأحذية المختلفة القياس، وبين فك الأزرار وحل الأربطة، ثم تزرير الأزرار، وربط الأشرطة، إلا أن داريا الكسندروفنا التي أحبَّتِ الاستحمام قديماً ورأته ضرورياً لأولادها، لم تكن تحسّ بمثل المتعة التي تحسّ بها في هذا الاستحمام مع ذريتها كلها. إن مدَّها ذراعيها على جميع هذه السوق الصغيرة الممتلئة، وأخذها بين ذراعيها هذه الأجسام الرقيقة العارية، وتغطيسها في الماء، وسماع أصوات الفرح أو الخوف، ورؤية الوجوه الحمراء الخائفةَ والمفتونةَ في آن واحد، وجوه هذه الملائكة، وهي تُرشُّ بالماء، إن ذلك كله كان عندها متعةً غامرة.

وبينما كانت تُلبسُ الأولاد، دنت فلاحاتٌ كنّ يقطعن القربيون والأعشاب للمصابين بالنقرس، من حجرة الحمّام بوجلٍ. نادت ماترينا فيليمونوفنا واحدة منهن لكي تكلّفها تَجفيفَ غطاء وقميص وقعا في الماء، فأخذت داريا الكسندروفنا تحدّث النسوة. لقد كن يضحكن، في أول الأمر، خلفَ أيديهن دون أن يفهمن الأسئلة، ثم لم يلبثْنَ أن تشجعْن وحُزْنَ حبّها بإعجابهن الصادق أمام الأولاد الذين كنّ يُشرْنَ إليهم بأصابعهن.

قالت إحداهن وهي تتأمل وهي تتأمل تانيا:

ــ انظري إلى هذه ما أجملها.

وأضافت وهي تهزّ رأسها.

ــ لكنها ناحلة.

ــ نعم كانت مريضة.

قالت أخرى وهي تُشير إلى الرضيع:

ــ وهذا، تحمّمينه أيضاً.

أجابت داريا الكسندروفنا باعتزاز:

ــ لا، هذا ابن ثلاثة أشهر فقط.

ــ وانظري إلى هذا!

ــ وأنتِ، ألكِ أولاد؟

ــ كان لي أربعة، فلم يبقَ لي سوى اثنين، صبيّ وطفلة، فطمتُها قبل الصيام بالذات.

ــ ما عمرُها؟

ــ أَنْهت العامين.

ــ ولِمَ أَرْضعْتِها كلَّ هذه المدة؟

ــ هذه هي العادة عندنا! ثلاثة أَصوامٍ...

ثم انتقل الحديثُ إلى موضوعات كانت تهمّ داريا الكسندروفنا بخاصة: هل كانت ولاداتُ تلك المرأة سهلةً؟ وما الأمراض التي أصابت أولادَها؟ أين زوجُها؟ وهل يأتي كثيراً ليراها؟

لم تستطع داريا الكسندروفنا أن تُقلع عن هذا الحديث؛ واستمتعت بمحادثة هؤلاء النسوة وتبيَّنت أن مصالحهما واحدة. وما أثَّر فيها قبل غيره هو انذهالهن جميعاً أمام عدد الأولاد وجمالهم. وأَضْحكت الفلاحاتُ داريا الكسندروفنا وآلمنَ الإنكليزية التي أحست أنها سبب هذا الضحك الصاخب الذي لم تعرفْ دافعه الحقيقي. كانت إحدى الفلاحات تراقبُها وهي تلبس ثيابها بعد الأولاد؛ وعندما لبست تنّورتها الثالثة لم تتمالك عن القول:

ــ ما أكثر ما تلبس من تنانير، ما أكثر ما تلبس من تنانير، لن نرى نهايةً لذلك!

فانطلقنَ جميعاً في قهقهات صاخبة.

[٩]

كانت داريا الكسندروفنا تدنو من البيت، وعلى رأسها منديل، وقد أحاط بها المستحمّون الصغار المبلّلو الشعور، حين قال لها الحوذي:

ـ هناك شخصٌ آتٍ؛ وأظن أنه سيِّد بوكروفسكوي.

تطلّعت داريا الكسندروفنا أمامها فتعرَّفت بفرح، إلى شخص ليفين المألوف الذي أقبل عليهم، وهو في معطفه وقبّعته الرماديتين. كانت دائماً تَغْتبط برؤيته، لكنها كانت، في هذه اللحظة، مبتهجةً بأن تَبْدوَ له في مجدها كله. وما كان يمكن لأحد أن يفهم عظمتَها مثل ليفين.

عندها شاهدها ليفين، ظنَّ نفسه أمام لوحة من لوحات السعادة الزوجيَّة المقبلة، كما كان يتصوَّرها.

ـ أنت حقاً الأم الحاضن، يا داريا الكسندروفنا.

قالت له وهي تمدّ يدها:

ـ آه! ما أعظم سروري برؤيتك!

ـ ومع ذلك، لم تخبريني بوجودك. أخي عندي. وستيقا هو الذي أرسل كلمة يقول فيها إنك هنا.

فسألته داريا الكسندروفنا بدهشة.

ـ ستيقا؟

قال ليفين:

ـ نعم، قال لي: إنك جئتِ تقيمين هنا، وهو يظنّ أنك ستسمحين لي بمساعدتك، إذا كان ذلك في مقدوري.

عندما قال ليفين هذه الكلمات، ارتبك فجأةً وتوقَّف عن الكلام، وظلَّ يمشي بجانب العربة، دون أن يفوه بكلمة، وهو ينتزع براعم من الزيزفون يُعضعِضُها. لقد فكَّر أن داريا الكسندروفنا ستتألَّم من أن يأتي غريبٌ يَعْرض عليها العونَ الذي ينبغي

للزوج أن يقدِّمه. والواقع أن طريقة ستيڤان أركادييڤتش في إحالة واجباته العائلية إلى الآخرين كانت تؤذي دولي. وقدَّرتْ على الفور أن ليفين يُدرك ذلك. فكانت ممتنَّةً لرقَّته وصدق حدسه.

قال ليفين:

ــ وفهمتُ من رسالته أنه يريد أن يبلِّغني رغبتك في رؤيتي، وأنا سعيدٌ بذلك. لكني أتصوَّر أنك تشعرين بالغربة في الريف؛ وأنا تحت تصرفك، إذا كان ذلك ضرورياً.

قالت دولي:

ــ أوه! لا. الأوقات الأولى كانت صعبة، أما الآن فقد سُوِّي كلُّ شيء، بفضل مربِّيتي العجوز.

وأشارت إلى ماترينا فيليمونوفنا التي أدركت أن الكلام يدور عليها فابتسمت لليفين ابتسامة الفرح والمودة. كانت تعرفه وتعلم أنه الزوج الذي يصلُح «للآنسة» وتتمنَّى أن يتمَّ ذلك الزواج.

قالت له:

ــ اصعدْ معنا، سنرصّ أنفسنا قليلاً.

ــ لا، أفضِّل أن أتابع الطريق مشياً. هيه، يا أولاد، من يأتي منكم لمسابقة الجياد؟

لم يكن الأولاد يعرفون ليفين كثيراً وهم لا يتذكَّرون أنهم رأَوه، لكنهم لم يُظهروا أمامه ذلك الشعور الغريب من الوجل والنفور الذي يشعر به الأطفال غالباً نحو الأشخاص الكبار الذين يُظهرون خلاف ما يُبطنون، وهو شعورٌ كثيراً ما يُعاقبون بسببه معاقبةً قاسية. إن المراءاةَ قد تخدع أشد الناس دهاءً وذكاءً، لكنَّ أشد الأطفال غباء يكتشفها ويُعرض عنها، مهما أُخفيتْ ببراعة. ولقد كان ليفين بريئاً من الرياء، أيّاً كانت عيوبه، ولذلك أبدى له الأطفال من المودة مثلَ الذي

طالعوه على وجه أمهم. وبعد دعوته لهم نزل الأكبران من العربة وأخذا يركضان إلى جنبه بكل بساطة كما لو كانا يركضان مع مربيتهما أو مع الآنسة «هول» أو مع أمهما. وطلبت «ليلي» أيضاً أن تلحقَ بهم، فناولتْه إياها. وأجلسها على كتفه وأخذ يركض.

قال وهو يبتسم بفرح للأم:

ــ لا تخافي، يا داريا الكسندروفنا، . لن أدعها تسقط.

ولما رأت مدى حذره ومهارته في حركاته، طابتْ نفسُها وابتسمتْ له ابتسامةَ الابتهاج والاستحسان.

ألَمَّ بليفين، هنا، في الريف، وبصحبة الأولاد وداريا الكسندروفنا التي يكنّ لها الود، ذلك المزاجُ الفَرِحُ الطفوليُّ الذي كان كثيراً ما يبدو عليه والذي كانت داريا الكسندروفنا تحبّه حبّاً خاصاً فيه. كان، وهويركضُ يعلِّم الأولاد الرياضة، ويسلِّي الآنسة «هول» بإنكليزيته الرديئة، ويصف لداريا الكسندروفنا مشاغله.

بعد العشاء، ساقَتْ داريا الكسندروفنا، وكانت جالسةً وحدها معه على الشرفة، الحديثَ إلى كيتي.

ــ أتعلم أن كيتي ستأتي لقضاء الصيف معي.

قال وهو يحمرّ:

ــ حقاً؟

وفي الحال، غيَّر الحديثَ وقال:

ــ وإذن، فسأرسل لكِ بقرتين؟ وإذا كنتِ تصرِّين على أن تدفعي لي، فادفعي خمسة روبلات في الشهر، إلا إذا أخجلَكِ ذلك.

ــ لا، شكراً. لقد رتَّبنا أمورنا.

ــ طيِّب، لكني سأرى بقراتك، وسأعطي تعليماتي بشأن العلف، إذا سمحتِ بذلك. كلُّ شيء في العلف.

وعَرض ليفين لداريا الكسندروفنا، بغيةَ تغيير الحديث، نظريةً في استثمار الحليب تجعل من البقرة مجرَّد آلة مُعدَّةٍ لتحويل العلف إلى حليب.

وكان وهو يتكلم، يرغب بحرارةٍ في معرفة أخبار كيتي ويخاف في الوقت نفسه من هذه المعرفة. كان يخشى أن يُدمّر ذلك التوازن الذي حَصلَ عليه بشقٍّ النفس.

أجابته داريا الكسندروفنا دون اقتناع:

ـ صحيح، ولكن يجب أن تُراقَب كل هذه العمليات، فمن الذي يقوم بذلك؟

لم تكن تبغي أن تغيِّر شيئاً في ملكها الآن بعد أن أدخلت النظام عليه بمساعدة ماترينا فيليمونوفنا؛ ومن جهة أخرى، فإنها لم تكنْ تثق بعلم ليفين، فيما يتَّصل بتربية الماشية. كانت أفكارُه عن البقرة من حيث هي آلة لاختراع الحليب مشبوهةً. وكانت تعتقد أن الأمورَ أبسطُ من ذاك؛ كان يكفي، كما شرحت لها ذلك ماترينا فيليمونوفنا، أن تزيد في علف «البيضاء» و«المرقَّشة»، وأن تَحْذر من أن يحمل الطاهي مياه المطبخ الدسمة إلى بقرة الغسَّالة. كان ذلك واضحاً. أما تلك الأبحاث عن التغذية الطحينية والعلفية فلا يمكن الاعتماد عليها. ثم إنها كانت تريد الكلامَ على كيتي.

[١٠]

استأنفت دولي كلامها بعد صمت قصير:

ـ كتبت إليَّ كيتي أنها لا ترغب في شيء رغبتَها في العزلة والراحة.

سألها ليفين بانفعال:

ـ وهل تحسَّنَتْ صحتُها؟

ـ الحمد لله، لقد تعافتْ تماماً. وأنا لم أعتقدْ قط أنها مصابة بمرضٍ في الصدر.

قال ليفين:

ــ آه! أنا سعيدٌ لذلك!

ــ وخُيِّل إلى دولي أنها رأتْ على وجهه أمارات الضَنْك الشديد المؤثِّر، وهو يقول ذلك، وينظر إليها دون أن يقول شيئاً.

قالت داريا الكسندروفنا وهي تبتسم ابتسامتها اللطيفة المشوبة بشيء من السخرية:

ــ اصغِ، يا قسطنطين دمتريتش، لمَ أنتَ حاقدٌ على كيتي؟

قال ليفين:

ــ أنا؟ أنا... لستُ حاقداً عليها؟

ــ بلى، بلى، أنتَ حاقدٌ عليها.

ــ لِمَ لم تأتِ إلى بيتنا ولا إلى بيت أهلي، عندما مررت بموسكو؟ قال وهو يحمّر حتى أصول شعره:

ــ داريا الكسندروفنا، يدهشني أنك لم تفهمي، مع ما أنت عليه من الطيبة... كيف لم ترأفي بي، وأنت تعلمين...

ــ ماذا أعلم؟

قال ليفين:

ــ تعلمين أنني طلبتها وأنني رُفضتُ.

وأَخْلى الحنانُ الذي شعر به قبل دقيقة نحو كيتي مكانه للحقد.

ــ ولِمَ تعتقدُ أنني أعرفُ ذلك؟

ــ لأن جميع الناس يعرفون ذلك.

ــ أنتَ مخطىء في هذا: ما كنتُ أعلمه، لكن قلبي حدَّثني به.

ــ حسناً! الآن، علمتِ كل شيء.

ــ كنتُ أعلم فقط أنه جرى شيءٌ كان يُقضّ مضجعها ورجتني ألا أتحدَّث

عن ذلك. وإذا كانت لم تصارحني أنا فمعنى ذلك أنها لم تصارحْ أحداً. فما الذي جرى بينكما؟ قلْ لي.

ــ قلتُه لك.

ــ متى؟

ــ في آخر مرَّة زرتكم فيها.

قالت داريا الكسندروفنا:

ــ سأقول لك هذا الشيءَ: إنني أرثي لها أعظم الرثاء. أنت تتألم في كبريائك فقط.

قال ليفين:

ــ ربّما، لكن...

فقاطعته:

ــ أما تلك المسكينة فإنها تدعو إلى أعظم الشفقة. الآن، فهمتُ كل شيء.

قال وهو ينهض:

ــ اعذريني، يا داريا الكسندروفنا، سأتركك. إلى اللقاء.

قالت وهي تمسكه بكمّه:

ــ لا، ابقَ، ابقَ. اجلسْ.

قال وهو يعود إلى الجلوس ويحسُّ في الوقت نفسه أن الأمل الذي ظنَّه مدفوناً قد دبَّت فيه الحياةُ انبعث في قلبه.

قالت داريا الكسندروفنا:

ــ لو لم أكن أحبك، ولو لم أكن أعرفك على حقيقتك...

واغرورقتْ عيناها بالدموع.

إن الشعور الذي كان يبدو ميتاً أخذ يعود إلى الحياة ويستولي على قلب ليفين.

وتابعت داريا الكسندروفنا كلامها:

ـ نعم، الآن فهمتُ كل شيء. أنتم لا تستطيعون أن تعلموا، أنتم، الرجال، أحرارٌ ولكم حرِّيَّةُ الاختيار، وأنتم ترون بوضوح اللواتي تحبُّونهن. أما الفتاة التي تنتظر، التي ينبغي أن تظل محترسةً، الفتاة التي لا تراكُمْ إلاَّ من بعيد، فإنها تُصدِّق كلَّ ما يُقال لها. وهي في بعض الأحيان عاجزةٌ عن تمييز عواطفها ذاتها.

ـ نعم، إذا كان قلبُها لا يتكلَّم...

ـ بلى، إن قلبها يتكلَّم، لكنْ فكِّرْ فيما يلي: إنك تنوي الزواج بفتاةٍ، فتأتي إلى أهلها، وتتعارفون، وتلاحظ الفتاةَ، وتنظر أن تجد فيها ما تحبّ، فإذا وثقتَ من حبك لها طلبتَ يدَها...

ـ لا، الأمورُ لا تجري على هذا النحو تماما.

ـ لا فرق؛ إنك تطلب يدَها عندما ينضج حبك، أو عندما يتغلَّب أحد الاحتمالين على الآخر. لكنَّ الفتاة لا تُسأل عن رأيها. إنما نتمنَّى أن تختار بنفسها، لكنها لا تستطيع. لا تستطيعُ إلاَّ أن تجيب بـ «نعم» أو «لا».

فكَّر ليفين في نفسه: «المقصودُ هو الاختيارُ بين فرونسكي وبيني». وإذا بالميت الذي عاد إلى الحياة في أعماقه يموتُ مرَّةً أخرى، ضاغطاً على قلبه ضغطاً مؤلماً. وقال:

ـ داريا الكسندروفنا، قد تختار الفتاةُ هكذا ثوباً أو حاجة تشتريها، لا الحب. لقد تمَّ الاختيارُ، لا بأس... لكن ذلك لن يتكرَّر.

ـ آه! من الكبرياء، الكبرياء أبداً!

قالت داريا الكسندروفنا ذلك وكأنها تزدري دناءَة هذه العاطفة بالقياس إلى تلك العاطفة التي تستطيع النساءُ وحدهن أن يَعْرِفْنها.

واستأنفت:

ـ عندما تقدمتَ بطلبك كانت كيتي في هذا الوضع الذي لا تستطيع أن تُجيب فيه. كانت تتردَّد. كانت تتردَّد بينك وبين فرونسكي. كانت تلقاه كلَّ يوم، بينما لم تركَ منذ زمن طويل. ولو كانت أكبر سنّاً..... أنا، مثلاً لما تردَّدتُ لحظة. كنت أراه دائماً ثقيلَ الظلّ.

تذكَّر ليفين جوابَ كيتي. لقد قالت: «لا، هذا غير ممكن».

قال بجفاف:

ـ داريا الكسندروفنا، إني أكبرُ ثقتَكِ بـي، لكني أعتقدُ أنك مخطئة. إن هذه الكبرياء التي تزدرينها كثيراً، بحقّ أو بغير حق، تمنعني من التفكير في كاترين الكسندروفنا... تفهمين؟ إنها تمنعني منعاً باتاً...

ـ أحبّ أن أقول لكَ الشيءَ التالي: إني أحدِّثكَ عن أختي التي أحبها كأولادي. وأنا لم أقلْ إنها كانت تحبّكَ. أردتُ أن أقول فقط: إن رفضها لك في تلك اللحظة لم يكن يَعْني شيئاً.

قال ليفين وهو ينهض فجأة:

ـ لستُ أدري إن كنتِ تعرفين إلى أي حدّ تؤلمينني! هذا كما لو أن ولداً لكِ ماتَ وجاءَ الناسُ يقولون لكِ: كان يمكنه أن يكون كذا وكذا، كان يمكنه أن يعيش وأن يُسعِدَكِ. لكنه مات، مات، مات...

قالت داريا الكسندروفنا وهي تتأمَّل انفعالَ ليفين بابتسامة حزينة:

ـ ما أغربَك!

واستدركت قائلةً كالحالمة:

ـ نعم، صرتُ أفهم، بصورة أفضل. إذنْ لن تأتي لزيارتنا عندما تأتي كيتي؟

ـ لا. طبعاً لن أتحاشى كاترين الكسندروفنا، لكني سأحاول، كلما استطعتُ، أن أجنّبها المكدّرات التي يسبِّبها حضوري.

فكرَّرت داريا الكسندروفنا وهي تنظر إليه بحنان:

ـ أنت غريبٌ حقاً. طيِّب، لنفرضْ أننا لم نقلْ شيئاً.

وقالت بالفرنسية للصغيرة الداخلة:

ـ ماذا جئتِ تفعلين، تانيا؟

ـ أين رفشي، ماما؟

ـ كلَّمتك بالفرنسية، فأجيبيني بالفرنسية.

أرادت الطفلة أن تطيعَها، لكنها نَسيتْ كيف يُقال «رفش» بالفرنسية. فهمست إليها أمها بالكلمة، ثم قالت لها بالفرنسية أيضاً أين رفشُها. فلم يقعْ ذلك موقعاً حسناً في نفس ليفين.

لقد بدا له كلُّ شيء الآن: البيت والأولاد أقل حسناً من قبل.

وفكَّر في نفسه: «ولمَ تخاطبُ أولادَها بالفرنسية؟ ما أشدَّ الزيفَ والتصنُّعَ في ذلك! الأولادُ أنفسهم قد تبيَّنوا ذلك. يُعلِّمونهم الفرنسية ويَحْملونهم على نسيان الصدق». كذلك كان يقول بينه وبين نفسه، دون أن يعلم أن داريا الكسندروفنا قد كرَّرتْ ذلك على نفسها عشرين مرة، ورأتْ من الضروري مع ذلك، بالرغم من الجوْر على الصدق، أن نُعلِّم الأطفال بهذه الطريقة اللغات الأجنبية.

ـ ليس هناك ما يدعوك إلى العجلة! ابق قليلاً.

بقي ليفين حتى موعد الشاي، لكن انشراحه زال وأحسَّ بالضيق.

بعد الشاي، قَصدَ إلى غرفة الانتظار ليأمر بربط الجياد. وعندما عاد، وجد داريا الكسندروفنا مضطربة، متغيِّرة الوجه وعيناها مغرورقتان بالدموع. لقد حَدثَ، أثناء غياب ليفين حادثٌ دمَّر لداريا الكسندروفنا، على الفور، بهجةَ النهار والاعتزاز الذي ابتعثه الأولادُ: تشاجر غريشا وتانيا على الكرة. وعندما سمعت داريا الكسندروفنا صراخهما هرعت إلى حجرة الأطفال فوجدتهما في حالةٍ مُخيفة: كانت تانيا متشبِّثةً بشعر غريشا، وغريشا يوسعها لطماً وقد شوَّهه الغضب. وتحطَّم شيءٌ في قلب داريا الكسندروفنا لهذا المنظر. وبدت لها حياتُها كأنما تكتسحُها

الظلماتُ: لقد أدركت أن هؤلاء الأولاد الذين كانت تعتزّ بهم، لم يكونوا أطفالاً عاديين فحسب، بل لقد كانوا شرِّيرين، سيِّئي التربية، ذوي ميول فظّة وقاسية.

ــ وإذ كانت عاجزةً عن التفكير في شيء آخر، وعن الكلام على موضوع آخر، فأنها صوّرت شقاءَها لليفين.

ــ حاول ليفين، حين رآها بائسةً، أن يخفِّف من ألمها: قال لها إنه ليس في ذلك ما يبعث على القلق، وأن جميع الأولاد يتشاجرون؛ لكنه كان يفكِّر في قرارة نفسه، وهو يقول هذا: «لا، لن أحاول تعليمَ أولادي الفرنسية؛ سيكون أولادي مختلفين؛ يكفي ألا ندلِّل الأطفال، ألا نشوِّههم حتى يصيروا رائعين. نعم، سيكون أولادي مختلفين».

ثم استأذنها وانصرف، دون أن تحاول استبقاءه.

[١١]

في منتصف تموز، جاء قيّمُ قرية أخت ليفين ليقدّم له تقريره عن سير أعمال الاستثمار وعن حصادِ الكلأ. كان الدخل الرئيسي في هذه الأرض يأتي من المروج التي تغمرها المياه في الربيع. وكان الفلاحون يستأجرونها، في السنوات السابقة، بعشرين روبلاً للهكتار. وعندما تولى ليفين بيده هذه الأرض، وذهب للتفتيش عن هذه المروج، ووجد أن أجرتها تساوي أكثر، رَفَعَ السعرَ إلى خمسة وعشرين روبلاً. فرفض الفلاحون التعرفةَ الجديدة، وزَهَّدوا المشترين الآخرين، وهو ما كان يخشاه ليفين. عند ذاك قصد ليفين إلى القرية وحصد جزءاً من المروج على أيدي المياومين، والجزء الآخر على حسابه. ولقد قاومَ الفلاحون هذا التحديد بكل الوسائل؛ ومع ذلك فقد تمّ الفعلُ، وكان دخلُ المروج، في السنة الأولى، ضعفَ الدخل السابق. وفي السنتين التاليتين، واجه ليفين المقاومةَ نفسها، وتمَّ إدخالُ الكلأ في الشروط نفسها. وفي هذه السنة، قبلَ الفلاحون أن يحصدوا المروج مقابل ثلث المحصول، وقد جاء القيّمُ، اليوم، ليعلنَ أن الحصاد انتهى:

وإذْ كان يخافُ المطرَ، فقد دعا أمينَ المكتب وشرعَ في القسمة بحضوره، ووُضعتْ على حدةٍ حصةُ المعلم وهي أحد عشر كدساً. لكن ارتباك القيّم في أجوبته، عندما سأله عن كمية الكلأ المحصودة في المرج الأكبر، والسرعة التي قسم بها الكلأ بغير استئذان، وموقفه كله، كل ذلك أقنع ليفين بأن في القضية مكراً وعزم على الذهاب بنفسه لجلاء الأمور.

حين وصل إلى القرية ساعة العشاء، ترك جواده عند زوج مرضع أخيه، وذهب يبحث عن العجوز في منحلته، لأنه كان يبغي أن يطلب إليه بعض التفصيلات عن إدخال الكلأ. استقبل «بارميونتش»[1]: وهو شيخٌ بهيّ الطلعة، طلقُ اللسان، ليفين بفرح، وأراد مُنْشأته، واستفاض في الحديث عن نحله وعن جماعة النحل في هذه السنة؛ لكنه أجاب على مضض، إجابةً مراوغة عن أسئلة ليفين حول حصاد الكلأ. فثبّت ذلك ليفين في شكوكه. وتوجه إلى المروج وفحصَ الأكداس. فرأى أن الكدس الواحدَ لا يمكن أن يحمِّل عشرين عربة نقل؛ ولكي يُفحم الفلاحين. أمر على الفور بعربة نقل، وبتحميلها بالكلأ، ونقله إلى المخزن. وبالرغم من اعتراضات القيم الذي زعمَ أن الكلأ قد تلبّد في الكَدْس، وأقسم بالأيمان المغلظة أن كل شيء تمّ بنزاهة وشرف، إلا أن ليفين أصرّ على موقفه، وقال إن الكلأ وُزِّع دون إذنه، وبالتالي، فهو لا يَقْبل أن يُحْسَب الكدسُ خمسين عربة نقل. وبعد مشاورات طويلة. تَقرَّر أن يأخذ الفلاحون الأحَدَ عشر كدساً لأنفسهم، وأن يعيدوا التقسيم بالنسبة إلى المعلّم. وقد دامت المحادثاتُ وقسمةُ الكلأ حتى ساعة الطعام. وعندما وُزِّع آخر الكلأ، عهد ليفين إلى الوكيل بالإشراف على العمليات التالية، وجلس على عُرمة صغيرة مُعلّمة بغصنٍ من الحور، واستمتع بمرأى المرجع الذي يعجّ بالناس.

(١) بارميونتش: أي ابن بارميون، وهذا الشيخ هو أبو إيفان بارميونوف، الذي سيأتي ذكره بعد قليل.

كان موكبٌ مُبرقَشٌ من النساء يتقدّم أمامه، عند منعطف الساقية، وراء المستنقع، وقد دوى الفضاء برنين أصواتهن، وامتدّ خلفهن الكلأ المقلوبُ على أرضيّة خضراء فاتحة من العشب الرجيع، في خطوط رمادية ومتعرّجة. ووراء النساء، جاء الفلاحون بمذاريهم ليجمعوا العشب في أكوام عظيمة. وإلى اليسار، على مرجٍ محصود، كانت العربات تصل وهي تَصرُّ؛ ثم اختفت الأكوام كومةً بعد كومة، بعد أن نُقلت برزم ضخمة إلى عربات النقل، وكُدِّست فيها حتى فاض الكلأ الأرجُ عن جوانب العربات وبلغ كفلَ الجياد.

قال الشيخُ الذي جاء وجلس قرب ليفين:

ـ في مثل هذا الوقت، سيكون الكلأ ممتازاً. كأنه شايٌ لا عشب. وأضاف وهو يشير إلى الأكوام المكدّسة على العربات:

ـ وما أسهل جمعه! جمعُه أسهلُ من رمي الحبّ للبط! لقد نقلوا أكثرَ من النصف منذ العشاء.

وصرخَ بشاب واقفٍ في مقدّمة العربة، مرّ أمامهما وهو يحرك عنان القنّب لجواده:

ـ أهذه هي النقلةُ الأخيرة؟

أجاب الفتى وهو يوقف جوادَه:

ـ نعم، يا أبـي!

والتفت، وهو يبتسم لينظر إلى فلاحة جالسة في العربة أيضاً، متهلّلة الوجه، متوهّجة اللون، باسمة هي أيضاً. ثم ضرب جواده وتابع طريقه.

سأله ليفين:

ـ أهو ابنك.

قال الشيخ بابتسامة عذبة:

ـ ابني الأخير.

ـ يا له من فتى قوي!

ـ ليس عليه ما يُقال، إنه فتى ممتاز.

ـ وهو متزوّج؟

ـ نعمْ، منذ سنتين في عيد القديس فيليب[1].

ـ وله أولاد؟

ـ فأجاب الشيخ:

ـ أولاد، آه! لا شك. ظل طوال سنة يتظاهر بأنه لا يفهم... ونحن نوبّخه...

وكرَّر، رغبة منه في تغيير وجهة الحديث:

ـ رائعٌ هذا الكلأ! ناشفٌ كالشاي!

راقب ليفين بانتباه أكبر «إيفان بارميونوف» وزوجته. كانا يحمّلان عربته من مكان غير بعيد عنه. كان إيفان بارميونوف واقفاً على العربة يتناول ويسوّي ويطأ أكوام الكلأ التي كانت تمدها إليه امرأته بملء ذراعيها أولاً ثم بالمذراة. كانت المرأة تعملُ بيسر ومرح. كان الكلأُ المتكدّس لا يسمح للمذراة بأن تنفذ إليه. فتفرِّقه وتغرز مذراتها بحركة مرنة وسريعة، وتضغط فوقها بكل ثقل جسدها؛ ثم لا تلبث أن ترتدّ إلى الوراء، وتنتصب، مقدّمة صدرها القوي، المغطّى بقميص أبيض يحيطُ به زنارٌ أحمر، وتُمسكُ مذراتها بكلتا يديها، وبمهارة، ثم تلقي كومة الكلأ في العربة. وكان إيفان حرصاً منه على أن يجنبها أدنى دقيقة من العمل غير المجدي، يتناول بملء ذراعيه الكلأ الذي تمدّه إليه ويوزّعه في أنحاء العربة، وبعد أن لمّت المرأةُ الشابة بقايا الكلأ، نفضت القشّ الذي نفذ إلى عنقها، وأحكمتْ على جبهتها البيضاء المنديلَ الأحمرَ الذي انزلق، وولجتْ تحت العربة لتَحزم

(١) عيد القديس فيليب: أي في ١٤ تشرين الثاني، عند بدء الصوم الكبير قبل الفصح. وغالباً ما يسمى «صوم فيليب».

الحمولة. وكان إيفان يدلّها كيف تُثبِّتُ الحبالَ، وإذا به يُغرب في ضحك صاحب، بناءً على ملاحظةٍ من زوجته، وعبّرت أساريرُ وجهيهما عن حب قوي، شاب، قريب العهد.

[١٢]

حزمت الحمولةُ، فقفز إيفان إلى الأرض وأمسك بعنان جواده، وهو حيوانٌ قوي الجسم، سمينٌ، ورمت المرأةُ بممشاطها فوق الحمولة، ولحقتْ بجماعة النساء، رشيقةَ الخَطْو، خاطرةً بيديها اتخذ ايفان الذي دلفَ إلى الطريق مكاناً له بين قافلة العربات المحمّلة. أما الفلاحاتُ فكن يمشين خلفَ العربات بثيابهن الزاهية الألوان، وهن يتبادلْن الأحاديثَ المرحة، وقد حَمَلتْ كلُ واحدة منهن ممشاطَها على كتفها. وأنشد صوتٌ خشنٌ أغنيةً، فردّدها، عند نهاية المقطع، خمسون صوتاً غضاً، خفيض الجرس أو عذبه.

كانت النساءُ اللواتي يغنين يقتربن من ليفين؛ وخُيِّل إليه أن سحابةً عاصفةً من الفرح تزحف عليه. وأدْركتْهُ السحابةُ. وَلَفَّتْهُ هو والعَرْمة التي استلقى عليها والعرمات الأخرى والعربات والمرج كله والحقول البعيدة. بدا له أن كلَّ شيء يَنْتعشُ ويهتزَّ على إيقاع هذه الأغنية الوحشيّة والظافرة التي تُقطِّعها نداءاتٌ وصرخات وصفرات. وامتلأ غيرةً من هذا الفرح. لقد اشتهى أن يُشارك في التعبير عن الفرح بالحياة. لكنه لم يكن يستطيع أن يفعل شيئاً، وكان عليه أن يظل مُستلقياً، ينظر ويسمع. وعندما غابت المغنيّاتُ وتلاشت أصواتُهن، اجتاحَه شعورٌ مرهقٌ بالوحشة والفراغ الجسدي والحقد على هذا العالم.

كان بعضٌ من الفلاحين الذين نازعوه الكلأ أشرسَ نزاع فأهانَهم أو الذين نَوَوْا أن يَخْدعوه، يحيّونه الآن ببشاشةٍ وكأنهم لا يشعرون نحوه بأدنى حقد أو ندم. بل إنهم لم يكونوا يتذكرون رغبتهم في خداعه. كل ذلك قد غرقَ في بهجة العمل

المشترك. لقد وَهَبهم الله ضوء النهار والقوّةَ الجسدية، وكلاهما مكرَّس للعمل، وهو يجدُ جزاءه فيه. لكنْ لمنْ يَعْملون؟ وما ثمارُ ذلك العمل؟ كانت تلك اعتبارات لا نفع فيها ولا أهمية لها.

كثيراً ما كان ليفين يُعجب بهذه الحياة ويَغارُ من هؤلاء الناس الذين يُشاركون فيها، لكنه أدرك اليوم، ولأول مرة، بتأثير إيفان بارميونوف وزوجته، أن استبدالَ حياة العمل المشترك النقيةَ جداً والآسرة جداً، بحياته الشخصية الاصطناعية والفارغة التي أرهقتْه، أمرٌ منوطٌ به وحده.

كان الشيخُ الذي جالسه فترةً قد عاد إلى بيته منذ وقت بعيد، كلُّ ذهبَ من ناحيته. الذين يسكنون في الضواحي عادوا إلى بيوتهم، والذين جاؤوا من بعيد أقاموا الليل وأخذوا يُعدّون عشاءهم. وليفين مستلقٍ على العَرْمة، لا يلمحُه أحدٌ، ينظرُ ويصغي ويفكّر. أما الفلاحون الذين مكثوا فلم يكادوا ينامون أثناء هذا الليل الصيفي القصير. وأثناء العشاء سُمعتْ ضوضاءَ فرحةٌ من الأصوات والضحكات، ثم من الأغنيات والضحكات مرةً أخرى.

لم يترك نهارُ العمل الطويل من أثر سوى البهجة. وغاب كلُ شيء في الصمت قُبيل الفجر. ولم يكن يُسمع سوى الضفادع التي لم تَنْقطعْ عن النقيق في المستنقعات، وسوى الجياد التي كانت تُحمحم في المرج، وسط الضباب الناهض قبل طلوع الصبح. ثاب ليفين إلى نفسه وقام ونظر إلى النجوم وأدرك أن الليل قد مضى.

وقال وهو يَجْهدُ في أن يجد تعبيراً ملائماً لكل ما فكّر فيه وشعر به في هذه الليلة القصيرة.

ــ «حسناً، ماذا سأفعل الآن؟ وكيف سأتصرّف؟» كان كلُّ ما فكّر به وأحسّ به ينقسم إلى اتجاهات ثلاثة. أما الأول فكان التخلّي عن حياته الماضية، عن ثقافته التي لا جدوى منها. وهذا التخلي سيحقّق له، كما يبدو، المتعةَ الحقيقية

ولن يكلّفه جهداً. وتأتي بعد ذلك الأفكارُ التي تتصل بالحياة التي يريد أن يحياها منذ الآن. فلقد أحس إحساساً شديداً ببساطة هذه الحياة ونقائها وشرعيتها، وكان مقتنعاً بأنه سيجد فيها الرضى والطمأنينة والكرامة، وهي أمور أخذ يؤلمه غيابُها. أما النمط الثالث من الأفكار فكان يدور على الطريقة التي يتم بها الانتقالُ من الحياة القديمة إلى الحياة الجديدة. وهنا لم يَعْرِضْ له أيُّ تصوّر واضح. كان يتساءل دون أن يجد الجواب: «أأتزوّج، أأعمل، أأضْطَرُّ نفسي إلى العمل، أأترك بوكروفسكوي؟ أأشتري أرضاً؟ وأغدو عضواً في وحدة ريفية؟ أأتزوّج فلاحةً؟ كيف أتصرّف؟». وقال في نفسه «ثم إني لم أنم طوالَ الليل، فلا يمكن أن تكون أفكاري واضحة. سأوضّح ذلك فيما بعد. هناك شيء أكيدٌ وهو أن هذه الليلة قد قرّرت مصيري. فكل أحلامي السابقة عن السعادة الزوجية ليست سوى حماقة. وليست هي ما أبغيه. ما أبغيه الآن أبسط وأكمل...».

وفكّر في نفسه وهو ينظر إلى غيوم صغيرة بيضاء كالصوف المنفوش، مستقرّة في وسط السماء، فوق رأسه، وكأنها صدفة بلون اللؤلؤ: «ما أجملها! ما أروع كل شيء في هذه الليلة الرائعة! متى أتيحَ لهذه الصدفة أن تتشكّل؟ قد نظرتُ إلى السماء قبل هنيهة، وكان يجتازها شريطان أبيضان. نعم، بهذه الطريقة تغيّرت أفكاري على نحو غير ملحوظٍ!».

غادر المرجَ، وسار في الطريق الموصلة إلى القرية. وهبّ النسيم، وتغشّى كلُّ شيء بألوان رماديّة وباهتة. كانت هذه هي الدقيقة المقطبّة التي تسبق الفجرَ عادةً، هي انتصار النور على الظلمات.

كان ليفين يمشي بخطوات حثيثة، ناظراً إلى الأرض، وقد تشنّج من البرد. وفكّر وهو يسمع صوت جلاجل: «ما هذا؟ هناك شخص قادمٌ؟» ورفع رأسه. على أربعين خطوة منه، وعلى الطريق الكبرى التي اجتاحتها الأعشاب، أقبلتْ عربةُ سفرٍ تجرُّها أربعة جياد. وكانت الجياد ترصُّ نفسها على عريش العربة

لتفادى أخدوداً، لكن الحوذيُّ الماهر، الجالس على جانب مقعده، حافظ على العريش فوق الأخدود بحيث ظلّت العجلات على الأرض المستوية.

لم ير ليفين شيئاً آخر، وألقى نظرةً شاردةً إلى داخل العربة، دون أن يتساءل مَنْ عساه يكون القادمُ.

كانت امرأة عجوزٌ تغفو في ركنٍ من العربة. وقرب الباب جلستْ فتاةٌ، كأنها استيقظت قبل حين، وقد أمسكتْ بيديها أشرطةَ قبعتها الليلية. كانت تحدّق في مَشْرِق الشمس، من فوق رأس ليفين، وهي ساكنةٌ، ساهمةٌ، طافحةٌ بالحياة الداخلية الرقيقة والمعقّدة، غريبةٌ عن ليفين.

وفي اللحظة نفسها التي كانت تختفي فيها هذه الرؤيا، حدَّقتْ فيه عينان صافيتان. فعَرفتْه، وأضاءَتْ وجهها دهشةٌ فرحةٌ.

ما كان يمكن له أن يخطىء. فهاتان العينان وحيدتان في العالم، وكائنٌ واحد في العالم يمكن أن يجمع النور كله ومعنى الوجود كله. إنها هي، كيتي. وأدرك أنها آتيةٌ من محطة السكة الحديدية، وذاهبةٌ إلى أرغوشوفو. وتبدّد، في طرفة عين، كلُّ ماهزّة في تلك الليلة الساهرة، وتلاشت تلك القراراتُ التي اتخذها، وتذكّر برعبٍ مشروع زواجه بفلاحة. هناك، في تلك العربة التي تبتعد بسرعةٍ والتي مرّتْ من الجانب الآخر من الطريق، هناك يكمن الجوابُ الوحيدُ الممكنُ عن اللغز الذي عذّبه في الآونة الأخيرة.

غابت العربةُ، ولم يعدْ صوتُ النوابض واضحاً، ولا صوتُ الجلاجل. وعرف ليفين من نباح الكلاب أن العربة اجتازت القريةَ... لم يبق سوى الحقول الموحشة في الضواحي، وسوى القرية وهي أبعد منها قليلاً، وسواه هو وحيداً، غريباً عن كل شيء، ماضياً بلا رفيق على الطريق المهجورة.

ونظر إلى السماء راجياً أن يعثر فيها على الصدفة التي أُعجب بها والتي جسّدتْ له مسيرةَ أفكاره وعواطفه في هذه الليلة. لم يبق في السماء ما يشبهُ

الصدفةَ. فهناك، في تلك الأعماق النائية، جرى تحوّل خفيٌّ. لم يبق من أثر للصدقة، وامتدّ على نصف السماء بساطٌ مستوٍ من الغيوم المنفوشة التي أخذتْ تصغر شيئاً فشيئاً. كانت السماء أشد زرقةً وسطوعاً، وكان جوابها عن نظرة ليفين المتسائلة رقيقاً، لا يُدرك كنهُه. كما كان من قبل.

وقال في نفسه: «لا ، مهما تكنْ جميلةً حياةُ الكدّ البسيطة فليس بوسعي أن أعود إليها. و «هي» التي أحبّها!».

[١٣]

ما كان من أحد يشكّ، ما عدا الخلصاءَ، أن الكسي الكسندروفتش، وهو باردٌ جداً وعاقلٌ جداً في الظاهر، مُصاب بضعف يتناقض مع طبعه كله: ذلك أنه ما كان يُطيقُ أن يرى امرأةً أو طفلاً يبكيان. كان مرأى الدموع يهزّه ويعطّل ملكاته. وكان رئيس مكتبه وأمين سره يعرفان هذا الضعف فيوصيان المراجعات ألا يبكين إذا شئن ألا يُعرِّضن قضيتهن للخطر. وكانا يقولان لهن: «سيغضب ولن يصغي إليكنّ». والواقع أن الذعر الذي كان يُصيب الكسي الكسندروفتش من مرأى الدموع كان يُترجمه إلى غضب، فيصرح عادةً في مثل هذه الحالة: «ليس بوسعي أن أفعل شيئاً لكِ، أرجوك أن تخرجي!».

وعندما اعترفتْ له آنا، أثناء العودة من السباق، بالعلاقة بينها وبين فرونسكي، ثم ما لبثتْ بعد ذلك أن غطّتْ وجههَا بيديها وأجْهشتْ في البكاء، تملكه، بالرغم من الكره الذي كان يشعر به لامرأته، ذلك الاضطراب الذي تُحدثُه فيه الدموع. وإذْ كان يعلم ذلك، ويعلم أن الإفصاح عن عواطفه لا يتناسب مع الموقف، فقد جَهدَ في أن يَكظم أية بادرة خارجية. ولذلك ظل بلا حراك، دون أن ينظر إليها. ومن هنا جاءه ذلك التعبيرُ المتصلب، تصلّب الجثة الذي أذْهل آنا.

وعندما بلَغا المنزل، ساعدها على النزول من العربة، وتحامل على نفسه،

فاستأذنها بلطفه المعتاد، وقال كلماتٍ لا تُلزمه شيئاً؛ قال لها إنه سينبئها غداً بقراره.

لقد أيّدت كلماتُ امرأته أسوأ شكوكه وسبّبتْ له آلاماً مبرحة. وزاد من هذه الآلام ذلك الشعور الغريب بالشفقة الجسدية التي ابتعثها مرأى الدموع. لكنه، ما إن أصبح وحيداً في عربته حتى أحسّ، بكثير من الدهشة والفرح، إنه قد انعتق انعتاقاً كاملاً من هذه الشفقة ومن شكوك الغَيْرة وآلامها التي عذّبته في الآونة الأخيرة.

شعر شعور الإنسان الذي تُقتلع سُنه المسوّسة منذ زمن طويل. فبعد الوجع الرهيب الذي يعانيه المريض، والإحساس بأن جسماً هائلاً، أضخم من رأسه استُؤصل من فكه، يحسّ فجأة، وإنْ لم يؤمن بسعادته بعد، أنَّ ما نغص عيشه زمناً طويلاً. واستغرق اهتمامه، لم يعدْ موجوداً، وأنه يستطيع أن يعيش مرة أخرى، وأن يفكّر ويهتمَّ بشيء آخر غير سنه. هذا هو الشعور الذي خالج الكسي الكسندروفتش. كان الوجع غريباً ورهيباً لكنه اختفى الآن؛ أحسّ أنه يستطيع أن يستأنف حياته ويفكّر في شيء آخر غير امرأته.

قال في نفسه: «إنها امرأة منحلّة، بلا شرف، ولا قلب، ولا دين! لقد عرفتُ ذلك ورأيته دائماً، لكنني كنت أحاول أن أخدع نفسي» وأعتقدَ حقاً أنه رأى ذلك دائماً: تذكّر جزئيّات حياتهما الماضية التي بدت له بريئةً من قبل، لقد كشفتْ له هذه الجزئيات بوضوح الآن أنها كانت دائماً منحلّةً. وقال في نفسه: «ارتكبتُ خطأً حين ربطتُ حياتي بحياتها؛ لكنْ ليس في هذا الخطأ ما يَستوجبُ اللومَ، ولذلك، فلا يمكن أن أكون تعساً. لستُ أنا المذنب، وإنما هي المذنبة. وليس لي أن أشغلَ بالي بها، إنها لم تعد موجودةً بالنسبة إليّ.

كلُ ما يتّصل بها، وكل ما يتّصل بابنها الذي تغيّرت، في الوقت نفسه. عواطفه نحوه، كل ذلك لم يعدْ يَعْنيه. الشيء الوحيد الذي ما زال يُقلقُه هو أن يَعْثر

على أفضل طريقة، وأنسبها، وأوفقها، ومن ثَمَّ أعدل طريقة، ليغتسل من ذلك الوحل الذي لطَخْته به أثناءَ سقوطها، وأن يستأنف حياتَه النافعة، النشيطةَ، والشريفة.

قال في نفسه وقد تجهّم وجهُه:

«لا يمكنني أن أكون تعساً لأن امرأةً حقيرة أتَتْ عملاً شائناً، ينبغي فقط أن أعثر على أفضل مخرج من هذا الوضع المؤلم الذي ألجأتْني إليه. وسأجد ذلك المخرج. لستُ الأول ولستُ الأخيرَ. بصرف النظر عن الأمثلة التاريخية، بدءاً من «هيلين الحسناء» التي سار ذكرُها حديثاً على كل لسان[1]. أخذ الكسي الكسندروفتش يَسْتحضرُ في ذاكرته طائفةٌ من خير الأزواج خانتُّهم نساؤهم: «دار يالوف، بولتافسكي، الأمير كاريبانوف، الكونت باسكودين، درام... نعم، درام نفسُه... ذلك الرجل العظيم القدرة والشرف... سيمينوف، تشاغين، سيغونين... ولنفرضْ أن هؤلاء الرجال رُموا بنقيصة لا مبرّر لها تُضحك الناسَ منهم من جهتي، كنتُ أعتبر ذلك شقاءً جديراً بالعطف» هكذا كان الكسي الكسندروفتش يقول في نفسه؛ وذلك باطل، لأنه لم يشعر قط بالعطف لمصائب من هذا النوع، وكان كلما رأى المزيد من النساء يخدعْن أزواجهن تعاظم تقديرُه لنفسه. «هذه مصيبةٌ قد تصيب أياً كان. وقد أصابتْني. والمطلوب فقط أن أتحمل جهد المستطاع هذا الوضع». وأخذ يَسْتعرض مواقفَ الرجال الذين مروا بهذا الوضع...

«داريالوف قُتل في المبارزة...».

كان الكسي الكسندروفتش، في شبابه، مأخوذاً بالمبارزة، وذلك بالتحديد لأنه كان جباناً من الناحية الجسديّة، وكان يَعْلم ذلك. لم يكنْ الكسي

(١) سار ذكرها حديثاً على كل لسان: من خلال أوبريت أوفنباخ الشهيرة التي ألفها سنة ١٨٦٤. وكارينين يشبه نفسه هنا بزوج هيلين المخدوع، فينيلاس.

الكسندروفتش يستطيع أن يتصوّر. بدون رهبةٍ، مسدّساً مصوّباً إليه، وهو لم يستخدمْ سلاحاً قط طوال حياته. هذا الخوف كثيراً ما قاده إلى التفكير في المبارزة وإلى تصوَر الاحتمال الذي؛ يكرهه على التعرّض إلى الخطر. ومنذ أن نجح في حياته وضمنَ لنفسه وضعاً متيناً، نسي هذا الشعور، لكن العادة تغلّبتْ وظهر الرعبُ من جبنه، في هذا اليوم، عاتياً حتى إن الكسي الكسندروفتش استعرضَ في فكره فرضيةَ المبارزة من وجوهها كافة، وداعبها مع علمه المسبق بأن لن يقاتل أحداً في أي حال من الأحوال.

قال في نفسه: «ليس من شك في أن مجتمعنا ما يزال بربرياً (لا كما هي الحال في انكلترا)، إلى حد كبير، حتى إن كثيراً من الناس (ومن بينهم أولئك الذين يَعْتدّ برأيهم فوق كل شي) ينظرون إلى المبارزة بعين الرضا، لكنْ ما نتيجتها؟ ولنفرضْ أنني دعوته إلى المبارزة». كذلك كان يقول الكسي الكسندروفتش بينه وبين نفسه، وتصوّر الليلة التي سيَقْضيها بعد دعوته تلك، والمسدَّس مصوّباً إليه، فارتعش وأدرك أنه لن يفعل ذلك أبداً. «لنفرض أنني دعوته إلى المبارزة. وأنني تعلّمتُ التصويبَ، وأنني ضغطتُ على الزناد، وأنني قتلْتهُ». لهذا ما جال بخياله وهو مغمضٌ عينيه، فهزَّ رأسه ليطرد هذه الأفكار الغبيّة. «ما معنى أن أقْتل رجلاً لأعلم كيف سأتصرّف مع زوجتي المذنبة وابنها؟ إذْ يبقى علي أن أتخذ قراراً بشأنها. وإذا كان القتيل أو الجريح أنا، وهو أقرب إلى الاحتمال، بل إلى اليقين؟ أنا الضحية البريئة، سأُقْتَل أو أجْرَحُ! وهذا أسخفُ! وأكثر من ذلك: إن الدعوة إلى المبارزة ستكون، من جانبي، عملاً غير شريف. أفلا أعلم أن أصدقائي لن يسمحوا لي بالمبارزة؟ لن يسمحوا بأن تتعرض للخطر حياةُ رجلٍ دولة نافع لروسيا. فما العمل، إذن؟ بما أنني أعلم مسبقاً أن هذا التحدي لا مستقبل له، أفلا أبتغي به أن أزدانَ ببريقٍ كاذب لا غير؟ سيكون ذلك عملاً غير شريف، عملاً منافقاً. وسيعني ذلك أنني أخدع الآخرين وأخدع نفسي. المبارزةُ مستحيلةٌ، ولا

يتوقع ذلك مني أحدٌ. إن غايتي هي المحافظةُ على سمعتي التي هي ضروريةٌ لي لأتابع عملي دون عوائق». إن خدمة الدولة التي أقام لها وزناً كبيراً فيما مضى تتخذ الآن في عينيْ الكسي الكسندروفتش أهميةً أعظم.

بعد أن استعرضَ المبارزةَ واستبعدها، فكّر في الطلاق، وهو المخرج الآخر الذي اختاره بعضُ الأزواج الذين مرّوا بباله. وعندما استعاد الكسي الكسندروفتش في ذاكرته حالات الطلاق الشهيرة (وكانت كثيرة العدد في أرقى الفئات الاجتماعية) لم يجد حالةً منها يطابقُ فيها هدفُ الطلاق الهدفَ الذي ينتويه. ففي كل من هذه الحالات، تنازل الزوجُ عن زوجته أو باعها، والطرفُ الذي حرمتْهُ خطيئتُه حقَّ الزواج هو الذي كان يعقد زواجاً صورياً يدّعي شرعيته بزوج صوري. أما الطلاقُ الشرعي الذي يُؤدّي إلى طرد الزوجة الخائنة بلا قيد أو شرط فكان الكسي الكسندروفتش يعتقد أنه لا يستطيع اللجوءَ إليه. فشروطُ حياته المعقّدة لا تسمح له بأن يلجأ إلى تلك الأدلة الفظّة التي يطلبها القانون لإثبات ذنب المرأة؛ وذلك التهذيبُ المرهف لطبقته يمنعه من استخدام مثل هذه الأدلّة، إن كان هناك أدلّةٌ؛ وإغفالُ ذلك التهذيب يرمي به، في نظر الرأي العام، إلى أدنى مما بلغتْه زوجتُه.

إن طلبَ الطلاق لا يمكن أن يُفْضي إلا إلى دعوى فاضحة، وهي نعمةٌ على أعدائه سوف يَسْتفيدُون منها للافتراء عليه، والغضّ من مركزه بين الناس. وإذنْ فإن هدفه الرئيسي، وهو مواجهةُ الوضع بأقل اضطراب ممكن بالنسبة إليه، لن يَبْلغه بالطلاق أيضاً. وفضلا عن ذلك، فلو أنه طلّق زوجته، أو لو أنه أقام فقط دعوى الطلاق، لقطعتْ زوجتُه كلَّ علاقة به ولعاشتْ مع عشيقها. ولقد كان، بالرغم من احتقاره لزوجته، في قرارة نفسه، احتقاراً تاماً وغير مُبالٍ، يَحْتفظُ بشعور الخوف من أن تتّحد زوجتُه بفرونسكي دون عقبات، وأن تكون غلطتُه مفيدةً لها. هذه الفكرةُ وحدها كانت تُثير حفيظتَه إلى حد بعيد، فما أن يفكّر فيها حتى يُرسل دمدمةً من الألم، وينهض، ويُغيّر موضعه في العربة، وينصرف زمناً طويلاً إلى لفّ ساقيه

الناحلتين اللتين آذاهما البردُ، بغطاء ناعم رقيق، وهو مقطّب الحاجبين.

وتابع بعد أن هدأتْ نفسُه «وإذا نحيّنا الطلاقَ جانباً، أمكنني أن أفعلَ كما فعل «كاريبانوف» و «باسكودين» و «درام»: أي الانفصال. لكنّ في هذا التدبير من المساوىء ما في الطلاق، ولا سيما أنه يرمي بامرأتي بين ذراعي فرونسكي. لا إن ذلك مستحيل، مستحيل». قال ذلك بصوت مرتفع وهو يتلوّى في غطائه. «لا يمكنني أن أكون تعساً، لكنْ لا ينبغي له ولها أن يكونا سعيدين»!.

إن الشعورَ بالغيرة الذي أقضّ مضجعه في الشك قد اختفى مع الألم، عندما اقتُلعتْ سنُه، أي عندما تكلّمتْ آنا. لكن هذا الشعور أخلى مكانه لشعور آخر: كان يَبْغي أن تنال امرأتُه جزاءَ ما ارتكبتْ من جرم، لا أن تفشلَ فحسب. لم يكن يَعْترف لنفسه بهذا الشعور، لكنه كان يتمنّى من أعماق قلبه أن تتألّم بسبب الطعنة التي وجّهتها إلى استقراره وشرفه. وبعد أن استعرض محدّداً جميع جوانب المبارزة والطلاق والانفصال، وبعد أن نبذها جميعاً، اقتنع الكسي الكسندروفتش بأنه لم يبقَ سوى مخرج واحد: وهو أن يحتفظ بزوجته عنده، وأن يَسْتُرَعن الناس ما جرى، وأن يَسْتخدمَ جميع الوسائل التي في حَوْزته لإنهاء هذه العلاقة، وأن يعاقبها، على وجه الخصوص، (ولم يكن يعترف بذلك لنفسه). «ينبغي أن أُطلعَها على قراري: سأقول لها: إنني بعد أن فكرتُ في الوضع المؤلم الذي ألْجأتْ إليه أسرتَنا، فإن جميع السبل غير «الوضع الراهن» ستكون أسوأ بالنسبة إلى الطرفين، وأنا مستعدٌّ أن أتقيّد به بشرط أن تَمْتثلَ لإرادتي أي أن تَقْطع كلَّ عَلاقة بعشيقها».

ولكي يؤيد قراره هذا الذي لا سبيل إلى الرجوع عنه، عنّتْ له حجّةٌ أخرى. قال في نفسه: «بهذه الطريقة أتصرّف تصرّفاً موافقاً للدين، فأنا، بذلك، لا أرمي بالمرأة الزانية، لكني أتيح لها إمكانيةَ إصلاح نفسها، بل إني أكرّسُ، وإنْ شقّ ذلك عليّ، جزءاً من قواي لافتدائها وخلاصها».

ومع أن الكسي الكسندروفتش كان يعلم أنه لا يستطيع أن يُؤثّر في زوجته أيَّ

تأثير، وأن جميع هذه المحاولات لن تُفضي إلا إلى الكذب، ومع أنه لم يفكر مرةً واحدة، وهو يعيش هذه الدقائق المؤلمة، أن يبحث في الدين عن مُسْتند له، فقد غدا الآن، بعد أن تلاقى قراره ومقتضيات الدين، كما كان يعتقدُ على الأقل، يجد في هذا المؤيد رضاً كاملاً وسكينةً جزئية. ولقد سرّه أن يفكّر في أنه لا يمكن لأحد أن يلومه، حتى في هذا الظرف الشديد الخطورة، على أنه لم يتصرّف تصرفاً موافقاً لمبادىء الدين الذي كان قد رفع رايتَه عاليةً وسط اللامبالاة العامة. وبعد أن أطال التفكير في ذلك، انتهى إلى أن علاقاته بزوجته يمكن أن تظل كما كانت في الماضي تقريباً. لا شك أنه لا يستطيع أن يردّ إليها احترامه لها؛ لكنْ لا يوجدُ ولا يمكن أن يوجد ما يدعو إلى تفتيت حياته وإلى الألم لأن امرأته خانته.

وقال الكسي الكسندروفتش في نفسه: «نعم، مع الزمن الذي يسوّي كل شيء، ستعود علاقاتُنا كما كانت، أي على نحو لا أحسّ معه بالاضطراب في مجرى حياتي. هي التي ينبغي أن تكون تعسة؛ أما أنا فلستُ مذنباً، وإذن فلا يمكن أن أكون تعساً».

[١٤]

عندما اقترب الكسي الكسندروفتش من بطرسبرج لم يوطّنْ نفسه على هذا القرار فحسبْ بل أنه ألّفَ ذهنياً الرسالة التي سيكتبها إلى امرأته. وفي حجرة الحاجب، ألقى نظرةً عاجلة على البريد وعلى الأوراق المرسلة من الوزارة وأمر أن تُحْمَلَ إلى مكتبه. وأجاب عن سؤال الحاجب:

ــ لتُحَلَّ الجيادُ، ولا تُدخلْ أحداً.

وشدد بشيء من الرضا، وهو دليل انشراحه، على كلمة «أحداً».

ذرع الكسي الكسندروفتش مكتبَه مرتين ووقَفَ أمام طاولة ضخمة أشعلَ فيه خادمه مُسبقاً ست شمعات، وفَرْقع أصابعَه، وجلس، وقرّب منه كل ما يلزم للكتابة. وأسْند مرفقيه على مكتبه، وأمال رأسه جانبياً، وفكّر لحظة، وأخذ يكتبُ

دون أن يتوقّف. كان يكتب إلى آنا بالفرنسية مستخدماً ضمير الجمع في خطابه، وهو في الفرنسية أقل فتوراً منه في الروسية:

«أثناء حديثنا الأخير، أعربتُ لك عن نيتي في إبلاغك قراري المتعلّق بموضوع هذا الحديث. وبعد أن فكّرت ملياً في ذلك، أكتبُ إليك الآن وفاءً بذلك الوعد. إن قراري هو التالي: مهما يكنْ سلُوكك فلستُ أعترفُ لنفسي بالحق في حلّ الروابط التي جمعتْنا بها قدرةٌ عُليا. ولا يجوز أن تُدمّر العائلةُ بنَزْوةِ أحد الزوجين أو هواه أو حتى جريمته. ولا بدَّ من ذلك لي ولك ولابننا. وأنا متأكّد من أنك نادمةٌ وأنك ستساعدينني على استئصال سبب خلافنا وعلى نسيان الماضي. أما في حالة العكس، فأنت تستطيعين أن تتوقعي بنفسك ما ينتظرك أنت وابنك. وآملُ أن أعالج هذه المسألة بشيء من التفصيل أثناءَ لقائنا. وبما أن الفصل يُشرف على نهايته، فإني أرجوك أن تعودي إلى بطرسبرج، في أقرب موعد ممكن، الثلاثاء على أبعد حدّ. وسوفَ تُتّخَذُ جميعُ التدابير لانتقالك. أرجو أن تلاحظي أنني أعلّق أهميّة خاصة جداً على قبولك طلبـي.

ا. كارينين.

حاشية: في طيّه المال الذي قد تحتاجين إليه».

أعاد قراءة رسالته التي أعجبتْهُ، وسرّه، على وجه الخصوص، أنه فطن إلى إرسال المال فيها؛ ليس فيها كلمةٌ قاسيةٌ، ولا لوم، لكنْ ليس فيها تنازلٌ أيضاً. وأهم من ذلك أنه مهدّ لها سبلَ الرجوع. ثم طوى رسالته، وسوّى طيّتها بمقطع ورقٍ كبير من العاج، ودسّها في مغلّف هي والمال، ورنّ الجرسَ، وهو يحسّ بالارتياح الذي يبعثه فيه حسنُ النظام فيما يضمّه مكتبُه من أشياء، وقال للحاجب:

ــ أعط هذه الرسالة ناقلَ البريد ليسلّمها غداً إلى آنا أركادييفنا، في دارتها.

ونهضَ.

ــ بأمرك، يا صاحب السيادة. وهل ينبغي أن أقدم لك الشاي؟

أمر الكسي الكسندروفتش أن يُقدَّم له الشايَ في مكتبه، واتّجه، وهو يَعْبث

بمقطع الورق، إلى مقعده الذي وُضع قربه مصباحٌ وكتاب فرنسي بدأه عن اللوحات الايغوبينية. وفوق المقعد، عُلِّقتْ صورةٌ جميلة لآنا، في إطار بيضوي مذهب، رسمها فنّانٌ مشهور. نظر الكسي الكسندروفتش إليها. كانت العينان اللتان لا يُسْبر غورهُما تُحدّقان فيه ساخرتين، وقحتين، كما كانتا في آخر مساء من تكاشفهما. أما الوشاحُ المخرّم الذي رسمه الفنانُ بدقة عجيبة، والشعرُ الأسودُ واليد البيضاء الجميلة ببنصرها المغطّى بالخواتم، أما ذلك كله فقد بدا له نابياً ومثيراً. وبعد أن بقي الكسي الكسندروفتش نحوَ دقيقة يتأمّل هذه الصورة، ارتعش بشدة حتى إن شفتيه ارتجفتا وصدر عنهما «بررر. . .»، وأشاح بوجهه. وجلس على عجل في مقعده وفتح كتابه. كان يحاول أن يقرأ، لكنه لم يكن يستطيع أن يجد تشوّقه القديم للوحات الايغوبينيّة. كان ينظر إلى كتابه ويفكّر في شيء آخر. لم يكنْ يفكّر في امرأته، لكنْ في تعقيد طرأ، في الآونة الأخيرة، على عمله وتركّزت فيه أهميّة ذلك العمل الأساسية. أحسّ أنه نفذ نفاذاً أعمق من ذي قبل إلى لبّ هذه المسألة المعقّدة، وأن فكرةً رئيسيّةً قد تولّدت في ذهنه (بوسعه أن يقول ذلك دون توهّم) وهي كفيلة بأن تجلوَ القضيّة، وتسهّل له الصعود إلى مرتبة جديدة في وظيفته، وتخرس أعداءه، وتؤدي، من ثمّ، خدمةً عظيمةً للدولة. وما أن غادر الغرفة الخادمُ الذي حمل صينية الشاي حتى نهض الكسي الكسندروفتش ودنا من مكتبه، وسحب الحقيبة التي تحتوي على القضايا الجارية، وتناول قلماً، واستغرق في قراءة الوثائق المتصلة بذلك التعقيد الذي أخذ يحتاط له، وعلى وجهه ابتسامةٌ من الرضا لا تُكاد تُلحظ. وهذا هو التعقيد: إن مميّزات الكسي الكسندروفتش كرجل دولة، وهي مميّزات يُشاركُ فيها جميعَ الموظفين الذين نجحوا في عملهم، المميّزات التي يسّرتُ له سبلَ النجاح إضافةً إلى طموحه العنيد، وتحفّظه، ونزاهته، وثقته بنفسه، هي: احتقاره للورقيّات الرسمية، وميله إلى الإقلال من الكتابة، وطريقته في ولوج الموضوع مباشرة ما أمكنه ذلك، والتوفير. لقد كان

على لجنة ٢ حزيران الشهيرة أن تهتمَّ بريّ الأراضي المستصلحة في مقاطعة «زارايسك»[1]، وهو مشروع يقع ضمن اختصاص وزارة الكسي الكسندروفتش، ويعطي مثلاً مذهلاً لهدر النفقات وعدم جدوى الورقيّات الرسمية. بدأ المشروعُ على يد سلفِ الكسي الكسندروفتش، وكُرّس له، بالفعل، كثيرٌ من المال ذهب هدراً، وبدا أن المبادرة لن تؤدي إلى شيء. وأدرك الكسي الكسندروفتش ذلك فور تسلّمه مهامه، ونوى أن يتولّى القضية بنفسه؛ لكنه أحسّ أنه لم يثبت نفسه بعد على أسس وطيدة، والمسألة كانت تمسّ كثيراً من المصالح لو تعرّض لها لجانبَ الصوابَ. وفيما بعد، استغرقتْه مسائلُ أخرى، فنسي أرض زارايسك تماماً. وكانت القضية، ككلّ القضايا، تسير وحدها، بفضل قوّة العطالة. (كان كثير من الأشخاص يعيشون منها، ولا سيّما أسرة فاضلة جداً وموسيقية كانت البنات الأربع فيها يعزفن على آلاتٍ وتريّة. وكان الكسي الكسندروفتش يَعْرف هذه الأسرة وقام مقامَ الأب في زواج إحدى الفتاتين الكبيرتين). وكان الكسي الكسندروفتش يُقدّر أن الوزارة المنافسة التي أثارت هذه المسألة قد تصرّفتْ بلؤم، لأن كل وزارة تخفي عدداً من المسائل الشائكة التي لا يُزيح الستارَ عنها أحدٌ، على سبيل اللياقة. لكن، بما أنهم تحدّوه فقد قبل التحدّي بجرأة، وطلب تعيينَ لجنةٍ خاصة لفحص أعمال لجنة ري الأراضي المستصلحة في مقاطعة «زارايسك» ومراقبتها. ولم يُصبْ هؤلاء السادةَ شيءٌ. فطلب تشكيل لجنة استثنائية جديدة للإشراف على توطين الوافدين[2]. وأثيرت مسألةُ توطين الوافدين عَرَضاً في لجنة ٢ حزيران، وساندها الكسي الكسندروفتش مساندةً قوية، باعتبارها لا تحتمل التأخير، لأن حالة الوافدين تدعو إلى الرثاء. وأثارتْ هذه المسألةُ نزاعاتٍ بين الوزارتين. فالوزارة

(١) «مقاطعة زارايك»: هذه المقاطعة غير موجودة وليس هناك مدينة بهذا الاسم قرب موسكو.

(٢) توطين الوافدين: كانت تطلق كلمة «وافدين» على جميع الشعوب غير الروسية، وبوجه خاص على بعض شعوب سيبيريا التي كان بعضها متنقلاً.

المعادية لألكسي الكسندروفتش برهنتْ على أن وضعَ الوافدين كان مزدهراً تماماً وأن الإصلاح المقترح قد يعرّض ازدهارَهم للخطر، ومن جهة أخرى، إذا كان هناك ما يُؤْسَفُ له فذلك ناجمٌ فقط عن أن وزارة الكسي الكسندروفتش أهْملت اتخاذَ التدابير التي نصّ عليها القانون.

كان الكسي الكسندروفتش يريد الآن:

١ــ طلبَ تشكيل لجنة جديدة تُكلّف البحثَ في حالة الوافدين.

٢ــ أما إذا ثبت أن وضعَ الوافدين كان فعلاً كما تدلّ المعطيات الرسمية التي بين يدي اللجنة، فينبغي المطالبة بتعيين لجنة دراسات تبحث في أسباب وضع الوافدين المؤسف من الناحية:

(أ) السياسة.

(ب) الإدارية.

(ج) الاقتصادية.

(د) العنصرية.

(هـ) المادية.

(و) الدينية.

٣ ــ إنذار الوزارة المعادية بأن تقدّم:

(أ) إيضاحات عن التدابير التي اتخذتْها تلك الوزارةُ نفسها، في العقد الأخير، لمعالجة الأوضاع المحزنة التي آل إليها الوافدون.

(ب) إيضاحات عن كون تلك الوزارة قد تصرّفتْ تصرّفاً مناقضاً تماماً للقانون الأساسي والتنظيمي[1] «المجلد. . . الصفحة ١٨ وملاحظة الصفحة ١٩،

(١) القانون الأساسي والتنظيمي: مجموعة قوانين امبراطورية روسيا، الذي نشره سبيرانسكي عام ١٨٣٥، وهو يضم ستة عشر مجلداً. ولا يشير تولستوي إلى المجلد المناسب لاستشهاده الذي يسخر فيه من البيروقراطية. =

كما تثبت ذلك الوثيقتان رقم ١٧٠١٥ و ١٨٣٠٨ بتاريخ ٥ كانون الأول ١٨٦٣ و ٧ حزيران ١٨٦٤ ، بين غيرهما من الوثائق».

تلوّن وجهُ الكسي الكسندروفتش بحمرة قانية وهو يدوّن بإيجاز أفكاره على الورق. وبعد أن ملأ ورقة، نهض، ورنّ الجرس، وسلّم رئيسَ مكتبه مذكّرةً، وطلب بعض المعلومات. وعندما اجتاز القاعة، ألقى نظرة أخرى على الصورة، وقطّب حاجبيه، وابتسم ابتسامةً مُزدرية. وقرأ بضع صفحات عن اللوحات الايغوبينية التي عاد إليه تشوّقه القديم لها، وذهب لينام في الساعة الحادية عشرة. وإذْ استلقى في فراشه، تذكّر الحادث الذي جرى بينه وبين امرأته: فظهر له في ألوانٍ أقلّ قتامةً.

[١٥]

مع أن آنا أصرت على إنكارها بسخط عندما قال لها فرونسكي: إن وضعها حرجٌ للغاية، فقد كانت ترى أن هذه العيشة كاذبةٌ وغيرُ شريفة وتتمنّى من كل قلبها أن تبدّلها. وعند عودتها من السباق صارحتْ زوجها بكل شيء، في لحظة من لحظات الانفعال، وسُرَّتْ بما فعلت، رغم الألم الذي استشعرتْه من جرّاء ذلك. ثم قالت في نفسها، عندما غادرها زوجُها، إنها الآن سعيدة، وأن كل شيء غدا واضحاً، وأنها لن تعيش بعد الآن في الكذب. كانت على يقين من أن وضعَها قد اتّضح من مرّةٍ. قد يكون الوضعُ الجديد أسوأ، لكنه سيخلو من اللُّبْس والرياء. وفكّرت في أن الألم الذي سبّبته لنفسها وسببته لزوجَها عند إلقاء تلك الكلمات سيعوّضهُ ذلك الإيضاح. وفي المساء نفسه رأت فرونسكي، لكنها لم تحدّثه عمّا جرى بينها وبين زوجها؛ وكان ينبغي لها إطلاعه، لكي يتّضح الوضعُ.

عندما استيقظتْ في صباح اليوم التالي، انصرفت أولى أفكارها إلى الكلام الذي قالَته لزوجها، فبدا لها ذلك الكلامُ فظيعاً إلى حدّ لم تفهمْ معه كيف

استطاعت أن تُقدم على التلفّظ بكلمات بلغت هذه الغرابة والفظاظة، ولم تكن تستطيع أن تتصوّر ما الذي سينتج عنها. لكنّ هذه الكلمات قد قيلت، وقد ذهب الكسي الكسندروفتش دون أن يجيب. رأيتُ فرونسكي ولم أحدّثه عن ذلك. وفي اللحظة التي انصرف فيها، أردتُ أن أناديه وأخبره بما جرى، ثم غيّرت رأيي، إذْ كان سيستغرب أنني لم أحدّثه عن ذلك منذ الدقيقة الأولى. لمَ سكتُّ»؟ وجواباً عن هذا السؤال ألهبتْ وجهها حمرةُ الخجل. لقد أدركتْ أن ما منَعها من الكلامِ هو الخجل. وبدا لها وضعُها الذي كانت تظنه واضحاً، في مساء البارحة، بعيداً عن الوضوح اليوم، بل بدا لها ورطةً لا مخرج منها. وخافت من العار الذي لم يدرْ بخلدها حتى الآن. وكان يكفيها أن تفكّر فيما سيفعله زوجُها لتجتاحها أشْأمُ الهواجس. كانت تعتقد أن وكيلهما سيصل بين لحظة وأخرى ليطردها وأن الناس جميعاً سيعرفون خزيَها. وكانت تتساءل إلى أين تذهب إذا طُردتْ من منزلها، ولم تجد جواباً عن سؤالها.

كانت تتصوّر، عندما تفكّر في فرونسكي، أنه لا يُحبها، وأنه بدأ يضجر منها، وأنها لا تستطيع أن تفرض نفسها عليه، فامتلأتْ بالضغينة عليه. وكان يُخيّل إليها أن الكلام الذي قالته لزوجها والذي كانت تُعيده أبداً على نفسها، قد جَهرتْ به أمام الناس جميعاً، وأن الناس جميعاً سمعوه، وما كانت تجرؤ على أن تتطلّع إلي وجوه الناس الذين يعيشون معها تحت سقف واحد. ولم يكن بوسعها أن تَعْزم على استدعاء خادمتها ولا أن تنزل لملاقاة ابنها والمربيّة.

دخلت الخادمة التي جاءتْ عدة مرات تصيخ السمعَ على بابها، دون إذْن. فحدجتْها آنا بنظرة متسائله، واحمرت مرتعبةً، فاعتذرت الفتاة لدخولها: واحتجت بأنها سمعتْ الجرس. وكانت تحمل ثوباً وبطاقةً. كانت البطاقة من بيتسي. وكانت بيتسي تُذكِّر «آنّا» بأن «ليز مير كالوف» والبارونة «ستولتز» ستأتيان، في هذا الصباح، مع عشيقيْهما المتيمّيْن «كالوجسكي» و «ستيموف» العجوز ليلعبوا لعبةً

بالكرات الخشبية. «تعاليّ لحظةً على الأقل، ولو لدراسة أخلاق الناس. أنتظرك». قرأت آنا البطاقة وتنفّست الصعداء. وقالت لآنوشكا[1] التي أخذت تغير موضع القوارير والفراشي على طاولة الزينة.

ــ لست بحاجة إلى شيء. اذهبي، سوف أرتدي ثيابي على الفور، وآتي. لست بحاجة إلى شيء.

وبعد أن خرجت آنوشكا، لم تبادر آنا إلى ارتداء ملابسها، وظلّت جالسة في وضعها ذاته، مطرقة الرأس، متدليّة الذراعين. مرتعشةً، في بعض الأحيان، بكل جسدها؛ كانت تتمنى أن تقوم بحركة، وأن تقول كلمة، لكنها كانت تعود إلى خمولها. وكانت تردد أبداً: «يا إلهي! يا إلهي!» لكن هاتين الكلمتين لم تكونا تحملان أي معنى. وفكرةُ البحث عن عَوْنٍ في الدين كانت غريبةً عنها كالبحث عن العَوْن عند الكسي الكسندروفتش، مع أنها لم تشك قط في الدين الذي تَرَبَّتْ في أحضانه. كانت تعلم مسبقاً أنها لن تحصل على معونة الدين إلا إذا تخلّتْ عن علّة وجودها. لم تكنْ مرهقةً فحسب، لكنها أخذتْ تحسّ بالذعر أمام هذه الحالة النفسية التي لم تعرفها من قبل. أحسّتْ أن كل شيء في أعماق كيانها بدأ يتضاعف، كما تتضاعف أحياناً الأشياءُ أمام العيون المتعبة. وفي بعض الأحيان، لم تكن تعلم ما الذي تخافه وما الذي تبغيه. أكانت تخشى أو تبغي ما كان وما سيكون، وما الذي تبغيه بالضبط؟ لقد كانتْ في حَيْرة من أمرها.

قالت وهي تُحسّ بألم مفاجىء في كل من جانبي رأسها.

ــ آه! ماذا أنا فاعلة؟

وتمالكت نفسها ولاحظت أنها كانت تُمسك بملء قبضتيها شعر صدغيها. فنهضتْ بغتة وأخذت تذرعُ الغرفة.

---

(١) أنوشكا: خادمة آنا كارنيين، وهي تدعوها باسم التحبب.

قالت آنوشكا التي دخلتْ للمرة الثانية ووجدتْ آنا في الحالة نفسها:

ـ القهوة جاهزة، والآنسة وسيربوجا ينتظرانك. قالت آنا التي انتعشتْ بغتةً حين تذكّرتْ وجود ابنها:

ـ سيريوجا؟ ماذا يفعل؟

أجابت آنوشكا وهي تبتسم:

ـ أظنّه ارتكبَ حماقة.

ـ لماذا؟

ـ أكل سرّاً إحدى الدراقات في الصالة الصغرى.

وانتشلتْها ذكرى ابنها من الوضع المعقَّد الذي تتخبَّط فيه. وتذكَّرتْ الدورَ الذي اضطلعت به في هذه السنوات الأخيرة، دورَ أمٍ تعيش لابنها، وهو دور صادق جزئياً ومبالَغٌ به قليلاً، وأحسَّتْ بفرح لأنه قد بقي لها، في هذا الوضع الذي تعيش فيه، مجالٌ لن تبلغه علاقاتُها مع زوجها ومع فرونسكي: هو ابنُها. ومهما يكن الوضعُ الذي ستُدفعَ إليه فإنها لن تتخلَّى عن ابنها. فقد يفضحُها زوجُها ويطردها، وقد تفترُ عاطفةُ فرونسكي إزاءها ويستأنف حياتَه المستقلَّة (وفكرت فيه مجدداً بحنق)، لكنها لا يمكن أن تتخلَّى عن ابنها. لقد بقي لها هدفٌ واحد. وعليها أن تعمل، أن تعمل لإنقاذ موقعها من ابنها. ينبغي ألاّ يُنْتَزع منها. ينبغي أن تسافرَ مصطحبةً ابنها. كانت بحاجة إلى الهدوء وإلى الخروج من هذه الحيرة المعذَّبة. وقد وفَّرتْ لها هذا الهدوء فكرةُ العمل المباشر المرتبط بولدها، فكرةُ السفر المباشر.

ارتدت ثيابها على عجل، ونزلت، ودخلت غرفة الطعام حيث كان سيرج ومربِّيته ينتظرانها، كعادتهما، لتناول القهوة. كان سيرج بثيابه البيضاء واقفاً أمام منضدة تحت المرآة، حانيَ الرأس والظهر، وعلى وجهه ذلك التعبيرُ المتوتِّر الذي تعرفه فيه والذي يجعله شبيهاً بأبيه، وهو يرتِّب أزهاراً حملها معه.

بدت على المربية أماراتُ القسوة الشديدة. وأرسل سيريوجا صرخةً حادة، كما يفعل غالباً:

ــ آه! ماما!

ثم توقّف، حائراً: هل ينبغي أن يركض ليسلّم على أمه ويترك أزهاره أو يُنهي إكليلَه ويقدّمه لها.

بعد أن حيّتْ المربيّةُ آنا، اندفعت تقصُّ عليها قصة طويلة ومفصّلة عن السيّئة التي ارتكبها سيريوجا، لكن آنا لم تُصغ إليها، وتساءلت إن كانت ستأخذها معه. وقررت: «لا، سأذهب وحدي، مع ابني».

قالت آنا، وهي تمسك ابنها من كتفه، وتُلقي عليه نظرةً وجلةً، خالية من القسوة، حيّرتْ الطفل وشدّت من عزيمته:

ــ نعم، هذا سيّءٌ جداً.

ثمّ قبلّته.

وقالت للخادمة المدهوشة، دون أن تُرخي يد ابنها:

ــ دعينا.

وجلست على الطاولة التي وُضعت عليها القهوةُ.

قال الطفلُ وهو يجهد في استشفاف المصير الذي ينتظره من أمارات وجهها:

ــ ماما، أنا... أنا... لا...

قالت له، بعد أن غادرت المربيةُ الغرفة:

ــ سيريوجا، ليس هذا حسناً، لكنك لن تُعيدها؟... أنت تجنّي؟...

أحسّتْ أن الدموع تطفر إلى عينيها. وقالت في نفسها، وهي تسبْر نظرته المرتعبة والمسحورة في آن واحد: «أيمكنني ألاَّ أُحبُّه؟ لن يقف مع أبيه لمعاقبتي! سيرأفُ بـي!».

انسابت الدموعُ على وجهها؛ ولكي تخفيها نهضت فجأة ومضت إلى الشرفة راكضةً.

كان الطقسُ صافياً وبارداً، منذ أمطار العاصفة في الأيام الأخيرة. كان الهواء بارداً بالرغم من الشمس المتوهّجة التي كانت تتسلّل عبر الأغصان المغسولة.

ارتعشت من البرد والخوف: لقد استولت عليها مخاوفُها بقوة جديدة، في الهواء الطلق.

قالت لسيريوجا الذي أراد أن يتبعها:

ـ اذهبْ، اذهبْ، والحقْ بمارييت.

وأخذت تتمشى على الشرفة وهي تناجي نفسها: «أمِنَ الممكن ألاَّ يغفروا لي، ألاَّ يفهموا أن الأمور لا يمكن أن تكون على غير ما كانت عليه؟».

وتوقّفت لتلقي نظرة عجلى على رؤوس الحور التي أخذ الهواء يهزّها، والتي كانت أوراقها المغسولة تلمع تحت أشعة الشمس، وأدركت أنه لن يَغْفر لها، وأن الناس جميعاً سيكونون بلا شفقة الآن، مثل تلك السماء، وهذه الخضرة. وأحسّتْ مرة أخرى أن كل شيء في أعماقها بدأ يتضاعف. وقالت في نفسها: «يجب ألاَّ أفكّر، يجب ألاَّ أفكر. سوف أُعدُّ عدّة السفر. إلى أين أذهب؟ ومتى؟ ومَنْ آخذ؟ نعم، إلى موسكو، في قطار المساء. آنوشكا وسيريوجا والأشياء الضرورية. لكن، قبل ذلك، يجب أن أكتب إليهما. وعادت بخطوات حثيثة، ودخلت مكتبها، وجلست أمام الطاولة وكتبت إلى زوجها:

«لا أستطيع، بعد الذي جرى، أن أمكثَ في بيتكَ. وأنا راحلة ومصطحبة ابني. إني أجهل القوانين، ولا أعلم مع أيّ منا يجب أن يبقى، لكنني سآخذُه لأني لا أستطيع أن أعيش بدونه. كنْ كريماً، واتركْه لي».

لقد كتبتْ حتى هذه اللحظة بسرعة وبلا جهد، لكن الدعوة إلى الكرم الذي كانت تأباه على زوجها، وضرورة إنهاء الرسالة بعبارةٍ مؤثّرة أوْقفتاها.

ـــ لا أستطيع أن أتحدث عن خطيئتي وتوبتي لأن. . .

توقّفتْ مرة أخرى، ولم تَهْتد إلى سلكِ أفكارها. وقالت في نفسها: «لا، لا جدوى من ذلك»؛ ومزّقتْ رسالتها وبدأت رسالةً جديدةً، دون أن تتطرّق هذه المرة إلى ذكر الكرم، وألصقتْها.

كان يجب أن تكتب رسالةً أخرى إلى فرونسكي. وكتبتْ «لقد اعترفتُ لزوجي. . .» لكنها لبثتْ مدةً دون أن تَقْوى على المتابعة. كان ذلك شيئاً شديدَ الفظاظة، قليل الأنوثة. وقالت في نفسها: «ثمَّ، ماذا يمكن أن أكتب إليه». ومن جديد، طغتْ حمرةُ الخجل على وجهها؛ واستبدَّ بها شعورٌ بالحقد دفعها إلى تمزيق الصفحة التي بدأتْها إلى قطع صغيرة. وفكّرت في نفسها: «كل ذلك، لا جدوى منه» فأغلقت نشّافها، وصعدتْ إلى الطابق الأول وأنبأتْ المربية والخادمات أنها ستسافر في هذا المساء إلى موسكو؛ وبدأت من فورها تهيئة متاعها.

[١٦]

كانت الحاجبة والبستانيون والخدم يروحون ويجيئون في غرف الدارة جميعاً وهم يحملون الأمتعة. كانت الخزائن والأصونة مفتوحة؛ وذهب الخدمُ مرتين لشراء الخيوط؛ وتبعثرت الجرائدُ على الأرض. وقد نُقل إلى غرفة الانتظار صندوقان وحقيبتان وأغطية محزومةٌ.

وكانت العرباتُ الثلاث تنتظر أمام مدخل الدرج. كانت آنا التي نسيتْ همومها أثناء الاستعدادات تملأ حقيبة السفر الصغيرة، وهي واقفةٌ أمام طاولة مكتبها، عندما لَفتتْ آنوشكا انتباهها إلى ضجيج عربةٍ تقترب. ألقت آنا نظرة من النافذة ولمحت حاجب الكسي الكسندروفتش يدق عند باب المدخل. قالت:

ـــ اذهبْ وانظرْ ما هذا.

ـ وجلستْ بهدوء في مقعدها، وهي مستعدّةٌ لكل شيء، وقد ضمّتْ يديها على ركبتيها. فحمل إليها الخادمُ رزمةً كبيرة الحجم كُتب عنوانها بخط الكسي الكسندروفتش. وقال:

ـ الحاجبُ ينتظر الجواب.

قالت:

ـ طيّب.

وما أن خرج حتى فضّت الرسالة بأصابعها المرتجفة. فقفزت منها رزمة من الأوراق النقدية الجديدة في لفافتها. وفتحت الرسالة وأخذت تقرأ من النهاية: «اتخذتُ جميعَ التدابير لانتقالك. وأنا أعلق أهمية خاصة على قبولك طلبـي». قرأت ذلك وعادت إلى الوراء، وقرأت كل شيء، وقرأت الرسالةَ من بدايتها. وعندما انتهت أحسّت أنها بَرَدَتْ وأن مصيبة أفظع مما توقعتْ تنهال عليها.

لقد ندمت، في هذا الصباح، لأنها صارحتْ زوجها بالحقيقة، وتمنّت لو أن ذلك الكلام لم يُقلْ. وهذه الرسالة تعتبره كأنه لم يُقَلْ وتحقّقُ لها رغبتها. لكن هذه السطور بدتْ لها الآن أفظع من كل ما تصورته.

قالت في نفسها: «الحق معه! الحقُّ معه! طبعاً، الحقُّ معه دائماً، فهو مسيحيّ، شهمٌ! إنه رجلٌ حقيرٌ وكريه. وهذا لا يعرفه ولن يعرفه أحدٌ سواي، وليس بوسعي أن أقول شيئاً، يقولون: إنه رجل ذكي، تقيٌّ، فاضل، شريف؛ لكنهم لا يرون ما رأيتُ. إنهم لا يعملون أنه اضطهدني خلال ثماني سنوات، وأنه خنَقَ كلَّ ما كان حيّاً فيَّ، وأنه لم يخطر بباله أنني امرأة حيّةٌ، وأنني كنتُ بحاجة إلى الحب. إنهم لا يعلمون أنه كان يُهينني عند كل خطوة وأنه كان مسروراً بذلك. ألم أبذل وسعي لأبرّر سلوكه؟ ألم أبذل قصاراي لكي أحبّه، لكي أحبّ ابني عندما لم يعد ممكناً أن أحبّ زوجي؟ لكن الوقت قد حان لكي أفهم أنني لا يمكن أن أغشّ نفسي بعد الآن، وأن كوني حيّة لا يشكّل جرماً، وأن الله هو الذي خلقني

هكذا، وأنني بحاجة إلى الحياة والحب. والآن؟ لو أنه قتلني، لو أنه قتله، لتحملتُ كل شيء، لغفرتُ له، لكن لا، فهو. . .

«كيف لم أتوقع ما سيفعلُه؟ لا يمكن أن يفعل إلاَّ ما يتّفق وطبعَه الدنيءَ. له الحقّ في ذلك، أما أنا المرأة الساقطة، فهو يجزّني إلى أدنى مما وصلتُ إليه. . . »
وتذكّرتْ ما كتبه: «تستطيعين أن تتوقعي بنفسك ما ينتظرك أنت وابنك». «إنه يهدّدني بتجريدي من ابني. ولا شك أن هذا ممكن مع قوانينهم السخيفة. لكني أدرك جيداً لماذا يقول لي ذلك. إنه لا يعتقد بحبي لابني، أو أنه يحتقر هذا الشعور (لقد سخر منه دائماً)؛ لكنه يعلم أنني لا أتنازل عن ابني، لا أستطيعُ التنازلَ عنه، ولا يمكن أن تكون لي حياةٌ بدونه، حتى مع الذي أحبّه، وأنني إنْ تركتُه، وهربتُ بعيداً عنه، تصرفتُ كأحقر النساء وأسلفهن؛ إنه يعلم ذلك ويعلم أنني لن أقوى على مثل هذا التصرّف.

وعادتْ إلى ذاكرتها هذه الجملةُ الأخرى من الرسالة: «يجب أن تعود حياتُنا إلى ما كانت عليه في الماضي». لكن هذه الحياة كانت عذاباً، وغدت، في الآونة الأخيرة، فظيعةً. فكيف ستكون الآن؟

إنه يعلم ذلك، يعلم أنني لا أستطيع أن أندم على التنفّس، على الحب؛ ويعلم أن ذلك ما هو إلاَّ كذبٌ ونفاقٌ؛ لكنه يريد أن يستمرّ في تعذيبي. أنا أعرفه؛ أعرف أنه يسبح في الكذب كما يسبح السمك في الماء، وهو يلتذّ بذلك. حسناً! لا، لن أحقّق هذه المتعةَ، وسأمزّق نسيجَ الأكاذيب الذي يريد أن يلفّني به. وَلِيَحدُثْ ما يحدثُ. كل شيء إلاَّ الخداع».

«لكن كيف؟ يا إلـهي! يا إلـهي! أوُجِدتْ امرأةٌ أتعس مني؟. . . » وهتفتْ وهي تنهض فجأة وتحبس دموعها:

ــ نعم، سأفسخ الزواج، سأفسح الزواج!

وذنتْ من مكتبها لتكتب رسالةً ثانيةً إلى زوجها. لكنها كانت تحسّ في

أعماق قلبها أنها لن تملك القوة على الفسخ، لن تملك القوةَ على الخروج من وضعها، مهما يكن هذا الوضعُ كاذباً ودنيئاً.

جلست أمام مكتبها، لكنها بدلاً من أن تكتب أَسْندتْ رأسها إلى ذراعيها المتصالبتين. وأجهشتْ في البكاء، وكان نحيبُها يهزّ صدرها. كانت تبكي حلمها المتلاشي إلى الأبد، حلمها بوضع واضحٍ، وتعلم مسبقاً أن كل شيء سيبقى كما كان في الماضي، بل سيكون أسوأَ من الماضي، وتحسّ أنها تحرص على وضعها بين الناس، وهو وضع كانت، قبل دقيقة، تضرب به عرض الحائط، وأنها لن تملك القوة على أن تَسْتبدل به ذلك الوضع المخجل لامرأة تهجر زوجَها وابنَها لتلحق بعشيقها؛ وأنها مهما تبذلْ من جهد فلن تكون أقوى من ذاتها. لن تعرف أبداً الحبّ في الحرية؛ ستبقى أبداً المرأةَ المذنبة، المهدّدة في كل لحظة بأن يقنعها زوجها الذي تخونه أنها تقيم علاقات مع غريب، مع رجل مستقلّ لا تستطيع أن تقاسمه حياته. كانت تعلم أن الأمور ستكون هكذا، وفي الوقت نفسه كان ذلك فظيعاً إلى حد لم تكن تتصوّر معه كيف سينتهي ذلك كله. وأخذتْ تبكي مطلقةً لنفسها العنان كما يبكي الأطفال المعاقَبون.

وتمالكت نفسها وهي تسمعُ خطوات الخادم، وسترت عنه وجهَها، متظاهرةً بالكتابة.

قال الرجل لها:

ـ ما يزال ناقلُ الرسالة ينتظر الجواب.

ـ الجواب؟ آه! نعم، فَلْينتظرْ. سوف أدعوك.

وتساءلتْ في نفسها: «ماذا بوسعي أن أكتب؟ ماذا بوسعي أن أقرّر وحدي؟ ماذا أحب؟». وأحسّتْ مرةً أخرى أن كل شيء أخذ يتضاعف في نفسها. وتملّكها الرعبُ كما أصابها قبل قليل، وتعلّقت بأول ذريعة تَعْرُض لها، من النشاط الذي يمكن أن يَصْرفها عن التفكير في ذاتها. «يجب أن أرى الكسي (هكذا كانت تسمّى

فرونسكي عندما تفكّر فيه)، هو وحده يستطيع أن يقول لي ما ينبغي أن أفعله. سأذهب إلى منزل «بيتسي»، فربما لقيته هناك». قالت ذلك في نفسها، ونسيتْ تماماً أنه أجابها البارحة بالذات، عندما قالت له إنها لن تذهب إلى منزل الأميرة تفيرسكوي، أنه لن يذهب هو أيضاً في هذه الحالة. وعادت إلى مكتبها وكتبتْ إلى زوجها:

« تلقّيتُ رسالتك. « آ » ».

ثم دعت الخادم وسلّمته رسالتها. وقالت لآنوشكا التي دخلتْ:

ــ لن نسافر.

ــ أبداً؟

ــ لا؛ لا تحلّي الأمتعة حتى غدٍ ولا تُرجعي العربة. سأذهب إلى منزل الأميرة.

ــ أيَّ أثوابك أُعدّه لك؟

[١٧]

إن الجماعة التي كانت تأتي للعبة الكرات الخشبية، وهي اللعبة التي دعتْ الأميرة تفيرسكوي آنا إليها، تتألف من سيدتين وعشيقيهما.

وكانت هاتان السيدتان من أبرز الشخصيات في نادٍ مُختار جديد، سُمّي تقليداً لتقليد: «عجائب الدنيا السبع».

ومع أن هذا النادي لا ترتادُه إلاَّ الطبقةُ العليا، إلاَّ أنه كان معادياً للنادي الذي ترتاده آنا. وأكثر من ذلك أن العجوز ستريموف، وهو من أعظم الناس نفوذاً في بطرسبرج، ومتيّم بليزمير كالوف، كان عدو الكسي الكسندروفتش، لهذه الأسباب كانت آنا تأنفُ من الذهاب إليه، والملاحظة التي ذكرتْها الأميرة تفيرسكوي في البطاقة لها علاقة برفضٍ سابق. لكنّ آنا، الآن، أملاً منها بلقاء فرونسكي، اشتهت الذهابَ إلى هناك.

وصلت إلى منزل الأميرة تفيرسكوي قبل غيرها من المدعوين. وبينما كانت تدخل، كان خادم فرونسكي الذي يشبه، بسالفيه الممشوطين جيداً أَحدَ النبلاء، على وشك اجتياز العتبة. فوقف ليسمح لها بالمرور ورفع قبعته. عرفتْه آنا وتذكرت حينئذٍ أن فرونسكي قال لها البارحة إنه لن يأتي. فلا شك أنه أرسل بطاقةً يعتذر.

تمنّتْ أن تسأله أين سيّده، تمنّت أن تعود أدراجها وأن ترسل إليه رسالةً تدعوه فيها إلى زيارتها، أو أن تذهب هي نفسها إلى لقائه. لكنها لم تكن تستطيع أن تفعل شيئاً من ذلك كله: فقد رنّت الأجراس التي تعلن قدومَها، وكان خادمُ الأميرة الذي استدار نحو الباب المفتوح، ينتظر دخولها.

قال الخادم الثاني في الحجرة الثانية:

ـ الأميرة في الحديقة، يا سيدتي، وسوف نخطرها، في الحال، إلاَّ إذا شئتِ أن تلحقي بها.

أحسّت بالحيرة والتردّد كما أحست بهما في بيتها؛ بل إن ذلك كان أسوأ لأنها لا تستطيع هنا أن تقوم بشيء: لن ترى فرونسكي ويجب عليها أن تظل هنا، في هذه الجماعة الغريبة البعيدة عنها بحالتها النفسية؛ لكنها كانت في أحسن هندام، وكانت تعلم ذلك؛ وكانت محاطة بهذا الجو الاحتفالي من البطالة الذي ألفتْه وأحسّت بإرتياح أكبر مما في بيتها؛ ولم تكن مُضْطرة إلى التفكير فيما ستفعله. كان كل شيء يجري من ذاته.

عندما رأتْ آنا الأميرةَ بيتسي مقبلةً للقائها، في ثوب أبيض أدهشها بأناقته، ابتسمتْ لها كأن شيئاً لم يكن. وكان، بصحبة الأميرة، «توشكيفتش» وابنةُ عم لها من المقاطعة، كانت تقضي الصيف عند الأميرة الشهيرة، وقد طار أهلها فرحاً بذلك.

لا شك أن هيئة آنا كانت غريبة، لأن بيتسي لاحظت ذلك رأساً.

أجابت آنا، وهي تلقي نظرة على الخادم الذي جاء، في تقديرها، يحمل بطاقةً من فرونسكي:

ــ نمتُ نوماً سيئاً.

قالت لها بيتسي:

ــ ما أعظم سروري بمجيئك. أنا مُتعبةٌ جداً، وكنتُ أشتهي أن أتناول فنجاناً من الشاي قبل أن يصلوا.

والتفتْ إلى توشكيفتش وقالت:

ــ وأنت، يجب أن تذهب مع ماشا لتجرّب أرض اللعب، حيث جُزّ عشبُ المرجة.

وقالت وهي تشد على اليد التي تمسك بها آنا مظلتها:

ــ سنجد الوقت الكافي للحديث بهدوء ونحن نتناول الشاي؛ سيكون الحديث قلبياً[1]، أليس كذلك؟

قالت آنا التي غدا عندها الكذبُ، وهو مخالف لطبيعتها، بسيطاً وطبيعياً، بل ومحبّباً:

ــ بكل سرور، ولا سيّما أنني لا أستطيع أن أبقى طويلاً. ويجب أن أمر حتماً على العجوز «فريد». فمنذ دهرٍ وأنا أعدها بالمجيء.

لماذا قالت آنّا ذلك، مع أنها لم تكن تفكّر فيه قبل ثوان؟ قالت ذلك لأن فرونسكي لم يأتِ وكان لا بدَّ لها من أن تؤمن لنفسها الحريّة لتحاول أن تراه بشكل أو بآخر. لكنْ لماذا ذكرت وصيفة الشرف هذه بالذات، في حين أن هناك كثيراً من الأشخاص الآخرين الذين تستطيع أن تزورهم؟ لم تستطيع أن تجد تعليلاً لذلك. ثم تبيّن لها فيما بعد أنها لو فتّشتْ عن أبرع وسيلة للقاء فرونسكي لما عثرت على خير منها.

---

(١) سيكون الحديث قلبياً: هذه الجملة تقولها بالإنكليزية.

أجابت بيتسي وهي تنظر إلى آنا بتمعّن:

ـ لا، لن أدعكِ تذهبين. في الحقيقة، لو لم أكن أحبك لاغتظت. وكأنك تخشين أن تتلوّث سمعتُك بصحبتي.

وقالت وهي تغمض عينيها نصف إغماضة، كما تفعل دائماً عندما تخاطب الخدم:

ـ هيّئوا الشايَ، أرجوكم، في الصالة الصغرى.

وأخذت الرسالة وقرأتْ، وقالت بالفرنسية:

ـ الكسي لم يف بوعده. وهو يكتب ليقول إنه لا يستطيع المجيء.

قالت ذلك بلهجة جدّ بسيطة وجدّ طبيعية كأنه لم يخطرْ ببالها أن فرونسكي يمكن أن يكون شيئاً آخر غير شريكٍ في لعبة الكرات الخشبية. كانت آنا واثقةً من أن بيتسي تعلم كل شيء، ومع ذلك فعندما كانت تسمعها تتحدّث أمامها عن فرونسكي، كانت آنا تتساءل لمدة لحظة إنْ كانتْ بيتسي مطلعةً حقاً على ما بينهما.

قالت آنا بعدم اكتراث، كأن ذلك لا يَعْنيها كثيراً، والبسمةُ لا تفارقُها:

ـ آه! وكيف يمكن أن تتلوّث سمعةُ أحد بصحبتك؟

إن هذه الطريقة، طريقة التلاعب بالكلمات لكتمان السرّ كانت تخلب لبّ آنا كما تخلب ألباب النساء جميعاً. ولم تكن الحاجة إلى الكتمان أو الغاية المنشودة ما يعجب آنا، بل الأسلوب ذاته.

قالت:

ـ لا أستطيع أن أكون كاثوليكية أكثر من البابا. فستريموف وليزا ميركالوف، من صفوة المجتمع. ثم إن جميع الأماكن مفتوحة لاستقبالهم، أما «أنا» (وشدّدتْ على الضمير «أنا») فلم أكن قط قاسيةً أو متشدّدة.

ـ صحيح، لكنْ لعلك لا ترغبين في لقاء ستريموف؟ وإذا كان على نزاع مع الكسي الكسندروفتش في قلب الجمعية فذلك لا يَعْنينا. أما بين الناس، فهو ألطفُ

رجل رأيته، وهو لاعب مشغوف بلعبة الكرات الخشبية. وسترينْ ذلك. وبالرغم مما في وضعه كعجوز متيّم بليزا من مُضحكات، فليتك تريْن كيف يتخلّص من هذا الموقف. إنه رائع! ألا تعرفين «سافو ستولز»؟ إنها أحدث طراز! بينما كانت بيتسي تقول ذلك، رأت آنا من نظرتها الذكية والمتوقّدة، أنها قد تنبأت بوضعها وأنها تبحث عن حلّ. كانتا في الصالة الصغرى.

قالت بيتسي:

ــ لكن يجب أن أجيب الكسي.

وجلست إلى الطاولة وكتبتْ كلمةً ووضعتها في مغلف، وقالت لها بعد أن بلغت الباب:

ــ كتبتُ إليه أدعوه إلى العشاء. عندي امرأةٌ بلا مرافق. انظري إليها: هل هي مُقنعة؟ أعذريني، سأتركك دقيقة. وألصقي، من فضلك، الرسالة وأرسليها. فسأصدُر بعض الأوامر.

جلست آنا أمام الطاولة، وأضافت إليها دون أن تقرأ البطاقة، ودون أن تفكّر: «أنا بحاجة ماسة إلى لقائك. تعال إلى حديقة «فريد». سأكون هناك في الساعة السادسة». وألصقت الرسالة، وسلمتها إلى أحد الخدم، أمام بيتسي التي عادت.

وبالفعل، فقد جرى بين المرأتين «الحديثُ القلبي» الذي وعدتُ به الأميرةُ تفيرسكوي، بينما كانتا تتناولان الشاي الذي قُدِّم على منضدة صغيرة، في الصالة الصغرى الباردة تحدّثتا عن الأشخاص المنتظرين وتركّز الحديثُ على ليز ميركالوف.

قالت آنا:

ــ إنها رائعة، وقد أحببتها دائماً.

ــ ليس بوسعك إلا أن تحبّيها. وهي تعبدك. جاءت أمس لتلقاني بعد

السباق واغتمَتْ لأنها لم تركِ. قالت: إنك بطلةٌ حقيقية من أبطال الروايات، وأنها لو كانت رجلاً لارتكبت آلاف الحماقات من أجلك. فقال لها ستريموف: أنها ارتكبت منها حتى الآن ما يكفي.

قالت آنا، بعد أن سكتتْ لحظةً، بلهجةٍ تدل بوضوح على أنها لا تطرح سؤالها جزافاً. وإنما هي تسأل سؤالاً له من الأهمية أكثر مما يُظَنّ:

ـ لكنْ قولي لي، أرجوك، قولي لي، ما العلاقات التي بينها وبين الأمير كالوجسكي، أو «ميشكا» كما يدعونه؟ فلم أتمكنْ من فهمها. ولم أصادفهما إلا نادراً. ما الذي بينهما؟

ابتسمت بيتسي بعينيها وأمعنت النظر في آنا، وقالت:

ـ هذا هو الطراز الجديد. وقد تبنّته جميعُ هؤلاء السيدات. كلّهن رَمَيْن بالآداب العامة عرضَ الفضاء لكنّ لكل منهن طريقتُها.

ـ لكن ما علاقاتُها بكالوجسكي؟

أغربتْ بيتسي في ضحك لا سبيل إلى ردّه، وقلّما كان يقع لها ذلك:

ـ إنك تَحْذين حَذْوَ الأميرة مياغكوي! هذا سؤالٌ صبياني!

ولم تستطعْ بيتسي، بالرغم من جهودها، أن تتمالك نفسها، وأغربتْ في ذلك الضحك الصاخب المُعْدي الذي يصيب الأشخاص الذين قلّما يضحكون. وقالت ودموعُها تسيل من الضحك.

ـ يجب أن تسأليهما عن ذلك.

قالت آنا، وقد أعْداها مرحُ بيتسي بالرغم منها:

ـ لا، أنتِ تضحكين، لكني لم أتمكنْ من الفهم. ما الدور الذي يلعبُه الزوجُ هنا؟

ـ الزوج؟ إن زوج «ليز ميركالوف» يحمل له معطفه ويقف استعداداً لخدمته. أما لبَّ المسألة فلا يجب أحدٌ أن يعرفه تعلمين أن الحديث، في المجتمع

الراقي، قلما يتطرّق إلى بعض تفاصيل زينة المرأة. بل إن الناس لا يفكرون فيها. فكذلك الأمر بالنسبة إلى تلك المسائل.

وسألتها آنا لتغيير الحديث:

ـ هل تنوين الذهاب إلى عيد آل رولانداكي[1]:

أجابت بيتسي:

ـ لا أظن ذلك.

وصبّتْ الشايَ المعطّر في فناجين شفّافة، دون أن تنظر إلى آنا. وبعد أن مدّتْ الفنجان لآنا، تناولت سيجارة من ورق الذرة الصفراء، وأدخلتها في فم سيجارة فضيّ وأشعلتها. واستأنفتْ كلامها، دون أن تضحك هذه المرة، وفنجانها في يدها:

ـ أنا، كما ترين، في وضع ممتاز، وأنا أفهمُك وأفهم ليز. وليز من هذه الطبائع البريئة التي لا تُدركُ، كالأطفال، ما هو خيرٌ وما هو شر. على الأقل، لم تكن تدرك ذلك عندما كانت فتيّةً. أما الآن فقد أصبحت ترى أن هذه السذاجة تلائمها جداً. وإنها تتعمّد الآن ألا تفهم.

قالت ذلك بابتسامة ناعمة. وأضافت:

ـ ومهما يكنْ من أمر، فإن ذلك يلائمها جداً. تعلمين، يُمكننا أن ننظر إلى وضعنا نظرةً مأساوية ونُعذبِّ أنفسنا من جراء ذلك، ويمكننا أيضاً أن ننظر إليه ببساطة بل وبفرح. ولعلك أنت تميلين إلى تلك النظرة المأساوية وتبالغين فيها.

قالت آنا بجد وبلهجة ساهمة:

ـ كم أودّ لو أعرف الآخرين كما أعرف نفسي. أأنا أسوأ أم أفضل من الآخرين؟ أظنَ أنني أسوأ.

فرددت بيتسي:

---

(١) رولانداكي: تاجر كبير من أصل يوناني.

ـ يالكِ من ولد رهيب، يالك من ولد رهيب. لكنْ ها هم قد جاؤوا.

[١٨]

سُمعَ وقعُ خطوات، وصوتُ رجلٍ، ثم صوتُ امرأة، وقهقهة، وما لبث أن دخل، بعد ذلك، الضيوفُ المُنتظَرون: سافو ستولتز، وشابٌ يتألّق صحةً ويدعونه فاسكا. وكان واضحاً أن الكمأ واللحوم الطرية ونبيذ «بورغوني» قد لاءمت صحته. انحنى فاسكا أمام السيدتين، ورماهما بنظرة سريعة، لكن ذلك لم يدمْ أكثر من ثانية. لقد دخل قاعة الاستقبال وراء سافو وتبعها كأنه معلّق بها، وكان لا يني يحدّق فيها بعينيه الملتمعتين؛ فكأنه يريد أن يفترسها. كانت «سافو ستولتز» شقراء ذات عينين سوداوين. ولقد دخلت بثقة، وهي تخطو خطوات قصيرة في خفها العالي الكعب، وشدّت على يديْ السيدتين بقوة رجولية.

لم تكن آنا قد التقت هذه الشخصية الشهيرة الجديدة من قبل، فراعّها جمالُها وأدهشتْها غرابة زينتها وجسارة تصرفاتها. فعلى رأسها انتصبتْ أكداسٌ من الشعور الحقيقية والكاذبة بلون فاتح ومذهب. وغدا رأسها بعلوٍّ جذعها البارز والمكشوف الكتفين والعنق بشكل كبير. وكانت تتقدم باندفاع شديد بحيث أن كل حركة من حركاتها كانت تكشف، من تحت ثوبها، عن شكل ركبتيها وساقيها، وبحيث يتساءل الناظر، بالرغم منه، أين ينتهي من الخلف، في هذه الأكداس المستعارة المتمايلة، ذلك الجسم الرقيق، والأنيق، والمكشوف جداً من أعلاه، والمستور جداً من الخلف وفي أدنى الجسم.

سارعت بيتسي وقدّمتها لآنا.

وما لبثت أن بدأت كلامها وهي تكثر من الغمز بعينيها ومن الابتسام، رادّةً إلى الوراء ذيلَ ثوبها الذي كانت قد سحبته بحركة نزقة إلى جنبها:

ـ تصوّري أننا كدنا ندهس جنديين. كنتُ في العربة مع فاسكا... آه! صحيح، أنتما لم تتعارفا بعد.

وقدمت الشاب وسمّته بكنيته، واحمرّت وأخذت تضحك من الغلطة التي ارتكبتها عندما دعته فاسكا أمام شخص لا تعرفه. حيا فاسكا آنا مرة أخرى، لكنه لم يقل لها شيئاً. والتفت إلى سافو وقال لها وهو يبتسم:

ــ خسرت رهانك. لقد كنا أوّل القادمين. ادفعي الرهانَ.

أخذتْ سافو تضحك بمرح أعظم، وقالت:

ــ الآن لا.

ــ سيان، ستدفعين لي ما يقابل ذلك.

ــ طيّب، طيّب!

وصرختْ فجأة مخاطبةً رَبّةَ المنزل:

ــ آه! نعم، أنا مغفلة... نسيتُ... جئتك بمدعوّ آخر. هاهو ذا.

كان المدعوّ الشابُ غيرُ المنتظر والذي نسيتْهُ سافو، في مرتبةٍ رفيعة، حتى إن السيدتين نهضتا لاستقباله بالرغم من شبابه.

كان هذا هو المتيّمَ الآخر بسافو. وهو يسير في إثرها الآن، مثل فاسكا.

بعد قليل وصل الأمير كالوجسكي وليزمير كالوف، يصحبهما ستريموف. كانت ليزمير كالوف سمراء، ناحلة، شرقية الطابع. فاترة الحركات، ذات عينين جميلتين كان الناس يقولون عنهما إنهما: «لا يُسبَر غَورُهما». كان لباسُها قاتماً (لاحظت آنا ذلك واستحسنته) يلائم كل الملاءمة نمطّ جمالها. وبمقدار ما كانت سافو نزقةً وجادةً، كانت ليز وديعةً وعَفْويةً.

لكن ليز، برأي آنا، كانت أكثر جاذبية. قالت بيتسي لآنا إن ليز تصطنع مظاهرَ الطفل البريء؛ وعندما رأتْها آنا أحسّتْ أن ذلك خطأ. لقد كانت بريئةً حقاً: كانت متغنّجة، لكنها كانت ساحرة وتلقائية. صحيحٌ أنها كانت من «نمط» سافو ذاته: كان يتبعها عاشقان، أحدهما شاب والآخر عجوز، وكأنهما قد خيطا بتنانيرها، وكانا يلتهمانها بعيونهما؛ لكنْ، كان فيها شيءٌ أعلى مما يحيط

بهـا: كبريق ماسة وسـط رُكـام الزجاج. كان هذا البريقُ ينبعث من عينيها الزرقاوين الجميلتين اللتين لا يُسْبَر غورُهما حقاً. كانت نظرتُها المُتْعبة والمشبوبةُ في الوقت نفسه، نظرةُ هاتين العينين اللتين يحيط بهما خطٌّ قاتمٌ، تَروغُ بصدقها المطلق. كان كل واحد يُحسّ، بعد أن يرى هاتين العينين، أنه يعرفها حقّ المعرفة، وإذا عرفها فلا بدّ من أن يحبُّها. عندما رأتْ آنا، أشرقَ وجهُها بابتسامة فرحة.

وقالت وهي تدنو منها:

ــ آه! ما أعظم سروري برؤيتك. أردتُ أن ألقاك بعد السباق مباشرة، لكنك كنتِ قد ذهبتِ. كنتُ أتشوّق كثيراً لرؤيتك، والبارحة بالذات.

وأضافت وهي تلقي على آنا نظرةً بدتْ كأنها تكشف نفسَها كلَها.

ــ كان ذلك فظيعاً، أليس كذلك؟

قالت آنا وهي تحمرّ:

ــ نعم، ما كنتُ أعتقد أن ذلك يمكن أن يكون مؤثراً إلى هذا الحد. في هذه اللحظة نهض الجميعُ لينتقلوا إلى الحديقة.

قالت ليز وهي تبتسم وتجلس بجنب آنا:

ــ لن أذهب أنا. وأنتِ أيضاً؟ ما اللذة التي يجدونها في لعبة الكرات؟

ــ بلى سأذهب، إني أحبُّ هذه اللعبة كثيراً.

ــ آه! صحيح؟ قولي لي، كيف تفعلين لتطردي السأم؟ يكفي أن يراك الإنسان حتى يحسّ بالابتهاج؛ أنتِ تعيشين، أما أنا فدائمة السأم.

قالت آنا:

ــ أنتِ دائمةُ السأم؟ لكن بيتك يُعتبر أبهج بيت في بطرسبرج.

ــ ربما كان سأم الذين لا يرتادونه أشدّ؛ لكننا لا نجد السلوى، إني أتحدث عن نفسي، على الأقل: السأم يقتلني.

خرجتْ سافو التي أشعلت سيجارتها إلى الحديقةِ مع الشابين. وظلت بيتسي مع ستريموف لتناول الشاي.

قالت بيتسي:

ــ كيف، أنتِ تُصابين بالسأم؟ قالت سافو: إنهم قد لَهوا كثيراً عندك البارحة.

قالت ليز ميركالوف:

ــ آه! كان سأماً قاتلاً! لقد رجعنا جميعاً إلى بيتي، بعد السباق الوجوهُ نفسها، والشيء نفسه! قضوا سهرتهم يتمرَّغون على الأرائك، وليس في هذا ما يبهج!

والتفتت إلى آنا مرة أخرى، وقالت:

ــ لا، قولي لي كيف تفعلين لتطردي السأم. يكفي أن يراك الإنسان حتى يشعر أنك لا تُصابين بالسأم على الإطلاق، سواء أكنت سعيدة أم تعسةً.

قالت آنا وهي تحمرّ من هذا الإلحاح:

ــ لا أفعل شيئاً.

فتدخّل ستريموف قائلاً:

ــ هذه أحسنُ طريقة.

كان ستريموف ابنَ خمسين، قد خطَّهُ الشيبُ، وإن بدا دون سنه الحقيقية، وكان قبيح الشكل، غريب السحنة، ذكيّ المظهر. وكانت ليز ميركالوف ابنة أخ زوجته، وكان يقضي ساعات فراغه معها. وبما أنه كان عدو الكسي الكسندروفتش فقد جهدَ، كأحد رجالات المجتمع وكرجل عظيم النباهة، أن يُظهر أعظم اللطف مع السيدة كارينين.

وشدَّد، وهو يبتسم ابتسامة ناعمة:

ــ نعم، أحسن طريقة.

وقال وهو يلتفت إلى ليز ميركالوف:

ــ ما انفككتُ أردّد عليك ذلك، منذ زمن طويل:

لكي نتجنّب السأم لا ينبغي أن تفكّر في أننا سنُصاب بالسأم، كما أننا يجب ألا نخشى السهادَ إذا كنا نخاف الأرق. وهذا ما أرادتْ أن تقوله آنا أركاديفنا بدقة.

قالت آنا وهي تبتسم:

ــ كنتُ سأكون سعيدةً لو أنني قلتُ ما قلتَه، لأن ما قلتَه لا يدل على الذكاء فحسب، بل إنه صحيحٌ أيضاً.

ــ نعم، لكن قلْ لي لماذا كان النوم صعباً كالتخلّص من السأم؟

ــ لأن المرء إذا شاء أن ينام فينبغي أن يعمل، وكذلك إذا شاء أن يلهوّ.

ــ ولمَ أعملُ إذا لم ينفعُ عملي أحداً؟ أما أن أتظاهر بالعمل، فإني لا أحسنُ ذلك ولا أبتغيه.

قال ستريموف وهو لا ينظر إليها:

ــ لا سبيلَ إلى إصلاحك.

واستأنفَ حديثه مع آنا.

وبما أنه لم يلقَ آنا إلا نادراً، فلم يستطع أن يحدثّها بغير التفاهات، لكنه سألها عن موعد رجوعها إلى بطرسبرج، وأثنى على صداقة ليديا ايفانوفنا لها، بهلجة تنمّ على أنه يرغب من كل قلبه في أن يسرّها وأن يُظهر احترامه لها بل وأكثر من ذلك.

جاء توشكيفتش ليُعلن أن الجماعة تنتظر اللاعبين.

توسلَت ليزمير كالوف حين رأت آنا تتهيأ للذهاب:

ــ لا، لا تذهبـي.

وانضمّ ستريموف إليها، وقال:

ـ هناك تناقض كبير بين هذه الرفقة ورفقة العجوز «فريد». وأكثر من ذلك، أنك ستكونين موضوعاً للاغتياب، في حين أنك لا تبعثين هنا إلاَّ أجمل العواطف، المناقضة للغيبة تماماً.

أوشكت آنّا أن تغيّر رأيها. فالأحاديثُ المجاملة من هذا الرجل العظيم النباهة، والمودة الساذجة والطفولية التي أبدتها «ليز ميركالوف» وهذا الإطار الاجتماعي الذي ألفته، كل ذلك كان شديد الخفّة وما ينتظرها كان شديد الثقل حتى إنها تردّدت لحظةً: لمَ لا أبقى وأبعدُ عني قليلاً لحظة الاستفسار الشاقة؟ لكنها، عندما تذكَّرت ما كان ينتظرها، وحدها، في بيتها، إذا لم تتخذ قرارها، وعندما تذكّرت تلك الحركة التي بَدرتْ منها عندما أمسكتْ شعرها بكلتا يديها، وهي حركة كان يرعبُها مجرّدُ التفكير فيها، استأذنت وانصرفت.

[١٩]

كان فرونسكي يكره الفوضى، بالرغم من حياته الاجتماعية الطائشة في الظاهر.

لقد عانى، في شبابه، عندما كان في المدرسة العسكرية، مذلّةَ الرفض، حين أراد أن يستقرضَ ذاتَ يوم مبلغاً من المال بعد أن خلا وفاضُه منه، ومنذ ذلك اليوم، وهو يحرصُ ألا يقع أبداً في مثل هذا الموقف.

ولكي يحافظ على الدقّة في أعماله، كان يحبس نفسه خمس مرات أو ست مرات في السنة، تتقارب أو تتباعد بحسب الظروف، لكي يُجرى حساباته، أو لكي «يغسلَ غسيله» كما كان يقول.

وإذ استيقظَ فرونسكي متأخراً في اليوم التالي للسياق، ارتدى سترةً من الكتان الأبيض، دون أن يحلق أو يستحمَّ، وبعد أن رتّب، على الطاولة، ماله، وحساباته، ورسائلَهُ، انكبّ على العمل. وعندما استيقظ بيتر تيزكي، شاهد رفيقَه

على مكتبه، فارتدى ثيابه بصمت، وخرج دون أن يزعجه، لعلمه أنه سريع الهياج في مثل هذه الحالة.

كل امرىء يفترض، حين يَعْرفُ تعقّد الشروط التي تكتنفه في أدقّ تفاصيلها، يفترض تلقائياً أن هذا التعقّد في الشروط وصعوبة تبسيطها، خاصيةٌ شخصية وطارئة، ولا يدور في خلده لحظةً أن على الآخرين أن يواجهوا مثل هذا الموقف المعقّد. كذلك كان شأنُ فرونسكي. كان يعتقد بشيء من الكبرياء وبشيء من الحق أن غيره كان سيسقط أمام مثل هذه الصعوبات. لكنه كان يحسّ أكثر من أي وقت مضى أن من الضروري توضيح وضعه حتى لا يتخبّط فيه.

تصدّى أوّل الأمر لمسألة المال، وهي أيسر المسائل: فكتبَ بخطه الدقيق على ورقة من أوراق الرسائل كل ما عليه من دين، وجَمَعَه؛ ووجد أن عليه سبعة عشر ألف روبل وبعض المئات التي أهملها طلباً للتبسيط؛ وأحصى مالَه وراجعَ دفتر الشيكات فاكتشف أن ما يبقى له هو ألف وثمانمائة روبل، وأنْ ليس له من عائدات متوقّعة حتى آخر العام. وبعد أن أعاد قراءَة ديونه نَسخَها مقسّماً إيّاها إلى ثلاث فئات. وفي الفئة الأولى وُضعتْ الديون التي ينبغي دفعُها على الفور أو التي ينبغي أن يحتفظ، من أجل تصفيتها، بالمال جاهزاً، في حالة الإنذار. فبلغتْ هذه الديون نحو أربعة آلاف روبل: ألفٍ وخمسمائة لحصانه وألفين وخمسمائة رَبحَها نصّابٌ بحضوره من زميل له كفله فرونسكي وهو زفينيفسكي». وكان فرونسكي قد أحبَّ أن يدفع المال رأساً (وكان المبلغ بحوزته) لكن فينيفسكي وإياشفين أصرّا أن يدفعا المبلغ بنفسيهما. لأن فرونسكي لم يشارك في اللعب. ومهما يكنْ من أمر فإن فرونسكي كان يعلم أنه ينبغي عليه، في هذه القضية الحقيرة التي لم يشاركْ فيها إلا بكونه كفيلاً لفينيفسكي، أن يحتفظ بمبلغ ألفين وخمسمائة روبل في حوزته حتى يرمي بها في وجه هذا النشّال وحتى لا يكلّف نفسه الردّ عليه. كان إذن بحاجة إلى أربعة آلاف روبل لهذه الفئة من الديون، وهي أهم الفئات. الفئة الثانية هي

ثمانية آلاف روبل تتعلق باسطبل السباق، على الخصوص: لمتعهد الكلأ والشوفان، للانكليزي، ولصانع البرادع: وهنا، لا بدّ له من توزيع نحو ألفي روبل حتى يكون مطمئنَّ البال تماماً. أما الفئة الأخيرة فتتضمّن ديونَ المتعهدين، والمطاعم، وخيّاطه: وهذه الفئة لا تستحق التفكير. وهكذا، فقد كان يلزمه، على الأقل، ستة آلاف روبل للنفقات الجارية وليس معه سوى ألف وثمانمائة. إن رجلاً يزعمُ الناسُ أن عائداته تبلغ مائة ألف روبل ما كان ينبغي له أن يحسّ بالضائقة الماليّة، لكن فرونسكي، في الواقع، كان أبعد من أن يملك مائة ألف روبل. فثروة أبيه الضخمة التي كانت تدرّ وحدها مائتي ألف روبل سنوياً، ظلت على الشيوع. وعندما تزوج أخوه الأكبر، وكان غارقاً في الدين، بالأميرة فاريا تشيركوف، ابنة أحد «الديسمبرين» وكانت لا تملك شيئاً، تنازل الكسي لأخيه عن دَخْل أراضي أبيه، ولم يحتفظ منها بغير خمسة وعشرين ألف روبل. وقال لأخيه حينئذٍ إن هذا يكفيه حتى يتزوج، وهو ما لن يحدث أبداً. ولم يَسعْ أخاه الذي كان يقود أحد الأفواج الباهظ التكاليف والذي تزوّج منذ وقت قريب، إلا أن يَقْبل الهدية. أما أم فرونسكي وكانت ثروتُها مستقلّةً، فكانت تعطي ابنها، فوق ذلك المبلغ، عشرين ألف روبل كان فرونسكي ينفقها حتى آخر روبل منها. وفي الآونة الأخيرة، عندما خاصمتْه أمُّه بشأن علاقته الغرامية وسفره من موسكو، كفّتْ عن إرسال ذلك المال. ووجد فرونسكي نفسه في ضائقة مالية، ذلك أنه تعوّد أن يعيش بخمسة وأربعين ألف روبل ولم يتلقَّ هذا العام سوى خمسة وعشرين ألفاً. ولم يكن يستطيع أن يطلب المالَ من أمه. فرسالتها الأخيرة التي وصلتْه البارحة قد أحنقتْه أشدَّ الحنق لأنها تلمّح فيها إلى استعدادها لمساعدته لكي يبلغ النجاح في المجتمع أو في مهنته، لا لكي يعيش حياةً تُثير استنكار الطبقة الراقية بأسرها. وهذه الرغبة في استمالته بالمال جرحته جرحاً عميقاً وزادت من عدم اكتراثه بأمه. لكنه لم يكن يستطيع أن يتراجع عن وعده السخي الذي وَعدَ به أخاه، مع أنه أخذ يُحسّ الآن،

وهو يفكّر بالنتائج المحتملة لعلاقته بآنا. أن ذلك الوعد قد أُعطي بلا تروٍّ، وأنه، وإن يكنْ عزباً، قد يحتاج إلى عائداته تلك أشدّ الحاجة. لكنْ، كان من المستحيل عليه الرجوع إلى الوراء. وكان يكفيه أن يفكّر بزوجة أخيه الفاتنة، الرائعة فاريا التي كانت تذكر، في كل مناسبة، أنها لا تنسى كرمه، وأنها تقدّر هذا الكرم حقَّ قدره، حتى يدرك أنه يتعذّر عليه استردادُ ما أعطاه. كان ذلك مستحيلاً، كضرب امرأة، كالسرقة، كالكذب. كان الحل الوحيد، وقد عَزمَ عليه فرونسكي بلا تردّد، أن يقترضَ من مُرابٍ عشرة آلاف روبل، وليس ذلك بالأمر الصعب، وأن يقلّص نفقاته، وأن يبيع جياده. وبعد أن اتخذ فرونسكي هذا القرار، كتب، من فوره، إلى رولانداكي الذي عَرضَ عليه عدة مرات أن يشتري جياده. ثم جاء بالانكليزي والمرابي ووزع ما تبقى معه من المال على عدد من الحسابات. وبعد أن انتهى من ذلك، كتب رسالةً باردة وجافة إلى أمه. ثم تناول من محفظته ثلاث بطاقات من آنا فأعاد قراءتها وأحرقَها: وعندما تذكّر حديثهما في مساء البارحة، استغرقَ في تأمل عميق.

[٢٠]

كان في حياة فرونسكي هذا الشيءُ الموفّق وهو أنها كانت تُدار بمجموعة من المبادىء التي تحدّد بيقين كل ما يجب وما لا يجب فعله. ومجموعةُ المبادىء هذه كانت تشتمل على عدد قليل من الظروف، لكن هذه المبادىء كانت، بالمقابل مطلقةً، وكان فرونسكي لا يخرج أبداً من هذه الدائرة الضيقة، ولا يتردّد دقيقة في القيام بواجبه. أما هذه المبادىء فكانت التالية: يجب أن يدفع المرءُ دينَ القمار لنصّابٍ لكنه ليس ملزماً بدفع دين خيّاطة؛ يجب ألا يكذب المرءُ، لكنْ من المسموح له أن يكذب على المرأة؛ يجب ألا يخدع المرءُ أحداً ما عدا الزوجَ؛ قد يهين المرءُ نفسه لكنْ لا يحقّ له أن يُغضي على الإهانة إلخ. . . وأيّاً كانت مخالفةُ هذه المبادىء للصواب فإنها كانت مطلقةً، وكان فرونسكي يَشْعر، وهو يَمْتثل لها،

بالطمأنينة ويُمكنه أن يظلّ رافعَ الرأس. وفي الآونة الأخيرة فقط، دفعتْهُ علاقتُه بآنا إلى التفكير في أن صعوبات وشكوكاً قد تعترضه في المستقبل، وقد لا يجد لها حلاً.

كانت علاقاته بآنا وبزوجها وجهاً بسيطةً وواضحةً حتى الآن. وكانت تتّفق مع المبادىء التي تملي عليه خطّ سلوكه.

كانت آنا امرأةً شريفةً وهبتْه حبّها، وكان هو يحبها، ولذلك كانت جديرةً بالاحترام الذي تستحقه المرأةُ الشرعية بل وأكثر. وكان يُؤثر أن يقطع يده على أن يسمح لنفسه بكلمةٍ أو بتلميح تجرحان كرامتها، بل لا تُبديان لها كاملَ الاحترام الذي يمكن أن تطمح إليه امرأةٌ.

وكانت علاقاتُه بالمجتمع بسيطة أيضاً. كان الجميع يعملون أو يشكون بعلاقته، لكن دون أن يسمح أحدٌ لنفسه بالتطرق إليها. وفي حالة العكس، كان مستعداً أن يُجبر الثرثارين على السكوت واحترام شرف المرأة التي يحبّها في حين استلبها هو هذا الشرف.

وكانت علاقاته بزوجها أوضح أيضاً. فمنذ اللحظة التي هامت فيها آنا بفرونسكي، كان يقدّر أن له وحده عليها حقوقاً لا يلحقها التقادمُ. ولم يكن الزوج سوى شخصية لا تُفيد ولا تُطاق. ولا شك أنه كان في وضع مؤسف، لكن لا حيلةَ لأحد في ذلك. كان الحقُ الوحيد الذي يملكه الزوج هو أن يطلب المبارزة، وكان فرونسكي مستعداً لقبول ذلك.

لكن هذه الأسابيع الأخيرة بدّلتْ علاقاته بكارينين، وكان فرونسكي مروّعاً من غموضها وعدم دقتها. ذلك أن آنا أنبأتْه البارحة أنها حبلى، فأحسّ أن هذا النبأ وأن ما تنتظره آنا منه، أحسّ أن ذلك يتطلّب منه موقفاً لم تَحْتطْ له مجموعةُ المبادىء التي تُدير حياته. والواقع أنه أُخذَ على حين غِرّة: وفي الدقيقة الأولى، دفعه قلبُه إلى أن يطلبَ منها تركَ زوجها. وقال لها ذلك. أما الآن، وبعد التفكير

فكان يرى بوضوح أن من الأفضل تحاشي هذا الفسخ وكان، في الوقت نفسه، يخشى أن يُسيءَ التصرّف.

«إن دَفعْتُها إلى ترك زوجها فذلك يعني أن أجمع حياتها إلى حياتي، فهل أنا مستعد لذلك؟ وكيف أستطيع أن أختطفَها وأنا لا أملك المال؟ ولنفرضْ أنني دبّرتُ المالَ. . . فكيف أختطفها وأنا في الخدمة؟ وبما أني قلتُ لها ذلك فيجب أن أكون جاهزاً لكل احتمال، أيْ الحصول على المال والإحالة على التقاعد».

وأخذ يفكّر. إن التقاعد أو عدم التقاعد ساقاه إلى الشاغل الدفين الذي كان يعرفه وحده، وهو وإن كان مخبوءاً إلا أنه ربما كان أغلى هاجسٍ في حياته.

لقد كان الطموح حلم طفولته وشبابه، وهو حلم لم يَعْترفْ به لنفسه، لكنه بلغ درجةً كبيرة من القوة بحيث أنه كان الآن في صراع مع حبّه. وكان النجاح حليفاً له، أول الأمر، في المجتمع وفي الوظيفة، لكنه ارتكب خطأً فاحشاً بعد سنتين: ذلك أنه رفض مركزاً عُرِضَ عليه، رغبةً منه في إظهار استقلاله وفي التقدّم، وأملاً يُسبغ عليه هذا الرفضُ أهميةً كبيرةً؛ لكنه بدا شديدَ التهوّر وصُرف النظرُ عنه؛ وأخذ يتحمل طوعاً أو كرهاً هذا الوضع المستقلّ الذي أراده لنفسه، كرجل بارع الذكاء لا يحقدُ على أحد، ولا يعتقد أنه قد غُبن بأي حال من الأحوال، ولا يطلبُ إلا أن يُترك وشأنَه لينصرف إلى لهوه. لكن اللهوَ جافاه، منذ إقامته في موسكو، في العام الفائت. وصار يحس أن صيتَه كرجلٍ قديرٍ عافَ الطموحَ أخذ يذبلُ، وأن كثيراً من الناس شرعوا ينظرون إليه على أنه مجرد فتى شهم، كريم النفس. بيد أن علاقته بالسيدة كارينين التي أثارت ضجّةً كبيرة وجذبتْ إليه الانتباهَ العامَ، قد زانتْه ببريق جديد وأخمدتْ لفترةٍ قصيرة الطموحَ الذي كان يتأكّله، لكنّ هذا الطموح ما لبث أن استيقظ بقوّة أشد، قبل ثمانية أيام. ذلك أن أحدَ رفاق طفولته، وأحد أفراد حلقته ومجتمعه، «سيربوكوفسكوي» الذي دخل معه المدرسة العسكرية وتخرّج معه منها، ومنافسَه في الصف، وفي الألعاب

الرياضية، وفي طَيْشه، وفي أحلام طموحه، قد عاد، قبل بضعة أيام من آسيا الوسطى[1]، برتبة جنرال وبوسام قلّما يُمْنحه شاب مثله.

ومنذ وصوله إلى بطرسبرج، تحدّث الناس عنه كنجم جديد أخذ يُشرق. لقد غدا جنرالاً، مع أنه من لِدات فرونسكي ومن دَوْرته، وهو ينتظرُ تعيينَه الذي يمكن أن يمنَحه تأثيراً في سير شؤون الدولة، أما فرونسكي الحر، اللامعُ، الذي تحبّه امرأةٌ فاتنةٌ، فلم يكنْ سوى نقيب متواضع سُمحَ له أن يظل مستقلاً ما دام راغباً في الاستقلال. «طبعاً، أنا لا أحسده، وليس بوسعي أن أحْسده؛ لكن ترقّيه يُظهر لي أنه يكفي رجلاً مثلي أن ينتظر الساعة المناسبة حتى يصيب النجاح السريع. فمنذ ثلاثة سنوات، كان في مثل وضعي. وإذا تقاعدت أحرقتُ مراكبي. أما إذا بقيتُ في الخدمة فلن أفقد شيئاً. لقد قالت لي هي نفسها أنها لا ترغب في تغيير وضعها. وليس لي أن أحسد «سيربوكوفسكوي» إذا كنتُ أملكُ حبّها».

نهض، وهو يفتل شاربيه بحركة بطيئة، وأخذ يذرع الغرفة. كانت عيناه تبرقان ببريق خاص، وألفى نفسه في هذه الحالة النفسية المتماسكة، الهادئة والسعيدة التي تأتيه دائماً بعد أن يوضّح وضعه. كان كل شيء صافياً وجلياً ككل مرة يصفّي فيها حساباته. ثم حلق ذقنه، واستحمّ بماء بارد، وارتدى ثيابه، وخرجَ.

[٢١]

قال له بيترتيزكي:

ـ جئتُ أبحثُ عنك. «غسيلُك» اليوم. هل انتهيتَ؟

---

(١) «عاد من آسيا الوسطى»: احتل الجيش الروسي تركستان التي كانت تدعى أيضاً «آسيا الوسطى» بين ١٨٦٥ و ١٨٨٣. وفي خطة «انا كارينين» التي وضعت في سنة ١٨٧٤، تظهر الخاتمة سفر فرونسكي إلى طاشقند عاصمة تركستان.

أجاب فرونسكي وهو يبتسم من عينيه، ويفتل طرفيْ شاربيه بحذر، وكأن أدنى حركة طائشة يمكن أن تدمّر توازن أعماله:

ــ نعم.

قال له بيترتيزكي:

ــ تبدو بعد هذه العملية، كأنك خارجٌ من الحمّام. أنا آتٍ من عند «غريتسكو»[1] (كان هذا هو اسم العقيد) وهم ينتظرونك.

نظر فرونسكي إلى رفيقه دون أن يجيب. كان يفكّر في شيء آخر.

قال وهو يصيخ السمع إلى ما تناهى إليه من أنغام «البولكا» المعهودة وأنغام «الفالس» التي تعزفها جوق عسكرية:

ــ آه! أهي عنده هذه الموسيقا؟ هل هناك حفلة؟

ــ وصل «سيربوكوفسكوي».

قال فرونسكي:

آه! لا علمَ لي بذلك.

والتمعت عيناه ببريق أشدَ توهّجاً.

لم يكن بوسع فرونسكي الآن، بعد أن قرّر أنه سعيد بذلك الحب الذي ضحّى بطموحه من أجله (أو على الأقل، بعد أن اضطلع الآن بهذا الدور). أن يحسد «سيربوكوفسوي»، ولا حتى أن يعتب عليه لأنه لم يزره أولاً. كان «سيربوكوفسكوي» صديقاً مخلصاً يُسعده أن يلقاه.

آه! أنا مغتبط بمقدمه.

كان العقيد ديمين يَشْغل بيتاً إقطاعياً كبيراً. كان الحضورُ مجتمعين على الشرفة. وفي الفناء لمح فرونسكي قبل كل شيء عازفي الفوج بلباس الصيف حول برميل صغير من الفودكا، ومنكبـي العقيد العريضين وقد أحاطَ به ضباطُه؛ نزل إلى

---

(١) «غريتسكو»: تصغير أوكراني لـ «غويغوري».

الدرجة الأولى في الشرفة، وصرخَ بأعلى من صوت الموسيقا التي كانت تعزف رباعيّةً لأوفنباخ، مُلقياً أوامره بحركات ممدودة على جماعة من الجنود كانوا يقفون بمعزل عن الآخرين. فاقترب الجنود وموزّع البريد في الوقت الذي كان يقترب فيه فرونسكي من الشرفة. وعاد العقيد إلى درج المدخل، بعد أن كان قد دنا من المائدة، وبيده كأس شمبانيا ورفعها على شرف الضيف، وصاح بصوت جهوري: «على صحة رفيقنا القديم الجنرال الشهم الأمير «سيربوكوفسكوي هورا»» !.

وخلفَ العقيد، ظهر سيربوكوفسكوي مبتسماً، وبيده كأس شمبانيا.

وقال موزّع البريد، وهو فتى قوي، أحمر الخدين استأنف خدمته، وكان يقف أمامه جامداً كالوتد:

ـ إنك تستعيد شبابك شيئاً فشيئاً.

لم ير فرونسكي «سيربوكوفسكي» منذ ثلاثة أعوام. لقد ترك سالفيه ينبتان، فأسبغ ذلك عليه مظهراً رجولياً، لكنه كان متناسقاً، يَروعُ برقة قسماته ونبلها وبرقة شخصه كله ونبله، أكثر مما يروع بجماله، التغيّر الوحيد الذي لاحظه فرونسكي عليه هو هذا الاشعاع الهادىء الذي يحلّ على وجه الذين أصابهم النجاحُ والذين يعلمون أن الجميع يشعرون بنجاحهم. كان فرونسكي يعرف هذا الإشعاع فلاحظه حالاً على «سيربوكوفسكي».

عندما هبط «سيربوكوفسكي» الدرجَ، شاهد فرونسكي، فأضاءَتْ وجهَه ابتسامةٌ مشرقةٌ، وحيّاه بإيماءة من رأسه، وهو يرفع كأسه، ودلّ بهذه الحركة على أنه لا بد له أولاً من شرب نخب موزّع البريد الذي كان يقف على استعداد، مغلقاً شفتيه بانتظار قبلة الضابط.

هتف العقيد:

ـ آه! ها هوذا! قال لي إياشفين إنك كنتَ في إحدى أزمات كآبتك.

قبّل «سيربوكوفسكوي» الشفتين النديتين والغضتين لموزع البريد الجميل،

ومسح شفتيه، ودنا من فرونسكي. وقال له وهو يشدّ على يده ويسحبه بعيداً عن الآخرين:

ـ أنا سعيد جداً برؤيتك.

صاخ العقيد بإياشفين وهو يشير إلى فرونسكي:

ـ اعتنِ به!

ونزل لينضمَّ إلى الجنود.

قال فرونسكي وهو يفحص سيربوكوفسكي:

ـ لمَ لمْ تأتِ أمس إلى السباق. كنتُ أظنُّ أني سألقاك هناك.

ـ حضرتُ، لكنْ متأخّراً.

وأضاف وهو يلتفتُ إلى مرافقه:

ـ المعذرة. أرجوك، وزّعْ هذا على الرجال مني.

وتناول بسرعة من محفظته ثلاث أوراق كل واحدة بمائة روبل، واحمرّ.

سأل اياشفين:

ـ فرونسكي! أتريد أن تشرب أو تأكل شيئاً! هيه؟ قدّموا الشراب إلى الكونت. واشرب هذا ريثما يأتي الشراب.

وامتدت الحفلةُ طويلاً.

شرب الحاضرون كثيراً. وحملوا «سيربوكوفسكوي» بالأيدي ورجّحوه ثم رمَوْه في الفضاء. وكذلك فعلوا بالعقيد. ثم رقص العقيد بذاته أمام العازفين مع بيترتيزكي. ثم جلس العقيد، بعد أن ضعفتْ همتُه، على مقعد في الفناء، وبدأ يبرهن لإياشفين عن تفوق روسيا على بروسيا، ولا سيما في غارات الخيّالة، وفترتْ الحماسةُ لحظة. دخل سيربو كوفسكوي ليغسل يديه ووجد فرونسكي أمام المغسلة يصب على رأسه الماء. لقد خلع سترته وأخذ يُسيل ماء الحنفية على رقبته الحمراء المغطاة بالشعر، ويفرك عنقه ووجهه. وعندما انتهى لحق يسير

بوكوفسكوي، وجلسا على أريكة صغيرة وبدأ حديثاً شائقاً.

قال سيربو كوفسكوي:

ـ أخبرتني زوجتي عن تصرفاتك. أنا مسرورٌ لأنك تراها غالباً.

أجاب فرونسكي وهو يبتسم:

ـ إنها صديقةٌ لفاريا[1]، وهما وحدهما اللتان أُسرُّ بلقائهما.

كان يبتسم لأنه أخذ يتنبأ بالموضوع الذي سيدور حوله الحديث، فلقي ذلك هوىً في نفسه.

سأله سيربو كوفسكوي وهو يبتسم:

ـ وحدهما؟

قال فرونسكي الذي قطع عليه خطّ تلميحه واتخذ وجهه تعبيراً قاسياً:

ـ وأنا أيضاً، اطلعتُ على أخبارك، لكنْ، لا من خلال امرأتك وحدها. إني سعيدٌ بنجاحك الذي لم يُدهشني على الإطلاق. لقد توقعت لك ما هو أكثر.

ـ ابتسم سيربو كوفسكوي. كان واضحاً أنه قد فُتن بأن يكون للناس هذا الرأي فيه، ولم يرَ من الضروري أن يخفي ذلك:

ـ أعترف لك أنا، على العكس، أنني ما كنتُ آمل ذلك كله. لكني مسرور، جد مسرور، إنني طموح، وهذه نقطةُ ضعفي، وأنا لا أكتم ذلك.

قال فرونسكي:

ـ لعلك ما كنتَ لتعترفَ بذلك لو لم تَنْجح.

قال سيربو كوفسكوي وهو يبتسم مرة أخرى:

ـ لا أعتقد. أنا لا أقول: إن الحياة بدون طموح لا تستحقّ أن نحياها، لكنها ستكون رتيبةً، مُمِلّةً.

وأضاف وهو مُشرقٌ بالثقة:

---

(١) فاريا: زوجة أخي فرونسكي.

ـ لعلي مخطىءٌ، لكن يبدو لي أنني أملك بعض القدرات في مجال النشاط الذي اخترتُه، وأن السلطة بين يديّ، أياً كانت هذه السلطة، فيما إذا قُلِّدتُها، أحسنُ وضعاً منها بين أيدي الكثير من الناس الذين أعرفهم. ولذلك فإن سروري يزداد كلما اقتربتُ من السلطة.

قال فرونسكي:

ـ ما يصحّ بالنسبة إليك قد لا يصحّ بالنسبة إلى الآخرين. لقد فكرتُ مثلك، بيد أني أحيا وأجدُ أنْ ليس الطموح وحده هو الذي يمنع الحياة قيمةً.

قال سيربو كوفسكوي ضاحكاً:

ـ وصلْنا إلى المطلوب، وصلنا إلى المطلوب! لقد قلتُ لك في البداية أنني على علمٍ بأخبارك... عرفتُ رفضَكَ. طبعاً، أنا أوافقك، لكن هناك الطريقة. أعتقد أنك أحسنتَ صنعاً، لكنك لم تتصرّفْ بالطريقة التي كان ينبغي أن تتصرّف بها.

ـ قد كان ما كان؛ وأنت تعلم أنني لا أتراجع أبداً عن كلامي على كل حال، أنا مرتاحٌ هكذا.

ـ أنت مرتاحٌ في هذه الفترة، لكنك لا تستطيع أن تقفَ عند هذا الحدّ. لستُ أقول هذا القول لأخيك. فأخوك... طفلٌ لطيف. مثل مضيفنا تماماً. أتسمعُه؟ إنه يلهو... وهذا لا يرضيك أنتَ.

ولقد أضاف الجملة الأخيرة حين أصاخ السمع إلى هتافات الـ «هورا».

ـ ألم أقل أنني راضٍ.

ـ لا، هذا لا يكفي. الرجال مثلك ضروريون.

ـ لمن؟

ـ لمن؟ المجتمع، لروسيا. روسيا بحاجة إلى الرجال، بحاجة إلى حزب وإلا سار كل شيء إلى الدمار.

ـ ماذا تعني؟ أتعني حزب بيرتينييف[1] ضدّ الشيوعيين الروس؟

قال سيربو كوفسكوي، وهو يقطّب بين حاجبيه متبرماً من أن يُرمى بمثل هذه الحماقة:

ـ لا، كل هذا «مَسْخرةٌ». لقد وُجد ذلك من قبل وسيوجَد دائماً. ليس هناك شيوعيون. والمتآمرون بحاجة أبداً إلى حزب ضار، خطر. وتلك قصةٌ قديمة. لا، يلزمُنا حزبُ رجالِ مستقلّين، مثلك ومثلي.

ـ ولمّ (وهنا سمّى فرونسكي بعض الشخصيات المتنفّذة) لا يكون هؤلاء مستقلّين؟

ـ لأنهم ببساطة لا يملكون أو لم يملكوا منذ ولادتهم ثروةً مستقلة، ولأنهم، على الخصوص، لم يولدوا في جوار الشمس مثلنا. يمكن شراؤهم بالمال أو بالإطراء . ولكي يحافظوا على مواقعهم، ينبغي أن يخترعوا لأنفسهم اتجاهاً. إنهم يُتابعون فكرةً مؤذية لا يؤمنون بها، وما ذلك إلا لكي يجدوا مسكناً لهم على حساب الدولة، وأن يحصلوا على بعض المرتبات. إن مكرهم واضحٌ، إذا ما نظرنا إلى لعبتهم. ربما كنتُ أسوأ منهم أو أغبى منهم، مع أني لا أرى لماذا ينبغي أن أكون أسوأ منهم. فأنت وأنا نمتاز عنهم بهذه الميزة الأساسية وهي أنه: من الصعب أن نُشتري. إن رجالاً مثلنا هم اليوم ضروريون أكثر من أي يوم مضى.

كان فرونسكي يُصغي بانتباه، لم يكن محتوى كلمات سيربو كوفسكوي هو الذي يهمّه وإنما وجهة نظر سيركوفسكوي الذي أصبح يفكّر في مباشرة الصراع مع السلطة، والذي صار له في أوساط الناس المحبّون والكارهون، بينما لا تتجاوز اهتماماته هو مصلحة كوكبته. وأدرك فرونسكي أيضاً أن سيربو كوفسكوي يمكن أن يُحرز كثيراً من القوة بفضل مقدرته الأكيدة على فهم الموضوع، والتأمّل في جوانبه

(١) «حزب بيرتينيف»: اسم خيالي؛ لقد بذلت، في هذه الفترة، جهود وجلة لتنظيم حزب قادر على التصدي لتأثير الاشتراكية الثورية الناشئة.

كافةً، وبفضل ذكائه وفصاحته، وهي صفاتٌ نادرة في الوسط الذي يعيشُ فيه. وأجاب:

ــ صحيح، لكنْ تَنْقُصني لذلك صفةٌ أساسية هي: الرغبة في السلطة. كنتُ أملكُ هذه الصفة ثم فقدتُها.

قال سيربو كوفسكوي وهو يبتسم:

ــ اعذرني، هذا غير صحيح.

أضاف فرونسكي:

ــ بلى، بلى، هذا صحيح... «الآن»، إذا شئتُ أن أكون صادقاً.

ــ نعم، «الآن»، هذا شيءٌ آخر... «الآن» لن يستمرّ دائماً.

أجاب فرونسكي:

ــ ربما.

وتابع سيربو كوفسكوي وكأنه يستشفّ فكرته:

ــ أنت تقول: ربّما، وأنا أقول لك: بكل تأكيد. من أجل ذلك أحببتُ أن أراك. تصرّفتَ كما ينبغي، وأنا أفهمك، لكنْ يجب ألا تستمرّ على ذلك. لا أطلبُ منك إلا أن تُطلق يدي في العمل. لا أحب أن أمثّل دور الحامي... وإن كنتُ لا أرى لماذا لا ألعبُ مثلَ هذا الدور: لقد حَمْيتَني أنتَ مرات كثيرة! أرجو أن تكون صداقتُنا فوق ذلك كله.

وأضاف وهو يبتسم بحنان كحنان المرأة:

ــ نعم، أطلقْ يدي في العمل. اتركْ الفوجَ وسأجتذبك دون أن يظهر شيءٌ من ذلك.

قال فرونسكي:

ــ اعلمْ أنني لستُ بحاجة إلى شيء، إلا أن يظلّ كل شيء كما كان.

نهض سيربو كوفسكوي ووقف أمامه، وقال:

ـ أنت تقول ذلك، وأنا أفهم ماذا يعني كلامك. اسمعْ: نحن من عمر واحد، ولعلك عرفتَ من النساء أكثر مما عرفتُ. لكنني متزوجٌ وصدّقني أن من لم يعرف غير امرأته التي أحبّها يعرف عن المرأة أكثر مما لو عرف ألف امرأة، كما قالَ أحدُهم.

كانت ابتسامة سيربو كوفسكوي وحركاتُه تقول: إن فرونسكي لا ينبغي أن يخاف، وأنه يمسّ النقطة الحسّاسة بحذر ودقة.

صاح فرونسكي رداً على ضابط أطلّ برأسه من الباب وكان يدعوهما باسم العقيد:

ـ سنأتي، على الفور!

أصبح فرونسكي يريد الآن أن يصغي إلى سيربو كوفسكوي حتى النهاية ليرى ما قصدُه من وراء ذلك.

قال سيربو كوفسكوي:

ـ دونك رأيـي. إن المرأة هي حجر العثرة الأساسي في طريق الرجل. ومن الصعب أن يحب الرجل امرأةً وأن يفعل شيئاً. هناك وسيلة وحيدة لمعرفة مُتع الحب دون أن يصبح الحب عائقاً هي الزواج.

وأضاف سيربو كوفسكوي الذي كان مغرماً بالتشبيهات:

ـ كيف، كيف أشرح لك ما أفكّر فيه. اسمع! نعم، نحن لا نستطيع أن نحمل حملاً على ظهرنا وأن نعمل شيئاً بأيدينا إلا إذا ربطنا هذا الحمل على ظهرنا... وهذا هو الزواج. هذا ما أحسستُ به بعد أن تـزوجتُ. لقد غـدتْ يداي حرَّتين، فجأة. أما إذا جَرْجرنا هذا الحملَ خارج الزواج ارتبكتْ يدانا ارتباكاً كبيراً يمنعنا من عمل شيء. انظرْ إلى مازانكوف، وكروبوف. لقد عرّضا مركزيهما للخطر من جرّاء النساء.

قال فرونسكي وقد خطرتْ بباله الممثلةُ والفرنسية اللتان كانتا على صلة بهذين الرجلين:

ـــ وأية نساء!

ـــ والأمر يغدو أشد خطراً إذا كان وضعُ المرأة في المجتمع أشدّ استقراراً. لأن الأمر في هذه الحالة ليس حَمْلاً لحمل وإنما هو انتزاع الحمل من رجل آخر.

أجابه فرونسكي بصوت خافت وهو ينظر أمامه ويفكّر في آنا:

ـــ إنك لم تحبّ قطْ.

ـــ ربما. لكنْ تذكرْ ما قلتُه لك. وتذكّرْ هذا الشيء أيضاً: إن النساء أكثر ماديّةً من الرجال، نحن نصنعُ من الحب شيئاً هائلاً، وهنّ دائماً مبتذلات.

قال فرونسكي للخادم الذي دَخَل:

ـــ على الفور، على الفور.

لكن الخادم لم يأت لدعوتهما، وإنما كان يحمل بطاقة لفرونسكي.

ـــ حُملتْ إليك هذه الرسالة من عند الأميرة تفيرسكوي.

فضّ فرونسكي الرسالة، واحمّر، وقال لسيربو كوفسكوي:

ـــ أحسُّ بوجع في رأسي، وسأعود إلى منزلي.

ـــ طيّب، إلى اللقاء إذن أطلقْتَ يدي؟

ـــ سنتكلّم على ذلك، سألقاك في بطرسبرج.

[٢٢]

كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة: ولكي يصل فرونسكي في الوقت المطلوب، ولكي لا يقطع الطريق بجياده التي يعرفُها الجميع، فإنه صعد عربةً إياشفين وأمرَ الحوذيّ أن يسير بأقصى سرعته. كانت العربةُ القديمة ذات المقاعد الأربعة واسعةً. فجلس في ركن منها. وحطّ رجليه على المقعد المقابل، وأخذ يفكّر.

كان شعوره المُبهم بأنه قد نظّم أعماله، والذكرى الغامضة لتودّد سيربو كوفسكوي وكلماته المجاملة، بعد، أن اعتبره رجلاً ضرورياً، وانتظار اللقاء،

بخاصة، كلُّ ذلك ينصهر في انطباع عام من الهناءة. وكان هذا الإحساس قوياً جداً حتى إنه تبسّم من غير تعمّد. ثم حطّ رجليه على أرض العربة، وصالب ساقيه، وجسّ بيده ربلةَ ساقه المرنة التي رُضَّتْ البارحة، عند سقوطه، وارتدّ إلى الخلف، وتنفّس عدة مراتٍ بملء رئتيه.

قال في نفسه: «رائع، رائع!». لقد أحسّ من قبل بهذا الإحساس السعيد في جسده، لكنه لم يحبّ نفسه قطّ، ولم يحبّ جسده قطّ، كما أحبّهما هذا اليوم. كان يلتذّ حين يحسّ بهذا الألم الخفيف في ساقه، وبحركة صدره أثناء التنفس. نفسُ هذا النهار الصافي والبارد من شهر آب، الذي ضيّق صدر آنا، كان يُنعشه ويرطّب وجهه وعنقه التي دَفِئَتْ بعد غسلها. واستعذب كثيراً رائحة العطر على شاربيه، في هذا الهواء البارد. وكلُ ما كان يراه من خلال الزجاج كلُ شيء في هذا الهواء الصافي والبارد، وفي هذا النور، نور المغيب الشاحب، كان ندياً، فرحاً قوياً مثله هو نفسه: سطوحُ المنازل الملتمعة تحت أشعة الشمس، دوائرُ السياجات الواضحة وزوايا الأبنية، أشخاصُ المشاة، والعرباتُ التي كان يلاقيها بين الوقت والآخر، وخضرةُ الأشجار والمروج الساكنةُ، والحقول بأثلام البطاطا المنتظمة فيها، والظلالُ الماثلةُ الساقطةُ، من البيوت والأشجار والأدغال وأثلام البطاطا، كل ذلك كان جميلاً كمنظرٍ لطيفٍ لم يكد يَنْتهي ويُلمّع على اللوحة.

قال للحوذي وهو ينحني من الباب:

ــ اسرعْ، أسرع!

وتناول من جيبه ورقة بثلاثة روبلات، ودسّها في يد الرجل الذي التفتَ إليه. طبطب الحوذيُّ على الفانوس، وسُمع اصطفاقُ سوطه، ومضت العربةُ بأقصى سرعتها على الطريق المستوية.

وفكّر في نفسه وهو ينظر إلى زر الجرس العظمي، ويتصوّر آنا كما رآها في آخر مرة: «لست بحاجة إلى شيء، لستُ بحاجة إلا إلى هذه السعادة. وكلما

أمعنتُ فيها، ازداد حبي لها. هذه هي حديقة «فريد». أين تُراها تكون؟ أين؟ كيف؟ لماذا ضَربتْ لي موعداً هنا، ولماذا أضافتْ تلك الكلمة إلى رسالة بيتسي؟» كذلك كان يتساءل لأول مرة. وكان الوقتُ متأخراً لا يَسْمح بالتفكير. أوقفَ الحوذيُّ قبل الشارع، وفتح الباب وقفز ومضى صاعداً في الممرّ الذي يقود إلى المنزل. لم يكن في الممر أحد، لكنه حين التفت إلى اليمين شاهدها، ومع أن وجهها كان مغطّى بغلالةٍ، فقد عرف على الفور وبفرحٍ، مشيتها الخاصة، وانحناءة كتفيها، وهيئة رأسها، وأحسّ بمثل الصدمة الكهربائية في جسده كله. وعادَ إليه بقوة جديدة شعورُه بكيانه بدءاً من الحركات المرنة لساقيه حتى حركات صدره عندما يتنفّس، واستشعر حكةً في شفتيه.

وعندما أدركّها، شدّتْ على يده بقوة، وقالت له:

ــ لن تحقد عليّ لأنني استدعيتُك؟ لا بدَّ لي من أراك.

وما لبثت ثنيةُ الشفتين الجادة والصارمة أن غيّرتْ من بشاشة فرونسكي:

ــ أنا، أحقدُ عليك! لكن كيف ولماذا أنت هنا؟

قالت وهي تُمرّ ذراعها تحت ذراعه:

ــ لا قيمة لذلك، تعال، فعندي لك كلام.

أدرك أنه قد حدث شيء وأن هذا الحديثَ لن يكون فرحاً كان، بحضور آنا، لا يملك حرية الاختيار: ودون أن يعرف أسباب قلقها، أحسّ بالقلق يصيبُه. وسألها وهو يشدّ ذراعها على صدره ويحاول أن يقرأ أفكارها على وجهها:

ــ ما الذي جرى؟

خَطتْ بضع خطوات، دون أن تفوه بكلمة،لتَسْتجمع شجاعتها، ووقفتْ فجأةً.

قالت وهي تتنفّس بجهد:

ــ لم أخبرْك البارحة أنني حين عدتُ إلى البيت مع الكسي الكسندروفتش

أنبأتُه. . . . أنني لا يمكنني أن أكون زوجةً به بعد الآن وأن. . . وقلت له كل شيء.

كان يصغي إليها، منحنياً نحوها انحناءً غريزياً، كأنه كان يبغي بذلك أن يخفّف من ثقل وضعه. لكنها ما أن قالت ذلك حتى انتصب فجأةً واتخذ وجهه تعبيراً متكبّراً وقاسياً. وقال:

ـ نعم، نعم، هذا أفضل، ألف مرة أفضل! وأنا أدرك إلى أي حدّ كان ذلك مؤلماً لك.

لكنها لم تكن تصغي إلى ما يقول. كانت تقرأ أفكاره على وجهه ولم تكن تعلم أن تعبير وجهه كان يتعلّق بأول فكرة عرضتْ لفرونسكي: لامتاصَ من المبارزة، منذ الآن. ولم تخطر المبارزةُ قط ببالها، فلذلك فسّرت تفسيراً مختلفاً هذا التعبير الخاطفَ عن القسوة.

ومنذ أن تلقّتْ رسالة زوجها، كانت تحسّ، في قرارة نفسها، أن كل شيء سيبقى كما كان في الماضي، وأنها لن تملك القوة على التخلّي عن وضعها وترك ابنها لتجمعَ حياتها إلى حياة عشيقها. ولقد ثبّتتْها في هذه القناعة تلك الصبيحةُ التي قضتْها عند الأميرة تفيرسكوي. لكن هذه المقابلة كانت في غاية الأهمية عندها، بالرغم من كل شيء. كانت تأمل أن تَحملَ تغييراً لوضعهما وأن تنقذها. ولو أنه، بعد هذا الخبر، قال لها بتولّه، ودون تردّد: «اهجري كل شيء وتعالي معي»، لتركتْ ابنها وانطلقتْ معه. لكن هذا الخبر لم يؤثر فيه التأثير الذي كانت تنتظره: لقد بدا مجروح الكرامة.

قالت بلهجة مغتاظة:

ـ لم يكن ذلك مؤلماً على الإطلاق. وإنما جرت الأمورُ من ذاتها، خُذْ. . .

وأخرجت من قفازها رسالة زوجها.

فقاطعها وهو يأخذ الرسالة دون أن يقرأها، ويحاول أن يهدئّها:

ـ فهمتُ، فهمتُ. هذا كل ما كنتُ أطلبُه، كل ما كنت أبغيه: تحطيم هذا الوضع وتكريس حياتي لسعادتك.

قالت له:

ـ لم تقول لي ذلك؟ أيمكن أن أشك فيما تقول؟ لو كنتُ أشكّ... قال فرونسكي بغتةً، وهو يشير إلى سيدتين مقبلتين عليهما:

ـ من القادمتان؟

وسحبها بسرعة إلى طريقٍ مُعترضٍ.

قالت:

ـ آه! سيّان عندي! نعم، المسألة ليست هنا، إني لا أشك فيك؛ لكنْ اقرأ ما كتبه إليَّ. اقرأْ.

وأخذت شفتاها ترتجفان. وخُيِّل إلى فرونسكي أنها كانت تنظر إليه من خلال غلالتها نظرةً تعبّر عن الكره الغريب. ووقفتْ مرةً أخرى.

عندما قرأ فرونسكي الرسالة، استسلم للعواطف الطبيعية التي كانت توقظها فيه صلاتُه بالزوج المُهان، كما كانت حاله قبل هنيهة عندما علم بانفصالها عن زوجها، لقد أخذ يفكّر، الآن وهو يمسك الرسالة بين يديه، بالتحدي الذي سيلقاه في بيته اليوم أو غداً بدون شك، وبالمبارزة ذاتها: سوف يُطلقُ النار في الهواء، وسوف يَنْتظر أن يُطلقَ الزوجُ المهانُ النار عليه سينتظر ذلك وعلى وجهه ذلك التعبير البارد القاسي الذي كان يُرى عليه في هذه اللحظة... وفي الحال، خطر بباله ما قاله له سيربوكوفسكوي وما فكّر فيه هو نفسه هذا الصباح: كان من الأفضل له ألّا يرتبط. لكنه كان يعلم أنه لا يستطيع أن يُطلع آنا على ذلك.

بعد أن قرأ الرسالةَ، رفع عينيه إليها: كانت نظرته تخلو من التصميم. وأدركت، على الفور، أنه قد فكّر في ذلك كله من قبل. وعلمت أنه، مهما يقلْ

لها فلن يُفصح لها عن فكرته كاملةً. وأدْركت أن آخر آمالها قد تلاشى. ليس هذا ما كانت تنتظرُه.

قالت بصوت متهدج:

ــ أترى أيّ رجل هو. إنه...

فقاطعها فرونسكي:

ــ عفواً، لكن ذلك يسرني...

وتوسّل بنظرته أن تترك له الوقت ليشرح فكرته:

ــ يسرّني، لأن من المستحيل أن تظل الأمور حيث هي، كما يَفْترض.

قالت آنا وهي تحبس دموعَها:

ــ ولم ذلك؟

كان ظاهراً أنها لا تعلّق أهميّة على كلامه. وأحست أن مصيرها قد تقرّر. أما فرونسكي فأراد أن يقول: إن هذا الوضع لا يمكن أن يستمر بعد المبارزة التي لا مناص منها. لكنه قال شيئاً آخر:

ــ إن ذلك لا يمكن أن يستمرّ. أرجو أن تتركيه الآن. وأرجو (واضطربَ واحمرّ) أن تسمحي لي بالتفكير في تنظيم حياتنا. غداً...

لم تتركْه ينهي حديثه، وهتفت:

ــ وابني؟ أتَرى ما يكتبُ: يجب أن أتخلّى عنه، وأنا لا أقدر على ذلك ولا أريدُه.

ــ لكنْ، بالله عليك، أيهما الأفضل: أن تتركي ابنكِ أو أن تبقي في هذا الوضع المُذلّ؟

ــ مُذلٌّ لمنْ؟

ــ لنا جميعاً، ولا سيّما أنتِ.

قالت بصوت متهدّج:

ـ مُذِلّ! . . . لا تقلْ ذلك. هذه الكلمات لا معنى لها عندي.

لم تكنْ تريد له أن يكذب. فلم يبقَ لها سوى حب فرونسكي، وهي تريد أن تحبّه:

ـ اعلمْ أن كل شيء قد تغيّر منذ اليوم الذي أحببتكَ فيه. لم يبقَ لي سوى حبّك. فإذا نلتُه أحسستُ بالشموخ، ولا شيءَ يمكن أن يبدو لي مُذلاً. أنا فخورة بوضعي، لأن. . . أنا فخورةٌ. . . أنا فخورة. . .

ولم تقل بأي شيء هي فخورةٌ. وخنقتْها دموعُ الخجل واليأس. فتوقفتْ وهي تنتحبُ.

أحسَّ هو أيضاً بشيء يطبق على خناقه، ويَخزُ أنفه، ولأول مرة في حياته، خُيِّل إليه أنه على وشك البكاء. دون أن يعلم بدقة ما الذي أثّر فيه: كان يشفق عليها، ويحسّ أنه لا يستطيع أن يمدّ إليها يدَ العون، وكان يعلم في الوقت نفسه أنه سبب شقائها، وأنه ارتكب عملاً سيئاً.

قال بصوت ضعيف:

ـ والطلاق أهو غيرُ ممكن؟

هزت رأسَها دون أن تجيب.

ثم سأل:

ـ ألا تستطيعين أن تتركيه وتحتفظي بابنك؟

قالت بجفاف:

ـ بلى، لكن ذلك كله يتعلّق به.

لقد صدقَ ظنُّها، فكلُ شيء سيبقى كما كان في الماضي.

ـ سأكون نهار الثلاثاء في بطرسبرج، وسنتّخذ قراراً.

قالت:

نعم. لكن، لندعْ الحديثَ عن ذلك.

اقتربتْ عربةُ آنا التي كانت قد صرفتْها بعد أن أمرتْ الحوذي بأن يعود ليأخذها من قرب حاجز حديقة «فريد» المشبك. فودعت فرونسكي وعادت إلى منزلها.

[٢٣]

كانت لجنة ٢ حزيران تَعْقد جلساتها عادةً في نهار الاثنين. دخل الكسي الكسندروفتش قاعة الجلسات، وحيّا، كعادته، أعضاء اللجنة ورئيسها، وجَلَسَ في مكانه واضعاً يده على الأوراق المعدّة أمامه. وكان بين هذه الأوراق، معلوماتٌ يحتاج إليها، ونصُّ التصريح الذي ينوي أن يُلقيه. على كل حال، إنه لم يكنْ بحاجة إلى المراجع. فقد كان يتذكّر كل شيء ولم يرَ من المفيد أن يستعيدَ في ذاكرته ما سيقوله. كان يعلم أنه متى آن الأوانُ، ورأى أمامه وجهَ خصمه الذي سيحاول عبثاً أن يصطنع مظهر اللامبالاة، فإن الخطبةَ التي ستتوارد على شفتيه ستكون أبلغ من كل ما أمكنه أن يعدّه. كان يحس أن محتوى خطبته رفيع جداً بحيث سيكون لكل كلمةٍ من كلماتها وزنها. ومع ذلك، فقد كان يبدو، وهو يصغي إلى التقرير العادي، أبرأ الناس وأكثرهم مسالمة. ما كان ليخطر ببال أحد، حين ينظر إلى يديه البيضاوين بعروقهما المنفوخة، وهي تجسّ بأصابعها الطويلة حواشي الورقة البيضاء الموضوعة أمامه جسّاً رفيقاً، وإلى رأسه الذي مال وقد بدت عليه أمارات الإعياء، ما كان ليخطر ببال أحد أن من شفتيه ستنطلق خطبٌ تثير عاصفةً عاتية، وتَحْمل أعضاءَ اللجنة على الصراخ، مقاطعاً أحدهم الآخر، والرئيسَ على تذكيرهم بالنظام.

عندما انتهى التقرير، أعلن الكسي الكنسدروفتش بصوته الوادع والنحيف أنه يريد أن يُبلغ اللجنة بعضَ ملاحظاته المتعلّقة بتوطين الوافدين. فانصبّ الانتباهُ عليه. سَعلَ الكسي الكسندروفتش سُعالاً خفيفاً ليوضّح صوته، وبدأ يَعْرض وجهات نظره، دون أن يرفع بصره إلى خصمه، كما يفعل دائماً عندما يلقي خطبه،

محدّداً النظرَ إلى أول وجه يَعْرض له، (في هذه المرة، كان الوجهُ وجهَ شيخ قصير، مسالم، لا شأن له في داخل اللجنة). وعندما وصل إلى قوانين الامبراطورية الأساسية، هبّ خصمُه وأخذ يردّ عليه. كما أن ستريموف الذي كان عضواً في اللجنة قد قُرِصَ، وأراد أن يُبرّىءَ نفسه. كانت الجلسةُ عاصفةً، لكن الكسي الكسندروفتش انتصر وقُبل اقتراحُه. فتقرّر تشكيلُ ثلاث لجان جديدة، وفي اليوم التالي، كانت هذه الجلسة وحدها موضوعَ الحديث، في بعض أوساط بطرسبرج. لقد كان نجاحُ الكسي الكسندروفتش أعظمَ ممّا أمّل.

في صباح اليوم التالي، الثلاثاء، تذكّر الكسي الكسندروفتش عندما استيقظ، انتصارَه، البارحة، بسرور، ولم يتمالك، من الابتسام، وإنْ أحبّ أن يُظهر لا مبالاته حين أنبأه رئيس مكتبه، وكان حريصاً على تملّقه، بما بلغه من أخبار عمّا جرى في اللجنة.

بينما كان الكسي الكسندروفتش يعمل مع رئيس مكتبه، نسي تماماً أن هذا اليوم هو الثلاثاء، اليوم المحدّد لعودة آنا اركاديفنا، ولذلك فوجىء مفاجأةً مزعجة، عندما جاء خادمه يُنبئُه بوصولها.

عادت آنا إلى بطرسبرج في ساعة مبكّرة؛ كانت قد أخطرت زوجها وطلبت عربةً، فلا يمكن له إذن أن يجهل مجيئها. لكنها عندما وصلتْ؛ لم يكن موجوداً لاستقبالها. وقيل لها: إنه لم يخرج بعد من مكتبه وأنه في حديث مع رئيس مكتبه. فأرسلتْ من يُبلغه بوصولها، ومضتْ إلى مكتبها، واستغرقت في ترتيب متاعها، منتظرة مجيئه. مرّتْ ساعةٌ ولم يأت. فانتقلت إلى غرفة الطعام بحجة إصدار بعض الأوامر بصوت عالٍ عن قصد، مقدّرةً أن ذلك سيَحْمله على المجيء، لكنه لم يظهر مع أنها سمعته يودّع رئيس مكتبه إلى باب المكتب. كانت تعلم أنه لن يلبثَ أن يذهب بعد ذلك إلى الوزارة، فأحبّتْ أن تراه لتسوية علاقاتهما المقبلة.

عَبَرتْ قاعةَ الاستقبال الكبرى، واتجهتْ بخطوات ثابتة إلى شقّة زوجها.

وعندما دخلت مكتبه، كان في بزته الرسمية، وكأنه يتأهب للخروج، جالساً قرب منضدة اتكأ بمرفقه عليها، ناظراً أمامه نظرةً كئيبة. رأته قبل أن يلمحها وأدركتْ أنه كان يفكّر فيها.

عندما رآها تدخل، أراد أن ينهض، وتردّد، واحمرّ، وهو ما لم يكن يقع له، ثم نهض على عجل أخيراً، وأقبل عليها ناظراً لا إلى عينيها، بل إلى أعلى منهما، إلى جبهتها وتسريحة شعرها. فلما صار بجنبها، أخذ يدها، وعرض عليها الجلوسَ.

قال وهو يجلس بجنبها ويرغب رغبة واضحةً في أن يقول شيئاً:

ــ أنا مسرورٌ بعودتك.

ولم يستطع أن يتمّ كلامه. وأراد عدة مرات أن يبدأ الكلام لكنه كان يتوقّف. ومع أنها هيّأتْ نفسها لاحتقاره وتَخْطئته، إلا أنها لم تَدْر ما تقول. لقد أثار شفقَتَها. ودام الصمتُ طويلاً.

قال:

ــ سيرج بخير؟

وأضاف دون أن ينتظر الجواب:

ــ لن أتعشى في البيت هذا اليوم. ولا بد لي من الذهاب، على الفور.

قالت:

ــ كنتُ أنوي السفر إلى موسكو.

فقال:

ــ لا، أحسنتِ فعلاً بالمجيء.

وسكتَ مرةً أخرى.

وإذْ رأت أنه لا يَقْوى على الكلام، بدأتْ هي به، فقالت وهي تحدّق فيه غيرَ خافضة بصرَها أمام عينيه اللتين أحدّتا النظر في زينة شعرها:

ـ الكسي الكسندروفتش، أنا مجرمةٌ، امرأة ساقطة، لكني سأبقى كما كنتُ، كما اعترفتُ لك في ذلك اليوم، وقد جئتُ لأقول لك: إني لم أتغيّر.

قال وهو ينظر فجأةً إلى عينيها نظرةً ملؤها الحقدُ والعزمُ:

ـ لستُ أطلبُ منكِ ذلك، وهذا بالذات ما كنتُ أُقدّره.

كان واضحاً أنه استعاد السيطرة على ملكاته جميعاً، بفعل الغضب، فاستأنف بصوت نحيفٍ وجازم:

ـ لستُ ملزماً بمعرفة ما تقولين، لقد قلتُ لك ذلك، وكتبتُه، وأنا أردّده عليكِ الآن. لا تملك النساء مثلك هذا الكرم الذي يحملهن على المبادرة إلى إعلان هذا النبأ «السارّ» لأزواجهن. (وشدّد على كلمة «سارّ). وسوف أتجاهله ما دام الناس غافلين عنه، وما دام شرفي لمْ يُلوَّث. ولذلك فأنا أنبّهك إلى أن علاقاتنا ينبغي أن تظلّ كما كانت دائماً، إلا في الحالة التي تلوّثين فيها سمعتك فسوف أتّخذ التدابير الكفيلة بحماية شرفي.

استأنفت آنا كلامها مرتبكةً، وهي تنظر إليه بذعر:

ـ لا يمكنُ لعلاقاتنا أن تظل كما كانت.

عندما واجهتْ، من جديد، هذه الحركات الهادئة، وذلك الصوتَ الثاقب، الصبياني، الساخر، اختفتْ شفقتُها أمام النفور الذي ابتعثه فيها. لم تكن تَسْتشعر سوى الخوف، لكنها حرصت أن توضح علاقتهما، بأيّ ثمن.

بدأتْ كلامَها:

ـ ليس بوسعي أن أكون امرأتك عندما. . .

ضحك ضحكةً باردة وخبيثةً:

ـ لا شك أن نمط الحياة الذي اخترتِه ينعكس في نمط فهمك. لكني احترم ماضيك أشد احترام واحتقر حاضرك أشدّ احتقار بحيث أن كلماتي لا تقبل التأويل الذي ألصقتْه بها.

تنهّدت آنا وأطرقتْ رأسها.

تابع كلامه وقد احتدّ:

ثم إني لا أفهمُ كيف أن امرأة مستقلة مثلك، امرأة لا تتوانى عن إعلام زوجها بخيانتها التي لا ترى فيها شيئاً من الإثم، كيف نتحرّج من أداء واجباتها تجاه زوجها.

ــ الكسي الكسندروفتش! ما الذي تبغيه مني؟

ــ لا أحبّ أن ألقى هذا الرجلَ هنا. أريد أن تتصرّفي تصرفاً لا يستطيع معه الناسُ أو خدمنا أن يَرموك بشيء... أطلب منك ألا تَريْه بعد الآن. يبدو لي أن طلباتي متواضعة. والمقابل فسوف تحظين بحقوق الزوجة الوفيّة دون أن تقومي بواجباتها. هذا كل ما عندي لك، والآن، حان وقتُ ذهابـي. لن أتعشّى في البيت.

نهض واتجه إلى الباب. ونهضت آنا أيضاً. فانحنى دون أن يفوه بكلمة، وتركها تمر.

[٢٤]

كانت الليلةُ التي قضاها ليفين على العرمة حاسمةً بالنسبة إليه. لقد كره هذا الملكَ الذي يُديره وفَقَدَ اهتمامَه به. وبالرغم من المحصول الرائع، فإنه لم يُلاق قط (كان يعتقد ذلك، على الأقل) مثلما لاقى هذا العام من الانتكاسات والصعوبات مع الفلاحين، وقد غدا سبب هذه الإخفاقات وذلك الكره واضحاً عنده. فالسحر الذي وجده في العمل نفسه، وما نَتَجَ عن العمل من تقارب بينه وبين الفلاحين، وحسده لهم وتوقه إلى أن يعيش حياتهم، وهما حسدٌ وتوقٌ تجسّدا، هذه الليلة، لا في الأحلام وحدها، بل في خطة للسلوك أُعِدَّتْ إعداداً دقيقاً، كل ذلك غيّر وجهةَ نظره إلى حدّ كبير حتى إنه لم يعدْ يجدُ الاهتمام القديم باستثمار أرضه، ولم يكن بوسعه أن يتجاهل تلك المناقشات التي تشكل أرضيّة

وجوده. إن قطيعاً من البقر المختار مثل «بافا»، وأرضاً مسمّدة ومحروثة بالمحراث، وتسعة حقول متساوية المساحة ومحاطةً بسياجات، وتسعين هكتاراً مسمّدة بالسماد الطبيعي، وبذّارات نموذجية إلخ... كل ذلك جديرٌ بأن يكون رائعاً لو قام بالعمل وحده أو مع أصدقاء يتّفق وإياهم في الرأي. لكنه أصبح يرى الآن بوضوح (وقد ساعده على هذا الوضوح الدراسة التي كان يُعدّها عن الاقتصاد الريفي والتي يبرهن فيها على أن العنصر الرئيسي في الاستثمار لا بدّ أن يكون العامل)، أصبح يرى الآن بوضوح أن مشروعه قد آلَ إلى صراع قاسٍ، ضار بينه وبين الفلاحين؛ فمن جهةٍ، (من جهته) هناك جهدٌ مستمر للحصول على نماذج مُتْقنة، ومن جهة أخرى هناك، نظام الأشياء الطبيعي. وفي هذا الصراع، رأى أن النتيجة الوحيدة التي كان يصل إليها، من خلال توتّر قواه كافةً من جهة، وذلك التهاون التام من جهة أخرى، هي إتلاف الآلات، وتضييع الماشية والأراضي الممتازة، وعلى وجه الخصوص، أنه لم يكن يبدّد طاقته المبذولة فحسب، بل لم يكن بوسعه إلا أن يحسّ الآن، بعد أن انكشف وهمه عن أهمية نشاطه، أن الهدف الذي يلاحقُه هدفٌ حقير. وفي الحقيقة، ما نتيجة الصراع الذي يخوضه؟ كان يدافع بشراسة عن مصلحته (ولم يكن بمقدوره أن يفعل غير ذلك، ولو فعل غير ذلك لأضعف نفسه، ولأعوزه المالُ الذي يدفعه لعماله)، أما العمال فكانوا يدّعون أنهم سيستمرّون في عملهم بهدوء وسرور، كما تعوّدوا ذلك. كان من مصلحته أنْ يعمل كل عامل بأقصى قدرته، دون إضاعة الوقت، وأنْ يبذل وسعه لكي لا تنكسر البذّارات والأمشاط والدرّاسات، وأن يفكّر فيما يفعله؛ أما العامل فيجب أن يعمل بأقصى سرور ممكن، مع فتراتٍ للراحة، ودون أن يفكّر أو يُقلق نفسه، على وجه الخصوص. كان ليفين يصطدم، في هذا الصيف، بهذه العقبة، لدى كل خطوة، لقد أمر أن تُحصَد للعلف بعضُ أسهم النفل الرديئة، التي اجتاحتْها الأعشابُ الضارّة فغدتْ غيرَ صالحة للبذار؛ فحُصِد أحسنُ نَفَلٍ صالح للبذار بحجة أن مديرَ

الأعمال هو الذي أمر بذلك؛ وأكّدوا له أن الكلأ سيكون رائعاً، لكنه كان يعلم أن ذلك قد جاءَ من أن هذه الأسهم أسهلُ حصداً. ولقد اشترى مُيبِّسة للكلأ فكُسرتْ، في الحال، لأن الفلاح كان يسأم من بقائه جالساً على مقعده، بينما تدور أجنحةُ الآلة من فوقه. وقيل له: «لا تهتمَّ، فإن النساءَ سرعان ما يَقْلبن الكلأ». وانكشف أن المحاريث غيرُ صالحة للاستعمال لأنه لم يخطر ببال العامل أن يخفض سكين المحراث: وحين يُشغّل آلته بقوّة قبضته فإنه يُتعب خيله ويُفسد الأرضَ. ثم يَرْجونه ألّا يهتمّ! وداست الخيلُ الحنطةَ، إذْ لم يشأ أحدٌ من الرجال أن يقوم بالحراسة ليلاً؛ لقد نظّم الفلاحون المناوبةَ، مع أنها ممنوعةٌ، ونام فانكا الذي اشتغل طوال النهار، ثم اعترف بغلطته. وهلكت ثلاثٌ من خيرة الأفراس لأنها أُطْلِقتْ، بدون ماء، على النفل الرجيع؛ ولم يشأْ أحدٌ أن يُصدِّقَ أن النفل هو الذي نفخَها، لكنهم رَووا له، ليواسوه، أن جاراً له فقد في يوم واحد مائة واثني عشر رأساً من الماشية. ولم يكن ذلك ناشئاً عن سوء النية. على العكس، كان ليفين يعلم أنهم يجدونه بسيطاً (وهذا أجمل إطراء)؛ لكنه كان ناشئاً عن أن الفلاحين كانوا يريدون أن يعملوا بفرحٍ، وبلا همٍّ، وعن أن مصالح سيّدهم لم تكن غريبة عنهم وغير مفهومة لديهم فحسب، لكنها كانت تتناقض حتماً مع مصالحهم الخاصة. فمنذ أمد بعيد، أحسّ ليفين أن الفلاحين كانوا مستائين من طريقته في استثمار أملاكه. كان يحسُّ أن زورقه آخذٌ في الغرق، دون أن يرى من أين كان الماءُ ينفذ، لأنه كان يحاول أن يخدعَ نفسه، (ولو فقد أوهامه لما لقي له شيء). أما الآن فلم يعدْ بوسعه أن يضحك على نفسه. ولم يعد المشروع الذي يديرهُ مثيراً لاهتمامه، بل إنّه ثبّط همته وأفقده عزيمته.

وانضاف إلى ذلك وجودُ كيتي تشرباتزكي، على ثلاثين فرسخاً منه، وكان يشتهي أن يزورها، دون أن يُجمع أمره. لقد رجتْه داريا الكسندروفنا، عندما ذهب إلى زيارتها، أن يعود؛ أن يعود ليجدّد طلبه لأختها التي ستلبّي الطلب الآن، كما

لمّحتْ إلى ذلك داريا الكسندروفنا. وكان ليفين نفسه قد أدرك، عندما رأى كيتي ثانيةً، أنه ما يزال يحبّها. لكنه ما كان يستطيع أن يقصد إلى بيت أوبلونسكي وهو يعلم أنها هناك. إن طلبه ورفض كيتي أقاما بينهما حاجزاً لا سبيل إلى تجاوزه. وقال في نفسه: «لا أستطيع أن أطلب إليها أن تكون زوجتي حين لا تستطيع أن تكون زوجةً لمن أرادته زوجاً لها». وكانت هذه الفكرة تُخمد عواطفه وتملؤه حقداً عليها. «لستُ أقوى على مخاطبتها دون غيظ، ولا النظر إليها دون حقد، وسيزداد كرهُها لي. ومن جهة أخرى، كيف أستطيع أن أذهب إلى زيارتها بعدما قالته لي داريا الكسندروفنا؟ أيمكنني التظاهرُ بأنني لم أعرفْ ما قالته لي؟ فآتيها ممتلئاً بالشهامة لكي أمنحها الغفران! سألعبُ إذ ذاك أمامها دور الذي يغفر ويتنازل ليقدّم لها حبه! لمَ قالت لي داريا الكسندروفنا ذلك؟ لو كنتُ أستطيعُ أن ألقاها مصادفةً، لتمَّ كلُّ شيء من ذاته، أما الآن فإن ذلك غيرُ ممكن، غيرُ ممكن»!

أرسلتْ إليه داريا الكسندروفنا بطاقةً لتطلب إليه سرجاً نسائياً لكيتي. كتبت تقول: «قيل لي إن عندك سرجاً. آملُ أن تحمله بنفسك».

كان ذلك فوق طاقته على التحمّل. كيف يجوز لامرأة ذكية وناعمة أن تهين أختها هكذا؟ كتبَ عشر رسائل ومزَّقها جميعاً، وأرسل السرجَ بدون رسالة. أنْ يكتب: أنه سيأتي، مستحيلٌ، لأنه لا يستطيع أن يأتي؛ وأنْ يعتذرَ متعلّلاً بمانعٍ أو بسفر أسوأ أيضاً. فأرسل السرج إذن بدون رسالة. ومنذ اليوم التالي، عهد إلى وكيله، وهو يشعر بأنه يسيء التصرف، بإدارة أملاكه التي غدت بغيضةً عليه، وسافر إلى منطقة نائية، قاصداً صديقه «سفياجسكي» الذي دعاه مؤخراً إلى صيد دجاج الأرض. وكان مستنقع مقاطعة «سوروف» الكثير الصيد يجذب ليفين منذ أمدٍ بعيد، لكن مشاغله حالت بينه وبين الذهاب. أما الآن فقد كان، على العكس، مسروراً لابتعاده عن جوار آل تشرباتزكي، وعن أملاكه بخاصة. كان الصيدُ أبداً أنجع دواء لهمومه.

[٢٥]

لم يكن في مقاطعة «سوروف» خطٌّ حديدي ولا طريقٌ بريديّ. لذلك كان لا بدّ لليفين من أن يسافر في مركبةٍ تجرّها جيادُه. وفي منتصف الطريق، توقّف عند فلاح غني. كان هذا الفلاح شيخاً أصلع، مظهره لا يدلّ على عمره، له لحيةٌ حمراء كبيرةٌ وخَطها الشيب قرب خدّيه. فتح له البوابةَ وهو يرصّ نفسه إلى أحد المصراعين ليتيح مرور المركبة. ودلّ الحوذيّ على مكان تحت افريز، قرب المحاريث المحروقة، في فناء جديد، حسن النظام، ورجا ليفين أن يدخل المنزل. كانت تغسل أرضَ المدخل امرأةٌ نظيفة الملابس في رجليها الحافيتين خفّان مطّاطيان. فخافت من مرأى الكلب الذي دخل خلف ليفين وأرسلت صرخةً، لكنها ما لبثت بعد ذلك أن أخذت تضحك من خوفها عندما قيل لها إن الكلب لن يمسّها. وأشارت لليفين، بذراعها العارية حتى المرفق، إلى باب الغرفة الرئيسية، واستأنفت عملها، منحنية على الأرض، ومخفية وجهها الجميل.

وسألت:

ــ هل ينبغي إشعال السماور؟

ــ نعم، إذا شئتِ.

كانت الغرفةُ واسعةً، وفيها مدفأةٌ هولاندية، وحاجزٌ يقسمها إلى قسمين. وكانت هناك، تحت الصور، طاولةٌ تزيّنها الرسوم، ومقعد صغيرٌ وكرسيّان، وخزانةٌ قرب المدخل تحتوي على آنية المائدة. ولم تكن المصاريع المغلقة تسمح بدخول الذباب، وكان كل شيء نظيفاً جداً حتى إن ليفين خشي أن توسّخ «لاسكا» التي ركضت على الطريق وتخبّطت في المستنقعات، أرض الغرفة، فأشار إليها بمكان في الزاوية. بعد أن أدار ليفين نظره في الغرفة خرج إلى الفناء الخلفي. فرأى المرأة الشابة المليحة، يخفيها المطاطيين، ترجّح على كتفيها الخشبةَ التي تحمل الدلوين الفارغين، ثم تمر قربه راكضة لتأتي بالماء من البئر.

وصرخ الشيخ بفرح:

ـ عجّلي!

ولحق بليفين:

ـ إذنْ، أنتَ ذاهب، يا سيدي، إلى نيقولا أيفانوفتش سفياجسكي؟ وقال وهو يتكيء على حاجز درج المدخل، وبه رغبة واضحة في الحديث:

ـ إنه يجيء إلينا أيضاً.

في وسط رواية الشيخ لعلاقاته بـ «سفياجسكي» أخذت البوابةُ تصرّ مرة أخرى، ودخل عمالٌ إلى الفناء، عائدين من الحقول بالأمشاط والمحاريث. وبدت خيولُهم قويةً، سمينةً. وكان واضحاً أن العمال هم من العائلة: اثنان منهما، كانا شابين يرتديان صدرتين من الهنديّ وقبعتين؛ وكان الاثنان الآخران شاباً وكهلاً يرتديان صدرتين من نسيج غليظ، ويعملان بالأجرة.

ترك الشيخُ الدرجَ، واتّجه نحو الخيل وأخذ يحلّها.

سأله ليفين:

ـ ماذا حرثتُم؟

ـ حقول البطاطا، ولنا أيضاً قطعةٌ من الأرض. «فيدوت» أربطِ الحصان قرب الحوض. وسوف نبدّله.

سأله فتى طويل وقويّ، لعله ابنه الأكبر:

ـ قلْ لي، يا أبـي، لقد أوصيت أنْ تُؤْخَذ السكك. فهل جاؤوا بها؟

أجاب الشيخ وهو يلف الأعنّة التي نزعها ويلقيها على الأرض:

السكك في العربة، رَتّبْ هذا قبل العشاء.

دخلت المرأةُ الشابة بدلوين مملوءين كانا يضغطان كتفيها. وظهرت نساءٌ أخر: فتيّات وجميلات، وعجائز ومتوسطات السن خاليات من الجمال، مع أولادهن أو بدونهم.

أخذ السماورينشّ؛ وذهب العمّال وأفراد العائلة إلى العشاء، بعد أن أدخلوا الخيل. ودعا ليفين الشيخَ لتناول الشاي بعد أن أخرج زاده من عربته.

قال الشيخ وهو يَقْبل دعوته بسرور ظاهر:

ــ تناولتُ الشاي قبل هنيهة. لكني سأزيدُ، من أجل رفقتك.

أثناء الشاي، علم ليفين قصة استثمار الشيخ لأراضيه المزروعة. فقبل عشر سنوات، استأجر الشيخُ مائة وعشرين هكتاراً من سيّدةٍ في المنطقة؛ ولقد اشتراها، في السنة الفائتة، واستأجر، فوق ذلك، ثلاثمائة هكتار من ملاّك مجاور، فأجّر جزءاً من هذه الأرض، هو الجزء الأردأ، واستثمر الباقي مع عائلته وعاملين مأجورين. كان الشيخ يشكو قلةَ مردود العمل. لكن ليفين أدرك أنه لا يشكو إلاَّ للمجاملة وأن استثماره لأراضيه كان، على العكس، مزدهراً. ولو كان سيّئاً لما اشترى الهكتار بخمسمائة روبل، ولما زوّج أولاده الثلاثة وابن أخيه، ولما أعاد بناء بيته ووسّعه مرتين بعد أن احترق. وبالرغم من شكوى الشيخ، فإنه كان يبدو فخوراً، بحقٍّ، فخوراً برفاهيته، بأولاده، بابن أخيه، بنساء أولاده، بخيله وبقره، وعلى الخصوص بازدهار أملاكه. وأثناء الحديث، علم ليفين أنه ليس معادياً للتجديد. لقد زرع كثيراً من البطاطا رآها ليفين عند وصوله عاقدةً مع أن التي لليفين لم تكدْ تُزهرُ بعد. وكان يحرث أرضه بمحراث يستعيره من عند مالك الأرض. وزرعَ حنطةً. وكان يعشّب الشيلم ويستخدم العشب لإطعام الخيول: أذهلتْ هذه الجزئيةُ ليفين. وكَمْ من مرّةٍ أراد أن يجمّع هذا الكلأ الممتاز فلم يُفلح! كان ذلك يتم عند الفلاح، وليس هذا الأمر ما يدعو ليفين إلى الافتخار!

ــ ليس للنساء ما يفعلْنه! فهنّ يحملْن العشب إلى الطريق لتحمّله العربات.

قال له ليفين وهو يمدّ إليه فنجان الشاي:

ــ تَعبْنا، نحن، كثيراً مع العمال.

أجاب الشيخ وقد تناول الفنجان، رافضاً السكر، مشيراً إلى قطعة مقضومة بقيت أمامه:

ــ شكراً. لكنْ كيف تأمل أن تنجح في عملك مع العمال؟ إنه الدمار، لا أكثر. انظرْ سفياجسكي. أعرفُ أرضه. إنها ممتازة، ومع ذلك فمحصوله ليس حسناً. كل ذلك بسبب نقص الإشراف!

ــ لكنك أنت، تُحسن تشغيلَ عمّالك!

ــ أوه! نحن فلاحون مع فلاحين. ونحن نُراقب أنفسنا. فمنْ لم يعمل جيداً يُطرد. وأولادي يكفونني للعمل.

قالت الشابةُ ذاتُ الخفين المطاطين التي دخلت:

ــ «تيوجين» يطلبُ قطراناً، يا أبـي.

قال الشيخ وهو ينهض:

ــ هيه! نعم، الأمرُ كذلك، يا سيدي.

ورسم إشارةَ الصليب عدة مرات، وشكر ليفين وخرج.

عندما دخل ليفين غرفةَ الأسرة ليدعو حوذيه، شاهد جميع رجال الأسرة على المائدة. وظلّت النساء واقفات ليقدّمن الطعام.

كان فتى جميلٌ يروي، وفمُه مملوء بالعصيدة، شيئاً مضحكاً والجميع يقهقهون؛ وكانت المرأة ذات الخفين المطاطيين التي أخذت تملأ قصعةً بحساء الملفوف أكثرهن فرحاً.

ربما كان لملاَحةِ وجه المرأة ذات الخفين المطاطيين يـدٌ كبـرى في أثـر الانسجام الذي حمله ليفين من هذا البيت، لكن هذا الأثر كان من القوة بحيث أنه لم يستطيع التخلّص منه. وحتى وصوله إلى منزل سفياجسكي، لم يكف عن التفكير في هذه الأسرة، وكأنها كانت تقتضيه انتباهاً خاصاً.

كان سفياجسكي مارشالَ النبلاء في مقاطعته. وكان أكبر من ليفين بخمس سنوات، وكان متزوجاً منذ زمن طويل. وكانت تعيش في بيته أختُ زوجته، وهي فتاة جذّابة جداً. وكان ليفين يعلم أن سفياجسكي وزوجته يرغبان كثيراً في أن يزوّجاه بها. كان يعلم ذلك، كما يعلم «الشباب الصالحون للزواج» هذه الأشياءَ. دون أن يُقدِم أحدٌ على مصارحته بذلك، لكنه كان يعلم أيضاً أن زواجه منها قليل الاحتمال (حتى لو لم يكن محباً لكيتي تشرباتزكي)، كالطيران في الهواء، بالرغم من رغبته في الزواج، وبالرغم من أن كل شيء يوحي بأن هذه الفتاة الساحرة ستكون زوجة صالحة. إن ذلك كدّر صفوَ اللذة التي كان يأمل أن يلقاها من زيارته لسفياجسكي.

عندما تلقّى ليفين رسالة صديقه التي يدعوه فيها إلى الصيد، خطر ذلك بباله على الفور، لكن قال في نفسه: إن مشروع تزويجه هذا الذي يبيّته سفياجسكي، قد لا يكون سوى افتراض من عند نفسه، ولا أساس له من الصحة، وذهب مع ذلك. وفضلاً عن ذلك، فقد كان ليفين يتوقُ، من أعماق قلبه، أن يختبر نفسه لدى احتكاكه بهذه الفتاة. لقد كانت حياة سفياجسكي العائلية رغدةً، كأرغد ما تكون، وكان سفياجسكي نفسه نموذجاً للإداري الأقليمي الذي لم ير ليفين أشد إثارةً منه للاهتمام.

كان سفياجسكي أحد الرجال الذين أدهشوا ليفين دائماً: فأفكاره التي تلتزم المنطق، وإن تكن شخصيّة إلاَّ في القليل كانتْ تسير في طريقها، بينما كانت تسير حياتُه الموجّهة بوضوح، في طريق أخرى مستقلة كل الاستقلال ومعارضة لها في الأعمّ الأغلب. كان سفياجسكي متحرّراً يحتقر الطبقة النبيلة ويقدّر أن معظم النبلاء يعادون تحرير الأقنان دون أن يجرؤوا على الجهر بذلك. وكانت روسيا، برأيه، بلداً متردّياً من نمط تركيا؛ أما حكومتها فكانت رديئةً إلى الحدّ الذي لا يتنازل معه

إلى انتقاده انتقاداً جاداً. وكان، في الوقت نفسه، مارشالاً للنبلاء نموذجياً، لا يسافر أبداً دون قبعته ذات الشارة والشريط الأحمر[1]. وكان يؤكد أن الحياة غير ممكنة إلاَّ في الخارج، وكان يسافر، فعلاً، كلما أُتيحَ له ذلك. لكنه كان يُدير، في روسيا، استثماراً معقداً جداً ومُتقناً جداً. ويتابع تقدّمه باهتمام شديد، ويعلم كل ما يجري في روسيا. وكان الفلاح الروسي يُمثّل، في نظره، وسطاً بين الإنسان والقرد. لكنه كان، أثناء الانتخابات، يُقبل على الفلاحين ليشدّ على أيديهم برضى تام، وليسمع أحاديثهم بسرورٍ تام. وكان لا يؤمن لا بالله ولا بالشيطان، لكنه كان حريصاً على تحسين أحوال رجال الدين، وتقليل عدد الخورنيات، ساعياً، في الوقت نفسه، إلى إبقاء التي في قريته.

كان نصيراً لحرية المرأة التامة، ومدافعاً، بخاصةٍ، عن حرية العمل؛ وكان الجميعُ معجبين بالوفاق التام بينه وبين زوجته (لم يكن لهما)، لقد نظّم حياةَ زوجته بحيث أنها لم تكن تعمل شيئاً، ولم يكن بوسعها أن تعمل شيئاً، إلاَّ أن تُناقش زوجها في أحسن الطرق لقضاءِ الوقت قضاءً ممتعاً.

ولو لم يُؤْتَ ليفين القدرة على فهم الناس من جانبهم الحسن لما حيّره طبعُ سفياجسكي في شيء، ولقال في نفسه: «إنه غبيّ ووغد»، ولغدا كل شيء واضحاً. لكنه لم يكن بوسعه أن يقول: إنه غبـي، لأن سفياجسكي لم يكن عظيم الذكاء، بغير جدال، فحسب، بل إنه كان عظيمَ الثقافة، عظيمَ البساطة بالرغم من ثقافته. فلم يكن هناك من موضوع لا يعرفه، لكنه لم يكن يُظهر معرفتَه إلاَّ إذا اضطُرّ إلى ذلك. ولم يكن بوسع ليفين أيضاً أن يقول: إنه وغد، لأن سفياجسكي كان، بغير شك، رجلاً مقتدراً وشريفاً وفاضلاً، رجلاً يؤدي بفرح وأمانة عملاً نال أعلى تقدير ممّنْ يحيطون به، وهو لم يقترف إثماً قط، ولا يمكن أن يقترف إثماً، عن عمدٍ، أبداً.

(١) «القبعة ذات الشارة والشريط الأحمر»: هي التي يلبسها النبلاء الذين ليس لهم بزة عسكرية، أو مدنية مميزة.

كان ليفين يحاول جاهداً أن يفهمه دون أن يفلح في ذلك، وكان يعتبر صديقه وحياته لغزاً حيّاً.

وبما أنهما كان متوادّين، فقد أجاز ليفين لنفسه أن يطرح بعض الأسئلة محاولاً أن يصل إلى أساس تصوّره للوجود؛ لكن ذلك كان بلا جدوى دائماً. فكلما حاول أن يلج إلى أبعد من غرف استقبال فكر سفياجسكي، وهي غرفٌ مفتوحةٌ لكل شيء، لاحظَ أنه يرتبك قليلاً، وأن خوفاً لا يكاد يُلحَظ يتجلّى في نظرته، وكأنه يخشى أن يفهمه ليفين، فيتملص برد سريع، وديّ وفكِه.

اغتبط ليفين كثيراً بأن يقضي هذه الإقامة القصيرة في منزل آل سفياجسكي. وبغض النظر عن سروره بمرأى هذين العاشقين، المسرورين من نفسيهما ومن الناس جميعاً، ومن منزلهما المريح، فإنه أراد، بعد أن أحسّ الآن بالاستياء من حياته، أن ينفذ إلى أعماق سفياجسكي حتى يصل إلى ذلك السر الذي يهبُه الوضوح والدقة والفرح. وفضلاً عن ذلك، فقد كان ليفين يعلم أن الملاّكين المجاورين كانوا يأتون إلى منزل سفياجسكي، وكان يهمه، ولا سيّما في هذه اللحظة، أن يناقش في هذه المسائل: المحاصيل، استئجار العمال، إلخ. . .

وهي مسائل تبدو شديدة الابتذال في عُرف عالمه، لكنها أخذت تبدو له أنها هي المهمة وحدها. وناجى نفسه: «ربما لم يكنْ لذلك أهمية في عهد القنانة، أو في انكلترا: والشروط محدّدةٌ في كلاً الحالين. أما في بلادنا حيث تسود الفوضى وحيث ما يزال النظام في بداياته، فإنه تسيير العمل هو وحده المشكلة المهمة في روسيا.

خيّب الصيدُ آمال ليفين. فالمستنقعاتُ كانت جافة ودجاج الأرض نادراً. ولم يصطدْ، بعد أن مشى النهار كله، سوى ثلاثة طيور، لكنه حمل معه شهيّةً قوية. ومزاجاً متهللاً، وحماسةً فكريّة ترافق عنده دائماً الرياضة الجسدية. لكن ذكرى الشيخ وعائلته قد عادَتْهُ، حتى في الصيد، بينما كان يظنّ أنه لا يفكر في

شيء، وقد كانت هذه الذكرى تتطلّب منه حلّ مشكلة تخصّه، لا الانتباه وحده.

وفي المساء، أثناء تناول الشاي، وبحضور الملاكيْن اللذين جاءا من أجل مسألة وصاية، بدأ هذا النقاش الممتع الذي كان ينتظره ليفين.

كان ليفين جالساً إلى مائدة الشاي قرب ربّة المنزل، وبنيّته أن يتحدث معها ومع أختها الجالسة قبالته. وكانت ربّة المنزل امرأة قصيرة، شقراء، ذات وجه مدوّرٍ حفرته الغمازات وأشرق بالبسمات. كان ليفين يحاول أن يعثر من خلالها على ذلك اللغز الذي ينطوي عليه زوجُها، لكنه لم يكن حرّ التفكير تماماً، وكان يشعر بالضيق الشديد، بسبب وجود أختها قبالته، في ثوبٍ غريب (لبستْه من أجله، كما قدّر) مقوّرٍ بشكل مربع منحرف؛ فهذا التقوير انتزعَ من ليفين حريته في التفكير، مع أن الصدر الذي كشف عنه كان شديد البياض، أو ربما لأنه كان شديد البياض، وتصوّر، وهو مخطىءٌ من غير شك، أن هذا الثوب المقوّر قد فُصّل من أجله، فلم ير من حقه أن يرفع بصره إليه وحاول جاهداً ألّا ينظر إليه؛ لكنه كان يحسّ بذنبه من جراء وجود هذا الثوب المقوّر. خُيِّل إليه أنه يخدع إنساناً ما، وأنه ينبغي له أن يشرح شيئاً ما، لكن ذلك كان مستحيلاً؛ كان يحمّر في كل لحظة، ويحسّ بالقلق والعذاب. وانتقل هذا الضيق إلى الأخت الجميلة. ولم يبدُ على ربة المنزل أنها لاحظتْ من ذلك، فكانت تجرّ أختَها عامدةً إلى الحديث.

قالت:

ــ تقولُ: إن زوجي لا يبالي بكل ما هو روسي. على العكس، إنه يُسَرُّ في الخارج، لكنه لا يُسَرّ أبداً كما يُسَرّ هنا، إذْ يحسّ أنه في منطقته، إن لديه أعمالاً كثيرة، وله موهبة الاهتمام بكل شيء. آه! ألم تذهب لرؤية مدرستنا؟

ــ بلى، رأيتُها... البيت الصغير المغطى باللبلاب؟

قالت، وأشارت إلى أختها:

ــ نعم، وهي من عمل «ناستيا».

سأل ليفين، وهو يَجْهد في تحاشي الثوب المقوّر، وإن أحسّ أنه مهما نظر إلى تلك الجهة فليس بوسعه ألاَّ يراها:

ـ أأنت تعلّمين فيها؟

ـ نعم، لكن عندنا معلمة ممتازة. ونحن نعطي فيها أيضاً دروساً في الرياضة.

قال ليفين.

ـ لا، شكراً، لا أريد شاياً بعد.

شعر أنه لم يكن مهذباً، لكنه لم يكن يقوى على متابعة هذا الحديث فنهض وهو يحمّر، وأضاف:

ـ إنني أسمع حديثاً ممتعاً جداً.

ودنا من الطرف الآخر من الطاولة حيث جلس ربُّ المنزل والملاّكان. كان سفياجسكي جالساً جلسةً منحرفة، وهو يلامس فنجانه بيد، ويقبض على لحيته بالأخرى رافعاً لها حتى تصل إلى أنفه ومرخياً لها بعد ذلك، وكأنه يتنشّق رائحتها. وكان يحدّق بعينيه الصغيرتين، السوداوين، اللامعتين في رجل ذي شاربين رماديين، قد استشاط غيظاً؛ وكان واضحاً أنه يجد في أحاديثه شيئاً من المتعة. كان الملاّك يتشكّى من الفلاحين. ورأى ليفين بوضوح أن سفياجسكي كان قد أعدّ الجواب الذي ينتزع، على الفور، من أحاديث الضيف كلَّ معنى، لكل وَضْعه كان يجبره على الصمت، وعلى الاستمتاع بشيء من السرور إلى شكوى الملاك المضحكة.

كان النبيل الريفي الكهلُ ذو الشاربين الرماديين مدافعاً عاتياً، بدون شك، عن القنانة، مشغوفاً بالعمل في الأرض. استشفّ ليفين ذلك من ملابسه القديمة (سترة بالية لعله لم يكن يرتديها دائماً)، ومن حاجبيه المقطّبين، ومن عينيه الذكيتين، ومن لغته المختارة، من لهجة الأمر التي لا بد أنه اكتسبها بالممارسة

الطويلة، ومن الحركات العريضة والقوية ليديه الملوّحتين، مع خاتم الزواج القديم الذي يزين بنصره.

[٢٧]

قال النبيل الكهلُ الذي أضاءت الابتسامةُ وجهه الذكي:

ـ لولا الأسفُ على فراق ما بدأته... الجهد الذي بذلته... لتخلّيتُ عن كل شيء، ولبعتُ وسافرت، مثل نيقولا أيفانوفتش... لأستمعَ إلى «هيلين الحسناء»[١].

قال نيقولا أيفانوفتش سفياجسكي.

ـ نعم، لكنك لم تفعلْ شيئاً من ذلك وذلك يعني أنك تجني الفائدةَ من بقائك.

ـ أجْني الفائدة لأنني أعيش في بيتي، ولأنني آمل دائماً إصلاحَ الناس. لكنني بين سُكارى، وفي فوضى لا تُصدَّقُ! لم يبقَ لهم حصان أو بقرة لفَرْط ما يقسّمون. إنهم يموتون جوعاً؛ فإذا شغّلتَهم كعمال لم يتوانوا عن إشاعة الاضطراب حيثما حلّوا، وهم يذهبون بعد ذلك إلى قاضي الصلح يشتكون إليه.

قال سفياجسكي:

ـ لكنك تستطيع أنتَ أيضاً أن تشتكي إلى قاضي الصلح.

ـ أنا؟ أبداً! لن يُفضي ذلك إلاَّ إلى الكلام! انظرْ إلى المصنع: أخذ العُمالُ العربون وذهبوا. ماذا فعل قاضي الصلح؟ برّأهم. إن ذلك كله لا يصح إلاَّ على يد محكمة المقاطعة وموظف الناحية. هناك يضربون خصمك ضرباً موجعاً كما كان الأمر في العهود الغابرة. أما إذا كان لم يتحقق ذلك فالفرار أولى!

---

(١) «هيلي الحسناء»: أوبريت لأفنباخ، كما مر من قبل.

كان واضحاً أن الملاك قال ذلك ليُكايد سفياجسكي، لكن سفياجسكي لم يكن يغضب من ذلك، بل إنه كان يستمع به.

وقال وهو يشير إلى ضيفه الآخر:

ــ ومع ذلك فلا أنا ولا ليفين ولا ذاك السيّد نلجأ إلى مثل هذه الأساليب.

قال الملاكُ مزهوّاً باستعمال كلمة «عقلاني».

ــ نعم، لكن أسألْ ميشيل بيتروفتش كيف يتصرّف. فهل هذا استثمارٌ «عقلاني»؟

قال ميشيل بيتروفتش:

ــ المسألةُ، عندي، بسيطةٌ جداً، وأنا أشكر الله على ذلك. المسألةُ كلها تنحصر في إيجاد المال اللازم للضرائب، في الخريف. إذ ذاك يأتيني الفلاحون قائلين: «خلِّصْنا من هذا المأزق، يا عزيزي». كلهم جيرانٌ لي، وأنا أشفقُ عليهم، فأعطيهم الثلث الأول، لكني أقول لهم: «تذكّروا يا أولاد، أنني هببتُ لنجدتكم، وينبغي أن تمدوا لي يدَ المساعدة عندما يُصبح ذلك ضرورياً لبذار الشوفان، وإدخال الكلأ، والحصاد. أما الأقساط فسوف نسوّي أمرها بيننا ودّياً». ولا شك أننا نجد بينهم مَنْ يخلو من الضمير...

تبادلَ ليفين الذي كان يعرف منذ زمن بعيد هذه الأساليب الأبوية، وسفياجسكي النظرَ، وقاطع ميشيل بيتروفتش، مخاطباً الملاّكَ ذا الشاربين الرماديين مرة أخرى. وسأله.

ــ كيف ينبغي، في رأيك، أن نستثمر أراضينا؟

ــ مثل ميشيل بيتروفتش: إما المناصفة وإما تأجير الأرض للفلاحين؛ كل ذلك يمكن عملُه، لكن هذه الأساليب بالذات هي التي تقود البلاد إلى الخراب. ففي الأماكن التي كانت فيها الأرض تُنتجُ، في عهد القنانة، في ظل الإدارة

الناجحة، تسعة أمثال، لا تُعطي هذه الأرض اليوم سوى ثلاثة أمثال. أضاع تحريرُ الأقنان روسياً!

ألقى سفياجسكي نظرةً باسمةً على ليفين، بل لقد ندّتْ عنه حركةٌ ساخرةٌ؛ لكن ليفين لم يكن يرى هذه الأحاديثَ مضحكةً.

وكان أفضل فهماً لها من سفياجسكي. وبدت له أدلةُ هذا السيد الذي كان يبرهن على أن التحرير خرّب روسيا، صحيحةً، جديدةً، لا يمكن دحضها. كان من الواضح أن هذا الملاك يَعْرِضُ فكرةً شخصية، وهو شيءٌ نادر جداً وهو لم يَصلْ إلى هذه الفكرة ليشغل فكره العاطل، بل إنها نشأتْ من شروط حياته ذاتها التي قضاها في عزلة الريف، وفي التأمل.

كان حريصاً أن يبرهن على أنه ليس عديم الثقافة، فقال:

ــ سوف تلاحظون أن التقدّم لم يتمّ إلاَّ بالقوة. خذوا إصلاحات بطرس وكاترين والاسكندر. خذوا تاريخَ أوروبا. وهذا أصحّ بالنسبة إلى الإصلاحات الزراعية. لقد أُدخِلتْ البطاطا إلى روسيا بالقوة. ولم نَفْلح دائماً بالمحراث. فلا بد أنه فُرض فرضاً، ولعله إنما فرض منذُ عهد الإقطاع، وبالقوة من غير شك. وفي عهد القنانة حسّنّا طرقَ الفلاحة: استخدمْنا سلطتَنا لقبول النشّافات والنسّافات وجميع الآلات. ولنَقْل السماد؛ في البداية قاوَمَنا الفلاحون ثم قَبلوا بطرائقنا. أما بعد أن أُلغيتْ القنانةُ الآن، ونُزِعتْ منا سلطتُنا، فإن الزراعة التي بلغتْ في بعض المواضع تطوراً شديداً، سوف ترتدّ إلى الأشكال البدائية. هذه قناعتي، على الأقل.

قال سفياجسكي:

ــ ولمَ ذلك؟ إذا كان استثمارك مُعَقْلناً فبوسعك أن تلجأ إلى العمل المأجور.

ــ لم تبقَ لي سلطة. مَنْ سيساعدني، أأستطيع أن أسألك عن ذلك؟

وفكّر ليفين: «هذه هي النقطة الأساسية: العاملُ هو العنصرُ الرئيسي في الزراعة الريفية».

ــ العمال.

ــ العمال لا يريدون أن يعملوا بإخلاص ولا أن يَستْخدموا الآلات بخاصة. وعاملُنا لا يعرف إلاَّ شيئاً واحداً: أن يسكر كالخنزير. فإذا سكر دمّر كلّ ما عهدتَ به إليه. إنه يُمرض حصانة إذ يسقيه في غير وقت السقي، ويُتلف عدّتَه، ويشتري بحديد العجلات خموراً ويُلقي بالوتد في الدّراسة ليعطّلها. كل ما لا يتم بحسب أفكاره يؤذيه. ولذلك لمْ يكفّ مستوى زراعتنا عن الانخفاض. لقد هُجرتْ الأراضي، فاجتاحتها الأعشاب الضارة أو وُزّعت على الفلاحين. وحيث كان الإنتاج يبلغ ملايين الصاعات هبط إلى مئات الألوف؛ الثروة العامة تنخفض. ولو أنهم حقّقوا الإصلاحات نفسها بشيء من الحذر...

وأخذ يَعرض خطةً للتحرير تتفادى هذه العثرات.

لم يكن ذلك يهمّ ليفين، لكنه عندما انتهى من كلامه، عاد إلى موقفه الأول، وقال وهو يلتفت إلى سفياجسكي، جاهداً في أن يسوقه إلى الإفصاح عن فكرته الدفينة:

ــ من المؤكد أن مستوى زراعتنا يهبط، وبالنظر إلى علاقاتنا الراهنة بالفلاحين، فمن المتعذّر إدخال طرائق عقلانية في استثماراتنا.

أجاب سفياجسكي بسرعة، وبجدّ هذه المرة:

ــ لا أرى ذلك. كلّ ما أراه هو أننا عاجزون عن إدارة الاستثمار، وأننا كنا أشد تأخراً في عهد القنانة. نحن لا نملك آلات أو ماشية ولا إدارة جديرة بهذا الإسم. بل إننا لا نعرف الحساب. أسأل الملاّك، إنه لا يعرف ما يُربحه وما يُخسره.

قال النبيل الريفي بلهجة ساخرة:

ـ القَيْد على نسختين، كما هي الحال في إيطاليا! مهما أعدتَ الحساب فلن تجد ربحاً إذا كانوا قد أتلفوا كل شيء.

ـ لا يمكنهم أن يُتلفوا كل شيء! قد يخّربون درّاستك الروسية الرديئة، لا درّاستي البخارية، قد ينهكون فرساً بليدةً تُسحب بذيلها لتمشي، لكن استخدمْ الخيل الفرنسية أو خيل الجري فسترى أنها أقدر على المقاومة. وكذلك كل شيء. ينبغي لنا أن نرفع مستوى الزراعة.

ـ لكنْ ينبغي أن نملك الوسيلةَ لتحقيق ذلك، نيقولا أيفانوفتش! أنت تتكلم كما يحلو لك؛ أما أنا فينبغي أن أدفع نفقات ابني الأكبر في الجامعة، وأبنائي الآخرين في المعهد، وليس عندي ما أشتري به الخيل الفرنسية.

ـ هناك مصارف لذلك.

ـ لأرى أملاكي تُباع في المزاد! لا، شكراً!

قال ليفين:

ـ لا أعتقد أن من الضروري ولا من الممكن أن نرفع مستوى الزراعة أيضاً. إني أكرّسُ نفسي للزراعة، وأملك الوسائل اللازمة، لكني لا أصل إلى شيء. ولا أعلم مَنْ تَخْدم هذه المصارف. فبالنسبة إليّ ضاعت هدراً جميع المبالغ التي وضعتها لاستثمار أراضيَّ: خسارة بلا تعويض في الماشية والآلات.

أيده الملاّك ذو الشاربين الرماديين قائلاً.

ـ صحيح.

وأخذ يضحك من السرور.

واستأنف ليفين.

ـ ولستُ وحدي؛ وأنا أستشهد بجميع الذين حاولوا عقلنةَ طرائق الفلاحة؛ جميعهم، ما عدا بعض الاستثناءات النادرة، أصيبوا بالخسارة، وأنتَ نفسك، أتقول أن مردود أملاكك مُربحٌ؟

قال ليفين ذلك وما لبث أن رأى في نظرة سفياجسكي ذلك التعبير الخاطف من الرعب الذي لمسه عندما أراد أن يلجَ إلى أبعد من غرف استقبال فكر سفياجسكي.

وفضلاً عن ذلك، فإن ليفين لم يكن حسن النية تماماً عندما طرح هذا السؤال. ذلك أن ربة المنزل قالت له قبل قليل، أثناء تناول الشاي، أنهم استدعوا من موسكو، في هذا الصيف، خبيراً ألمانياً بالمحاسبة حقّق في حسابات ملكيتهم، لقاء خمسمائة روبل، ووجد نقصاً قُدّر بثلاثة آلاف روبل ونيّف. لم تكن تذكر المبلغ بدقة لكن الخبير حَسَبَ كلَّ شيء حتى أرباع الكوبك.

ابتسم الملاّكُ من التلميح إلى مردود ملكية سفياجسكي. فكأنه كان يعلم ما الأرباحُ التي يجنيها من أراضيه جارُه، مارشالُ النبلاء.

أجاب سفياجسكي:

ـ لعل النتيجة لم تكن باهرة، وهذا يدلّ، في الأكثر، على أنني مزارع رديء، أو على أنني أنفق رأس مالي لزيادة الدخل. هتفَ ليفين بذعر:

ـ آه! الدخل! لعله موجودٌ في أوروبا حيث يحسّنُ العملُ الأرضَ. أما عندنا فكلما حرثناها ازدادتْ رداءةً. ولا يمكن أن يكون هناك دخلٌ في هذه الشروط.

ـ ليس هناك دخلٌ؟ هذا هو القانون، مع ذلك.

ـ إذن، نحن خارجون على القانون: الدخلُ، عندنا، لا يفسّر شيئاً. على العكس إنه يشوّش كل شيء. لا، قلْ لي كيف تستطيعُ نظريةُ الدخل أن...

قال سفياجسكي:

ـ أتريدون لبناً مصفّىً؟

وقال لزوجته:

ــ ماشا، هاتي لنا شيئاً من اللبن المصفّى أو من توت العليق. غريبٌ بقاءُ توت العليق هذا الزمن الطويل، في هذا العام.

نهض سفياجسكي ممتلئاً بالبشر وابتعد، مفترضاً، كما كان يبدو، أن الحديث انتهى، في حين كان ليفين يُقدّر أنه لم يكد يبدأ بعد.

تابع ليفين حديثه مع الملاّك، بعد أنْ حُرم مُحدِّثه، محاولاً جهده أن يبرهنَ له على أن جميع صعوباتنا تأتي من أننا لا نسعى إلى معرفة صفات العامل وعاداته؛ لكن النبيل الريفي كان، ككل الناس الذين تعوّدوا التفكير بأنفسهم، قليلَ التأثر بأفكار الآخر، ومفتوناً بأفكاره الخاصة. فأصرّ على أن الفلاح الروسي ليس سوى خنزير يحبّ أن يتصرّف كالخنزير، وعلى أننا لا يمكن انتشاله من هذا الوضع إلاّ بالقوة التي لم تعد موجودةً، أو بالعصا لكننا غدونا متحرّرين وبالغنا في ذلك حتى استبدلنا بالعصا التي مضت عليها ألف سنة تلك المحاكمَ والقرارات التي تعترف لهؤلاء الرعاع النتنين بالحق في أن يملؤوا بطونهم بالحساء، ويمنحوهم كذا قدماً مكعباً من الهواء:

قال ليفين الذي كان يحاول أن يعود إلى المسألة:

ــ لماذا تعتقد أننا لا يمكن أن نَبْنيَ مثل هذه العلاقات مع العمال الذين يجعلون العمل مُنتجاً؟

فأجاب الملاّكُ:

ــ لن نحصل أبداً على عمل مُنتج في روسيا، بسبب غياب السلطة.

قال سفياجسكي، بعد أن أكل شيئاً من اللبن المصفّى، ودخَّن سيجارة، وعاد ليُشارك في النقاش.

ــ وأين عسانا نجد شروط العمل الجديدة هذه؟

جميعُ العلاقات الممكنة بالعامل قد حُدّدتْ ودُرستْ. إن بقية البربرية:

الوحدة البدائية مع الكفيل المتضامن[١]، تسقط من ذاتها. أُلغيتْ القنانةُ، ولم يبق سوى العمل الحر، وقد حُدِّدَتْ أشكاله: العامل اليدوي، والعامل اليومي، والعامل بالمزارعة؛ ولن تجد غير هذه الأشكال.

ــ لكنْ أوروبا غيرُ راضية عن هذه الأشكال.

ــ نعم، إنها تبحثُ عن أشكال جديدة، وربما وجدتْها.

أجاب ليفين:

ــ هذا ما عنيْتُه بالضبط. فلماذا لا نبحثُ من جانبنا؟

ــ لأننا نكون كمنْ يبحث عن طرائق لإنشاء الخطوط الحديدية. فهذه الطرائقُ موجودةٌ من قبل.

قال ليفين:

ــ وإذا لم تلائم هذه الطرائقُ بلادنا، وإذا كانت غير معقولة؟ وتبينَ، من جديد، ضياءً من الرعب في عيني سفياجسكي.

ــ نعم، هذا صحيح، لقد عثرْنا على ما تبحث عنه أوروبا! إنني أعرف تلك الأغنية، لكنْ، اعذرني، هل تَعْرفُ كل ما أنْجز في أوروبا عن المسألة العمالية؟

ــ معرفة رديئة جداً.

ــ هذه المسألة تشغلُ اليوم أفضل العقول. فهناك اتجاه «شيلز ديلتش»[٢]... وهناك ذلك الأدب الواسع، المتقدّم، الذي أوحى به

---

(١) «الواحدة البدائع مع الكفيل المتضامن»: كانت قرى روسيا الكبرى منظمة في وحدات مع توزيع دوري للأراضي على الفلاحين لاستغلالها ومع كفيل متضامن لدفع الضرائب. وكان أنصار السلافية يمجدون مبدأ المساواة والتضامن هذا، أما أنصار النزعة الغربية فكانوا يرون في ذلك بقية من بقايا البربرية تحول دون الملكية الفردية. ويمكن القول أن هذا التنظيم ساعد مجيء الشيوعية إلى روسيا سنة ١٩١٧.

(٢) «شيلز ديلتش»: اقتصادي ألماني (١٨٠٨ ــ ١٨٨٣) مؤسس التعاونيات التي نالت بعض النجاح.

«لاسال»[١]. . . وهناك جمعية «ملهوس»[٢]. . . هذا أمر مقرّر، ومن المؤكّد أنك سمعتَ الناس يتحدثون عن ذلك.

ــ بشكل مُبهم.

ــ لا، إنك تعلم كل ذلك مثلي، بدون شك؛ لكنك تزعم أنك لا تعرف. وأنا، بالطبع، لستُ أستاذاً في العلوم الاجتماعية، لكن هذه المسائل استدعتْ اهتمامي، ولا بد أنها شغلتكَ إذا كانت تَعْنيك.

ــ وإلاَّمَ أفضتْ؟

ــ اعذرْني. . .

نهض النبيلان الريفيان، وودع سفياجسكي ضيفيه، فحال بذلك، مرة أخرى، دون ذلك الإيغال المتطفّل لليفين في فكره.

[٢٨]

عانى ليفين ضجراً لا يحتمل برفقة السيدتين، في هذا المساء؛ وكانت تعذّبه، أكثر من أي وقت مضى، الفكرةُ التاليةُ وهي أن عدم رضاه هذا الذي يعانيه حالياً لا يرجع إلى وضعه وحده، بل إلى الشروط العامة للحياة في روسيا أيضاً. إن إقامة نظام للعمل يؤدّي فيه العمالُ عملهم بفرح، كذلك الفلاح الذي مرّ به في طريقه، لم يكن حلماً بل مشكلة يجب حلُّها. وأحسّ بأنّ من الممكن حل هذه المشكلة وأنه ينبغي أن يقفَ الناسُ أنفسَهم عليها.

---

(١) لاسال: فردينال لاسال (١٨٢٥ ــ ١٨٦٤) منافس كارل ماركس، أحد مؤسسي الاشتراكية والحركة العمالية الألمانية.
مات في مبارزة في «كريفين»، قرب جينيف.

(٢) «جمعية ملهوس»: بنى الصناعي الألزاسي «دولفوس» سنة ١٨٥٣ ألفاً من البيوت لعماله الذين يصبحون مالكين لها بدفعهم للأجرة.

استأذن ليفين السيدتين ووَعدَ أن يمكث يوم غدٍ أيضاً لكي يذهب على جواده، وبرفقة مضيفيه، لمشاهدة انهيار غريب وقع في الغابة الأميريّة. وقبل أن يذهب ليفين إلى النوم مرّ على مكتب ربّ المنزل ليأخذ بعض المؤلفات التي أشار بها سفياجسكي عن المسألة العمّالية.

وكان مكتب سفياجسكي عبارة عن غرفة كبيرة تحيط بها خزائن الكتب مع طاولتين: طاولة ضخمة في وسط الغرفة ومنضدة نُشرت عليها بشكل نجمة حول المصباح آخر أعداد الجرائد والمجلاّت بلغات شتّى. وبجانب الطاولة سفطٌ ذو أدراج زُيِّن بحروفٍ مذهبة.

تناول سفياجسكي الكتب وجلس على مقعد قلاّب.

قال لليفين الذي وقف قرب المنضدة ليلقي نظرةً على المجلات:

ــ إلاَّمَ تنظرُ؟

وأضاف بعد أن رأى المجلة التي بين يدي ليفين:

ــ آه! نعم! إن فيها مقالةً ممتعةً.

ثم قال بشيء من البشاشة:

ــ يلوح لي أن المسؤول الرئيسي عن تقسيم بولونيا[1] ليس فريديريك الثاني. يلوحُ لي...

وقصّ عليه بإيجاز، وبوضوحه المعتاد، قصةَ الاكتشافات الحديثة الممتعة. ومع أن ليفين كان مشغولاً بالزراعة، على وجه الخصوص، إلاَّ أنه تساءَل وهو يصغي إلى مضيفه: «ما الذي يكمن في أعماق هذا الرجل؟ ولماذا، لماذا يهتم بتقسيم بولونيا؟». وعندما انتهى سفياجسكي من كلامه، سأله ليفين بشكل غير إرادي:

ــ «وماذا بعد ذلك؟» ــ لكن لم يكن من شيء «بعد ذلك».

---

(١) «تقسيم بولونيا»: التقسيم الأول في سنة ١٧٧٢ حث عليه فريديريك الثاني ملك بروسيا.

كانت المقالة ممتعة، وهذا كل شيء، ولم ير سفياجسكي من المفيد أن يشرح لماذا كانت المقالةُ ممتعةٌ.

قال ليفين وهو يتنهّد:

ــ ما أمْتعَني أنا، هو هذا العجوز المتذمّر. إنه ذكي، وفي كلامه الكثيرُ من الصحة.

قال سفياجسكي:

ــ آه! دَعك من هذا! إنه عدو لدود للتحرير، كما هي حالهم جميعاً!

ــ أنت على رأسهم، مع ذلك...

قال سفياجسكي وهو يضحك:

ــ نعم، لكني أقودهم في اتجاه آخر.

قال ليفين:

ــ هناك شيءٌ يدهشني. إنه محقٌّ حين يقول: إن أحلامنا في الاستثمار العقلاني لا يمكن تحقيقها. ولا يمكن أن ننجح إلاَّ إذا تعاطينا الربا مثل هذا الشيخ القصير، الصامت، أو بأبسط الوسائل... فمَنْ المسؤول عن ذلك؟

ــ نحن أنفسنا، بالطبع. على كل حال، ليس صحيحاً أننا لا نصادف نجاحاً. ف «فاسيلتشيخوف» يحصل على نتائج حسنة.

ــ إن لديه مصنعاً...

ــ على كل حال، لستُ أرى ما يوجب دهشتَك. إن الشعب ما يزال في درجةٍ دنيا من التطور المادي والمعنوي إلى حد يغدو من البديهي معه أن يقف في وجه أي تجديد. والزراعةُ المُعَقْلنةُ تزدهر في أوروبا لأن الشعب متعلم، يجب علينا إذن قبل كل شيء أن نعلّم الشعب، وهذا كل شيء.

ــ لكن، كيف السبيلُ إلى ذلك؟

ـ لكي نعلِّم الشعب، لا بدَّ من ثلاثة أشياء: المدارس ثم المدارس وأخيراً المدارس.

ـ لقد قلتَ أنت نفسك: إن الشعب متأخر جداً، من الناحية المادية: فما نفعُ المدارس هنا؟

ـ أتدري، إنك تذكرني بإحدى الحكايات: نُصِحَ أحدُ المرضى فقيل له: «يجب أن تأخذ مسهِّلاً» ـ «جربتُ ذلك وساءت حالي» ـ «فاستعمل العلقةَ إذن» ـ «استعملتُها وساءت حالي» ـ «طيب لم يبق لك إلاَّ أن تبتهل إلى الله» ـ «فعلتُ ذلك وغَدتْ حالي أسوأ»، وكذلك أنت. إني أحدثك عن الاقتصاد السياسي، والاشتراكية، والتعليم، فتجيب: كلُ ذلك كريه.

ـ لكن ما جدوى المدارس؟

ـ إنها تخلق حاجاتٍ جديدة.

قال ليفين بحرارة وسرعة:

ـ لم أستطع قط أن أفهم ذلك، كيف يمكن للمدارس أن تساعد الشعبَ على تحسين أحواله المادية؟ تقولُ: إن المدارس والتعليم تُولِّد حاجات جديدة في الشعب. هذا أسوأ، لأنه لن يَقْدَر على تلبية هذه الحاجات. ألأنه سيتعلم الجمعَ والطرح والمبادىء الدينية، سيكون في مقدوره أن يُحسّن وضعه المادي؟ لم أستطعْ قط أن أفهم ذلك. في مساء أول أمس، صادفت امرأةً تحمل رضيعاً، وسألتُها إلى أين تذهبُ. أجابتني: «أنا عائدةٌ من عند القابلة، فالصغير لا يكف عن البكاء، فأخَذْتُه إليها لكي تعالجه». فسألتها: «وكيف تُعالجه القابلةُ؟» ـ «إنها تضع الصبي على مجثم في قنّ الدجاج وتقول بعض الكلمات».

قال سفياجسكي وهو يبتسم بفرح:

ـ ها إنك تأتيني أنت نفسك بالجواب! فلكي لا تضع ابنها على مجثم، يجب...

فردّ ليفين بتبرّم:

ـ آه! لا! ليست أدويتك بأفضل من دواء القابلة، فالشعبُ فقيرٌ وجاهل: إننا نراه بوضوح كما ترى الفلاحة طفلها يبكي. لكن لماذا تعالج المدارسُ الشقَاء والفقرَ والجهل؟ إن ذلك غير مفهوم مثل علاج أزمات بكاء الطفل بقنّ الدجاج. أعتقد أنه يجب، قبل كل شيء، معالجة البؤس.

ـ في هذه النقطة، أنت تتلاقى مع سبنسر[١] الذي تكرهه كثيراً، وهو يقول أيضاً: إن الحضارة قد تكون نتيجة للرخاء والرفاهية، والإكثار من الاغتسال، كما قال، لا نتيجة لفن القراءة والكتابة...

ـ أرأيت! أنا سعيدٌ أو بالأحرى متألم من أن أتّفق مع سبنسر، لكني مقتنعٌ بذلك منذ أمد بعيد، لا خير في المدارس، أما ما هو ضروري فهو البُنية الاقتصادية التي تزيد من ثروة الشعب، وتترك له قدراً أكبر من الفراغ، عند ذاك سنَبْني المدارس أيضاً.

ـ بيد أن المدارس إجبارية في أوروبا بأسرها.

وسأله ليفين:

ـ وأنت أيضاً متّفق مع سبنسر، في هذه النقطة؟

ولاح في عيني سفياجسكي ضياءُ الرعب، وقال مبتسماً:

ـ حكاية الفلاحة رائعة! أسمعتَها أنت بنفسك؟

أدرك ليفين أنه لن يجد الرابط الذي يربط بين حياة هذا الرجل وأفكاره. وكان واضحاً أنه لا يبالي بالنتيجة التي يصل إليها من خلال محاكمته، لم يكن بحاجة إلاّ إلى عملية المحاكمة ذاتها. وكان يكره أن تُفضي به هذه العمليةُ إلى مأزق. لم يكن يحبّ ذلك، وكان يتملّص حينئذٍ، منتقلاً إلى موضع آخر أكثر مرحاً.

---

(١) «سبنسر»: هربرت سبنسر (١٨٢٠ ـ ١٨٩٣) عالم اجتماع إنكليزي، مؤسس مذهب فلسفي تطوري.

لقد هزّت ليفين هزاً عنيفاً جميعُ انطباعاته هذا النهار، بدءاً من الانطباع الذي اعتمل في نفسه عند الفلاح والذي غدا، على نحو من الأنحاء، أساس جميع انطباعاته وأفكاره في هذه اللحظة. وهذا الرجل الساحر سفياجسكي الذي كان يحتفظ بأفكاره الرامية إلى خدمة المجتمع، والذي كان يخبّىء في سره مبادىء مختلفة، والذي كان، في الوقت نفسه، يقود الرأي العام، هو وجمهور غفير من الناس، بواسطة أفكار غريبة عنه، وذلك الملاّك الساخط الذي كانت حججُه صحيحةً، لأنها ثمرةُ تجربة مرّة، وإن كان عداؤه لطبقة كاملة في روسيا، لأفضل طبقة، غيرَ مُسوَّغ، وكان عدمُ رضاه عن نشاطه وأمله في العثور على دواء لذلك كله، ينصهر في شعور بالقلق والانتظار لحل قريب.

عندما ظل ليفين وحده في الغرفة المخصّصة له، مستلقياً على فراشه ذي النوابض الذي كان يَنْفض ذراعيه وساقيه، لدى كل حركة من حركاته، لم يستطع أن يغمض عينيه زمناً طويلاً. لم يُثر اهتمامه أيٌّ من أحاديثه مع سفياجسكي، بالرغم من الذكاء الذي يتخلّلها، لكن الحجج التي قدّمها ذلك النبيل الريفي كانت تستحق التأملَ! كان ليفين يتذكّر كلماته كلها ويصحح في خياله الأجوبة التي ردَّ بها عليه.

«نعم كان ينبغي أن أقول له: أنت تزعم أن استثماراتنا لا تسير سيراً حسناً لأن الفلاح يكره الإصلاحات وأننا ينبغي أن نُدخلها بالقوة، ولو كان الاستثمار الزراعي فاشلاً في كل مكان لكان الحقُّ معك، لكن هذا الاستثمار يعطي نتائج حسنة حيث يعمل العامل وفقاً لعاداته، مثل الشيخ الذي توقفتُ في طريقي عنده. إن استياءَنا يدلّ على أننا نحن المذنبون لا العمال. ها قد مضتْ سنواتٌ طوال ونحن نفرض أفكارَنا، الأفكارَ الأوروبية، من غير أن نهتمَّ بطبيعة الناس الذين يعملون لنا. وَلْنحاول أن نرى في اليد العاملة الفلاحَ الروسي بغرائزه، لا قوّة مثاليةً، وَلْنصلح مشروعاتنا تبعاً لهذا المبدأ، كان ينبغي أن أقول له: تصوّر أن أرضك المستثمرة

تطوّرت كأرض الشيخ، ستجد إذ ذاك الوسيلةَ لتدفَع الفلاحين إلى الاهتمام بمردود عملهم ولحملهم على قبول عددٍ من الإصلاحات، حينذاك ستحصل على مثلين أو على ثلاثة أمثال لما كنتَ تحصل عليه دون أن تنهك الأرضَ. اقسمْ الدخلَ قسمين، وأعط قسماً للعمال: ولسوف تستفيدون جميعاً. للحصول على ذلك، يجب خفضُ مستوى المشروع وترغيب العامل في نجاحه. إن تحقيق ذلك مسألةُ تفاصيل، لكن ذلك ممكنٌ، من دون شك.

هذه الفكرة أدخلتْ الاضطرابَ الشديدَ على نفس ليفين. فقضى نصف الليل دون أن ينام، مفكراً في الوسائل الكفيلة بتنفيذ خطّته. لم يكنْ يَنْوي أن يُسافر في اليوم التالي، لكنه قرّر، هذه المرّة، أنه سيعود غداً، في الصباح الباكر، وفوق ذلك، فإن أختَ الزوجة أيْقظت فيه، بثوبها المقوّر، شعوراً قريباً من الخجل وتبكيت الضمير، وكأنه اقترف إثماً. ثم إنه يجب عليه السفر دون إبطاء ليعرض مشروعاته الجديدة على الفلاحين، قبل بذار الخريف، ليُرسي نظامَه كله على أسسٍ جديدة.

[٢٩]

كان تنفيذُ خطة ليفين ينطوي على كثير من الصعوبات، بيد أنه كافح كثيراً حتى توصّل لا إلى ما كان يتوقُ إليه بل إلى الاقتناع بأن المشروع يستحق الجهدَ الذي بذله. وجاءت إحدى الصعوبات الرئيسية من أن الاستثمار كان على قدم وساق، وأن من المتعذّر عليه إيقافَ كل شيء. ومباشرة العمل من البداية: كان لا بد من تحويل الآلة أثنَاء عملها.

عندما أطلع وكيله على خططه، في المساء الذي وصل فيه، استقبل الوكيلُ برضى ظاهر، ذلك القسمَ من كلامه الذي يبرهن فيه على أن كل ما عُملَ حتى الآن غير معقول وغير مُنْتج. وقال الوكيل بأنه كثيراً مَا تحدّث بمثل هذا الكلام، لكنه لم

يجد أذناً صاغيةً. أما الاقتراحُ الذي عرضه ليفين لإشراكه هو والفلاحين في مجموع المشروع، فلم يردّ عليه إلاَّ بما ارتسم على وجهه من أمارات الغمّ، ولم يلبث أن تكلم على ضرورة إدخال آخر عرمات الشيلم بدءاً من نهار غدٍ، ومباشرة الحراثة الثانية، فأدرك ليفين أنه لم يختْرْ الوقت المناسب.

وعندما أطْلع الفلاحين على مشاريعه الجديدة، اصطدم بعقبة أخرى: لقد كان هؤلاء الرجالُ منهمكين في عملهم اليومي انهماكاً عظيماً لا يدعُ لهم متسعاً من الوقت للتفكير في محاسن المشروع ومساوئه.

لقد بدا على الفلاح الساذج، الراعي إيفان، أنه فهم تماماً عرضَ ليفين للاشتراك هو وأسرته في أرباح فناء الدواجن، وأظهر قبوله للمشروع. لكن عندما أراد ليفين أن يُعدّد له الميزات المُقبلة، عبّر وجهُ إيفان عن الخوف والأسف على أنه لا يمكنه أن يُصغي إليه حتى النهاية: وسرعان ما تعلّل بعمل عاجل عليه أن يقوم به، من مثل إضافة الكلأ إلى مرابط الخيل، وحمل الماء أو السماد.

وعقبة أخرى هي حذر الفلاحين الذي لا يُقْهَرُ: ما كان يمكنهم التصديق بأن لدي معلمهم مشروعاً، إلاَّ أن يستغلهم جهد المستطاع. كانوا على يقين بأن هدفه الحقيقي (مهما تكن أحاديثُه) سيظلّ مخبّأً عنهم. وهم أنفسهم ما كانوا يصرّحون بهدفهم الحقيقي، عندما يُعبّرون عن رأيهم، وفضلاً عن ذلك (وكان ليفين يحس كم كان محقاً ذلك الملاك المتذمّر)، فإن أول شرط كان يضعه الفلاحون هو ألا يُجبروا على الخضوع لطرائق جديدة ولا على استخدام آلات جديدة. كانوا يقرّون بأن حراثة المحراث أجود وبأن المِجث يؤدي عملاً ممتازاً، لكنهم كانوا يتعللون بآلاف الأعذار لكي لا يستخدموا لا هذا ولا ذاك، ومع أن ليفين كان مقتنعاً بضرورة خفض مستوى الزراعة إلاَّ أنه كان يأسف على تخلّيه عن بعض الإصلاحات التي لا مجال للشك في فائدتها. بالرغم من هذه الصعوبات، توصّل إلى هدفه وشُرِعَ بالإصلاح منذ الخريف. كذلك خُيّل إليه، على الأقل.

خطر ببال ليفين، في مطلع الأمر، أن يضع المشروع بين أيدي الفلاحين والعمال ووكيله، وسرعان ما تبيّن أن ذلك غيرُ ممكن، فقرر أن يقسم أملاكه إلى أقسام، والأقسام إلى فروع، وهكذا كَوَّن فِناءُ الدواجن والحديقةُ والبستانُ والحقولُ والمروج أقساماً منفصلة. وقد عَمَدَ الراعي إيفان الذي بدا عليه أنه يفهم أفكار ليفين أكثر من الآخرين، إلى تجميع تعاونيّة مؤلفة خصوصاً من أسرته واهتم بانتاج الفناء. ووُزِّع حقلٌ بعيد ظلّ بوراً طوال ثماني سنوات، بمساعدة النجار فيدور ريزونوف، على ست عائلات من الفلاحين، وتولّى الفلاحُ «شورايف» أمْرَ البساتين جميعاً. وظلّتْ بقيةُ الأملاك تُستغلّ بحسب العادات القديمة، لكن هذه الأقسام الثلاثة كانت مُنطلقاً لتنظيم جديد أخذ يستغرق كل اهتمام ليفين.

والحقيقة أن إدارةَ فناء الدواجن لم تكن أفضل من ذي قبل، وكان إيفان يرفض بعناد أن يضع البقر في مكان دافىء وأن يفرز قشدة الحليب، زاعماً أن البقر في الإِسطبل البارد تستهلك كمية أقل من العلف، وأن الحليب الكثيف يعطي زبدةً أفضل، وكان يطلب أجرته، كما كان يطلبها من قبل، وكأنه لا يُبالي على الإِطلاق بكون هذا المال سلفةً على الفائدة وليس أجرةً.

لم يَحرثْ فلاحو جماعةً «فيدور ريزونوف» الحقول سوى مرة واحدة (بدلاً من مرتين كما كان مقرراً) بحجة أن الوقت لم يُمهلْهم ومع أنهم قبلوا العملَ على أسس جديدة، فقد ظلوا يعتقدون أنهم يستثمرون الأرض مناصفةً، وعرضوا على ليفين، وفي مقدمّتهم ريزونوف، أن يدفعوا له الأجرة قائلين: «وهكذا ستكون أنت مطمئن النفس وسنكون نحن بريئي الذمة». وأجّلوا، بحجج شتى، بناءَ اصطبل ومخزن للحبوب وما طلوا بهما حتى الشتاء.

وأراد شورايف أن يقتسم البساتين هو والفلاحون، وكأنه أساءَ متعمداً فهم الشروط التي بها أُوكِلَتْ إليه الأرض.

وعندما كان يتحدّث ليفين مع الفلاحين ويعرض عليهم محاسنَ مشروعه،

كان يُحسّ أنهم لا يصغون إليه إلاَّ بأذن شاردة متعاهدين على ألاّ يقعوا في أشراكه. وكان يشعر بذلك خصوصاً عندما يتحدث إلى أذكى الفلاحين «ريزونوف»، ويرى في عينيه بريقاً من السخرية، والثقة بأنه، إن خُدع أحدٌ فلن يكون هو «ريزونوف» ذلك المخدوع.

بالرغم من ذلك كله، كان ليفين يعتقد أن الإصلاح قد شقّ طريقه، وأنه سيبرهن، بالإشراف الدقيق على الحسابات وبالمثابرة، سيبرهن للفلاحين مع الزمن على محاسن هذا التنظيم، ثم يسير الاستثمار من ذاته.

هذه الأعمال، إضافة إلى إدارة بقية أملاكه وإلى أبحاثه في مكتبه من أجل تأليف كتابه، شغلتْ صيفَه كله، فلم يذهبْ إلى الصيد إلاَّ نادراً، وفي آخر آب، علم من رحلٍ أعاد إليه السرجَ، أن آل أوبلونسكي عادوا إلى موسكو. وأحسّ أنه حين أهمل الردَّ على رسالة داريا الكسندروفنا (لم يكن بوسعه أن يتذكّر هذه الخشونةَ إلاَّ احمرّ خجلاً) قطع على نفسه خطّ الرجوع، ولن يستطيع أبداً أن يعود إلى بيتها. وفَعَلَ الشيءَ نفسه مع آل سفياجسكي، إذ غادرهم دون استئذانهم. وهو لن يستطيع أبداً أن يعود إليهم. ليس لذلك كله من أهمية الآن. ذلك أن إصلاح استثماره أخذ يستغرق انتباهَه. وقد قرأ الكتبَ التي أتى بها من عند سفياجسكي، وجاء بغيرها، وطالع مؤلفات الاقتصاد السياسي والاجتماعي حول المسألة التي تشغله، ولم يعثر، كما توقّع، على شيء يتّصل بالمهمة التي شرعَ بها ففي مؤلفات الإقتصاد السياسي، في «ميل» مثلاً الذي التهم بحرارة كتبه قبل غيرها، آملاً في كل لحظة أن يجد حلاً للمشكلات التي تعنيه، لقيَ عرضاً للقوانين المستخلصة من وضع الاقتصاد الريفي في أوروبا، لكنه لم يدرك على الإطلاق لماذا اعتُبرتْ هذه القوانينُ عامةً، وهي غيرُ صالحة للتطبيق في روسيا. وكذلك الأمر بالنسبة إلى كتب علم الاجتماع: فقد كانت إما طوباويات جميلة غير ممكنة التحقيق وإما إصلاحات ملطّفة للوضع في أوروبا التي لا يجمعُها بروسيا جامعٌ. كان الاقتصادُ السياسي

يقول: إن القوانين التي بموجبها تطوّرت وتتطوّرُ ثروةُ إوروبا هي قوانين شاملةٌ ومطلقة، وكان علمُ الاجتماعي يُعلّم أن التطور الذي يخضع لهذه القوانين سيُفضي إلى الدمار. وكلاهما لا يُعطي جواباً عما ينبغي أن يفعله هو ليفين، وجميعُ الفلاحين والملاّكين الروس، بالآلاف الأيدي والهكتارات لكي يُسهموا إسهاماً أعظم في الرفاه العام، بل إنهما لا يلمّحان إلى ذلك تلميحاً. لقد أخذَ يقرأ الآن، بعد أن تصدّى لهذه المهمة، كل ما يتعلّق بموضوعه قراءةً مُستأنيةً، ويخطّط للذهاب في الخريف القادم إلى الخارج ليدرس المسألة على الطبيعة، ولكي لا يقع له ما كان يقع له دائماً بالنسبة إلى مسائل أخرى. فما إن يبدأ يفهم فكرة محدّثه ويعرض فكرته حتى يُقال له: «وكوفمان؟ وجونز؟ ودبوبوا؟ وميسيلي[(١)]؟ ألمْ تقرأهم؟ اقرأهمْ: لقد تعمقوا في هذه المسألة».

أخذ يرى بوضوح الآن أن كوفمان وميسيلي ليس لديهما ما يقولانه له. لقد أصبح يعلم ما يريد. كان يرى أن روسيا تملك أراضٍ رائعة وعمالاً ممتازين، وأن الأرض والعمال ينتجون كثيراً، في بعض الحالات، كما هي الحال لدى الفلاح الشيخ الذي توقّف عنده أثناء سفره. لكنْ عندما يُستخدَم رأسُ المال على الطريقة الأوروبية، فهو ينتج قليلاً، في الأعم الأغلب، وهذا ناجمٌ فقط عن أن العمال يرغبون في العمل ولا يجيدون العمل إلاَّ إذا عملوا على طريقتهم. وهذا التعارض لم يكن عرضياً لكنه دائم، وله دعائمه في روح الشعب ذاتها. وكان يعتقد أن الشعب الروسي المدعوّ إلى شغل مساحات شاسعة ما تزال قاحلة وحراثة هذه المساحات، يتمسك، حتى تُشْغَلَ تلك الأرض، بهذه التقاليد الضرورية، وأنّ هذه التقاليد ليست رديئة كما نتصور عادة« كان يريد أن يبرهن على ذلك نظرياً في كتابه، وعملياً في استثماره.

---

(١) «كوفمان، جونز، دوبوا، ميسيلي»: أسماء مؤلفين، وربما كانت هذه الأسماء من اختراع تولستوي.

[٣٠]

في آخر أيلول، جيءَ بالخشبَ لبناء الاصطبل على قطعة الأرض المخصّصة للتعاونية، وبيعت الزبدةُ وجرى اقتسامُ الأرباح. لقد أعطت الممارسةُ نتائج حسنة، هذا ما كان يعتقده ليفين على الأقل. لكنْ، كان لا بد له، لكي يفسر نشاطه تفسيراً نظرياً، ويُنهي كتابه الذي لن يُحدث، بحسب أحلامه، ثورة في الاقتصاد السياسي فحسب، بل سوف يَقْضي على هذا العلم ويضع أسساً لعلم جديد عن العلاقات بين الأرض والفلاحين، لا بد له أن يذهب إلى الخارج، وأن يدرس هناك على الطبيعة كل ما صُنع في هذا الاتجاه، وأن يجد الحجج التي تُبرهن على أن كل ما حُقِّق هناك كان بلا جدوى. ولم يكن ليفين ينتظر سوى بيع الحنطة. لكن الأمطار تبدأ، ولا يجد الفلاحون الوقت الكافي لإدخال محصول القمح والبطاطا الذي بقي في الحقول، وتتوقف الأعمال كما يتوقف تسليمُ الحنطة من جراء ذلك وكانت الطرقاتُ غير سالكة، وحملت الفياضانات معها مطحنتين، وأخذ الطقسُ يسوءُ يوماً بعد يوم.

في صباح ٣٠ أيلول، طلعت الشمس، وعاد الأملُ إلى ليفين فأخذ يتأهب للسفر، وأمر أن يوضَع القمح في الأكياس، وأرسل مديرَ أعماله إلى التاجر لتسليم المال وذهب هو نفسه ليطوف بأملاكه ولكي يعطي آخر توجيهاته قبل سفره.

وعندما أنهى ليفين عمله، عاد إلى البيت باشاً، متهلّلاً، وقد بلّله المطر الذي كان يسيل على عنقه وجزمته، بالرغم من سترته الجلدية، وعند المساء، استأنف المطرُ زخّه، وكانت الزخّةُ تلسعُ جواد ليفين لسعاً شديداً حتى أنه كان يسير مواربة، مرتعش الأذنين والعنق. لكن ليفين كان مرتاحاً في برنسه يُجيل طرفه بفرح تارةً في الجداول المعكّرة التي كانت تجري في الأخاديد، وتارةً أخرى في قطرات المطر المعلقة بالأغصان العارية، وفي بقعة بيضاء من الجليد الذي لم يذب على ألواح الجسر حيناً، وحيناً آخر فيما انتثر من أوراق الدردار الرطبة التي أحاطت الجذعَ

العاري بطبقة كثيفة، لقد كان يحسّ بحالة خاصة من الاندفاع، رغم حزن الطبيعة، فالأحاديث التي أجراها مع فلاحي القرية البعيدة تُظهر أنهم بدؤوا يألفون طرائق العمل الجديدة. والحارس العجوز الذي دخل ليفين إلى بيته ليجفف ثيابه، وافق صراحةً على مشروع ليفين، وعَرضَ هو نفسهُ أن يدخل في الجمعية لشراء الماشية.

ناجى ليفين نفسه: «يكفي أن أتابع هدفي لأنتصر». على الأقل، إني أعمل لغاية ما، ليست رفاهيتي الشخصية، بل الرفاه العام إن زراعتنا بأسرها ووضع الشعب بخاصة يجب أن يتحوّلا جذرياً. يجب أن يحل الغنى واليسرُ محل البؤس، والوفاقُ ووحدةُ المصالح محل العداء. وبكلمة واحدة، يجب أن تتمّ ثورةٌ غير دامية، هي أعظم الثورات، تتولّد في هذا الركن الصغير من منطقتنا لتشمل المقاطعة وروسيا والعالم بأسره. لأن الفكرة العادلة لا يمكنُ إلاَّ أن تكون مُخصبةً. نعم، إنها لغايةٌ تستحق الجهدَ المبذولَ. وكوني أنا نفسي قسطنطين ليفين، ذاك الذي ذهب إلى الحفلة الراقصة بربطة عنقه السوداء ورفضتْه كيتي، ذاك الذي يحسّ بصغره وتفاهته، لا يقدِّم ولا يؤخر شيئاً. وأنا مقتنعٌ بأن فرانكلين[1]، عندما كان يفحص نفسه بدقة، كان يحسّ بأنه تَعِسٌ، حذرٌ من نفسه مثلي، كل ذلك لا يعني شيئاً. ولا شك أن قد كانت له «آغات ميخايلوفنا» أخرى يبوح لها بأسراره.

كان مشبعاً بهذه الأفكار، ولم يصل إلى بيته إلاَّ عند هبوط الليل.

عاد الوكيل ومعه قسمٌ من ثمن المحصول، وأجرى اتفاقاً مع الحارس، وعلم، في طريقه، أن القمح بقي في الحقول، في كل مكان، وأن المائة والستين عرمة التي لم يسمح الوقتُ بإدخالها لا تُقاس بما فقده الآخرون.

جلس ليفين، بعد الغداء، كعادته، في مقعده، ومعه كتاب، وظلّ يفكّر، وهو يقرأ، في رحلته المقبلة، لقد غدا يرى بوضوح الآن مدى أهمية مشروعه،

---

(١) فرانكلين: (١٧٠٦ ــ ١٧٠٨) سياسي وكاتب أمريكي، مؤلف سيرة ذاتية ذكية.

وأخذت تتشكّل في ذهنه سلاسلُ كاملة من العبارات، معبرةً عن لبّ فكرته. وقال في نفسه: «يجب أن أدوّن ذلك، فهو يصلح لأن يكون مقدّمةٌ قصيرة للكتاب، وهي مقدّمةٌ طالما رأيتُها غير مجدية»، ونهض ليذهب إلى مكتبه. ونهضت «لاسكا» أيضاً، وكانت مضطجعة عند قدميه، وهي تتمطّى وتنظر إليه وكأنها تسأله أين ينبغي أن تذهب. لكنه لم يجد فراغاً ليدوّن أفكاره، لأن رؤساء الأعمال وصلوا، ولاقاهم ليفين في المدخل.

بعد أن وزّع ليفين مهمّات اليوم التالي واستقبل جميع الفلاحين الذين لهم شغلُهم معه، توجّه إلى مكتبه وجلس ليعمل. اضطجعت لاسكا تحت الطاولة، واستقرّت آغات ميخايلوفنا في مكانها المألوف، ومعها جوربها.

ما إن كتب ليفين بعض الوقت حتى عادته ذكرى كيتي وذكرى رفضها ولقائهما الأخير بحدة لم يَعْهدها من قبل. فنهض وأخذ يَذْرع الغرفة.

قالت له آغات ميخايلوفنا:

ــ لا يُفيدُك شيئاً أن تملأ قلبك بالهموم. لماذا تبقى في البيت؟ يجب أن تُسافر إلى المياه الدافئة، بما أنك قرّرتَ ذلك.

ــ سأذهب بعد غدٍ، يا آغات ميخايلوفنا. لكني سأنهي عملاً لي، قبل أن أذهب.

ــ أي عمل؟ لقد أعطيتَ ما يكفي للفلاحين! أتعلم ماذا يقولون؟ «سيتلقّى معلمُكِ مكافأةً من القيصر». وأيضاً لماذا تهتم بهم كلَّ هذا الاهتمام؟

ــ إني لا أهتم بهم، وإنما أعمل ذلك من أجل نفسي.

كانت آغات ميخايلوفنا مطلّعة على مشروعات ليفين بكل تفاصيلها. فكثيراً ما كان يَعْرض عليها أفكاره، وكثيراً ما كانا يختلفان في الرأي. لكنها فهمتْ، هذه المرة، ما قاله لها: فهماً مختلفاً. وقالت وهي تتنهَد، مستشهدةً بخادم مات حديثاً:

ـ من غير شك، يجب أن يفكر المرءُ قبل كل شيء في نفسه. انظرْ إلى بارتين دينيسيتش: لم يكن يعرف القراءة والكتابة، ومع ذلك مات ميتةً رضيّةً. لقد تناولَ، وتلقّى المسحةَ الأخيرةَ.

فقال:

ـ ليس هذا ما عنيتُه، عينتُ أنني أعمل من أجل مصلحتي الخاصة. إذْ من الأنفع لي أن يحسّن الفلاحون عملهم.

ـ آه! مهما تفعلْ فإن هؤلاء الكسالى لن يبذلوا إلا أدنى جهد ممكن. من كان ذا ضمير عملَ، ومن كان بلا ضمير لم يفعلْ شيئاً.

ـ بيد أنكِ أنت نفسك قلتِ: إن إيفان أحسنُ عناية بالحيوانات.

أجابت آغات ميخايلوفنا متابعة فكرتها بدقة:

ـ لستُ أقول سوى شيء واحد: يجب أن تتزوج، وهذا كل ما في الأمر!

هذه الإشارة إلى موضوع تفكير ليفين أحزنه وجرحه في آن واحد. فقطّب بين حاجبيه، وجلس أمام مكتبه، دون أن يجيبها، مكرراً على نفسه ما كان يفكّر فيه عن أهمية عمله. وبين الحين والآخر، كان يصيخ السمعَ في الصمت إلى صليل ابرتيْ آغات ميخايلوفنا، ويتذكّر ما أراد أن يطرده من ذاكرته، فيقطّب بين حاجبيه مرةً أخرى.

في الساعة التاسعة، سُمعَ صوتُ جلجل، وسيرُ مركبةٍ على الأرض الموحلة.

قالت آغات ميخايلوفنا وهي تنهض وتتجه إلى الباب:

ـ لقد جاءَك ضيوفٌ، وسوف يُفارقُك الضجرُ.

لكن ليفين سبقها. كان عمله يراوح مكانه، ولذلك كان مسروراً أن يستقبل زواراً، أيّاً كانوا.

[٣١]

عندما وصل ليفين إلى منتصف الدرج، سمعَ، في البهو، سعالاً معهوداً، لكنه سمعه، على نحو غامض، مختلطاً بضجَة قدميه، وترجّى أن يكون مخطئاً، وبعد لحظة شاهد هذا الشخصَ الطويل الناحل الذي يعرفه جيداً. ولم يبقَ للشك مكانٌ بيد أنّه ظلّ يترجّى أن يكون مخطئاً وأن يكون هذا الرجل المديد القامة الذي يخلعُ معطف الفرو شخصاً آخر غير أخيه نيقولا.

كان ليفين يُحب أخاه، ومع ذلك فإن رفْقتَه كانت عذاباً عليه. وفي هذه اللحظة التي كان فيها في حالة نفسية مشوّشة، بتأثير ذكرياته التي عادتْه، وبتأثير ملاحظة آغات ميخايلوفنا، بدتْ له مواجهتُه لأخيه شاقةً أشدّ المشقّة. وبدلاً من أن يُسرّي همّه بضيفٍ فرحٍ، صحيح الجسم، غريبٍ عن اضطرابه، فقد كان عليه أن يتحمّل مرأى هذا الأخ الذي يعرفه خيرَ معرفة والذي سيسوقه إلى الإعراب عن أخصّ أفكاره، وهو ما لا يبتغيه.

نزل ليفين، وهو يركضُ، إلى البهو، وقد استاء من أن يعاني مثل هذا الشعور الدنيء؛ وما أن لّمحَ أخاه حتى زالتْ خيبتُه لتحلّ الشفقة محلّها. كان نيقولا فيما مضى مخيفاً بهزاله ومظهره المرضي، أما اليوم فقد كان أشد هزالاً، وبدا مُنهكاً. لم يكن سوى هيكل عظميّ يغطيه جلدٌ.

كان واقفاً في المدخل ينزع وشاحه بحركات عصبية من عنقه، ويبتسم ابتسامةً غريبةً، مثيرةً للشفقة. وعندما شاهد ليفين هذه الابتسامة المتواضعة، المذعنة، أخذتْه الحسرةُ بخناقه.

قال نيقولا بصوت أصمّ، دون أن يحوّل عينيه لحظةً عن وجه أخيه، وهو يمسّد لحيته بيديه الطويلتين المعروفتين:

ــ هأنذا قد جئتُ. كنت أنوي المجيء منذ أمد بعيد، لكن صحتي كانت تمنعني من ذلك. الآن، تعافيتْ.

أجاب ليفين:

ــ نعم، نعم!

وزاد رعبُه عندما عانق أخاه فأحس بهزال خديه تحت شفتيه، ورأى عن كثب عينيه الواسعتين تلتمعان ببريق غريب.

لقد كتب قسطنطين ليفين إلى أخيه، قبل بضعة أسابيع، أنه سيتسلّم نحو ألفي روبل، بعد بيع حصة مشتركة من أموالهم المنقولة. فقال له نيقولا إنه جاء ليقبض هذا المالَ وخصوصاً ليُقيم إقامةً قصيرةً في مسقط رأسه، ويلامس الترابَ، لكي يستجمع قواه، مثل أبطال الأساطير، قبل أن يشرع بالعمل. وبالرغم من كتفيه المقوّستين، وهزاله المثير مع قامته المديدة، فإن حركاته ظلّت، كعادتها، نزقةً وسريعة.

غيّر نيقولا ملابسه بعناية شديدة، وهو ما كان جديداً عنده، ومشط شعره المتفرق اليابس، وصعد إلى الطابق الأول وهو يبتسم.

كانت نفسه تطفح بشراً ومودةً، كما عرفها ليفين أيام الطفولة. بل لقد تحدّث عن سيرج ايفانوفتش دون عداء، عندما رأى آغات ميخايلوفنا، ومازحَها وسألها عن أخبار الخدم القدماء، وآلمه نبأُ موت بارتين دينيسوف، فبدا الرعبُ على وجهه، لكنه تمالك نفسه رأساً، وقال:

ــ كان طاعناً في السن.

وغيّر الحديث قائلاً:

ــ نعم، إني أنوي أن أبقى عندك شهراً أو شهرين، ثم أعود إلى موسكو. أتعلم، إن مياغكوف وَعَدني بوظيفة. سأدخل الإدارة. وسأنظّم حياتي تنظيماً جديداً. بالمناسبة، لقد أبعدتُ تلك المرأة.

ــ ماري نيكولايفنا؟ كيف! ولمَ إذن؟

ــ آه! كانت امرأة حقيرة! جلبتْ عليّ كثيراً من المتاعب.

ـ آه! لم يقلْ ما تلك المتاعب. لم يكن بوسعه أن يقول: إنه طرد ماري نيكولايفنا لأن شايه كان خفيفاً جداً، وخصوصاً لأنها كانت تعتني به كمريض. وأضاف:

الخلاصةَ أني سأغيّر حياتي كلّياً. ارتكبتُ حماقات مثل جميع الناس، بدون شك، لكن الثروة آخر ما أحسبُ له حساباً، لستُ آسفاً عليها. المهم هو الصحة، والحمد لله، لقد تعافيتُ.

كان ليفين يصغي ويبحث عما يمكن أن يقول له، فلا يجد شيئاً. ولعل نيقولا أحسّ الإحساس نفسه، سألَ أخاه عن عمله؛ سُرَّ ليفين بالحديث عن نفسه، لأنه يستطيع أن يُفصح عن نفسه دون رياء. وأطْلعَ أخاه على مشروعاته وعلى محاولات الإصلاح.

أصغى إليه أخوه، لكن الظاهرَ أن ذلك لم يكن يَعْنيه.

كان هذان الرجلان مُتقاربين، مُتدانيين إلى حدّ كبير حتى إن أقل حركة أو نبرة كانت أبلغ قولاً من أية مقالة عند كل منهما.

في هذه اللحظة، حالتْ بخاطرهما الفكرةُ نفسُها: مرضُ نيقولا وموتُه المقبل اللذان طغيا على ما سواهما. ولم يجرؤ أيّ من الأخوين على التعرّض إلى ذلك، ولذلك لم يعبّر ما قالاه عما كان يَشغْلهما، وكان ما قالاه كاذباً. ولم يسرّ ليفين قط سروره بانتهاء السهرة وبأزوف موعد النوم. وهو لم يتصنّع ويتكلّف قط، مع غريب أو في حفلة رسمية، مثلما تصنّع وتكلّف في هذه اللحظة. وكان شعوره بهذا التصنّع، والندم الذي يعانيه من جراء ذلك، يزيدان من شلله. كان يود لو يبكي أخاه المحتضر، وكان عليه أن يصغي إليه وهو يتحدّث عن الحياة التي ينوي أن يحياها، وأن يُشارك في الحديث.

وبما أن البيت كان رطباً، وأنه لم تكن تُدفّأ فيه إلا غرفة واحدة، فقد أحلّ ليفين أخاه خلف الحاجز الفاصل في غرفة نومه.

أوى أخوه إلى فراشه. وكان ينام أو لا ينام، لكنه كان يتقلّب، كما يتقلّب المريضُ، ويسعل، ويهمهم بينه وبين نفسه عندما يعجز عن البصاق، وأحياناً، كان يتنهد بعمق وهو يقول: «آه! يا إلهي!» وفي أحيان أخرى، كان يُطلق، عندما يختنق: «إلى الشيطان!». وجفا النومُ عيني ليفين زمناً طويلاً وهو يصغي إليه. كانت أفكارُه شتّى لكن نتيجتها كانت واحدة: الموت.

لقد تجلّى له الموتُ، وهو النهاية الحتمية لكل شيء، لأول مرة بهذه القوة العاتية. وبدا له هذا الموت الذي كان حاضراً هنا، في هذا الأخ المحبوب الذي كان يتأوه ويبتهل، بحكم العادة، وبدون تفريق، إلى الله حيناً وإلى الشيطان حيناً آخر، بدا له هذا الموت أقلّ بعداً مما كان عليه في الماضي. وكان الموتُ في نفسه أيضاً: كان يحسّ بذلك. غداً إن لم يكن اليوم، وبعد ثلاثين سنة إن لم يكنْ غداً، وهل هناك فرقٌ؟ أمّا ما ذلك الموتُ المحتوم، فإنه لم يكن يجهله فحسب، ولم يمتنعْ عن التفكير فيه فحسب، بل إنه لم يكن يعلم كيف يفكّر فيه، ولا يجرؤ على التفكير فيه.

ــ «إنني أعملُ، وأريد أن أفعل شيئاً، وأنسى أن كل شيء سينتهي بالموت».

كان جالساً على فراشه، في الظلمة، متجمّعاً على نفسه، وذراعاه يحيطان بركبتيه، حابساً أنفاسه بفعل الجهد، لقد كان يفكّر. وكان كلما أمعن في التفكير اتّضح له أنْ لا مناصَ من ذلك، وأنه نسي أن يحسب حساباً لهذه الجزئية الصغيرة: وهي أن الموت سيأتي، وأن كل شيء سينتهي، وأن لا جدوى من القيام بأي عمل، وأن لا حيلة لأحدٍ في ذلك. نعم، إن ذلك لمرعبٌ، لكن لا مناص منه.

قال في نفس ه بيأس: «لكنني ما أزالُ حياً. والآن ماذا ينبغي أن أفعل، ما العمل؟». وأضاءَ الشمعةَ، ونهض بحذر، ومضى فوقف أمام المرآة، وتأمل وجهه وشعره. كان في صدغيه شعراتٌ بيضاء. وفتح فمه، لقد دبّ النخرُ في أسنانه

الخلفية. وكشف عن ذراعيه القويتين. كان قوياً جداً. لكن نيقولا الذي كان يتنفّس بما بقي من رئتيه، كان له هو أيضاً جسمٌ قويٌ. وفجأةً، تذكّر أنهما عندما كانا طفلين كانا يُؤخذان إلى النوم في الساعة نفسها، وأنهما كانا ينتظران انصراف فيدور بوغدانيتش ليتراميا بالوسائد على رأسيهما وهما يغربان في الضحك، وأن الخوف من فيدور بوغدانيتش ذاته لم يكن يستطيع أن يقهر ذلك الفرح بالحياة، ذلك الفرح الغامر والمتفجّر.. والآن هذا الصدر الفارغ والغائر... وأنا الذي لا يعلم ماذا سيحلُّ بي....».

وصرخَ صوتُ أخيه.

ــ كررا! كررا! إلى الشيطان! مالكَ مضطرباً؟ ولماذا لا تنام؟

ــ لا أدري. إنه الأرق.

ــ أما أنا فنمت نوماً هادئاً، لم أعدْ عرفانَ. تعال وانظرْ. جسّ قميصي. هل هي مبلّلة؟

جسّ ليفين قميصَ أخيه، وعاد إلى خلف الحاجز، وأطفأ الشمعة، وظل مستيقظاً زمناً طويلاً. لم يكد ينتهي من حل مشكلة حياته حتى جاءته مشكلةٌ جديدةٌ، لا حل لها: إنها مشكلةُ الموت.

«نعم إنه سيموت، سيموت في الخريف. كيف يمكنني أن أساعده؟ ماذا بوسعي أن أقول له؟ وما الذي أعرفه من ذلك كله؟ بل لقد كنتُ ناسياً أن الموتَ موجودٌ».

[٣٢]

لاحظ ليفين منذ زمن طويل أننا عندما نحسُّ بالضيق أمام إفراط بعض الناس في الاحترام والتذلل، فسرعان ما يتوجّب علينا أن نتحمّل تطلّباتهم ونزواتهم. وأحس أن الأمر سيكون كذلك بالنسبة إلى أخيه. وبالفعل، فلم تدمْ طويلاً دماثةُ

أخيه. ومنذ صباح اليوم التالي، بدا سريعَ الغضب، ساعياً إلى مخاصمة أخيه، محاولاً أن يصيبه في المواضع الحسّاسة.

كان ليفين يرى نفسه مُذنباً، لكن ذلك كان خارجاً على إرادته. كان يحس أنهما لو تكاشفا بما يفكّران فيه وبما يشعران به، بدلاً من التكلّف والنفاق، إذن لنظر كلٌ منهما في وجه الآخر، ولقال ليفين: «سوف تموت، سوف تموت!»، ولأجابه نيقولا: «أعلم أني سأموت، لكني خائفٌ، خائف!»، ولما زادا على ذلك شيئاً. لكن الحياةَ غيرُ ممكنةٍ على هذا النحو، ولذلك سعى جاهداً أن يفعل ما حاول أن يفعله طوال حياته دون أن يُفلح في ذلك. وما يُحسنه كثيرٌ من الناس، حسب ملاحظاته، وما لا يستطيع أن يعيش الناسُ بدونه: سعى جاهداً أن يقولَ ما لا يفكّر فيه، فأحسَّ بما في ذلك من زَيْف، وبأن أخاه فطن لذلك واغتاظ منه.

بعد يومين، استدرج ليفين أخاه فعرض عليه خطته مجدّداً، فلم ينتقدها أخوه فحسب بل تظاهر أنه يخلطها بالشيوعية:

ــ اكتفيتَ بأخذ فكرة الآخرين وشوّهتها، وأردت تطبيقها حيث لا سبيل إلى تطبيقها.

ــ لكني قلتُ لك أنْ ليس بين الشيوعية وفكرتي جامعٌ. إنهم ينكرون الملكية ورأسَ المال والإرثَ، أما أنا فأعتقد أن هذه الأمور هي «المحرّض الأساسي» (كان ليفين يأنفُ من استخدام مثل هذه الكلمات، لكنه أخذ يستخدم شيئاً فشيئاً، ودون قصد، كلماتٍ غريبة، منذ أن انغمس في عمله)، وأريدُ فقط تنظيمَ العمل.

قال نيقولا، وهو يسحب ربطة عنقه بغضب:

ــ الأمر كما قلتُ لك: إنك تأخذ فكرة الآخرين، وتحذف منها ما يكوّن قوتها، وتريد أن توهم الناس بأن ذلك شيءٌ جديدٌ.

ــ لكن فكرتي لا جامعَ بينها.

استأنف نيقولا ليفين كلامه، وفي نظراته بريقٌ ساخطٌ، وعلى فمه ابتسامةٌ ساخرة:

ــ إن لهذه المذاهب قيمة هندسية، إذا صحَ القولُ، فهي واضحةٌ وحاسمة. ولعلّ في هذا شيءٌ من الطوباوية. لكنْ لو سلَمْنا بأننا يمكن أن نضرب صفحاً عن الماضي كله: فلا ملكية، ولا أسرة، لأمكن لذلك أن يقودنا إلى إصلاح العمل. وأنت لمْ...

ــ لمَ تَخْلطُ؟ لم أكن قط شيوعياً.

ــ أما أنا فكنتُ شيوعياً، وإذا كنتُ أجدُ الشيوعيةَ سابقةً لأوانها، فهي معقولةٌ. إنّ لها المستقبلَ، كالمسيحية في القرون الأولى.

ــ إني أذهبُ فقط إلى وجوب فحص قوة العمل من وجهة نظر التاريخ الطبيعي، وبعبارة أخرى، وجوب دراستها، والبحث عن طبيعتها و...

ــ لا فائدةَ من ذلك على الإطلاق. فهذه القوة تجد بنفسها شكلاً معيناً من النشاط، شيئاً فشيئاً تبعاً لتطوّرها. لقد وُجدَ العبيدُ في كل مكان، ثم المرابعون، ونحن أيضاً لدينا المزارعون. والعمّال الأحرار، فعمّ تبحثُ فوق ذلك؟

غضبَ ليفين فجأة عند سماعه هذه الكلمات، لأنه كان يخشى في قرارة نفسه، أن يكون ذلك صحيحاً: فربما كان يبحث عن نقطة التوازن بين الشيوعية والأشكال المحدّدة للعمل، ويمكن أن يُشَكُّ في إمكان تحقيق ذلك.

أجاب ليفين بحرارة:

ــ إنما أبحثُ عن وسيلةٍ تجعلُ العمل منتجاً لي وللفلاح معاً. أريدُ إصلاحَ...

ــ أنت لا تريدُ إصلاح شيء. أنتَ تريدُ، بكل بساطة، أن تُدلّل على أصالتك، كما كنت في حياتك كلها، تريد أن تظهر، على الأقل، أنك تستغل عمالك بفكرةٍ من عند نفسك.

أجاب ليفين الذي أحسّ أن عضلات خده الأيسر أخذت ترتعش:

ـ طيّب، كما تشاء، لنقفْ عند هذا الحد.

ـ ولم يكنْ لك وليس لك قناعاتٌ، كل ما عندك هو حاجتك إلى إرضاء كبريائك.

ـ طيب، رائع، دعني وشأني إذن!

ـ وهذا بالذات ما سأفعله. لقد آن الأوان، فاغربْ عني! أنا شديدُ الأسف على مجيئي.

عبثاً حاول ليفين أن يُهدّىء أخاه بعد ذلك، فقد أصمّ نيقولا أذنيه، وصرّح بأن من الأفضل لهما أن يفترقا، ورأى قسطنطين أن الحياة غدت لا تطاق بالنسبة إلى أخيه.

كان نيقولا على وشك الرحيل عندما عاد قسطنطين يبحث عنه، ورجاه بلهجة متكلّفة أن يَعْذره إن كان قد أهانه بهذا الشكل أو بذاك.

ابتسم نيقولا وقال:

ـ آه! جاء دورُ الأَرْيحيّة! إن كنت تريدُ أن يكون الحقُ معك، فأنا أستطيع أن أوفِّر لك هذا السرور. الحقّ معك، لكنني ذاهب مع ذلك!

ومع ذلك، فإن نيقولا عانقَ أخاه قبل رحيله بالضبط، وقال له فجأة، وهو يرميه بنظرة غريبة في رصانتها:

ـ لا تحقدْ عليّ، يا كوستيا!

وتَهدّج صوتُه. كانت هذه الكلمات هي الكلمات الوحيدة التي قِيلتْ بصدق. وأدرك ليفين ما ترمي إليه: «أنتَ ترى وتعلم أنني مريضٌ، ولعلنا لن يرى أحدُنا الآخر بعد الآن». أدرك ليفين ذلك، وطفرتْ الدموعُ من عينيه. فعانق أخاه مرةً أخرى لكنه لم يستطع أن يقول شيئاً ولم يعرف ماذا يقول.

سافر ليفين بدوره إلى الخارج، بعد يومين من سفر أخيه. ولقي في القطار ابن عم كيتي تشرباتزكي الذي دهش من كآبته، فسأله:

ـــ ماذا أصابَك؟

ـــ لا شيء، سوى أن الحياة ليست بهيجةً.

دَعْك من هذا! تعال معي إلى باريس بدلاً من أن تذهب لتدفن نفسك في «ملهاوس». وسوف ترى كم نستمتع هناك.

ـــ لا، انتهى كلُّ شيء بالنسبة إليّ. لم يبق لي إلا أن أموت.

قال تشرباتزكي وهو يضحك:

ـــ إنها لحماقةٌ حقاً! وأنا الذي ما زال يستعدّ للحياة!

ـــ كنتُ أظنَ ذلك، أنا أيضاً، منذ زمن غير بعيد، أما الآن فأنا أعلم أني سأموت عمّا قريب.

كان ليفين يفكّر بصدق، فيما قاله، منذ بعض الوقت. لم يكن يرى، حيثما تطلّع، سوى الموت أو التوجّه إلى الموت. فازداد تعلّقاً بعمله من جرّاء ذلك. كان ينبغي له أن يعيشَ الحياةَ مليئةً قبل أن يَدركه الموتُ. كانت العتمةُ في نظره تغشّي كل شيء؛ لكنه كان يحسّ أن الخيطَ الهادي وسط هذه الظلمات هو عمله فتشبّث به، بكل قواه.

* * *

الجزء الرّابع

[١]

ظلّ الزوج والزوجةُ من آل كارينين، يسكنان البيتَ نفسه، ويتلاقيان كلّ يوم، لكنهما بقيا غريبين تماماً كليهما عن الآخر. وألْزمَ الكسي الكسندروفتش نفسَه برؤية زوجته كل يوم، حتى لا يبيح للخدم أن يُداخلَهم الظنُّ، لكنه كان يتحاشى العشاءَ في بيته. ولم يكن فرونسكي يتردّد على منزل آل كارينين، لكن آنا كانت تلاقيه خارج المنزل، وكان زوجُها يعلم ذلك.

كان هذا الوضعُ معذّباً. ولم يكن بطاقة أيّ منهم احتمالُه لو لم يعتقد أن ذلك سيتغير، وأن ذلك ما هو إلاّ صعوبةٌ عارضةٌ ستُذلّلُ. كان الكسي الكسندروفتش يترجّى أن ينتهي هذا الحب، ككل شيء من الأشياء، وأنْ يَنْسوْه جميعاً، وأن يظلّ اسمه بغير دنسٍ. أما آنا التي كان الوضعُ متوقّفاً عليها والتي كانت تتألم منه أكثر من سواها، فكانت تحتملُ ذلك الوضعَ لاقتناعها بأن ذلك كله سيُحَلّ وسيتوضَّح ذات يوم. لم تكن تدري ما الذي سيحلّ هذا الوضع، لكنها كانت مقتنعةً بأن ذلك الحلّ سيأتي الآن وبسرعة. أما فرونسكي الذي كان يخضع لها خضوعاً غير إرادي، فكان هو أيضاً ينتظر حدثاً مستقلاً عنه، قادراً على الإطاحة بالعقبات.

في أواسط الشتاء، قضى فرونسكي أسبوعاً مُضجراً جداً. فقد كُلِّف مرافقةَ أمير أجنبي[١] وصل، منذ وقت قريب، ليريه طرائف بطرسبرج. كان فرونسكي ذا هيبة ووقار؛ وفوق ذلك، فقد كان يملك فنّ الظهور بمظهر كريمٍ، جدير

(١) أمير أجنبي: ربما كان واحداً من الأمراء المالكين الألمان المصاهرين للأسرة الروسية المالكة.

بالاحترام، وكان من دأبه مخالطة الكبار؛ ولذلك اختير لهذه المهمة. لكن هذا الواجب شقَّ عليه. كان الأمير يريد أن يتمكّن من الإجابة عن جميع الأسئلة التي ستُطرح عليه بعد عودته، ويريد أن ينتهب الملذات، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً: لذلك اضطُرّ فرونسكي إلى أن يصطحبه إلى كل مكان. ففي الصباح كانا يذهبان لزيارة طرائف بطرسبرج؛ وفي المساء، كانا يغشيان أماكن اللهو الوطنية. كان الأمير يتمتع بصحة فذّة حتى بالنسبة إلى أمير؛ واكتسب، بالرياضة وبما يبذلُه من عناية بجسمه، قوةً عظيمة ظلّ معها نضراً مثل خيارة هولندية خضراء ولامعة، بالرغم من إفراطه في اللهو. ولقد سافر كثيراً ووجد أن إحدى الميزات الأساسية لسهولة المواصلات الحديثة هي إمكان الوصول إلى الملذات الوطنيّة. ففي إسبانيا غنّى تحت شباك المحبوبة وغازل إسبانيّةً تعزف على المندولينة، وفي سويسرا اصطاد غزالاً، وفي انكلترا وثب فوق السياجات وهو يرتدي لباساً أحمر وراهن على قتل مائتي تُدرُج، وفي تركيا، دخل قصر الحريم، وفي الهند ركب فيلاً، وهو الآن في روسيا، يريد أن يتذوّق الملذّات الروسيّة الخالصة.

ولقد بذل فرونسكي، وكان يقوم بدور رئيس التشريفات عنده، إن صحّ القولُ، كثيراً من الجهد ليُدخل في برنامجه مختلف صنوف اللهو التي قدّمتها للأمير شخصياتٌ شتى. فكان هناك سباق الخيل، والفطائر السميكة، وصيد الدب، وسباق العربات، والغجر، وحفلات السكْر التي تُحطّم فيها الآنية. وكان الأمير يتمثّل الروحَ الروسية بسهولة مدهشة، فيكسر أطباقاً كاملة من الآنية ويُجلس غجريةً على ركبتيه، ويبدو كمن يتساءل: إن كان هذا هو كل شيء وإن كانت الروحُ الروسية تقتصر على هذه المظاهر.

الحقيقة أن ما فتنه قبل غيره هو الممثلات الفرنسيات، وراقصةٌ من فرقة الباليه، والشمبانيا ذات الدمغة البيضاء. وكان لفرونسكي عادات الأمراء؛ أكان ذلك لأنه تغيّر في هذه الآونة الأخيرة أم لأنه يعيش بصحبة هذا الأمير؟ لقد بدا له

هذا الأسبوع شاقاً أشدّ المشقة. كان يُعاني أبداً شعور ذلك الإنسان الذي عُهد إليه بحراسة مجنونٍ خطر، فهو يخشى هذا المجنون ويخاف على عقله من رفقته. وكان فرونسكي يحسّ، في كل لحظة، بضرورة المحافظة على لهجة المجاملة الرسمية لكي لا يُعرّض نفسه للإهانة. وكان الأمير يُعامل بتعالٍ أولئك الأشخاص الذين كانوا يبذلون قصارى جهدهم ـ مما أثار دهشةَ فرونسكي ـ لكي يُظهروه على المسرّات الروسية. أما آراؤه في النساء الروسيات اللائي كان يودّ دراستهن فقد أسخطتْ فرونسكي غيرَ مرة. لكنْ إذا كان الأمير حملاً ثقيلاً على فرونسكي، فذلك لأنه كان يرى نفسه حين يراه. وما كان يراه في هذه المرآة لم يكن يُرضي غروره: لقد كان رجلاً شديد الغباء، شديد الرضى عن نفسه، شديد القوة، شديد النظافة، ولا شيء غير ذلك.

صحيحٌ أنه كان سيداً رفيع التهذيب، وفرونسكي لم يكن ينكرُ ذلك: كان وقوراً، معتدلَ المزاج مع رؤسائه، مُنفتحاً وبسيطاً مع أنداده، متودّداً ومتعالياً مع مرؤوسيه. وفرونسكي كان كذلك، وكان شديد الاعتزاز بهذه الصفات؛ لكنه كان أدنى مرتبةً منه، ولذلك فقد كان يثور على تصرّفاته المتودّدة والمُزدرية.

وخاطب نفسه «إنه لشقةٌ من اللحم الغبـي! أمن الممكن أن أكون مثله»؟.

ومهما يكنْ من أمر، فقد كان سعيداً، عندما ودّعه في اليوم السابع قبل سفره إلى موسكو وبُلِّغ شكره، لأنه تخلّص من هذا الوضع المزعج وتلك المرآة الفاضحة للأسرار. واستأذن الأميرَ في المحطة بعد العودة من صيد الدب الذي دام طوال الليل وكان ذريعةً لإظهار البسالة الروسية.

[٢]

عندما عاد فرونسكي إلى بيته، وجد بطاقةً من آنا كتبت فيها: «أنا مريضة وتعسة. لا أستطيع الخروج، لكني لا أستطيع أن أظل زمناً طويلاً دون أن أراك. تعال هذا المساء. الكسي الكسندروفتش يذهب إلى الجلسة في الساعة السابعة

ويبقى هناك إلى الساعة العاشرة». فكّر لحظةً في غرابة هذه الدعوة، ذلك أن كارينين قد أوجبَ ألاّ يلتقيا تحت سقفه، لكنه قرّر الذهاب.

كان فرونسكي قد ترفّع إلى رتبة عقيد، في هذا الشتاء، فترك الثكنةَ وسكن وحده. وبعد أن تناول غداءَه، استلقى على أريكة. فاختلطت ذكرياتُ تلك المشاهد الداعرة التي شاهدها، في هذه الأيام الأخيرة، بعضها ببعض، وامتزجتْ بذكرى آنا وذكرى فلاح لعب دوراً عظيماً في صيد الدب. وما لبث فرونسكي أن أغْفى. لكنه استيْقظَ في الظلمة وهو يرتجف من الفزع، وأسرع فأضاءَ شمعةً. وقال في نفسه: «ماذا؟ ما هذا؟ ما الشيء المرعب الذي رأيته في الحلم؟ آه! نعم! كان الفلاحُ القصير الوسخُ، المشعّث اللحية، يصنع شيئاً وهو منحنٍ، وفجأة لَفَظَ كلمات غريبةً بالفرنسية. لا، لم أحلمْ بغير هذا. لكن لماذا كان ذلك مرعباً إلى هذا الحد»؟. وتذكّر من جديد الفلاحَ والكلمات غير المفهومة التي ألقاها بالفرنسية، فَسَرتْ في ظهره رعشةٌ باردة.

وفكّر فرونسكي وهو ينظر إلى ساعته: «يا للحماقة»!.

كانت الساعة قد بلغتْ الثامنة والنصف. دعا خادمه وارتدى ثيابه على عجل وخرجَ. لقد نسي حلمه كلياً ولم يُقْلقه سوى تأخره. وعندما دنا من منزل آل كارينين، ألقى نظرة على ساعته فرأى أن الساعة هي التاسعة إلا عشر دقائق. كانت تقف أمام الدرج عربةٌ عاليةٌ وضيقة، يقودها جوادان أشبهان، فتعرّف إلى عربةَ آنا. وفكّر في نفسه: «كانت ستأتي إلى منزلي، وذلك أفضل.. إني أكره دخولَ هذا البيت، لكنْ، سيّان عندي، ولا أريد أن أبدو كمن يختبىء». ونزل من عربته بيسرٍ اكتسبه منذ الطفولة، كما ينزل رجلٌ لا يخجل من شيء، وصعد درجات المدخل. انفتح البابُ ودعا العربةَ حاجبٌ كان يحمل غطاءً بين يديه، ومع أن فرونسكي لا يلاحظُ التفاصيلَ عادةً، فقد فاجأ النظرة الدهشة التي حدجه بها الحاجب. وعند العتبة، أوشك أن يصطدم بألكسي الكسندروفتش. كان قنديلٌ غازي يضيء وجهه

الشاحبَ والنحيل، بقبّعته السوداء وربطة عنقه البيضاء المتميّزة عن قبة الفرو في معطفه. حطّتْ عينا الكسي الكسندروفتش الكابيَتان والجامدتان على وجه فرونسكي. انحنى فرونسكي ورفع الكسي الكسندروفتش يدَه إلى قبعته، وهو منقبض الفم، وتابعَ طريقَه.

وفكّر في نفسه: «ما أعجبَ هذا الموقفَ! ولو قاتلَ ودافع عن شرفه لأمكنني أن أتصرّف وأعبّر عن عواطفي، لكن هذا الضعف، أو هذا الجبنَ... إني أبدو، من جرّاء ذلك، كمن يريد أن يَخْدعه، مع أن ذلك أبعد ما يكون عني».

تغيّرتْ أفكار فرونسكي بعد الاستفسار الذي جرى بينه وبين آنا في حديقة «فريد». فهو، حين استسلم لضعف آنا التي وهبته نفسها كاملةً ولم تكن تنتظرْ تغييراً لمصيرها إلا منه، وحين خَضَع مسبقاً لكل شيء، قد كفّ عن التفكير؛ منذ زمن طويل، في أن هذه العلاقة يمكن أن تنتهي، كما كان يعتقد آنذاك. وتراجعت مشاريعُه الطموحةُ مرةً أخرى إلى المحل الثاني، وأحسّ أنه قد خرج من دائرة النشاط التي يتقرّرُ فيها كلُ شيء، فانهمك بدون تحفّظ في هذا الهوى الذي كان يربطه بآنا ربطاً يشتدّ أكثر فأكثر.

من البهو، سمع وقعَ خطوات تنأى. فأدرك أنها كانت تنتظره، وأنها كانت تترقّب، وأنها تعود الآن إلى قاعة الاستقبال.

هتفتْ وهي تلمحه والدموع تَسْتبق إلى عينيها:

ــ لا، إذا استمرت الحال على هذا النحو فسيَقع ما قُدّر له أن يقعَ، في وقتٍ قريب!..

ــ وماذا دهاكِ، يا صديقتي؟

ــ ما الذي دهاني؟ إني أنتظرُ، إني أتعذّب منذ ساعتين... لكنْ لندعْ ذلك!... لا أريد أن أخاصمك. لا شك أنك لم تستطع أن تبكّر أكثر من ذلك؟ لن أقول لك شيئاً...

ووضعتْ يديها على كتفيه وألقتْ عليه نظرةً عميقةً، مولّهةً ومتفحّصةً في آن واحد. كانت تتأمّل هذا الوجهَ عن الوقت كله الذي لم تره فيه، وتقابل، شأنها في كل مرة تلقاه فيها، بين الواقع والصورة التي تصوّرتْها عنه (وهي صورةَ أجمل بما لا يُقاس، بما يتعذر قياسه، من الواقع).

[٣]

سألتْه، بينما كانا يجلسان قربَ الطاولة تحت المصباح:

ـ هل التقيْتَه؟ هذا جزاؤك بسبب تأخّرك.

ـ نعم، كيف جرى ذلك؟ كان ينبغي أن يكون في الجلسة.

ـ لقد ذهب إليها، ثم عاد ورجع، ولا أدري إلى أين. لكنّ ذلك لا أهميّة له. لا تكلّمنيْ في ذلك بعدُ. أين كنتَ؟ مع الأمير دائماً؟

كانت تَعْرف تفاصيل حياته كلها. أراد أن يقول لها إنه لم ينمْ طوال الليل، فأغفى، لكنه عندما نظر إلى وجهها المنفعل والسعيد، ندمَ وقال لها: إنه اضطُر إلى الذهاب للإبلاغ عن سفر الأمير.

ـ لكنّ كل شيء انتهى الآن؟ لقد سافر؟

ـ نعم، الحمدُ لله. لا تستطيعين أن تعلمي كم كان ذلك ثقيلاً علي.

قالت وهي تقطّب بين حاجبيها، وتتناول عن الطاولة شغلَها، وتسحب الصنّارة منه دون أن تنظر إلى فرونسكي:

ـ ولمَ ذاك؟ هذه حياتكم، أنتم الشباب.

قال وقد دهش من التغيّر الذي طرأ على أساريرها محاولاً أن يفهم معناه:

ـ لقد تخليتُ عن هذه الحياة، منذ أمد بعيد.

واستأنفَ بابتسامةٍ كشفت عن أسنانه البيضاء المنتظمة:

ـ وأُضيفُ أنني تأملتُ حياتي طوال هذا الأسبوع، كما يتأمل المرءُ مرآةً. كان ذلك ثقيلاً على نفسي.

كانت تمسك شغلَها بيد دون أن تَعمل وتحدّق فيه بنظرة بارقة، غريبة وعدائية. ولمّحتْ:

ــ مرّتْ «ليز» عليّ هذا الصباح... إنهن لا يَخَفْن من المجيء إليّ بالرغم من الكونتيس ليديا ايفانوفنا. وقد حدّثتْني عن ليلتكم الحمراء. يا للفظاعة!

ــ كنت أنوي أن أقول لك...

فقاطعتْه:

ــ أهي «تيريز» التي عرفتَها قديماً؟

ــ كنت أنوي أن أقول لك...

قالت وهي تمعن في حدّتها وتكشف عن سبب اغتياظها:

ــ ما أكرهكم، أنتم الرجال! كيف لا تفهمون أن المرأة لا يمكن أن تنسى ذلك، ولا سيّما المرأة التي لا تعرف شيئاً عن حياتك... وماذا أعلم عن حياتك، غير الذي قلتَه لي؟ وكيف أعرف إن كنتَ تقول الحقيقة؟...

ــ آنا! أنتِ تجرحينني! ألا تثقين بي؟ ألم أقلْ لكِ أنني لا أُخفي عنك فكرة من أفكاري؟

قالت وقد بدا عليها أنها تحمل نفسها حملاً على إبعاد هواجس الغيرة:

ــ بلى، بلى. لكنْ ليتك تعلم كم يؤلمني ذلك!... صدّقتُك، صدّقتُكَ... ماذا كنتَ تقول؟

لكنه لم يستطع تذكّر ما أراد أن يقوله. ذلك أن عوارض الغيرة التي تزايدت لدى آنا، منذ بعض الوقت، أخذت تُرعبه، وتُخمد حبّه، بالرغم من حرصه على إخفاء ذلك، مع أنه كان يعلم أن غيرتها دليلٌ على حبّها له. وكم من مرة ناجى نفسه قائلاً إن السعادة لا توجد بالنسبة إليه إلا في هذا الحب؛ وهي الآن تحبه كما يمكن أن تُحبَّ امرأةٌ تضع الحبّ فوق جميع خيرات هذا العالم...

وهو الآن أبعد عن السعادة منه عندما غادر موسكو ليتبعها. كان يعتقد آنذاك أنه تَعسٌ، لكن السعادة كانت أمامه، أما الآن فهو يحسّ بأن أهنأ لحظاته غدَتْ وراءَه. لم تعد آنا كما رآها في الأوقات الأولى. ولقد تغيّرتْ جسدياً ونفسياً تغيراً أضرّ بجمالها. فها هي تَعْرض في جميع أجزاء جسدها، وعندما تحدّثت عن الممثلة شوّه وَجْهَها تعبيرٌ حاقد. كان ينظر إليها كما ينظر الرجل إلى زهرة ذابلة قطفها ثم إذا به لا يكاد يعثر على الجمال الذي دفعه إلى قَطْفها. ومع ذلك فقد أحسّ أنه عندما كان حبّه أعنفَ ما يكون، كان بإمكانه، لو عزم على ذلك، أن يقتلع ذلك الحبَّ من قبله؛ أما الآن وقد بدا له أن حبه لها قد تلاشى، فقد كان يعلم أن علاقتهما لا يمكن أن تنفصم.

وأضافت:

ــ حسناً! ماذا كنتَ تريد أن تقول عن الأمير؟ لقد طردتُ الشيطانَ. (هكذا كانا يسمّيان الغيرة بينهما). ماذا بدأت تقول؟ لمَ شقّ ذلك عليك؟

قال وهو يجهد ليمسك بسلك أفكاره، بشيء من الغيظ الذي أثار انتباه آنا:

ــ آه؛ إنه لا يطاق! منظرهُ خيرٌ من مخبره. وهو أشبهُ ما يكون بحيوان معلّف من تلك التي تنال أوسمةً في المعارض، لا أكثر.

فأجابتْ:

ــ بيد أنه رأى كثيراً من الأشياء، وهو مثقّف؟

ــ نعم، لكن تعليمهم مختلفٌ عن تعليمنا. فكأنه ما تعلّم إلا لكي يكون له الحق في احتقار التعليم، كما يحتقرون كل شيء، ما عدا الشهوات البهيمية.

قالت:

ــ لكنكم تحبّونها جميعكم، هذه الشهوات البهيمية.

ولاحظ أن نظرتَها اكفهرّتْ مرة أخرى وأنها تحاشتْ عينيه.

قال لها وهو يبتسم:

ـ ولِمَ تدافعين عنه هكذا.

ـ لستُ أدافع عنه. سيان عندي؛ لكني أعتقد أنك لو لم تكن تحبّ أنت نفسك ضروبَ اللهو هذه، لكان بإمكانك أن ترفض. لكنّ من دواعي سرورك أن تتأمل «تيريز» وهي عارية...

قال فرونسكي وهو يمسك بيد آنا التي كانت ملقاةً على الطاولة، ويلثمها:

ـ ها هو ذا الشيطانُ يعود!

ـ نعم، إن ذلك أقوى مني! لا تستطيع أن تتصوّرَ كمْ تعذّبتُ وأنا أنتظرك! لا أريد أن أكون غَيْرى، ولستُ غَيْرى: إني أصدّقك عندما تكون هنا، معي؛ لكن عندما تعيش وحدك، في أمكنة أخرى، تلك الحياة التي لا أصلُ إلى فهمها...

ابتعدتْ عنه، وسحبت الصنارة المغروزة في شغلها وأخذت تَسْرد عقد الصوف الأبيض اللمّاع تحت ضوء المصباح، الواحدة بجنبَ الأخرى، بسرعة، مستعينةً بسبّابتها. وكان معصمها النحيف يتحرك بعصبية تحت كمّها المطرّز.

سألته فجأةً بنبرةٍ متكلّفة:

ـ كيف جرى ذلك إذن؟ أين التقيت الكسي الكسندروفتش؟

ـ اصطدمْنا على عتبة الباب.

ـ وهل حيّاك هكذا؟

ومطّتْ وجهها، وأغمضتْ عينيها نصف إغماضة، وغيّرت بسرعة تعبيرَ وجهها، وضمّتْ يديها. وعلى وجهها الجميل، رأى فرونسكي بغتةً تعبير وجه الكسي الكسندروفتش عندما حيّاه. فابتسم، وأخذتْ تضحك بفرح ذلك الضحك الرنّان الذي كان أحد مفاتنها.

قال فرونسكي:

ـ لستُ أفهمه على الإطلاق. فلو أنه انفصل عنك على الأقل بعد الاستفسار بينكما، أو لم أنه دعاني إلى المبارزة... أما أن يكون كذلك فلست أفهمه: كيف يستطيع أن يتحمّل مثلَ هذا الوضع؟ من الواضح أنه يتألم.

قالت آنا بضحكة قصيرة:

ـ هو؟ إنه راضٍ كلّ الرضى.

ـ لماذا نتألم جميعاً، عندما يمكن أن يكون كل شيء جميلاً؟

ـ أما هو فإنه لا يتألم. إني أعرفُه. أعرف ذلك الكذبَ الذي يغتذي به... وهل في وسع أحدٍ، إذا كان يملك أدنى قدرٍ من الإحساس، أنْ يعيشَ كما يعيش هو معي؟ إنه لا يَفْقه شيئاً، ولا يحسّ بشيء. أيستطيع رجلٌ يملك أدنى قَدْر من الإحساس أن يعيش هو وزوجته المذنبة تحت سقف واحد، وأن يخاطبها بضمير المفرد.

وقلّدتْه مرةً أخرى: «أنتِ، يا عزيزتي، أنتِ، آنا»!..

وأضافت:

ـ إنه ليس رجلاً، وإنما هو لعبةٌ. لا يعلم أحدٌ بذلك سواي. أوه! لو كنتُ مكانه لكنتُ قد قتلتُ امرأةً مثلي منذ أمدٍ بعيد، لكنتُ قد مزّقتها إرْباً إرباً، ولما قلتُ لها: «آنا، يا عزيزتي». إنه ليس رجلاً، وإنما هو آلةٌ وزارية. إنه لا يَفْهم أنني امرأتك وأنه غريب غيرُ مرغوب به... لِندعْ الكلامَ عليه، لندعْ الكلامَ عليه!...

قال لها فرونسكي محاولاً تهدئتها:

ـ أنتِ ظالمةٌ، يا صديقتي. طيّب، لن نتكلم عليه. حدّثيني عمّا فعلتِ. ماذا أصابكِ؟ ما هذا المرض الذي ذكره الطبيب؟

نظرتْ إليه بمرحٍ ساخر. كان واضحاً أنها اكتشفت في زوجها أيضاً سمةً مضحكةً وأنها تنتظر اللحظةَ المناسبةَ لتطلع فرونسكي عليها.

لكنه تابع كلامه:

ـ أعتقد أن ما بكِ ليس مرضاً وإنما هو الحَمْلُ. متى سيتم الوضع؟

انطفأ البريق الساحرُ من عيني آنا؛ وطافت بشفتيها ابتسامةٌ تكشف عن انشغالٍ وكآبةٍ دفينتين، وغيَّرتْ تعبيرَ وجهها.

ـ قريباً، قلتَ إن وضعنا معذَّبٌ، وأنه ينبغي الخروج منه. لو كنتَ تعلم كم يُرهقني، وكمْ أدفع لأحبّك بجسارةٍ وحرِّية! إذن لما تعذَّبتُ ولما عذَّبتكَ بغَيْرَتي... سيقع ذلك قريباً، لكنْ لا كما نعتقد.

وعندما خطر ببالها ما سوف يقعُ، بدتْ كمن تأخذها الشفقةُ على نفسها، واستبقَتْ الدموعُ إلى عينيها حتى إنها عجزتْ عن متابعة كلامها. فوضعتْ يدَها البيضاءَ التي تلألأت خواتمُها على ضوء المصباح، على كم فرونسكي:

ـ سيقع ذلك على نحوٍ مختلف عمّا نتصوَّر. لم أكن أشاء أن أحدِّثك عن ذلك، لكنكَ أجبرْتني على ذلك. عمّا قريب، عمّا قريب، سيُحَلُّ كلُّ شيء، وستهدأُ نفوسُنا، ولن نتألَّم بعدُ.

قال:

ـ لم أفهمْ.

هذا مع أنه فهمَ جيداً.

ـ سألتني: متى؟ وأنا أجيبك: عمّا قريب. ولن أبقى حيَّةً بعد ذلك. لا تقاطعْني.

وتابعتْ بسرعة:

ـ إني أعلم ذلك؛ هذا يقينٌ. سأموتُ؛ وهكذا سأتخلَّص وسأخلِّصك وأنا سعيدةٌ بذلك.

سالت الدموعُ من عينيها؛ انحنى على يدها وغطّاها بالقبل محاولاً إخفاء انفعاله الذي لم يكن له من مسوّغ، لكنه لم يستطع التغلب عليه.

واستأنفتْ كلامَها وهي تشدّ على يده بقوة:

ـ نعم، الأمرُ أفضلُ كذلك. لم يبقَ لنا سوى ذلك.

تمالَك نفسَه ورفع رأسه:

ـ يا للغباء! يا لحماقة ما تقولين!

ـ بلى، هذا صحيح.

ـ ما الصحيح؟

ـ سوف أموت. حلمتُ حلماً.

ردَّد فرونسكي:

ـ حلمتِ حلماً؟

وفي الحال، تذكَّر الفلاّح الذي رآه في حلمه.

قالت:

ـ نعم. كان ذلك منذ وقت طويل. دخلتُ غرفة النوم راكضةً لآخذ شيئاً، أو لأسألَ عن شيء.

واتسعتْ عيناها من الرعب، وأضافت:

ـ أنت تعلمُ كيف تجري الأمورُ في الحلم. كان في ركن الغرفة إنسانٌ...

ـ آه! يا للحماقة! كيف يمكن أن نصدق...

لم تُتحْ له أن يقاطعها. فما كانت تقوله عظيم الأهمية عندها:

ـ واستدارَ، فرأيتُ فلاحاً قصيراً، مشعّث اللحية ومخيفَ الهيئة. وأردتُ أن أهرب لكنه انحنى فوق كيسٍ وأخذ يحرِّك شيئاً..

قلَّدت الفلاح وهو يفتِّش في الكيس. وبدا الرعبُ على وجهها. وأحسَّ فرونسكي أيضاً بالرعب يجتاح نفسه، إذْ تذكَّر حلمه.

كان يفتِّش في الكيس ويدمدم بكلمات فرنسية، بسرعة شديدة، بسرعة شديدة، وهو يلثغ بالراء: «يجب أن نُطرّق الحديد، أن نسحقه، أن نعجنه...» فارتعبتُ وأردتُ أن أستيقظ، واستيقظتُ... لكنْ في الحلم. وتساءلتُ عمّا يعنيه

ذلك الحلم. عند ذاك قال لي «كورني»: «عند الولادة، ستموتين عند الولادة، يا عزيزتي. . .». واستيقظتُ حقيقةً.

قال فرونسكي، وقد أحسَّ أنْ ليس في صوته قناعة بما يقول:

ـ يا للغباء، يا للغباء!

ـ دعْنا من الكلام على ذلك. ادعُ الخدم، سأطلبُ أن يقدِّموا الشاي. لا، انتظرْ، لم يبق لدينا متَّسعٌ من الوقت. وأنا. . .

وفجأةً، توقَّفت. وتغيَّر تعبيرُ وجهها رأساً.

ـ وحلَّ التأمُّلُ الرصينُ والمتحنِّن محلّ الخوف والتأثُّر. ولم يستطع أن يُدرك علَّةَ هذا التغيُّر. لقد أحسَّت بحياة جديدةٍ تختلج في أحشائها.

[٤]

بعد أن التقى فرونسكي على درج المدخل، قصد الكسي الكسندروفتش كما كان يَنْوي، إلى دار الأوبرا الإيطالية. وبقي فيها أثناءَ الفصلين الأولين، ورأى فيها الأشخاصَ الذين كان يحتاجُ إلى رؤيتهم. ولما عاد إلى بيته تطلَّع بانتباه إلى المشجب، ولم يجد معطفاً عسكرياً عليه، فمضى إلى غرفته. وخلافاً لعادته، لم ينمْ، وذَرَع غرفته حتى الساعة الثالثة صباحاً. إن الغضب الذي ساوره إزاءَ امرأته التي رفضت مراعاة اللياقة والتقيُّد بالشرط الوحيد الذي وَضَعه لها: وهو ألا تستقبل عشيقها في بيته، إن هذا الغضب انتزع منه هدوءَه. لقد خالفتْ الاتفاقَ فينبغي إذن أن يعاقبها وأن ينفِّذ تهديده: سوف يطلب الطلاق وسيحرمها ابنَها. كان يعرفُ جميعَ الصعوبات التي يُثيرها مثل هذا المشروع، لكنه كان قد قال بأنه سيفعل ذلك، وعليه الآن أن ينفِّذ ما قاله. وقد بيّنت له الكونتيسة ليديا ايفانوفنا أن الطلاق هو المخرج الوحيد، وأن إجراءات الطلاق بُسِّطتْ كثيراً، في الآونة الأخيرة، حتى أن الكسي الكسندروفتش رأى إمكانية التغلُّب على الصعوبات الشكلية. وفضلاً عن

ذلك (المصائب تأتي تباعاً) فإن توطين الوافدين وريّ مقاطعة «زارايسك» سبّبا له كثيراً من الإزعاج، في هذه الأوقات الأخيرة، حتى إن الكسي الكسندروفتش ألقى نفسه في أقصى حالات التهيُّج.

لم ينمْ طوالَ الليل، وكان غضبُه يتصاعد بسرعة عظيمة حتى بلغ أشدَّه في الصباح. فارتدى ثيابه على عجلَ وتوجَّه إلى غرفة آنا حين علم أنها نهضتْ من نومها، وكأنه كان يحمل كأساً يخشى أن تطفح ويخشى، في الوقت نفسه، أن يبدِّد الطاقة التي يحتاج إليها لمحاسبة امرأته.

عندما دخل غرفةَ آنا التي كانت تعتقد أنها تعرفُ زوجَها حقَّ المعرفة، ذهلت من منظره. كان مقطّب الحاجبين، محدّقاً أمامه بنظرة مستقيمة، متجهّمة، متحاشياً نظرتها، زامّاً شفتيه بازدراء. وقد عبَّرت مشيتُه وحركاته ونبرات صوته عن عزمٍ وتصميم لم ترهما عليه من قبل. وبعد أن اجتاز عتبةَ الغرفة، مضى رأساً، ودون أن يُحيِّيها، إلى مكتب آنا، وأخذ المفتاح منه وفتح درجَها. فهتفت:

ــ ماذا تريد؟

قال:

ــ رسائل عشيقك.

فاستأنفت وهي تغلق الدرج:

ــ إنها ليست هنا.

لكنه أدرك من حركتها، أن ظنه لم يخطىء، فدفع يدها بشدَّة، وقبض بسرعة على المغلف الذي يعلم أنها تُودع فيه أهمَّ أوراقها. أرادت أن تنتزعَ منه المغلف لكنه ردَّها.

ــ قال لها وهو يضع المغلَّف تحت ذراعه ويشد عليه شداً ارتفعَ كتفُه من جرَّائه.

ــ اجلسي! فعليَّ أن أكلِّمك.

نظرتْ إليه دون أن تفوه بكلمة، مدهوشةً وخائفة:

ـ لقد منعْتكِ أن تستقبلي عشيقَك في بيتي.

ـ كنتُ بحاجة إلى رؤيته من أجل...

وتوقفت عاجزة عن إيجاد الذريعة.

ـ لا تهمّني الأسباب التي من أجلها تحتاج المرأة إلى رؤية عشيقها.

قالت وهي تحمرّ، وقد غاظتْها فظاظتهُ وأكسبتْها جرأةً:

ـ أردتُ فقط... كيفَ لا تشعر إلى أي حد يسهلُ عليك أن تهينني؟

ـ يمكن أن نُهينَ رجلاً شريفاً وامرأة شريفة، أما أن تقول للسارق إنه سارق، فهذا ليس سوى تقريرٍ للواقع.

ـ وهذه سمة جديدة من القسوة التي ما كنتُ أعرفها فيك.

ـ أتجدين من القسوة أن يمنحَ الزوجُ الحريةَ لامرأته، وأن يجعل من اسمه ملجأً شريفاً لها، على شرط أن تراعي اللياقة؟ أهذه هي القسوة؟

ـ إنها أسوأ من القسوة، إنها دناءةٌ، إذا شئتَ أن تعلم!

قالت آنا ذلك في سَوْرةٍ من حقدها. ونهضتْ وأرادت أن تخرج. صرخ بصوته الثاقب الذي ارتفع جرسه فوق العادة:

ـ لا!

وضغط على ذراع آنا ضغطاً شديداً بأصابعه الطويلة حتى لقد ترك سوارها آثاراً حمراء على يده، وأجبرها على الجلوس ثانيةً. وأضاف:

ـ دناءة؟ إن كنتِ ترومين استخدام هذه الكلمة، فالأصحُّ أن الدناءة هي أن تترك الزوجةُ زوجَها وابنها من أجل عشيقها وتظلّ تأكل من خبز زوجها.

ـ أطرقتْ رأسَها. ولم تقل له ما قالته لفرونسكي البارحة: إنه «هو» زوجها، وأن كارينين فَضْلةٌ لا لزوم له، بل إن ذلك لم يخطر ببالها. لقد أحسَّتْ بصدق كلامه واكتفت بأن قالتْ له همساً:

ـ لا تستطيع أن تحكم على وضعي بأقسى مما أحكمُ عليه أنا نفسي؛ لكنْ لمَ تقول ذلك كله؟

قال باللهجة الغاضبة نفسها:

ـ لِمَ أقولُ ذلك؟ لِمَ؟ لكي تعلمي أنك ما دمتِ لم ترضخي لإرادتي فيما يتعلّق بمراعاة اللياقة، فسوف أتّخذ التدابير التي تُنهي هذا الوضع. فأجابتْ، والدموعُ تسْتبقُ إلى عينيها عندما تذكّرت الموتَ القريب، الذي صارت تتمنّاه الآن:

ـ سينتهي من ذاته.

ـ سينتهي بأسرع ممّا تتصوّران أنتِ وعشيقك! أنتما تبحثان عن إشباع الشهوات الجسدية...

ـ الكسي الكسندروفتش! إنه لعملٌ غير كريم، بل إنه لعملٌ غير لائق أن تضربَ إنساناً وهو صريع.

ـ نعم، أنتِ لا تفكّرين أبداً إلا في نفسك! وآلامُ الرجل الذي كان زوجك لا تعنيك في شيء. لا فرقَ عندكِ إنْ تحطّمت حياتُه، إن تأ... تألم من الموت والهوى.

كان الكسي الكسندروفتش يتكلّم بسرعة كبيرة تلجلج معها. وبدا ذلك مضحكاً لآنا، لكنها ما لبثت أن خجلت من أن تَجد ما يُضحكُ، في هذه اللحظة. ولأول مرة شاركته مشاعره، وتصورت نفسها مكانه، وأشفقت عليه. لكنْ ماذا بوسعها أن تقول أو تفعل؟ فأطرقت رأسَها وأخلدتْ إلى الصمت. وسكتَ هو أيضاً بعضَ الوقت، ثم عاد إلى الكلام بصوت أقل حدّةً مشدّداً عن قصد على بعض الكلمات التي لم تكن لها أهمّيةٌ خاصةٌ.

بدأ كلامه قائلاً:

ـ جئتُ لأقول لك.

رفعتْ عينيها إليه. وفكَّرتْ في نفسها وهي تتذكَّر تعبيرَ وجهه عندما تلجلج: «لا، لم يكنْ ذلك سوى ظاهرٍ خادع. لا، إن رجلاً بمثل هاتين العينين الكابيتين وذلك الهدوء الراضي لهو عاجزٌ عن الإحساس بشيء أيّاً كان».

همستْ:

ــ ليس بوسعي أن أغيِّر شيئاً.

قال الكسي الكسندروفتش وهو يتذكَّر بجهد ما أراد أن يقوله بصدد ابنه:

ــ جئتُ لأقول لك أنني مسافرٌ غداً إلى موسكو وأنني لن أعود أبداً إلى هذا البيت. وسأُعلِمُك بقراراتي على يد المحامي الذي سأوكل إليه قضية الطلاق. أما ابني فسيذهب ليعيش عند أختي.

قالت وهي تختلس النظر إليه:

ــ أنتَ تستخدم سيريوجا لتعذِّبني. أنت لا تحبّه... فَدَعْهُ لي!

ــ صحيح، فلم يبقَ في قلبي من محبة لابني. الكره الذي ابتعثْتِه فيَّ انعكس عليه. ومع ذلك فسوف آخذه منك. وداعاً!

فهمست من جديد:

ــ الكسي الكسندروفتش، اتركْ لي سيريوجا! هذا كل ما أطلبهُ منك. اتركْه لي حتى... سأصبحُ أما عمّا قريب، اتركْه لي!

احمرَّ الكسي الكسندروفتش. وسحب يدها بسرعة، ثم غادر الغرفة دون أن ينطق بكلمة.

[٥]

كانت قاعة انتظار محامي بطرسبرج الشهير ملأى عندما دخلها الكسي الكسندروفتش. ثلاث سيِّدات: شابةٌ وعجوز وامرأة تاجر، وثلاثة رجال: مصرفيٌّ ألماني يضع خاتماً في إصبعه، وتاجر ملح، وموظف في بزته، وفي صدره وسام، وهو بادي الضيق، كانوا جميعاً ينتظرون منذ وقت طويل، على ما يظهر. وكان في

الغرفة أمينان للسر يكتبان بريشتين يُسمع صريرهُما. أما أدوات المكتب التي كان الكسي الكسندروفتش هاوياً لها فكانت من الصنف الأول. ولم يفت الكسي الكسندروفتش أن يلاحظ ذلك. التفت إليه أحد أميني السر بخشونة، دون أن ينهض، وهو يغمض عينيه نصف إغماضة:

ـ فيمَ ترغب؟

ـ في أن أكلِّم المحامي.

أجاب بجفاف وهو يشير بريشته إلى الحاضرين:

ـ إنه مشغول.

وتابع كتابتَه.

قال الكسي الكسندروفتش:

ـ ألا يمكنه أن يجدَ لحظةً ليستقبلني؟

ـ ليس لديه أبداً لحظةٌ فارغة، فهو مشغولٌ دائماً. تفضَّل وانتظرْ.

قال الكسي الكسندروفتش بوقار، حين رأى نفسَه مضطراً للكشف عن هويته:

ـ اعملْ معروفاً وأعطه هذه البطاقة.

تناولَ أمينُ السر بطاقة الزيارة التي بدا عليه أنه لا يوافق على محتواها.

كان الكسي الكسندروفتش يعترف من حيث المبدأ بصحة الإصلاح القضائي، لكنه لم يكن يستطيع أن يوافق كلياً على بعض أنماط تطبيقه، لأسباب إدارية عُليا يَعْرفها، وكان ينتقد هذه الأنماط بمقدار ما يستطيع أن ينتقد مؤسسةً تؤيدها السلطةُ العُليا. كانت حياتُه بأسرها مكرسةً للنشاط الإداري، ولذلك، فعندها كانت ينتقدُ جزئيةً ما، كان يعترفُ، في الوقت نفسه، بأنه لا مناصَ من الأخطاء لكننا يمكن أن نصحِّحها في كل حالة خاصة. وكان لا يوافق على الامتيازات الممنوحة للقُضاة، في المؤسسات القضائية الجديدة.

لم تكن له، حتى اللحظة الحاضرة، صلةُ بهم، ولذلك كان ينتقدهم نظرياً؛ أما الآن فإن موقفه النقدي يرتكز على الأثر السيِّء الذي تركته فيه قاعة الانتظار.

قال أمين السر:

ـ سيأتي حالاً، والواقع أنه ظهر، بعد دقيقتين، عند الباب، شخصُ فقيه عجوز طويل كان يتشاور مع المحامي، ثم ظهر المحامي نفسه.

كان المحامي رجلاً قصيراً، سميناً وأصلع، له لحية سوداء تميل إلى الشقرة، وجبهة محدّبة، وحاجبان طويلان رقيقان. وكان متبرّجاً مثل طالبٍ للزواج، من ربطة عنقه وسلسلة الساعة المضاعفة إلى حذائه الملمّع. لقد عكس وجهه الذكاءَ والقوة، لكن تأنُّقه دلَّ على فساد ذوقه.

قال المحامي وهو يلتفت إلى الكسي الكسندروفتش:

ـ أرجوك.

وتركه يمرّ أمامه وهم متجهم، وأغلق الباب. وقال له وهو يشير إلى مقعد قرب المكتب المغطّى بالأوراق.

ـ تفضَّل بالجلوس.

وجلس قربه وهو يفرك يديه الصغيرتين، القصيرتين، بشعرهما الأبيض، إحداهما بالأخرى، ويَحْني رأسه جانبياً. ولم يكد يتجمَّد في هذا الوضع حتى أخذت عثَّةٌ تحوم فوق المكتب. فهبَّ المحامي بسرعة لا تُتوقع منه، وباعد بين يديه، وقبض على العثة، وعاد إلى وضعه.

قال الكسي الكسندروفتش الذي تابعت عيناه بدهشةٍ حركات المحامي:

ـ قبل أن أبدأ بالكلام على قضيَّتي، لا بدَّ لي من التنويه بأن غرض زيارتي ينبغي أن يظل مكتوماً.

افترَّت شفتا المحامي اللتان علاهما شاربٌ ضاربٌ إلى الشقرة، عن ابتسامة خفيّة:

ـ لو لم أكن أحسنُ صونَ الأسرار التي يودعها أصحابُها عندي لما صرتُ محامياً. لكن إذا كنتَ ترغب في ضمانة. . .

ألقى الكسي الكسندروفتش نظرة عجلى على وجهه فرأى أن عينيه الرماديتين والذكيتين تضحكان، وكأنهما تعلمان كل شيء.

قال الكسي الكسندروفتش:

ـ أتعرفْ اسمي؟

قال المحامي وهو ينحني:

ـ أَعرفُك وأَعلمُ، ككل الروس، (وهنا التقط عثّة أيضاً)، مدى الخدمات التي تؤدِّيها لبلدك.

تنهَّد الكسي الكسندروفتش، واستنجد بشجاعته ثم حزم أمره، وبدأ الكلام بصوته الحاد، دون تردُّد، ومشدِّداً على بعض الكلمات:

ـ مصيبتي أنني زوجٌ مخدوع، وأنا أرغب في فسخ الزواج شرعياً، وبعبارة أخرى إنني أرغب في الطلاق، لكن بحيث يَنْفصل ابني عن أمه.

كانت عينا المحامي الرماديتان تحاولان جهدهما ألاّ تضحكا، لكنهما كانتا تتلألآن بفرح عاتٍ، ورأى الكسي الكسندروفتش أن ذلك لم يكنْ فقط فرحَ رجلٍ أُوكلت إليه قضيةٌ مربحةٌ: بل كان نصراً، وحماسةً، وبريقاً شبيهاً بذلك البريق المشؤوم الذي رآه في عيني زوجته.

ـ أنت تطلب مساعدتي لتحصل على الطلاق؟

ـ بالضبط. لعلّي أوشك أن أستغلّ حسن إصغائك: لقد جئتُ، بادىء ذي بدء، أسألك المشورة. إنني أرغب في الطلاق، لكن إجراءات الطلاق مهمةً بالنسبة إليّ. وإذا لم تتطابقْ هذه الإجراءات وشروطي فسأعدل عن الدعوى القانونية.

قال المحامي:

ـ أوه! الأمرُ كذلك دائماً، ستبقى حراً في أن تتصرف كما تشاء.

ظلَّ المحامي محدِّقاً في قدمي الكسي الكسندروفتش، لأنه خشي أن يجرحَ زبونَه مشهد الفرح الذي لم يستطع أن يكبته ونظر إلى عثة تطيرُ أمام أنفه، لكنه امتنع عن القبض عليها احتراماً لوضع الكسي الكسندروفتش.

وتابع الكسي الكسندروفتش:

ـ مع أنني أعرف تشريعنا بهذا الصدد، في خطوطه الكبرى، إلا أنني أحبّ أن أعرف أشكال تطبيقه العملي.

أجاب المحامي دون أن يرفع عينيه، مصطنعاً لهجة زبونِه بشيءٍ من السرور:

ـ تريد مني أن أعرضَ عليك الطرق التي يمكنك بها أن تصل إلى تحقيق مشروعك؟

وتابع كلامه، بعد إيماءة الموافقة من كارينين، وهو يلقي، بين الفينة والفينة، نظرةً خاطفة على وجه الكسي الكسندروفتش الذي وشَّتْه الحمرةُ:

ـ الطلاق، تبعاً لقوانيننا (واصطبغت نبرةُ صوته بشيء من الازدراء وهو يقول: قوانيننا) ممكن، كما تعلم، في الحالات التالية. . .

وقال لأمين سره الذي أطل برأسه من الباب: «ليَنْتظروا».

ومع ذلك نهض، وذهب إليه وأسرَّ إليه ببعض كلمات ثم عاد وجلس وتابع:

ـ في الحالات التالية: سوء التركيب الجسدي، غياب أكثر من خمس سنوات (وطوى إصبعه القصيرة المغطاة بالشعر)، وأخيراً الزنى (ولفظ هذه الكلمة برضىً ظاهر). أما التفريعات فهي (وظلَّ يطوي أصابعه الضخمة مع أن الحالات وتفريعاتها لا يجوز بطبيعة الحال أن تُصنّف معاً): سوء التركيب الجسدي في الزوج أو الزوجة، زنى الزوج أو الزوجة. (وبما أن جميع أصابعه كانت مطويَّـةً)، فقد فتح يده وتابع): هذه لمحةٌ نظرية، لكني أعتقد أنك تفضَّلتَ بالسؤال لمعرفة

التطبيق العملي. وإذنْ، فأنا أسترشدُ بالسوابق وأقول لك: إن حالات الطلاق ترجع جميعها إلى ما يلي... ــ وإذا كنتُ قد أحسنتُ الفهمَ، فليس في حالتك سوء تركيب جسدي أو غياب. ــ؟.

هزَّ الكسي الكسندروفتش رأسه موافقاً.

قال المحامي:

ــ ترجع إلى ما يلي: زنى أحد الزوجين، وفي هذه الحالة إثبات جرم أحد الطرفين بالتراضي، أو، في حال عدم التراضي... بالجرم المشهود. ولا بد من القول إن الحالة الأخيرة نادرة الوجود عملياً.

وبعد أن لقى نظرةً سريعة على الكسي الكسندروفتش سكتَ، كما يسكتُ تاجر الأسلحة بعد أن يمدح محاسنَ هذا السلاح أو ذاك، وينتظرُ انتقاءَ المشتري. لكن الكسي الكسندروفتش لاذ بالصمت، فاستأنف المحامي:

ــ وفي رأيي أن أبسط السبل وأكثرها استخداماً وأقربها إلى العقل هو الزنى بالتراضي. وما كنتُ أجيزُ لنفسي هذا التعبير لو لم أعلم أنني أخاطبُ رجلاً متطوّراً، لكنني أعتقد أننا متفاهمان.

كان الكسي الكسندروفتش مبلبل الفكر إلى حدّ لم يدرك معه على الفور مزيَة الزنى بالتراضي، وكشفتْ نظرتهُ عن هذه الحيرة، لكن المحامي ما لبثَ أن هبَّ لنجدته:

ــ قد يغدو الزوجان عاجزين عن التعايش: هذا أمر واقع. فإذا وافق الاثنان كلاهما على الطلاق أصبحت التفاصيل والشكليات عديمة الأهمية. وهذه، في الوقت نفسه، أبسط وسيلة وأوثقها.

فهم الكسي الكسندروفتش القضية فهماً كاملاً، هذه المرة. لكن قناعاته الدينية كانت تمنعه من اللجوء إلى هذه الوسيلة.

قال:

ــ هذا غير وارد في الحالة الحاضرة: ولست أرى سوى حل واحد: وهو إثبات الزنى بواسطة رسائل في حوزتي.

بَرْطَمَ المحامي، عند سماعه كلمةٍ «رسائل»، وندَّ عنه ما يُعبِّر عن الرأفة والازدراء، وقال:

ــ لا تنسَ أن القضايا التي من هذا النوع هي من اختصاص المحكمة الروحية العليا. ورؤساء الكهنة يشتهون كثيراً بعض التفاصيل... قال ذلك وهو يبتسم ابتسامة عطف على أذواق رؤساء الكهنة، وتابع:

ــ لا شك أن الرسائل قد تكون مفيدةً، لكن الأدلّة يجب أن تُقامَ مباشرة، أي بالشهود. وإذا تكرّمتَ بمنحي ثقتك، فاتركْ لي حرية اختيار الوسائل التي يجب أن تُتَخذ. مَنْ رامَ الغايات هانتُ عليه الوسائل.

قال الكسي الكسندروفتش الذي امتقع لونُه:

ــ إذا كان الأمرُ كذلك...

في هذه اللحظة، نهض المحامي وجرى إلى الباب ليردّ على أمين سره، مرةً أخرى، وقال له:

ــ قلْ لهذه السيدة أننا لا نُساوم هنا!

رَجعَ نحو الكسي الكسندروفتش. وفي طريقه التقطَ عثّة دون أن يُلْحظَ. وفكَّر في نفسه وهو يقطّب بين حاجبيه: «ما أقلّ راحتي في هذا الصيف!»، وقال:

ــ ماذا كنتَ تقول؟

قال الكسي الكسندروفتش وهو ينهض ويتكىء على الطاولة:

ــ سأبلغك قراري، في رسالة.

وأضافَ، بعد أن صمت لحظةً:

ـ إن كلامك يَسْمح لي إذن بأن أعتبر الطلاق ممكناً. سأكون ممتناً لو عرّفتني بشروطك.

قال المحامي دون أن يجيب على سؤاله:

ـ كل شيء ممكن، إذا تركتَ لي حرية العمل.

وسأله المحامي وهو يقترب من الباب، وعيناه تبرقان كحذائه الملمّع:

ـ متى يمكنني الاعتماد على وصول أخبارك؟

ـ في ظرف أسبوع. لكنْ، ليتك تتكرّم بإعلامي إنْ كنتَ تقبل أن تتولّى هذه القضية وبأية شروط.

ـ اتفقنا.

انحنى المحامي باحترام، وأخرج زبونه، واستسلم لفرحه، لقد كان يحسّ بانشراح شديد خفّض معه الأجرة للسيدة التي كانت تساوم، خلافاً لمبادئه، وكفّ عن التقاط العث، وقرّر أنه ينبغي له، في الشتاء القادم، أن يغطي الفرشَ بوجه من المخمل، مثل سيغونين.

[٦]

انتصر الكسي الكسندروفتش انتصاراً رائعاً في جلسة لجنة ١٧ آب، لكن هذا الانتصار ارتد عليه. فقد تشكّلت، بفضل الكسي الكسندروفتش اللجنةُ الرامية إلى التحقيق في وضع الوافدين من جميع النواحي، وأرسلتْ إلى المكان نفسه، بسرعة عظيمة. وبعد ثلاثة أشهر قَدَّمتْ تقريرها الذي دُرس فيه وضعُ الوافدين من النواحي السياسة والإِدارية والاقتصادية والعنصرية والمادية والدينية. كانت الأسئلة مُتْبعةً بأجوبة دُوِّنتْ بدقة عجيبة لا تدع مجالاً للشك، لأنها لم تكن نتاج الفكر، وهو عُرضةٌ للخطأ دائماً، لكنها كانت نتاجَ عمل الدواوين. كانت كلها مستندةً إلى معطيات رسمية، إلى تقارير الحكّام والمطارنة، إلى روايات سلطات المناطق

والعمداء، وهي معطيات مستندة بدورها إلى تقارير إدارات النواحي وكهنة القرى. ولذلك كانت جميعُ هذه الأجوبة جديرة بالثقة. فجميعُ الأسئلة من نوع: لماذا كانت المحاصيلُ رديئة؟ ولماذا يتمسّك السكان بمعتقداتهم؟ إلخ. . . . وهي أسئلة ما كان يمكن لقرون أن تحلّها لولا مساعدة الآلة الإدارية، جميع الأسئلة لقيت الحل الواضح والحاسم. وهذا الحل كان مطابقاً لمقاصد الكسي الكسندروفتش.

لكن ستريموف الذي شعر بأنه قُرِصَ أثناءَ الجلسة الأخيرة، استخدم، لدى تلقّيه تقرير اللجنة، خطَةً لم يكن يتوقّعها الكسي الكسندروفتش. فقد جرّ ستريموف عدداً من أعضاء اللجنة، وانتقل فجأةً إلى صف الكسي الكسندروفتش، ولم يدافع فقط بحرارة عن التدابير التي طالب بها كارينين، بل إنه اقترح تدابير أخرى أشدّ غلواً في الاتجاه نفسه. وقد أقرَّتْ، وفي الوقت نفسه، انكشفتْ خطة ستريموف. ذلك أن هذه التدابير المبالغ بها بدتْ مستحيلةً إلى حدّ انهال عليها فيه بالتجريح رجالُ الحكومة والرأيُ العام والسيداتُ الذكيات والجرائدُ، معبّرين عن سخطهم على التدابير نفسها وعلى صانعها المظنون: الكسي الكسندروفتش. وتنحّى ستريموف جانباً، متظاهراً بأنه اقتصر على الاقتفاء بكارينين اقتفاءً أعمى، وبأنه أول من يُدْهش لما حدث. وأصيبت هيبةُ الكسي الكسندروفتش بضربة قاضية. لكن الكسي الكسندروفتش لم يُقرَّ بالهزيمة، رغم صحته المتداعية وخيبته الزوجية. فقد انشقّت اللجنة، وذَهبَ بعضهم، وعلى رأسهم ستريموف، إلى تفسير خطئهم بثقتهم المفرطة في لجنة التحقيق، وإلى أن تقرير اللجنة ليس سوى نفاية من السخافات. ورأى آخرون، مع كارينين، خطر مثل هذا الموقف الثوري إزاء الأعمال الرسمية، فساندوا أعمالَ اللجنة. وتعقّدت القضيّة كثيراً حتى إن المجتمع والأوساط العليا التي كانت تتابع النزاع بشغف، عجزت عن معرفة ما إذا كان وضعُ الوافدين بائساً أو مزدهراً. وتَزَعْزَعَ وضعُ الكسي الكسندروفتش، وهو وضع كان قد تعرّض من قبل للاحتقار الذي جرته عليه مصيبتُه الزوجية. حينئذٍ. اتخذ قراراً

خطيراً أدهش اللجنة، فأعلن أنه يطلب الإذن بالذهاب شخصياً للتحقيق في المكان نفسه. ولما حصل الكسي الكسندروفتش على الإذن سافر إلى مقاطعة نائية.

ولقد أثار سفرُ الكسي الكسندروفتش ضجّةً كبيرة ولا سيما أنه رفض رسمياً، قبل مسيره، نفقات الانتقال التي قُدِّرتْ باثني عشر جواداً بريدياً.

قالت بيتسي، بهذه المناسبة، للأميرة مياغكوي:

ــ إني أستلطفُ كثيراً هذه البادرة. فلماذا تُمْنَح نفقات الانتقال هذه في حين يعلم جميعُ الناس أن الطرق الحديدية توصلُ إلى كل مكان؟

لكنّ الأميرة مياغكوي لم تكنْ من هذا الرأي وبدت مغتاظةً من وجهة النظر هذه. وقالت لها:

ــ يحلو لكِ أن تقولي ذلك وأنت تملكين الملايين! أما أنا فأسعدُ عندما يذهب زوجي في جولة تفتيشية. فهذا نافع لصحته، ويتيح له القيام برحلة ممتعة، ويؤمّن لي نفقةَ العربة والحوذيّ.

مرَّ الكسي الكسندروفتش بموسكو ومكثَ فيها ثلاثة أيام.

في صباح اليوم التالي لوصوله، ذهب لزيارة الحاكم. وفي مفرق شارع «الغازيت» الذي غصَّ بالعربات والمركبات، سمعَ بغتة اسمه يَهْتفُ به صوتٌ مَرِحٌ ورنّان إلى حد كبير حتى إنه لم يستطع أن يمتنع عن الالتفات. كان ستيڤان أركادييڤتش يقف في زاوية الرصيف: فرحاً، شاباً، متألقاً، وقد ارتدى معطفاً قصيراً حديث الزيّ، ووضع على رأسه قبّعة ضيّقة الحواشي مائلة على جانب رأسه. وافترَّتْ شفتاه الحمراوان عن ابتسامة كشفتْ عن أسنانه البيضاء، المتلألئة. كان يصرخ ويلوّح بيده كي يوقفه، ويستند بيده الأخرى إلى باب عربة واقفة في ركن الشارع، وقد بدا فيها رأسُ امرأة بقبعة من المخمل، ورأسا طفلين. كان ستيڤان أركادييڤتش يبتسم ويلوّح له كي يقترب. وكانت المرأةُ تبتسم أيضاً وتحرّك يدها باتجاه الكسي الكسندروفتش. كانت دولي والأولاد.

لم يكنْ الكسي الكسندروفتش يريد أن يرى أحداً في موسكو، ولا سيّما أخا زوجته. رفع قبّعته وأراد أن يمضي في سبيله لكن ستيڤان أركادييڤتش أمر حوذيّه بالوقوف وركض في الثلج حتى عربته.

قال ستيڤان أركادييڤتش وهو يُمرّ رأسه من باب العربة:

ـ ألا تستحي من أنك لم تُخبرنا؟ أأنت هنا منذ زمن بعيد؟ كنتُ البارحة عند «دوسو» ورأيتُ اسمك على القائمة، لكنْ لم يخطرْ ببالي أنكَ أنتَ! ولولا ذلك لمررتُ عليك.

وضرب إحدى رجليه بالأخرى لإسقاط الثلج، وأضاف:

ـ أنا سعيدٌ برؤيتك!

وردّ قائلاً:

ـ عيبٌ عليك، ألا تخبرنا!

أجاب الكسي الكسندروفتش بجفاف:

ـ لم يكنْ لديَّ وقتٌ، أنا مشغولٌ جداً.

ـ تعال وسلّمْ على امرأتي، فهي بشوق إلى رؤيتك.

رفع الكسي الكسندروفتش الغطاءَ الذي لفّ به ساقيه الباردتين، وهبطَ من العربة، وشقّ طريقاً في الثلج لنفسه حتى داريا الكسندروفنا.

قالت دولي وهي تبتسم:

ـ ماذا جرى، يا الكسي الكسندروفتش؟ لماذا تتحاشانا هكذا؟

ـ قال بلهجة من يقول بوضوحٍ عكس ما يُبطنُ:

ـ كنتُ مشغولاً جداً. أنا سعيد برؤيتك وكيف صحتك؟

ـ كيف حال آنا العزيزة؟

همهم الكسي الكسندروفتش ببعض الكلمات وأراد أن يستأذن. لكن ستيڤان أركادييڤتش أوقفه، وقال:

ــ انظرْ ماذا سنفعله غداً. دولي، ادعيه للعشاء مع كونيتشيف وبيستوف، لكي نمتّعه بالذكاء الموسكوفي!

قالت دولي:

ــ بكل تأكيد، تعال إذنْ، ستسرّنا، نحن ننتظرك في الساعة الخامسة أو السادسة، كما تحب. والعزيزة آنا؟ منذ زمن وأنا. . .

همهم الكسي الكسندروفتش وهو يقطّب بين حاجبيه:

ــ إنها بخير. سعدتُ بلقائك.

ومضى إلى عربته. فصرخت دولي به:

ــ سوف تأتي؟

قال الكسي الكسندروفتش شيئاً لم تتمكّن دولي من سماعه في ضوضاء العربة التي كانت تنأى.

وصرخ به ستيڤان أركادييڤتش:

ــ سأمرَّ عليك غداً!

جلس الكسي الكسندروفتش، وغاص في عربته بحيث لا يَرى ولا يُرى.

قال ستيڤان أركادييڤتش لامرأته:

ــ يا له من رجلٍ غريب الأطوار.

وبعد أن أشارَ إشارة تحبّبٍ لامرأته وأولاده، مضى على الرصيف بخطوات سريعة.

صرختْ به دولي وهي تحمّر:

ــ ستيڤا! ستيڤا!

فالتفت.

ــ أنتَ تعلم أني أنوي أن أشتري معطفاً لغريشا ولتانيا. أعطني المالَ اللازم.

ــ طيب، قولي إني سأسدّد الحسابَ.

وتوارى، بعد أن حيّا بفرح أحد أصدقائه الذي كان يمرّ بعربته.

[٧]

كان اليوم التالي يومَ أحد ذهب فيه ستيڤان أركادييڤتش إلى المسرح الكبير أثناء تجربة «الباليه»، وسلَّم ماشا تشيبيسوف، وهي راقصةٌ جميلة استهلّت عملها بحمايته، عقدَ المرجان الذي وعدها به البارحة. وفي عتمة مؤخّرة المسرح، استطاع أن يقبّل وجهها الجميل الذي يشعُّ من الفرح. وكان عليه أن يتّفق معها أيضاً على لقائهما المقبل. وبما أنه لم يكن يستطيع أن يحضر في بداية «الباليه»، فقد وعدها أن يصل في الفصل الأخير وأن يصطحبها للعشاء. ومن المسرح، اتجه ستيڤان أركادييڤتش إلى سوق الهال، حيث اختار بنفسه السمك والهليون للعشاء، وعند الظهر، قصد إلى فندق «دوسو» ليقوم بزيارة ثلاثة أشخاص نزلوا في الفندق نفسه، وكأنهم أرادوا أن يسهّلوا عليه مهمّته وهم: ليفين الذي وصل حديثاً من الخارج، ورئيسه الجديد الذي باشر عمله منذ وقتٍ قريب والذي كان يقوم بجولة تفتيشية في موسكو، وزوج أخته كارينين الذي أراد أن يرافقه إلى العشاء. كان ستيڤان أركادييڤتش يحب المآكل الفاخرة، لكنه كان يؤثر على كل شيء أن يُقدِّمَ عشاءً صغيراً أنيقاً بالمُنتقى من المأكل والمشرب مثلما هو أنيقٌ بالنُخبة من المدعوين. كانت وجبةُ هذا اليوم تُعجبه كثيراً: سمك الفرخ الذي أخرج للتوّ من الماء، والهليون، وشواء البقر البسيط والبديع وهو الصحن الرئيسي، مع الخمور التي تصلح لهذه الألوان من الطعام: هذا بالنسبة إلى الطعام والشراب. أما المدعوون فسيكونون كيتي وليفين، وابنة عم لها والشاب تشرباتزكي (لكي لا يلحظ أحدٌ ذلك اللقاء)، أما «الصحن الرئيسي» هنا فيتألف من: سيرج كوزيتشيف والكسي الكسندروفتش، سيرج كوزنيتشيف الفيلسوف الموسكوفي،

والكسي الكسندروفتش رجل العمل في بطرسبرج. وسيدعو أيضاً بيستوف، ذلك الرجل الغريب الأطوار، والمتحمّس، والمتحرّر، والثرثار، والموسيقي، والمؤرخ، وأروع الشباب بين أبناء الخمسين، وهو يصلح لأن يكون مرقاً أو ثابلاً لكوزينشيف وكارينين. سوف يحرضهما ويثير الخصام بينهما.

قبض ستيڤان أركادييڤتش القسطَ الثاني من ثمن الغابة ولم ينفقهُ بعد. وأصبحت دولي، منذ بعض الوقت، فاتنةً وملاطفةً، وكانت فكرة هذا العشاء تبهج ستيڤان أركادييڤتش من كل النواحي. فأحسَّ بالفرح يغمر نفسه. كانت هناك مناسبتان تعكرّان صفوه، لكنهما كانتا غارقتين في بحر الابتهاج الذي كان يحرّك نفسه. الأولى هي الاستقبال البارد والجاف الذي واجهه به أمس، في الشارع، الكسي الكسندروفتش. وحين قابل بين موقفه هذا وكونه لم يأت ليراهم ولم يُنبئْهم بمروره، إلى جانب الإشاعات التي راجت عن آنا وفرونسكي، استنتج ستيڤان أركادييڤتش من ذلك أن خلافاً قد نشأ بين الزوج والزوجة.

الإزعاج الثاني هو وصول رئيسه الجديد: وكان مشهوراً، ككل الرؤساء الجدد، بأنه رجلٌ رهيب ينهض في السادسة صباحاً، ويعمل كالحصان، ويْطلب من مرؤوسيه العمل نفسه. وفضلاً عن ذلك. فقد كان يُعَدُّ انعزالياً، وكان، كما يبدو، ذا اتجاه مناقض تماماً لاتجاه الرئيس السابق، ولاتجاه ستيڤان أركادييڤتش نفسه. وقد قدَّمَ ستيڤان أركادييڤتش نفسه له البارحة، وهو في بزته، وبدا الرئيس الجديد في غاية اللطف، وتحادث مع بلونسكي وكأنه يتحادث مع أحد معارفه القدماء، فرأى ستيڤان أركادييڤتش من واجبه أن يزوره زيارةً خاصة. كان يتخوّف من استقباله له، لكنه كان يحسّ بغريزته أن كل شيء «سيُسوّى» أحسنَ تسوية. وقال في نفسه وهو يدخل الفندق: «ألسنا جميعاً خطاةً، ما دُمنا موجودين؟ فلمَ يغضبُ ولمَ يُخاصُمنا؟».

قال للخادم وهو يذرع الممرّ، وقد أمال قبعته:

ـ مرحبا، بازيل، تركتَ سالفيْكَ ينموان؟ ليفين، في الرقم «٧» أليس كذلك؟ خُذني إليه، أرجوك. أتريد أن تسأل إن كان الكونت انيتشكين (رئيسه الجديد) يستطيع أن يستقبلني؟

أجاب بازيل وهو يبتسم:

ـ حاضر، يا سيدي. لم تشرّفْنا بالمجيء، منذ أمد بعيد.

ـ جئتُ البارحة، لكني دخلتُ من الباب الآخر. أنحن في الرقم «٧»؟

عندما دخل ستيڤان أركادييڤتش، كان ليفين واقفاً في وسط الغرفة مع فلاح من «تڤير» يقيس جلد دب.

هتف ستيڤان اركادييفتش.

ـ آه! أأنت قتلتَه؟ قطعة جميلة! أهي أنثى؟ مرحباً، «أرشيب».

وشدّ على يد الفلاح وجلس على كرسي دون أن يخلع معطفه أو يرفع قبعته.

قال له ليفين وهو يرفع له قبعته:

ـ انزعْ معطفك، وخذ راحتك.

فأجاب ستيڤان أركادييڤتش:

ـ لا، ليس لديّ متسعٌ من الوقت. دخلت لثانيةٍ فقط.

وحلّ أزرار معطفه، وخلعه بعد لحظة، وبقي ساعة كاملةً يتحدث مع ليفين عن الصيد وعن أخصّ الموضوعات. وقال له بعد أن خرج الفلاح:

ـ قلْ لي ماذا كنت تفعل في الخارج؟ وأين كنتَ؟

ـ ذهبت إلى ألمانيا وبروسيا وفرنسا وانكلترا، لكنْ إلى المراكز الصناعية لا إلى العواصم، ورأيت كثيراً من الأشياء الجديدة. وأنا مسرورٌ بذهابي إلى هناك.

ـ نعم، أعرف أفكارك في المسألة العمالية.

ــ أبداً: لا يمكن أن يكون في روسيا مسألةٌ عمالية. المسألة المطروحة عندنا هي مسألة علاقات الشغيلة بالأرض: وهي مسألةٌ موجودةٌ هناك، لكنهم هناك يقتصرون على الترقيعات بينما عندنا.

كان ستيڤان أركادييڤتش يصغي إلى ليفين بانتباه، فقال:

ــ نعم، نعم. من المحتمل جداً أن يكون الحقّ معك. لكني مسرور بأن أراك في حال حسنة: فأنت تصيد الدببةً، وتشتغل، وتتحمّس لأفكارك. كيف روى لي تشرباتزكي أنك كنتَ يائساً، وأنت لم تكن تتكلم إلا على الموت...

قال ليفين:

ــ صحيح، إني لا أكفُّ عن التفكير في الموت. لا بدَّ من الموت. كلُّ شيء باطل. الواقع إني أقدّر كثيراً أفكاري وعملي، أما في الحقيقة، فإن هذا العالم الذي نعيش فيه، إذا ما فكّرنا فيه، ليس سوى لطخة من العفونة على سطح كوكب صغير. ونحن نتصوّر أن أفكارنا وأعمالنا يمكن أن يكون لها بعض العِظَم! ما هي إلا ذرات رملٍ.

ــ لكن هذا قديمٌ قدمَ العالم، يا أخ...

ــ قديمٌ، نعم، لكنْ عندما تفهمه بوضوح، يبدو لكَ كلُ شيء تافهاً. عندما تفهم أنك يمكن أن تموت اليوم أو غداً وأنه لن يبقى شيءٌ، يبدو لك كل شيء عدماً! إني أعلّق أهمية عظيمة على فكرتي، بيد أني إذا شئتُ تطبيقها بدتْ لي ضئيلةَ القيمةِ مثل قياسك جلدَ الدب هذا. وهكذا نقضي حياتنا. إننا نصيد ونعمل لنتشاغل عن الموت فقط. لكي لا نفكرّ في الموت.

كان ستيڤان اركاديڤتش يبتسم ابتسامة رقيقةً، مُلاَطِفةً، وهو يصغي إلى ليفين.

ــ بالطبع، صحيح! وأنت تعود إلى فكرتي؛ أتذكرُ يوم هاجمتني بعنف، لأنني كنت أفتّش عن اللذة؟ فلا تكنْ متشدّداً بعد الآن، أيها الواعظ الأخلاقي!

ـ لكنّ ما هو جميلٌ في هذه الحياة... (وتشوّش عند هذه الجملة). لستُ أدري. كلُ ما أعْلمه هو أننا سنموت عمّا قريب.

ـ ولماذا «عمّا قريب»؟

ـ أو تعلم أننا نجد الحياة أقل فتنةً عندما نفكّر في الموت، لكننا نغدو أكثر طمأنينة.

قال ستيڤان اركادييڤتش وهو ينهض للمرة العاشرة.

ـ على العكس، الناس يُمعنون في اللهو، إذا اقتربت النهايةُ. لكن قد آن الأوان لأنصرف.

قال ليفين وهو يمسكه:

ـ لا، ابقَ قليلاً أيضاً! متى سنلتقي الآن؟ إني مسافرٌ غداً.

ـ آه! أين رأسي؟ جئتُ لكي... تعال إلى العشاء عندي، هذا المساء، بكل تأكيد. سيأتي أخوك وكارينين.

قال ليفين:

ـ أهو هنا؟

وأراد أن يسأله عن أخبار كيتي. فقد سمع أنها ذهبت إلى بطرسبرج، في مطلع الشتاء، إلى منزل أختها، زوجة الدبلوماسي، وكان يجهل إن كانت قد رجعَتْ أم لا، لكنه لم يطرح السؤال. «سيان عندي إن كانت هنا أم لا».

ـ إذنْ، ستأتي؟

ـ نعم، بالتأكيد.

ـ في الساعة الخامسة، بالسترة الرسمية.

نهض ستيڤان اركادييڤتش ومضى إلى رئيسه الجديد. لم تخدعْه غريزتُه. كان هذا الرئيس الرهيب رجلاً عظيم اللطف. تغدّى اوبلونسكي معه، ولبث طويلاً معه حتى إنه لم يذهب لزيارة الكسي الكسندروفتش إلا بعد الساعة الثالثة.

[٨]

بعد أن حضر الكسي الكسندروفتش الصلاة، قضى الصباحَ كله في غرفته. وكان عليه أن ينجز مسألتين: استقبال وفد من «الوافدين» الذاهبين إلى بطرسبرج، وكتابة الرسالة التي وعد بها المحامي.

ومع أن الوفد تكوّن بناءً على مبادرة من الكسي الكسندروفتش، إلا أنه كان ينطوي على بعض المساوىء بل والمخاطر. ولذلك سُرَّ الكسي الكسندروفتش بأن يلقاه في موسكو. فلم تكن لدى أعضاء الوفد أدنى فكرة عن الدور الذي ينبغي أن يلعبوه. كانوا يعتقدون أنهم يمكن أن يقتصروا على عَرْض حاجاتهم ووضعهم الواقعي، وعلى طلب مساعدة الحكومة، ويأبون أن يفهموا أن بعضاً من مطاليبهم تقوّي الخصمَ وتعرّض قضيّتهم للخطر. ناقشهم الكسي الكسندروفتش طويلاً، ووضَع لهم برنامجاً لا ينبغي أن يحيدوا عنه، وكتب، بعد انصرافهم، عدة رسائل إلى بطرسبرج للعناية بأمرهم. أما مساعده الأساسي، في هذه الحالة، فكانت الكونتيسة ليديا. لقد كانت اختصاصية في هذا الموضوع وكانت تحسن، أكثر من غيرها، الانتفاع من الوفد وتوجيهه الوجهة الصحيحة. وكتبَ الكسي الكسندروفتش إلى المحامي. لقد منحه حريّة التصرّف، دون أدنى تردّد. وضمّن الرسالةَ ثلاث بطاقات من فرونسكي إلى آنا، وجدها في المغلّف الذي انتزعه.

منذ أن ترك الكسي الكسندروفتش بيته، وبنيّته ألا يعود إلى أسرته، ومنذ أن زار المحامي وفاتَحه بمشاريعه، وخصوصاً منذ أن عهد بهذه القضية الخاصة إلى رُكام الأوراق، أخذ يألف مشروعه شيئاً فشيئاً ويرى إمكانيةَ تنفيذه.

كان يلصقُ مغلّفه عندما سمع صيحات ستيڤان اركاديڤتش الصاخبة الذي كان يجادل خادمَ الكسي الكسندروفتش لكي يُعلن وصولَه.

فكر الكسي الكسندروفتش: «لا بأس، بل إن ذلك حسن: سأنبئه، في الحال، بموقفي تجاه أخته، وسأفهمه لماذا لا أستطيع العشاء عنده».

صاح بالخادم وهو يجمع أوراقه ويرتّبها في المحفظة أمامه:

ـ أدْخلْه.

فردّ صوتُ ستيڤان اركادييڤتش على الخادم الذي أبـى أن يدعه يدخل:

ـ أرأيتَ أنك تكذب، إنه في غرفته!

وخلع معطفه، في طريقه، ودخل الغرفة، وقال بفرحٍ:

ـ آه! أنا سعيدٌ بلقائك. هذا ما كنتُ أرجوه.

قال الكسي الكسندروفتش ببرودة، وهو واقفٌ، ودون أن يدعو ضيفه إلى الجلوس.

ـ لا أستطيع المجيء.

لقد قرّر الكسي الكسندروفتش قبل هنيهة أنه سيستمرّ في موقفه البارد تجاه أخي زوجته لأنه أقام عليها دعوى طلاق. لكنه قرّر ذلك متجاهلاً هذا الفيض من الطيبة التي تدفّقت من نفس ستيڤان اركادييڤتش.

حملق فيه اوبلونسكي بعينين صافيتين وملتمعتين، وقال له بالفرنسية وقد تولّته الحيرة:

ـ لماذا؟ ماذا تعني؟ هيّا، عِذْني، إننا نعتمدُ جميعاً عليك.

ـ أعني أنني لا أستطيع الذهاب إلى بيتك لأن علاقات المصاهرة بيننا ستنتهي.

سأله ستيڤان اركادييڤتش وهو يبتسم:

ـ كيف؟ لماذا؟

ـ لأنني أقمتُ دعوى طلاق على أختك، زوجتي. كان لا بدّ لي...

لكن قبل أن ينتهي الكسي الكسندروفتش من جملته، أطلق ستيڤان اركادييڤتش صرخةً أسْيانةً، خلافاً لتوقع كارينين، وتهالك على مقعد، وهتفَ قائلاً وقد ارتسم الألمُ على قسماته:

ـ لا، الكسي الكسندروفتش، ماذا تقول؟

ـ الأمرُ كما قلتُ.

ـ اعذرْني، لكني لا أستطيع، على الإطلاق، أن أصدّق ذلك...

جلس الكسي الكسندروفتش، وهو يحسّ أن كلماته لم تُحدثْ الأثر الذي كان ينتظره، وأنْ عليه أنْ يفسّر سبب تصرّفه، وأنه مهما تكن تفسيراته، فإن علاقاته بأخي زوجته ستظل كما كانت في الماضي. وقال:

ـ نعم، لقد أُلْجِئْتُ إلى هذه الضرورة المؤلمة بطلب الطلاق.

ـ لن أقول لك، يا الكسي الكسندروفتش، إلا الشيء التالي: إني أعدّك رجلاً مُنصفاً وممتازاً، وأعدّ آنا ـ واعذرني إذا لم أغيّر رأيي بها ـ امرأة فاتنةً ومرموقةً؛ ولذلك فإني لا أستطيعُ أن أصدّق ذلك. هناك سوءُ تفاهم.

ـ آه! ليت الأمر كذلك!

فقاطعه ستيڤان اركادييڤتش:

ـ اسمحْ لي، إني أفهم. لا شك... أرجوك، لا تستعجلْ!

أجاب الكسي الكسندروفتش ببرودة:

ـ لكني لا أستعجلُ، وليس لي أن أطلب المشورة من أحد. ولقد اتّخذتُ قراري.

قال ستيڤان اركادييڤتش الذي تنهّد تنهّداً عميقاً:

ـ هذا رهيب! أحب أن أطلب إليك هذا الشيءَ، يا الكسي الكسندروفتش، فاقبلْه، أرجوك! إن الدعوى لم تُقم بعدُ، إن كنتُ قد أحسنتُ الفهمَ. فاذهبْ، قبل أنْ تُباشرَها، والقَ امرأتي وتحدّثْ معها. إنها تحب آنا كأختها، وتحبّك، وهي امرأة مدهشة. بالله عليك، تحدّثْ معها! تكرّمْ علي بذلك، أرجوك!

استغرق الكسي الكسندروفتش في أفكاره؛ كان ستيڤان اركادييڤتش ينظر إليه بعطف ويحترم صمته.

ـ ستذهب لرؤيتها؟

ـ لا أدري. إنما لم أذهب إليكم من أجل هذا. أعتقد أن علاقاتنا يجب أن تتبدّل.

ـ ولمَ ذاك؟ لا أرى داعياً لذلك. اسمحْ لي أن أعتقد بأنك تضمر لي، ولو جزئياً، مشاعرَ الصداقة التي أضمرُها لك، إلى جانب علاقات المصاهرة... وتقديراً حقيقياً.

قال ستيڤان اركادييڤتش ذلك وهو يشدّ على يده وأضاف:

ـ وحتى لو كانت أسوأ افتراضاتك صحيحة، فلن أتحمّل تبعة الحكم على أحد الطرفين، ولا أفهم ما السبب الذي من أجله ينبغي أن تتغيّر علاقاتُنا. لكنْ اذهبْ الآن والقَ امرأتي، أرجوك.

قال الكسي الكسندروفتش ببرود:

ـ إننا ننظرُ إلى القضية من وجهتي نظر مختلفتين. على كل حال، لِندعْ الكلام على ذلك.

ـ لكنْ لماذا لا تأتي اليوم للعشاء؟ امرأتي تنتظرك. تعال، أرجوك وتحدّث معها. إنها امرأة مدهشة. بالله عليك، أتوسّل إليك، جاثياً.

قال الكسي الكسندروفتش وهو يتنهّد:

ـ إن كنت ترغب في ذلك إلى هذا الحد، فسوف آتي.

ورغبةً منه في تغيير الحديث، انتقل إلى موضوع آخر يَعْنيهما كليهما وهو: الرئيس الجديد لستيڤان اركادييڤتش الذي رُفع فجأةً إلى أعلى الدرجات، مع أنه ما يزال شاباً.

لم يكن الكسي الكسندروفتش يحبّ الكونت آنيتشكين: ذلك أن آراءَهما كانت متناقضةً، أما الآن فإنه لم يستطع أن يتمالك نفسه عن الشعور بالحقد على هذا المنافس السعيد، وهو شعورٌ جدٌّ مفهوم في دنيا الموظفين.

قال الكسي الكسندروفتش بضحكة ساخرة:

ــ إذن، لقد رأيتَه؟

ــ بدون شك، جاء أمس إلى المكتب. يبدو أنه يُتقن عمله، وأنه عظيم النشاط.

قال الكسي الكسندروفتش:

ــ نعم، لكن إلى أية وجهةٍ يتّجه نشاطه؟ هل يفعل شيئاً من عند نفسه، أم يعيد ما فعله الآخرون؟ إن مصيبة بلادنا هي هذه الديوانيّة الورقية، وهو ممثلٌ عظيم لها.

فأجاب ستيڤان اركادييڤتش:

ــ في الحقيقة، لا أرى فيه ما يمكن أن ننتقده. لستُ أعرف اتجاهاته، كل ما أعلمه هو أنه فتى ممتاز. لقد خرجتُ من عنده قبل قليل وهو، بدون شك، فتى ممتاز. تغدّينا معاً؛ وعلّمتُهُ أن يصنع هذا الشراب: النبيذ مع البرتقال. إنه شراب منعش. والغريب أنه لم يكن يعرفه. وقد استحسنه كثيراً. لا، إنه فتى رائع.

نظر ستيڤان اركادييڤتش إلى ساعته، وقال:

ــ آه! يا إلـهي! لقد تجاوزت الساعةُ الرابعةَ. ويجب أن أمرّ أيضاً على دولغوفوشين! ستأتي للعشاء، أليس كذلك؟ لا تستطيع أن تتصوّر مدى اغتمامنا أنا وامرأتي، إن لم تأتِ.

شيّع الكسي الكسندروفتش أخا زوجته على نحوٍ مختلف عن استقباله له. وأجاب وقد بدتْ عليه الكآبة:

ــ سوف آتي، إذْ وعدتُك بذلك.

أجابه ستيڤان اركادييڤتش وهو يبتسم:

ــ كنْ على يقين أنني أقدّر ذلك، وأرجو ألا تندم على مجيئك.

وبينما كان يرتدي معطفه وهو يتّجه إلى الباب، لامستْ إحدى يديه رأسَ الخادم؛ فأخذ يضحك وخرج.

وصرخ مرة أخرى وهو يلتفت عند عتبة الباب:

ــ في الساعة الخامسة، بالسترة الرسمية!

[٩]

كانت الساعةُ تقاربُ السادسة وكان بعضُ المدعوّين حاضرين عندما وصل ربُ البيت. دخل مع سيرج إيفانوفتش كوزنيتشيف وبيستوف اللذين اصطدما عند درج المدخل. كان هذان الرجلان أكبر ممثلين لأهل الفكر الموسكوفيين. وكان الناس يقدّرونهما لخلقهما وفكرهما، كما كان كل منهما يقدّر الآخر، وإن كانا متعارضين تعارضاً مطلقاً في جميع الميادين، لا لأن لهما اتجاهات مختلفة، بل لأنهما من معسكر واحد (خصومهُما وحّدوا بينهما)، يمثّل كل واحد منهما فيه فروقاً خاصة. وبما أنه لا شيء يحمل على اختلاف النظر مثل أنصاف المجرّدات، فلم يكونا مختلفين بالرأي فقط، بل تعوّد كل منهما، منذ زمن بعيد، أن يسخر سخرية هادئةً من ضلالات الآخر التي لا سبيل إلى إصلاحها.

كانا يجتازان عتبة المنزل وهما يتحدّثان عن الطقس، عندما أدركهما ستيڤان اركادييڤتش. وفي قاعة الاستقبال اجتمع الأمير الكسندر دميتريفتش، والد زوجة اوبلونسكي، والشاب تشرباتزكي، وتوفورتسين وكيتي، وكارينين.

رأى ستيڤان اركادييڤتش، في الحال، أنهم بحاجةٍ إليه في قاعة الاستقبال. فلم تستطع داريا الكسندروفنا التي ارتدت ثوب الاستقبال الحريري، الرمادي، والتي كانت بادية الانهماك بغياب زوجها وبالأولاد الذين كان ينبغي لهم أن يتعشوا وحدهم في غرفتهم، لم تستطع أن تُسبغ البشاشة على هذا الاجتماع. كانوا جميعاً متيبّسين، مشدودين، مثل بنات الكهنة أثناء زيارتهن (بحسب تعبير الأمير العجوز) وكأنهم كانوا يتساءلون عمّا جاؤوا يفعلونه هنا. فقد فتَر الحديثُ، وبدا توروفتسين

الطيّب كالغريب، وقالت ابتسامةُ شفتيه السميكتين بوضوح: «قلْ لي، أيها الأخ، دعوتَني مع هؤلاء القوم الرصينين! إن شربَ كأس من الخمر والذهاب «إلى قصر الزهور، خيرٌ لي». وظل الأميرُ العجوز صامتاً، يرمي كارينين بنظرات زوراء من عينيه الصغيرتين اللامعتين، وأدرك ستيڤان أركادييڤتش أنه قد عثر على نكتة لاذعة تنطبق على رجل الدولة هذا الذي قُدم إليه، بمثابة «الصحن الرئيسي»، كما يقدم سمك الحفَش. وكانت كيتي تنظر إلى الباب، مستجمعةً قواها كي لا تحمرّ عندما يدخل ليفين. وكان الشاب تشرباتزكي الذي نسيتْ ربةُ البيت أن تُعرّف به كارينين، يتظاهر بأنه لم يتضايق من ذلك أبداً. أما كارينين فقد ارتدى لباساً أسود وربطة بيضاء، على طريقة أهل بطرسبرج، وأدرك ستيڤان اركادييڤتش من وجهه أنه لم يأتِ إلا ليفيَ بوعده، وأنه يعتبر وجوده وسط هذه الجماعة فرضاً شاقاً. وكان وجودهُ يُجمّد الآخرين.

اعتذر ستيڤان اركادييڤتش عن تأخره قائلاً إن الأمير قد استبقاه، وكان يتخذ هذا الأمير كبشَ فداءٍ، في مثل هذه الحالات. وفي لحظة، حمّى الجوَّ ودفع الكسي الكسندروفتش وسيرج كوزنيتشيف في حديث عن «ترويس» بولونيا[1]، ما لبث أن انضمّ إليه بيستسوف ثم طبطب بودّ على كتف توروفتسين، وأسرّ في أذنه ملاحظة فكهة، وأجلسه قرب زوجته وزوج أخته. وقال لكيتي إنها تبدو أجمل من أي وقت مضى، وقدّم تشرباتزكي لكارينين. وفي مدى دقيقة، حرَّكَ المجتمعين حتى عجّت القاعة بالأصوات المنتعشة. ولم يكن ينقصهم سوى قسطنطين ليفين. لكن ذلك كان أفضل، لأن ستيڤان اركادييڤتش شاهد بذعر، عندما طاف بقاعة الطعام، أن خمر البورتو والجريز قد جيء بهما من عند «دوبريه» لا من عند

---

(١) ترويس بولونيا: بعد أن أخمدت الحكومة الروسية الثورة البولونية سنة ١٨٦٣، أدخلت إلى بولونيا اللغة الروسية، وعينت في كل مكان موظفين روساً، باذلة جهوداً غير مجدية لترويس هذه البلاد.

«ليفي»[1]. فأرسل الحوذيّ على الفور إلى مخزن ليفي وعاد إلى قاعة الاستقبال. فاصطدم بليفين في قاعة الطعام:

ــ هل تأخرتُ؟

قال ستيڤان اركادييڤتش وهو يمسك بذراعه:

ــ وهل اتّفقَ لك قط أن جئت في الوقت المحدّد؟

سأل ليفين وهو يحمرّ بالرغم منه ويضرب قبعة الفرو بقفازه ليُسقط الثلجَ عنها:

ــ عندك ناس كثيرون؟ مَنْ عندكَ؟

ــ لا أحد سوى الأسرة. كيتي هنا. تعال سأقدّمك إلى كارينين.

كان ستيڤان اركادييڤتش يعلم، بالرغم من تحرّره، أن التعرف إلى كارينين لا يمكن إلا أن يُرضي الغرور، لذلك كان يحتفظ بهذا الطعام الفاخر لأفضل أصدقائه. لكن ليفين لم يكنْ، في هذه اللحظة، قادراً على الإعجاب بمثل هذا الشرف. فهو لم يرَ كيتي منذ ذلك اليوم المشهود الذي لمحها فيه على الطريق العامة. وكان مقتنعاً، في قرارة نفسه، بأنه سيراها هذا المساء. لكنه كان يبذل وسعه، لكي يحافظ على حريته الفكرية، في إقناع نفسه بأنه يجهل ذلك. وعندما علم بأنها هنا، أحسّ بفرحٍ غامر ممتزج برهبةٍ عظيمة حتى ضاق صدرُه وعجز عن الجواب كما كان يريد.

فكّر في نفسه: «كيف، كيف هي؟ أكما كانت قديماً أم كما كانت في العربة؟ لعل داريا الكسندروفنا قد قالت الحقيقة؟ لمَ لا»؟

ونطقَ بصعوبة:

ــ آه! نعم، أرجوك، قدّمْني إلى كارينين. اجتاز عتبة قاعة الاستقبال بقوة اليأس، وشاهدها.

---

(١) دوبريه وليفي: مخزنان عظيمان للخمور الفرنسية في موسكو.

لم تكنْ كما كانت قديماً ولا كما كانت في العربة، كانت مختلفةً.

كانت مُروَّعةً، وَجلةً، مرتبكة، فزاد ذلك من سحرها. رأتْه في اللحظة التي دخل فيها إلى القاعة. كانت تنتظره. وكان الفرح والاضطراب اللذان غشياها من العنف بحيث أنها خشيتْ للحظة، بينما كان يقترب من ربة الدار ويدير طرفه فيها مرة أخرى، ألاّ تتمالك نفسها وأن تتفجر باكيةً. تبيّن ذلك ليفين ودولي اللذان كانا يريان كل شيء. لقد احمرّت، وشحبت، ثم احمرت من جديد وهي تنتظره خائرة القوى، مرتعشة الشفتين. دنا منها وانحنى ومدّ إليها يده دون أن يفوه بكلمة. ولولا اختلاجُ شفتيها وبريقْ عينيها المخضوضلتين، لبدت بسمتُها وادعة، عندما قالت له.

ــ مضى زمنٌ طويل ولم نتلاقَ!

وشدّت على يده بأصابعها الباردة، تحدوها قوّة يائسة.

فردّ عليها ليفين بابتسامة مشرقة.

ــ أنتِ لم تريْني، أما أنا فرأيتُكِ. شاهدتكِ وأنت ذاهبة من المحطة إلى ارغوشوفو.

فسألته بدهشة:

ــ متى؟

ــ كنتِ متّجهةً إلى ارغوشوفو.

قال ليفين ذلك وأحسّ أن السعادة التي طفحت بها نفسه تكاد تخنقه وفكّر في نفسه: «كيف تجرّأتُ على الاعتقاد بأنه يمكن أن يكون في هذا الكائن الرقيق شعورٌ غير بريء؟ نعم، لا شك أن داريا الكسندروفنا قالت الحقيقة».

أمسكه ستيڤان اركادييڤتش من ذراعه وقاده إلى كارينين، وقال:

ــ اسمح لي أن أقدّمك.

قال الكسي الكسندروفتش ببرودة، وهو يشدّ يدَ ليفين:

ــ أنا سعيدٌ بلقائك.

سأل ستيڤان اركادييڤتش بدهشة:

ــ أأنتما متعارفان؟

قال ليفين مبتسماً:

ــ قضينا ثلاث ساعات معاً في القطار، وافترقنا ونحن في شوق إلى التعارف كأننا في حفل تنكري... أنا على الأقل.

قال ستيڤان اركادييڤتش وهو يتجه إلى قاعة الطعام:

ــ عجباً!... أرجوكما.

اتجه الرجال إلى قاعة الطعام قرب مائدة المقبّلات التي غطّيت بستة أنواع من «ماء الحياة»، وبستة أنواع من الجبن، وبالكافيار، وبسمك الرنك المدّخن، وبالمحفوظات، وبالصحون المغطاة، وبقطع صغيرة من الخبز الفرنسي المغطّى بالزبدة.

تريّث المدعوون قرب المشروبات والمقبّلات التي فاح طيبُها، وامتد الحديث عن «ترويس» بولونيا بين سيرج ايفانوفتش كوزنيتشيف وكارينين وبيستسوف، في انتظار العشاء.

كان سيرج ايفانوفتش يعرف أكثر من أي إنسان آخر كيف يلّون فجأةً بمِلَحِه الظريفة خاتمةَ أشد الأحاديث تجريداً ورصانة، ويُغيّر بذلك استعدادَ محدّثيه، وقد برهن هذه المرة أيضاً على فنّه.

لقد زعم الكسي الكسندروفتش أن «ترويس» بولونيا لا يمكن أن يتمّ إلاَّ بالمبادىء العليا التي ينبغي أن تُدخلها الإدارةُ الروسيةُ فيها.

وألحّ بيستسوف على أن الأمة لا تستطيع أن تَدْمج فيها أمةً أخرى إلاَّ إذا كانت كثافة السكان أشد.

وقَبِلَ كوزنتشيف بكلا الرأيين مع بعض التحفّظات وعندما غادروا القاعة قال وهو يبتسم، ختاماً للنقاش:

ـ ليس هناك سوى وسيلة واحدة لترويس الوافدين: إنجاب أكبر عدد ممكن من الأطفال، وأخي وأنا عاجزان عن القيام بهذه المهمة. أما أنتم، أيـها السادة المتزوجون، وبخاصة أنت، يا ستيڤان اركاديـيڤتش، فإنكم تتصرّفون تصرّف المواطنين الحقيقيين.

وقال وهو يلتفت إلى ربّ المنزل مبتسماً ابتسامة متودّدة ومادّاً إليه كأساً صغيرةً:

ـ وأنت، كما عدد أولادك؟

أخذ الجميع يضحكون بمرح، ولا سيما ستيڤان اركاديـيڤتش. وقال وهو يمضغ قطعةً من الجبن، ويملأ القدح الذي مُدَّ إليه بالفودكا الطيّبة الشذا:

ـ نعم، هذه حقاً أفضلُ وسيلة!

وضعتْ هذه الدعابةُ حدّاً للنقاش.

قال ربّ المنزل:

ـ هذا الجبن ليس رديئاً. أتريدُ قطعةً منه أيضاً؟

وسأل وهو يجسّ بيده اليسرى ذراعَ صديقه ليفين:

ـ أما تزال تمارسُ الرياضة؟

ابتسم ليفين وحرّك عضلاته فأحسّ ستيڤان اركاديـيڤتش تحت أصابعه، عبر قماش السترة الناعم، بكتلةٍ مكوّرة وقاسية كالفولاذ.

ـ يا لها من عضلة أنت شمشون حقيقي!

قال الكسي الكسندروفتش وهو يحاول أن يغطّي بالجبن قطعة من الخبز رقيقة كبيت العنكبوت:

ـ أعتقد أن المرء ينبغي أن يكون ذا قوّة عظيمة إذا شاء أن يصيدَ الدبَّ.

لم يكن يملك عن الصيد إلاّ أفكاراً مبهمةً، فابتسم ليفين وقال:

ـ أبداً، بل إن الطفل يستطيع أن يقتل دباً.

وتنحّى أمامَ النساءِ اللواتي كن يقتربْن مع ربة المنزل من مائدة المقبّلات، بعد أن حيّاهن تحية خفيفة.

قالت كيتي وهي تحاول عبثاً أن تغرز شوكتها في فطرٍ أبى أن يعلق بالشوكة التي كانت تنزلق عنه، وتردُّ التخريمة التي كانت تسقط على يدها البيضاء.

ــ قيل لي أنك قتلتَ دباً؟

أضافت وقد أدارت إليه نصفياً رأسها الساحر وهي تبتسم:

ــ أعندكم حقاً دببةٌ؟

لم تَحوِ كلماتُها، في الظاهر، شيئاً خارقاً للعادة، لكن كم اكتست من معانٍ كلُّ نبرةٍ من نبرات صوتها، وكل حركة من حركات شفتيها وعينيها ويديها! كان يرى فيها دعاءً، ودليلاً على الثقة، ومداعبة رقيقةً ووجلة، ووعداً، وأملاً، وحباً لا يجوز الشك فيه، ويكاد يخنقه من السعادة.

قال وهو يبتسم:

ــ لا، وإنما ذهبنا للصيد في مقاطعة «تفير» ولدى عودتي، لقيت في القطار صهرَك، أو على الأصح، صهرَ صهرك. وكان لقاءً مضحكاً.

وروى بمرح كيف لم تغمض له عينٌ طوال الليل، وكيف دخل بغتة، بسترته المبطّنة بالفرو، مقصورة الكسي الكسندروفتش:

ــ وأراد المراقب أن يطردني بسبب لباسي، خلافاً للمثل المشهور، لكنني خاطبته بكلام قوي التعبير.

وأضاف وهو يلتفت إلى كارينين الذي نسي اسمَه:

ــ وأنتَ أيضاً أردتَ، في مطلع الأمر، أن تصرفني عندما رأيتَ سترتي، ثم تدخّلت من أجلي، وكنتُ ممتناً لك.

قال الكسي الكسندروفتش الذي كان يمسح أنامله بمنديله:

ــ إن حقوق المسافرين في اختيار أمكنتهم غير محدّدة تحديداً حسناً.

قال ليفين وهو يبتسم ابتسامة وادعة:

ـ كنتُ أرى أنك تتردّد بشأني، فبادرتُ إلى الشروع في حديث ذكي معك لأُنسيكَ سترتي.

وكان سيرج ايفانوفتش يتحدث مع ربّة المنزل ويصغي بإحدى إذنيه إلى ما كان يقوله أخوه، فنظر إليه بمؤق عينه، وفكّر في نفسه: «ماله اليوم؟ إنه يبدو كالمنتصر». وكان يجهل أن ليفين كان يحسّ أن قد طلع له جناحان، ويعلم أنها تصغي إليه وتجد متعةً في سماع حديثه. كان هذا هو كل ما يشغله، لا في هذه الغرفة وحدها، بل في العالم أجمع. لم يكنْ هناك سواهما هو وهي. لقد كبر شأنُه كثيراً في نظر نفسه، كان جاثماً على علو شاهق، بينما كانت تضطرب في الأسفل، بعيداً عنه، تلك الشخصيات الطيبة الممتازة من مثل كارينين واوبلونسكي، وبقيةُ الإنسانية.

ولقد عمد ستيڤان اركادييڤتش، بكثير من الفطنة، إلى إجلاس ليفين بجنب كيتي، دون أن ينظر إليهما، وكأنه لم تبقَ لهما محلات أخرى. قال لليفين:

ـ أهذا أنت، اجلسْ هنا.

كان العشاء أنيقاً مثل آنية المائدة (كان ستيڤان اركادييڤتش شديد الانتباه إلى هذه الناحية)، وكان الحساءُ فاخراً وكانت المعجنات الصغيرة التي تذوب في الفم لا غبارَ عليها وكان هناك خادمان مع ماتفي، بالربطة البيضاء، يناولون الصحون والخمور بلباقة وبدون ضوضاء. نجح العشاءُ إذن من الناحية المادية، ولم يكن أقل نجاحاً من النواحي الأخرى. ولم يفتر الحديث، العام حيناً والخاص حيناً آخر، ونَشَطَ كثيراً عند أواخر العشاء حتى إن الرجال نهضوا عن المائدة وهم يتناقشون، وخرجَ الكسي الكسندروفتش نفسه عن تحفّظه.

[١٠]

كان بيستسوف يستقصي الموضوعَ الذي يعالجه، وكان قليلَ الرضى عن النتيجة التي اختتم بها سيرج كوزنيتشيف الحديثَ ولا سيما أنه أحسّ بضعف وجهة نظره الخاصة. فقال بعد الحساء وهو يلتفت نحو الكسي الكسندروفتش:

ــ عندما ذكرتُ كثافةَ السكان فقد كنت أقصد أن نحسب حساباً للأسس لا للمبادىء وحدها.

أجاب الكسي الكسندروفتش ببطء:

ــ يبدو لي أن الأمر واحد، وفي رأيي أن شعباً لا يستطيع أن يؤثّر في شعب آخر إلاّ إذا كانت حضارته متفوقة، وإذا. . .

فقاطعه بيستسوف بصوته الخفيض (كان يتكلم دائماً بسرعة، وكأنه يُباشر النقاشَ بكيانه كله):

ــ لكنّ المسألة تكمنُ هنا، فما الحضارة المتفوّقة؟ مَنْ مِن الإنكليز والفرنسيين والألمان أكثر تقدّماً في المرحلة الحضارية؟ الذي يُؤمّم الآخر؟ لقد أصبح «الرينُ» فرنسياً فلم يَخفض ذلك من شأن الألمان إنِ هنا قانوناً آخر.

قال الكسي الكسندروفتش وهو يقطّب بين حاجبيه قليلاً:

ــ أظن أن الكفّة الراجحة هي كفة الثقافة الحقيقية.

قال بيستسوف:

ــ لكنْ ما دلائل الثقافة الحقيقية؟ قال الكسي الكسندروفتش:

ــ يلوح لي أن الجميع يعرفونها.

فتدخّل سيرج ايفانوفتش وعلى فمه ابتسامة ناعمة:

ــ أهي معروفة إلى هذا الحد؟ الناسُ اليوم يسلمّون بأنها ترتكز على الدراسات الكلاسيكية، بيد أننا نشهد مناقشات محتدمة بهذا الصدد، ولا يمكننا أن ننكر أن الخصم يستخدم حججاً قوية.

قال ستيڤان اركاديڤتش:

ــ أأنت مع الكلاسيكيين، سيرج ايفانوفتش؟ أأسكبُ لك شيئاً من خمر «بورغوني»؟

قال سيرج ايفانوفتش وهو يبتسم بتعالٍ، وكأنه يخاطب طفلاً، ويمدّ كأسه:

ــ لستُ أعبّر، في هذه اللحظة، عن رأيي الشخصي.

وتابع كلامه مخاطباً الكسي الكسندروفتش:

ــ إني أقول فقط: إن كلا من الطرفين يملك حججاً قوية. أنا كلاسيكي بثقافتي، لكني لا أجد موضعاً لي في هذا النزاع. ولست أرى بوضوح لماذا تُقدَّم الدراساتُ الكلاسيكية على التعليم التقني.

قال بيستسوف بسرعة:

ــ العلوم الطبيعية تفسح المجال كذلك لنموّ الفكر البشري. خذوا علم الفلك، وعلم البنات، وعلم الحيوان بنظام قوانينيه العامة.

فردّ الكسي الكسندروفتش:

ــ لا يمكنني أن أوافق على هذا الرأي تماماً. ولا نستطيع أن ننكر، كما يلوح لي، إن لدراسة اللغات القديمة أحسن الأثر في تطوير الفكر.

وفضلاً عن ذلك، فإن تأثير الكتاب الكلاسيكيين تأثيرٌ أخلاقي إلى أقصى الحدود، بينما نضم، مع الأسف، إلى تدريس العلوم الطبيعية مذاهبَ ضارّةً وكاذبة هي آفة عصرنا.

أراد سيرج ايفانوفتش أن يجيب، لكن بيستسوف قاطعه بصوته الخفيض، وبرهن بحدة على ما في هذا الزعم من ظلم، وانتظر سيرج ايفانوفتش دوره بهدوء، وكأن جوابه كان مُعداً، ثم قال بابتسامة رفيقة وهو يلتفت إلى كارينين:

ــ لكنك تعترف بصعوبة الموازنة بين محاسن كلّ من التربيتين ومساوئهما

والمسألةُ ما كانت لتُحلّ حلاً حاسماً لو لم تكن الدراسات الكلاسيكية تمتازُ بأنها. . . ــ ولنقلْها ــ : لا عَدَميّة.

ــ بدون شك.

ــ ولولا هذا الامتياز لأمعنّا في التفكير، ولوازنّا بين الحسنات والسيئات، ولتركنا الاتجاهين يتفتحان. لكننا نعلم الآن أن أقراص الثقافة الكلاسيكية تحتوي على العلاج الشافي من العدمية، ونحن نصف هذه الأقراص لمرضانا. . .

وختم كلامه بإحدى مزحه المعهودة:

ــ وإذا لم يكن لها تلك القدرة العلاجية؟

أضحكتْ هذه الكلمةُ جميعَ الحاضرين، ولا سيّما توروفستين الذي كان ينتظر عبثاً أن يُبهج هذا النقاشَ حديثٌ هزليّ من هذا النوع.

لم يخطىء ستيڤان اركادييڤتش حين دعا بيستسوف ذلك أن الحديث بحضوره، لا يَفْتر دقيقة واحدة. فما إن وضع سيرج ايفانوفتش حداً للنقاش بهذه الدعابة، حتى انطلق بيستسوف في موضوع آخر.

قال:

ــ لا نستطيع حتى أن نؤكد أن الحكومة ترمي إلى هذا الهدف إن الحكومة تقودها، على ما يظهر، اعتباراتٌ عامة ولا تبالي بالأثر الذي يمكن أن تتركه التدابيرُ المتّخذة. مثلاً، إن مسألة تعليم النساء يجب أن تُعتبر تخريبيّة، ومع ذلك فالحكومة تفتح الصفوف والجامعات النسوية.

وما لبث أن دار الحديث على هذا الموضوع الجديد.

أَعْرَبَ الكسي الكسندروفتش عن الفكرة التالية وهي: أننا نَخْلط عادةً مسألةَ تعليم النساء بمسألة تحريرهن، وأن المسألة بهذا المعنى الأخير يمكن أن تُعتبر ضارةً.

قال بيستسوف:

ـ أنا أذهبُ، على العكس، إلى أن هاتين المسألتين مرتبطتان ارتباطاً وثيقاً، إنهما حلقة مفرغة، فالمرأة تُحرَم حقوقها لأنها لم تتعلم تعلّماً كافياً، ونقصُ التعلم هذا يأتي من حرمانها حقوقها. ويجب ألاَّ ننسى أن استعباد المرأة كلّي وقديم حتى أننا نؤثر، في معظم الأحيان، أن نتجاهل الهوّة التي تفصلها عنا.

قال سيرج ايفانوفتش الذي كان ينتظر سكوت بيستوف:

ـ إنك تتحدّث عن الحقوق: أتقصدُ الحقَّ في القيام بوظيفة المحلّف، وعضو المجلس البلدي، ورئيس المحكمة، والمستخدم، وعضو البرلمان؟

ـ بدون أدنى شك.

ـ لكن إذا كانت النساءُ يستطعن، استثنائياً، أن يشغلن هذه الوظائفَ، فيلوح لي أنك مخطىء في استخدام كلمة «حقوق». والأصح أن تقول: «واجبات» وكلّكم متّفقون على أننا حين نؤدي وظيفةً ما، سواء أكانت وظيفة محلّف أو مستخدم بريد أو عضو مجلس بلدي، فنحن نشعر أننا نؤدي واجباً. ولذلك، فالأصح أنْ يُقال: إن النساء يَبْحثنَ عن الواجبات: وهذا مشروعٌ تماماً. ولا نملك إلاَّ أن نَعْطف على تَوْقهن إلى المساعدة في أعمال الرجال.

وافق الكسي الكسندروفتش:

ـ هذا صحيحٌ كل الصحة المسألة فيما أظن، تنحصر في أن نعلم إنْ كن قادرات على أداء هذه الواجبات.

فقال ستيڤان اركاديڤتش:

ـ لا شك، عندما ينتشر التعليم بينهن. ونحن نرى ذلك...

قال الأمير العجوز الذي كان يصيخ السمعَ منذ لحظة بعينيه الصغيرتين، الملتمعتين والهازئتين:

ـ والمثل؟ أستطيع أن أذكره أمام بناتنا: «المرأة شعرها طويل[1]...».

---

(١) المرأة شعرها طويل: يقول مثل روسي قديم: المرأة شعرها طويل وعقلها قصير.

قال بيستسوف مستاءً:

ــ هذا ما كان يعتقده الناس عن الزنوج قبل تحررّهم.

قال سيرج ايفانوفتش:

ــ ما أستغرُبه هو أن تبحث النساءُ عن التزامات جديدة، في حين نلاحظ بأسف أن الرجال يهربون، في الغالب، من هذه الالتزامات.

قال بيستسوف:

ــ هذه الواجبات مرتبطة بحقوق هي: السلطة، والمال، والمجد، هذا ما تسعى إليه النساء.

قال الأمير العجوز:

ــ تماماً كما لو كنت أطالب بالحق في أن أكون مرضعاً وكما لو كنتُ استنكرُ أن أُمنع هذا الحقّ، في حين تُدفَعُ للنساء أجورُهن من أجل ذلك.

انفجر توروفتسين ضاحكاً وأسف سيرج ايفانوفتش ألاَّ يكون هو قائل هذه النكتة. وابتسم الكسي الكسندروفتش نفسه.

قال بيستسوف:

ــ نعم، لكن الرجل لا يمكن أن يُرضع، بينما المرأة...

قال الأميرُ العجوز الذي يبيح لنفسه شيئاً من الصراحة أمام بناته:

ــ بلى، يُقال إن إنكليزياً في سفينة توصّل إلى إرضاع ابنه.

هذه المرة، قال سيرج ايفانوفتش:

ــ في هذه الحالة، يجب أن يكون المرضعون الإنكليز بقدر النساء الموظفات.

فتدخّل ستيڤان اركادييڤتش وقد تذكّر الراقصة الصغيرة تشبيستوف التي لم تغب عن نظره لحظة وهو يؤيد بيستسوف:

ــ لكنْ ماذا تستطيع أن تفعل الفتاةُ التي لا أهل لها؟

قالت داريا الكسندروفنا فجأة بغيظ، ولعلها تنبأت في أي نوع من الفتيات يفكّر ستيڤان اركادييڤتش:

ـ إذا فحصتَ بعناية حياةَ فتاة من هذا النوع، فسوف تجد أنها هجرت عائلةً ما: عائلتها أو عائلة أختها، حيث كان يمكن لها أن تقوم بدورها كامرأة.

فأجاب بيستسوف بصوتٍ جهوري:

ـ لكنا ندافع عن مبدأ، عن مثل أعلى! المرأةُ تطلب حقها في أن تكون مستقلّة ومتعلّمة، إن شعورها بعجزها ليُزعجها، ليسحقُها.

فردد الأمير العجوز:

ـ أما أنا فالذي يرهقني هو أنهم لا يقبلوني مرضعاً للّقطاء.

وهذا الجواب استخف توروفتسين من الفرح حتى لقد سقط رأس هيونته فيما أمامه من مرق.

[١١]

شارك الجميع في الحديث العام، ما عدا كيتي وليفين، وفي البدء، عندما تحدّث الحاضرون عن الأثر الذي يمكن أن يُحدثه شعبٌ في شعب آخر، فكر ليفين، على نحو غير إرادي، فيما كان يمكن أن يقوله بهذا الصدد، لكن تلك الأفكار التي كانت عظيمة الأهمية عنده، من قبل، كانت تمرّ الآن بذهنه كما تمرّ في الحلم، ولا تُثير فيه أدنى اهتمام وبدا له مُستغرباً أن يكلّف الناسُ أنفسهم الحديث في مثل هذه الموضوعات التافهة. وما قيل عن حقوق التعليم والنساء كان ينبغي أن يثير اهتمام كيتي أيضاً فكم من مرة فكرت، وقد خطرت ببالها صديقتُها فارنكا، في العبودية المؤلمة التي تعيش فيها، وكم من مرة تساءَلتْ: ماذا سيحلّ بها إذا لم تتزوج، وكم من مرة ناقشت ذلك مع أختها! أما الآن، فلم يعدْ ذلك يَعْنيها في شيء لقد قام بينها وبين ليفين حديث آخر، بل إنه لم يكن حديثاً وإنما

كان ضرباً من الإتحاد السري الذي أخذ يقرّب ما بينهما شيئاً فشيئاً، من دقيقة إلى أخرى، ويوقظ فيهما مشاعر الرُعب الفرَحِ أمام المجهول الذي دَلَفا إليه.

سألت كيتي، في أول الأمر، ليفين كيف استطاع أن يراها في السنة السابقة فروى لها قصة هذا اللقاء على الطريق العامة، بينما كان عائداً من الحقول:

قال وهو يبتسم:

ـ كان الوقتُ مبكّراً. ولا شك أنك كنتِ مستيقظةً قبل هنيهة. كانت أمكِ نائمةً في ركنها، كان النهار بديعاً. كنت سائراً فتساءلت لمَ كانت تجرّ هذه العربة أربعةُ جياد، وتلك العدة الرائعة والجلاجل. وفي اللحظة نفسها: تجلّيتِ لي: كنتِ جالسةً هكذا، عند الباب، وأنت تمسكين بشرائط قبعتك في يديك. لا بد أنك كنتِ تفكّرين في شيء رهيب.

كم كنت أود أن أعلم فيم كنتِ تفكّرين! أكان شيئاً مهماً؟

فكّرت في نفسها: «آمل ألاّ أكون حاسرةً آنذاك!»، لكنها عندما رأت الابتسامة النشوى التي بعثتها تلك الذكرياتُ على شفتي ليفين، أحسّتْ، على العكس، أنها قد تركتْ في نفسه أثراً حسناً. فاحمرتْ وأخذتْ تضحكُ بفرح:

ـ في الحقيقة، إني لا أذكر ذلك.

قال ليفين وهو ينظر بودّ إلى عيني توروفتسين المخضوضلتين، وإلى جسمه الذي كان يهتزّ من الضحك:

ـ ما أبرأ ضحكَ توروفتسين!

سألته كيتي:

ـ أتعرفه منذ وقت بعيد؟

ـ ومَنْ الذي لا يعرفه؟

ـ وأرى أنك تعدّه رجلاً سيئاً.

ـ لا أعدّه سيئاً، بل تافهاً.

قالت كيتي:

ـ أنتَ مخطىء! وأرجوك أن تغير رأيَك بسرعة، وأنا أيضاً، لم يكن رأيي فيه حسناً، لكنه فتى ممتاز، رائع، طيّب القلب.

ـ كيف أَمكنكِ أن تعرفي ذلك؟

ـ إن بيننا صداقةً كبيرةً، ففي الشتاء الفائت، بعد زيارتك بقليل... (قالت ذلك وابتسمت ابتسامةً مذنبةً وواثقةً به في آن واحد)، أصيبَ أولاد دولي بالحمى القرمزية، فجاء ذات يوم لزيارتهم.

وتابعت بصوت خافت:

تصوّره أنه أشفقَ عليها إلى الحد الذي بقي معه ليساعدها على العناية بالأولاد. وسكن معنا طوال ثلاثة أسابيع واعتنى بالأولاد كأنه مربّيتهم.

قالت وهي تنحني على أختها:

ـ إنني أروي لقسطنطين دميتريفتش كيف تصرّف توروفتسين عندما أُصيبَ الأولادُ بالحمّى القرمزية.

قالت دولي وهي تلقي نظرةً على توروفتسين الذي أحسّ أنهم يتحدثون عنه، وتبتسمُ له بعطف:

ـ نعم، كان رائعاً!

نظر ليفين مرة أخرى إلى توروفتسين، وتعجّب من أنه أساءَ حتى الآن تقدير سحر هذا الرجل. وقال بفرح:

ـ أنا مخطىء، ولن أسيءَ الظنّ بالناس بعد الآن.

كان يعبّر بصدق عمّا يختلج في نفسه.

[١٢]

إن النقاش حول حقوق النساء ينطوي على مسألة شائكة تَصْعبُ معالجتها أمام السيدات وهي: المساواة بين الزوجين في الحقوق. ولقد حاول بيستسوف أن

يخوض فيها مرة أو مرتين، أثناء العشاء، لكن سيرج ايفانوفتش وستيڤان أركادييڤتش غيرا وجهة الحديث بفطنة.

وعندما نهض المدعوون عن المائدة، ومضت السيدات إلى قاعة الاستقبال، أبى بيستسوف أن يتبعهن، وتوجّه إلى الكسي الكسندروفتش، وشرع في عرض مسألة: عدم المساواة بين الزوجين في الحقوق، وهي مسألة تكمن أساساً، برأيه، في أن جزاء خيانة المرأة وجزاء خيانة الرجل متفاوتان في نظر القانون وفي نظر الرأي العام.

تقدّم ستيڤان أركادييڤتش نحو الكسي الكسندروفتش بعجلة وسأله إن كان يحبّ أن يدخن.

أجاب الكسي الكسندروفتش بهدوء:

ـ لا، إني لا أدخّن.

والتفت إلى بيستسوف، وعلى وجهه ابتسامة باردة، وكأنه أراد أن يُظهر أن لا يخشى هذا الحديث، وقال:

ـ أعتقد أن هذا التفريق يستند إلى طبيعة الأشياء ذاتها.

وأراد أن ينتقل إلى قاعة الاستقبال، لكن توروفتسين أخذ يتكلّم فجأة، واختار الكسي الكسندروفتش محدثاً له، وقال، وقد حرّكتْه الشمبانيا، وكان حريصاً على أن يكسر الصمتَ الذي ثَقلَ عليه:

ـ هل سمعتَ عن برياتشنيكوف؟

وأضاف، وعلى شفتيه الحمراويين والرطبتين، ابتسامةٌ ساذجة، مخاطباً المدعوّ الرئيسي الكسي الكسندروفتش:

ـ رُويَ لي اليوم أنه نازل «كفيتسكي» في «تفير»، وأنه قتله في المبارزة.

وكما يُخيّل إلى المرء دائماً أن الضربات إنما تأتيه عن قصد في المواقع الحسّاسة، كذلك أحسّ ستيڤان أركادييڤتش أن الحديث، لسوء الحظ، يُنذر، في

كل لحظة، بَجْرح الكسي الكسندروفتش. وهمّ أن يجرّ صهره، لكن الكسي الكسندروفتش سأل بفضول.

ولماذا نازله برياتشنيكوف؟

ــ بسبب امرأته لقد تصرَّف تصرُّف الرجل الباسل: تحدّى خصمه وقتله!

قال الكسي الكسندروفتش بلهجةٍ غير مبالية، رافعاً حاجبيه:

ــ آه!

وانتقل إلى قاعة الاستقبال.

قالت له دولي، وهي مُقبلةٌ عليه، في القاعة الصغرى، وعلى شفتيها ابتسامةٌ متخوفةٌ:

ــ ما أعظمَ سروري بمجيئك. أحب أن أكلّمك لِنجلسْ هنا.

جلس الكسي الكسندروفتش بجنب داريا الكسندروفنا، وقد عبّرتْ أساريرُه عن لا مبالاةٍ أسْبغها حاجباه اللذان ارتفعا قليلاً، وابتسم ابتسامةً متكلّفة، وقال:

ــ بكل سرور، ولا سيما أني كنت أنوي أن أرجوك المعذرة وأن أنصرف. لا بد لي من أن أسافر غداً.

كانت داريا الكسندروفنا مقتنعة اقتناعاً ثابتاً ببراءة آنا وأحست أنها أخذت تشحبُ وأن شفتيها أخذتا ترتجفان من الغضب على هذا الرجل البليد والبارد الذي يعتزم بهدوء بالغ أن يفقد آنا.

قالت له وهي تنظر في عينيه بتصميم يائس:

ــ الكسي الكسندروفتش، سألتك عن أخبار آنا فلم تجبني. كيف حالها؟

أجابها الكسي الكسندروفتش، دون أن ينظر إليها:

ــ أظنّ أنها بخير.

ــ الكسي الكسندروفتش، عفوَكَ، ليس لي الحقّ. . . لكني أحبَ وأحترم آنا كالأخت: أرجوك، أتوسَّل إليك أن تخبرني عمّا بينك وبينها. بمَ تتهمها؟

قطّب الكسي الكسندروفتش بين حاجبيه وخفضَ رأسه وهو يكاد يُغمض عينيه، وقال دون أن ينظر إلى وجهها، وهو يتفرّس باستياء في تشرباتزكي الذي كان يَعْبُر قاعة الاستقبال:

ــ أعتقد أن زوجك أطْلعكِ على الأسباب التي من أجلها رأيتُ من المفيد أن أغيرّ علاقاتي مع آنا أركادييفنا.

فقالت دولي وقد ضمّتْ يديها الناحلتين في حركة قوية:

ــ لا أصدّق ذلك، لا أصدق ذلك، لا أستطيع أن أصدقه!

ونهضتْ بسرعةٍ، ووضعت يدها على كمّ الكسي الكسندروفتش وقالت:

ــ لن نرتاحَ هنا. تعال من هنا. أرجوك.

أثَّر انفعالُ دولي في الكسي الكسندروفتش. فنهض وتبعها منصاعاً إلى غرفة دراسة الأطفال. وجلسا أمام طاولة مغطاةٍ بغطاء ملطّخ، مجرّح بضربات سكين.

فردّدت دولي وهي تَجْهد في أن تلتقط نظرته التي كانت تهرب من نظرتها:

ــ لا أصدّق ذلك، لا أصدّق ذلك.

ــ داريا الكسندروفنا، لا يمكننا أن نشك في «الوقائع».

قال ذلك وشدّد على كلمة «الوقائع».

قالت داريا الكسندروفنا:

ــ لكنْ ماذا فعلتْ؟ ماذا فعلتْ بالضبط؟

قال:

ــ لقد تنكرتْ لواجباتها وخدعتْ زوجَها. هذا ما فَعلتْه.

قالت دولي وهي تضغط على صدغيها وتغمض عينيها:

ــ لا، لا هذا مستحيل! لا، بالله عليك، لقد أخطأتَ.

ابتسم الكسي الكسندروفتش ببرودة من طرف شفتيه، وابتغى من ذلك أن يظهر لها ولنفسه صلابةَ اقتناعه. لكن دفاعها الحار، إن لم يُزعزعه فقد نكأ جراحه. فاستأنف كلامَه بحميّة أعظم، وقال وهو ينخر، وقد بدا عليه الغضب:

ــ من الصعب أن يخطىء الزوجُ عندما تخبره امرأتُه نفسها بزلّتها. عندما تقول له: إن ثماني سنوات من الحياة المشتركة إضافةً إلى ابنها ليست سوى خطأ، وأنها تريد أن تبدأ حياتها من جديد.

ــ آنا والرذيلة... لا أستطيع أن أجمع بين هاتين الفكرتين، لا أستطيع أن أصدق ذلك.

قال، وهو ينظر، هذه المرة، إلى وجه دولي الوادع، المتأثر، ويحسّ أن عُقدة لسانه قد حُلّت:

ــ داريا الكسندروفنا! إني أبْذل الكثير لكي يكون الشكّ ممكناً. كنتُ أتألم وأنا أشكّ، لكن أقلّ مما أتألم الآن. كان لي أملٌ وأنا أشكّ، أما الآن فلم يبقَ لي أملٌ، وصرتُ أشكُّ في كل شيء، حتى صرتُ أكره ابني وأتساءَل أحياناً إن كان ابني حقاً. أنا تَعيسٌ جداً.

ما كان بحاجة ليقول ذلك: لقد أدركتْ داريا الكسندروفنا ما به منذ أن نظر إلى وجهها. فأخذتْها الشفقة عليه، وتزعزع إيمانُها ببراءة صديقتها.

ــ آه! هذا فظيع، فظيع! أمن الممكن أنك عزمتَ على الطلاق؟

ــ لقد اتخذتُ هذا التدبير الأخير، ولم يبق لي ما أفعلُه غير ذلك.

قالت وعيناها مغرورقتان بالدموع:

ــ لم يبق غير ذلك... بلى، هناك شيءٌ آخر تفعله!

قال وكأنه يقرأ أفكارها:

ــ الرهيبُ في مثل هذا المصاب أنه لا يمكن الاكتفاء بالتألم كما هي الحال في المصائب الأخرى مثل الخسارة والموت، بل لا بدّ من العمل، لا بد من

الخروج من الوضع المُذلّ الذي دُفِعْنا إليه: من المستحيل أن يعيش الثلاثة في بيت واحد.

قالت دولي وقد خفضتْ رأسها:

ــ فهمتْ، فهمتُ جيداً.

وصمتتْ، وفكرَت في نفسها، في خيبتها الزوجية، وفجأة رفعتْ رأسها بحركة قوية، وضمّت يديها متوسلةً:

ــ انتظرْ! أنت مسيحي، فكّر فيها! ماذا سيحلّ بها لو تركتَها!

قال الكسي الكسندروفتش:

ــ لقد فكرْتُ في ذلك، فكرتُ طويلاً.

وشّتْ وجهَه بقعٌ حمراء وحدّقت عيناه الكئيبتان فيها. وقد رثَتْ له داريا الكسندروفنا، هذه المرة، من كل قلبها. وتابع:

ــ وهذا ما فعلتُه بالذات، عندما أنبأتني هي نفسها بعاري، تركتُ كلَّ شيء كما كان من قبل أعطيتُها إمكانية تغيير ما في نفسها، حاولتُ إنقاذَها.

وقال محتداً:

ــ فماذا نَتَج عن ذلك؟ لم تشأ أن تَرْضخَ للشرط المتواضع الذي وضعْتُه لها وهو: مراعاة اللياقة. يمكننا إنقاذ إنسان لا يريد أن يهلك، لكنْ إذا كانت طبيعتُه كُلها قد بلغتْ حداً من الفساد خُيِّل إليه معه أن خلاصَه في هلاكه، فما العمل؟

أجابت داريا الكسندروفنا:

ــ كل شيء، إلا الطلاق!

ــ ماذا تعنين بقولك «كل شيء».

ــ آه! هذا فظيع! لن تكون زوجةً لأحد، ستضيع!

قال الكسي الكسندروفتش وهو يهزْ كتفيه وحاجبيه:

ــ لكنْ، ما حيلتي؟

إن ذكرى غلطة امرأته الأخيرة غاظتْه كثيراً حتى عادت إليه برودةُ أول الحديث، فقال وهو ينهض:

ــ أنا ممتنٌ من مشاركتك الوحدانية، لكنْ، قد آن الأوان لأتصرف.

ــ لا، ابقَ! لا ينبغي أن تقودها إلى هلاكها. اسمعْ. سأحدثّك عن نفسي. أنا متزوّجة أيضاً، وقد خدعني زوجي: وفي غمرة حقدي وفَوْرة غيرتي، أردتُ أن أترك كلَّ شيء، ورغبت في... لكني تمالكت نفسي... ومَنْ الذي أنقذني؟ آنا. والآن أنا أحيّا. فأولادي يكبرون، وزوجي يعود إلى أسرته، ويُدرك أخطاءه، ويغدو أفضل، إني أحيا... لقد صفحتُ، وينبغي لك أن تصفح أيضاً!

كان الكسي الكسندروفتش يصغي، لكن الكلامَ لم يَعدْ له مِنْ سلطانٍ عليه. لقد ثار، في نفسه من جديد، ذلك السخطُ الذي عاناه يوم أن قررَ الطلاق. فانتفض وقال بصوتٍ ثاقب:

ــ لا أستطيع ولا أريد أن أصفح، وأقدّر أن الصفحَ غيرُ عادل. لقد فعلتُ كلَّ شيء من أجل هذه المرأة، فداستْ كل شيء في الوحل. والوحلُ من جِنْسها. لستُ شريراً: فأنا لم أكرهُ أحداً قط، لكني أكرهُها بكل ما أوتيتُ من قوة. لا يمكنني أن أصفح عنها، لأنني أكرهها بسبب الأذى الذي ألحقته بي.

وعندما أنهى كلامه كانت دموعُ الغضب تمتزج بصوته.

همست داريا الكسندروفنا بوجل:

ــ أحبّوا مبغضيكم...

ابتسم الكسي الكسندروفتش ابتسامة ازدراء. كان يعلم ذلك منذ زمن طويل، لكن هذا القولَ لا ينطبق على حالته.

ــ يمكن أن نحب الذين يبغضوننا، أما أن نحبَّ الذين نُبغضهم ذلك غيرُ ممكن. اعذريني لما سببتُه لك من اضطراب. يكفي كلَّ إنسان همه!

وتمالك نفسه فاستأذنها بهدوء وانصرف.

[١٣]

عندما نهض المدعوون عن المائدة، أراد ليفين أن يتبع كيتي إلى قاعة الاستقبال؛ لكنه خشي ألا ترتاح إليه حين يُبادر إلى التلطف المكشوف. فظلّ في حلقة الرجال وشارك في الحديث العام، لكنه كان يحسّ، دون أن ينظر إليها، بكل حركة من حركاتها، وبكل نظرة من نظراتها، ويعلم أين جلست في قاعة الاستقبال.

وَفَى ليفين، على الفور، ودون أدنى جهد، بالوعد الذي قطعه لها على نفسه وهو: أن يُحسن الظنّ بالناس جميعاً وأن يُحب الناس جميعاً. لقد استقرّ الحديثُ على الوحدة الريفية التي رأى فيها بيستسوف مبدأ أصيلاً سماه «مبدأ الجوقة». ولم يأخذْ ليفين لا برأي بيستسوف ولا برأي أخيه الذي كان يعترف بأهمية الوحدة الريفية الروسية ويشكّك فيها، في الوقت نفسه. لكنه ناقش معهم محاولاً فقط أن يوفّق بينهم وأن يلطّف من أجوبتهم. ولم يكن يُعنى في شيءٍ بما كان يقوله هو نفسه، ولا بما كان يقوله الآخرون. لم يكن يبتغي سوى شيء واحد: أن يغدو الجميعُ سعداء، مبتهجين. كان يعلم الآن ما الشيء الذي يملك أهميةً، لا يملكها غيره من الأشياء. هذا الشيء الوحيد ظلّ في صدر قاعة الاستقبال، ثم أخذ يتحرّك ووقف قربَ الباب. وأحسّ، من غير أن يلتفتَ، بالنظرة الباسمة المحدّقة فيه، فلم يسعه إلا أن يلتفت. كانت واقفة عند عتبة الباب مع تشرباتزكي تنظر إليه.

قال لها وهو يدنو منها:

ــ ظننتُ أنك ستعمدين إلى العزف على البيانو. فما ينقصني في الريف إنما هو الموسيقا.

قالت له وهي تردّ عليه بابتسامة:

ــ لا، جئنا نطلبك؛ أشكرك على أنك انضممتَ إلينا. ما جَدْوى النقاش؟ لن يُقنع أحدُ منكم أحداً.

قال ليفين:

ــ نعم، صحيح، فنحن ندافع عن أنفسنا بحرارة، في معظم الوقت، لأنّ من المستحيل أن نفهم فهماً صحيحاً ما يريد أن يبرهن عليه الخصمُ.

غالباً ما لاحظ ليفين أثناء المناقشات بين الناس الشديدي الذكاء أن المتحادثين ينتهون، بعد أن يبذلون جهوداً جبّارةً ويكدّسوا ضروبَ الحجج المنطقية والبارعة، إلى الاعتراف بأنهم كانوا على علم بما حاول الآخرُ أن يبرهن عليه، منذ بدء النقاش، لكنهم كانوا يحبّون التنوّع ولم يشاؤوا أن يسمّوا ما يحبّونه لكي لا يُفنَده الخصمُ. ولاحظ أن الخصم يُدرك أحياناً، في غمرة النقاش، ما يحبّه خصمه، وسرعان ما يُشغف به. فإذا بجميع الحجج التي غدت بلا جدوى، تسقطُ من ذاتها، وفي أحيان أخرى، كان العكسُ هو الذي يحدثُ: فنحن ننجح أخيراً في التعبير عمّا نرغب فيه، وإذا ما استطعنا التعبير بفنٍ وصدقٍ فإن الخصم هو الذي يسارع إلى تبنّي رأينا ويكف عن النقاش. هذا هو بالتحديد ما أراد أن يقوله:

قطّبتْ بين حاجبيها باذلةً جهدها لتفهم. وعندما أراد أن يشرح لها فكرته، أدركت المعنى فقالت:

ــ فهمتُ: يجب أن يعلم لماذا يناقش، وماذا يحبّ، حينذاك يمكن أن. . .

لقد حزرتُ المعنى وجسدَتْ بهذا الشكل ما حاولَ أن يُعبّر عنه. وابتسم من الغبطة: فشدّ ما بَهَره هذا الانتقال من ذلك النقاش المشوّش والمعقّد والمطنب مع بيستسوف وأخيه، إلى هذا البديل الموجز والواضح، والذي يكاد يكون بلا كلام، لأشدّ الأفكار تعقيداً.

تركهما تشرباتزكي، فدنتْ كيتي من مائدة اللعب وأخذت ترسم بقطعةٍ من الحوار دوائر على الغطاء الأخضر الجديد.

استأنفا الحديثَ الذي بُدىء به أثناء العشاء: عن حرية المرأة وعملها كان ليفين من رأي داريا الكسندروفنا: وهو أن الفتاة التي لا تتزوج يمكن أن تسعى إلى

العمل في أسرة ما. ولكي يؤيّد أقواله. ذهب إلى أنه لا يمكن الاستغناء عن النساء المساعدات في أية أسرة، وأن كل أسرة غنيةً كانت أم فقيرةً، لا تَستغني عن مربيّةٍ للأولاد، قريبةٍ أو مستخدمةٍ بالأجرة.

قالت كيتي وهي تحمرّ، وتنظر إليه بجرأة أكبر، من جراء ذلك، بعينيها النبيلتين:

ــ لا، هناك حالات لا يمكن أن تدخل فيها الفتاة أسرة دون إذلال، لكنها هي نفسها...

فهمها من الإشارة، وقال:

ــ أوه! نعم، نعم، نعم، الحقَ معك، الحقَ معك.

كلُّ ما حاول بيستسوف أن يُبرهن عليه أثناء العشاء، قد فهمه ليفين حين اكتشف في قلب كيتي تلك الخشية البريئة من الإذلال وقد تأثّر بذلك، واستشعر هذه الخشية وذلك الإذلال، وأقلع في الحال عن حججه.

خيمَ الصمتُ عليهما. وظلَت ترسم على المائدة بإصبع الحوّار. والتمعت عيناها ببريق وادع. واستسلم لحالته النفسية، فأحس بكيانه كله مُتْرعاً بالسعادة:

قالت وهي تضع قطعة الحّوار:

ــ آه! ملأتُ المائدة بالخربشات!

وبدَرتْ منها حركة، وكأنها تهمّ بالنهوض.

وفكرّ في نفسه برعب: «كيف يمكنني البقاء وحيداً بدونها»، وأخذ الحوّارة. وقال، وهو يجلس:

ــ انتظري. هناك سؤالٌ كنت أحبّ أن أطرحه عليك منذ زمن بعيد.

نظرت إليه في عينيه: كان تعبير وجهها ينمّ على الحنان والخشية في آن واحد.

ــ اسألْني، أرجوك.

قال:

ـ انظري.

ورسم الحروف التالية: ع أ غ م ف ك ذ ي أ أ ح ؟ وهي الأحرف الأولى من الكلمات التالية[1]: «عندما أجَبْتني «غير ممكن»، فهل كان ذلك يَعْني: أبداً أو حينئذٍ؟» كان من المستبعد أن تَفْهم هذه الجملة المعقّدة، لكنه كان ينظر إليها وكأن حياته كلها تتعلق بفطنتها.

حدجتْه بنظرة رصينةٍ، وأسندت جبهتها إلى يدها وأخذت تحلّ الرموز. وكانت ترفع عينيها إليه بين الحين والحين. كأنها تسألة، «هل حزرتُ»؟

وقالت وهي تحمّر:

ـ فهمتُ.

قال لها وهو يشير إلى حرف « أ » التي تمثّل «أبداً»:

ـ ما هذه الكلمة؟

قالت:

ـ «أبداً». لكن هذا غير صحيح.

ومحا تماماً ما كتبه، وناولها الحوَّارةَ ونهض. فكتبت: «ح، ل، ي، ب، أ، أ، ب، ذ».

تعزّت دولي كلياً من الغمّ الذي سببه لها حديثُها مع الكسي، الكسندروفتش عندما رأتهما كليهما: كيتي والحوَّارة بين أصابعها، وعيناها مرفوعتان إليه، وعلى شفتيها ابتسامةٌ وجلةٌ سعيدة، وشخص ليفين الجميل، منحنياً عليها بعينيهِ الملتمعتين اللتين كان ينقّلهما من المائدة إلى كيتي. وفجأةً استضاءَ وجهُه: لقد فهم ما كتبته. كانت الأحرف تعني: «حينئذ لم يكن بوسعي أن أجيب بغير ذلك».

---

(١) ورسم الحروف التالية: هذا هو بالذات مشهد المكاشفة بين تولستوي وصوفيا بيرس في آب ١٨٦٢، في أملاك جد الفتاة.

نظر إليها نظرة وجلة ومتسائلة:

ــ حينئذٍ فقط؟

أجابت ابتسامتها:

ــ نعم.

وسألها:

و « أ »... «والآن».

خذْ، اقرأْ. سأقول لك ما أبتغيه، ما أبتغيه من كل قلبـي!

وكتبت: «ل، ت، أ، ت، ا، و، ع»، أي: ليتك تستطيع أن تنسى الماضي وتصفح عني.

تناول الحوّارة بأصابعه المرتجفة والمتشنجة، وبعد أن قسّمها قسمين كتب حروف أوائل الكلمات التالية: «ليس لديّ ما أنساه أو أصفح عنه، فأنا ما انفككتُ أحبّك».

نظرت إليه، ولم تكفّ عن الابتسام.

فهمست:

ــ فهمتُ.

وجلس، فكتب جملة طويلة. وفهمت كل شيء، فأخذت الحوَّارة وأجابته رأساً، دون أن تسأله إن كان فَهْمُها صحيحاً.

ظل طويلاً دون أن يفهم جملتها، وسألها بنظرته عدةَ مرات. خُيّل إليه أنه سيجنّ من السعادة. لم يستطع تركيب الكلمات التي استخدمْتها، لكنه رأى في عينيها المشعّتين كلَّ ما كان يحتاج إلى معرفته. وكتب ثلاثة أحرف، لكنْ قبل أن ينتهي من الكتابة، سبقته وأنهتْ الجملة وكتبت: نعم.

قال الأميرُ العجوز الذي أقبل عليهما:

ـ بم تلعبان، بلعبة أمين السر؟ تعلمين، إذا شئتِ أن تَصلي إلى المسرح، في الوقت المعيّن، فيجب أن ننصرف.

نهض ليفين، وشيّع كيتي إلى الباب.

تكاشفا بكل شيء: كانت تحبه، وستنبىء أهلها بذلك، وسيزورها غداً صباحاً.

[١٤]

عندما ذهبت كيتي وبقي ليفين وحده، تولّاه قلقٌ شديدٌ بسبب غيابها وشوقٌ عاتٍ للوصول إلى نهار الغد كي يلقاها ويتَّحد بها إلى الأبد، حتى إنه خشيَ هذه الساعات الأربع عشرة التي سيقضيها بعيداً عنها كما يخشى الموت. وأحسّ بالحاجة الماسة إلى إنسان يحادثه حتى لا يبقى وحده وحتى يتلهّى عن الانتظار. وكان ستيڤان أركادييڤتش أقرب المحدثين إلى نفسه. لكنه قال له: إنه ذاهب إلى السهرة (إلى الباليه، في الواقع). وأُتيح لليفين القليل من الوقت ليقولَ له فيه: إنه سعيد، وإنه يحبه، وإنه لن ينسى أبداً ما فعله من أجله.

أظهرتْ نظرةُ ستيڤان أركادييڤتش وابتسامتُه لليفين أنه يفهم هذا الشعور حقّ الفهم.

قال ستيڤان أركادييڤتش وهو يشدّ على يد ليفين شداً ينمّ على الدفق العاطفي:

ـ وإذن، فالموتُ لم يعد وارداً.

قال ليفين بقوة:

ـ لا!

وعندما استأذن، هنّأته داريا الكسندروفنا وقالت له:

ـ كم أنا سعيدةٌ بلقائك لكيتي. لا ينبغي للمرء أن ينسى أصدقاءه القدماء.

لم ترقْ هذه الكلمات لليفين. ولم يكن بوسع دولي أن تُدرك إلى أي حدّ كان ذلك رفيعاً، لا سبيل إلى بلوغه، وما كان ينبغي لها أن تسمحَ لنفسها بهذا التلميح. ودّعهم ليفين، لكنه عرّج على أخيه، خوفاً من أن يظل وحده.

ــ إلى أين أنت ذاهب؟

ــ إلى الإجتماع.

ــ أأستطيع مرافقتَك؟

قال سيرج ايفانوفتش وهو يبتسم:

ــ بدون شك، تعال. ماذا دهاكَ اليوم؟

قال ليفين دهاني؟ وهو يخفض زجاج العربة التي صعدا إليها:

ــ ماذا دهاني؟ السعادة! ألاَّ يضايقك هذا؟ إن المرءَ ليختنق هنا! نعم! السعادة! لمَ لمْ تتزوّجْ؟

ابتسم سيرج ايفانوفتش وشرع يقول:

ــ أنا سعيدٌ بذلك، إنها فتاةٌ سا...

فهتف ليفين وهو يمسك بطوق معطف أخيه ويصعّد فيه نظره:

ــ أسكتْ، أسكتْ، أسكتْ! «فتاةٌ ساحرة!»...

هذه الكلمات المبتذلة والغثة لم تكنْ تليق بعاطفته.

أخذ سيرج ايفانوفتش يضحك من قلبه، وذلك قلما كان يقع له، وقال:

ــ أستطيع، رغم كل شيء، أن أقول لك، إنني سعيدٌ بذلك.

قال ليفين:

ــ غداً، غداً، غداً بالذات! لا تقلْ شيئاً، لا تقل شيئاً، أسكتْ!

وأضاف وهو يشدّ عليه معطفه من جديد:

ــ إذن، أستطيع أن أذهب إلى اجتماعك؟

ــ طبعاً، بالتأكيد.

سأل ليفين دونه أن يتوقّف عن الابتسام.

ـ عمّ ستتحدثون اليوم؟

ووصلا. سمع ليفين أمين السر يتلعثم في قراءة محضر بدا أنه لا يفهم شيئاً منه؛ لكنه رأى من وجهه أنه رجلٌ طيّب وممتاز. تبيّن ذلك من هيئته المضطربة وهو يقرأ المحضر. وبعد ذلك بدأ الكلام. ونوقشت قضيةُ حسم بعض المبالغ وإنشاء بعض المجاري؛ صَعَقَ سيرج ايفانوفتش اثنين من أعضاء اللجنة وألقى خطبةً طويلة وقد بدت عليه أمارات النصر. وعمَدَ شخصٌ آخر كان يكتب شيئاً على ورقة أمامه فتغلّب على بوادر الخجل وأجابه جواباً رشيقاً ولاذعاً. وبعد ذلك تكلّم سيفاجسكي (وكان هو هنا أيضاً) بنبل. وكان ليفين يصغي إليهم ويرى بوضوح أن هذه المبالغَ المحسومةَ وتلك المجاري لا أهمية لها. وأنهم لم يكونوا غاضبين، بل إنهم كانوا رجالاً فضلاء وممتازين يُحسنون التعامل فيما بينهم، لا يضايقون أحداً ولا يتضايقون. وأكثر ما لفتَ نظر ليفين هو أن هؤلاء الرجالَ غَدوْا الآن شفّافين: ذلك أنه أخذ يكتشف نفسَ كل واحد فيهم، بناءً على دلائل ضعيفة لم ينتبه إليها حتى الآن، ويرى أنهم جميعاً فضلاء، ولا سيما أنهم كانوا يحبّونه جميعاً. وذلك واضح من الطريقة التي يكلّمونه بها، ومن النظرات المتودّدة التي كانوا يلقونها عليه حتى أولئك الذين لا يعرفهم.

سأله سيرج ايفانوفتش:

ـ ما رأيك؟ هل أنت مسرور؟

ـ مسرورٌ جداً. ما كنت أظن ذلك شائقاً، مثيراً إلى هذا الحد.

دنا سفياجسكي حتى من ليفين ودعاه إلى تناول الشاي عنده. فتّشَ ليفين عبثاً عن مآخذه عليه. لقد وجده رجلاً ذكياً، كريم النفس إلى حدّ عجيب.

قال له:

ـ بكل سرور.

وسأله عن أخبار زوجته وأختها. وبما أن أخت زوجة سفياجسكي كانت مرتبطةً في ذهن ليفين بفكرة الزواج، فقد ظنّ، بضرب من التوالد الغريب للأفكار، أن خير من يُطلعه على سعادته هما زوجة سفياجسكي وأختها، فاغتبط بزيارتهما.

سأله سفياجسكي عن أعماله؛ كان مقتنعاً دائماً بأن من المستحيل العثور على شيء لم يُكتشْف في أوروبا من قبل، لكن ليفين لم يَسْتأ هذه المرة. بل لقد شعر أن سفياجسكي محقّ، وأن هذه المسألة كلها لا أهمية لها، وأكبرَ لباقةَ سفياجسكي إذ تجنّب البرهنةَ على ما قدّم.

وكانت المرأة والفتاة في غاية اللطف والإيناس. وخُيّل إلى ليفين أنهما تعرفان كلّ شيء، وأنهما تشاركانه سعادته، وأنهما تمسكان عن الكلام تحفّظاً منهما. ومكث عند سفياجسكي ساعتين أو ثلاثاً، وتطرّق إلى موضوعات شتّى كانت تتصل دائماً بما يملأُ نفسَه، ولم يلاحظ أنهم ضاقوا به صدراً وأن الوسن راود أجفانهم. وقد شيّعه سفياجسكي حتى غرفة الانتظار وهو يتثاءب، مدهوشاً من حالة صديقه الغريبة. وبعد أن جاوزت الساعةُ الواحدة، عاد إلى الفندق وروّعتْه فكرة الساعات العشر التي كان عليه أن يقضيها وحده، وقد عيل صبرهُ. أشعلَ له الخادمُ الليليّ شمعته وأراد أن ينسحب، لكن ليفين استبقاه. كان اسمه «ايغور» ولم ينتبهْ إليه ليفين حتى الآن، وبدا له ذكياً وطيّب القلب خصوصاً.

ــ قلْ لي، يا «ايغور» هل السهرُ صعب؟

ــ ما الحيلة؟ هذه هي المهنة. الحياةُ، في بيوت السادة، أهنأ، لكن الربح هنا أوفر.

وتبيّن أن لأيغور أسرةً من ثلاثة أولاد وبنت خياطة ينوي أن يزوّجها لبائع برادع.

وبهذه المناسبة، أنبأه ليفين أن الجوهريَّ في الزواج هو الحب، وأننا سعداء حين نحبّ لأننا نحمل سعادتنا فينا.

أصغى إليه «ايغور» بانتباه، وبدا علي أنه فهم تماماً فكرة ليفين، وأيّدها بملاحظةٍ غير متوقّعة: فقال إنه عندما عمل عند سادة فضلاء، كان مسروراً منهم دائماً، وأنه الآن راض عن سيّده، مع أنه فرنسي.

فكّر ليفين: «يا له من رجل ممتاز».

ــ وأنتَ، يا ايغور، أكنت تحبّ امرأتك، عندما تزوجتَ.

ــ طبعاً!

ورأى ليفين أن ايغور كان في حالة من الحماسة مثله، وأنه يهمّ بإطلاقه على أخصّ عواطفه الصميمة.

بدأ ايغور يقول، وقد التمعتْ عيناه، وكأن حماسةَ ليفين قد عَدَتْه كما نتثاءَب بالعدوى:

ــ كانت حياتي مُدهشةً أيضاً، فمنذ طفولتي...

لكن الجرس رنّ في هذه اللحظة؛ فذهب ايغور وظل ليفين وحده. لم يكدْ يأكل شيئاً في العشاء، ورفضَ أن يتناول الشاي وأن يتعشّى عند سفياجسكي، لكنه لم يكن يستطيع أن يفكّر في العشاء. ولم تغمضْ له عينٌ في الليلة السابقة، لكنه لم يكن يستطيع أن يفكّر في النوم. وكانت غرفته باردةً، بيد أنه كاد يختنق من الحرارة، ففتح مصراعيْ النافذة، وجلس أمامها إلى طاولة. وخلف سطح مغطّى بالثلج، ارتفع صليب مخرّمٌ وبه سلاسل[1]؛ ومن فوقه طلعَ في السماء مثلّثُ كوكبة الحوذي التي التمع فيها بريقٌ «العنز» المائلُ إلى الصفرة. كان ينظر إلى النجم تارةً، وإلى الصليب تارةً أخرى، ممتصاً الهواء المتجمّد الذي كان يلج الغرفة بانتظام، ومتابعاً الصورَ والذكريات التي تنبعث في خياله، وكأنه في حلم. وبعد الساعة

(١) صليب مخرم وبه سلاسل: كانت الصلبان المذهبة في الكنائس الروسية مربوطة، على الأغلب، بالقبة، بسلاسل مذهبة أيضاً.

الثالثة، سمعَ وقعَ خطوات في الممر فألقى نظرةً خاطفةً من الباب. كان المقامر «مياكين» الذي يعرفه، عائداً من النادي.

كان يسير وهو يسعل، مقطّب الحاجبين. وفكّر ليفين في نفسه: «التعِس!. وأراد أن يحدّثه، أن يشدّ من عزيمته؛ لكنه تذكّر أنه لا يلبس إلاَّ قميصه، فغيّر رأيهَ وعاد إلى الجلوس أمام النافذة، لينغمس، من جديد، في الهواء البارد، وليتأمل الصليبَ الأنيق، والنجمة الصفراء الفاقعة التي طلعتْ في السماء، وإذا بدموع الحب والرأفة تَسْتَبِقُ إلى عينيه. في حوالي السابعة، جاء الماسحون وأحدثوا ضجّة، وأخذت الأجراسُ تقرعُ، وشعر أنه بدأ يرتعش. فأغلق النافذة، ونهض، وارتدى ثيابه وخرج.

[١٥]

كانت الشوارع مقفرةً. توجّه ليفين إلى منزل آل تشرباتزكي. كانت البوابةُ مغلقةً وكان الناسُ نياماً. فعاد أدراجه، وصعد إلى غرفته، وطلبَ قهوة. والذي حمل إليه القهوة لم يكنْ «ايغور»، وإنما كان الخادم النهاري. وأحب ليفين أن يبدأ الحديثَ معه، لكنه استُدعيَ وخرج. وحاول أن يشرب فنجان القهوة وأن يضع قطعة من الخبز في فمه، لكن فمه أبى أن يستجيب له. فلفظ اللقمةَ من فمه، وارتدى معطفه وخرج ثانيةً. كانت الساعةُ التاسعةَ عندما اقترب للمرة الثانية من درج مدخل منزل آل تشرباتزكي. لقد نهض أهل البيت من نومهم قبل هنيهةٍ، وذهب الطاهي يتموّن. كان لا بد من الإنتظار ساعتين على الأقل.

عاش ليفين، طوال هذه الليلة وهذه الصبيحة، في لا شعور كلّي، وأحسّ أنه خارجٌ عن شروط الحياة المادية. فهو لم يأكلْ شيئاً البارحة، وقضى ليلتين مسّهداً، وظلّ عدة ساعات عارياً في الهواء المتجمّد. بيد أنه كان يحسّ بالنشاط والعافية أكثر من أي وقت مضى، إحساساً مستقلاً كل الاستقلال عن جسده: كان يتنقل بلا جهد ويحس أنه قادر على فعل كل شيء. وكان واثقاً من أنه يستطيع أن يطير في

الفضاء أو يزيح جدران البيوت إن لزم الأمرُ. وقضى سائر وقته في الشوارع ينظر إلى ساعته، في كل لحظة، منقّلاً بصره في الأرجاءِ.

ما رآه حينئذ لم يره أبداً فيما بعد. تأثّر، على وجه الخصوص، بمرأى الأطفال الذاهبين إلى المدرسة، والحمائم الرمادية الهابطة من السطوح إلى الرصيف، وقطع الحلوى التي رُشّتْ بالطحين والتي وَضَعتْها يدٌ خفيّة في الواجهة. فهذه الحلوى وتلك الحمائم وذانك الصبيّان الصغيران كائنات سماوية. جرى كلُ شيء في آن واحدٍ. ركضَ الصبيُّ نحو الحمامة ونظر إلى ليفين مبتسماً؛ صفّقتْ الحمامةً بجناحيها وحلّقتْ، ملتمعةً في الشمس، بين ذرّات الثلج المرتعشة في الفضاء، وانبعثتْ، من إحدى النوافذ رائحةُ الخبز الساخن. كل ذلك مجتمعاً كان جميلاً إلى أقصى حدود الجمال حتى إن ليفين أخذ يضحك ويبكي من الفرح. ودار دورة من شارعي «الغازيت» والـ«كيسلوفكا[١]»، ورجع إلى الفندق مرةً أخرى، وبعد أن وضع الساعة أمامه، جلس منتظراً الظهيرة. وكان في الغرفة المجاورة نزلاء يتحدثون عن الآلة والغش، ويسعلون سعالاً صباحياً. لم يكن هؤلاء الناس يعلمون أن عقرب الساعة يقترب من الثانية عشرة. وأخيراً بلغت الساعةُ الثانية عشرة، فخرج ليفين إلى درج المدخل. وكان الحوذيون يعلمون بالطبع كلَّ شيء، وأحاطوا بليفين، بوجوه سعيدة، وهم يتجادلون ويَعْرضون عليه خدماتهم. اختار ليفين واحداً منهم، محاولاً ألاَّ يكدّر الآخرين، واعداً بأنه سيستأجر عرباتهم مرةً أخرى، وأمر الحوذيَّ أن يمضي به إلى منزل آل تشرباتزكي. كان الحوذي رائعاً بقبّة قميصه الأبيض الذي برز من قفطانه وغطّى رقبته الحمراء القوية. كانت عربته مرتفعةً ومريحةً (لم يركب ليفين أبداً عربةً مثلها فيما بعد) وكان الجواد مطهّماً، يبذل أقصى جهده وهو يخبّ، لكنه لم يكن يتقدّم. كان الحوذي يعرف منزلَ آل تشرباتزكي وقد أوقف جواده، أمام درج المدخل، ليدلّ على

(١) من شارعي الغاريت والكيسلوفكا: شارعان في وسط موسكو.

احترامه الخاص لزبونه، وكوّر ذراعيه وهو يصيح: «هووو!».

كان الحاجب يعلم، بالتأكيد، كل شيء. وقد ظهر ذلك من ابتسامة عينيه ومن العبارة التي استقبله بها:

ــ مضى زمنٌ طويلٌ ولم نَرَك، قسطنطين دميتريتش!

لم يكن يعرف كل شيء فحسب، بل كان يتهلّل فرحاً ويسعى جهده إلى إخفاء هذا الفرح. وعندما التقى ليفين نظرةَ الشيخ أدركَ أنه لم ير بعد كلّ مظاهر سعادته.

ــ هل نهضوا من نومهم؟

ــ أدخلْ، أرجوك، ودعْ هذه.

قال ذلك وهو يبتسم عندما أراد ليفين أن يعود ليأخذ قبّعته. إن لذلك معناه.

سأل الخادم.

ــ لمنْ أعلنُ وصولَك؟

مع أن هذا الخادم الشاب كان يدّعي الأناقة إلاَّ أنه كان فتى طيباً ممتازاً: كان يفهم كل شيء هو أيضاً.

قال ليفين:

ــ للأميرة... والأمير... والآنسة.

كانت الآنسة «لينون» أول شخص رآه. كانت تعَبْرُ قاعةَ الاستقبال، وكانت جدائلُها المُلَوْلَبَةُ متوهجةً وكان وجهها مشرقاً. لم يكد يخاطبها حتى سمع خلفَ الباب حفيفَ ثوب: غابتْ الآنسة «لينون» من عيني ليفين وتولاه هلعٌ فَرِحٌ أمام السعادة التي كانت تدنو. وبادرتْ الآنسة لينون إلى تركه والاتجاه نحو الباب الآخر. ولم تكد تخرج حتى تناهى إليه وقعُ خطوات على أرض الغرفة، ودنت منه سعادته، حياته ذاته، دنا منه ما هو أفضل من نفسه، ما فتّش عنه واشتاق إليه منذ زمن بعيد. لم تكن تمشي، وإنما كانت تحملها إليه قوّةٌ خفيّة.

لم يكنْ يرى سوى عينيها المضيئتين والنبيلتين، المرتعبتين والمشرقتين بذلك الفرح الذي كان يملأ قلبه. كانت هاتان العينان تدنوان منه شيئاً فشيئاً، وقد بهرتاه بضيائها. وقفت بالقرب منه، حتى لا صقته. ورفعت يديها ووضعتهما على كتفي ليفين.

لقد فعلتْ كل ما في استطاعتها: هُرعتْ إليه وأعطته نفسها كاملةً، وجلةً، سعيدةً. قطوّقها بذراعيه وأطبق شفتيه على فمها الذي كان يبحث عن قبلته.

لم تنمْ هي أيضاً طوال الليل، وقد انتظرتْه طوال الصباح.

كان والداها موافقين كلَّ الموافقة وسعيدين بسعادتها. كانت تنتظره. أرادتْ أن تكون أول من يبشّره بسعادته وسعادتها. وقد أعدّتْ نفسها لاستقباله وحدها، فرحةً ووجلةً ومرتبكةً في آن واحد، وهي لا تعلم ما الذي ستفعله، سمعتْ صوتَه وخطواته، وانتظرت خلفَ الباب حتى تخرج الآنسة «لينون». فتدنو منه، من غير أن تفكّر أو تسأل عن شيء، وتفعلُ ما فعلتْ.

قالت له وهي تمسك بيده:

ــ تعالى لنلقى أمي!

لم يستطعْ أن يقول شيئاً، خلال فترة طويلة، لا لأنه كان يخشى أن يُسيءَ بما يقوله إلى سموّ عاطفته، بل لأنه كان كلما حاول أن يقول شيئاً أحسّ بدموع السعادة تخنقهُ.

فتناول يدها ولثمها.

قال لها أخيراً بصوت بهيم:

ــ أمن الممكن أن يكون هذا حقيقياً. لا أستطيع أن أصدّق أنكِ تحبينني!

ابتسمت من ضمير المفرد الذي خاطبها به، ومن الوَجَل الذي امتزج بنظرته إليها، وقالت ببطء ورصانة:

ــ نعم، أنا سعيدة جداً. .

دخلت قاعة الاستقبال، دون أن ترخي يده. وعندما رأتهما الأميرة، كادت تختنق، وما لبثتْ أن انفجرت باكيةً، ثم ما لبثت أن أخذت تضحك. وركضتْ نحو ليفين، بخطوات أقوى مما تصوّر ليفين، وأمسكت رأسه بين يديها وقبّلته وبلّلتْ خدّيه بدموعها:

ــ وهكذا، انتهى كل شيء! أنا مسرورة. أحبّها. أنا مسرورة... كيتي.

قال الأمير العجوز الذي حاول أن يظهر عدمَ أكتراثه:

ــ ما أسرعَ ما دبّرا الأمرَ!

لكن ليفين لاحظ أن عينيه مبلّلتان عندما التفتَ إليه.

قال الأمير وهو يمسك بيد ليفين ويجذبه إليه:

ــ كنتُ أتوقُ إلى ذلك منذ زمن بعيد... وكل يوم.

حتى عندما عزمتْ هذه الرعناء...

فهتفت كيتي وهي تسدّ فمه بيديها:

ــ بابا!

قال:

ــ طيّب، سأسكتُ، أنا جدّ، جدّ مــــــ... آه! ما أغباني...

وضمّ كيتي بين ذراعيه، وقبّل خدَّها، ثم يدها، ثم خدها مرة أخرى ورسم عليها إشارةَ الصليب.

وامتلأ ليفين بحب جديد للأمير العجوز الذي ظل غريباً عنه حتى هذه اللحظة، عندما رأى كيتي تلثم يده الربلة، طويلاً وبحنان.

[١٦]

جلستْ الأميرةُ في مقعدها، مبتسمةً، لا تقول شيئاً؛ وجلس الأميرُ بقربها؛ ووقفت كيتي بقرب مقعد أبيها وظلّت ممسكةً بيده في يديها. وأخلد الجميعُ إلى الصمت.

كانت الأميرةُ أول من سمّى الأشياءَ بأسمائها، وردّتْ عواطفَهم وأفكارهم إلى الحياة الواقعية. وقد بدا ذلك لهم جميعاً، في اللحظة الأولى، شاقاً وغريباً:

ـ إذن، متى نحتفل بالخطبة ونُعلن ذلك في الكنيسة؟ ومتى يكون الإكليلُ؟ ما رأيك، يا الكسندر؟

قال الأمير العجوز وهو يشير إلى ليفين:

ينبغي أن تسأليه هو. فهو صاحب العلاقة الأساسي.

قال ليفين وهو يحمر.

ـ متى؟ غداً، إذا طلبتم رأيي. أعتقد أننا يمكن أن نُجري الخطبةَ اليوم والزواج غدا.

ـ دعكَ من الحماقة، يا عزيزي...

ـ بشرفي، إنه مجنون!

ـ إذن، في ظرف ثمانية أيام.

ـ لا، لماذا؟

قالت الأمُ وهي تبتسم بفرح من هذا الاستعجال:

ـ والجهاز؟

فكّر ليفين بذعر: «إذنْ سيكون هناك جهازٌ وأشياء أخرى. لكن هل يستطيع الجهازُ أو المباركة أو غير ذلك أن يُفسد سعادتي؟ لا، لا شيء يمكن أن يعكّرها»! نظر إلى كيتي فرأى أن فكرة الجهاز لم تجرحْها في شيء.

فقال في نفسه: «معنى ذلك أن الجهاز ضروريّ».

واستأنف ليفين كلامه:

ـ تعلمين أنني لا أفهم شيئاً من ذلك، وإنما أعْربتُ فقط عن رغبتي.

ـ سنفكّر في ذلك. أما الآن فسنعقد الخطبة ونُعلنها.

اقتربت الأميرةُ من زوجها وعانقته وهمّت بالذهاب لكنه استبقاها، وضمها

بين ذراعيه بحنان، وعانقها عدة مرات، وهو يبتسم، عناقَ الشاب المحب. وكأن هذين الزوجين العجوزين لم يكونا يعلمان بالضبط في هذه اللحظة إن كانا هما العاشقين أو ابنتهما. وعندما انصرفا، دنا ليفين من خطيبته وأمسك بيدها. لقد عاد إليه روعُه وأصبح قادراً على الكلام. وكان في نفسه أشياء كثيرة يريدُ أن يقولها لها. لكنه قال شيئاً مختلفاً عما كان يجب أن يقوله. قال:

ـ كنتُ أعلم أن ذلك سيتمّ! لم أكن أجرؤ على الأمل لكني كنت مقتنعاً في أعماقي به. أعتقد أن ذلك مكتوبٌ.

قالت:

ـ وأنا؟ حتى عندما. . .

توقّفت، ثم استأنفت كلامها وهي تنظر بعزم في وجهه بعينيها النبيلتين:

ـ حتى عندما دفعتُ بيدي سعادتي بعيداً عني. لم أحبّ أحداً غيرك قطّ. وقد انسقتُ وراء الطيش. من واجبي أن أطلب إليك. . . هل تستطيع أن تنسى ذلك؟

ـ لعل الأمور أفضل هكذا. وأنتِ أيضاً يجب أن تغفري كثيراً لي. . . ينبغي أن أقول لكِ. . .

كان ذلك أحد الاعترافات التي عقد العزمَ على أن يبوح بها إليها. لقد صمّم على أن يعترف لها، منذ الأيام الأولى، بأنه لم يكن نقيّاً مثلها، وأنه غيرُ مؤمن. كان يُقدّر أنه يجب الاعتراف لها بكلا الأمرين.

وقال:

ـ لا، ليس الآن، فيما بعد!

ـ صحيح، فيما بعد. لكنْ، قلْ لي كل ما عندك، بكل تأكيد. إني لا أخشى شيئاً. أنا بحاجة إلى أن أعرف كل شيء. لقد تمّت القضيةُ الآن.

ـ الذي تمّ هو أنك تقبلينني على علاّتي. . . لن تتخلّيْ عني؟ أليس كذلك؟

ـ لا، لا.

انقطع حديثهُما بدخول الآنسة لينون التي جاءت تهنّىء طالبتَها المفضّلة بابتسامة تنمّ على الود والتكلّف. ولم تكد تنصرف حتى جاء الخدمُ يهنّئونها. ثم وصل أفراد العائلة وبدأت تلك الفترة السعيدة وغير المعقولة التي لم يَخْلصْ منها ليفين إلا في اليوم التالي لزواجه. وكان ليفين يشعر دائماً بالضيق وبالضجر، لكن سعادته لم تكن تني تعظُم. كان يحس أن الناس يطلبون منه أن يُقْدمَ على أشياء لم تخطرْ بباله من قبل، فيفعل كل ما يُطلب إليه، ويسبّب له ذلك مزيداً من السعادة. كان يعتقد أن خطْبته لن تشبه خطب الآخرين، وأنها إن تمّتْ كما يتمّ غيرها فإن سعادته ستتكدّر، لكنه كان، في الواقع، يفعل بدقة ما يفعله الآخرون، وكانت سعادته تكبرُ، مع ذلك، لتظلّ تلك الغبطة الشخصية التي لا يمكن أن يُشبّه غيرُها بها.

قالت الآنسة لينون:

ـ سنأكلُ، الآن، مُلبّساً.

ويُهرَعُ ليفين إلى شراء الملبّس.

قال له فياجسكي:

ـ تهانيّ. انصحك بشراء باقاتك من عند فومين.

ـ آه! نعم، هذا ضروري؟

ويُسرع إلى مخزن فومين(١).

ويقول له أخوه إنه ينبغي له أن يقترض مبلغاً من المال من أجل النفقات الراهنة، والهدايا...

ـ ألا بدّ من الهدايا؟

---

(١) فومين: بائع مجوهرات في موسكو.

ويذهب، من فوره، إلى مخزن فولدا[1].

كان يرى الناسَ، عند بائع الحلوى، وعند فومين، وعند فولدا، ينتظرونه، ويُسرّون بمرآه، وتبدو عليهم أماراتُ الظفر، كما كانت تبدو على كل من لهم صلةٌ به. ومن الغريب أن جميع الناس لم يكونوا يحبّونه فحسب، بل إن الذين أظهروا الفتور واللامبالاة إزاءَه حتى الآن، أخذوا يظهرون الحماسة لحضوره، ويلبّون جميعَ رغباته، ويبْدون كثيراً من الرقة والمداراة إزاء عاطفته، ويسلّمون بأنه أسعد إنسان وأن خطيبته هي الكمال بعينه. كذلك كان الأمرُ بالنسبة إلى كيتي. فعندما سمحتْ لنفسها الكونتيسة نورد ستون بالتلميح إلى أنها كانت تؤمل لها زواجاً أعظم تألّقاً، غضبتْ كيتي وبرهنت لها بكثير من قوة الحجة أنْ ليس في الدنيا خطيب أعظم تألّقاً من ليفين، حتى إن الكونتيسة نورد ستون اضطُرّت إلى موافقتها. ومنذ هذه اللحظة، لم تستقبل الكونتيسة «نوردستون» ليفين بحضور كيتي إلا بابتسامةٍ معجبةٍ.

كانت المكاشفة الموعودة هي العارض المؤلم، الوحيد في هذه الفترة. ذلك أن ليفين سلّم كيتي، بناء على رأي الأمير الذي سأله المشورة، المذكّرات[2] التي دوّن فيها كلّ ما كان يُزعجه. وقد كتب هذه اليوميات من أجل خطيبته المقبلة. وكان فيها نقطتان تشغلان باله: براءته المفقودة وكفره. وكانت هي تقيّةً، لم تشك قط في حقائق الدين؛ لكن كفر ليفين الخارجي لم يقلقها أبداً. لقد نفذتْ إلى نفسه، بفضل حبّها، ورأت فيها ما تشتهيه؛ أما أن يُسمّى ذلك كفراً فذلك مالا تبالي به أبداً. بيد أن اعترافه الآخر أبكاها بكاءً مرّاً.

لم يسلّمْها ليفين مذكّراته دون صراع داخلي. وكان على يقين من أنه لا ينبغي أن تكون بينه وبينها أسرارٌ، لذلك قرّر أن يسلّمها إياها، لكنه لم يكن يقدّر الأثر

---

(١) فولدا: بائع مجوهرات في موسكو.

(٢) المذكرات: هذا ما فعله تولستوي بالضبط غداة زواجه.

الذي ستتركه فيها. ولم يتبيّن الألم الفادح الذي ألحقه بها ولا الهوّة التي تفصل ماضيه المخزي عن هذه الطهارة الخالصة. إلا عندما جاء، هذا المساء، إلى منزل آل تشرباتزكي قبل الذهاب إلى المسرح، ودخل غرفتَها فلمح وجهها الساحر متألماً ومغطّى بالدموع. فارتعبَ لفعلته.

قالت له وهي تدفع الأوراق الموضوعة أمامها على الطاولة: استَعِدْ هذه الدفاترَ الفظيعة! لمَ أعطيتني إياها!..

واستدركتْ وقد رثت لوجهه اليائس:

ـ لا، كان ذلك أفضل، لكنه فظيع، فظيع!

طرق رأسَه وأخْلد إلى الصمت. لم يكن بوسعه أن يقول شيئاً. وهمس

ـ لن تغفري لي؟

ـ بلى، لكن ذلك فظيع!

كانت سعادة ليفين عظيمة جداً حتى إن هذا الاعتراف أضاف إلى تلك السعادة ظلالاً جديدةً بدلاً من أن ينال منها. لقد صفحتْ عنه. لكنه صار يرى نفسه، بدءاً من هذا اليوم، أقلَّ جدارةً بها، وانحنى معنوياً انحناءً أشد أمامَها، وأكبرَ إكباراً أعظم السعادة التي لم يكن يستحقها.

[١٧]

عاد الكسي الكسندروفتش إلى غرفته المنعزلة في الفندق، وهو يستعيد آلياً في ذاكرته انطباعات أحاديث الصباح. إن أحاديث داريا الكسندروفنا عن الصفح لم تُثرْ فيه سوى التبرّم. فتطبيق المبادىء المسيحية أو عدم تطبيقها على حالته مسألةٌ بالغةُ الدقّة، ولا يمكن الكلام عليها بلا تروٍّ. ولقد حلّها، من جهته، بالنفي، منذ زمن بعيد. ومن بين جميع الأقوال التي قيلت، في هذا المساء، كانت كلمات توروفتسين الطيّب والغبـي هي التي انطبعتْ في خياله أعمقَ انطباع: «لقد تصرف

كما يتصرف الرجلُ الباسل، فتحدّى خصمه، وقتلَه»!. كان الجميع يوافقون، بوضوح، على هذا السلوك، وإذا لم يُظهروا هذه الموافقة، فذلك على سبيل التأدّب.

وقال الكسي الكسندروفتش في نفسه: «على كل حال، لقد حُسمتْ المسألة، ومن العبث الرجوعُ إليها ودخل الغرفة وهو لا يفكّر إلا في سفره المقبل وفي جولته التفتيشيّة. وسأل البوّاب الذي رافقه عن خادمه، فأنبأه البوّابُ بأنه خرج قبل حين. فطلب الكسي الكسندروفتش شاياً، وجلس أمام طاولته واستغرق في دراسة الدليل.

قال له الخادمُ الذي عاد وهو يدخل الغرفة:

ــ هناك برقيتان. لتعذرْني سيادتك. فقد خرجت للحظةٍ.

تناول الكسي الكسندروفتش البرقيتين وفتحهما. كانت الأولى تنبئه بتعيين ستريموف في المنصب الذي كان يطمع فيه. فرمى البرقيةَ، واحمرّ ونهض وأخذ يذرع الغرفة وقال: «إذا شاء أن يهلكهم أفقدهم رشدهم»[١]. وهو يَعْني بضمير النصب أولئك الذين شاركوا في التعيين. ليس ما غاظه أنه كان ضحيةً واضحةً لترقية غير قانونية، لكن الذي أذهله هو أنهم لم يَرَوْا أن هذا الثرثار، هذا المتشدّق كان أقلّ الناس جدارةً لشغل هذا المنصب. كيف لم يروْا أنهم يدمّرون هيبتهم حين يعهدون إليه بهذه المهمة؟

وقال بحرارةٍ وهو يفتح البرقية الثانية: «لا بد أن تكون هذه أيضاً شيئاً من هذا القبيل». كانت هذه البرقية من آنا. وكان توقيع «آنا» بالقلم الأزرق، أوّلَ ما لفتَ نظره. وقرأ البرقية: «إنني أموت؛ أتوسّل إليك أن تأتي. سأموت وأنا أكثر طمأنينةً لو غفرتَ لي». فابتسم بازدراء ورمى بالبرقية. وفكّر تفكيراً غريزياً: «تلك حيلةٌ،

(١) «إذا شاء... رشدهم»: الفكرة لاوروبيدوس وقد استشهد بها تولستوي في الحرب والسلم، المجلد السادس.

تمثيلية. ليس في ذلك أدنى شك. إنها لا تتورع عن أيّة خدعة. لا شك أنها على وشك الوضع. ولعل هذا هو موضوع البرقية. لكنْ ما هدفهما؟ الإقرار بنسبة الولد؟ تلويث سمعتي؟ الحيلولة دون الطلاق؟ بيد أنها كتبتْ: «انني أموت» وأعاد قراءة البرقية، وفجأة أذهله ما في محتوى البرقية من معنى واقعي. وفكّر: «وإذا كان ذلك صحيحاً؟ وإذا كان صحيحاً أن الألم والإشراف على الموت قاداها إلى التوبة وأنني رفضت الذهاب لأنني ظننتُ ذلك خدعةً؟ لن يكون ذلك قاسياً فحسب ولم يستنكر الناسُ جميعاً فعلتي فحسب، بل إن ذلك سيكون دليلاً على الغباء، من جانبي». وقال لخادمه:

ــ بطرس، استدْعِ لي عربةً. سأذهب إلى بطرسبرج.

لقد عزم الكسي الكسندروفتش أن يعود إلى بطرسبرج وأن يرى امرأته. فإذا كان مرضُها خدعةً لزمَ الصمتَ وعاد، أما إذا كانت، في الحقيقة، مشرفةً على الموت وأحبّتْ أن تراه قبل أن تموت فسوف يغفر لها، إن وجَدَها حيّة، وسوف يقوم بالفرائض الأخيرة إن وجدها ميتة.

وبعد أن اتّخذه هذا القرار، كفَّ عن التفكير في هذا الموضوع، أثناء السفر صعد الكسي الكسندروفتش جادّة نيفسكي في ضباب الصباح، دون أن يفكّر فيما ينتظره، وبه ذلك الشعور بالتعب والوسخ، ذلك الشعور الذي يتلو ليلة قضاها في القطار. لم يكن يستطيع أن يفكّر فيما ينتظره، لأنه عندما كان يتصوّر ما سيقع، لم يكن بوسعه أن يُبعد فكرةَ موت آنا الذي سيحل جميع الصعوبات دفعةً واحدة. ومرَّ أمام عينيه الخبازون، والدكاكينُ المغلقة، والعرباتُ المتأخرة، والبوابون الذين كانوا يكنسون الأرصفةَ: كان يُلاحظُ كل شيء ويبذل وسعه كي يخنقَ تفكيره فيما ينتظره، وفيما لم يكن يجرؤ على أن يتمنّاه وهو يتمنّاه. وصل إلى منزله.

كانت تقف أمام درج المدخل عربةٌ ومركبة فخمة نامَ حوذيُّها. وعندما دخل غرفة الانتظار، انتزعَ من أقصى زوايا دماغه القرارَ التالي ورضي به: «إن كان الأمرُ

حيلةً فينبغي أن أُظهر لها الازدراءَ الهادىء وأنصرف؛ أما إذا كان حقيقيّاً، فينبغي مراعاة أصول اللياقة».

فتَح له البواب بيتروف أو كابيتونيتش، البابَ قبل أن يدق: كان منظر هذا البوابِ غريباً بسترته الرسمية البالية، وبخفّيه.

ـ كيف حالُ السيدة؟

ـ لقد ولدت السيدةُ بسلامةٍ أمس.

توقّف الكسي الكسندروفتش وشحب. أدرك الآن بوضوح مدى القوة التي تمنّى بها موتَها.

ـ وصحتها؟

نزل «كورني» الدرج على عجل، وهو في لباس الصباح وأجاب:

ـ السيدة في حالة سيئة. جاء الأطباء أمس للتشاور، والطبيبُ هنا.

قال له الكسي الكسندروفتش الذي شعر بشيء من العزاء عندما علم أن أمله بموتها ما يزال قائماً:

ـ خذ المتاعَ.

ودخل غرفةَ الانتظار. وشاهد معطفاً عسكرياً معلقاً على المشجب، فسأل:

ـ مَنْ هنا؟

ـ الطبيب، والقابلة، والكونت فرونسكي.

دخل الكسي الكسندروفتش الشقّة. لم يكن في قاعة الاستقبال أحدٌ؛ وعند سماع خطواته، خرجتْ القابلة من القاعة الصغرى، وعلى رأسها قبعةٌ ذات شرائط ليلكية:

أقبلتْ على الكسي الكسندروفتش، وأمسكتْ يده بالدالّة التي تَسْمح بها مجاورةُ الموت، وقادته إلى غرفة النوم. وقالت:

ـ الحمد لله، ها أنت قد جئتَ! إنها لا تتحدّث إلا عنك.

قال صوتُ الطبيب الآمرُ من غرفة النوم.

ــ أعطوني شيئاً من الثلج حالاً.

اتّجه الكسي الكسندروفتش إلى القاعة الصغرى. كان فرونسكي جالساً، قربَ الطاولة، على كرسيّ صغيرة منخفضة، يبكي؛ ورأسُه في يديه. وعندما سمع صوت الطبيب، انتفضَ، وكشفَ عن وجهه، وإذا به أمام الكسي الكسندروفتش، فاضطرب اضطراباً شديداً، حين رأى الزوجَ، بحيث عاد إلى الجلوس مُدخلاً رأسَه في كتفيه كأنه يرومُ الاختفاء. لكنه تحامل على نفسه وقال:

ــ إنها تموت. قال الأطباء: إنه لم يبق أملٌ منها. أنا تحت تصرفك، لكن اسمحْ لي بالبقاء هنا... أنا بين يديك، أنا...

عندما شاهد الكسي الكسندروفتش دموعَ فرونسكي، تولّاه الاضطراب الذي يُثيره فيه مرأى آلام الآخرين. فأشاح بوجهه، ومضى بسرعة إلى الباب، دون أن يسمعه حتى النهاية. وسُمع في الغرفة صوتُ آنا وهو يقول شيئاً. كان صوتُها مبتهجاً، مليئاً بالحياة، واضحَ النبرات.

دخل الكسي الكسندروفتش الغرفة، ودنا من السرير. كان وجهُها متجهاً إليه وكان خدّاها أحمرين؛ وعيناها تلمعان؛ ويداها الصغيرتان، البيضاوان خارجتين من كم قميصها، تعبثان بلَيّ أحد أطراف الغطاء. لم تكن تبدو صحيحةً، معافاة فحسب، ولكنْ في أحسن مزاج أيضاً، كانت تتكلّم بسرعة، وبصوت شديد، وبنبرات غريبة الدقة والقوة:

ــ ... لأن الكسي، قصدتُ الكسي الكسندروفتش (ما أغرب وأقسى أن يتسميّا كلاهما الكسي، أليس كذلك؟)، الكسي لن يرفضني. قد أنسى فيغفر لي... لكنْ لماذا لا يأتي؟ إنه طيّبٌ، وهو نفسه يجهل، إلى أي حدّ هو طيّب. آه! يا إلهي! ما هذا القلق! أعطوني بسرعة ماءً! آه! نعم، لكن هذا ليس حسناً بالنسبة

إليها، بالنسبة إلى الطفلة الصغيرة! ليكنْ، هاتوا لها مرضعاً، إذن. نعم، أوافقُ على ذلك، بل إن ذلك أفضل. إن جاء فسوف يتألم لمرآها. خذوها!

قالت القابلة، وهي تحاول أن تلفتَ انتباهَها إن السكي الكسندروفتش:

ــ آنا أركادييفنا، لقد وصل. ها هو ذا.

تابعتْ آنا دون أن ترى زوجها:

ــ آه! يا للحماقة! نعم، أعطوني إياها، طفلتي الصغيرة! إنه لم يأتِ بعد. تقولين إنه لن يغفر لي لأنك لا تعرفينه. لم يكن يعرفه أحدٌ سواي. ولذلك آلمني الأمرُ كثيراً. يجب أن تعلموا أن عيني سيريوجا كعينيه تماماً. ولذلك لا أستطيع رؤيتهما. هل عشيتّم سيريوجا؟ أنا واثقةٌ أن الجميع ينسونه. أما هو فما كان لينساه. يجب أن نضع سيرويوجا في الغرفة الركنيّة ونطلب إلى «مارييت» أن تنام بجنبه.

وفجأة، تجمّعت على نفسها، وصمتت، ورفعت ذراعيها إلى مستوى وجهها، وقد بدا عليها الرعبُ، وكأنها تريد أن تتَّقي ضربةً.

لقد شاهدتْ زوجَها.

واستأنفتْ:

ــ لا! لا! إني لا أخافُه، وإنما أخافُ الموتَ. تعال إليّ، يا الكسي. إني مستعجلةٌ، لأن الوقت ضيقٌ، ولم يبق لديّ الكثير منه. ستعودُ الحمّى، ولن أفهم بعدها شيئاً. وأنا أفهم الآن، أفهم كل شيء وأرى كل شيء.

عبّر وجهْ الكسي الكسندروفتش المغضّنُ عن ألم شديد، فأخذَ يدَها وأراد أن يتكلّم، لكنه لم يستطعْ أن ينطق بشيء، كانت شفتُه السفلى ترتجف، وكان يُصارعُ انفعاله، وينظر إليها بين الحين والآخر.

وكان كلما نظر إليها رأى عينيها محدّقتين فيه، معبرتين عن حنان وحماسة لم يرهما فيها من قبل.

توقفت كأنها تَسْتجمعُ أفكارَها:

انتظرْ، أنت لا تعلم. . . . انتظر، انتظرْ. . . .

ثم بدأت كلامها:

ـ نعم، نعم، نعم. اسمعْ ما كنتُ أريدُ أن أقوله لكَ. لا تدهشْ. فما زلتُ أنا نفسي. . . لكنْ فيَّ امرأةً أخرى وأنا أخاف منها. هي التي هامتْ به. أردتُ أن أكرهك، لكني لم أستطع أن أنسى المرأة التي كنتُها من قبل. أما المرأة الأخرى فكانت غيري. والآن، هأنذا بكلّيتي. إنني أموت، وأرى أنني سأموت، ما عليك إلا أن تسأله. إني أحسّ مجدداً بهذه الأثقال في يديَّ، في رجليّ، في أصابعي. انظرْ إلى أصابعي ما أضخمها! لكنْ ذلك كله سينتهي عما قريب. . . كلُ ما أحتاجُ إليه هو أن تغفر لي، كليّاً! إني امرأة فظيعة، لكن مربيّة سيرج حدّثتني عن قديسةٍ شهيدة، ما اسمها؟ يبدو أنها كانت أسوأ مني. سأذهب إلى روما، فهناك صحراء، ولن أُزعجَ أحداً فيها، وسآخذُ معي سيريوجا والطفلةَ الصغيرة. . . لا، لا تستطيع أن تصفحُ عني! أعلمُ، لا يمكن الصفحْ عن مثل ذلك! لا، لا، اذهبْ، أنت مُفرطُ الكمال!

أمسكتْ يده بإحدى يديها الملتهبتين، وأخذتْ تدفعه بالأخرى.

ما انفك اضطرابُه يزداد، وقد تعاظم إلى حدٍ بعيد كفَّ معه عن المقاومة؛ وأحسّ فجأة أن ما كان يعدّه اضطراباً، إنما هو، على العكس، حالةٌ نفسية مُفرحةٌ تبعثُ فيه فجأةً ضرباً من السعادة التي لم يذقْها من قبل. لم يخطرْ بباله أن ذلك القانون المسيحي الذي لم يشأ أن يتبعه كان يأمره بالصفح عن أعدائه وبمحبتهم؛ لكن شعوراً مشرقاً من المحبة والصفح قد ملأ قلبه. كان جاثياً قرب سريرها، مسنداً رأسه إلى ثَني ذراعها التي كانت تحرقه عبر قميص النوم، ينتحبُ كالطفل. طوقت بذراعها رأس زوجها الذي تساقط شعره، وتقرَّبت منه، ورفعتْ عينيها بكبرياء متحدّية.

ــ ها هو ذا، كنتُ على يقين من ذلك؛ الآن، الوداع، لكم جميعاً، الوداع!... لقد عادوا، لماذا لا يذهبون؟... ارفعوا عني هذا الفرو...

رفع الطبيبُ ذراعها، ووضَعها برفق فوق وسادتها، وغطّى كتفيها. فانصاعت وظلت مستلقيةً على ظهرها، محدقة بعينيها الملتمعتين أمامها:

ــ تذكّرْ أنني بحاجة فقط إلى صفحك، ولستُ أبغي شيئاً آخر... لماذا لا يأتي، يا ترى؟

قالت ذلك وهي تلتفتُ إلى باب الغرفة حيث وقفَ فرونسكي:

ــ تعال، تعال! أعطه يدك.

تقدّم فرونسكي إلى رأس السرير، وعندما شاهد آنا غطّى وجهه بيديه، مرةً أخرى.

قالت:

ــ اكشفْ عن وجهك، انظرْ إليه. إنه قديس.

واستأنفت بلهجة مُغتاظةٍ:

ــ الكسي الكسندروفتش، اكشفْ عن وجهه، أريدُ أن أراه.

أمسك الكسي السكندروفتش بيديْ فرونسكي وكشف عن وجهه الذي شوّهه الألمُ والمذلّةُ.

ــ أعْطِه يدك، اصفحْ عنه.

مدّ الكسي الكسندروفتش إليه يده، دون أن يحبس الدموع التي ترقرقتْ من عينيه.

قالت:

ــ الحمد لله، الحمد لله! كل شيء جاهزٌ، الآن لم يبق لي إلا أن أمدّ رجليّ قليلاً. هكذا. نعم، حسنٌ هكذا.

وقالت وهي تشير إلى الطنافس:

ـ ما أبشعَ هذه الأزهار، إنها لا تشبه البنفسج في شيء.

ـ يا إلهي، يا إلهي! متى سينتهي ذلك؟ أعطني شيئاً من المورفين، يا دكتور. أعطني شيئاً من المورفين. أوه! يا إلهي، يا إلهي!

وأخذت تضطرب في فراشها.

لقد شخّص الأطباء مرضَها وهو حمّى النفاس التي لا تكاد تنجو منها سوى امرأة واحدة من مائة. وقضتْ نهارها في الهذيان واللاشعور. وحوالي منتصف الليل، كانت المريضةُ ترقد فاقدةً حسّها، وكان نبضْها لا يُسمع.

وأخذوا ينتظرون النهاية بين دقيقة وأخرى.

ذهب فرونسكي إلى منزله لكنه عاد في صباح اليوم التالي يسأل عن أخبارها. أقبل عليه، في البهو، الكسي الكسندروفتش وقال له: «ابقَ، ربما طلبتْك» وأخذه بنفسه إلى القاعة الصغرى. عند الصباح، بدأت تتحرك وتتكلّم بحيوية قافزةً من موضوع إلى آخر، ثم ما لبثت أن غرقت في اللاشعور.

وفي اليوم الثالث، ظلّت الأعراضُ نفسها وقال الأطباء: إن هناك أملاً. في هذا اليوم، قصد الكسي الكسندروفتش إلى القاعة الصغرى حيث كان فرونسكي، وبعد أن أغلق الباب بالمفتاح، جلس قبالته.

قال فرونسكي، وقد أحس أن ساعة الاستفسار قد دنت:

ـ الكسي الكسندروفتش، ليس في مقدوري الكلام، ولا الفهم. فدعْني! ومهما يكن الأمرُ مؤلماً لك، فهو أفظع، بالنسبة إلي.

وأراد أن ينهض، لكن الكسي الكسندروفتش أمسك بيده، وقال له:

ـ أرجوك أن تصغي إليّ حتى النهاية، فهذا ضروري، يجب أن أشرح لك العواطفَ التي قادتْني حتى الآن والتي ستحدّد سلوكي، حتى لا ترتكب خطأً بصددي. أنت تعلم أني عزمتُ على الطلاق وأني قمتُ بالخطوات الأولى. ولا أخفي عليك أنني حين سرت في هذه الطريق، كنت متردّداً ومتألماً؛ فأنا أعترف لك

بأن الرغبة في الانتقام منك ومنها قد لاحقتْني. وعندما تلقيتُ البرقية، وصلتُ وأنا أحملُ العواطفَ نفسها. بل إني كنت أتمنّى موتها. لكن. . . (وصمتَ، متردداً في كشف فكرته لفرونسكي). لكنني رأيتها وصفحتُ عنها. وقد كشفتْ لي سعادةُ المغفرة عن واجبي. لقد صفحتُ عنها بدون تحفّظ. أريد أن أدير الخدّ الآخر، وأعطي قميصي حين يُؤخَذ معطفي. أرجو الله فقط ألا يسلبني الغبطة التي تحتوي عليها المغفرة!

اغرورقتْ عيناه بالدموع وأدهشتْ فرونسكي نظرتُه المضيئة والهادئة. وتابع الكسي الكسندروفتش:

ـ وهذا هو موقفي. تستطيع أن تدوسني في الوحل، وأن تجعل مني ضحكةً أمام الناس، لكني لن أتخلّى عنها ولن ألومك بكلمة. لقد تحدّد واجبي بوضوح: ينبغي لي أن أبقى معها. فإذا شاءَتْ أن تراك أخبرتُك بذلك، لكني أعتقد أن من الأفضل أن تبتعد، في هذه الآونة.

نهض وقد غص بالعبرات. ونهض فرونسكي أيضاً، دون أن ينتصب انتصاباً كاملاً، ونظر إليه من تحت، وهو منحنٍ. لم يفهم مشاعر الكسي الكسندروفتش. لكنه أحسّ أن هاهنا شيئاً عالياً لا يتّفق ومفهوم للحياة.

[١٨]

خرج فرونسكي، بعد حديثه مع الكسي الكسندروفتش، إلى درج المدخل في منزل آل كارينين، ووقف وهو يعاني صعوبة التذكّر: أين كان وإلى أين ينبغي أن يذهب. أحس بالضّعة وبالذلّ وبالذنب، وبالعجز عن غسل ذلّه، وبأنه قد قُذف به خارج الدرب الذي سار عليه حتى الآن بيسرٍ وكبرياء شديدين. وتبين فجأةً أن جميع عادات حياته وقواعدها التي كانت تبدو له صلبةً. متينةً، إنما هي كاذبةٌ وغيرُ صالحة للتطبيق. فالزوج المخدوع الذي بدا له إنساناً تافهاً حتى هذا اليوم،

وعقبةً عارضةً بل مضحكةً، في وجه سعادته، ارتفع بغتةً، على يدها، إلى علوّ يبعث على الاحترام، بدا من ذلك العلوّ طيّباً، بسيطاً، كريماً وليس انتقامياً ولا منافقاً ولا مضحكاً. لم يكن بوسع فرونسكي ألا يُحسّ بذلك. لقد تغيّرت الأدوارُ فجأةً. أخذ فرونسكي يحسّ بسموَ كارينين وضعته هو نفسه، باستقامة كارينين وحقارته هو نفسه. أحسّ أن هذا الزوج كان شهماً في تعاسته، في حين كان هو حقيراً، تافهاً. لكن هذا الشعور بحقارته أمام الرجل الذي ازدراه بغير حق. لم يكن يؤلّف سوى الجزء الأقل من ألمه. لقد أخذ يحس الآن بأن تعاسته لا حدّ لها ذلك لأن حبّه لآنا الذي ظن أنه فتر، في الآونة الأخيرة، انبعث كأعنف ما يكون، الآن وهو يعلم أنه سيفقدها إلى الأبد. لقد رآها أثناء مرضها، واكتشفَ نفسها، ولاح له أنه لم يحبّها بعد. وها هو ذا يكتسي ثوب الذل، ويفقدها إلى الأبد، ولا يترك في نفسها سوى ذكرى مخزية، الآن وقد أخذ يعرفها ويحبها كما ينبغي أن يكون الحب. تذكّر برعبٍ موقفه المضحك والشائن عندما أزاح الكسي الكسندروفتش يديه عن وجهه الذليل. ظلّ جامداً على درج المدخل، مضطرب النفس، لا يدري ما يفعل.

سأله البواب:

ــ أأدعو عربةً؟

ــ نعم، هو كذلك.

عندما عاد فرونسكي إلى منزله بعد ثلاث ليال من السهاد. اضطجع منبطحاً على أريكة، دون أن يخلع ثيابه، وأسند رأسه إلى يديه المتصالبتين. كان رأسه ثقيلاً. وتوالتْ أغربُ التصوّرات والذكريات والأفكار بوضوح وسرعة خارقتين: فهو تارة يصبّ الدواء للمريضة في ملعقة، فيفيض الدواء عن الملعقة، وهو تارة أخرى أمام يديّ القابلة البيضاوين، وقد يتجلّى له الوضعُ الغريب لألكسي الكسندروفتش على أرض الغرفة، بجنب السرير.

وخاطب نفسه بالثقة الهادئة التي يخاطب بها الرجلُ الصحيحُ الجسم نفسه حين يعتقد أنه لن يلبث أن ينام لأنه مُتعب ولأنه يشتهي النوم، «يجب أن أنام! وأن أنسى!» وبالفعل، فقد اختلط كل شيء في رأسه على الفور، وغرِقَ في هوّة النسيان. وتلاقتْ فوق رأسه أمواج الحياة اللاشعورية عندما تلقى فجأةً. ما يشبه الصدمةَ الكهربائية العنيفة. فارتعد بشدة حتى إن جسده كله انتفض على نوابض الأريكة، ونهض مستنداً على يديه، وجثا فجأة على ركبتيه، وقد استولى عليه شعورٌ بالرعب. كانت عيناه محملقتين كأنه لم ينم قط. واختفى ثقلُ رأسه وتعبُ أعضائه.

سمع الكسي الكسندروفتش يقول: «تستطيع أن تدوسني في الوحل»، ورآه، رأى أيضاً وجهَ آنا الملتهب المتوهج، وعينيها الملتمعتين المحدّقتين بحنان وحب في الكسي الكسندروفتش، لا فيه، وخُيِّل إليه أنه رأى تعبير وجهه ذاته، الأحمق والمضحك، عندما أمسك الكسي الكسندروفتش بيديه وكشَفَ عن وجهه.

وردّد في نفسه: «يجب أن أنام! يجب أن أنام!». لكنه كان يرى، وعيناه مغمضتان، بوضوح أشدّ، وجه آنا في ذلك المساء المشهود مساء يوم السباق. وقال بصوت مرتفع: «انتهى الأمرُ، إنها تريد أن تمحو ذلك من ذاكرتها. أما أنا فلا أستطيع أن أحيا بدونه. فكيف يمكننا أن نتصالح؟ كيف يمكننا أن نتصالح؟» وردّد هذه الكلمات لا شعورياً. وساعد ترديدُ هذه الكلمات على تشكّل صور جديدة وذكريات جديدة أحسّ أنها أخذتْ تزدحمُ في رأسه. لكن ذلك لم يدمْ طويلاً. وأخذت تتوالى أجملُ لحظات حبه ولحظات مذلّته، بسرعة خارقة. كان صوت آنا يقول: «ارفع يديك» فيرفع يديه ويحسّ بتعبير وجهه الأحمق، الذليل.

ظل مضطجعاً، يحاول أن يغفو، وإن أحسّ أنه لم يبقَ له أدنى أملٍ في النوم، وأخذ يكرر بصوت خفيض كلمات أتته عَرْضاً. رغبةً منه في تشكيل صور جديدة. ويصيخُ السمعَ. . . فيفاجىء همساً غريباً، متنافراً: «لم تستطع أن تقدّر،

لم تستطعْ أن تستفيد، لم تستطع أن تقدّر، لم تستطع أن تستفيد. . . ».

قال في نفسه: «ماذا يجري؟ أأشرفتُ على الجنون؟ ربما. لماذا يجنّ الإنسان ولماذا ينتحر؟» قال هذه الجملة رداً على سؤاله، وفتَح عينيه فشاهد بدهشةٍ وسادةً، قرب رأسه، طرزّتها زوجةُ أخيه «فاريا. ولمس شرّاباتها باذلاً جهده كي يتذكّر زوجةَ أخيه كما رآها في آخر مرة. لكن التفكير بما هو غريب عن همومه كان عذاباً. «لا ، يجب أن أنام!» وقرَّب الوسادة وأسند إليها رأسه، لكنْ كان لا بد له من بذل الجهد ليحافظ على عينيه مغمضتين. فانتفض وجلس. وفكّر: «انتهى كل شيء، بالنسبة إلي. يجب أن أفكّر فيما سأفعله. ماذا بقي لي؟» واستعرض حياته خارج حبه لآنا».

«الطموح؟ سيربو كوفسكوي؟ الناس؟ البلاط؟» لم يكن بوسعه أن يقف عند شيء من ذلك. كان لذلك كله معنىً فيما مضى، أما الآن فلم يبق له شيء من ذلك. ونهضَ، فنزع سترته، وحلّ زناره، وعرّى صدره الذي غطاه الشعر ليتنفس بحرية أكبر، وتمشّى في الغرفة، وكرّر. «هكذا يجنّ الإنسان»، وأضافَ ببطء: «وهكذا ينتحر. . . فراراً من العار».

دنا من الباب وأغْلقه، ومضى إلى الطاولة، ثابتَ النظرة، متشنّج الفكين، وتناول المسدسَ، وفحصَه، وأخذ يفكّر. وظل، على هذه الحال، نحو دقيقتين ساكناً، مطرقَ الرأس، مستغرقاً في التأمل، والمسدس في يده. وقال في نفسه: «طبعاً»، وكان السيرَ المنطقي والمتَّصلَ والواضح لفكرته قد أفضى به إلى هذه النتيجة القاطعة: «طبعاً». إن «طبعاً» هذه لم تكنْ سوى النهاية التي بلغتها تلك الحلقةُ الأبدية. حلقةُ التصورات والذكريات التي استعرضها مراتٍ منذ ساعة.

كانت الذكريات هي نفسها، ذكريات السعادة التي ضاعت إلى الأبد، وكان التصوّر هو نفسه، تصور استحالة المستقبل، وكان الشعور هو نفسه: الشعور بالمذلة. وكان توالي هذه التصورات والعواطف هو نفسه.

وردَّد للمرة الثالثة «طبعاً». فانطلقت أفكاره وذكرياته في هذه الحلقة المسحورة. وضغط المسدَّس على جانب صدره الأيسر، وشنّج عليه يده، وشدّ على الزناد. لم يسمعْ صوت الانفجار، لكنّ صدمةً عنيفةً في صدره رَمتْه أرضاً. أراد أن يتشبّث بحافة الطاولة، وترك مسدسه يسقط، وترنّح، وجلس على الأرض، منقِّلاً عينيه حوله، وقد بدت عليه الدهشة. ولم يستطع أن يتعرّفَ الغرفةَ حين نظر من تحت إلى قوائم الطاولة الملتوية، وإلى سلة الأوراق، وإلى جلد النمر. وأجْبرتهُ خطواتُ خادِمِهِ السريعةُ التي كانت تصر على أرض الغرفة الخشبية، وكان قد هُرع من قاعة الاستقبال، أن يتمالك نفسه. وتحامل على نفسه وأدرك أنه على الأرض؛ وعندما رأى الدم على جلد النمر وعلى يده أدرك أنه قد أطلق النار على نفسه من المسدّس.

قال وهو يتحسّس بيده الأرض بحثاً عن مسدسه: «يا للغباء! لقد أخطأتُ نفسي»... كان السلاح بجنبه... وبحث عنه بعيداً عن مكانه. وفيما هو يبحثُ عنه، فقد توازنه وسقط على جنبه، مخضّباً بدمه.

أما الخادم، وكان فتى أنيقاً، طويلَ السالفين، كثيراً ما شكا إلى أصدقائه ضعفَ أعصابه فقد ذُعر عندما رأى معلّمه ممدداً على الأرض إلى الحدّ الذي تركه يَفْقُدُ دمه وركضَ يطلب النجدة. وفي ظرف ساعة، وصلتْ فاريا زوجةُ أخي فرونسكي، واستطاعت بمساعدة ثلاثة أطباء دعتهم من أقاصي المدينة وجاؤوا جميعاً في وقت واحد. أن تمدّده على السرير. وبقيتْ للعناية به.

[١٩]

ارتكب الكسي الكسندروفتش خطأً حين هيّأ نفسه للقاء امرأته دون أن يتصوّر احتمالَ توبتها الصادقة وصفحه عنها وشفائها. وبعد شهرين من رجوعه من موسكو، انكشفتْ له جسامةُ هذا الخطأ. ولم يأت هذا الخطأ فقط من أنه لم

يتصوّر ذلك الاحتمال، بل وأيضاً من أنه كان يجهل حقيقة قلبه، حتى لقائه مع امرأته المحتضرة. ولأول مرة في حياته، استسلم، وهو عند سرير امرأته، لذلك الشعور بالرأفة المتحنّنة التي كانت تولّدها فيه آلامُ الآخرين والتي كان يقاومُها، حتى اللحظة الحاضرة، باعتبارها ضعفاً مؤذياً، ولقد وفّرتْ له رأفتُه بآنا، وندامتُه على تمنيه الموت لها، وفرحتُه بالصفح، تهدئةً لآلامه، بل وسكينةً داخليةً لم يشعر بها من قبل. لقد أحسّ فجأةً أن ما كان مصدراً لآلامه أصبح هو نفسه مصدراً لفرحه الروحي، وما كان يبدو له مستعصياً على الحل، عندما كان يلوم وينتقد ويكره غداً بسيطاً وواضحاً الآن وهو يحبّ ويصفح.

صفح عن زوجته، ورثى لآلامها وندامتها، وصفح عن فرونسكي ورثى له، ولا سيما بعد أن علم بفعلته اليائسة. ورثى لابنه أكثر من ذي قبل. ولام نفسه على إهماله له. وشعر نحو المولودة الجديدة بشعور خاص تمتزج فيه الرحمة بالحنان. ولقد اهتمّ، في البداية، بهذه المخلوقة الصغيرة والضعيفة التي لم تكن ابنته والتي أهملتْ أثناء مرض أمها، وكانت حّريةً بأن تموت لولا عنايته بها، بدافع الشفقة الخالصة. . . وتعلّق بها دون أن يفطن لذلك كان يذهب، عدة مرات في اليوم، إلى غرفة الأطفال ويمكث فيها فترةً طويلة. وتعوّدتْ المرضعُ والمربيةُ حضوره، بعد أن ارتعبتا في بداية الأمر. وكان يتأمّل أحياناً بصمت خلال نصف ساعة كاملة وجهَ الطفلة المجعّد، الأحمر الزعفراني، الذي غشيه زغبٌ دقيق، وحركات جبينها المغضّن، وينظر إليها وهي تفرك أنفها بيديها السمينتين اللتين انكمشت أصابعهُما. في هذه اللحظات، كان الكسي الكسندروفتش يحسّ بالهدوء الكامل، وبالوفاق مع نفسه، ولا يرى في وضعه شيئاً خارقاً للعادة، شيئاً يلزمه التغيير.

لكنه كان كلما مرَّ الزمن رأى بوضوح أن هذا الوضع، مهما يكن طبيعياً، فلن يُتاح له أن يبقى فيه. فإلى جانب القوة الروحية السامية التي كانت توجّه نفسه، كان هناك قوة أخرى، بدائية، قوية مثل تلك إن لم تكن أقوى، تقود حياته وتأبى أن

تمنحه الطمأنينة المتواضعة التي يتوق إليها. كان يحسّ أن جميع الناس ينظرون إليه بدهشة، ولا يفهمونه، وينتظرون منه شيئاً. وكان يشعر، على الخصوص، بما في علاقاته مع امرأته من هشاشة وتصنّع.

وعندما ذهب ذلك التحنّن الذي أثارته في الكسي الكسندروفتش مجاورةُ الموت، لاحظ أن آنا تخشاه وتتحمل بعناءٍ حضوره، ولا تجرؤ على مواجهته بنظرها، وكأنها كانت تبغي أن تقول له شيئاً دون أن تعقد العزم، حادسةً كغيرها، أن علاقاتهما لا يمكن أن تستمر، منتظرةً منه شيئاً.

في أواخر شباط، مرضتْ الطفلةُ التي سُمِّيتْ آنا أيضاً. فقضى الكسي الكسندروفتش الصباحَ في غرفة الأطفال، وبعد أن أرسلَ مَنْ يأتي بالطبيب، ذهب إلى الوزارة. وعاد إلى المنزل نحو الرابعة، عندما انتهى من عمله. وحين دخل البهو شاهد خادماً حسن الهيئة في بزة مزيّنة بشرائط وعليه وشاح من جلد الدب، وهو يحمل بيده معطفاً مبطناً بفرو أبيض.

سأل الكسي الكسندروفتش:

ــ مَنْ هنا؟

أجاب الرجلُ:

ــ الأمير اليزابيت فيدوروفنا سكوي.

وخُيّل إلى الكسي الكسندروفتش أنه رآه يبتسم.

لاحظ الكسي الكسندروفتش، أثناء هذه الفترة المؤلمة، أن معارفه، ولا سيما النساء، أظهروا اهتماماً خاصاً به وبزوجته. ولقد كَشفَ لدى هؤلاء الأشخاص عن فرحٍ لا يكاد يَخْفى، وهو نفس الفرح الذي لمَحَه في عينيْ المحامي والذي يلمحه الآن في عيني الخادم. كانوا جميعاً يبدون مغتبطين كأنهم يُزوَجون أحد الناس، فإذا لقوه استخبروا عن صحته بمرح يكاد يكون ظاهراً.

كان يستثقل حضورَ الأميرة تفيرسكوي من جرّاء الذكريات المرتبطة بها،

ولأنه لم يكن يحبّها على الإجمال، ولذلك مضى رأساً إلى شقة الأطفال. في الغرفة الأولى، كان سيريوجا مضطجعاً على عرض الطاولة ورجلاه على الكرسي، يرسم وهو يُثرثر بفرح. وكانت المربيةُ الانكليزية التي حلّت محل الفرنسية أثناء مرض آنا، جالسةً قرب الصبي ومعها شغلُها. نهضت بسرعة، وحيّته، وأجلست سيريوجا.

داعب الكسي الكسندروفتش شعرّ ابنه، وأجاب عن أسئلة المربيّة حول صحة امرأته وسألها عما قاله الطبيب بشأن الطفلة.

ــ قال الطبيب إن حالتها لا تدعو إلى القلق وأوصى بالمغاطس، يا سيدي.

قال الكسي الكسندروفتش وهو يصغي إلى بكاء الطفلة في الغرفة المجاورة.

ــ لكنها ما تزال تتألّم.

قالت الانكليزية بلهجة حازمة:

ــ أظن أن المرضع غير صالحة، يا سيدي.

قال وقد وقف:

ــ ما الذي يحملك على هذا الظن؟

ــ رأيت ذلك عند الكونتيسة «بوهل»، يا سيدي. لقد كانوا يعالجون الطفل بالأدوية ثم اكتشفوا أنه جائع لا غير: لم يكن في المرضع حليبٌ.

أخذ الكسي الكسندروفتش يفكر، وبعد أن مكثَ بضع ثوانٍ، دخل الغرفة الأخرى. كانت الطفلةُ، منكمشة على نفسها بين يدي المرضع، راميةً برأسها إلى الخلف، ترفضُ الثديَ الممتلىء الذي يُقدَّم إليها، وتمضي في صراخها بالرغم من جهود المربية والمرضع المنحنيتين معاً عليها.

قال الكسي الكسندروفتش:

ــ ألم تتحسّنْ؟

أجابت المربيّة بصوت خفيض:

ـ إنها مضطربة جداً.

فقال:

ـ تقول الآنسةُ ادوارد: إن المرضع ربما كان قد انقطع حليبها.

ـ وهذا ما أعتقده أيضاً، الكسي الكسندروفتش.

ـ ولمَ لمْ تقولي ذلك؟

فأجابت المربيّة باستياء:

ـ ولمنّ أقول؟ فآنا اركادييفنا ما تزال مريضة.

كانت هذه المرأة في خدمتهم، منذ زمن طويل، وخُيِّل إلى الكسي الكسندروفتش أنه يرى في هذه الكلمات تلميحاً إلى وضعه.

ازداد صراخُ الطفلة وقد شرعت تتخبّط وتُبَحّ. فنّدتْ عن المربيّة حركةً تنمّ على اليأس، ودنتْ من المرضع، وتناولت منها الطفلة وأخذت تهدهدها وهي تمشي.

قال الكسي الكسندروفتش:

ـ يجب أن نطلب إلى الطبيب فحصَ المرضع.

خشيت المرضع، وهي امرأة قوية المظهر، مزدانة بأحلى حلاها، أن تفقد مكانها، فهَمْهمتْ بشيء في وجهه، وغطّتْ صدرها العريض، وابتسمت ابتسامة ازدراء لكل الذين يشكّون في قدراتها. وخُيّل إلى الكسي الكسندروفتش أنه يرى أيضاً في هذه الابتسامة نيّة السخرية.

قالت المربيةُ وهي تروح وتجيء محاولةً إسكاتَ الطفلةَ.

ـ مسكينة.

جلس الكسي الكسندروفتش على كرسيّ. ونظرَ بوجهٍ متألمٍ، مهدودٍ، إلى المربية العجوز وهي تتمشّى.

وبعد أن وضعتْ الطفلةَ التي هدأتْ، آخر الأمر، في مهدها، وبعد أن سوَّتْ المرضعُ الوسادةَ وانصرفتْ، نهضَ الكسي الكسندروفتش ودنا بخُرقٍ من المهد الصغير، على رؤوس أصابعه وتأمّل الطفلةَ، خلال دقيقةٍ، دون أن يفوه بكلمة، بوجهه الذي ارتسمَ عليه القلق، لكن ابتسامةً ما لبثت أن مَحتْ ما في جبينه من تغضّن، وخرج من الغرفة، دون ضوضاء.

في قاعة الطعام، استدعى الخادم وأمره أن يذهب لطلب الطبيب. لقد حقد على زوجته لإهمالها هذه الطفلة الساحرة، ونزع منه الرغبة في لقائها وفي رؤية الأميرة بيتسي، لكن امرأته قد تدهش لعدم مجيئه إليها، كعادته، لذلك بذل جهداً وقصد إلى غرفة النوم. وعندما اتجه إلى الباب، على السجادة الناعمة، فاجأه عن غير عمد، حديثٌ ما كان بوده أن يسمعه.

كانت بيتسي تقول:

ـ لو لم يكنْ سيسافر. لفهمتُ رفضك ورفضه. لكن زوجك ينبغي أن يكون فوق ذلك.

أجاب صوتُ آنا المنفعل:

ـ ليس الموضوع موضوع زوجي، وإنما موضوعي أنا فلا تُخاطبيني في ذلك بعدُ!

ـ لا يجوزُ لكِ ألا تودّعي الرجل الذي أراد أن يقتل نفسه بسببك. . .

ـ من أجل ذلك بالذات لا أريد أن أراه.

توقف الكسي الكسندروفتش مرتعباً، كالمذنب، وأراد أن يعود أدراجه دون أن يلحظَه أحدٌ. لكنه قدَّر أن ذلك غيرُ لائق، وتابع سيره إلى غرفة النوم وهو يسعل.

فصمت الصوتان ودخل.

كانت آنا جالسة على كرسي طويل، في مبذل رمادي، وشعرها الأسود القصير قد نما على رأسها المدوّر.

ولدى مرأى زوجها غاضت الحيويةُ من وجهها فجأة، كما هو شأنُها دائماً، وأطرقتْ رأسَها ورمتْ بيتسي بنظرة قلقة. كانت بيتسي ترتدي ثياباً من آخر زيّ: فقد وضعتْ في أعلى رأسها قبعةً صغيرة مثل كمة المصباح فوق المصباح، ولبست ثوباً أزرق رمادياً تزينه خطوطٌ مائلة عند الصدر وعند ظهر التنورة. وكانت جالسةً بجنب آنا، وقد اعتدل نصفُها الأعلى، الرقيق في هذه الجلسة. استقبلتْ الكسي الكسندروفتش بإيماءة من رأسها وبابتسامة ساخرة. قالت كالمدهوشة:

ــ آه! أنا مغتبطةٌ بأن ألقاك في بيتك. أنت لا تظهر في أي مكانَ؛ ولم أرك منذ مرض آنا. لكني على علم بما بذلتَ من عناية. أنتَ زوجٌ مُدهش!

قالت ذلك بلهجةٍ ملاطفةٍ لها دلالتُها، كأنها كانت تمنحُه وسام الشهامة على سلوكه إزاءَ امرأته.

انحنى الكسي الكسندروفتش ببرودة، وبعد أن قبل يد امرأته، استفسر عن صحتها.

قالت وهي تتحاشى نظرته:

ــ يلوح لي أنني أتحسن!

قال وهو يشدّد على الكلمة الأخيرة:

ــ بيد أن وجهك محموم.

قالت بيتسي:

ــ لقد تحدثنا كثيراً. أحسّ أن ذلك كان أنانية من جانبي، وسأنصرف.

ونهضتْ لكن آنا احمرت فجأةُ وأمسكت يدها بشدة، وقالت:

ــ لا، ابقي، أرجوك يجب أن أقول لكِ. . .

والتفتت إلى الكسي الكسندروفتش، وقد اكتسى عنقُها وجبهتُها بالحمرة:

ــ لا، بل لكَ. . .

وأضافت:

ـ لا أريد ولا أستطيع أن أكتمَ شيئاً عنك.

فرفع الكسي الكسندروفتش أصابعه وخفَضَ رأسه:

ـ قالت لي بيتسي: إن الكونت فرونسكي يرغب في المجيء إلينا، لكي يودّعني قبل سفره إلى طاشقند. فقلتُ لها: إنني لا أستطيع أن أستقبله.

لم تكنْ تنظرُ إلى زوجها، وكان واضحاً أنها تستعجل لتنتهي مما ستقوله، وإن شقّ عليها ذلك.

صحّحتْ لها بيتسي:

ـ عفواً، يا عزيزتي، لقد قلتِ إن ذلك يتعلّق بالكسي الكسندروفتش.

ـ نعم، لكني لا أستطيع أن أستقبله، فذلك لا يؤدي...

وتوقفت فجأة وألقت على زوجها نظرةً مستفهمةً، (لم يكنْ ينظر إليها)، وأضافت:

ـ وبكلمة واحدة، لا أريد...

تقدّم الكسي الكسندروفتش خطوة إلى الأمام وأراد أن يُمسك بيدها.

كانت حركتها الأولى رفضَ هذه اليد الرطبة ذات العروق الضخمة، المنتفخة، هذه اليد التي كانت تبحثُ عن يدها، لكنها تحاملت، كما يبدو، على نفسها، وشدت على يده.

قال لها وهو مضطرب:

ـ أشكرُ لك ثقتك، لكن...

وأحسّ حانقاً أن ما يمكن أن يحله بيسرٍ بينه وبين نفسه، كان عاجزاً عن التفكير فيه بحضور الأميرة تفير سكوي التي تجسّد، في نظره. تلك القوّةَ الغاشمة التي ينبغي أن تُدير حياتَه في نظر الناس وأن تمنعه من الاستسلام للحب والمغفرة. توقفَ، وعيناه محدّقتان في الأميرة تفير سكوي.

قالت بيتسي وهي تنهضُ:

ـ وداعاً، يا ملاكي!

وعانقتْ آنا وخرجت. فشيّعها الكسي الكسندروفتش. قالت بيتسي، وهي تقف في القاعة الصغرى وتشدّ على يده بقوة خاصة:

ـ أنا بعيدةٌ عن ذلك كله. لكني أحب آنا كثيراً وأقدرك تقديراً عظيماً بحيث أسمح لنفسي بأن أسوقَ إليك هذه النصيحة:

استقبلْه. فالكسي فرونسكي هو الشرفُ متجسداً. وهو مسافر إلى طاشقند.

ـ أشكر لك مودتك ونصائحك. لكن امرأتي وحدها هي التي تقرّر إن كانت تستطيع أو لا تستطيع استقبال أحد من الناس.

قال ذلك وهو يرفع حاجبيه بوقار حسبَ عادته، وما لبث أن فكرّ أنه لا يستطيع أن يُبديّ شيئاً من الوقار في وضعه، مهما تكنْ كلماته. تبيّن ذلك في الابتسامة المتحفظة. الهازئة، الساخرة والخبيثة التي واجهتْه بها بيتسي بعد أن قال جملته تلك.

[٢٠]

ودّع الكسي الكسندروفتش بيتسي في القاعة الكبرى وعاد إلى زوجته. كانت مُستلقيةً. لكنها عندما سمعت خطواته جلستْ على عجل، واتخذت وضعها السابق. ونظرت إليه برعب. رأى أنها بكتْ.

قال بهدوء، وبالروسية (لقد قال هذه الجملة بالفرنسية، أمام بيتسي):

ـ أنا شاكرٌ لك ثقتك.

وجلس بجنبها. وكان يَسْتخدم ضمير المفرد عندما يكلّمها بالروسية، وقد أحْنق ذلك آنا. وأضاف:

ـ وشاكرٌ أيضاً لك قرارك، وأظن أنه ليس من الضروري على الإطلاق أن يأتي الكونت فرونسكي إلى هنا، حين يُسافر.

فقاطعته آنا فجأة بغيظ.

ـ لكنْ بما أنني قلتُ ذلك، فلا جدوى من إعادته!

وفكرتْ «ليس من الضروري على الإطلاق». ليس من الضروري أن يعمد رجل إلى وداع المرأة التي أحبها، والتي أراد أن يموت من أجلها والتي لا تستطيع أن تعيش بدونه!». وزمّتْ شفتيها وخفضتْ عينيها الملتمعتين إلى يديْ زوجها بعروقهما المنتفخة، وكان يفركهما ببطء إحداهما بالأخرى.

وأضافتْ بهدوء أكبر:

ـ فلندعْ الكلام على ذلك.

وبدأ يقول:

ـ تركتُ لك حرية حلّ هذه المسألة وأنا سعيدٌ إذا أرى.

فأكملت جملته بحدّة، وقد غاظها أن تسمعه يتكلم ببطء مع أنها كانت تعلم مسبقاً كل ما سيقوله:

ـ أن رغبتي وافقتْ رغبتك.

وشدّد:

ـ نعم، والأميرة تفيرسكوي تتدخل، بغير داع، في أدقّ شؤون الآخرين. ولا سيّما أنها. .

قالت آنا بسرعة:

ـ لا أصدّق أبداً كل ما يقال عنها. وأنا واثقة من أنها تضمر لي مودّة صادقة.

تنهد الكسي الكسندروفتش وصمت. كانت تعبث بشرّابات مبذلها، بعصبية، ناظرةٌ إليه بين الحين والحين وقد راودها ذلك الشعورُ الجارف بالاشمئزاز الجسدي الذي كانت تلوم نفسها عليه، وإن لم تستطعِ التغلّب عليه. لقد استبدتْ بها رغبةٌ واحدة وهي أن تتخلّص من حضوره الكريه.

قال الكسي الكسندروفتش:

ـ لقد أرسلتُ أستدعي الطبيب.

ـ لماذا؟ لستُ مريضةً.

ـ لكن الصغيرةَ تصرخ، وقد قيل إن المرضع ليس فيها ما يكفي من الحليب:

ـ ولماذا لم تسمح لي بإرضاعها حين كنت أتوسّل إليك من أجل ذلك؟ وبالرغم من كل شيء، (لقد فهم الكسي الكسندروفتش ما معنى «بالرغم من كل شيء»)، فإنها طفلة وقد نُموِّتُها. واستدعتْ الخادمة وأمرتها أن تحمل إليها الطفلة. وأضافت:

ـ طلبتُ إرضاعها فمنُعتُ من ذلك، وهأنذا الأمُ الآن.

ـ إني لا ألومُكِ.

ـ بلى! يا إلهي! لماذا لَمْ أمتْ؟

وأخذت تنتحبُ، وقالت وهي تتمالك نفسها:

ـ اغفرْ لي، أنا عصبيةٌ، أنا ظالمة. لكنْ، اتركْني...

قال الكسي الكسندروفتش في نفسه بحزم وهو يغادر غرفة امرأته: «لا، لا يمكن أن تستمر الأمور هكذا».

إن تعذَّرَ استمرار هذا الوضع في أعين الناس، وحقد امرأته، وطغيان هذه القوة الغاشمة والدفينة التي كانت تقود حياته وتَفْرض عليه تغييرَ موقفه إزاء امرأته، بالرغم من استعداداته الداخلية. إن ذلك كله لم يبدُ له قط بمثل هذا الوضوح. كان يرى بجلاء أن العالمَ بأسره وامرأته يتطلبَان منه شيئاً ما، أمّا ما ذلك الشيء بالضبط فهو ما لم يكن يدركه. وكان يحسُّ بشعور من الحقد ينبعث في نفسه ويدمّر سكينته الروحية ومزيَّة صنيعه. وكان يقدّر أن من الخير لآنا أن تقطع علاقتها بفرونسكي، لكنْ إذا كان الجميع يجدون ذلك مستحيلاً، فهو مستعدّ لأن يغتفر هذه العلاقة من

جديد، على شرط ألا يتأذّى الطفلان من ذلك، وألا يفقدهما. وأن يظلَ وضعُه على حاله. ومهما يكنْ ذلك مؤسفاً فهو خيرٌ من الانفصال الذي سيضع آنا في وضعٍ مُخزٍ، لا خلاص منه، ويحرمه هو نفسه من كل ما يحبّ. لكنه كان يشعر بأنه عاجز، ويعلم مسبقاً بأن الجميع ضدّه، وأنهم لن يَدَعُوه يفعلُ ما بدا له الآن في غاية البساطة والجمال، وأنهم سيحملونه على أن يُسيء التصرّف، لأن ذلك كان يبدو ضرورياً.

[٢١]

لم تكد بيتسي تترك قاعةَ الاستقبال حتى اصطدم بها، عند عتبة الباب، ستيڤان أركادييڤتش، وكان عائداً من مخزن أليسيف حيث وصلَ المحارُ الطازج.

قال:

ــ آه! أميرة! ما ألطفَ هذا اللقاء! أنا عائدٌ من عندك.

قالت بيتسي وهي تبتسم وتلبس قفَازها:

ــ لكنه لقاء سريع، لأنني ذاهبةٌ.

ــ قبل أن تَضعي قفازَكِ، اسمحي لي أن أقبّل يدك. فلا شيء ألطف وقعاً في نفسي، عند العودة إلى العادات القديمة، من عادة تقبيل يد المرأة. (وقبّل يدها). متى سنلتقي؟

قالت بيتسي وهي تبتسم:

ــ أنت لا تستحق ذلك.

ــ على العكس تماماً، لأنني أصبحتُ أكثر الناس رصانةً، فلستُ أسوّي مشكلاتي العائلية فحسب، لكني أسوّي أيضاً مشكلات الآخرين.

وعبّرت قسماتُ وجهه تعبيراً له معناه، ففهمت بيتسي على الفور، أنه يقصد آنا، فأجابته:

ــ آه! أنا سعيدة بذلك!

ودخلت قاعة الاستقبال وجرّت أوبلونسكي إلى ركنٍ منه، وقالت له بصوت خفيض وبلهجة رزينة:

ــ سوف يموّتُها. هذا لا يطاق، لا يُطاق...

قال ستيڤان أركادييڤتش وهو يهزّ رأسه وقد بدت عليه أماراتُ الرأفة:

ــ يسرّني أن تفكرّي هذا التفكير. من أجل ذلك جئتُ من بطرسبرج.

قالت:

ــ المدينة كلها تَلْغط بذلك. إن وضعَها لا يُطاق. وهي تَذْبل. ولم يفهم هو بعد أنها من هؤلاء النساء اللواتي لا يمزحن مع عواطفهن أحد أمرين: إما أن يأخذها بيده ويتصرف بحزم، وإما أن يطلّق، لكن الطلاق يقتلها.

قال أوبلونسكي وهو يتنهد:

ــ نعم... نعم... بالضبط... من أجل ذلك جئتُ. يَعْني... أنني لم أجيء من أجل هذا فقط... فقد عُيّنتُ حاجباً امبراطورياً، ويجب أن أشكر مَنْ يعنيه الأمر. لكن الجوهريّ هو أن نسوّي هذه المشكلة.

قالت بيتسي:

ــ ليكن الله في عونك.

بعد أن شبّع ستيڤان أركادييڤتش الأميرةَ بيتسي في البهو، وبعد أن قبَّلَ يدَها من فوق القفاز، في موضع النبض، وألقى عدداً من العبارات المفرطة البذاءة حتى إنها لم تدر إن كان ينبغي أن تضحك أو تغضب، اتجه إلى غرفة أخته، فوجدها مستغرقةً في البكاء.

انتقل ستيڤان أركادييڤتش، بصورة طبيعية، من المرح الفائض إلى لهجة مؤاسية، متهوّسة تهوساً شاعرياً، وهي لهجة أقرب ما تكون إلى حالة أخته النفسية، فاستفسر عن صحتها وكيف قضتْ صباحها.

فقال:

ـ كأسوأ ما يكون. نهاري، وصباحي، وجميع الأيام الماضية والآتية.

ـ يلوح لي أنكَ تستسلمين للكآبة. يجب أن تنفضي هذه الكآبة عنك وتواجهي الحياة. أعلم أن ذلك شاقٌ، لكن.

وطفقت آنا تقول فجأةً:

ـ يقال إن بعض النساء يُجبن الرجال حتى الرذيلة. أما هو فأنا أكرهه بسبب فضيلته. إني لا أستطيع أن أحيا معه. منظرهُ وحده يؤثّر فيّ جسدياً. يُخرجني عن طوري. لا أستطيعُ، لا أستطيعُ أن أحيا وإياه تحت سقف واحد. فماذا أفعل؟ كنتُ تعسةً وكنت أظن أن من المستحيل أن أصبح أتعس مما كنت، لكنْ لم أكن أستطيع أن أتصوّر الوضع الفظيع الذي أقاسيه الآن. أتصدّقُني: إني لا أستطيع أن أمنعَ نفسي من كرهه لعلمي أنه رجلٌ فاضل، ممتاز، وأنني لا أساوي إصبعاً من أصابعه. أكرهه من أجل كرم نفسه. ولم يبق لي إلا...

أرادت أن تقول: إلا الموت، لكن ستيڤان أركادييڤتش لم يدعْها تتمّ جملتها، وقال لها:

ـ أنتِ مريضةٌ وعصبيَّةٌ؛ وأنت تبالغين كثيراً. فليس في ذلك ما يروّع إلى هذا الحد.

وابتسم ستيڤان أركادييڤتش. ما كان لأحد غيره أن يسمح لنفسه بالابتسام أمام مثل هذا اليأس (كان ذلك سيبدو فظاً)، لكن ابتسامته كشفتْ عن كثير من الطيبة والحنان (حنان يكاد يكون أنثوياً) حتى إنها لم تكن تجرح بل إنها كانت تُسكِّن وتُهدىء. لقد كانت أحاديثه المتزنة والمُطَمْئِنة، وابتساماته تَفْعل فعلَ زيت اللوز، فعلَ المسكِّن. وسُرعان ما أحسَتْ آنا نفسُها بآثارها.

قالت:

ـ لا، يا ستيڤا، لقد هلكتُ؛ هلكتُ! بل أنا أسوأ من ذلك! فلم أهلكْ

بعد، لا أستطيع أن أقول: إن كل شيء قد انتهى؛ على العكس، أحسّ أن كل شيء لم ينته بعد. أنا. . . مثل حبل مشدود لا بدَّ أن ينقطع. لكنّ ذلك لم ينته بعد. . . وسينتهي ذلك نهايةً فاجعةً!

يمكننا أن نُرخي الحبلَ شيئاً فشيئاً. كل حالة ولها مخرجٌ.

ــ لقد فكرت في ذلك طويلاً. وليس هناك سوى مخرج واحد. . .

وأدرك مرةً أخرى، من نظرتها المذعورة، أن هذا المخرج الوحيد، في ذهنها، هو الموت، فلم يذعها تتمّ، وقال.

ــ أبداً، اسمحي لي. أنتِ لا تستطيعين أن تري حالتَك، كما أراها. اسمحي لي أن أقول لك رأيـي بصدق.

وابتسم مرة أخرى بحذرٍ ابتسامته المسكّنة:

ــ سأبدأ من البداية: لقد تزوّجتِ رجلاً أكبر منك بعشرين سنة، تزوجْتِ بدون حب، أو بدون أن تعرفي الحبّ. ولنقلْ إن ذلك كان خطأً.

قالت آنا:

ــ كان خطأً رهيباً!

لكنني أكرّر لكِ، إن ذلك أمرٌ واقعٌ. وبعد ذلك، ابتُليتِ فعشقتِ رجلاً آخر. وتلك بليّةٌ، لكنها أمرٌ واقع، وبعد ذلك، ابتُليتِ فعشقتِ رجلاً آخر. وتلك بليّةٌ. لكنها أمر واقع. وقبِلَ زوجك بذلك وغفرَ لك.

كان يقفُ بعد كل جملة، ينتظر ردّها، لكنها لم تكن تردّ. وتابع:

ــ هذه هي القضية. والمسألةُ الآن هي التالية: هل تستطيعين أن تستمري في العيش مع زوجك؟ هل ترغبين في ذلك؟و وهل يرغب هو فيه؟

ــ لا أدري شيئاً.

ــ قلتِ قبل هنيهة إنك لا تستطيعين احتماله.

ـ لا، لم أقلْ ذلك. وأتراجعُ عمّا قلتُ. لا أدري شيئاً ولا أفهم شيئاً من ذلك.

ـ مهلاً، اسمحي...

ـ ليس بوسعك أن تفهم. أحسّ أنني أسقط على رأسي في هوّة سحيقة، لكني أحسّ أن ليس من واجبي ولا في مقدوري أن أنجو بنفسي.

ـ لا أهمية لذلك، فسوف تخفّف من تسارع السقوط ونتلقّفك. وأنا أقدّر أنك لا تجسرين على التعبير عن مشاعرك ورغباتك.

ـ لستُ أرغب في شيء... إلا أن ينتهي ذلك كله.

قال ستيڤان اركادييڤتش بشيء من الجهد:

ـ لكنه يرى ذلك ويعلمه. أتظنين أنه يتألم أقلّ منك؟

أنت تتعذّبين وهو يتعذّب، فإلامَ سيُفضي ذلك؟ الطلاق، على الأقل، سيحلّ كل شيء.

كانت هذه هي فكرته الأساسية؛ ونظر إلى أخته نظرة العارف بالأمور.

لم تجب شيئاً وهزّتْ بالنفي رأسها المقصوص الشعر. لكنه رأى على وجهها الذي استضاءَ فجأةً بجمالها القديم، أنها إن كانت ترفض هذا الحلَّ فلأنها لا ترى فيه سوى سعادة غير ممكنة.

قال ستيڤان اركادييڤتش وهو يبتسم هذه المرأة بجرأة أكبر:

ـ أنتِ تسبّبين لي كثيراً من العناء! كنتُ سأكون سعيداً لو سوّيتُ هذه المشكلة! لا تقولي شيئاً. عسى أن يوفّقني الله إلى التعبير عمّا أحسه. وسأعثر على ذلك التعبير.

نظرت إليه آنا بعينيها الملتمعتين والساهمتين دون أن تتفوه بكلمة.

[٢٢]

دخل ستيڤان اركادييڤتش مكتبَ الكسي الكسندروفتش، وعلى وجهه مسحةٌ من الوقار الرسمي كالتي يتخذها عندما يجلس في مقعده، مقعد رئيس المحكمة. كان الكسي الكسندروفتش يروح ويجيء في غرفته، ويداه خلف ظهره، وهو يفكر فيما كان بالذات موضوعاً للحديث بين الأخ والأخت.

ارتبك ستيڤان اركاديڤتش فجأة، لدى مرأى صهره، ارتباكاً لم يعهدْه من قبل، ولكي يُخفي اضطرابَه، أخرج من جيبه علبة سجائر من نمط جديد، اشتراها حديثاً، وبعد أن اشتمّ غطاءَها الجلدي، تناول منها سيجارةً، وقال:

ــ ألستُ أزعجُكَ؟

أجاب الكسي الكسندروفتش على مضضٍ:

ــ لا. أأنتَ بحاجةٍ إلى شيء.

قال ستيڤان اركاديڤتش وهو مدهوش ممّا يشعر به من وجل لم يعهدْه من قبل:

ــ نعم، كنتُ أريد. . . أنا أرغب. . . أرغبُ في محادثتك.

كان هذا الشعور مفاجئاً وغريباً إلى حد بعيد حتى أن ستيڤان اردكاديڤتش لم يتعرّفْ فيه صوتَ ضميره الذي كان ينبّهه على أن ما ينوي فعله كان شراً. بذل ستيڤان اركاديڤتش شيئاً من الجهد وتغلّب على وجله، وقال وهو يحمرّ؛

ــ آمل ألا تشك بحبي لأختي ولا بتعلّقي الصادق بك، وبتقديري لك.

وقف الكسي الكسندروفتش ولم يجب بشيء، لكن تعبير وجهه عن كونه ضحيةً مذعنة، أذْهلَ ستيڤان اركاديڤتش.

قال ستيڤان اركاديڤتش الذي لم تعدْ إليه رباطةُ جأشه بعد:

ــ أودّ مباحثتك بشأن شقيقتي ووضعكما كليكما.

ابتسم الكسي الكسندروفتش بحزن، ونظر إلى أخي زوجته، ودنا من مكتبه دون أن يجيب، وتناولَ منه رسالةً بدأها ومدّها إلى ستيڤان اركادييڤتش، وقال له:

ــإني لا أكف عن التفكير في ذلك. وانظر فيما بدأتُ كتابتَه، ظنّاً مني أنني أقدرُ على التعبير كتابةً وأن حضوري يَغيظها.

تناول ستيڤان اركادييڤتش الرسالة، ونظر بدهشة حائرة إلى العينين الكئيبتين المحدّقتين فيه وأخذ يقرأ:

«أرى أن حضوري يَثْقلُ عليكِ. ومهما تكن هذه الحقيقة مؤلمة لي فأنا أرى أن الأمر كذلك، ولا يمكن أن يكون غير ذلك. لستُ اتّهمك ويشهد اللّهُ أنني عزمتُ من أعماق قلبي، بعد أن شاهدتُكِ أثناءَ مرضك، على أن أنسى ما جرى بيننا وأن أبدأ حياةً جديدةً. لستُ نادماً، ولن أندم أبداً على ما فَعَلتُ؛ لكني كُنْتُ أبغي خيركِ وخيرَ نفسك، وأنا أرى الآن أني لم أفلحْ في ذلك. فقولي لي أنتِ نفسك عما يمنحك السعادة الحقيقية وسكينةَ النفس. وأنا أتركُ الأمرَ لإرادتك ولشعورك بالعدل».

ردّ ستيڤان اركادييڤتش الرسالةَ إليه وظل ينظر إليه بالحيرة نفسها، وهو لا يدري ما يقول. وقد ثقل عليهما هذا الصمت كثيراً حتى إن شفتيْ ستيڤان اركادييڤتش أُصيبتا برعشةٍ مرضيّةٍ بينما هو صامتٌ، لا يرفع عينيه عن وجه كارينين.

قال الكسي الكسندروفتش وهو يشيح بوجهه:

ــ هذا ما أردتُ أن أقوله لها.

وتمتم ستيڤان أركادييڤتش الذي لم يَقْوَ على الجواب، بينما غصَّ بالعبرات:

ــ نعم، نعم، فهمتُكَ.

قال الكسي الكسندروفتش:

ــ أودّ أن أعْرف ما الذي تريدُه هي.

قال ستيڤان اركادييڤتش بعد أن تمالك نفسه:

ـ أخشى ألا تكون هي مدركةً لوضعها. إنها مسحوقةٌ، مسحوقة تماماً بكرم نفسك. وإذا قرأتْ هذه الرسالة فلن تقوَ على الجواب، ولن يسعها إلا أن تحنيَ رأسها أكثر من ذي قبل.

ـ نعم، لكنْ ما العمل، في هذه الحالة؟... كيف نفسِّر... كيف نَعْرف رغباتها؟

ـ إذا سمحتَ لي أن أبديَ رأيي فأنا أعتقد أن من حقك أنت وحدك أن تعيّن بوضوح التدابيرَ التي تراها ضرورية لإنهاء هذا الوضع.

فقاطعه الكسي الكسندروفتش:

ـ وهكذا، فأنت تقدّر أنه ينبغي الانتهاء من هذا الوضع.

وأضافَ وهو يحرّك يده أمام عينيه بحركة غير اعتيادية:

ـ لكنْ كيف؟ لستُ أرى مخرجاً ممكناً.

قال ستيڤان اركادييڤتش وهو ينهض ويَنْشط:

ـ لكل وضعٍ مخرجٌ. لقد جاء وقتٌ كنت تريد فيه الطلاق... فإذا كنتَ مقتنعاً الآن أنكما لا تستطيعان أن تسعدا باجتماعكما...

ـ يمكن أن نفهم السعادة بطرائق شتّى. لكنْ لنسلّمْ بأنني أقبل بكل شيء ولا أطلب شيئاً. فما المخرجُ الذي تراه لوضعنا؟

ابتسم ستيڤان اركادييڤتش تلك الابتسامة المسكينة التي اصطنعها وهو يخاطبُ آنا، ولقد بلغتْ هذه الابتسامةُ اللطيفةُ جداً من الإقناعُ حتى إن الكسي الكسندروفتش الشاعر بضعفه والخاضع لهذا الضعف، كان مستعداً، على نحوٍ غير إرادي، أن يصدّق كل ما سيقوله ستيڤان اركادييڤتش.

قال ستيڤان اركادييڤتش:

ـ أتريد رأيي؟ إنها لن تصارحكَ بلبّ فكرتها. لكنّ ما يمكن أن ترغب فيه هو إنهاء علاقاتكما وجميع الذكريات المتّصلة بها. برأيي أن من الضروري

إقامة علاقات جـديـدة بينكما. ولا يمكن أن يتمّ ذلك إلا إذا استردّ كل منكما حريّته

فقاطعه الكسي الكسندروفتش باشمئزاز:

ـ الطلاق...

أجاب ستيڤان اركادييڤتش وهو يحمرّ:

ـ نعم، أعتقد أن الطلاق... نعم، هو كذلك، الطلاق. فهو، من جميع الجوانب، أفضل حل بالنسبة إلى زوجين في مثل وضعكما. وما العمل، إذا كان الزوجان قد اكتشفا أن الحياة المشتركة مستحيلة؟ إن ذلك يمكن أن يقع دائماً.

زفر الكسي الكسندروفتش زفرة عميقة وأغمض عينيه.

قال ستيڤان اركادييڤتش الذي أخذ يتخلّص شيئاً فشيئاً من ارتباكه:

ـ ليس ها هنا سوى نقطة واحدة جديرة بالاعتبار: أيرغب أحد الزوجين في الزواج ثانية؟ وإلاَّ فالأمرُ بسيط.

هَمْهم الكسي الكسندروفتش بشيءٍ بينه وبين نفسه، وقد تشنّجتْ قسماتهُ من جرّاء الانفعال، ولم يجب. فكلُ ما كان يبدو لستيڤان اركادييڤتش بالغَ السهولة قد فكّر فيه هو آلاف المرات. ولم يبدُ له ذلك كله بالغ السهولة بل بدا مستحيلاً على الإطلاق. إن الطلاقَ الذي غدا يعرف شروطه بدا له غيرَ مقبول لأن شعوره بكرامته واحترامه للدين يمنعانه من اللجوء إلى الزنى الصوري، وبالأحرى، من قبوله إذلال امرأته التي أحبّها وغفر لها، بعار الجرم المشهود. وأخيراً استبعد الطلاق لأسبابٍ أخرى أوْجه مما سبق.

فماذا سيحلّ بابنه؟ لا مجال لتركه لأمه. ذلك أن هذه الأم المطلّقة ستنشىء أسرة غير شرعية يكون فيها وضعُ الولد حرجاً وتتعرض تربيته، على الأكثر، للخطر. أيحتفظ به؟ كان واثقاً من أن في ذلك انتقاماً من قبله، وهو يأبـى ذلك. ولكنْ، فضلاً عن ذلك، كان الطلاق يبدو له مستحيلاً، على الخصوص، لأنه إن

وافق عليه فهو يوافق بذلك نفسه على ضياع آنا. وما تزال حجةُ داريا الكسندروفنا منطبعةً في نفسه: إنه حين ينظرُ في الطلاق فهو يفكّر في نفسه ولا يخطر بباله أنه يقود آنا إلى الضياع. هذه الكلمات اتّحدت بصفحه، وبتعلّقه بالولدين، وهو يفهمها الآن بطريقته الخاصة. إن القبول بالطلاق، وردّ الحرية لآنا، إنّ ذلك يعني، في ذهنه، حرمانَ نفسه من آخر رابط يربطه بالحياة: من الولدين اللذين كان يحبهما، كما كان يعني سَحْبَ آخر سندٍ تستندُ إليه آنا على طريق الخير، وقذفها على طريق الهلاك. وهي عندما تُطلّق ستتّحد بفرونسكي، وستظل هذه العلاقةُ مجرمةً وغير شرعية، لأن الكنيسة لا تعترف لامرأة بالزواج ما دام الزوج حياً. وفكّر في نفسه: «ستتّحد به، وفي مدى سنة أو سنتين، إما أن تتركه وإما أن تُنشىء علاقة جديدة. فإذا وافقتُ على الطلاق فسوف أكون المسؤول عن ضياعها». لقد فكّر في ذلك مئات المرات وكان مقتنعاً بأن الطلاق ليس بسيطاً كما يزعم أخو زوجته بل إنه غيرُ مقبول. ولذلك لم يكن يؤمن بكلمة واحدة مما كان يقوله ستيڤان اركاديڤتش، وكان في جعبته ألفُ حجة ليدحضَ بها كل كلمة من كلماته، لكنه كان يصغي إليه، وهو يحسّ أن تلك القوة الغاشمةَ والجبارة التي كانت تقود حياته والتي سيخضع لها إنما تعبّر عن نفسها على لسان أخي زوجته.

ــ المسألةُ الوحيدة هي أن نعلم: بأي شروط ستوافقُ أنتَ على الطلاق. إنها لا ترغب في شيء، ولا تجرؤ على أن تسألك شيئاً، وهي تترك الأمر بكامله لكرمك.

قال الكسي الكسندروفتش في نفسه وهو يفكر بتفاصيل الزنى الصوري: «يا إلـٰهي! يا إلـٰهي! لمَ ذلك كله؟ وغطّى وجهه بيديه بمثل حركة فرونسكي عند سرير آنا.

ــ أنت متأثّرٌ، وأنا أفهم ذلك. لكنك لو فكرتَ. . .

وفكّر الكسي الكسندروفتش في نفسه: «من ضربكَ على خدّك الأيمن فأدر له خدّك الأيسر، من أخذ منك رداءَك فأعْطه قميصك»[1].

وهتف بصوت حاد:

ــ نعم، نعم! إني أرضى العار لنفسي، وأتخلّى عن ابني، لكن... أليس من الأفضل ترك ذلك؟ ومع ذلك، افعلْ كما تشاء...

وأشاح بوجهه بحيث لا يرى أخو زوجته هذا الوجه، وجلس على كرسي قرب النافذة. كان يتألم، ويعاني الخجل، لكن ذلك الألم وهذا الخجل امتزجا بالفرح والحنان أمام عظمة تواضعه.

تأثّر ستيڤان اركادييڤتش ولزمَ الصمت. ثم قال:

ــ الكسي الكسندروفتش، صدّقْني، أنها ستُكبر كرمَ نفسك. ولعل تلك هي مشيئة الله.

وبعد أن قال ذلك أحسّ أن ما قاله سخيف ولم يتمالك من الابتسام على حماقته ذاتها.

أراد الكسي الكسندروفتش أن يجيب لكن الدموع منعته من الكلام.

قال ستيڤان اركادييڤتش:

ــ هذه المصيبة قدرٌ محتوم، ينبغي الاعتراف بذلك. وأنا أعدّ هذه المصيبة أمراً واقعاً، وأسعى جهدي لمساعدتكما كليكما.

عندما خرج ستيڤان اركادييڤتش من مكتب زوج أخته، كان متأثراً، لكن ذلك لم يمنعْه من الشعور بالرضى عن أنه أنهى مشروعه بنجاح، لأنه كان مقتنعاً أن الكسي الكسندروفتش سيقفُ عند كلامه. وإلى هذا الرضى انضافتْ فكرةُ التورية التي سيعرضُها على زوجته وأصدقائه الخُلّص، وهي: «ما الفرق بيني وبين

(١) «من ضربك... قميصك»: كلمات يسوع في موعظة الجبل (متى ٥، ٣٩ ــ ٤٠؛ لوقا ٦، ٢٩).

المارشال؟ المارشال يَسْتعرض جنده فلا يُريح أحداً، وأنا استَعْرضتُ القضية فأرَحْتُ ثلاثةَ أشخاص»[1].

[٢٣]

كان جرحُ فرونسكي خطراً مع أنه لم يُصب القلب. وظلّ عدة أيام بين الحياة والموت، وعندما أصبح قادراً على الكلام لأول مرة، كانت فاريا زوجة أخيه وحدها في الغرفة. فقال لها وهو ينظر إليها نظرة جادّة:

ــ فاريا، لقد جُرحتُ مصادفةً. أرجوك، لا تتحدّثي أبداً عن ذلك، واروي هذه الرواية للناس جميعاً. فالأمرُ مضحكٌ جداً.

انحنتْ فاريا فوقه، دون أن تجيب، وتأمّلته بابتسامتها المشرقة. لم تكن عينا فرونسكي محمومتين، لكنهما كانتا تتلألأان، وكان تعبيرهما قاسياً.

قالت:

ــ الحمدُ لله! أنتَ لا تتألّم؟

ــ قليلاً هنا.

وأشار إلى صدره.

ــ دَعْني إذنْ أغيّر ضمادَكَ.

لم يفه بكلمة ونظر إليها، وهو يُقلّص وجنتيه العريضتين، بينما كانت تغيّر الضماد. وعندما انتهت، قال:

ــ إني لا أهْذي؛ تصرّفي بحيث لا يلغط الناس بذلك وبحيث لا يقولون: إنني أردت أن أقتل نفسي.

---

(١) المارشال يستعرض: هذه التورية مبنية على جناس لفظي لا يكاد يترجم: ذلك أن كلمة «رازفود» تعني الاستعراض والطلاق. فهي تستخدم بمعنى الاستعراض بالنسبة إلى المارشال، وبمعنى الطلاق بالنسبة إلى كارينين.

قالت له بابتسامة مستفهمة:

ــ لا أحد يقول هذا. لكني أرجو ألا تُجرحَ مصادفةً بعد الآن.

ــ لا، على الأرجح، لكنْ، كان الأفضل أن...

وابتسم وقد بدا عليه التجهّم.

وبالرغم من هذه الكلمات وتلك الابتسامة التي أرعبتْ فاريا، فقد أحسّ، عندما زال الالتهابُ وبدأ يتعافى، أنه تخلّص كلياً من شطرٍ من ألمه. ذلك أنه غسل بفعلته تلك عاره وذله، إن صحّ القول. وبوسعه الآن أن يفكّر في الكسي الكسندروفتش بهدوء. كان يقرّ بنبل نفسه من غير أن يُشعره ذلك بالحقارة. ثم إنه عاد إلى نهجه القديم، فرأى إمكان مواجهة الناس دون خجل، واستطاع أن يحيا، وأن يستأنف عاداته القديمة. أما الشعور الذي لم يستطع أن ينتزعه من قلبه، مع أنه قاومه باستمرار، فهو الندم الذي يبلغ حد اليأس، على فقدانه آنا إلى الأبد. لقد صمّم بحزم، الآن بعد أن كفّر عن خطيئته في نظر الزوج، أن يتخلّى عنها وألا يقف حائلاً بين آنا التائبة وزوجها؛ لكنه لم يستطع أن ينتزع من نفسه الندمَ على فقدانه حبّه، لم يستطع أن يمحو من خياله لحظات السعادة التي عرفها معها، والتي لم يقدّرها حقّ قدرها آنذاك والتي غدتْ تلاحقُه بكل ما فيها من عذوبة.

عرض عليه سيربوكوفوسكوي مهمةً في طاشقند، فقبلها فرونسكي دون تردد. لكنه كان كلما اقترب موعدُ السفر اشتدّتْ عليه وطأةُ التضحية التي كان يبذلها لما خُيِّل إليه أنه الواجب.

اندمل الجرحُ وبدأ يخرج استعداداً للسفر.

وفكّر في نفسه: «ليتني أراها مرة واحدة أيضاً، ثم أدفن نفسي وأموت»!.
وأثناء زيارته لوداع بيتسي أطلعها على رغبته هذه. وسرعان ما ذهبت بيتسي رسولة إلى آنا وحملت إليه جواباً سلبياً.

وفكّر فرونسكي وهو يطّلع على النبأ. «أحسنُ. كان ذلك ضعفاً سيسلبني آخر قواي».

وفي صباح اليوم التالي، حضرتْ بيتسي بذاتها إلى منزله وأنبأته بأنها تلقّت من اوبلونسكي تأكيداً صريحاً بأن الكسي الكسندروفتش وافق على الطلاق، ومن ثمّ، فإن فرونسكي يستطيع أن يرى آنا.

نسي فرونسكي قراراته كلها، وذهب إلى منزل آل كارينين، دون أن يهتم بتوديع بيتسي، ودون أن يسأل متى يمكن ذلك وأين الزوج. وصعد الدرج أربعاً فأربعاً، دون أن يرى شيئاً، ودخل غرفة آنا، بخطوات حثيثة، وهو لا يكاد يمنع نفسه من العدو. وأخذها بين ذراعيه، من غير أن يفكر أو ينظر إن كانت وحدها أم لا في الغرفة، وغطّى بالقبلات وجهَها ويديها وعنقَها.

كانت آنا قد هيأت نفسها للقائه، وفكّرت فيما ستقوله له، لكنْ لم يتسنَّ لها أن تقول شيئاً: ذلك أن احتدام فرونسكي غلبها على أمرها. أرادت أن تهدّئه وتهدّىء نفسها، لكنْ، كان الأوان قد فات. إذ أن هذه العاطفة المضطرمة استبدّت بها، وأخذتْ شفتاها ترتجفان زمناً طويلاً لم تستطع أن تقول فيه كلمةً واحدة.

قالت، آخر الأمر، وهي تضغط بيدي صديقها على صدرها:

ـــ نعم، لقد غلبتْني، أنا لكَ.

قال:

ـــ لا بدّ أن يكون الأمرُ كذلك. وسيكون كذلك ما عشنا. أنا على يقين من ذلك الآن.

قالت وقد أخذت تشحب، وهي تطوّقُ بذراعيها رأس فرونسكي:

ـــ صحيح. ومع ذلك فإن في ذلك كله شيئاً مروّعاً، بعد أن وقع ما وقع.

فأجاب وهو يرفع رأسه ويكشف من خلال ابتسامته عن أسنانه المنتظمة:

ـ كل ذلك لن يدوم، كل ذلك لن يدوم، وسنكون سعيدين جداً! وسيكبرُ حبُّنا ـ إن أمكنه أن يكبر ـ لأنه يحتوي على شيء مروّع.

فلم يسعها إلا أن تردّ بابتسامة... على عينيه المولّهتين لا على كلماته. وأخذت يده فمرّرتها على خديها الباردين وعلى شعرها القصير:

ـ لستُ أعرفك. بهذا الشعر القصير! لكم صرتِ أجمل! مثل فتى صغير. لكنك شاحبةٌ جداً!

قالت وهي تبتسم:

ـ نعم، أنا ضعيفة.

وأخذت شفتاها ترتجفان.

قال لها:

ـ سنذهب إلى إيطاليا وسوف تتعافيْن.

قالت وهي تنظر إليه في عينيه:

ـ أيمكن أن نغدو زوجين، وحدنا.

ـ ما يدهشني هو أن الأمر لم يكن كذلك.

قالت وهي تنظر في الفراغ ساهمه:

ـ قال ستيڤا: إنه وافق على كل شيء. لكني لا أستطيع أن أقبل كرمه. لا أريدُ الطلاق، ولستُ أبالي بشيء الآن. بيد أني أجهل ما الذي قرّره بشأن سيرج.

لم يفهم كيف أنها لم تستطعْ، في أول لحظة من اجتماعهما، إلا أن تفكر في ابنها وفي الطلاق. أليست تُبالي بذلك كله؟

قال لها وهو يدير يده في يدها، ويحاول أن يجتذب انتباهها، من غير أن يُفلح في انتزاعها من شرودها:

ـ دعي الكلام على ذلك الآن، ودعي التفكير فيه.

قالت وقد هَمتِ الدموعُ من عينيها بصمتٍ على طول خدّيها:

ــ آه! لماذا لم أمتْ؟ كان ذلك أفضل.

بيد أنها حاولت أن تبتسمَ لكي لا تُحزنه.

كان فرونسكي قديماً سيجد من الشائن وغير المقبول أن يتنصّل من مهمة طاشقند، وهي مهمة مُرْضيةٌ للغرور، محفوفةٌ بالمخاطر. أما الآن فقد رفضها، دون أن يفكر دقيقة واحدةً في ذلك، وعندما لاحظ أن الجهات العليا استاءَت من هذا الرفض تقاعد في الحال.

بعد شهر من ذلك، بقي الكسي الكسندروفتش وحده مع ابنه في شقته، بينما سافرت آنا إلى الخارج مع فرونسكي رافضةً الطلاقَ.

• • •

خلاصة الفصول

الفصل	الصفحة

الجزء الأول

الفصل	الصفحة

الجزء الثاني

الفصل	الصفحة

الفصل	الصفحة

الجزء الثالث

الفصل	الصفحة

الفصل	الصفحة

الجزء الرابع

الفصل	الصفحة

• • •



